

تصوير أبو عبيد الرحمن الكروبي

تفسير
القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

الدكتور الحافظ ابن كثير الدمشقي

تتبعني
عبد الرزاق المحمدي

المجلد الرابع
سورة الحجر - سورة النمل

دار الكتب العربية

بغداد - لبنان

تفسير القرآن العظيم

(تفسير ابن كثير)

للمام المحافظ أبي الفداء إسماعيل
ابن كثير القرشي الدمشقي
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق
عبد الرزاق الهادي

المجلد الرابع
سورة الحجر - سورة النمل

الناشر
دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)

1432 هـ - 2011 م

ISBN: 978-9953-27-015-9

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب. أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع،
أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير
أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماتاً.



9 789953 270159

الناشر

دار الكتاب العربي

العنوان : بيروت - شارع قردان - بناية بنك بيبيلوس - الطابق الثامن

ص.ب. : 11-5769 بيروت 1107 2200 لبنان

هاتف : 861178 - 862905 - 800811 - 800832 (+9611)

فاكس : 805478 (+9611) بريد إلكتروني daralkitab@idm.net.lb

www.dar-alkitab-alarabi.com

مواقعنا:

www.academiainternational.com



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّءِئِكَ مَا يَنْتُ الْكِتَابَ وَقُرْآنَ ثُبِينِ ﴿١﴾ ثُبِيًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ
يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

قد تقدّم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله: ﴿ثُبِيًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، إخبار عنهم أنهم سيُندمُون على ما كانوا فيه من الكفر، ويَتَمَنُّون لو كانوا مع المسلمين في الدنيا. ونُقِلَ السُّدِّي في تفسيره بسنِّه المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أنَّ الكُفَّار لما عَرَضُوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: المراد أن كل كافر يَوْدُ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ وَفَّقُوا عَلَى الْكَافِرِ فَقَالُوا يَلَيْسَ لَنَا نَصْرٌ وَلَا نَكُونُ يَكُونُ مِنَّا وَلَا يَكُونُ مِنَّا﴾ [الأنعام: ٢٧]. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله في قوله: ﴿ثُبِيًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، قال: هذا في الجَهَنَّمِيِّينَ إِذْ رَأَوْهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ. وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي المثنى، حَدَّثَنَا مسلم، حَدَّثَنَا القاسم، حَدَّثَنَا ابن أبي فَرْوَةَ العَبْدِيُّ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَنَسَ بْنَ مَالِكٍ كَانَا يَتَأَوَّلَانِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ثُبِيًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، يَتَأَوَّلَانِهَا يَوْمَ يَحْبِسُ اللَّهُ أَهْلَ الْخَطَايَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي النَّارِ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُمُ الْمُشْرِكُونَ: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا. قَالَ: فَيَغْضَبُ اللَّهُ لَهُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ فَيُخْرِجُهُمْ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُبِيًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وقال عبد الرزاق: أَخْبَرَنَا الثوري، عن حماد، عن إبراهيم - وعن خُصَيْف، عن مجاهد قال: يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ لِلْمُؤْمِنِينَ: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِيمَانُكُمْ؟ فَلِذَا قَالُوا ذَلِكَ قَالَ: أَخْرَجُوا مِنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وهكذا رَوَى عَنْ الضَّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَغَيْرِهِمْ. وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثٌ مَرْفُوعَةٌ.

[٤٠٣٥] فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حَدَّثَنَا محمد بن العباس - هو الأخرم -، حَدَّثَنَا محمد بن منصور الطوسي، حَدَّثَنَا صالح بن إسحاق الجهدي - دُلِّيَ عَلَيْهِ بِحُجِّي بْنِ مَعِينٍ ^(١) - حَدَّثَنَا مُعَرِّفُ بْنُ وَاصِلٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ أَبِي نَبَاتَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ نَاسًا مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ اللَّائِي وَالْعَزَى: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ قَوْلُكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ! فَيَغْضَبُ اللَّهُ لَهُمْ فَيُخْرِجُهُمْ فَيُلْقِيَهُمْ فِي شَرِّ الْحَيَاةِ، فَيَبْرُؤُونَ مِنْ حَرْقِهِمْ كَمَا

(١) وقع في بعض الطبقات «الجهدي» - رأى عليه بن موسى - وفي بعض «الجهدي» - وابن علي بن يحيى بن موسى - والمثبت عن

يَبْرَأَ الْقَمَرُ مِنْ خُسُوفِهِ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَيَسْمُونَ فِيهَا الْجَهَنَّمِيِّينَ» فقال رجلٌ: يا أنس، أنت سمعتَ هذا من رسولِ الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». نعم، أنا سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول هذا^(١). ثم قال الطبراني: تفرد به الجُهَيْدِيُّ.

[٤٠٣٦] الحديث الثاني: وقال الطبراني أيضاً: حدثنا عبدُ الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء علي بن الحسين الواسطي، حدثنا خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بُرْدَةَ، عن أبيه، عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، وَمَعَهُمْ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ، قَالَ الْكَفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ: أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالُوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ الْإِسْلَامُ فَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ! قَالُوا: كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأَخَذَنَا بِهَا. فَسَمِعَ اللَّهُ مَا قَالُوا، فَأَمَرَ بِمَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ فَأَخْرِجُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْ بَقِي مِنَ الْكَفَّارِ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَتُخْرِجُ كَمَا خَرَجُوا. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، «الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنِ الثِّبِينِ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، عَوْضُ الاستعاذة^(٢).

[٤٠٣٧] الحديث الثالث: وقال الطبراني أيضاً: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبي أسامة: أحدثكم أبو زوق - واسمه عطية بن الحارث - : حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ أَبِي طَرِيفٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِي فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾»؟ قَالَ: نعم، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يُخْرِجُ اللَّهُ نَاسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا يَأْخُذُ بِقَمَّتِهِ مِنْهُمْ»، وقال: «لَمَّا أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ النَّارَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ قَالَ لَهُمُ الْمُشْرِكُونَ: تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، فَمَا بِالْكُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ فَإِذَا سَمِعَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَذَّنَ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ فَتَشَفَّعَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ، وَشَفَّعَ الْمُؤْمِنُونَ، حَتَّى يَخْرُجُوا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَى الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ فَتَدْرِكُنَا الشَّفَاعَةُ فَتُخْرِجُ مِنْهُمْ». قَالَ: «فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ «رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾»، فَيُسْمُونَ فِي الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ، مِنْ أَجْلِ سَوَادٍ فِي وُجُوهِهِمْ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، أَذْهَبَ عَنَّا هَذَا الْاسْمُ. فَيَأْمُرُهُمْ فَيَغْتَسِلُونَ فِي نَهْرِ الْجَنَّةِ، فَيَذْهَبُ ذَلِكَ الْاسْمُ عَنْهُمْ». فَأَقْرَبَهُ أَبُو أُسَامَةَ، وَقَالَ: نعم^(٣).

[٤٠٣٨] الحديث الرابع: وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد الثُّرَيْسِيُّ، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثني اليمان بن يزيد، عن محمد بن جبر، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رَكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى عُنُقِهِ، عَلَى قَدَرِ ذُنُوبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْكُثُ فِيهَا شَهْرًا ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْكُثُ فِيهَا سَنَةً ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهَا، وَأَطْوَلُهُمْ فِيهَا مُكْثًا بِقَدْرِ الدُّنْيَا مِنْذُ يَوْمِ خُلِقَتْ إِلَى أَنْ تَفْتَنَ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٧٢٨٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٣٣: فيه من لم أعرفهم أه، فيه غير واحد من المجاهيل، وأمانة الوهن ظاهرة على هذا المتن، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» ٨٤٣ والطبراني كما في «المجمع» ١١١٠٤، وفيه خالد بن نافع قال الهيثمي: قال أبو داود: خالد بن نافع الأشعري متروك قال الذهبي: هذا تجاوز في الحد، فلا يستحق الترك فقد حدث عنه أحمد وغيره أه وله شواهد تقويه انظر السنة لابن أبي عاصم ٨٤٤، وكذا ما بعده.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨١٠٦ وإسناده ضعيف لجهالة صالح بن أبي طريف.

يخرجون منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان، لمن في النار من أهل التوحيد: أنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين في الجنة، وهو قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَشَتَّعُوا﴾، تهديد لهم شديد ووعد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَسْعُوا فَإِنَّ مَعِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَشَبَّهُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ الْأَمَلُ﴾، أي: عن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (٢) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أَمْرٍ أَجَلًا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ﴾ (٣)

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتعقدون عن مذنبهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك.

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٤) ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥) ﴿مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ (٦) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ (٧)

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾، أي: الذي يدعي ذلك: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لَوْ مَا﴾، أي: هلاً. ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ﴾، أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُ رَبِّهِ أَوْ هَآؤُلَآئِ مِنْ دُونِ آيَاتِهِ لَفُتِنَ بِهِمْ أَوْ يَرْتَوْنَ لِقَاءَهُ نَارًا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ أَوْ رَأَىٰ رَبَّهُمْ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٨) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ جِبَرًا مُنْجَرًا﴾ (٩) ﴿الفرقان: ٢١، ٢٢﴾. وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ (١٠). وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: بالرسالة والعذاب. ثم قرأ تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَحْطُطُوا﴾، على النبي ﷺ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. والمعنى الأول، وهو ظاهر السياق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٢) ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٤)

يقول تعالى مسلماً لرسوله في تكذيب من كذب من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به. ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس، والحسن البصري: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٥)، يعني

(١) إسناده ضعيف، علي بن الحسين - زين العابدين - لم يدرك جده علياً، فهو منقطع، وفي الإسناد مجاهيل. لكن لبعض شواهد، والله أعلم.

الشرك. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَ سُوءَ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رُسُلَه من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يُخبر تعالى عن قُوَّة كُفْرهم وعِنَادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، قال مجاهد، وابن كثير، والضحاك: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا. وقال قتادة، عن ابن عباس: أُخِذَتْ أَبْصَارُنَا. وقال العوفي، عن ابن عباس: شُبِّهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّمَا سُحِرْنَا. وقال الكلبي: عَمِيَتْ أَبْصَارُنَا. وقال ابن زيد: ﴿سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، السكران الذي لا يعقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعْيِشَ وَمَنْ لَّكُم مِّنْ يَّرْزُقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يذكرُ تعالى خَلْقَه السماء في ارتفاعها وما زَيَّنَّها به مِنْ الكَوَاكِبِ الثَّوَابِقِ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا وَكَرَّرَ النَّظَرَ فِيهَا يَرَى فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ والآياتِ البَاهِرَاتِ مَا يَحَارُّ نَظْرُهُ فِيهِ. ولهذا قال مجاهد، وقاتادة: البروجُ ها هنا هي الكواكب، قلت: وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرْمِيًا وَكَوْمَرًا مَّوْبِقًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر. وقال عطية العوفي: البروج ها هنا هي قُصُور فِيهَا الْحَرَس. وجعل الشهب حرساً لها من مَرَدَةِ الشَّيَاطِينِ لئلا يَسْمَعُوا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فَمَنْ تَمَرَّدَ مِنْهُمْ لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ جَاءَهُ ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سَمِعَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ الشَّهَابُ إِلَى الَّذِي هُوَ دُونَهُ، فَيَأْخُذُهَا الْآخَرُ، وَيَأْتِي بِهَا إِلَى وَلِيِّهِ، كَمَا جَاءَ مُصَرِّحاً بِهِ فِي الصَّحِيحِ.

[٤٠٣٩] قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ»، قال علي: وقال غيره: صَفْوَانٌ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُوا السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُوا السَّمْعِ، هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ - وَوَصَفَ سَفِيَانٌ بِيَدِهِ، فَفَرَجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ - فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيَحْرِقُهَا، وَرُبَّمَا لَمْ يَدْرِكَهَا حَتَّى يَرْمِيَهَا بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ، حَتَّى يَلْقَوْهَا إِلَى الْأَرْضِ. وَرُبَّمَا قَالَ سَفِيَانٌ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ - أَوْ: الْكَاهِنِ - فَيَكْذِبُ مَعَهَا مَثَلَهُ كَذِبُهُ، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يَخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا بِكَوْنِ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ^(١).

ثم ذكر تعالى خَلْقَه الْأَرْضَ، وَمَدَّه إِيَّاهَا وَتَوَسَّعَهَا وَبَسَطَهَا، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي، وَالْأَوْدِيَةِ وَالْأَرَاضِي وَالرَّمَالِ، وَمَا أَنْبَتَ فِيهَا مِنَ الزَّرْعِ وَالشُّمَارِ الْمُنْتَسَابَةِ. وقال ابن عباس: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

تُورُونَ، أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن عتيبة، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وقتادة. ومنهم من يقول: مُقَدَّرٌ بِقَدَرٍ. وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَنُ وَيُقَدَّرُ بِقَدَرٍ، وقال ابن زيد: ما تَزَنَهُ الأسواقي. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً وَمَنْ لَكُمْ بِرِزْقِنَا﴾، يذكر تعالى أنه صَرَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِي صُنُوفِ الْأَسْبَابِ وَالْمَعَايِشِ، وهي جَمْعُ مَعِيشَةٍ. وقوله: ﴿وَمَنْ لَكُمْ بِرِزْقِنَا﴾، قال مجاهد: وهي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام. والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ حَرَابًا وَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِرِزْقِنَا (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْأُسْتَقْدِيمَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْأُسْتَخْرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

يُخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما لهُ في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جحيفة، عن عبد الله: ما من عام بمطر من عام، ولكن الله يقسمه بينهم حيث شاء، عاماً ههنا، و عاماً ها هنا ثم قرأ: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١). ورواه ابن جرير. وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنا هشيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عتيبة في قوله: ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، قال: ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يُنْطَرُ قَوْمٌ وَيُحْرَمُ آخَرُونَ، وربما كان في البحر. قال: وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ يَنْزِلُ مَعَ الْمَطَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ وَلَدِ إِبْلِيسَ وَلَدِ آدَمَ، يُحْصُونَ كُلَّ قَطْرَةٍ حَيْثُ تَقَعُ وَمَا تُثَبِّتُ.

[٤٠٤٠] وقال البزّاز: حدثنا داود - وهو ابن بكر الشّسّري - حدثنا حيّان بن أغلب بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان»^(١). ثم قال: لا يزويه إلا أغلب، ولم يكن بالقوي، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه. وقوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾، أي: ثَلَجَ السحاب قُدْرُ ماء، وَثَلَجَ الشجر فَتَفَتَّحَ عن أوراقها وأكمامها. هذه الرياح ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفرداها ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، لأنه لا يكون إلا من شيتين فصاعداً.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السّكن، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾، قال: تُرْسَلُ الرِّيحُ فَتَحْمِلُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَمْرِي السَّحَابَ، حَتَّى تَذِرَ كَمَا تَذِرُ

(١) إسناده ضعيف جداً. فيه أغلب بن تميم، ذكره الذهبي في «الميزان» ١٠٢١ فقال: قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال ابن حبان: خرج عن حد الاحتجاج به لكثرة خطئه، أهد واكتفى البزار بقوله: ليس بالقوي، والصواب أنه ضعيف جداً.

اللَّيْقَةِ. وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادة. وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتلقحها، فيمتلئ ماء. وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المباشرة فتقوم الأرض قمًا، ثم يبعث الله المباشرة فتشتر السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتولف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾.

[٤٠٤١] وقد روى ابن جرير، من حديث عبيس بن ميمون، عن أبي المهزم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح، وهي التي ذكر الله في كتابه، وفيها منافع للناس^(١)». وهذا إسناد ضعيف.

[٤٠٤٢] وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيد بن جعدة الليثي: أنه سمع عبد الرحمن بن مخرق يحدّث عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح سبع سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتّح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأزيب وهي فيكم الجنوب^(٢)».

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَكَّبُوا﴾: أي: أنزلناه لكم عذاباً يمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجاً. كما يُنبّه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ هُوَ أَنْزَلَهُ ﴿٧٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْتَهُ أَجَالاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠]، وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَشْتَرُ لَكُمْ بِحَدِيثَيْنِ﴾، قال سفيان الثوري: بمانعين. ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعل ميعناً وتنايب في الأرض ولو شاء تعالى لأغازه وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذاباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويستقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ وَنُثِيبُ﴾، إخبار عن قدرته تعالى على بذل الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع. وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْرِينَ ﴿١٤﴾﴾، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: المستقديون: كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون: من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة. وروي نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبي، وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل، عن مزوان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْرِينَ ﴿٢١﴾﴾. وقد ورد في هذا حديث غريب جداً:

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢١١٠٩ و ٢١١١٠، فيه أبو المهزم يزيد بن سفيان متروك، وعنه عبيس بن ميمون، وهو متروك أيضاً. والأشبه في هذا الوقف.

(٢) وإبصرة. أخرجه البزار ٢٠٨٨ بهذا الإسناد، قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٣٨٠: فيه يزيد بن عياض بن جعدة، وهو كذاب.

[٤٠٤٣] فقال ابن جرير: حدثني محمد بن موسى الحرشي، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كانت تُصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امرأة حسناء، قال ابن عباس: لا والله ما إن رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا - يعني إيثلاً يروها - وبعض يستأجرون، فإذا سجدنا نظروا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلْمُسْتَقِيرِينَ﴾ (١). وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره، ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما، وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحُدَاني، وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وخُكي عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم، وأهل السنن. وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو الثوري: أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلْمُسْتَقِيرِينَ مِنْكُمْ﴾، في الصفوف في الصلاة ﴿لَلْمُسْتَقِيرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر. وقد قال الترمذي: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس، والله أعلم. وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلْمُسْتَقِيرِينَ مِنْكُمْ﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلْمُسْتَقِيرِينَ﴾ (٢)، وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلْمُسْتَقِيرِينَ مِنْكُمْ﴾: الميت والمقتول، و﴿لَلْمُسْتَقِيرِينَ﴾: من يخلق بعد، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عِلِيمٌ﴾ (٣). فقال عون بن عبد الله: وثَّقَ الله وجَزَاكَ خيراً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٤) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٥)

قال ابن عباس: ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال ما هنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٦) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ (٧) [الرحمن: ١٤، ١٥]. وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: الممتن. وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾، أي: الصلصال من حملاً، وهو: الطين، والمسنون الأملس، كما قال الشاعر:

ثُمَّ خَاصَرْتَهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرِ
رَأَى تَمْشِي فِي مَزْمَرٍ مَسْنُونٍ

أي: أملس صقيل. ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو الممتن. وقيل: المراد بالمسنون ما هنا المصبوب. وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل الإنسان، ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾. قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل. وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار. وقال أبو داود

(١) منكر. أخرجه الترمذي ٣١٢٢ والنسائي ١١٢٧٣ «كبرى» وابن ماجه ١٠٤/٦ والحاكم ٣٥٣/٢ والطبراني ١٧١/٢ والواحد ٥٥٢، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأعله الترمذي بالإرسال، وقال: هو أصح أهل رجاله رجال مسلم، لكن المتن غريب ونوح بن قيس فيه كلام وإن روي له مسلم، وخالفه جعفر بن سليمان، فرواه عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء من قوله، وليس فيه القصة، وإنما فسر معنى الآية فقط، وهذا في تفسير عبد الرزاق ١٤٤٥ والطبري ٢١١٣٥. وما يدل على ومن خبر ابن عباس هو أن الطبري اختار من قال «المتقدمين» الأموات من بني آدم. و«المستأخرين» هم الأحياء ومن سيأتي أه وأسنده ٢١١١٢ و ٢١١١٣ و ٢١١١٤ من طرق عن عكرمة. و ٢١١١٥ عن محمد بن القرظي وينحوه ٢١١١٦ عن قتادة و ٢١١١٧ عن مجاهد، و ٢١١١٨ عن ابن عباس و ٢١١١٩ عن قتادة و ٢٢١١٢٢ عن الضحاك وروايات كثيرة في ذلك عن التابعين، وهذا يتبين من الحديث الذي ورد عن ابن عباس، ويدل على صحة ما ورد عن أئمة التفسير الآية المتقدمة، والآية التي بعدها، والله أعلم.

الطَيَّالْسِيُّ: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السُّمُومُ جزءٌ من سبعين جزءاً من السموم التي خُلِقَ منها الجانُّ، ثم قرأ: ﴿وَلَمَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قُلٍّ مِنْ نَّارِ السُّمُورِ (٢٧)﴾. وعن ابن عباس: أن الجانَّ خُلِقَ من لَهَبِ النار، وفي رواية: من أحسن النار. وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس.

[٤٠٤٤] وقد وَرَدَ في الصحيح: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَتِ الجانُّ من مارج من نار، وخُلِقَ بنو آدم مما وُصِفَ لكم»^(١). ومقصود الآية التنبيه على شَرَفِ آدم عليه السلام، وطيبِ عُنصره، وطهارة مَخْيَدِهِ^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَبْنَئُ إِبْلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٣٣)﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إيَّاه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآتِيَنَّكَ دُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. وقد رَوَى ابن جرير ها هنا أثراً غريباً عجيباً، من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له. فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال لهم مثل ذلك فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له. فقالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين. وفي ثبوت هذا عنه بُعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملائكة الأعلى، وأنه «رَجِيمٌ»، أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به، لاحقاً له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، وزن رثته، فكل رثته في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم. وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له سأل من تمام

(١) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية ١٢.

(٢) المحدث: الأصل والجوهر.

خَسَدَهُ لَادَمَ وَذُرِّيَّتَهُ النَّظْرَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَوْمَ الْبَعْثِ، وَأَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً لَهُ وَإِمَاهِالاً، فَلَمَّا تَحَقَّقَ النَّظْرَةَ - قُبِحَ اللَّهُ - .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَوَيْتُنِي لِأَرْتِنَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠)
 ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢)
 ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٤٤)

يقول تعالى مُخْبِراً عن إبليس وتمرده وعُتُوّه أنه قال للرب: ﴿يَا أَخَوَيْتَنِي﴾، قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له. قلت: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ بِسَبَبِ مَا أَخَوَيْتَنِي وَأَضَلَلْتَنِي ﴿لَأَرْتِنَنَّهُمْ﴾، أي: لذريّة آدَمَ عليه السلام. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأوزهم إليها وأزعجهم إزعاجاً، ﴿وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كما أَخَوَيْتَنِي وَقَدَّرْتُ عَلَيَّ ذَلِكَ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠)، كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُفْرِتَنِي إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَحْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. قال الله تعالى له مُتَهَدِّداً وَمُتَوَعِّداً: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: مرجعكم كُلُّكُمْ إِلَيَّ، فَأَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وَإِلَيْهِ تُنْتَهِي. قاله مجاهد، والحسن، وقناة، كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصَدَّقَ الشَّكِيلُ﴾ [النحل: ٩]. وقرأ قيس بن عباد، ومحمد بن سيرين، وقناة: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، كقوله: ﴿وَلَا تُفِرُّ فِي أَرْ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَّيْ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي: رفيع. والمشهور القراءة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، أي: الذين قدرْتُ لهم الهداية فلا سبيلَ لك عليهم، ولا وصولَ لك إليهم. ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، استثناء منقطع. وقد أورد ابن جرير ها هنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن مَوْهَبٍ، حدثنا يزيد بن قُسيط قال: كانت الأنبياء يكونُ لهم مساجدُ خارجةٌ من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبيه ربه عن شيء خَرَجَ إلى مسجده فَصَلَّى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبي في مسجده إذ جاء عدو الله - يعني إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم. فقال عدو الله: أرايت الذي تَعَوَّذُ منه؟ فَهُوَ هُوَ. فقال النبي: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم. قال: فَرَدَّدَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فقال عدو الله: أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَنْجُو مِنِّي؟ فقال النبي: بل أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ؟ مرتين، فأخذ كُلُّ واحدٍ منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. قال عدو الله: قد سَمِعْتَ هذا قبل أن تولد. قال النبي ويقول الله تعالى ذكره: ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإني والله ما أَحْسَسْتُ بِكَ قَطُّ إِلَّا اسْتَعِذْتُ بِاللَّهِ مِنْكَ. قال عدو الله: صدقت، بهذا تَنْجُو مِنِّي. فقال النبي: أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ؟ قال: آخُذْهُ عِنْدَ الْعُضْبِ وَالْهَوَى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: جهنم موعِدُ جميع من اتَّبَعَ إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْثُرْ يَوْمَ مِنَ الْأَخْزَابِ فَالْأَثَارُ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧]. ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾، أي: قد كُتِبَ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا جُزْءٌ من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيدَ لهم عنه - أجازنا الله منها - وكلُّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقر في ذَرَكٍ بقدرِ فعلِهِ. قال إسماعيل ابن عُليّة وشعبة كلاهما عن أبي هارون الغنوي، عن جَطَّانَ بن عبد الله أنه قال: سمعتُ علي بن أبي طالب وهو

يخطبُ قال: إن أبواب جهنم هكذا. قال أبو هارون: أطباقاً بعضها فوق بعض. وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هبيرة بن يريم، عن عليّ - رضي الله عنه - قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلىء الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تملأ كلها. وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق. وقال ابن جريج: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. ورَوَى الضحّاك، عن ابن عباس نُحْوَهُ. وكذا رَوَى عن الأعمش بنحوه أيضاً. وقال قتادة: ﴿لَمَّا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٤٤)، هي والله منازل بأعمالهم. رواه ابن جرير. وقال جويبر، عن الضحّاك: ﴿لَمَّا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٤٤)، قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس. وباب للذين أشركوا - وهم كفار العرب - وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرْجَى لَهُمْ ولا يُرْجَى لأولئك أبداً.

[٤٠٤٥] وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مغول، عن جُنَيْد، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «الْجَهَنَّمُ أَبْوَابٌ: بَابٌ مِنْهَا لِمَنْ سَلَّ السِّيفَ عَلَى أَمْتِي، أَوْ قَالَ: عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ» (١). ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول.

[٤٠٤٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد - يعني ابن يحيى - حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي نُضْرَةَ، عن سُمُرَةَ بن جُنْدَب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ - قال: إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى خُجْرَتِهِ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازل بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٢).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥) أَذْلَوْهَا يَسْلَوْنَ ءَامِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبَتْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْآلِيمُ (٥٠)

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جناتٍ وعُيون. وقوله: ﴿أَذْلَوْهَا يَسْلَوْنَ﴾، أي: سألهم من الآفات، مسلماً عليكم، ﴿ءَامِينَ﴾ أي من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء. وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧)، روى القاسم، عن أبي أمامة قال: يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّعْنَاءِ وَالضَّغَائِنِ، حَتَّى إِذَا تَوَافَوْا وَتَقَابَلُوا نَزَعَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ غِلٍّ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾. هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف. وقد رَوَى سُنيْدٌ في تفسيره: حدثنا ابن

(١) أخرجه الترمذي ٣١٢٣ والبخاري في تاريخه ٢٣٥/٢/١، وضعفه الترمذي بقوله: غريب. لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول أهد، وجاء في تهذيب التهذيب: جنيد غير منسوب عن ابن عمر قال أبو حاتم: حديثه عن ابن عمر مرسل. وذكره ابن حبان في الثقات أهد فالخير منقطع، وقد تفرد ابن حبان بتوثيقه.

(٢) إسناده ضعيف، فيه عباس بن الوليد بن صُبْح، قال أبو حاتم: شيخ - يكتب حديثه - وقال أبو داود: لا أحدث عنه. راجع الميزان ٤١٨٥.

فضالة، عن لقمان، عن أبي أمامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدره من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري.

[٤٠٤٧] وهذا موافق لما في الصحيح، من رواية قتادة: حدثنا أبو المتوكل الناجي: أن أبا سعيد الخدري حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيُخَبَّسُونَ على قنطرة بين الجنة والنار، فيَقْتَصَّرُ لبعضهم من بعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة»^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: استأذن الأشر على علي - رضي الله عنه - وعنده ابن طلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٢).

وقال ابن جرير أيضاً حدثنا الحسن بن محمد: حدثنا أبو معاوية الضري، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن أبي حبيبة - مولى لطلحة - قال: دخل عمران بن طلحة على علي - رضي الله عنه - بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٣). قال: ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقال: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً! فقال علي - رضي الله عنه -: قوماً أبعد أرض وأسحقها! فمن هم إذا إن لم أكن أنا وطلحة؟! وذكر أبو معاوية الحديث بطوله. وروى وكيع، عن أبان بن عبد الله البجلي، عن نعيم بن أبي هند، عن ربيعة بن حراش، عن علي، نحوه، وقال فيه: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تذهذه لها، ثم قال: إذا لم تكن نحن فمن هم؟!^(٤)

وقال سعيد بن مسروق، عن أبي طلحة - وذكره - وفيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه علي - رضي الله عنه - فضربه بشيء كان في يده في رأسه، وقال: فمن هم يا أعور إذا لم تكن نحن؟! وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي - رضي الله عنه - فحجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفؤهم. فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٥). وكذا روى الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي، بنحوه. وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبي موسى، سمع الحسن البصري يقول: قال علي: فينا واللّه - أهل بدر - نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٦). وقال كثير التواء: دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت: وليي وليكم، وسليمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحزبي حزبك. إني أسألك بالله: أتبزا من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ ضَلَّكَ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تولهما يا كثير، فما أدركك فهو في رقبتك هذه. ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٧)، قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٨)، قال: هم عشرة:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٠ وأحمد ١٣/٣ وقد تقدم في سورة الأعراف عند الآية: ٤٣.

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم أجمعين. وقوله: ﴿مُنْقَلِبِينَ﴾ - قال مجاهد - لا ينظر بعضهم في قفا بعض. وفيه حديث مرفوع:

[٤٠٤٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شريحيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خَرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إِخْرَجْنَا عَنْ سُرُرِ مُنْقَلِبِينَ﴾ المتحابون في الله، ينظر بعضهم إلى بعض^(١). وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾، يعني المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين:

[٤٠٤٩] «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبَشِّرَ خَدِيجَةَ ببيت في الجنة من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبٍ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِتَنَاهَا بِسُحُورٍ﴾، كما جاء في الحديث:

[٤٠٥٠] «يَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنْ لَكُمْ أَنْ تَصُحُّوا فَلَا تَمْرُضُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَطْعَنُوا أَبَدًا»^(٣). وقال الله تعالى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَتَّبِعُونَ عَنَّا جَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]. وقوله: ﴿نِعْمَ عِبَادِي إِنَّهُ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْآلِيمُ [٤٢]، أي: أخبر - يا محمد - عبادي أنني ذو رحمة وذو عقاب أليم. وقد تقدّم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامَي الرجاء والخوف.

[٤٠٥١] وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة، عن مصعب بن ثابت قال: مرَّ رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذْكُرُوا الْجَنَّةَ، واذْكُرُوا النَّارَ». فنزلت: ﴿نِعْمَ عِبَادِي إِنَّهُ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْآلِيمُ [٤٢]، رواه ابن أبي حاتم. وهو مرسل.

[٤٠٥٢] وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مُصْعَبُ بْنُ ثَابِتٍ، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طَلَعَ علينا رسولُ الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبَةَ، فقال: «أَلَا أَرَأَيْكُمْ تَضَحَكُونَ؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رَجَعَ إلينا الْفَهْقَرَى، فقال: «إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ جَاءَ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ: لِمَ تُقْنِطُ عِبَادِي؟ ﴿نِعْمَ عِبَادِي إِنَّهُ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْآلِيمُ [٤٢]»^(٥).

[٤٠٥٣] وقال سعيد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿نِعْمَ عِبَادِي إِنَّهُ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤١]، قال: بلغنا أَنَّ

(١) إسناده ضعيف، سعيد بن شريحيل مجهول كما في «اللسان» وإبراهيم القرشي مجهول أيضاً. وساقه البغوي في «تفسيره» ٣/ ٤٣ بدون إسناده.

(٢) صحيح، أخرجه البخاري ٣٨١٦ ومسلم ٢٤٣٤ من حديث عائشة بأتم منه.

(٣) صحيح. هو بعض حديث أخرجه مسلم ٢٨٣٧ والترمذي ٣٢٤٦ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، وليس فيه قوله: «وإن لكم أن تقيموا فلا تطعنوا».

(٤) ضعيف. هذا مرسل، لكن وصله الطبراني كما في «المجمع» ١١١٠٧ عن عبد الله بن الزبير، وأعله الهيثمي بقوله: موسى بن عبيدة ضعيف أه، وفيه أيضاً مصعب بن ثابت. ضعفه يحيى وأحمد.

(٥) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢١٤ بهذا الإسناده، وهو ضعيف، له علتان: مصعب بن عبيد الله ضعفه وقال أبو زرعة وأبو حاتم: منكر الحديث.

رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تَوَزَّعَ من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبَحَعَ نفسه»^(١).

﴿وَبَيَّهْتُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ (٥٣) قَالَ أْبَشِّرْهُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَهُ فَبَشَّرُوهُ (٥٤) قَالُوا بِشْرَتَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة «ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ» - والضيف - يُطْلَقُ على الواحد والجمع، كالزور والسفر - وكيف «دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ»، أي: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ: «قَالُوا لَا تَوْجَلْ»، أي: لا تخف، «وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ» [الذاريات: ٢٨]، وهو إسحاق عليه السلام، كما تقدم في سورة هود. ثم «قَالَ» متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد «أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَهُ فَبَشَّرُوهُ»، فأجابوه مؤكدين لما بَشَّرُوهُ به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، «قَالُوا بِشْرَتَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰنِطِينَ (٥٥)» - وقرأ بعضهم: «الفنطين» - فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَكِنَ الْفٰنِينَ (٦٠)﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم - عليه السلام - لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: «إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ»، يعنون قوم لوط. وأخبروه أنهم سيُنَجُّون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين. ولهذا قالوا: «إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَكِنَ الْفٰنِينَ (٦٠)»، أي: الباقين المهلكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَبَيْتَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ (٦٤)﴾

يُخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسن الوجوه، فدخلوا عليه داره «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣)»، يعنون: بعذابهم وهلاكهم وذمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم. «وَأَبَيْتَكَ بِالْحَقِّ»، كما قال تعالى: «مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ» [الحجر: ٨]. وقوله: «وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ»، تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاكه قومه.

﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦)﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط - عليه

(١) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢١٣ عن قتادة مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف عند أهل هذا الفن.

السلام - يمشي وراءهم، ليكون أحفظَ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزاة بما كان يكون ساقاً، يُزجي الضعيف، ويحمل المنقطع. وقوله: ﴿وَلَا يَلْفُتْ يَنْكُرًا أَحَدٌ﴾، أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، ودروهم فيما حل بهم من العذاب والثكال، ﴿وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَرَّوْنَ﴾، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل. ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾، أي: تقدّمنا إليه في هذا ﴿أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾، أي: وقت الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ (٦٩) قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعُلُوكِ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتُ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَأَنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونُ (٧٢)

يخبرُ تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مُستبشرين بهم فَرِحِينَ، ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (٦٨) وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ (٦٩). وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رُسُلُ الله كما في سياق سورة هود، وأما ما هنا فتقدّم ذكر أنهم رُسُلُ الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاботه لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه. فقالوا له مجيبين: ﴿أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعُلُوكِ﴾ أي أوما نهيناك أن تُضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نسايتهم، وما خلّق لهم ربهم منهم من الفروج المباحة. وقد تقدّم أيضاً القول في ذلك، بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المنتظر. ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَأَنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونُ﴾ (٧٢)، أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاء عريض. قال عمرو بن مالك الثكري، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس أنه قال: ما خلّق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره. قال الله تعالى: ﴿لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَأَنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونُ﴾ (٧٢). يقول: وحياتك وعمرك وبقاتك في الدنيا ﴿لَأَنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونُ﴾ رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾، أي: في ضلالتهم، ﴿يَمْهُونُ﴾، أي: يلعبون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَأَنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونُ﴾، قال: يتخفرون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَئِيسِيرٌ مُّقْبِرٌ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

يقولُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾، وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها، وجعل عليها سافلها، وإرسال حجارة السجّل عليهم. وقد تقدّم الكلام عن السجّل في هود بما فيه كفاية. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥). أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسّمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال: المتفرّسين. وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمتعبّرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: للمتأملين.

[٤٠٥٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العبدي، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ

النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَكِّئِينَ﴾ (٧٥) ﴿١﴾. رواه الترمذي، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس الملائي به، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

[٤٠٥٥] وقال ابن جرير أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات بن السائب، حدثنا ميمون بن مهران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا قَرَأَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ» (٢).

[٤٠٥٦] وقال ابن جرير: حدثني أبو شَرَحْبِيل الحمصي، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرحبي، حدثنا أبو المعلى أسد بن وَدَاعَةَ الطائي، حدثنا وهب بن مُتَبِّه، عن طاووس بن كيسان، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احْذَرُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ» (٣).

[٤٠٥٧] وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجزمي، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المُرَلِّق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ» (٤).

[٤٠٥٨] ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجزمي، حدثنا أبو بشر - يقال له: ابن المُرَلِّق - قال: وكان ثقة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ» (٥). وقوله: ﴿وَلَا تَبْأَسْ لِسَبِيلِ مُقِيمٍ﴾ (٧٦)، أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القَلْبِ الصُّورِيِّ والمعنوي، والقَذْف بالحجارة، حتى صارت بحيرة مُتَنَنَّة خَبِيثَةٌ لِبَطْرَيْنِ مَهْنَعٍ مَسَالِكُهُ، مُسْتَمِرَّةٌ إِلَى الْيَوْمِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُ لَكُمْ لُكُورٌ عَلَيْهِمْ مُّصِيبٌ ۚ وَبِأَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُعْقِلُونَ﴾ (٧٨) [الصفات: ١٣٧].

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٢٧ والبخاري في «تاريخه» ٣٥٤/١/٤ والطبري ٢١٤٩ والعقيلي ١٢٩/٤ وأبو نعيم ٢٨١/١٠ - ٢٨٢ والخطيب ٢٤٢/٧ وابن الجوزي ١٤٥/٣ - ١٤٦، وإسناده ضعيف لأجل عطية، فقد ضعفوه، وهو مدلس وقد عنعن، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وأما ابن الجوزي فتحكم بوضعه، وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢٥١ وأبو نعيم ٩٤/٤ وابن الجوزي ١٤٥/٣ - ١٤٦ وعلته الفرات بن السائب ضعفه الجمهور، وقال أبو حاتم: كان كذاباً. وانظر ما بعده.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢٥٥ وأبو الشيخ في «الأمثال» ١٢٨، وعلته سليمان بن سلمة الخبائري ضعفه النسائي وغيره، وقال ابن الجنيد: كان يكذب، أهد وانظر ما بعده. وورد من حديث أبي أمامة أخرجه الخطيب ٩٩/٥ والطبراني ٧٤٩٧ وأبو نعيم ١١٨/٦ وابن الجوزي ١٤٦/٣ - ١٤٧ وعلته عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات. وورد من حديث أبي هريرة، أخرجه أبو الشيخ في «الأمثال» ١٢٦ وابن الجوزي ١٤٧/٣ وأعله بسليمان بن أرقم، وأنه متروك. واتهمه ابن حبان بالوضع، فالخبر وإو واللفظ الآتي أحسن إسناده ومنته أقرب.

(٤) لا بأس به، أخرجه الطبري ٢١٢٥٢ والبزار ٣٦٣٢ والقضاعي ١٠٠٥ والطبراني في «الأوسط» ٢٩٥٦، ورجاله ثقات معروفون سوى أبي بشر بكر بن الحكم، لينة أبو زرة، وثقة ابن حبان وأبو عبيدة الحداد وأبو سلمة التبوذكي، وقال الذهبي: في «الميزان» صدوق، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق فيه لين، وحديثه حسن الهيثمي في «المجمع» ٢٦٨/١٠ ووافقه السخاوي في المقاصد ٢٣ لكن استنكره أبو حاتم والذهبي حيث قال: روى خبراً منكراً قاله أبو حاتم. ثم ذكره. ولعل الراجح وقفه والله أعلم.

(٥) إسناده كسابقه.

١٣٨- [١٣٨]. وقال مجاهد، والضحاك: ﴿وَأَنَّا لَبَسِيلٌ مُّبِينٌ﴾، قال: معلّم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: يَضْفَعُ من الأرض واحد. وقال السدي: بكتاب مبين، يعني كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. ولكن ليس المعنى على ما قال ها هنا، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧)، أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والذمار وإنجائنا لوطاً وأهلّه لدلالة واضحة للمؤمنين بالله ورُسُلِهِ.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِيَامِرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٩﴾

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب. قال الضحاك، وقاتدة، وغيرهما: الأيكة الشجر الملتف. وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بغدّهم في الزمان، ومُسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لِيَامِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: طريق مبين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر. ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إناهم: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُّوطٌ يَنْصُرُكُمْ يَبْعِيدُ﴾ [هود: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٠) وَآيَلَهُمْ ءَايَاتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً، ومن كذب برسولٍ فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين. وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقية التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عثوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وذكر تعالى: أنهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ (٨٢)، أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعتاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقتع رأسه، وأسرع دابته، وقال لأصحابه:

[٤٠٥٩] ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْمُعَذِّبِينَ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِأَكْبَنِ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا فَبَاكُوا خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ﴾^(١). وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (٨٣). أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٤)، أي: ما كانوا يستغلون من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقية، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ فَاصْفَحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَعْلًا ذَٰلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧٧) [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٧٥)

فَتَمَتَّلِ إِلَهُ الْكَافِرِ ﴿٨٧﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]. ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة. ثم أمر بالصفحة الجبيل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿فَأَمْسَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهد وقناة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قال، فإن هذه مكيّة، والقتال إنما شرع بعد الهجرة. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [٨٦]، تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذي لا يمجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَوْمَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [٨١] إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٧﴾ [يس: ٨١ - ٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [٨٧] لَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متّعنا به أهلها من الزهرة الفانية لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ حزنًا عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِإِنِّ آتَيْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: ألن لهم جانبك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟ فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وغيرهم: هي السبع الطول. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. نص عليه ابن عباس، وسعيد بن جبّير. وقال سعيد: بين فيهن الفرائض، والحدود والقصاص، والأحكام. وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا ابن أبي عمّر قال: قال سفيان: ﴿الْمَثَانِ﴾، البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة سورة واحدة. قال ابن عباس: ولم يُعطهن أحدٌ إلا النبي ﷺ وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هشيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزار، عن سعيد بن جبّير، عنه. وقال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: أوتي النبي ﷺ سبعة من المثنائي الطول، وأوتي موسى - عليه السلام - سبعة، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع. وقال مجاهد: هي السبع الطول. ويقال: هي القرآن العظيم. وقال خُصيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ﴾، قال: أعطيتك سبعة أجزاء: أمر، وأنهى، وأبشّر، وأنذر، وأصرب الأمثال، وأعدّد النعم، وأنبئك بنبأ القرآن. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روي ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصصكم الله بها. وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد الله عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد.

وقال قتادة: ذُكر لنا أنهم فاتحة الكتاب، وأنهم يُتلى في كل قراءة. وفي رواية: في كل ركعة مكتوبة أو تطوّع. واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير، والله الحمد، وقد أورد البخاري - رحمه الله - ها هنا حديثين:

[٤٠٦٠] أحدهما، قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عُندَر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلّى قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتته حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي. فقال: «لم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾^(١) [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «لَمَسْتُ لَوْ رَبِّي الْكَوْكِت»، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

[٤٠٦١] الثاني، قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن ذئب، حدثنا المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(٢). فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: «اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لَقَوِيْثٍ كِتَابًا مُّثْنِيْهَا مَثَانِي» [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومُثْنَابَة من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً.

[٤٠٦٢] كما أنه عليه السلام لما سُئِلَ عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فأشار إلى مسجده^(٣)، والآية نزلت في مسجد قُباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْنُ عَيْتَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾، أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية؛ ومن هنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: .

[٤٠٦٣] «ليس مثاً من لم يتقر بالقرآن»^(٤)، إلى أنه يُستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدّم في أول التفسير.

[٤٠٦٤] وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن وكيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: أضاف النبي ﷺ ضيفاً، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب. قال: لا، إلا برهن. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَدْنُ عَيْتَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا...﴾ إلى آخر الآية، كأنه يعزيه عن الدنيا^(٥). وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا تَدْنُ عَيْتَكَ﴾، قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه. وقال مجاهد: ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾، هم: الأغنياء.

(١) وتقدم الحديث فيها.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠٤ وقد تقدم.

(٣) تقدم في سورة التوبة.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٦٩ وأحمد ١٧٥/١ وابن حبان ١٢٠، صحيحه الحاكم ٥٦٩/١ ووافقه الذهبي.

(٥) إسناده ضعيف. فيه موسى بن عبيدة الربذي ضعفه. وله علة ثانية: وهي الانقطاع بين ابن أبي حاتم، ووكيع، والخبر منكرو، فليس المراد من الآية النهي عن السلف والدين.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١)
﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

يأمر تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - أن يقول للناس: إنه ﴿النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾، البينُّ النَّذَارَةُ، نذير للناس من عذاب اليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المُكَذِّبَةَ لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾، أي: المتحالفين. أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم، ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩] الآية، أي: نقتلهم ليلاً. قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿أَفَتَوَلَّوْا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَبْأَلُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فُسَمُوا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لئيبته وأهله.

[٤٠٦٥] وفي الصحيحين، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما يبعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالتجاء التجاء! فاطاعه طائفة من قومه فادلجوا وانطلقوا على مهلبهم فتنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبخوا مكانهم، فصباحهم الجيش فاهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني وأتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق» (١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، أي: جَزَّوْا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، قال: هم أهل الكتاب، جَزَّوْوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه. حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠). قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، مثل ذلك. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، قال: السحر. وقال عكرمة: العضة: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضة. وقال مجاهد: غَضَّوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين. وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم: كاهن. فذلك العِضُون. وكذا روي عن الضحاك وغيره.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس قتل وأقم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم قولوا لأسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: ما هو بكاهن! قالوا: فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون! قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر!

قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا هذا ساحر. فَتَقَرُّوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) ﴿أَصْنَافًا، فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْهُنَّ أَجْمِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)، أولئك النفر الذين قالوا ذلك لرسول الله ﷺ.

وقال عَطِيطَةُ الْعَوْفِيُّ، عن ابن عُمَرَ في قوله تعالى: ﴿لَنَسْتَلْهُنَّ أَجْمِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)، قال: عن لا إله إلا الله. وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن ليث - هو ابن أبي سليم - عن مجاهد، في قوله: ﴿لَنَسْتَلْهُنَّ أَجْمِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)، قال: عن لا إله إلا الله.

[٤٠٦٦] وقد رَوَى الترمذي، وأبو يعلى الموصلي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شريك القاضي، عن ليث بن أبي سليم، عن بشير بن نهيك، عن أنس، عن النبي ﷺ: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْهُنَّ أَجْمِينَ﴾، قال: عن لا إله إلا الله^(١). قال الترمذي: ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير، عن أنس موقوفاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عُكَيْم قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلفوا الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا عرَّكَ مني بي؟ ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين؟ وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْهُنَّ أَجْمِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)، قال: يُسأل العباد كلهم عن خَلَّتَيْن يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين؟. وقال ابن عيينة: عن عَمَلِك، وعن مَالِك.

[٤٠٦٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة الشيباني، عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن ليسأل يوم القيامة عن جميع سَعْيِهِ، حتى كحل عَيْنِيهِ، وعن فُتَات الطينة بإصبعه، فلا أفتيكَ يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما أتى الله منك»^(٢). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْهُنَّ أَجْمِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)، ثم قال: ﴿فَوَمِمَّا لَا يُشَلُّ عَنْ دُبُرِهِ إِشٌّ وَلَا جَكَاةٌ﴾ (٩٤) [الرحمن: ٣٩]، قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟.

(١) ضعيف جداً، والصحيح موقوف. أخرجه الترمذي ٣١٢٦ والطبري ٢١٣٩٧ و ٢١٣٩٨ وأبو يعلى ٤٠٥٨ من حديث أنس، ومداؤه على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف لسوء حفظه، وضعفه الترمذي بقوله: غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث، ورواه عبد الله بن إدريس عن ليث عن بشر عن أنس موقوفاً.

تنبيه: وقع عند ابن أبي حاتم والطبري «بشير بن نهيك» وعلى هذا، فللحديث علة واحدة، وهي ليث فإن «بشير بن نهيك» روى له الستة، وقد وقع عند الترمذي وأبي يعلى «بشر» غير منسوب، وهذا الأخير ذكره ابن حبان في الثقات، فقال: بشر بن دينار عن أنس وعن ليث بن أبي سليم أه، وانظر ما ذكره الشيخ حسين سليم أسد في مسند أبي يعلى حول هذا الاختلاف، وبكل حال الخبر وإو، والصواب موقوف، والراجح أنهم سيسألون عن جميع أعمالهم كما بينته الآية التالية، فالخبر منكر.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن الديلمي في «زهر الفردوس» ٣٣٩/٤، ويونس الحذاء عن أبي حمزة، كلاهما لم أعثر له على ترجمة، فالخبر وإو. وسيأتي في سورة العنكبوت، آية ١٣.

﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى أمراً رسولَه - صلوات الله وسلامه عليه - بإبلاغ ما بعثه به وبإنقاذه والصّدْع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أي: أمضِه، وفي رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فخرج هو وأصحابه. وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٦) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدّوك عن آيات الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِىٰ يُدْهِئُونَ﴾ (٩٧) [القلم: ٩]، ولا تحفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[٤٠٦٨] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كهّمس، عن يزيد بن دزهم، عن أنس قال: سَمِعْتُ أَنَسًا يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قال: مرّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم، فجاء جبريل - قال: أحسبه قال: فغمزهم، فوقع في أجسادهم كهينة الطعنة فماتوا^(١).

[٤٠٦٩] وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزين - كما حدّثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير - خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنانٍ وشرفٍ في قومهم: من بني أسد بن عبد العزى بن قُصَيِّ الأسود بن المطلب أبو زَمْعَةَ، كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه، لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُ مِنْ أَذَاهُ وَاسْتَهْزَائِهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْمِ بَصَرَهُ، وَأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ». ومن بني زهرة الأسود بن عبد يَعْتُوْر بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عَمْرٍ بن مخزوم. ومن بني سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤَيِّ العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد. ومن خزاعة الحارث بن الطلائِطَة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن مِلْكَانَ؛ فلما تَمَادَوْا فِي الشَّرِّ وَأَكْثَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْاسْتَهْزَاءَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾، إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن إسحاق: فحدّثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمرّ به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء، فَعَمِيَ، ومرّ به الأسود بن عبد يَعْتُوْر، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه جَبَنًا^(٢). ومرّ به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، كان أصابه قبل ذلك بستين وهو يجزّ إزاره، وذلك أنه مرّ برجل من خُزَاعَةِ يَرِيشُ نَبْلًا لَهُ، فتعلق سهمٌ من نَبْلِهِ بإزاره، فَخَدَشَ رِجْلَهُ ذَلِكَ

(١) أخرجه البزار ٢٢٢٢ والطبراني كما في «المجمع» ١١١١٢ من حديث أنس، قال الهيثمي: فيه يزيد بن درهم، ضعفه ابن معين، وثقه الفلاس أ.هـ. وفيه عون، وهو مجهول، والخبر ضعيف.

(٢) الحَبْن: داء في البطن يعظم منه ويرم. والجبن بالكسر: خُزَاجٌ كالدمل وما يعتري الجسد فيقيح ويرم.

الخدش - وليس بشيء - فانتقض به فقتله. ومَرَّ به العاصُ بن وائل، فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض على شِبْرَقَةٍ فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومَرَّ به الحارث بن الطلائطة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قَيْحاً، فقتله^(١).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسهم الوليد بن المغيرة، وهو الذي جَمَعَهُمْ. وهكذا رُوِيَ عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله. إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غَيْطَلَة. وعكرمة يقول: الحارث بن قيس. قال الزهري: وصدقا، وهو الحارث بن قيس، وأمه غَيْطَلَة. وكذا رُوِيَ عن مجاهد، ومِقْسَم، وقتادة، وغير واحد: أنهم كانوا خمسة. وقال الشعبي: كانوا سبعة، والمشهور الأول.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(١٦)، تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جَعَلَ مع الله معبوداً آخر. وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ يَصِيقُ صَدْرُكُمْ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١٧) فَسَيَحْجِي بِحَدِّ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ^(١٨)، أي: وإنا لنعلم - يا محمد - أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهينُكَ ذلك، ولا يثيبُكَ عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميدِهِ وتَسْبِيحِهِ وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَيَحْجِي بِحَدِّ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١٨)، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

[٤٠٧٠] حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن نعيم بن همار: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، لا تغجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره»^(٢). رواه أبو داود، من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، بنحوه.

[٤٠٧١] ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْتِيكَ الْيَقِينُ﴾^(١٩)، قال البخاري: قال سالم: الموت. وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر؛ كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شفيان، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْتِيكَ الْيَقِينُ﴾^(١٩)، قال: الموت. وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره. والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢٠) وَلَوْ نَكُنْ تِلْكَ تِلْكَ الْمُسْلِمِينَ^(٢١) وَكُنَّا نَحْمُسُّ مَعَ الْكَاذِبِينَ^(٢٢) وَكُنَّا نَكُذِّبُ بَيْنَ إِلَيْنِ^(٢٣) حَقَّ أَتَنَّا الْيَقِينَ^(٢٤) [المدر: ٤٣ - ٤٧].

[٤٠٧٢] وفي الصحيح من حديث الزهري، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء - امرأة من الأنصار -: أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون، وقد مات، قلت: رحمه الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمته؟» فقلت: بأبي

(١) هذا مرسل، وقد شك ابن إسحاق، هل ورد عن عروة بن الزبير أو غيره. وورد من وجه آخر من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في «الطوال» ٣٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١١١٣: فيه محمد بن عبد الحكم النيسابوري، ولم أعرفه، وبقيته رجاله ثقات. اهـ. والخبر غريب، والأشبه أن المراد بالآية يوم بدر.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ١٢٨٩ واحد ٢٨٦/٥، وإسناده حسن صحيح.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٤٥.

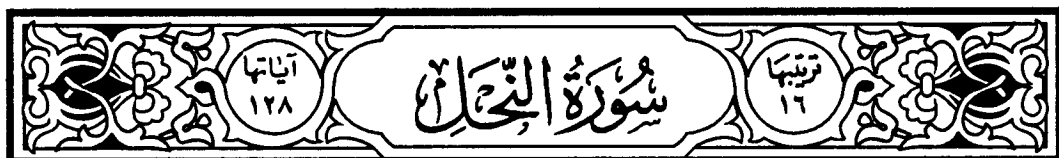
وَأَمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ؟ فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ»^(١).
 وَيُسْتَدَلُّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٩٩)، عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ
 كَالصَّلَاةِ وَنَحْوَهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا دَامَ عَقْلُهُ ثَابِتًا، فَيَصْلِي بِحَسَبِ حَالِهِ،
 [٤٠٧٣] كَمَا ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 قَالَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(٢). وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى تَخْطِئَةٍ مِنْ ذَهَبَ
 مِنَ الْمَلَا حِدَةٍ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَقِينِ الْمَعْرِفَةُ، فَمَتَى وَصَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ عِنْدَهُمْ.
 وَهَذَا كَفَرٌ وَضَلَالٌ وَجَهْلٌ؛ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كَانُوا هُمْ وَأَصْحَابُهُمْ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ وَأَعْرَفَهُمْ
 بِحَقِّهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبَدَ وَأَكْثَرَ النَّاسِ عِبَادَةً وَمَوَاطَبَةً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ
 إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْيَقِينِ هَا هُنَا الْمَوْتُ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى
 الْهِدَايَةِ، وَعَلَيْهِ الْاسْتِعَانَةُ وَالتَّوَكُّلُ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يَتَوَفَّنَا عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ وَأَحْسَنِهَا. فَإِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ

* * *

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجْرِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٤٣ و ٣٩٢٩ والنسائي «الكبرى» ٧٦٣٤ وأحمد ٤٣٦/٦.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٩١



وهي مكية بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كما قال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١١]، وقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْقَى الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، أي: قَرُبَ ما تباعد ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. يَحْتَمِلُ أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَ هَـ الْعَذَابُ وَلَئِنَّهُمْ لَرَبَّنَا لَيَسْتَعْجِلُونَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٤، ٥٣]. وقد ذهب الضحَّاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال: في قوله ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ﴾، أي: فرائضه وحدوده. وقد رَدَّه ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل الفرائض قبل وجودها، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعاداً، وتكديماً. قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَكَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

[٤٠٧٤] وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عيَّاش، عن محمد بن عبد الله - مولى المغيرة بن شعبة - عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حُجيرة، عن عتبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء، ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول نعم ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه». قال رسول الله ﷺ: «قَالَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرُّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثُّوبَ فَمَا يَطْوِيَانَهُ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمْدُنُ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلُبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرِبُهَا أَبَدًا، قَالَ: وَيَسْتَقِيلُ النَّاسُ»^(١). ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد - تعالى وتقدس علواً كبيراً وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾

(١) وصله الحاكم ٥٣٩/٤ ح ٨٦٢٢ عن يحيى بن آدم بهذا الإسناد، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأصله في

يقول تعالى: ﴿يَزِيلُ أَلْمَلِيكَهَ بِالرُّوحِ﴾، أي: بالوحي كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِي﴾، وهم الأنبياء، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَكِيَّةِ رَسُولًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١٦﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿أَن أُنْذِرَ﴾، أي: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال في هذه الآية: ﴿فَاتَّقُونِ﴾، أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعب، بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً وهم يُخْلَقُونَ، فكيف ناسب أن يُعْبَدَ معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلماذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿مِن تُطْفَئَةٍ﴾، أي: ضعیفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رُسُلَهُ. وهو إنما خُلِقَ ليكون عبداً لا ضيداً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٤ - ٥٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن تُطْفَئَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعِى الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

[٤٠٧٥] وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش قال: بَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ، أَتَى تَعَجَّزَنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟! حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بَرْزَدِكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَبَيْدٌ، فَجَمَعْتُ وَمَنَعْتُ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتُ: أَتَصَدَّقُ؛ وَاتَى أَوَانُ الصَّدَقَةِ»^(١).

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرْتَهُونَ وَحِينَ تَنْزَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفُسَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلِفْيِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، كَمَا فَضَّلَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ، بِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ، مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا يَلْبَسُونَ وَيَقْتَرِشُونَ، وَمِنْ أَلْبَانِهَا يَشْرِبُونَ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادِهَا، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ، وَهُوَ الزَّيْنَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرْتَهُونَ﴾، وَهُوَ وَقْتُ رَجُوعِهَا مِنَ الْمَرْعَىٰ عَشِيًّا، فَإِنَّهَا تَكُونُ أَمْدُهُ خَوَاصِرَ، وَأَعْظَمُهُ ضُرُوعًا، وَأَعْلَاهُ أَسْنَمَةٌ، ﴿وَحِينَ تَنْزَحُونَ﴾، أي: غُدُوهُ حِينَ تَبْعُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى. ﴿وَتَحْمِلُ أَنْفُسَكُمْ﴾، وَهِيَ

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٧٠٧ وأحمد ٢١٠/٤ وصححه إسناده البوصيري في «الزوائد» وانظر «الصحيحة» ١٠٩٩.

الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن ثقلها وحملها، ﴿إِنَّ بَلَدَكُمْ لَكُنْزٌ بَلِيغٌ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾، وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ لُكُوفٌ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَرَةٌ تُفِيكُم مَّعًا فِي بَطُونِكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَعَلَى الْفُلَاكِ حُمْلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِرُكُوبٍ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَاتَّبِعُوا أَعْيُنَكُمْ وَاعْلَوْا صُدُورَكُمْ وَعَلَى الْفُلَاكِ حُمْلُونَ ﴿٧٩﴾ وَرَبُّكُمْ بِأَيْدِيهِمْ قَائِلٌ ﴿٨٠﴾ رَبُّكُمْ اللَّهُ تُشْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: ٧٩-٨١]، ولهذا قال ما هنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ﴾، أي: ربكم الذي يقض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلَاكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٧٨﴾ لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ذُرًّا تُدَكِّرُونَ فَعَمَّ رَبُّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُ لَفِي وَسْطِ الْعُرْسِ الْمَقْبُورِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ثياب. و﴿وَمَنْفِعٌ﴾: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن سيمالك عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿دِفْءٌ وَمَنْفِعٌ﴾، نَسْلُ كُلِّ دَابَّةٍ. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: لباس يُسَخِّجُ، ﴿وَمَنْفِعٌ﴾: مَرْكَبٌ وَلَحْمٌ وَلَبَنٌ. وقال قتادة: ﴿دِفْءٌ وَمَنْفِعٌ﴾، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبُلْغَةٌ. وكذا قال غير واحد من المفسرين، بالفاظ متقاربة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرُكُوبِكُمْ وَزِينَةً وَتَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

هذا صنف آخر مما خلق - تبارك وتعالى - لعباده، يمتثل به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدلت من استدلت من العلماء - ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل - بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة - رحمه الله عليه - ومن وافقه من الفقهاء، لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عثية، أنبأنا هشام الدستوائي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾، فهذه للاكل، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرُكُوبِكُمْ﴾، فهذه للركوب. وكذا روي من طريق سعيد بن جبير وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة أيضا.

[٤٠٧٦] واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدم بن مغد يكره، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير^(١). وأخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدم - وفيه كلام - به.

(١) حسن شاذ، أخرجه أبو داود ٣٧٩٠ والنسائي ٤٨٤٣ و ٤٨٤٤ «كبرى» والدارقطني ٢٨٧/٤ وابن ماجه ٣١٩٨ وأحمد ٤/٨٩، وإسناده لا بأس به، لكن الجمهور على خلافه، والأحاديث الصحيحة تعارضه، ولذا قال أبو داود عقبه: هو حديث منسوخ. وقال البخاري: صالح بن يحيى بن المقدم فيه نظر، وقال البيهقي في المعرفة: إسناده مضطرب. وانظر ما قاله القرطبي عند حديث ٣٨٥٤ و ٣٨٥٦ بتحقيقه.

[٤٠٧٧] ورواه أحمد - أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه - فقال: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدام، عن جده المقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة، فقرم أصحابنا إلى اللحم، فسألوني رَمَكَةً فدفعتها إليهم فقبلوها، فقلت: مكانكم حتى آتي خالداً فأسأله. فأتيته فسأله. فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهود، فأمرني أن أنادي: الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم. ثم قال: «أيها الناس، إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود، ألا لا تحل أموال المعاهدن إلا بحقها، وحرام عليكم لحوم الحُمُرِ الأهلية وخيلها وبغالها، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»^(١). والرَمَكَةُ: هي الجحرة. وقوله: حَبَلُوهَا، أي: أوثقوها في الحبل لِيَذْبَحُوهَا. والحظائر: البساتين القريبة من العمران. وكأنه هذا الصنيع وقّع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم. فلو صَحَّ هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يَقَاوِمُ ما ثَبَتَ في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: [٤٠٧٨] نَهَى رسول الله ﷺ عن لحوم الحُمُرِ الأهلية، وأَذَنَ في لحوم الخيل^(٢).

[٤٠٧٩] ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذَبَحْنَا يَوْمَ خَيْبَرِ الخَيْلَ والبِغَالَ والحمِيرَ، فَتَنَاهَا رسولُ الله ﷺ عن الْبِغَالِ والْحَمِيرِ، وَلَمْ يَنْهَنا عن الخَيْلِ^(٣).

[٤٠٨٠] وفي صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: نَحَرْنَا على عَهْدِ رسول الله ﷺ قَرَساً فأكلناه ونَحَرْنَا بالمدينة^(٤). فهذه أدل وأقوى وأثبت. وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وذكر وهب بن منبه في إسرائيلياته: أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب. فله أعلم، فقد ذل النص على جَوَازِ ركوب هذه الدواب، ومنها البغال، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة، فكان يركبها، مع أنه قد نَهَى عن إنزاع الحُمُرِ على الخيل لثلاث ينقطع النسل.

[٤٠٨١] قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن عبيد، حدثنا عَمَرُ من آل حُدَيْفَةَ، عن الشعبي، عن دِخْيَةَ الكلبي قال: قلت يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً على فرس، فَيَنْتِجَ لَكَ بغلاً فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون»^(٥).

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(١) أخرجه أحمد ٨٩/٤ وإسناده لا يبلغ درجة الصحة، وإنما ذكر الخيل شاذ، معارض بأحاديث صحيحة تجعله غير محفوظ والله أعلم.

(٢) صحيح أخرجه البخاري ٤٢١٩ و ٥٥٢٠ ومسلم ١٩٤١ وأبو داود ٣٧٨٨ والنسائي ٢٠١/٧ وأحمد ٣٦١/٣ وابن حبان ٥٢٧٣.

(٣) صحيح أخرجه أبو داود ٣٧٨٩ وأحمد ٣٥٦/٣ والبيهقي ٣٢٧/٩ وصححه ابن حبان ٥٢٧٢ وكذا الحاكم ٢٣٥/٤ ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح أخرجه البخاري ٥٥١٩ ومسلم ١٩٤٢ وابن ماجه ٣١٩٠ وأحمد ٣٤٥/٦ وابن حبان ٥٢٧١.

(٥) أخرجه أحمد ٣١١/٤ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٩٣٦٩، ونقل الهيثمي عن الطبراني قوله: الشعبي عن دحية، مرسل. اهـ. وفيه عمر مولى حذيفة لم أجده له ترجمة.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَارَّ عليه في السُّبُلِ الحِسِّيَّة نَبَّه على الطريق الدِّينية المعنوية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحِسِّيَّة إلى الأمور المعنوية النافعة كما قال تعالى: ﴿وَكَزَّوْذُوا فَلَيْسَ خَيْرَ الزَّادِ الثَّقَوِيَّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿يَبْقَىٰ آدَمَ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكَ لِإِسَاءَ يَوْمِكُمْ دَرِيثًا وَلِبَاسَ الثَّقَوِيَّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. ولما ذُكِرَ تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلعون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة - شَرَعَ في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فَبَيَّنَ أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، قال: طريق الحق على الله وقال السدي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، قال: الإسلام. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، يقول: وعلى الله البيان، أي: تبين الهدى والضلالة. وكذا رَوَى علي بن أبي طلحة، عنه. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقول مجاهد ما هنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أَخْبَرَ أن ثَمَّ طَرِيقاً تُسَلِّكُ إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شَرَعَهَا وَرَضِيَهَا، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، أي: حائد مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: «ومنكم جائر». ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قَدَرِهِ ومشيئته، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٨] إِلَّا مَنْ رَجَعُ رَبُّكَ وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [١٩] ﴿[هود: ١١٨، ١١٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [١٠] يُثَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [١١]

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شَرَعَ في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو الغُلُو - مما لهم فيه بُلْغَةٌ ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾، أي: جعله عذبا زلالا، يُسَوِّغُ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجابا. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجرا ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة والضحاك، وقاتدة، وابن زيد، في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي: ترعون، ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

[٤٠٨٢] وَرَوَى ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ نَهَى عن السُّومِ قبل طُلُوعِ الشَّمْسِ^(١).

(١) ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٢٢٠٦ وابن عدي ١٣٥/٣ من حديث علي، وإسناده ضعيف فيه نوفل بن عبد الملك ذكره الذهبي في «الميزان» ٩١٤٨ بهذا الحديث، وقال: قال يحيى: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: مجهول أهد. وقع للحافظ في «التقريب» ٧٢١٥: مستور أهد وفي ذلك نظر فقد ضعفه ابن معين كما تقدم فليس بمستور. ثم إن الحافظ ذكر في «التقريب» ١٨٨٥ الربيع بن حبيب، وقال: صدوق، ضعف بسبب روايته عن نوفل بن عبد الملك، قال أبو أحمد الحاكم: الحمل على نوفل أهد أي في هذا الحديث، وأما ابن عدي فأعله بالربيع ونقل عن النسائي قوله: منكر الحديث، وعن أحمد: أحاديثه منكائر. والحديث منكر ضعيف بكل حال. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّرْتُونَ وَالْخَيْلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، أي: يُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ، عَلَى اخْتِلَافِ صُفُوفِهَا وَطَعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَزَوَائِجِهَا وَأَشْكَالِهَا. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: دَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَنْتَ خَلَقَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاكَ بِهَجْمِكُمْ مَا كُنْتُمْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ بِأَنَّ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ [النمل: ٦٠]. ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُوسَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣)

يُبَيِّنُ تَعَالَى عِبَادَتَهُ عَلَى آيَاتِهِ الْعِظَامِ، وَمِثْنِهِ الْجَسَامِ، فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَدُورَانِ، وَالنَّجْمُوسَ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ فِي أَرْجَاءِ السَّمَوَاتِ نَوْرًا وَضِيَاءً لِلْمُهْتَدِينَ بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ، وَكُلٌّ مِنْهَا يَسِيرُ فِي فَلَكِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ، يَسِيرُ بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَةٍ، لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْهَا. وَالْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ أَتَيْلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُوسُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤]. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لَدَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَنْ اللَّهِ وَيَفْهَمُونَ حُجَجَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾، لَمَّا نَبَّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى مَعَالِمِ السَّمَاءِ نَبَّهَ عَلَى مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنباتِ وَالْمَعَادِنِ وَالْجَمَادَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَوَاصِّ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: آيَةً لِلَّهِ وَنِعْمَةً فَيَشْكُرُونَهَا.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤) وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَنْبِتَ بِكُمْ وَاَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥) وَعَلَّمَنَّا وَيَا تَجْمِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ الْمُتَلَاطِمَ الْأُمُوجِ، وَيَمَتِّنُ عَلَى عِبَادِهِ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ، وَتَسْيِيرِهِمُ لِلرُّكُوبِ فِيهِ، وَجَعْلِهِ السَّمَكَ وَالْحَيْتَانَ فِيهِ، وَإِحْلَالِهِ لِعِبَادِهِ لَحْمَهَا حَيْثَمَا وَبَيْتَهَا، فِي الْحِلِّ وَالْإِحْرَامِ، وَمَا يَخْلُقُهُ فِيهِ مِنَ اللَّالِئِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ، وَتَسْهِيلِهِ لِلْعِبَادِ اسْتِخْرَاجَهَا مِنْ قَرَارِهَا حَلِيَةً يَلْبَسُونَهَا. وَتَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ لِحَمْلِ السُّفُنِ الَّتِي تَمْخُرُهُ، أَيْ: تَشَقُّهُ. وَقِيلَ: تَمْخُرُ الرِّيَاحُ - وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ - بِجَوْفِ جَنْبِهَا - وَهُوَ صَدْرُهَا الْمُسَمَّى - الَّذِي أَرْشَدَ الْعِبَادَ إِلَى صَنْعَتِهَا، وَهَدَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، إِرْثًا عَنْ أَبِيهِمْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَكِبَ السُّفْنَ، وَلَهُ كَانَ تَعْلِيمُ صَنْعَتِهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاسُ عَنْهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَيَسِيرُونَ مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ، لَجَلْبِ مَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ. وَمَا هُنَاكَ إِلَى هَا هُنَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: نِعْمَةً وَإِحْسَانَةً.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مُسْنَدِهِ: وَجَدْتُ فِي كِتَابِي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْبَغْدَادِيِّ: حَدَّثَنَا

عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، عن شهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كلم الله هذا البحر الغربي، وكلم البحر الشرقي، فقال للبحر الغربي: إني حامل فيك عبداً من عبادي، فكيف أنت صانع بهم؟ قال: أغرقهم. قال: بأسك في نواحيك، وأحملهم على يدي. وخزّمه الخلية والصيد. وكلم هذا البحر الشرقي فقال: إني حامل فيك عبداً من عبادي، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي، وأكون بهم كالوالدة لولدها. فأثابه الحلية والصيد. ثم قال البزّاز: لا نعلم رواه عن شهيل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، وهو منكر الحديث، وقد رواه شهيل، عن النعمان بن أبي عيَّاش، عن عبد الله بن عمرو موقفاً^(١).

ثم ذكر تعالى الأرض وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقرّ الأرض ولا تميذ، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان، فلا يهنا لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَالْجِبَالُ أَوَّاهٌ مُّنتَبِهٌ﴾. وقال عبد الرزّاق: أنبأنا معمر، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميذ، فقالوا: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً. فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تذر الملائكة ممّ خلقت الجبال وقال سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد: إن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تمرّ فالت الملائكة: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً، فأصبحت صبحاً وفيها رواسيها. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أي رب، تجعل عليّ بني آدم يعملون عليّ الخطايا ويجعلون عليّ الخبث؟ قال: فأرسي الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقراؤها كاللحم يترجرج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَرَا سُبُلًا﴾، أي: وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين تبع وجمع، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر. فلا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكذلك جعل في الأرض سُبُلًا، أي: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل ليكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُنَّ﴾، أي: دلّلت من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برأ وبحراً إذا ضلوا الطريق بالنهار. وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس. وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَّمَكُنَّ﴾: ويقولون: النجوم، وهي الجبال. ثم قال تعالى متنبهاً على عظمتها، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧). ثم نبههم على كثرة نعمة عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا إِلَهًا لَّا تُحْصِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨)، أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمة لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتزكّتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، ويغفر الكثير، ويجازي على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لما كان منكم من تقصير في

(١) كلاهما موقوف، لكن صوب البزار رواية من رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه روى الكثير عن أهل الكتاب، بخلاف أبي هريرة، فتنبه، والله أعلم.

شكر بعض ذلك، إذا تُبتم وأنبتتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَّحِمَهُ﴾ بكم أن يعذبكم عليه بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ تَأْتُونَ غَيْرَ أَهْبَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَحْمِلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. وقوله: ﴿أَمْ تَأْتُونَ غَيْرَ أَهْبَاءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يُرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء! إنما يُرتجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

﴿إِنَّا نَكْهَرُهُ لِلَّهِ وَجِدَّ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْإِلَهِاتِ وَاحِدٌ إِنَّ هَٰذَا لَفِي تَكْذِبٍ عَاجِبٍ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٤]. وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰلِجِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٦٠]. ولهذا قال ما هنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي: وسيجزيه على ذلك أنتم الجزاء، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَآذَا أَنزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب: ﴿أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِيهِ تَشَٰبُهٌ مِّثْلُ بَعْضِهِ وَأَمِيزَ ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، أي: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً متضادة مختلفة، كلها باطل، كما قال تعالى: ﴿أَنظَرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَوِيُونَ سَبِيكَ ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خَرَجَ عن الحق فمهما قال خطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿كَتَبَ وَنَدَّرَ ﴿٢٧﴾ قَبِيلُ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٨﴾ قَبِيلُ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٩﴾﴾ ثم نظر ﴿٣٠﴾ ثُمَّ جَسَّ وَبَسَّ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَتَى وَاسْتَكْبَرَ ﴿٣٢﴾ فَقَالَ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا عَرَبٌ يُّؤْتَرُ ﴿٣٣﴾﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٤] أي: ينقل ويحكي، فنفرقوا عن قوله ورأيه، قبهم الله تعالى!

قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: إنما قلنا عليهم أن يقولوا ذلك ليحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُتَّبِعُونَهُمْ وَيُؤَفِّقُونَهُمْ، أي: تصير عليهم خطيئة

ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث:

[٤٠٨٣] «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]. وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُغْلَبُونَهُمْ يَغِيرُ عَلَيْهِ﴾: إنها كقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف ذلك عن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآفَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٦] ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [٢٧]

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، قال: هو ثمرود الذي بنى الصرح. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض ثمرود، فبعث الله عليه بغوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه. وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكيه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَفَّكَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾. وقال آخرون: بل هو بُخْتَنَصْرُ. وذكروا من المكر الذي حكى الله ها هنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَئَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَتَكُونُوا مَكْرًا كَبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]، أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا...﴾ [سبا: ٣٣] الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَأَفَّكَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾، أي: اجتمه من أصله، وأبطل عملهم وأصله، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقوله: ﴿فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأَوَّلِ الْآيَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال ها هنا: ﴿فَأَفَّكَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٦] ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ، أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجته ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ السُّكُورُ﴾ [الطارق: ٩]، أي: تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

[٤٠٨٤] قال رسول الله ﷺ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوْاءٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ اسْتِيقَافِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، فيقال: هذه غَدْرَةُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ»^(٢). وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يُسرونه من المكر، ويُخزيهم الله على رؤوس

(١) رواه مسلم وغيره، وتقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٢.

(٢) متفق عليه، وتقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٢٤.

الخلائق؛ ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مُقَرَّعاً لهم وموبخاً: ﴿إِنَّ شُرَكَائِكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكِرُونَ فِيهِمْ﴾، أي: تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلاصكم ها هنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿قُلْ لَمْ يَنْفَعُوا قَوْمًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِتْنًا﴾ [الطارق: ١٠]، فإذا تَوَجَّهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا إِلَهًا﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمُخْبِرُونَ عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشَوَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَائِلِينَ أَنْفُسِهِمْ فَالْقَوْمَ الْأَسَاءَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فليَنَسَ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (١٩)

يُخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة: ﴿فَالْقَوْمَ الْأَسَاءَ﴾، أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رِنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْضَرُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]، قال الله مكذباً لهم في قلوبهم ذلك: ﴿بَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فليَنَسَ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ، أي: بنس المقييل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله. وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسُمومها، فإذا كان يوم القيامة سُلِكَتْ أرواحهم في أجسادهم، وخُلِدَتْ في نار جهنم، ﴿لَا يَبْقَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْيَى عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٠) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٢١) الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَائِلِينَ يَقُولُوكَ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢)

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟﴾ فقالوا معرضين عن الجواب، أي: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾، أي: أنزل خيراً، أي: رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وأمن به. ثم أخبروا عما وَعَدَ الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا زَكَرْنَا أَنُحْيِيهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة. ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أنتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾، بدل من ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: لهم في الدار الآخرة ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾، أي: مقامية يدخلونها ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿لَكُمْ فِيهَا مَا يَشْكُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْذِبُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

[٤٠٨٥] وفي الحديث: «إن السحابة لتثمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرايبهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً. فيكون ذلك» (١). ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: هكذا يجزي الله كل من آمن به واتفق وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن خالهم عند الاحتضار أنهم طيبون - أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء - وأن الملائكة تسلم عليهم ويبشرونهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَغَاوُوا وَلَا تَخْزُوا وَآتَيْتُمُوهَا بِالْإِيمَانِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كُفْرًا كَثِيرًا ثُمَّ نُوعِدُونَ ﴿٢٥﴾ تَحْتِ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَوْنَ ﴿٢٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ تَزَالُ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [نصفت: ٣٠ - ٣٢]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى مُتَهَدِّداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل يتنظرون هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم تفيض أرواحهم، قاله قتادة. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾، أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والتكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾، لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حُججه عليهم بإرسال رُسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: بمخالفتهم الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾، أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: يستخزون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فلهذا يُقال لهم يوم القيامة: ﴿هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَكُنَّا وَلَا مَبَازِينَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٢﴾﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُلاً أَرَبْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوفَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٣﴾﴾ إِنْ تَحْزَنْ عَلَى هَدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يخبرُ تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم مُحتجّين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمَاتُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي: من البحائر والسوائب والوضائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واختزعه من قِبَل أنفسهم، مما لم ينزل الله به سلطاناً. ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لِمَا فَعَلْنَا لَأَنكَرَهُ عَلَيْنَا بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمَّا مَكُنَّا مِنْهُ. قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ؟﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يُعَيِّرْ عليكم ولا أنكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة، أي: في كل قُرُونٍ من الناس وطائفة رُسُلًا، وكلُّهم يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ: ﴿أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾، فلم يَزَلْ تعالى يُرْسِلُ إِلَى النَّاسِ الرُّسُلَ بِذَلِكَ، منذ حَدَّثَ الشُّرَكَ فِي بَنِي آدَمَ، في قوم نوح الذين أُرْسِلَ إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن خَتَمَهُمُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ الذي طَبَّقَتْ دَعْوَتُهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وكلُّهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾، فكيف يَسُوغُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقُولَ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ فمَشِيتُهُ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةُ عَنْهُمْ مُتَّفِقَةٌ، لِأَنَّهُ نَهَاكَمُ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَأَمَّا مَشِيتُهُ الْكَوْنِيَّةُ، وَهِيَ تَمَكِينُهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَدْرًا، فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا، لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ، وَأَهْلَهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْكَافِرَةِ، وَهُوَ لَا يَرْضَى لِعِبَادَةِ الْكُفْرِ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بِالْعَقْلِ وَحِكْمَةٌ قَاطِعَةٌ.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلماذا قال: ﴿فَإِنَّمُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ فَنَسُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: فاسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب بالحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْقَاؤُهُمْ﴾ [محمد: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبَ كَذِبًا كَانَ تَوَالِيًا﴾ [الملك: ١٨]. ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن جزأه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْعًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح - عليه السلام - لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَصْغِيرُ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانِ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُفْوَكَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَنْ هُدًى فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَمْ يَضِلُّهُمْ فِي مَقَالِيمِهِمْ يَعْهَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. فقولهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾، أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلماذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، أي: من أضله فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أأخذ. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾، أي: ينقذونهم من عذابه ووقاته، ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٨] لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ خَلَفُوا فَأَقْسَمُوا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أي: اجتهدوا في الحلف

وَعَلَّظُوا الْإِيمَانَ عَلَى أَنَّهُ ﴿لَا يَمُتُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرُّسُلَ في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مُكْذِبًا لَهُمْ وِرَادًا عَلَيْهِمْ: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: بل سيكون ذلك، ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، أي: لا بُدَّ منه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فبجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذَكَرَ تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال سبحانه: ﴿إِنِّي لَهُمْ﴾، أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، أي: من كُلِّ شَيْءٍ، و ﴿يَجْزِي الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾، أي: في إيمانهم وأقسامهم: ﴿لَا يَمُتُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾. ولهذا يُدْعَوْنَ يوم القيامة إلى نار جهنم دَعَاً، ويقول لهم الزبانية: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ أَسْأَلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ [الطور: ١٤ - ١٦]. ثم أخبر تعالى عن قُدرته على ما يشاء، وأنه لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأرض ولا في السماء. وأنه إذا أَرَادَ شيئاً أن يقول له: ﴿كُنْ﴾، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أَرَادَ كونه فإنما يَأْمُرُ به مَرَّةً واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [القمان: ٢٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿١٩﴾، أي: أن يَأْمُرُ به مَرَّةً واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ؛ قَوْلَةً فَيَكُونُ

أي: إنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يُمَانَعُ ولا يُخَالَفُ، لأنه هو الواحد القهار العظيم، الذي قَهَرَ سُلْطَانَهُ وجبروته وعزته كُلِّ شَيْءٍ، فلا إله إلا هُوَ، ولا رب سواه. وقال ابن أبي حاتم: ذكر الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني عطاء: أنه سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قال الله تعالى: سُبْحَنَ ابْنِ آدَمَ ولم يكن يَنْبَغِي له أن يَسُبَّحَنِي، وكَذِبَنِي ولم يكن ينبغي له أن يُكَذِّبَنِي، فَمَا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فقال: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَمْنِيهِمْ لَا يَمُتُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، قال: وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأما سُبُّه إِيَّايَ فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكٌ تَلَدُّنَا﴾ [المائدة: ٧٣]، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾. هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصَّحِيحَيْنِ مرفوعاً بلفظ آخر^(١).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تعالى عن جَزَائِهِ للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه. وَيَحْتَمِلُ أن يكون سببُ نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجِرَةِ الحبشة الذين اشتدَّ أذى قومهم لهم بِمَكَّةَ، حتى خَرَجُوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، لِيَتِمَكَّنُوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رُقِيَّة بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابنُ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قُريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة وصديق وصديقة - رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فَعَلَ - فوَعَدَهُم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لَنَنُؤِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فَعَوَّضَهُمُ اللهُ خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عَوَّضَهُ اللهُ بما هو خير له منه في الدنيا، وكذلك وقع، فإنهم مَكَّنَ اللهُ لهم في البلاد وحَكَّمَهُمُ على رقاب العباد، فصاروا أَمْراءَ حُكَّاماً، وكُلُّ منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، أي: مما أعطيتهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما أَدَّخَرَ اللهُ لمن أطاعه واتبع رَسُولَهُ، ولهذا قال مُشِيمٌ، عن القوام، عَمَّنْ حدثه أن عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عَطَاءً يقول: خُذْ، بَارَكَ اللهُ لك فيه، هذا ما وَعَدَكَ اللهُ في الدنيا، وما دَخَرَهُ لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَتُبَدِّلَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. ثم وَصَفَهُمُ تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٣)، أي: صَبَرُوا على أذى من آذاهم من قومهم، مُتَوَكِّلِينَ على الله الذي أَحْسَنَ لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْهِمْ إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤)

قال الضحاك، عن ابن عباس: لما بَعَثَ اللهُ محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسولهُ بشراً. فأنزل اللهُ تعالى: ﴿أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] الآية، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْهِمْ إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) يعني أهل الكتب الماضية: أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يَكُونُ محمد ﷺ رسولاً؟ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْهِمْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهكذا روي عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش. وقولُ عبد الرحمن بن زيد: الذكر القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] صحيح، ولكن ليس هو المرادُ ها هنا، لأن المخاليف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه. وكذا قولُ أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر - ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر - صحيح، فإن هذه الأمة أَعْلَمُ من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول - ﷺ، وعليهم السلام والرحمة - من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبني علي: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر - وهو محمد بن علي بن الحسن - وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو مُتَمَسِّكٌ بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعَرَفَ لكل ذي حق حَقَّهُ، ونَزَلَ كُلُّا المنزل الذي أعطاه الله ورسوله، واجتمع إليه قلوبُ عباده المؤمنين. والغرضُ أنَّ هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بَشَرٌ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٢٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٢٤) قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٢٥) [الإسراء: ٩٣ - ٩٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٨) [الأنبياء: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحِي إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. ثم أرشد الله تعالى مَنْ شَكَّ في كَوْنِ الرسل كانوا بشراً أن يسألوا أهل

يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلّفوها من الإنس والجن والملائكة. فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال - أي: بكرة وعشياً - فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَهُزْ ذِكْرُون﴾، أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيؤه، وذكر الجبال قال: سجدوها فيؤها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته. ونزلهم منزلة من يغفل إذ أسند السجود إليهم. ثم قال: ﴿وَلَوْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا أَكْبَرًا﴾ [الرعد: ١٥]. وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: تسجد لله غير مستكبرين عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جلّ جلاله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، أي: مشابرين على طاعة الله تعالى في امتثال أوامره وترك زواجره.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهِبُونَ﴾ ﴿٥١﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَهُ الدِّينُ وَإِصْبًا أَفَنَزَلَ اللَّهُ تَنَقُّونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِثْنَهُمْ فَمَتَّعُوا فُسُوفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه. ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَإِصْبًا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وميمون بن مهران، والسدي، وقاتادة، وغير واحد: أي دائماً. وعن ابن عباس أيضاً: واجباً، وقال مجاهد: خالصاً. أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفَنَزَلَ إِلَهُهُ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. فهذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَهُ إِلَّا أَنَا﴾ [الزمر: ٣]. ثم أخبر أنه مالك النعم والضّر، وأن ما بالعباد من نعمة ورزق وعافية ونصر فمن فضله عليهم. وإحسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾، أي: ليعلّمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسالونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فُتِنُوا إِلَى آلِِ طَغْيَتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الأنعام: ١٧]. وقال ما هنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٧]. قيل: «اللام» ما هنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى قيصنا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستيروا ويوجدوا نعمة الله عليهم، وأنه المُسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَمَتَّعُوا﴾، أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَعْمَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتُنَّ عَمَّا كُتِبَ تَقَرُّونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَيَعْمَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ

سُبْحَنَهُمْ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

يُخبر تعالى عن قَبَائِحِ المشركين الذين عَبَدُوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرْصِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَكَ يَعْبُدُ وَإِنَّ اللَّهَ وَكَانَ لِلَّهِ قَهْوٌ يُعْصَلُ إِنَّكَ شَرْكَاهُمْ﴾ [الانعام: ١٣٦]، أي: جعلوا آلِهَتَهُمْ نصيباً مع الله وقَضَلُوهَا أيضاً على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألْتَهُمْ عن ذلك الذي افتروه وانتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازيَنَّهُمْ أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿تَاللَّهِ لَأَشْتَقَنَّ عَمَّا كُتِبَ فَتَقَرُّونَ﴾. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جَعَلُوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجَعَلُوا بناتِ الله، وعبدوها معه فأخطوا خطأ كبيراً في كُلِّ مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا وَلَدَ له! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿الَّذِينَ الذَّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [٦١] تِلْكَ إِذَا قُسِمَتْ ضِرَافُهَا ﴿٦٢﴾ [النجم: ٢٢]، وقال ها هنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ﴾، أي: عن قولهم وإفكيهم، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهم يَقُولُونَ﴾ [٦٣] وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٦٤﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٥٤﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾، أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأتون لأنفسهم من البنات التي نَسَبُوهَا إلى الله - تعالى الله عن قولهم غُلُوءاً كبيراً - فإنه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾، أي: كَتِيباً من الهم، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾، أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، أي: يتدها، وهو: أن يذفنّها فيه حيّة، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأتون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: بش ما قالوا، وبش ما قَسَمُوا، وبش ما نَسَبُوا إليه! كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال ها هنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾، أي: النقص إنما يُنْسَبُ إليهم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْأَعْلَىٰ﴾، أي: الكمال المطلق من كُلِّ وجه، وهو منسوب إليه، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِذُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [٦١] وَجَعَلُواكَ لِلَّهِ مَآ يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمْ لَلْمُسْحَقِ لَآ جِزْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

يُخبر تعالى عن جِلْمِهِ بخلقهم مع ظُلْمِهِمْ، وأنه لو يَأْخُذُهُمْ بما كسبوا ما تَرَكَ على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم. ولكن الرب - جَلَّ جلاله - يحلُم ويسرُّ، وَيُنْظِرُ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: لا يُعَاجِلُهُم بالعقوبة؛ إذ لو فَعَلَ ذلك بهم لما أَبْقَى أحداً. قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص أنه قال: كَادَ الْجَعْلُ^(١) أَنْ يُعَذَّبَ بِذَنْبِ بني آدم، وَقَرَأَ: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ

(١) الجعل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية.

بِظُلْمِهِ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَاخِرٍ». وكذا رَوَى الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَادَ الْجَمَلُ أَنْ يَهْلِكَ فِي جُحْرِه بِخَطِيئَةِ ابْنِ آدَمَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَكِيمٍ الْخُزَاعِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَابِرٍ الْحَنْفِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَجُلًا وَمَوْ يَقُولُ: إِنْ الظَّالِمُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ. قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: بَلَى وَاللَّهِ، حَتَّى إِنْ الْحَبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَتَكْرِهَا هَذَا بِظُلْمِ الظَّالِمِ.

[٤٠٨٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله بن مُسَرِّح، حدثنا سُلَيْمان بن عطاء، عن مُسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مُشَجَّعة بن رُبَيْعٍ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذُكِرْنَا عند رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُؤَخِّرُ شَيْئاً إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ الْعُمُرِ بِالزُّهْدِ الصَّالِحَةِ، يَرْزُقُهَا اللَّهُ الْعَبْدَ فَيَدْعُونَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيُلْحِقَهُ دَعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ، فَذَلِكَ زِيَادَةُ الْعُمُرِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾، أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأفنون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله. وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ لَبْسٌ﴾، إنكاراً عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاذ ففيه أيضاً لهم الحسنى، كقوله إخباراً عن قِيل من قال منهم: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرٌ ۝٩﴾. ولين أذقته نعمة بعد ضلالة منته ليقولن ذهب السيات عني إن لم لفي فخر. [هود: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا يَئِدَ ضَلَاةً مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ عِندِ اللَّهِ لَإَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَئِن يَمُنُّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَوْلَا ۝٧٧ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ آتَاهُ بَعْدَ الْحَنْ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨]، وقال إخباراً عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يُبَدَّ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأُجَدِّدَ خَيْرًا مِّنْهَا مُتَقَلِّبًا ۝٣٦﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]، فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وجد حَجَر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حَكَمَ ومواعظ، فمن ذلك: تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَتُحْزِنُونَ الْحَسَنَاتِ! أجل كما يُجتنى من الشوك العنب! وقال مجاهد، وقناة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ لَبْسٌ﴾، أي: الغلمان. وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ لَبْسٌ﴾، أي: يوم القيامة. وهو الصواب. ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنّيه: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبّير، وقناة، وغيرهم: مُنْسِيُونَ فيها مُضْبِعُونَ. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الاعراف: ٥١]. وعن قناة أيضاً: ﴿مُفْرَطُونَ﴾، أي: مُعَجَّلُونَ إلى النار، من المُفْرَط وهو السابق إلى الورد. ولا منافاة، لأنهم يُعَجَّل بهم يوم القيامة إلى النار، ويُنسَو فيها، أي: يُخْلَدُونَ.

(١) ضعيف جداً، أخرجه ابن عدي ٢٨٥/٣ وابن حبان في «المجروحين» ١/٣٣١ بهذا الإسناد عن أبي الدرداء، وأعله ابن عدي بسليمان بن عطاء الحمراي. وقال ابن حبان: يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني بأشياء موضوعة، لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري التخليط فيها منه، أو من مسلمة.

﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِلنَّبِيِّينَ لَهُمْ فِيهِ رَحْمَةٌ وَلِقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٣) ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤) ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَأَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٥)

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رُسلاً، فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدتُكَ تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حَمَلَهُمْ على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾، أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وَلِيُّهُم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريحاً لهم، ولهم عذاب اليم. ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليعين لهم، أي: للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وَهُدًى﴾، أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾، أي: لمن تَمَسَّكَ به، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يُخَيِّبُ الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُولِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِرٍ لِّبَنَاتٍ خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦) ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخَذِّلْنَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧)

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾، وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُولِهِمْ﴾، وأفرد ها هنا الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان. وفي الآية الأخرى: ﴿وَمِمَّا فِي بُطُولِهِمَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَنكِرُونَ﴾ (١١) ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢) [عبس: ١١-١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوَّى مَرْجِلَهُ الْيَوْمَ بِهَدْيِهِ فَنَاطِرَةً يَوْمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَ سَلْبَتْنٌ﴾ [النمل: ٣٥-٣٦]، أي: المال.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِرٍ لِّبَنَاتٍ خَالِصًا﴾، أي: يَتَخَلَّصُ الدَّمُ بِيَاضِهِ وَطَعْمُهُ وَخِلَاطُهُ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ فِي بَاطِنِ الْحَيَوَانِ، فيسري كُلُّهُ إِلَى مَوطنه، فإذا نُصِجَ الْغِذَاءُ فِي مَعِدَتِهِ تَصَرَّفَ مِنْهُ دَمٌ إِلَى الْعُرُوقِ، وَلَبِنٌ إِلَى الضَّرْعِ، وَيَوَلَّى إِلَى الْمَثَانَةِ، وَرَوَتْ إِلَى الْمَخْرَجِ، وَكُلٌّ مِنْهَا لَا يَشُوبُ الْآخَرَ وَلَا يَمَازِجُهُ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ. وقوله: ﴿لِّبَنَاتٍ خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّارِبِينَ﴾، أي: لَا يَعْصُ أَحَدٌ بِهِ. ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جَعَلَهُ شَرَاباً لِلنَّاسِ سَائِغاً، ثَمَّ يَذْكُرُ مَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَشْرَبَةِ، مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ، وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنَ النَّبِيذِ الْمُسَكَّرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ، وَلِهَذَا امْتَنَّنَ بِهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَإِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخَذِّلْنَ مِنْهُ سَكْرًا﴾، ذَلَّ عَلَى إِبَاحَتِهِ شَرْعاً قَبْلَ تَحْرِيمِهِ، وَدَلَّ عَلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ السُّكْرِ الْمَتَّخَذِ مِنَ الْعَنْبِ، وَالْمَتَّخَذِ مِنَ النَّخْلِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَكَذَا حَكَمَ سَائِرُ الْأَشْرَبَةِ الْمَتَّخَذَةِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالذَّرَةِ وَالْعَسَلِ، كَمَا جَاءَتْ السُّنَّةُ بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعٌ بِسَطِّ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، قَالَ: السُّكْرُ: مَا حَرَّمَ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا أُجِّلَ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا - وَفِي رِوَايَةٍ: السُّكْرُ حَرَامُهُ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ حَلَالُهُ. يَعْنِي مَا يَسَّرَ مِنْهُمَا مِنْ ثَمَرٍ وَزَيْبٍ، وَمَا عُمِلَ مِنْهُمَا مِنْ طِلَآءٍ - وَهُوَ الذُّبُسُ - وَخَلٌّ وَنَبِيذٌ، حَلَالٌ يُشْرَبُ قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ، كَمَا وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِذَلِكَ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ناسب ذكر العقل ها هنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حَرَّمَ اللهُ

على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابًا وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْأُمُيُونِ ﴿٦٨﴾ لِتَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٩﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْزَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٣٤ - ٣٦].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

المراد بالوحي ها هنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تنديسها ورضها، بحيث لا يكون بينها خلل. ثم أذن لها تعالى إذناً قُدْرِيّاً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مَذْلَلَةً، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها، وتقي العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تُضَبِّح إلى مراعيها. وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، أي: مُطِيعَةً. فجعله حالاً من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَنَهَا زِكْوَهُمْ وَنَهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: ٧٢]، قال: ألا تَرَى أَنَّهُمْ يَنْتَقِلُونَ بالنحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يَضْحَبُهُمْ. والقول الأول أظهر. وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مَذْلَلَةً لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين مُتَّجِعَةٌ.

[٤٠٨٩] وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن قُروخ، حدثنا سُكَيْن بن عبد العزيز، عن أبيه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمُرُ الذِّبَابِ أَرْبَعُونَ يَوْماً، وَالذِّبَابُ كُلُّهُ فِي النَّارِ إِلَّا النَّحْلُ»^(١).

(١) أخرجه أبو يعلى ٢٣١/١ وابن عدي ٤٦٣/٣. وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٦٦/٣.

قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٩٤: رجاله ثقات. وحسنه البوصيري فيما نقل الأعظمي كما في «تفريج المطالب العالية» ٢٩٦/٢، وفي ذلك نظر. وأعله ابن الجوزي بسكين، ونقل عن النسائي قوله: ليس بالقوي أنه وجاء في التهذيب: وثقه العجلي وابن نمير وابن حبان، وأثنى عليه غيرهم، وضعفه النسائي، وأبو داود وابن خزيمة أنه قلت: الخبر منكر، والظاهر أن علته أبوه عبد العزيز بن قيس، فقد ذكره الذهبي في الميزان، وقال: مجهول، وذكره ابن حبان في الثقات أنه وقال عنه الحفاظ في التقريب: مقبول. أي حيث يتابع، ولم يتابعه الثقات على هذا. وورد من وجه آخر أخرجه أبو يعلى ٤٢٩٠ وإسناده ضعيف جداً فيه عنبسة بن سعيد البصري، وحنظلة، وكلاهما واه. وما يدل على وهنه، هو أن الذباب يعمر فوق الأربعين يوماً بكثير. وعجزه ورد من حديث ابن عمر، أخرجه الطبراني ١٣٤٣٦ و ١٣٤٦٧ و ١٣٤٦٨ و ١٣٥٤٢ و ١٣٥٤٣ و ١٣٥٤٤ والبزار ٣٤٩٨ وابن عدي ٢٨٥/١ - ٣٤٩ و ٤٤/٥ وابن الجوزي ٢٦٥/٣ - ٢٦٦: في الطريق الأول أيوب بن خوط، قال يمين: لا يكتب حديثه، وقال الفلاس والنسائي والرازي والسعدي: متروك. وفي الطريق الثاني: القاسم بن يزيد بن سفيان مجهول أنه وقال الهيثمي: رجال بعض أسانيد الطبراني ثقات.

وورد من حديث ابن عباس، أخرجه الطبراني ١١٠٥٨ وقال الهيثمي ١٨٥٩٥: رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن حازم وهو ثقة. وورد من حديث ابن مسعود، أخرجه الطبراني ١٠٤٨٧، وقال الهيثمي ١٨٥٩٧: إسحق بن يمين بن طلحة متروك، وذكره ابن حبان في الضعفاء، وفي الثقات، وقال: يترك ما انفرد به، ويحتج بما وافق فيه الثقات. قال الهيثمي: وقد وافقه الثقات في أصل الحديث أنه، وذكره السيوطي في «الذيل» ٤٦٣/٢ - ٤٦٤ وذكره له طرقاً أخرى لم يذكرها ابن الجوزي، وعلى هذا فلا يحسن الحكم عليه بالوضع، كما أنه لا يبلغ درجة الصحيح، هذا بالنسبة لمعجزه، وأما صدره فهو منكر. تفرد به سكين وأبوه، وسكين وضعفه غير واحد كما تقدم، وأبوه مجهول، والله تعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ ثَخِيلٌ لَّيْسَ فِيهِ لَأْسٌ﴾، أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكليها منها. وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال: فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشئ يداوى بضده. وقال مجاهد بن جبر في قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾: يعني القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ها هنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ها هنا، وإنما الذي قاله ذكره في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً مَوْسِيقًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]... الآية، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، هو العسل.

[٤٠٩٠] الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من رواية قتادة، عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه؟ فقال: اسقه عسلاً. فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً قال: «اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسْلاً». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً! فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك! اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسْلاً». فذهب فسقاه قَبْرًا^(١). قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا مضرة، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكَذَلِكَ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصَلَحَ مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

[٤٠٩١] وفي الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الخلوة والعسل^(٢). هذا لفظ البخاري.

[٤٠٩٢] وفي صحيح البخاري، من حديث سالم الأفلطس، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شربة مخجّم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي»^(٣).

[٤٠٩٣] وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن العييل، عن عاصم بن عُمَر بن قَتَادَةَ: سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم - أو يكون في شيء من أدويتكم - خير ففي شربة مخجّم، أو شربة عسل، أو لدغة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي»^(٤). ورواه مسلم من حديث عاصم بن عُمَر بن قَتَادَةَ، عن جابر، به.

[٤٠٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا عبد الله بن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧١٦ ومسلم ٢٢١٧ والترمذي ٢٠٨٣ وأحمد ١٩/٣ و ٩٢ وأبو يعلى ١٢٦١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٣١ و ٥٦١٤ ومسلم ١٤٧٤ وأبو داود ٣٧١٥ والترمذي ١٨٣٢ وابن ماجه ٣٣٢٣ وأحمد ٦/٥٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٨٠.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٨٣ ومسلم ٢٢٠٥ وأبو يعلى ٢١٠٠.

الوليد، عن أبي الخير، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ فَشَرْطَةُ مِخْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةُ عَسَلٍ، أَوْ كَيْتَةُ تُصِيبُ الْمَاءَ، وَأَنَا أَكْرَهُ الْكَيْتَ وَلَا أَحِبُّهُ»^(١). وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ هَارُونَ بْنِ مَلُولٍ الْمَصْرِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَقْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْوَلِيدِ، بِهِ، وَلَفْظُهُ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ فَشَرْطَةُ مِخْجَمٍ...»^(٢) وَذَكَرَهُ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ.

[٤٠٩٥] وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَاجَةَ الْقَزْوِينِيُّ فِي سُنَنِهِ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ سَلْمَةَ - هُوَ اللَّبْقِيُّ - حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالشَّفَائَيْنِ الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ»^(٣). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، تُفَرَّدُ بِإِخْرَاجِهِ ابْنُ مَاجَةَ مَرْفُوعاً، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَفْيَانَ بْنِ وَكِيعٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَفْيَانَ - هُوَ الثَّوْرِيُّ - بِهِ مَوْقُوفاً؛ وَلَهُوَ أَشْبَهُ. وَرَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ الشِّفَاءَ فَلْيَكْتُبْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي صَحْفَةٍ، وَلِيُغْسِلْهَا بِمَاءِ السَّمَاءِ، وَلِيَأْخُذَ مِنْ أَمْرَاتِهِ دَرْهَمًا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهَا، فَلْيَشْتَرِ بِهِ عَسَلًا فَلْيُشْرِبْهُ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ شِفَاءٌ، أَيْ مِنْ وَجْهِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩]، وَقَالَ: ﴿إِنْ يَطْبَخْ لَكُمْ عَنْ شَقِّ وَثْنَةٍ قَسًا لَكُمْوَهُمَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤]، وَقَالَ فِي الْعَسَلِ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

[٤٠٩٦] وَقَالَ ابْنُ مَاجَةَ أَيْضاً: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَدَّاشٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ زَكْرِيَا الْقُرَشِيُّ، حَدَّثَنَا الزَّبِيرُ بْنُ سَعِيدٍ الْهَاشِمِيُّ، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَبِقَ الْعَسَلَ ثَلَاثَ غَدَاوَاتٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ، لَمْ يُصِبْهُ عَظِيمٌ مِنَ الْبَلَاءِ»^(٤). الزَّبِيرُ بْنُ سَعِيدٍ مَتْرُوكٌ.

[٤٠٩٧] وَقَالَ ابْنُ مَاجَةَ أَيْضاً: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَوْسُفَ بْنِ سَرْجٍ الْفِزْيَابِيُّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ بَكْرِ السُّكْسَكِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ: سَمِعْتُ أَبَا أَبِي بِنَ أُمِّ حَرَامٍ - وَكَانَ قَدْ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ - يَقُولُ: سَمِعْتُ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١٤٦/٤ وأبو يعلى ١٧٦٥ وفي إسناده عبد الله بن الوليد لين الحديث كما في «التقريب» لكن يشهد له ما قبله. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٩٠/٥ - ٩١ وقال: رجاله رجال الصحيح خلا عبد الله بن الوليد بن قيس، وهو ثقة اهـ.

(٢) أخرجه الطبراني ٤٣٠/١٩ وصححه ابن كثير رحمه الله ويتأيد بما قبله.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٢ والحاكم ٢٠٠/٤ - ٤٠٣ والخطيب ٣٨٥/١١ وابن عدي ٢١٠/٣، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وفي إسناده زيد بن الحباب صدوق روى له مسلم لكن قال ابن معين: أحاديثه عن الثوري مقلوبة. وقال أحمد: صدوق كثير الخطأ. والحديث صحيح إسناده البوصيري في «الزوائد» وأما ابن عدي فقد صوب الوقف وجعل الرفع من أوهام زيد بن الحباب. وكذا ذكره الذهبي في الميزان بهذا الحديث وقال: رواه جماعة عن الثوري موقوفاً على ابن مسعود، وكرره ابن عدي ٣١٨/٣ وقال: وهذا يعرف عن الثوري مرفوعاً من رواية زيد بن الحباب، وأما عن وكيع عن الثوري فهو موقوف، ورواه ابن أبي شيبة ١٢/٦١/٢ موقوفاً. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٢٥٨١ مرفوعاً، وقال: رفعه زيد بن الحباب، والصحيح موقوف على ابن مسعود. وكذا أخرجه الطبري ٢١١٧٥٤ عن وكيع عن الثوري به موقوفاً، ووكيع أثبت من زيد بن الحباب في الثوري، والله أعلم.

(٤) ضعيف جداً، أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٠ وابن عدي ٣٢٠/٥. وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢١٥/٣ من حديث أبي هريرة. قال البوصيري في الزوائد: في إسناده لين، ومع ذلك فهو منقطع. قال البخاري: لا نعرف لعبد الحميد - بن سالم - سماعاً من أبي هريرة اهـ وقال ابن الجوزي: لا يصح، قال العقيلي: وليس لهذا الحديث أصل عن ثقة، وأعله ابن كثير بالزبير فقط، وأنه متروك.

رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسُّنَا والسُّنُوت؛ فإن فيهما شفاءً من كُلِّ داءٍ إلا السَّامَ». قيل: يا رسول الله، وما السَّام؟ قال: «الموت»^(١). قال عمرو: قال ابن أبي عبيدة: السُّنُوت: الشَّيْثُ. وقال آخرون: بل هو العسل الذي في رِقَاقِ السَّمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بِالسُّنُوتِ لَا أَلَسَ فِيهِمْ وَهُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ أَنْ يَتَقَرَّدَا
كذا رواه ابن ماجه، وقوله: لَا أَلَسَ فِيهِمْ، أي: لَا خَلَطَ. وقوله: يَمْنَعُونَ الْجَارَ أَنْ يَتَقَرَّدَا، أي: يُضْطَهِّدُ وَيُظْلِمُ. كذا قاله شيخنا المِزِّي. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقية إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الشمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدِّرها ومُسَخِّرِهَا ومُيَسِّرِهَا، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^(٧٠)
يخبر تعالى عن تَصَرُّفه في عبادته، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يَتَوَفَّاهُمْ، ومنهم من يَتَرَكُهُ حتى يُذَكِّره الهرم - وهو الضعف في الخلق - كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. وقد روي عن علي - رضي الله عنه - في أَرذَلِ الْعُمُرِ قال: خُمُسٌ وسبعون سنة. وفي هذا السنَّ يحصل له ضعفُ القُوَى والخَرَفُ وسوءُ الحِفْظِ وقلةُ العلم. ولهذا قال: ﴿لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أي: بعدما كان عالماً أصبح لا يَذَرِي شَيْئاً مِنَ الْفَنَدِ وَالْخَرَفِ.

[٤٠٩٨] ولهذا رَوَى البخاري عند تفسير هذه الآية: حَدَّثَنَا موسى بن إسماعيل، حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مُوسَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَعْمُرُ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»^(٢). ورواه مسلم، من حديث هَارُونِ الْأَعْمُرِ، به. وَقَالَ زهير بن أَبِي سُلَيْمٍ في معلقته المشهورة:

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ عَامًا - لَا أَبَا لَكَ - يَسْأَمُ
رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبِطَ عَشَوَاءَ مِنْ تُصِيبَ ثَمَنَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرَ فَيَهْرَمَ

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٧١)

يُبَيِّنُ تعالى للمشرَكين جَهْلَهُمْ وكُفْرَهُمْ فيما يزعمون لله من الشركاء، وهم يَغرِفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تليياتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٧ بطوله وقال البوصيري في «الزوائد» عمرو بن بكر السكسكي قال فيه ابن حبان: روى عن إبراهيم بن أبي عبيدة الأوابد والطامات لا يحل الاحتجاج به. لكن قال الحاكم: إنه إسناد صحيح اه. وتعبه الذهبي بقوله: عمرو اتهمه ابن حبان. وقال ابن عدي عنده مناكير اه وذكره الألباني في «الصحيحة» ١٧٩٨ وقواه بشواهد واهية، فالله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠٧ ومسلم ٦٧٠٦ ح ٥٢.

منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تُساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]... الآية. قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا يُشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني فذلك قوله: ﴿أَفَتَعْمَلُونَ اللَّهُ بِمَا يَحْسَدُونَ﴾. وقال في الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟! وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثلٌ للآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟! فإن لم تَرْضَ لنفسيك هذا، فالله أحق أن ينزهه منك. وقوله: ﴿أَفَتَعْمَلُونَ اللَّهُ بِمَا يَحْسَدُونَ﴾، أي: إنهم جعلوا الله ما ذراً من الحرث والأنعام نصيباً، فجهّدوا بِنِعْمَةِ الله، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فَضَّلَ بعض عباده على بعض في الرزق، بل يتلي به كلاً، فيتلي مَنْ يَسَطُّ له، كيف شكره فيه؟ وشكر الله أداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوّله؟. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
أَفَبِلَاغِ الْبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢)

يذكر تعالى نِعَمَهُ على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم وزيجهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة. ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور. ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد. قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: هم الولد وولد الولد. وقال سُئِيد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، عن أبي بكر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بَنُونَ حين يُحَفِّدُونَك ويَرَفِّدُونَك، ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حَفَدُ الْوَلَدِ حَوْلُهُنَّ وَأَسْلَمَتْ بَأُكْفِهِنَّ أَزْمَةُ الْأَجْمَالِ

وقال مجاهد: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدّام. وقال طاووس: الحفدة الخدم. وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدّمك من وَلَدِكَ وَوَلَدِ وَلَدِكَ. وقال الضحاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: «الحفدة»: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا أي يعمل لنا. قال: وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل. وهذا القول الأخير الذي ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضحى، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والقرظي. ورواه عكرمة عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفد، وهو الخدمة، الذي منه قوله في القنوت: وإليك نسعى ونحفد، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدّام، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾. قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد

أن يكون المراد الأولاد، وأولاد الأولاد، أو الأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، أو البنات، أو أولاد الزوجة، كما قاله الشعبي والضحاك، فإنهم غالباً يكونون تحت كَنْفِ الرجل وفي جِحرِهِ وفي خدمته.

[٤٠٩٩] وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَضْرَةَ بن أَكْثَمَ: «وَالْوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ»^(١). رواه أبو داود. وأما من جعل الحَقْدَةَ هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا»، أي: وجعل لكم خُدَمًا. وقال تعالى: «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ»، الرزق من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكرأ على من أشرك في عبادة المنعم غيره: «أَفَيَا لَيْلٍ يُؤْمِنُونَ»، وهم: الأصنام والأنداد، «وَيَنْتَصِبُ اللَّهُ لَهُمْ يَكَفِّرُونَ»، أي: يَسْتُرُونَ نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

[٤١٠٠] وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمْتَنَّا عَلَيْهِ: أَلَمْ أَزُوجْكَ؟ أَلَمْ أَكْرَمْكَ؟ أَلَمْ أَسْخَرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟»^(٢).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) ﴿فَلَا تَضَرُّوهُمُ﴾
﴿لِلَّهِ الْأَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤)

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عَبَدُوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يَعْبُدُونَ من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾، أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس إليهم ذلك ولا يقدرُونَ عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضَرُّوهُمُ لِلَّهِ الْأَمْثَالُ﴾، أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

قال العوفي، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. فالعبد المملوك الذي لا يَقْدِرُ على شيء مثل الكافر. والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هو المؤمن. وقال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يَسْتَوِي هذا وهذا؟! ولما كان الفرق ما بينهما بَيِّنًا واضحاً ظاهراً لا يجهله إلا كلُّ غَبِيٍّ، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦)

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا شرّاً، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾، أي: عيال وكلفة على

(١) أخرجه أبو داود ٢١٣١ وله قصة، وهو حديث حسن.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند الآية: ٤٦.

مولاه، ﴿إِنَّمَا يُوجِهُهُ﴾، أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته، ﴿وَمَنْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ﴾، أي: بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وبهذا قال السدي، وقتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدّم. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحيني، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن إبراهيم عن عكرمة عن يعلی بن أمية، عن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبد. وفي قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: والابكم الذي أنبأ يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولی لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وإنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أُمِرْنَا إِلَّا بِوَحْدَةٍ كَلَمَحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٠]، أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال ما هنا: ﴿وَمَا أُمِرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَجِدْوْهُ﴾ [لقمان: ٢٨]. ثم ذكر تعالى ميثقه على عباده، في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسبون المراتب، والأفئدة - وهي العقول - التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره، وقوي عقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جراحة وغضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٤١٠١] [يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بأفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيته، ولئن دعاني لأجيبه، ولئن استعاذ بي لأعيذته، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه^(١). فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله

(١) تقدم الكلام عليه في سورة البقرة، آية: ٩٨.

عَزَّ وَجَلَّ، فلا يَسْمَعُ إلا الله، ولا يُبْصِرُ إلا الله، أي: ما شَرَعَهُ الله له. ولا يَنْطِشُ ولا يَمْشِي إلا في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، مُسْتَعِينًا بالله في ذلك كُلِّهِ. ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: «وَرَجَلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَنْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٣٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٣٤﴾ [المالك: ٢٣، ٢٤]. ثم نَبَّه تعالى عباده إلى النَظَرِ إلى الطير المسخَّرِ بين السماء والأرض، كيف جَعَلَهُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، في جَوِّ السَّمَاءِ ما يُمِيسِكُهُ هُنَاكَ إلا الله بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى، الذي جَعَلَ فِيهَا قُوَى تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَسَخَّرَ الْهَوَاءَ يَحْمِلُهَا وَيَسِّرُ الطَّيْرَ لَذَلِكَ، كما قال تعالى في سورة المَلِكِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِلٌ وَيَقْنِئْنَ مَا يُمِيسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٩﴾ [المالك: ١٩]. وقال هَا هُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعِزِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى خِصْيٍ﴾ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْلُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٣﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُوهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٤﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَمَامَ نِعْمِهِ عَلَى عِبِيدِهِ، بما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي هِيَ سَكَنٌ لَهُمْ، يَأْوُونَ إِلَيْهَا وَيَسْتَقْفِرُونَ بِهَا، وَيَتَنَفَّعُونَ بِهَا سَائِرَ وَجُوهِ الْإِنْتِفَاعِ، وجعل لهم أيضاً «مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا»، أي: من الأدم، يَسْتَخِفُّونَ حَمْلَهَا فِي أَصْفَارِهِمْ، لِيَضْرِبُوهَا لَهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ. ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾، أي: الْمَمْعَز - والضمير عائد على الأنعام - ﴿أَثْنَا﴾، أي: تتخذون منه أثناً، وهو المال. وقيل: الْمَتَاع. وقيل: الثياب. والصحيح أعمُّ من هذا كُلِّهِ، فإنه يتخذ منه الأثاث والبُسط والثياب وغير ذلك، وَيَتَّخِذُ مَالًا وَتِجَارَةً. وقال ابن عباس: الأثاث: الْمَتَاع. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبَّير، والحسن، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، والضحاك، وقَتَادَةُ. وقوله: ﴿إِلَّا خِصْيٍ﴾، أي: إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَوَقْتُ مَعْلُومٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾، قال قتادة: يعني الشَّجَر. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، أي: حصوناً ومعاقل، كما ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾، كالدرع من الحديد المصْفُوح والزَّرْدِ وغير ذلك، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْلُونَ﴾، هكذا فَسَّرَهُ الْجُمْهُورُ، وَقَرَّوْهُ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنْ «تُشْلُونَ» أي: من الإسلام. وقال قتادة: في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْلُونَ﴾. هذه السورة تُسَمَّى سُورَةُ النَّعْمِ. وقال عبد الله بن المبارك وعَبَادُ بْنُ الْعَوَامِ، عن حَنْظَلَةَ السَّدُوسِيِّ، عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن ابن عباس أنه كان يَقْرَأُهَا «تُسَلِّمُونَ» - بفتح اللام - يعني من الجراح. رَوَاهُ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ، عن عَبَادٍ، وأَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنَ الْوُجْهِينِ، وَرَدَّ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ. وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قَدْرِ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِ، لَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ

أَكْثَرَنَا ، وما جعل لكم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال! ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَمْشَرِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا لِّإِي جِين﴾ ، وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب وَبَرٍ وشَعَرٍ. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ مِنَ الْبَلَاءِ مَا يَكُونُ لَكُمْ مِنْهُ نَقِصٌ وَلَا يَنْفَعُكُمْ﴾ ، [النور: ٤٣] ، يُعْجِبُهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يَعْرِفُونَهُ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ أَحَرَّ﴾ ، وما بقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حَرٍّ. وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ، أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ ، وقد أدبته إليهم. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ، أي: يَعْرِفُونَ أن الله تعالى هو المُسْدِي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، وَيُسْنِدُونَ الرِّزْقَ والنَّصْرَ إلى غيره، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ، كما قال ابن أبي حاتم:

[٤١٠٢] حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد: أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ سَكَنًا﴾ ، قال الأعرابي: نعم. قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْفُسِ يَوْمًا تُنْزِفُونَهَا يَوْمَ طَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ﴾ ، قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ، فَوَلَّى الأعرابي، فانزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ ^(١).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَاطَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الَّذِي كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجبته فيما بَلَغَهَا عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٨٦﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]. ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ، أي: أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ، أي: لا يُفْتَر عنهم ساعة واحدة، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ، أي: ولا يُؤَخَّر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب.

[٤١٠٣] فإنه إذا جيءَ بجهنم تُقَاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عُنُقُ منها على الخلائق، وتزفر زفرة فلا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكُلْتُ بكلِّ جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس ^(٢)، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي عليهم وتلقطهم من الموقف كما يَتَلَقَطُ الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعْنَهَا مَا تَصَوَّتْ وَقَوَّيْتُ وَأَلْقَتْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقَرَّيْنِ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٨٦﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الفرقان: ٨٦-٨٧]

(١) إسناده ضعيف، فهو مرسل، ومع إرساله فيه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فيه كلام.

(٢) متفق عليه، وسيأتي في الجالية.

١٢- ١٤، وقال تعالى: ﴿وَرَبَّكَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَكَ مَصْرَفًا ۝٨٩﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ رُبُّهُمْ أَلَّا تَنَارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٣٩- ٤٠].

ثم أخبر تعالى على تَبْزِيهِ إِلَهُهِمْ منهم أحوَجَ ما يكونون إليها فقال عز وجل: ﴿وَإِنَّا رَبُّكَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَ هُذًى، أَي: الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أَي: قَالَتْ لَهُمُ الْآلِهَةُ: كَذَبْتُمْ، نَحْنُ مَا أَمَرْنَاكُمْ بِعِبَادَتِنَا. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَلَ يَمَنْ يُدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٩١﴾ وَإِنَّا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٩٢﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيُكَفِّرُوا عَنْهُمْ عَذَابًا ۝٩٣﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٩٤﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ عُصْرَةٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ۝٩٥﴾ ... الآية [القصاص: ٦٤]. والآيات فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ الْمَسَارَ﴾، قال قتادة، وعكرمة: ذَلُّوا واستسلموا يومئذ، أَي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع. كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ يَوْمَ وَأَمِيزْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨]، أَي: مَا أَسْمَعُهُمْ وَمَا أَبْصَرُهُمْ يَوْمَئِذٍ! وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتْرُجْنَا تَعْمَلْ صَليحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝٩٦﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿وَعَسَىٰ أَوَّلُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، أَي: خَضَعْتَ وَذَلْتَ وَاسْتَكَنْتَ وَأَنْابْتَ وَاسْتَسَلَمْتَ. وقوله ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ الْمَسَارَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٩٧﴾، أَي: ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ وَلَا مُعِينٌ وَلَا مُجِيرٌ.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ۝٩٨﴾، أَي: عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَعَذَابًا عَلَى صُدُّهِمُ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، أَي: يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِهِ، وَيَتَعَدُّونَ هُمْ مِنْهُ أَيْضًا ﴿وَلَنْ يُّفْلِحَ الْكَافِرُونَ﴾. وهذا دَلِيلٌ عَلَى تَفَاوُثِ الْكَفَّارِ فِي عَذَابِهِمْ، كما يَتَفَاوُثُ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَفَرَجَاتِهِمْ، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقد قال الحافظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا سُرَيْجُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو معاوية، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْثَةَ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾، قال: زِيدُوا عِقَارِبَ أَنْبِيَائِهَا كَالنَّخْلِ الطُّوَالِ. وَحَدَّثَنَا سُرَيْجُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾، قال: هِيَ خَمْسَةٌ أَنَّهُمْ تَحْتَ الْعَرْشِ يُعَذِّبُونَ بَعْضُهُمْ بِاللَّيْلِ وَبَعْضُهُمْ بِالنَّهَارِ.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٩٩﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾، يعني أمته، أَي: اذْكُرْ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهُوَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ.

[٤١٠٤] وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهت إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١). فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك!» قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: فالتفت فإذا عيناه تذرفان.

وقوله تعالى: ﴿وَزَكَّا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَتَيْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، قال ابن مسعود: وقد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء. وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم. و﴿هَذِي﴾، أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً وَرِثَةً لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وقال الأوزاعي: ﴿وَزَكَّا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَتَيْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: بالسنة. ووجه اقتران قوله: ﴿وَزَكَّا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، مع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾، أن المراد - والله أعلم - أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿فَوَرَبَّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٧] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٩٨] [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿يَوْمَ يَمْعُ أَلَّهُ الْأَرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَلَيْنَا فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْيِكَ لِرَأْيِكَ إِلَى مَعَاذٍ﴾ [القصص: ٨٥]، أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرأيه، ومعيذك يوم القيامة، وسألك عن أدائه ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو منتهج حسن.

﴿۱۰﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿۱۱﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ الْقِسْطُ وَالْمَوَازَنَةُ، وَيَنْذُبُ إِلَى الْإِحْسَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الْمِقَالَ إِذْ أَخْرَجْنَا مِنْ بُطُونِ السَّحَابِ مَاءً ثَمَرًا لَهُ ثَمَرٌ فَقُلْنَا ذُقُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَلَكِنَّ صَبَرْتُمْ لَهْوِ خَيْرٍ لِلصَّادِقِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وَقَالَ: ﴿وَحَزَرَكَ سِنْتَ سِنَةٍ يَثْلُهُنَّ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وَقَالَ: ﴿وَالْحَرْجُ قِصَاصٌ فَمَنْ نَصَّدَكَ بِهِ فَهُوَ كِفَارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا، مِنْ شَرْعِيَةِ الْعَدْلِ وَالنَّدْبِ إِلَى الْفَضْلِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَالَ سَفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الْعَدْلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ اسْتَوَاءُ السَّرِيرَةِ وَالْعِلَانِيَةِ مِنْ كُلِّ عَامِلٍ لِلَّهِ عَمَلًا. وَالْإِحْسَانُ أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ عِلَانِيَّتِهِ. وَالْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ أَنْ تَكُونَ عِلَانِيَّتُهُ أَحْسَنَ مِنْ سَرِيرَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ أَتْقَانِهِ أَلَّا تُكُونَ لِلدُّنْيَا بَاقِلِينَ﴾ [البقرة: ١٩٧]

كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا آتَاكَ الْقُرْآنُ مِنْ حَقٍّ وَلَا الْأَنْبِيَاءُ مِنْ دُونِهِ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَتَنَبَّهْنَ عَلَى الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، فَالْفَوَاحِشُ: الْمُحَرَّمَاتُ. وَالْمُنْكَرَاتُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ فَاعِلِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وَأَمَّا الْبَغْيُ فَهُوَ الْعُدَاؤُ عَلَى النَّاسِ.

[٤١٠٥] وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدُر أن يُعْجَلَ الله عُقُوبَتَهُ في الدنيا، مع ما يَدُخِرُ لصاحبه في الآخرة، من البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرِّحْمِ»^(٢). وقوله: ﴿يُعْطِيكُمْ﴾، أي: يأمُرُكم بما يأمُرُكم به من الخير،

(١) وتقدم تخريج الحديث فيها.

(٢) تقدم في تفسير سورة المائدة: ٣١. وهو حسن.

وينهاكم عن الذي ينهاكم عنه من الشر، ﴿لَمَلَّكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾. قال الشعبي، عن شُتَيْرِ بْنِ شَكْلٍ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾... الآية. رواه ابن جرير. وقال سعيد: عن قتادة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾... الآية،: ليس من خُلِقَ حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به. وليس من خُلِقَ سيئاً كانوا يتعاضون بينهم إلا نهى الله عنه وقَدَّم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومَذَامِهَا.

[٤١٠٦] قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفَسَافَهَا»^(١).

[٤١٠٧] وقال الحافظ أبو نعيم في كتاب «معركة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى بن محمد مولى بني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المُنْكَدِرِيُّ، حدثنا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ الْمُقَدَّمِي، عن علي بن عبد الملك بن عمير، عن أبيه قال: بلغ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ مُخْرَجَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِيَهُ، فَأَبَى قَوْمُهُ أَنْ يَدْعُوهُ وَقَالُوا: أَنْتَ كَبِيرُنَا، لَمْ تَكُنْ لِتُخَفِّفَ إِلَيْهِ! قَالَ: فَلْيَأْتِيَهُ مِنْ يُلْبِغُهُ عَنِّي وَيُلْبِغُنِي عَنْهُ. فانتدب رجلاً فأتى النبي ﷺ فقال: نحن رسل أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: «أَنَا مِنْ أَنَا فَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَنَا مَا أَنَا فَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢)، قالوا: ارْذُ عَلَيْنَا هَذَا الْقَوْلَ. فَرَدَّدَهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَفَظُوهُ. فَأَتَا أَكْثَمُ فَقَالَا: أَبَى أَنْ يَرْفَعَ نَسَبَهُ، فَسَأَلْنَا عَنْ نَسَبِهِ فَوَجَدْنَاهُ زَاكِي النَّسَبِ، وَاسْطَافَ فِي مَضَرٍّ، وَقَدْ رَمَى إِلَيْنَا بِكَلِمَاتٍ قَدْ سَمِعْنَاهَا. فَلَمَّا سَمِعَهُنَّ أَكْثَمُ قَالَ: إِنِّي قَدْ أَرَاهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَى عَنْ مَلَأَمِهَا، فَكُونُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ رُؤُوساً، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ أَذْنَاباً^(٣).

[٤١٠٨] وقد وَرَدَ فِي نزول هذه الآية الكريمة حديثٌ حَسَنٌ، رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شَهْرٌ، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس، إِذْ مَرَّ بِهِ عِثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَكَشَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَجْلِسُ؟» فقال: بلى. قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إِذْ شَخَّصَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَنَظَرَ سَاعَةً إِلَى السَّمَاءِ، وَأَخَذَ يَضَعُ بَصَرَهُ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى يَمْنَنِهِ فِي الْأَرْضِ، فَتَحَرَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ جَلِيسِهِ عِثْمَانَ إِلَى حَيْثُ وَضَعَ بَصَرَهُ. فَأَخَذَ يُنْفِضُ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْقَهُ مَا يَقَالُ لَهُ، وَابْنُ مَظْعُونٍ يَنْظُرُ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ وَاسْتَفْقَهُ مَا يَقَالُ لَهُ، شَخَّصَ بَصَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا شَخَّصَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَتْبَعَهُ بَصَرُهُ حَتَّى تَوَارَى فِي السَّمَاءِ، فَأَقْبَلَ إِلَى عِثْمَانَ بِجِلْسَتِهِ الْأُولَى، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ كُنْتَ أَجَالَسُكَ؟ مَا رَأَيْتُكَ تَفْعَلُ كَفَعْلِكَ الْغَدَاةَ! قَالَ: «وَمَا رَأَيْتُنِي فَعَلْتُ؟» قَالَ: رَأَيْتُكَ شَخَّصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعْتَهُ حَيْثُ وَضَعْتَهُ عَلَى يَمِينِكَ، فَتَحَرَّفْتُ إِلَيْهِ وَتَرَكْتَنِي، فَأَخَذْتَ تُنْفِضُ رَأْسَكَ كَأَنكَ تَسْتَفْقَهُ شَيْئاً يَقَالُ لَكَ. قَالَ: وَقَطِنْتَ لَذَلِكَ؟ قَالَ عِثْمَانُ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا نِي رَسُولُ اللَّهِ أَتَفَأُ وَأَنْتَ جَالِسٌ». قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟! قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٤). قَالَ عِثْمَانُ: فَذَلِكَ حِينَ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي، وَأَحْبَبْتُ

(١) حسن. أخرجه الطبراني ٥٩٢٨ والحاكم ٤٨/١ وأبو نعيم في «الحلية» ٢٥٥/٣ والسلفي في «معجم السفر» ١/١٧٤ من حديث سهل بن سعد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن وله شواهد.

(٢) إسناده ضعيف، عبد الملك بن عمير تابعي، فهو مرسل. وفي الحسن بن داود وعمر بن علي كلام.

محمَّد^(١). إسناده جيّد متصل حسن. وقد بُيِّن فيه السماع المُتَّصِلُ. ورواه ابنُ أبي حاتم، من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

[٤١٠٩] حديث آخر: عن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيُّ في ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا مُرَيْم، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنتُ عند رسول الله ﷺ جالساً، إذ شَخَصَ بَصَرَهُ فقال: «أتاني جبريلُ، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنَّكَاحِ وَالْبَغْيِ يُعْطِكُمْ لَمَلَكُم تَذَكُّرُونَ﴾^(٢)». وهذا إسناده لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا تَنْخَدُونَ أَيْمَنَكُمُ دَخَلًا يَنْتَكُمُ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمُ اللَّهُ بِهَدْيٍ وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٤)

وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. ولا تعارض بين هذه وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَةً لِّإِيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨٩]، أي: لا تركوها بلا تكفير. وبين قوله ﷺ، فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال:

[٤١١٠] «إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها». وفي رواية: «وكفرت عن يميني»^(٥). - لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة ها هنا وهي قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على جنث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، يعني الجلف، أي: جلف الجاهلية؛

[٤١١١] ويؤيده ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - حدثنا ابن نمير وأبو أسامة، عن زكريا - هو ابنُ أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جُبَيْر بن مُطْعِم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا جلف في الإسلام، وأيما جلف كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا شدةً»^(٦). وكذا رواه مسلم، عن ابن أبي شيبة، به. ومعناه أن الإسلام لا يُحتَاجُ معه إلى الجلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

(١) أخرجه أحمد ٣١٨/١ والطبراني ٨٣٢٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤٨/٧ وقال: وشهر وثقه أحمد وجماعة، وفيه ضعف لا يضر وبقي رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ٢١٨/٤ وحسن إسناده الهيثمي في «المجمع» ٤٨/٧ - ٤٩ وفي إسناده شهر بن حوشب صدوق كثير الأوهام والإرسال، ويدلس. ولم يصرح ههنا بالتحديث. وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٢٤ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣٣.

[٤١١٢] وأما ما وَرَدَ في الصَّحِيحَيْنِ، عن عاصم الأَخُولِ، عن أنس - رضي الله عنه - أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دُورنا^(١) - فمعناه أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثون به حتى تُسَيِّخَ ذلك، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عُمارة الأسدي، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بن موسى، أخبرنا أَبُو لَيْلَى، عن بُرَيْدَةَ في قَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايَعَ النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: البيعة، لا يحملنكم قِلَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا التي بايعتم على الإسلام^(٢).

[٤١١٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر بن جُويرية، عن نافع قال: لما خَلَعَ الناس يزيد بن معاوية، جَمَعَ ابْنُ عمر بنِيه وأهله ثم تشهَّد، ثم قال: أما بعدُ فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُنْصَبُ له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلان». وإن من أعظم الغدْرِ - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يَبَايَعَ رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يُسْرِفَنَّ أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صِلَتم بيني وبينه^(٣). المرفوع منه في الصَّحِيحَيْنِ.

[٤١١٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حجاج، عن عبد الرحمن بن عابس، عن أبيه، عن خُذَيْفَةَ قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «من شَرَطَ لأخيه شرطاً، لا يريد أن يفي له به، فهو كالمُدْلِي جَارَه إلى غير مَنَعَةٍ»^(٤).

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَقْعَلُونَ﴾، تهديدٌ ووعيدٌ لمن نَقَضَ الأيمانَ بعد توكيدها. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَقَتْ غَزَلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ - قال عبد الله بن كثير، والسَّدْيُ: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كُلَّمَا غَزَلَتْ شيئاً نفقته بعد إبرامه. وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثلٌ لمن نَقَضَ عَهْدَهُ بعد توكيده. وهذا القولُ أرجحُ وأظهرُ وسواء كان بمكة امرأة تنقض غَزْلَهَا أم لا. وقوله: ﴿أَنْكَا﴾، يَحْتَمِلُ أن يكون اسمٌ مُضَدَّرٌ، نَفَقَتْ غَزْلَهَا أَنْكَا، أي: أنقاضاً. ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثاً، جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: ﴿لَتَنَخِذُوا أَنْكَاكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة ومكرراً، ﴿أَنْ تَكُونُ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ﴾، أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدرُ بهم غَدَرْتُمْ. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدرِ والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

[٤١١٥] وقد قدمنا - والله الحمد - في «سورة الأنفال قصَّة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمدً،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٩٤ و ٧٣٤٠ ومسلم ٢٥٢٩ وأبو داود ٢٩٢٦ وأحمد ١٤٥/٣ و ٢٨١ وأبو يعلى ٣٣٥٦ من حديث أنس.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢١٨٧١ وإسناده ضعيف لضعف أبي ليل، ولم يدرك بريدة..

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٤٨/٢ و ٥٠٦٩ وإسناده على شرطهما. وتقدم في سورة الأنعام، آية ١٢٤.

(٤) أخرجه أحمد ٤٠٤/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٦٧/٤ وقال: وفيه الحجاج بن أوطاة، وهو مدلس ثقة، وبقية رجال رجال الصحيح اهـ. قلت: هو مدلس، وقد عنعن، فالإسناد ضعيف.

فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهو غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عَبَسَةَ: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدراً! سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يَحُلِّنْ عُقْدَةَ حتى ينقضي أمدها». فَرَجَعَ معاوية - رضي الله عنه - بالجيش^(١). قال ابنُ عَبَّاسٍ: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أَرْبَعٍ مِنْ أُمَّةٍ»، أي: أكثر. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فَيَجِدُونَ أَكْثَرَ منهم وأعز، فينقضون جُلْفَ هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك. وقال الضحاک، وقتادة، وابنُ زید نحوه. وقوله: «إِنَّمَا يَتْلُوَكُمْ اللَّهُ يَوْمَ»، قال سعيد بن جبیر: «إِنَّمَا يَتْلُوَكُمْ اللَّهُ يَوْمَ»، يعني بالكثر. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد. «وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»، فيجازي كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ مِنْ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يقول تعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴿٩٣﴾ أَهْلًا النَّاسِ ﴿٩٤﴾ أُمَّةً وَاحِدَةً»، كما قال تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا» [يونس: ٩٩]، أي: لوفق بينكم، ولما جعل اختلافاً ولا تباعض ولا شحنا «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿٩٤﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ» [هود: ١١٨-١١٩]، وهكذا قال ها هنا: «وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»، ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فَيَجَازِيكُمْ عليها على القليل والثير والقطمير. ثم حذر تعالى عباده من اتخاذ الأيمان دخلاً، أي: خديعة ومكرًا، لئلا تَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا، مثل لمن كان على استقامة فحاذ عنها وزلَّ عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحائثة المشتعلة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: «وَتَذُوقُوا أَلْسُوَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ثم قال تعالى: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا»، أي: لا تتعاضوا عن الأيمان بالله عَرْضَ الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، لو حِيزَتْ لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاء الله وثوابه خير لمن آمن به ورجاه وطلبه، وحَفِظَ عَهْدَ اللَّهِ رجاء موعوده. ولهذا قال: «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ»، أي: يفرغ وينقضي؛ فإنه إلى أجل معدود محصور مُقَدَّرٌ مُتَنَاهٍ ﴿٩٦﴾ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ»، أي: وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع له ولا نفاذ؛ فإنه دائم لا يَحُولُ ولا يَزُولُ، «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾ قَسَمَ مِنَ الرَّبِّ - جَلَّ شَانُهُ - مُوَكَّدٌ بِاللَّامِ، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧)

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يُجْزَى بأحسن عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، وهب بن منبه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي السعادة. وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

[٤١١٦] حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني شرجيل بن أبي شريك، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقَّعه الله بما آتاه»^(١). ورواه مسلم، من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ، به.

[٤١١٧] وروى الترمذي والنسائي، من حديث أبي هانئ عن أبي علي الجبلي، عن فضالة بن عبيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقَّع به»^(٢). وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

[٤١١٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيُطْعَم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُعطى بها خيراً»^(٣). انفرد بإخراجه مسلم، والله أعلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) **إِنَّهُمْ لَمُ سَلُونَ عَلَى الَّذِينَ** **وَأَمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٩٩) **إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** (١٠٠)

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قَدَّمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوبة في أول التفسير، والله الحمد والمثني. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لثلاث تلتبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمتنع من التدبر والتفكير. ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل القراءة، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٠٥٤ والترمذي ٢٣٤٨ وابن ماجه ٤١٣٨ وأحد ١٦٨/٢ و ١٧٢ وابن حبان ٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٣٤٩ وأحد ١٩/٦ وصححه ابن حبان ٧٠٥ وكذا الحاكم ٣٤/١ - ٣٥ ووافقه الذهبي وهو كما قالوا.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٠٨ وأحد ١٢٣/٣ و ٢٨٣ وابن حبان ٣٧٧.

التلاوة، واحتجاً بهذه الآية. ونقل التَّوَوُّيُّ في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي مُرَيْرَةَ أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النَّخَعِي. والصحيح الأول، لما تقدّم من الأحاديث الدالة على تقدّمها على التلاوة، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٠٢)، قال الثَّوْرِيُّ: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه. وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٠٣). ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَكَ﴾، قال مجاهد: يطيعونه. وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، أي: أشركوه في عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَتَرَفَّفُونَ قَالَُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)

يُخْبِرُ تعالى عن ضعف عُقُولِ المشركين وقلة ثبَاتِهِمْ وإيقانِهِمْ، وأنه لا يُتَصَوَّرُ منهم الإيمان وقد كُتِبَ عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ﴾، أي: كذاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾، أي: رَفَعْنَاهَا وَاثْبَتْنَا غَيْرَهَا. وقال قتادة، هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. فقال تعالى مُجِيباً لَهُمْ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾، أي: جبريل، ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أي: بالصدق والعَدْل، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فَيُصَدِّقُوا بِمَا نَزَلَ أَوَّلًا وَثَانِيًا وَتُخَبِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠٣)

يقولُ تعالى مُخْبِراً عن المشركين ما كانوا يَقُولُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يَتَلَوْنَهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ بَشَرٌ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بَيَّاعاً يَبِيعُ عند الصفا، وَزَيْمًا كان رسولُ الله ﷺ يجلسُ إليه وَيُكَلِّمُهُ بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان ولا يعرف بالعربية، أو أنه كان يَعْرِفُ الشيء اليسير بِقَدْرِ مَا يَزِدُّ جَوَابَ الْخُطَابِ فيما لا بد منه، فلماذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، يعني القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته، وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكملُ من معاني كُلِّ كتاب نَزَلَ على نبي أرسِلَ، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَةٍ من العقل.

[٤١١٩] قال محمد بنُ إِسْحَاقَ بنِ يَسَّارٍ في السيرة: كان رسولُ الله ﷺ، فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مَبِيعَةٍ غلام نصراني يُقال له: جَبْرِ، عبد لبعض بني الحَضْرَمِيِّ، فكانوا يقولون: والله ما يُعَلِّمُ محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بني الحَضْرَمِيِّ فانزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ

إِنَّمَا يَعْلَمُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِيْ وَهَٰذَا لِسَانُ عَصِيٍّ ذِيْثٍ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٥﴾ . وكذا قال عبد الله بن كثير . وعن عكرمة وقتادة : كان اسمه يعيش .

[٤١٢٠] وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن مسلم بن [كيسان أبو] ^(٢) عبد الله الملائي ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلم قينا بمكة ، وكان اسمه بلعام ، وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يزون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِيْ وَهَٰذَا لِسَانُ عَصِيٍّ ذِيْثٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ^(٣) . وقال الضحاک بن مزاحم : هو سلمان الفارسي . وهذا القول ضعيف ، لأن هذه الآية مكية ، وسلمان إنما أسلم بالمدينة .

[٤١٢١] وقال عبد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبي ﷺ يمرُّ عليهما ، فيقوم فيسمع منهما ، فقال المشركون : يتعلم منهما . فأنزل الله تعالى هذه الآية ^(٤) . وقال الزهري ، عن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الإسلام ، وافتري هذه المقالة ، فبحه الله ! .

﴿ إِنَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِتَايَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِتَايَتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله ، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رُسُلُه في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة . ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتري ولا كذاب ؛ لأنه ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ ﴾ على الله وعلى رسوله ﷺ شراؤ الخلق ، ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِتَايَتِ اللَّهِ ﴾ من الكفرة والملحدون المعروفين بالكذب عند الناس . والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً ، مغروراً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ .

[٤١٢٢] ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : أفكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ، عز وجل ^(٥) .

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

(١) هذا معضل ، لكن لعله يتأيد بالمراسيل الآتية ، وكذا أثر ابن عباس الآتي .

(٢) سقط من المطبوع والطبري والاستدراك من كتب التراجم .

(٣) أخرجه الطبري ٢١٩٣٣ وإسناده ضعيف لضعف مسلم بن كيسان الملائي .

(٤) أخرجه الطبري ٢١٩٤٠ . وهذا معضل .

(٥) أخرجه البخاري ٧ من حديث سفيان بن حرب ، وقد تقدم .

وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأَوَّلَتْكَ هُمْ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

أخبر تعالى عَمَّنْ كَفَرَ به بعد الإيمان والتبصّر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غَضِبَ عليه؛ لعلّهم بالإيمان ثم عدلهم عنه، وأنّ لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقْدَمُوا على ما أقْدَمُوا عليه من الرّدة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قُلُوبَهُمْ وَثَبَّتَهُمْ على الدين الحق فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً يَنْفَعُهُمْ، وَخَتَمَ على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يَزِيدُ بهم. «لَا جَرَمَ»، أي: لا بدّ ولا عَجَب أن من هذه صفته، «أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ»، أي: الذين خَسِرُوا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة. وأما قوله: «إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»، فهو استثناء من كَفَر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مُكْرَهاً، لما ناله من ضَرْبٍ وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد رَوَى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عَمَار بن ياسر، حين عَذَّبَهُ المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مُسْتَكْرِهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة.

[٤١٢٣] وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزْرِيّ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عَمَار بن ياسر فَعَذَّبُوهُ حتى قَارَبَهُمْ في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مُطْمَئِنّاً بِالْإِيمَانِ. قال النبي ﷺ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»^(١).

[٤١٢٤] ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سَبَّ النبي ﷺ وَذَكَرَ آلَهُمْ بخير، وأنه قال: يا رسول الله، ما تُرَكْتُ حتى سَبَيْتُكَ وَذَكَرْتُ آلَهُمْ بخير! قال: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مُطْمَئِنّاً بِالْإِيمَانِ. فقال: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»^(٢). وفي ذلك أنزل الله تعالى: «إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ». ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يُؤَالِيَ الْمُكْرَهُ على الكفر إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يَسْتَقِيلَ كما كان بلال - رضي الله عنه - يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليَضَعُونَ الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغِيظُ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حَبِيبُ بن زيد الأنصاري لما قال له مُسَيِّلِمَةُ الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول أتشهد أنّي رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إزباً إزباً وهو ثابت على ذلك.

[٤١٢٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عكرمة، أن علياً - رضي الله عنه - حَرَّقَ ناساً ارتدوا عن الإسلام، فَبَلَغَ ذلك ابنَ عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إنّ رسول الله ﷺ قال:

(١) أخرجه الطبري ٢١٩٤٦ عن ابن عبد الأعلى به. وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٥٠٩ والحاكم ٣٥٧/٢ والبيهقي ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه عمار بن ياسر به. وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، مع أن مداره على محمد بن عمار بن ياسر، وهو مقبول ولم يرو له الشيخان، لكن أصل الخبر محفوظ فقد أخرجه الطبري ٢١٩٤٤ عن قتادة مرسلاً بنحوه، وكرره ٢١٩٤٧ عن أبي مالك مرسلاً أيضاً فهذه المراسيل تتقوى بمجموعها، وهذا الخبر مشهور في كتب السير، والله أعلم.

(٢) أخرجه البيهقي ٢٠٨/٨ وانظر ما قبله.

«لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ». وكنت قاتِلَهُمْ بقول رسول الله ﷺ: «من بَدَّل دينه فاقتلوه». فبلغ ذلك علياً فقال: وَيَحَ ابن أم عباس^(١). رواه البخاري.

[٤١٢٦] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب، عن حميد بن هلال العدوي، عن أبي بزة قال: قَدِمَ على أبي موسى معاذُ بن جَبَل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجل كان يهودياً فأسلم ثم تهوّد، ونحن نريده على الإسلام مُنْذُ - قال: أحسبه - شهرين، فقال: والله لا أقعد حتى تُضْرِبُوا عنقه. فَضْرِبْتُ عنقه، فقال: قَضَى الله ورسوله أن من رَجَعَ عن دينه فاقتلوه. أو قال: «من بَدَّل دينه فاقتلوه»^(٢). وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر. والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن خُذافة السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى مَلِكِهِمْ، فقال له: تَنْصُرُ وأنا أشرك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاك! قال فأمر به فُصِّل، وأمر الرماة فَرَموه قريباً من يديه وَرِجْلَيْهِ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فَأُنْزِل، ثم أمر بقدر - وفي رواية: ببقرة من نحاس - فَأُخْمِيت، وجاء بأسير من المسلمين فآلقاه وهو ينظر، فإذا هو عظامٌ تَلَوُخ. وعَرَضَ عليه فأبى، فأمر به أن يُلقَى فيها، فرفع في البكرة لِيُلْقَى، فبكى، فَطَمَعَ فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي واحدة، تلقى في هذا القدر الساعة في الله، فأحييت أن يكون لي بعدد كُلِّ شعرة في جَسَدِي نفسٌ تُعَذِّبُ هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات أنه سَجَنَهُ وَمَنَعَ عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يَقْرَبْهُ، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: أما إنه قد حَلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك في. فقال له الملك: فَقبَّلْ رأسي وأنا أَطْلِقُكَ. فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فَقبَّلْ رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رَجَعَ قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: حَقَّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن خُذافة، وأنا أبداً. فقام فقبَّل رأسه، رضي الله عنهما.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مُسْتَضْعَفِينَ بمكة، مُهَانِينَ في قومهم، قد وَاتَوْهُم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهلهم وأقوالهم ابتغاء رضوان الله وَغُفْرَانِهِ، وانتظموا في سِلَكِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَاهَدُوا معهم الكافرين، وصبروا. فأخبر الله أنه مِنْ بَعْدِهَا، أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رَحِيمٌ بهم يوم معادهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾، أي: تحاجُّ ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾، ليس أحدٌ يحاجُّ عنها

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٠١٧ و ٦٩٢٢ وأبو داود ٤٣٥١ والترمذي ١٤٥٨ والنسائي ١٠٤/٧ وابن ماجه ٢٥٣٥ وأحمد ٢١٧/١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ وابن حبان ٤٤٧٦ و ٥٦٠٦.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٣١/٥ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم. وأخرجه البخاري ٦٩٢٣ ومسلم ١٧٣٣ ح ١٥ وأحمد ١٤٠/٤ عن أبي بردة مطولاً.

لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، ﴿وَوُفِّي كُلَّ نَفْسٍ مَّا عٰمَلَتْ﴾، أي: من خير وشر، ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾، أي: لا يُنْقَضُ من ثواب الخير ولا يُزَادُ على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة؛ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُنخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيٍّ كَذَّابٌ إِنَّكَ لَمَكْتُمٌ مِّنْ أَنْتُمْ أَوَلَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُبْجَىٰ إِلَيْهِ قُرْبَتُ كُلِّ فَتَىٰ مِنْهُمْ فَمِنْ لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، ولكن قال ما هنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾، أي: هيناً سهلاً، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾، أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثه محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَلْسَنُوا الْقُرْآنَ ﴿٧٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]، ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافتها، فقال: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي: البسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجىء إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعضوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم يسيع كسيع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز، وهو: وزير البعير، يُجعل بذيبه إذا نَحَرُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْخَوْفِ﴾، وذلك أنهم بدلوا بآمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سرياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ. وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا اللَّهَ بِقَوْلِ الْآنَبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَرْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿١٠﴾ وَكَرَّا ﴿١١﴾ رَسُولًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٠-١١]، وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَرَزَايِكُمْ وَيُزَكِّيكُمْ وَيُكَلِّمُكُمُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذَرُوكُمْ أَذْكُرْكُمْ وَأَنْشَكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]. وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وقادتهم وسادتهم وأئمتهم. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفي، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وقтаدة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاها مالك عن الزهري رحمهم الله.

وقال ابن جرير: حدثني ابن عبد الرحيم البزقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عبد الرحمن بن شريح، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي حدثه، أنه سمع مِشْرَحَ بن هاعان يقول: سمعتُ سليم بن عثر يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان - رضي الله عنه - محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتى رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قُتِلَ. فقالت حفصة: والذي نفسي بيده إنها القرية التي قال الله: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾. قال أبو شريح: وأخبرني عبيد الله بن المغيرة، عمن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة.

الْمَعَاصِي، وَأَقْبَلُوا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَدَاهَا﴾ أَي: تِلْكَ الْفِعْلَةُ وَالزَّلَّةُ ﴿لَعَفُورٌ رَجِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَئِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾

يَمْدَحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ، إِمَامَ الْحَنَفَاءِ وَوَالِدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبُيْرُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، فَمَا الْأُمَّةُ فَهُوَ الْإِمَامُ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ. وَالْقَانِتُ: هُوَ الْخَاشِعُ الْمَطِيعُ، وَالْحَنِيفُ: الْمُنْحَرِفُ قَضْدًا عَنِ الشَّرِكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. قَالَ سَفِيَانُ الشُّورِيُّ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كَهِيلٍ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عَنْ أَبِي الْغُبَيْدِينَ: أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْأُمَّةِ الْقَانِتِ فَقَالَ: الْأُمَّةُ: مُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وَالْقَانِتُ: الْمَطِيعُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَعَنْ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمرَ: الْأُمَّةُ الَّذِي يَعْلَمُ النَّاسَ دِينَهُمْ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ الْحَكَمِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ الْجَزَارِ، عَنْ أَبِي الْغُبَيْدِينَ: أَنَّهُ جَاءَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: مَنْ نَسَأَلُ إِذَا لَمْ نَسْأَلْكَ؟ فَكَانَ ابْنُ مَسْعُودَ رَقِيَ لَهُ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ الْأُمَّةِ، فَقَالَ: الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: حَدَّثَنِي فِرْوَةُ بْنُ نُوْفَلٍ الْأَشْجَعِيُّ قَالَ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودَ: إِنْ مُعَادَاً كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: غَلِطَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فَقَالَ: تَذَرِي مَا الْأُمَّةُ؟ وَمَا الْقَانِتُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: الْأُمَّةُ الَّذِي يَعْلَمُ النَّاسَ الْخَيْرَ. وَالْقَانِتُ: الْمَطِيعُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَكَذَلِكَ كَانَ مُعَادَاً لِلْخَيْرِ، وَكَانَ مُطِيعاً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودَ؛ حُزَّزَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أُمَّةٌ﴾، أَي: أُمَّةٌ وَحْدَهُ، وَالْقَانِتُ الْمَطِيعُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضاً: كَانَ إِبْرَاهِيمُ أُمَّةً، أَي: مُؤْمِناً وَحْدَهُ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ إِذْ ذَاكَ كِفَازٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ إِمَاماً هُدًى، وَالْقَانِتُ: الْمَطِيعُ لِلَّهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾، أَي: قَانِتًا بِشُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿١٢٧﴾ [النجم: ٣٧] أَي: قَامَ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَجْبَنَهُ﴾، أَي: اخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ عَلَى شَرَعٍ مُرْضِيٍّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أَي: جَمَعْنَا لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ مِنْ إِكْمَالِ حَيَاتِهِ الطَّيِّبَةِ، ﴿وَلَئِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أَي: لِسَانِ صِدْقٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، أَي: وَمِنْ كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِ وَطَرِيقِهِ أَنَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ وَسَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كَمَا قَالَ: فِي الْأَنْعَامِ، ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾

لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ يَوْمًا مِنَ الْأُسْبُوعِ، يَجْتَمِعُ النَّاسُ فِيهِ لِلْعِبَادَةِ، فَشَرَعَ تَعَالَى لِهَذِهِ

الأمة يومَ الجُمعة، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه وتُمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدّلوا عنه واختاروا السبت، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات التي كمل خلقها يوم الجمعة. فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووَصّاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمرهم بإيادهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، وأخذهم موافقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ بَعَثْنَا إِذَا بَعَثَهُ وَأَخَذَهُمْ مَوَاقِفَهُمْ وَتَرَكُوا الْجُمُعَةَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمِيزَالُوا مَتَمَسِكِينَ بِهِ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَقَالُ: إِنَّهُ حَوَّلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْاَحَدِ، وَيَقَالُ إِنَّهُ: لَمْ يَزَلْ عَلَى شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا تُنسخُ مِنْ بَعْضِ أَحْكَامِهَا وَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُحَافِظاً عَلَى السَّبْتِ حَتَّى رُفِعَ، وَإِنَّ النَّصَارَى بَعْدَهُ فِي زَمَانِ قُسْطَنْطِينِ هُمُ الَّذِينَ تَحَوَّلُوا إِلَى يَوْمِ الْاَحَدِ، مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى الصَّلَاةِ شَرْقاً عَنِ الصُّخْرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٤١٢٧] وقد ثبت في الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي قرّض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتأس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد»^(١). لفظ البخاري.

[٤١٢٨] وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنه قالوا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق»^(٢) رواه مسلم، والله أعلم.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِنَا هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليك من الكتاب والسنة. ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس يُذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِنَا هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] الآية، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون حين بعتهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكُم بِيَدِكُمُ أَنْ يَنْصَرِفَ أَزْ يَحْشَى ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ٤٤]. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تدع نفسك على من ضل منهم خسرات، فإنه ليس عليك هذاهم، إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصص: ٥٦]، و ﴿أَنْتَ عَلَيكَ مَذْهَبُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلْعَصَابِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ

(١) تقدم في سورة البقرة آية: ٢١٣ وسيأتي في تفسير سورة الجمعة.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨٥٦ وسيأتي.

إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي صَبِيحٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
تُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاد والمائلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرين: أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَايِذُوا بِنَيْلٍ مَا عُوِشَتْ يَدُهُ﴾: «إِنْ أَخَذَ مِنْكَ رَجُلٌ شَيْئًا فَخُذْ مِثْلَهُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَغَيْرُهُمْ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانُوا أَمْرًا بِالصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، فَأَسْلَمَ رَجَالٌ ذَوُو مَنَعَةٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَدْنَى اللَّهُ لَنَا لَانْتَصَرْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَلَابِ! فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، ثُمَّ تُبَيِّنُ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ.

[٤١٢٩] وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد، حيث قُتِلَ حَمْرَةُ - رضي الله عنه - ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لَنْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ لُتْمَلْنُ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ». فلما سَمِعَ المسلمون ذلك قالوا: والله لَنْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ لُتْمَلْنُ بِهِمْ مِثْلَهُ لَمْ يُمَثِّلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بِأَحَدٍ قَطُّ. فانزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ^(١). وهذا مُرْسَلٌ، وفيه رجلٌ مبهم لم يُسَمَّ، وقد رُوِيَ هذا من وَجْهِ آخَرَ متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

[٤١٣٠] حدثنا الحسين بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المُرِّي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه. أو قال: لقلبه، فنظر إليه وقد مثل به فقال: رحمة الله عليك، إن كنت - ما علمت - لوصولاً للرحم، فَعُولاً للخيرات، والله لولا حُزن من يَغْدُكَ عليك لسُرْنِي أَنْ أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لَأُمَثِّلُنَّ بِسَبْعِينَ كُمُتْلَيْكَ. فنزل جبريل - عليه السلام - على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَكَفَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يعني عن يمينه - وأمسك عن ذلك^(٢). وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالحاً - هو ابن بشير المُرِّي - ضعيفٌ عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث. وقال الشعبي وابن جريج: نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم: لُتْمَلْنُ بِهِمْ، فأنزل الله فيهم ذلك.

[٤١٣١] وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا هَدِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْمَرْوَزِي، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد قُتِلَ مِنَ الْأَنْصَارِ سِتُونَ رَجُلًا، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَةٌ. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لَنْ كَانَ لَنَا يَوْمَ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لُتْمَلْنُ عَلَيْهِمْ. فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يعرف: لا قرش بعد اليوم. فنأدى مناد: إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّنَ الْأَسْوَدَ وَالْأَبْيَضَ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا - نَاسًا سَمَاهُمْ - فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾. فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا

(١) هو مرسل، وانظر الآثار الآتية. و«دلائل النبوة» لليبقي ٢٨٦/٣ - ٢٨٨.

(٢) ضعيف، أخرجه البزار ١٧٩٥ وقال: لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠١٠٤: فيه صالح بن بشير المري، وهو ضعيف أمه.

نعاقب^(١). وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَحَزَنُوا سِنِينَ سِنِينَ يَنْتَلِهَاتُ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَسَا وَأَنَالَ فَلْيَجْرِ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] الآية. وقال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قَبَاسٌ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية: ﴿وَلِنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلْعَصِيْبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعائته، وحوله وقوته. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدّر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾، أي: غمّ ﴿بِمَا يَمْكُرُونَ﴾، أي: مما يجهدون في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [١٧٨]، أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه، وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِ الْكَذِبَ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْعَىٰ وَرَأَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. وقول النبي ﷺ للصدّيق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَكَا﴾ [التوبة: ٤٠]. وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ مَا فِي الْأَنْثَرَيْنِ وَمَا يَكْثُرُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مُهَيِّئُ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ وَمَا يَسْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ [يونس: ٦١] ومعنى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، أي: تركوا المحرمات، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء يحفظهم الله ويكلوهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفينهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا مسعر، عن أبي عوف، عن محمد بن حاطب قال: كان عثمان - رضي الله عنه - من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم محسنون.

• • •

آخر تفسير سورة النحل، والله الحمد أجمعه والمنة،
وبه المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل

(١) أخرجه الترمذي ٣١٢٩ وأحمد ١٣٥/٥ والبيهقي في «الدلائل» ٢٨٩/٣ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب، وإسناده حسن، ويتأيد بشواهد.



وهي مكية

[٤١٣٢] قال الإمام الحافظ المُنْتَقِىُّ أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شُعْبَةُ، عن أبي إسحاق قال: سمعتُ عبدَ الرحمن بن يزيد، سمعت ابنَ مسعود - رضي الله عنه - قال في بني إسرائيل، والكهف، ومَرْيَم: إنهنَّ من العِتَاقِ الأوَّل، وهُنَّ من تِلَادِي^(١).

[٤١٣٣] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا حماد بن زيد، عن مَرْوَانَ أَبِي لُبَابَةَ، سمعت عائشة - رضي الله عنها - تقول: كان رسولُ الله ﷺ يَصُومُ حتى نقول: ما يريد أن يُفْطِرَ، وَيُفْطِرُ حتى نَقُولَ: ما يُريد أن يصومَ، وكان يقرأ كلَّ ليلة: «بني إسرائيل» و «الزُّمَر»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ مَآبِنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

يُتَجَدُّ تعالى نفسه، ويُعَظَّم شأنه، لقدرته على ما لا يُقَدَّرُ عليه أحدٌ سواه، فلا إلهَ غيره، ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، يعني محمداً ﷺ ﴿لَيْلًا﴾، أي: في جُحُجِ الليل، ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وهو مسجد مكة، ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾، وهو بيت المقدس الذي بإبِلِيَاءَ، مَعْدِنُ الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل - عليه السلام - ولهذا جُمِعُوا له هنالك كلُّهم، فَأَتَمُّهم في مَجْلَتِهِمْ وَدَارِهِمْ، فَذَلَّ على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، أي: في الزروع والشمار، ﴿لِنُرِيَهُ﴾، أي: محمداً ﷺ ﴿مِنَ مَآبِنِنَا﴾، أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨]. وسنذكر من ذلك ما وردت به السنَّة من الأحاديث عنه، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: السميع لأقوال عبادِهِ، مُؤْمِنِهِمْ وكافِرِهِمْ، مُصَدِّقُهُمْ ومُكَذِّبُهُمْ، البصيرُ بهم، فيعطي كُلَّ ما يَسْتَحِقُّه في الدنيا والآخرة.

(١) موقوف صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٩٤. والعِتَاق: هو كل ما بلغ الغاية في الجودة. وجاء في اللسان: «وهن من تِلَادِي» يعني السورة، أي من قديم ما أخذت من القرآن، شبههن بتلاد المال. وهو: المال القديم الأصلي الذي وُلد عندك.

(٢) أخرجه أحمد ٦٨/٦ و ١٢٢ و الترمذي ٢٩٢٠ و ٣٤٠٥ و الحاكم ٤٣٤/٢، سكت عليه الحاكم والذهبي، وإسناده حسن، رجاله ثقات.

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء، رواية أنس بن مالك، رضي الله عنه:

[٤١٣٤] قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثني عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد الله - يعني ابن أبي نمر - أنه قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة، فلم يَرَهُمْ حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه - وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يَكْلُمُوهُ حتى احتملوه فوضَعُوهُ عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشَقَّ جبريل ما بين نحره إلى لَبَّتِهِ، حتى فَرَّغَ من صدره وجوفه، فغَسَلَهُ من ماء زمزم بيده، حتى أَنتَى جَوْفَهُ. ثم أتى بطَسْتٍ من ذهب فيه تَوْرٌ من ذَهَبٍ محشُوٍّ إيماناً وحكمة، فحَسَّاهُ به صدره ولغاديدته - يعني عُزُوق حلقه - ثم أطبقه. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الدنيا، ففَضَّرَبَ باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد ﷺ. قالوا: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً، يَسْتَبَشِّرُ به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يُريد الله به في الأرض حتى يُغْلَمَهُمْ. ووجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم، فسَلَّمَ عليه. فسَلَّمَ عليه، وردَّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني، فنعم الابن أنت. فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يَطْرِدَانِ، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذان النيل والفراث عُثْصُرُهُمَا. ثم مَضَى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزَبَرْجَدٍ، ففَضَّرَبَ يده فإذا هو مسك أَذْقَرُ، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي حَبَّأَ لك رَبُّكَ. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد صَلَّى الله عليه وسلم. قالوا: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك. كلُّ سماء فيها أنبياء قد سَمَّاهُمْ، قد وَعَيْتْ منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى. فقال موسى - عليه السلام -: «رب لم أظن أن يُرفع عليَّ أحد». ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا الله - عز وجل - حتى جاء سِدْرَةُ المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يُوجي خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة. ثم هَبَطَ به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة. قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم. فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل، كأنه يستشير في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم، إن شئت. فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس، فقال وهو في مكانه: «يا رب، خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا». فَوَضَعَ عنه عشر صلوات. ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كُلَّ ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا. فقال الجبار تبارك وتعالى: يا

محمد. قال: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قال: إنه لا يُبْدَلُ القول لديّ؛ كما فرضتُ عليك في أم الكتاب: كلُّ حَسَنَةٍ بعشر أمثالها. فهي خمسون في أم الكتاب؛ وهي خمس عليك؛ فرجع إلى موسى فقال: كيف فعلت؟ خَفَّفَ عنا، أعطانا بكل حَسَنَةٍ عشر أمثالها. فقال موسى: قد والله راودتُ بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى رَبِّكَ فَلْيَخَفْ عَنكَ أَيْضاً. قال رسول الله ﷺ: يا موسى، قد والله اسْتَحْيَيْتُ من رَبِّي عز وجل مما اختلفتُ إليه، قال: فاهْبِطْ باسم الله. قال: فاستيقظ وهو في المسجد الحرام^(١). هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد، ورواه في صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه أبي بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال. ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وهب، عن سليمان قال: «فَزَادَ وَنَقَصَ، وَقَدَّمَ وَأَخَّرَ». وهو كما قال مسلم - رحمه الله - فإن شَرِيكَ بن عبد الله بن أبي نمر اضْطُرِبَ في هذا الحديث، وساء حفظه ولم يَضْبِطْهُ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في الأحاديث الأخر. ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وَقَعَ بعد ذلك، والله أعلم. وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: «وفي حديث شريك زيادة تفرد به، على مذهب مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ ﷺ رأى رَبَّهُ - عز وجل - يعني قوله: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى» - قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة - رضي الله عنهم - في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح». وهذا الذي قاله البيهقي - رحمه الله - هو الحق في هذه المسألة، فإن أبا ذر قال:

[٤١٣٥] يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: نور، أتى أراه؟ وفي رواية: «رأيت نوراً»^(٢). أخرجه مسلم. وقوله: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» [النجم: ٨]، إنما هو جبريل عليه السلام، كما ثَبَتَ ذلك في الصحيحين، عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنهم - ولا يُعْرَفُ لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

[٤١٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بِالْبَرَّاقِ، وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يَضَعُ حافره عند منتهى طَرَفِهِ، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يَرْبُطُ فيها الأنبياء - عليهم السلام - ثم دخلت فصَلَّيتُ فيه ركعتين، ثم خرجت. فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، قال جبريل: أصبتَ الفِطْرَةَ. قال: ثم عَرَّجَ بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. فَفُتِّحَ لنا، فإذا أنا بآدم؛ فرحَّبَ بي ودعا لي بخير. ثم عَرَّجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. فَفُتِّحَ لنا، فإذا أنا بابنِ الخالَةِ يحيى وعيسى - عليهما السلام - فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عَرَّجَ بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. فَفُتِّحَ لنا، فإذا أنا بيوسف - عليه السلام - وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فرحَّبَ بي ودعا لي بخير. ثم عَرَّجَ بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. فَفُتِّحَ الباب فإذا أنا بإدريس - عليه السلام -

(١) أخرجه البخاري ٧٥١٧، وقد تكلم العلماء في إسناد هذا الحديث والألفاظ التي تفرد بها شريك بن عبد الله، انظر فتح القدير ٤٨٨/١٣ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨، وسيأتي في سورة النجم إن شاء الله تعالى.

فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، - ثم قال: يقول الله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧].. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريلُ، فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه. قال: قد بُعِثَ إليه. ففُتِّحَ لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، فقيل: ومن معك. قال: محمد. فقيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. ففُتِّحَ لنا، فإذا أنا بموسى - عليه السلام - فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم - عليه السلام - وإذا هو مُسْتَنِدٌّ إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يَعُودُونَ إليه. ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فإذا ورقها كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وإذا ثَمَرُهَا كَالْقِلَاقِلِ^(١)، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً، فنزلتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أَمْتُكَ؟ قال: قلتُ: خمسين صلاةً في كل يوم وليلة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ؛ فإن أمتك لا تُطِيقُ ذلك، وإني قد بَلَوتُ بني إسرائيل وخَبَرْتُهُمْ. قال: فرجعتُ إلى رَبِّي فَقُلْتُ: أَيُّ رَبِّ، خَفَّفْ عَنْ أُمْتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا. فرجعتُ إلى موسى فقال: ما فعلتَ؟ قلتُ: قد حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قال: إن أمتك لا تُطِيقُ ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فلم أزل أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى، وَيَحْطُ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ: «يا محمد، هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاةً. وَمَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ». فنزلتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لِأُمْتِكَ فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ»^(٢). ورواه مسلم عن شُبَيْبَانَ بْنِ فَرُوحٍ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ بِهَذَا السِّيَاقِ، وَهُوَ أَصَحُّ مِنْ سِيَاقِ شَرِيكَ. قال البيهقي: «وفي هذا السِّيَاقُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَعْرَاجَ كَانَ لَيْلَةً أُسْرِي بِهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ». وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ.

[٤١٣٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس: أن النبي ﷺ أتني بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ مُسْرَجًا مُلْجَمًا لِرُكْبِهِ، فاستصعبَ عليه، فقال له جبريلُ: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما رَكِبَكَ قَطُّ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ. قال: فإرفُضْ عِرْقًا^(٣). ورواه الترمذي، عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديثه».

[٤١٣٨] وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جُبَيْرٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي إِلَى رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ، يَخِمُّشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيْلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحُومَ

(١) القُلة: جرة كبيرة تسع قريتين أو أكثر.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم ١٦٢ وأحمد ١٤٨/٣.

(٣) أخرجه الترمذي ٣١٣١ وأحمد ١٦٤/٣ وابن حبان ٤٦ والبيهقي في «الدلائل» ٣٦٢/٢ - ٣٦٣ وإسناده صحيح على شرطهما. كما قال الشيخ شعيب.

الناس، ويقعون في أعراضهم»^(١). وأخرجَه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو به. ومن وجه آخر ليس فيه أنس، قاله أعلم.

[٤١٣٩] وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التيمي، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على موسى - عليه السلام - قائماً يصلي في قبره»^(٢). ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمي وثابت البناني، كلاهما عن أنس، رضي الله عنه. قال النسائي: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان، عن ثابت، عن أنس.

[٤١٤٠] وقال الحافظ أبو يعلَى الموصلي في مُسنَدِه: حدثنا وهب بن بَقِيَّة، حدثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ «أن النبي ﷺ ليلة أُسري به مرَّ على موسى - عليه السلام - وهو يصلي في قبره»^(٣).

[٤١٤١] وقال أبو يعلَى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَزْرَةَ، حدثنا مُعْتَمِر، عن أبيه قال: سَمِعْتُ أنساً: أن النبي ﷺ ليلة أُسري به مرَّ على موسى - عليه السلام - وهو يصلي في قبره - قال أنس: ذَكَرَ أَنَّهُ حُمِلَ عَلَى الْبِرَاقِ، فَأَوْتِقَ الدَّابَّةُ أَوْ قَالَ: الْفَرَسُ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صِفْهَا لِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ كَذَّةٌ وَذِيَّةٌ»^(٤). فقال: أشهد أنك رسولُ الله، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - قد رآها.

[٤١٤٢] وقال الحافظُ أبو بكر أحمد بن عمرو البَزْزَازُ في مُسنَدِه: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عُبَيْد، عن أبي عِمْرَانَ الْجَوْنِي، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام، فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيْ، فَقَمَتَ إِلَى شَجَرَةٍ فِيهَا كَوْكَبِي الطَّيْر، فَقَعَدَ فِي أَحَدِهِمَا وَقَعَدْتُ فِي الْآخَرِ، فَسَمَتَ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى سَدَّتِ الْخَافَقِينَ وَأَنَا أَقْلُبُ طَرْفِي، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمْسُ السَّمَاءَ لَمَسِسْتُ، فَالْتَفَتُ إِلَى جَبْرِيلَ - عليه السلام - كَأَنَّهُ جَلَسَ لَاطً، فَعَرَفْتُ فَضْلَ عَلَيْهِ بِاللهِ عَلَيَّ وَفَتِحَ لِي بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ فَرَأَيْتُ النُّورَ الْأَعْظَمَ، وَإِذَا دُونَ الْحِجَابِ رَفَرْتُ الدَّرَّ وَالْيَاقُوتَ، وَأُوجِي إِلَيَّ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ»^(٥). ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة. ورواه الحافظ البيهقي في «الدلائل» عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن دُحَيْم، عن محمد بن الحسين بن أبي الحُثَيْن، عن سعيد بن منصور، فذكره بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره في هذا الحديث في آخره: «وَلُطِّ دُونِي - أَوْ قَالَ: دُونَ الْحِجَابِ - رَفَرْتُ الدَّرَّ وَالْيَاقُوتَ». ثم قال: هكذا رواه الحارث بن عبيد.

[٤١٤٣] ورواه حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن محمد بن عمير بن عطارد: أن النبي ﷺ كان في ملا من أصحابه، فجاءه جبريل، فَنَكَّتَ فِي ظَهْرِهِ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى الشَّجَرَةِ وَفِيهَا مِثْلُ وَكْرِي الطَّيْر، فَقَعَدَ فِي أَحَدِهِمَا وَقَعَدَ جَبْرِيلُ فِي الْآخَرِ، فَتَشَاتَ بِنَا حَتَّى بَلَغَتْ الْأَفْقَ، فَلَوْ بَسَطْتُ يَدِي إِلَى السَّمَاءِ لَنَلْتَهَا، فَذَلَّنِي بِسَبَبِ وَهَبِ النُّورِ، فَوَقَعَ جَبْرِيلُ مَغْشِياً عَلَيْهِ كَأَنَّهُ جَلَسَ، فَعَرَفْتُ فَضْلَ خَشِيَّتِهِ عَلَى خَشِيَّتِي. فَأُوجِي

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٨ وأحمد ٣/٢٢٤ وإسناده صحيح، وانظر «الصحيح» ٥٣٣.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٧٥ والنسائي ٣/٢١٦ وأحمد ٣/١٢٠ وابن حبان ٤٩.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٤٠٦٧ وإسناده على شرط مسلم.

(٤) أخرجه أبو يعلى ١٣٢٩ وفيه: «فقال رسول الله ﷺ... وذكر كلمة». وإسناده على شرط مسلم.

(٥) انظر كشف الاستار ٤٧/١.

إلي: نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا؟ وإلى الجنة ما أنت؟ فأومأ إليّ جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت: لا بل نبياً عبداً^(١). قلت: وهذا إن صَحَّ يقتضي أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يُذكر فيها بيت المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهي كائنة غير ما نحن فيه، والله أعلم.

[٤١٤٤] وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شُعْبَةُ، عن قَتَادَةَ، عن أنس - رضي الله عنه -: أن محمداً ﷺ رَأَى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٢). وهذا غريب.

[٤١٤٥] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثني يعقوب بن عبد الرحمن الزُّهْرِيُّ، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: لما جاء جبريل - عليه السلام - إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكانها أَمَرَتْ ذَنْبَهَا، فقال لها جبريل: مه يا براق. فوالله ما ركبت مثله. وسار رسول الله ﷺ فإذا هو يعجوز على جانب الطريق، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: سِرٌّ يا محمد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوهُ مُتَحَيِّياً عن الطريق يقول: هَلَمْ يا محمد. فقال له جبريل: سِرٌّ يا محمد. فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقية خَلْقٍ من الخَلْقِ فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر. فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد. فَرَدَّ السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفِطْرَةَ، ولو شَرِبْتَ الماء لغرقت وغرقت أمثك، ولو شَرِبْتَ الخمر لَعَوْتَ ولَعَوْتَ أمثك. ثم بُعِثَ له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام، فأثمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل - عليه السلام -: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس، أراد أن تميل إليه. وأما الذين سَلَّمُوا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام^(٣). وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب. وفي بعض ألفاظه نكارة وغبابة.

[٤١٤٦] طريق أخرى عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - وفيها غرابة ونكارة جداً - وهي في سُنَنِ النسائي المجتبى، ولم أرها في الكبير - قال: أخبرنا عمرو بن هشام، حدثنا مَخْلَد - هو ابن الحسين - عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبي مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بدابة فوق الحمار ودون البغل، خَطَوُهَا عند مُنتَهَى طَرَفِهَا، فركبتُ ومعِي جبريل - عليه السلام - فسرتُ فقال: انزل فَصَلِّ فَصَلَّيْتُ، فقال: أتدري أين صليت؟ صَلَّيْتُ بِطَيِّتَةِ وإليها المهاجِرُ. ثم قال: انزل فَصَلِّ. فَصَلَّيْتُ، فقال: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ صَلَّيْتُ بطور سَيْنَاء، حيث كَلَّمَ الله موسى. ثم قال: انزل فَصَلِّ. فَصَلَّيْتُ، فقال: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ صَلَّيْتُ ببيت لحم، حيث ولد عيسى عليه السلام. ثم دخلتُ بيت المقدس. فَجَمَعَ لي الأنبياء عليهم السلام، فقدمني جبريل حتى أَمْتَمْتُهُمْ ثم صَعَدَ بي إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم عليه السلام، ثم صَعَدَ بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى عليهما السلام. ثم صعد بي إلى السماء

(١) ضعيف جداً، فهو مرسل محمد بن عمير تابعي، ومع ذلك، هو مجهول.

(٢) في إسناده أبو بحر عبد الرحمن بن عثمان، ضعيف الحديث، وسيأتي الكلام على ذلك في سورة النجم إن شاء الله تعالى.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٠٢٠ والبيهقي ٣٦٢/٢ وإسناده ضعيف لجهالة يعقوب بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن هاشم، وفي ألفاظه نكارة.

الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلام. ثم صعد بي فوق سبع سموات، وأتيت ميذرة المتهم، فَعَشَيْتَنِي صَبَابَةً فَخَرَزْتُ ساجداً، فقل لي: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك. فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى مُوسَى - عليه السلام - فقال: ما قَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أَمَتِكَ؟ قلت: خمسين صلاة. قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها، لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فرجعت إلى ربي فخفف عني عشراً. ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع، فَرَجَعْتُ فَخَفَّفَ عَنِّي عَشْرًا، ثم رُدْتُ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه قَرَضَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ صَلَاتَيْنِ فَمَا قَامُوا بِهِمَا. فرجعت إلى ربي - عز وجل - فسألته التخفيف، فقال: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفت أنها من الله تعالى صِرَى، فرجعت إلى موسى - عليه السلام - فقال: ارجع. فعرفت أنها من الله صِرَى، يقول: أَي حَتْمٍ - فلم أرجع^(١).

[٤١٤٧] طريق أخرى، وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، أثناء جبريل بدائية فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل - عليه السلام - عليها، ينتهي خفها حيث ينتهي طرفها. فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يقال له: باب محمد، أتى إلى الحجر الذي ثمة، فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه ثم ربطها. ثم صعد فلما استويا في صخرة المسجد، قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ فقال: نعم. قال: فَأَنْطَلِقْ إِلَى أَوْلَئِكَ النِّسَاءِ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِنَّ وَمَنْ جُلُوسٌ عَنْ يَسَارِ الصَّخْرَةِ. قال: فَأَتَيْتُهُنَّ فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِنَّ، فَرَدَدْنَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فقلت: من أنتن؟ فقلن: نحن خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نكحوا فلم يذنبوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا. قال: وانصرفت، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، وأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفاً ننظر من يؤمنا. فأخذ بيدي جبريل - عليه السلام - فقدمني فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد، أتدري من صلى خلفك؟ قال: قلت: لا. قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل. قال: ثم أخذ بيدي جبريل فصعد بي إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قال: نعم. قال: فَفَتَحُوا لَهُ وَقَالُوا: مرحباً بك وبمن معك. قال: فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لي جبريل: يا محمد، ألا تسلم على أبيك آدم؟ قال: قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علي وقال: مرحباً بابني [الصالح] والنبي الصالح. قال: ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام. قال: ثم

(١) منكر، أخرجه النسائي ٢٢١/١ - ٢٢٢، وظاهر إسناده الصحة. عمرو بن هشام ثقة، ومحمد بن حسين ثقة روى له مسلم، وسعيد بن عبد العزيز روى له مسلم، وهو ثقة لكن اختلط بأخرة، والظاهر أنه روى هذا الحديث بعد اختلاطه، فقد تردد بالفاظ منكراً لا يتابع عليها، فمن ذلك «صلته» عليه السلام بطيبة» و «طور سيناء» و «بيت لحم» وفي آخره «رجوعه عليه السلام بعد الخمس»، وهذا يعارض ما في الصحيح من أنه عليه السلام لم يرجع بعد الخمس. فالخير عامة منكر.

عَرَجَ بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. قال: ففتحوا وقالوا: مرحباً بكَ وبمن معك. فإذا فيها يوسف عليه السلام، ثم عَرَجَ بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ، قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريس عليه السلام. قال: فَعَرَجَ بي إلى السماء الخامسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها هارون عليه السلام. قال: ثم عَرَجَ بي إلى السماء السادسة فاستفتح، فقالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها موسى عليه السلام. ثم عَرَجَ بي إلى السماء السابعة، فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها إبراهيم عليه السلام. فقال جبريل: يا محمد، ألا تُسَلِّمُ على أبيك؟ فقلت: بلى. فأتيتُه فسلمتُ عليه، فَرَدَّ عَلَيَّ السلامَ، وقال: مرحباً يا بني الصالح والنبي الصالح. ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيامُ الياقوتِ واللؤلؤِ والزبرجدِ، وعليه طيرٌ خضر، أَتَعَمُّ طير رأيتُ. فقلت: يا جبريل، إن هذا الطير لناعم؟ قال: يا محمد، آكلُه أنعم منه. ثم قال: يا محمد، أتدري أي نهر هذا؟ قال: قلت: لا. قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله إياه. فإذا فيه آتية الذهب والفضة، يجري على رَضْرَاضٍ من الياقوتِ والزُّمُردِ، وماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن. قال: فأخذتُ منه آتية من ذهب، فاغترفتُ من ذلك الماء فشربتُ، فإذا هو أحلى من العسل، وأشدُّ رائحةً من المسك. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى الشجرة، فَعَشِيتُني سحابةً فيها من كل لون، فَرَقَصَني جبريل، وخَزَزَتُ ساجدًا لله عَزَّ وَجَلَّ، فقال الله لي: يا محمد، إني يوم خلقتُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فرضتُ عليك وعلى أُمَّتِكَ خمسين صلاة، فَقُمْ بها أنت وأمتك. قال: ثم انجلت عني السحابة وأخذ بيدي جبريلُ فانصرفتُ سريعاً، فأتيت على إبراهيم فلم يَقُلْ لي شيئاً، ثم أتيتُ على موسى فقال: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: فَرَضَ رَبِّي عَلَيَّ وعلى أمتي خمسين صلاة. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يُخَفِّفَ عنك، فرجعتُ سريعاً حتى انتهيتُ إلى الشجرة، فَعَشِيتُني السحابة، وَرَقَصَني جبريل - عليه السلام -، وخررتُ ساجدًا، وقلت: رَبِّ، إِنَّكَ فرضتَ عَلَيَّ وعلى أمتي خمسين صلاة، ولن أستطيعها أنا ولا أمتي، فَخَفَّفَ عَنَّا. قال: وقد وضعتُ عنكم عشرين. قال: ثم انجلت عني السحابة، وأخذ بيدي جبريلُ - عليه السلام - فانصرفتُ سريعاً حتى أتيتُ على إبراهيم فلم يقل شيئاً. ثم أتيتُ على موسى - عليه السلام - فقال لي: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: وَضَعَ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - عني عشرين. فقال: فأربعون صلاة، لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك. فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات، وخمس بخمسين، ثم أمره موسى - عليه السلام - أن يرجع فيسأل التخفيف، فقلت: إني قد استحييتُ منه تعالى. قال: ثم انحدر، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: مالي لم آتِ أَهْلُ سماءٍ إِلَّا رَحَّبُوا بي وضحكوا إليّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فرد عَلَيَّ السلامَ ورَحَّبَ بي ولم يضحك إليّ. قال: يا محمد، ذاك مالك خازن جهنم، لم يضحك منذ خُلِقَ، ولو ضحكك إلى أحد لَضَحِكَ إليك. قال: ثم ركب منصرفاً، فبينما هو في بعض طريقه مرَّ بعبيرٍ لِقْرِيشٍ تحمل طعاماً، فيها جملٌ عليه غِرَارَتَانِ: غِرَارَةٌ سوداء، وغِرَارَةٌ بيضاء، فلما حاذى بالعبير

فَنَفَرَتْ مِنْهُ وَاسْتَدَارَتْ، وَضُرِعَ ذَلِكَ الْبَعِيرُ وَانْكَسَرَ. ثُمَّ إِنَّهُ مَضَى فَأَصْبَحَ، فَأَخْبَرَ عَمَّا كَانَ، فَلَمَّا سَمِعَ الْمُشْرِكُونَ قَوْلَهُ أَتُوا أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: فَقَالُوا: يَا أَبَا بَكْرٍ، هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يَخْبِرُ أَنَّهُ أَتَى فِي لَيْلَتِهِ هَذِهِ مَبِيرَةَ شَهْرٍ، ثُمَّ رَجَعَ فِي لَيْلَتِهِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: إِنْ كَانَ قَالَهُ فَقَدْ صَدَقَ، وَإِنَّا لَنُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، نُصَدِّقُهُ عَلَى خَبَرِ السَّمَاءِ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا عَلَامَةُ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: مَرَزْتُ بَعِيرَ لَقْرَيْشٍ، وَهِيَ فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، فَنفَرْتُ الْعِيرَ مِنَّا وَاسْتَدَارَتْ، وَفِيهَا بَعِيرٌ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ: غِرَارَةٌ سَوْدَاءُ، وَغِرَارَةٌ بَيضَاءُ، فَضُرِعَ فَانْكَسَرَ. فَلَمَّا قَدِمْتُ الْعِيرَ سَأَلُوهُمْ، فَأَخْبَرُوهُمْ الْخَبَرَ عَلَى مِثْلِ مَا حَدَّثْتُهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ سَمِعِي أَبُو بَكْرٍ: الصَّدِيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَسَأَلُوهُ فَقَالُوا: هَلْ كَانَ فِيمَنْ حَضَرَ مَعَكَ مُوسَى وَعِيسَى؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: فَصِفْهُمْ. قَالَ: نَعَمْ، أَمَّا مُوسَى فَرَجُلٌ آدَمَ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ أَزْدَ عَمَانَ، وَأَمَّا عِيسَى فَرَجُلٌ رُبْعَةٌ، سَبَطُ، تَعْلُوهُ حُمْرَةٌ، كَأَنَّهُ يَتَحَادَرُ مِنْ شَعْرَةِ الْجُمَانِ^(١). هَذَا سِيَاقٌ فِيهِ غَرَائِبٌ عَجِيبَةٌ.

[٤١٤٨] رَوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ يَحْدُثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ مَالِكَ بْنَ صَعْصَعَةَ حَدَّثَهُ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَّ بِهِ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَاطِيطِ - وَرَبِمَا قَالَ قَتَادَةُ: فِي الْجَنْجَرِ - مُضْطَجِعاً، إِذْ أَتَانِي آتٌ فَجَعَلَ يَقُولُ لِمُصَاحِبِهِ: الْأَوْسَطُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ، قَالَ: فَأَتَانِي فَقَدْ - وَسَمِعْتُ قَتَادَةَ يَقُولُ: فَشَقَّ - مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ - وَقَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِي: مَا يَعْنِي؟ قَالَ: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِفْرَتِهِ، وَقَدْ سَمِعْتَهُ يَقُولُ: مِنْ قَصْتِهِ إِلَى شَعْرَتِهِ، قَالَ: فَاسْتَخَرَجَ قَلْبِي، قَالَ: فَأُتِيتُ بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَعْلُوءٍ إِيْمَانًا وَحِكْمَةً، فَقَسَلْتُ قَلْبِي ثُمَّ خُشِي، ثُمَّ أُعِيدَ. ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ - قَالَ: فَقَالَ الْجَارُودُ: وَهُوَ الْبُرَاقُ يَا أَبَا حُمْرَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرَفِي - قَالَ: فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَاَنْطَلَقَ بِي جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَتَّى أَتَى بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا: فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، وَلَنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. قَالَ: فَقُتِّحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَزَدَ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالْأَبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، وَلَنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. قَالَ: فَقُتِّحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا عِيسَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ، فَقَالَ: هَذَانِ يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا. قَالَ: فَسَلَّمْتُ فَرَدَا السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَا: مَرْحَباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، وَلَنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. قَالَ: فَقُتِّحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ، قَالَ:

(١) ضَعِيفٌ، فِي إِسْنَادِهِ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي مَالِكٍ الدَّمَشَقِيُّ، جَاءَ فِي «الْمِيزَانِ»: وَهَاهُ ابْنُ مَعِينٍ، وَقَالَ أَحْمَدُ: لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَقَالَ النَّسَائِيُّ: غَيْرُ ثِقَةٍ، وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ: ضَعِيفٌ أَهْدَ بِاخْتِصَارٍ، فَالْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ وَالتَّنْفِيزُ فِي بَعْضِ الْفَافِظَةِ نَكَارَةٌ وَغَرَابَةٌ، وَلِبَعْضِهِ الْآخَرُ شَوَاهِدٌ.

فسلمتُ عليه، فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الرابعة، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المَجيءُ جاء. قال: فَفُتِّحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا إدريس - عليه السلام - قال: هذا إدريس، فَسَلَّمْتُ عليه قال: فَسَلَّمْتُ عليه. فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. قال: ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الخامسة فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المَجيءُ جاء. قال: فَفُتِّحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون فَسَلَّمْتُ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ عَلَيَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. قال: ثم صَعِدَ حتى أتى السماء السادسة فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المَجيءُ جاء، فَفُتِّحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا موسى - عليه السلام - قال: هذا موسى فَسَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. قال: فلما تجاوزتُ بكى. قيل له: ما يَبْكِيكَ؟ قال: أبكى لأن غلاماً بُعِثَ بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثرُ مما يدخلها من أمتي، قال: ثُمَّ صَعِدَ حتى أتى السماء السابعة فَاسْتَفْتَحَ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: أوقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المَجيءُ جاء. قال: فَفُتِّحَ فلما خَلَصْتُ فإذا إبراهيم عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم - عليه السلام - فَسَلَّمْتُ عليه. قال: فَسَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح. قال: ثم رُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى، وإذا نَبَقُها مثل قِلَاقٍ هَجَرٍ، وإذا وَرَقُها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سِدْرَةُ المنتهى. قال: وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. قال: ثم رُفِعَ إلى البيت المعمور.

[٤١٤٩] قال قتادة: وحدثنا الحسنُ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: أنه رأى البيت المعمورَ يدخله كُلُّ يوم سبعون ألفَ مَلَكٍ، ثم لا يعودون فيه. ثم رَجَعَ إلى حديث أنس قال: ثم أُتِيتُ بِإِناءٍ من خَمَرٍ وَإِناءٍ من لَبَنٍ وَإِناءٍ من عَسَلٍ، قال: فأخذتُ اللَّبَنَ، قال: هذه الفِطْرَةُ، أَنْتَ عليها وأَمَتُك. قال: ثم فَرَضْتُ الصَّلَاةَ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قال: فَتَنَزَّلْتُ حَتَّى أَتَيْتُ مُوسَى - عليه السلام - قال: ما فَرَضَ رَبُّكَ على أَمَتِكَ؟ فقلت: خمسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. قال: إن أَمَتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً، وَإِنِّي قد خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ عَنْ أَمَتِكَ. قال: فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِي عَشْرًا قَالَ: فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى - عليه السلام - فَقَالَ: بِمِ أَمِزْتُ؟ قُلْتُ: بِأَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. قال: إن أَمَتَكَ لا تَسْتَطِيعُ أَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قد خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ عَنْ أَمَتِكَ. قال: فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِي عَشْرًا أُخَرَ. فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى - عليه السلام - فَقَالَ: بِمِ أَمِزْتُ؟ فقلت: بِأَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أَمِزْتُ؟ قُلْتُ: بِعِشْرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. فَقَالَ: إن أَمَتَكَ لا تَسْتَطِيعُ لِعِشْرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قد خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي

إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك. قال: فرجعت فوضع عني عشراً آخر، فرجعت إلى موسى - عليه السلام - فقال: بم أمّرت؟ فقلت: أُمِرتُ بعشر صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ قال: [إن] أمّتك لا تستطيع لعشر صلوات كُلَّ يَوْمٍ، وإني قد خَبَرْتُ النَّاسَ قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك، قال: فرجعت فَأُمِرتُ بخمس صلوات كُلَّ يَوْمٍ، فرجعت إلى موسى - عليه السلام - فقال: بم أمّرت؟ فقلت: أمرتُ بخمس صلوات كُلَّ يَوْمٍ. فقال: أمّتك لا تستطيع لخمس صلوات كُلَّ يَوْمٍ، وإني قد خبرت النَّاسَ قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك. قال: قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم، فَقَدْتُ، فنَادَى منادٍ: قد أمضيتُ فريضتي، وَخَفَقْتُ عن عبادي^(١). وأخرجاه في الصحيحين، من حديث قتادة، بنحوه.

[٤١٥٠] رواية أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما: قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان أبو ذر يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «فَرَجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَتَزَلَ جَبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ عَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَفَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ جَبْرِيلُ لَخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ. قال: من هذا؟ قال: جَبْرِيلُ. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمدٌ. قال: أُرْسِلْ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. فلما فَتَحَ عَلُونَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى. فقال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَبْنِ الصَّالِحِ. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدمٌ، وهذه الأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، إِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لَخَازِنِهَا: افْتَحْ. فقال له خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ لَهُ الْأَوَّلُ، فَفَتَحَ، قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يُثَبِّتْ كَيْفَ مَنَازِلَهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. قال أنس: فلما مَرَّ جَبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ قال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريسٌ. ثُمَّ مَرَزْتُ بِمُوسَى فقال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قلت: مَنْ هذا؟ قال: هذا موسى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فقال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فقال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَبْنِ الصَّالِحِ. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيمُ. قال الزهري: فأخبرني ابنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولَانِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمَسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ».

قال ابنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَزْتُ عَلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا. فَقَالَ: رَاجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَارْجَعْتُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبْدَلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ. فَرَجَعْتُ إِلَى

(١) أخرجه البخاري ٣٢٠٧ و٣٣٩٣ ومسلم ١٦٤ وأحمد ٢٠٨/٤ و٢٠٩ وابن حبان ٢٨. واللفظ لأحمد. ولفظ الحسن عن أبي هريرة لم يروه البخاري ومسلم، وهو ضعيف لانتقاعه.

موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحييت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، فَعَشِيهَا الْوَأْنُ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابُذُ اللَّوْلُو، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ^(١). هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج، وفي أحاديث الأنبياء من طرق آخر، عن يونس، به. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، عن حرملة، عن ابن وهب، عن يونس، به نحوه.

[٤١٥١] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسأله. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سأله فقال: «إني قد رأيته نوراً أتى أراه»^(٢). هكذا وقع في رواية الإمام أحمد.

[٤١٥٢] وأخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق: عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أتى أراه^(٣).

[٤١٥٣] وعن محمد بن بشر، عن معاوية بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسأله. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سأله فقال: رأيت نوراً^(٤).

[٤١٥٤] رواية أنس، عن أبي بن كعب الأنصاري - رضي الله عنه -: قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد المسيبي، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبي بن كعب - رضي الله عنه - يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَرَجَ سَفْهُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بَطْنُكَ مِنْ ذَهَبٍ مَمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَعَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهَا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ. فَلَمَّا جَاءَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَافْتَتَحَ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِيَ مُحَمَّدٌ. قَالَ: أُرْسِلْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَافْتَتَحَ. فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، فَإِذَا نَظَرُ عَنْ يَمِينِهِ ضَحْكٌ، وَإِذَا نَظَرُ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكْيٌ - فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ. قَالَ: قُلْتُ لَجَبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ هُمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ هُمُ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرُ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحْكٌ، وَإِذَا نَظَرُ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكْيٌ. قَالَ: ثُمَّ عَرَجَ بِي جَبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ لِحَازِنِهَا: افْتَحْ. فَقَالَ لَهُ حَازِنُهَا مِثْلُ مَا قَالَ حَازِنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَفَتَحَ لَهُ، قَالَ أَنْسُ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ: آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يَثْبُتْ لِي كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ؟ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، قَالَ أَنْسُ: فَلَمَّا مَرَّ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قَالَ قُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ. قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٩ و ٣٣٤٢ ومسلم ١٦٣

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٤٧/٥ وإسناده على شرط مسلم.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨ وأحمد ١٧١/٥.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨ ح ٢٩٢.

قال: هذا عيسى ابن مريم. قال: ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبِيِّ الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم.

قال ابنُ شهاب: وأخبرني ابنُ حزم أنَّ ابنَ عباس وأبا حَبَّة الأنصاريَّ كانا يقولان: قال رسولُ الله ﷺ: ثم عُرِجَ بي حتى ظهرت لمستوى أسمعَ صَريفَ الأقدام. قال ابنُ حزم وأنس بن مالك: قال رسولُ الله ﷺ: فَرَضَ اللهُ على أمتيَ خمسينَ صلاةً، قال: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حتى أُمِرُ على موسى - عليه السلام - فقال موسى: ماذا فَرَضَ رَبُّكَ على أمتك؟ قلت: فَرَضَ عليهم خمسينَ صلاةً. فقال لي موسى: راجعَ رَبُّكَ؛ فإن أمتك لا تُطِيق ذلك. قال: فَرَجَعْتُ رَبِّي. فوضعَ شطرها، فَرَجَعْتُ إلى موسى فأخبرته فقال: رَاجِعْ رَبُّكَ؛ فإن أمتك لا تُطِيق ذلك، فَرَجَعْتُ رَبِّي فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يَبْدُلُ القولُ لدي. قال: فَرَجَعْتُ إلى موسى - عليه السلام - فقال: رَاجِعْ ربك. فقلت: قد استحييتُ من ربي. قال: ثم انطَلَقَ بي حتى أتَى سِدْرَةَ المنتهى، قال: فَعَشَيْتُهَا ألواناً لا أَذْري ما هي؟ قال: ثم أَدْخَلْتُ الجنةَ فإذا فيها جَنَابِدُ اللؤلؤ، وإذا ترائيها المِسْكُ^(١). هكذا رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه. وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري، عن أنس، عن أبي ذر - رضي الله عنه - مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم.

[٤١٥٥] رواية بُرَيْدة بن الحَصْبِيب الأسلمي: قال الحافظ أبو بكر البَرَزاري: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم - واللفظُ له - قالوا: حدثنا أبو ثُمَيْلَةَ، حدثنا الزبير بن جُنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لما كانَ ليلَةُ أُسْرِي بي قال: فَأَتَى جبريلُ الصخرةَ التي ببيت المقدس، قال: فوضعَ إصبعه فيها فَخَرَقَهَا، فَشَدَّ بها البراق»^(٢). ثم قال البَرَزاري: لا نعلم رواه عن الزبير بن جُنادة إلا أبو ثُمَيْلَةَ، ولا نَعْلَمُ هذا الحديث يُروى إلا عن بُرَيْدة رضي الله عنه. وقد رواه الترمذي في التفسير من جامعِهِ، عن يعقوب بن إبراهيم الدُّورقي، به، وقال: غريب.

[٤١٥٦] رواية جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -: قال الإمامُ أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سَمِعْتُ جَابِرَ بن عبد الله يُحَدِّث: أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: لما كَذَبْتَنِي قريشٌ حين أُسْرِي بي إلى بَيْتِ المَقْدِس، قَمَعْتُ في الجُحْرِ فَجَلَى اللهُ لي بيت المقدس، فطَفَقْتُ أَخْبِرُهُم عن آيَاتِهِ وأنا أنظرُ إليه^(٣). أخرجاه في الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، به.

[٤١٥٧] وقال البيهقي: أخبرنا أحمد بن الحسن القاضي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: سَمِعْتُ ابنَ المَسِيْب يقول: إن رسولَ الله ﷺ حين انتهَى إلى بيت المقدس، لَقِيَ فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بِقَدَحَيْنِ: قَدَحٍ من لَبَنٍ وَقَدَحٍ خَمْرٍ، فنظر إليهما، ثم أخذ قَدَحَ اللَّبَنِ. فقال له جبريل - عليه السلام -:

(١) صحيح. أخرجه عبد الله بن أحمد ١٤٣/٥ - ١٤٤ في «زيادات المسند» وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦٥/١ - ٦٦ وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٣٢ وصححه الحاكم ٣٦٠/٢ وابن حبان ٤٧، وقال الترمذي حسن غريب. وهو كما قال، مداره على الزبير بن جُنادة، وهو مقبول كما في التقريب أي حيث يتابع. ولم يتابع على هذا اللفظ.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٨٨٦ و٤٧١٠ ومسلم ١٧٠ والترمذي ٣١٣٢ وأحمد ٣٧٧/٣ و٣٧٨ وابن حبان ٥٥ والبيهقي في «الدلائل» ٣٥٩/٢.

هَدَيْتِ الْفِطْرَةَ لَوْ أَخَذَتِ الْخَمْرَ لَعَوَتْ أَمْتُكَ. ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ، فَافْتَتَنَ نَاسٌ كَثِيرٌ كَانُوا قَدْ صَلُّوا مَعَهُ. قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: فَتَجَهَّزَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا: هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَأَشْهَدُ لَنَنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَّقَ. قَالُوا: فَتُصَدِّقُهُ بِأَن يَأْتِيَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي أَصْدَقُهُ بِأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، أَصْدَقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَبِهَا سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّدِيقُ. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَسَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَمَّا كُنْتُ بَيْتِي قُرَيْشٍ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَطَفَقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»^(١).

[٤١٥٨] رَوَايَةُ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زُرَّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَلَى حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا بَيْتَ الْمُقَدَّسِ - فَلَمْ يَدْخُلَاهُ - قَالَ: قُلْتُ: بَلْ دَخَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَلْتَنِّدَ وَصَلَّى فِيهِ. قَالَ: مَا اسْمُكَ يَا أَصْلَحُ، فَإِنِّي أَعْرِفُ وَجْهَكَ وَلَا أُدْرِي مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا زُرَّ بْنُ حُبَيْشٍ. قَالَ: فَمَا عَلَّمَكَ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى فِيهِ لِيَلْتَنِّدَ؟ قَالَ: قُلْتُ: الْقُرْآنُ يُخْبِرُنِي بِذَلِكَ. قَالَ: مَنْ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فَلَجَّ، اقْرَأ. قَالَ: فَقُلْتُ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾. قَالَ: يَا أَصْلَحُ، هَلْ تَجِدُ «صَلَّى فِيهِ»؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَلْتَنِّدَ، وَلَوْ صَلَّيْتُ فِيهِ لَكُنْتُ عَلَيْكُمْ صَلَاةً فِيهِ، كَمَا كُنْتُ عَلَيْكُمْ صَلَاةً فِي الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَاللَّهُ مَا زَايَلَا الْبَرَاءُ حَتَّى فُتِحَتْ لَهُمَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَوَعَدَ الْآخِرَةَ أَجْمَعًا، ثُمَّ عَادَا عَوَّدَهُمَا عَلَى بَذْيِهِمَا. قَالَ: ثُمَّ ضَحَكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ. قَالَ: وَيُحَدِّثُونَ أَنَّهُ رُبَطَهُ لَا يَفْرُغُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا سَخَّرَهُ لَهُ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. قُلْتُ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَيُّ دَائِبَةِ الْبَرَاءِ؟ قَالَ: دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ هَكَذَا، حَطْوُهُ مَدَّ الْبَصَرِ^(٢). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ، مِنْ حَدِيثِ عَاصِمٍ - وَهُوَ ابْنُ أَبِي النَّجُودِ - بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حُدَيْفَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَفْيٌ، وَمَا أَثْبَتَهُ غَيْرُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ رُبُطِ الدَّابَّةِ بِالْحَلَقَةِ وَمِنْ الصَّلَاةِ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، مِمَّا سَبَقَ وَمَا سَيَأْتِي مُقَدِّمٌ عَلَى قَوْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

[٤١٥٩] رَوَايَةُ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ بْنِ سِتَّانٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ «دَلَالِلِ النُّبُوَّةِ»: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ رَاشِدُ الْحَمَّانِيُّ، عَنْ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِكَ فِيهَا، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾.

(١) ضعيف. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٥٩ - ٣٦٠ وهو مرسل، وإبراهيم هو ابن سعد عنده غرائب، وقوله «فافتتن ناس كثير» منكر، بل لم يفتن أحد، ثم لم يؤمن بالنبي ﷺ حيث ذكر كثير من الناس أصلاً.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٤٧ والنسائي في التفسير ٣٠٠ وأحمد ٣٨٧/٥ والحاكم ٢/ ٣٥٩ وابن حبان ٤٥ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٦٤ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود.

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧﴾ قال: فأخبرهم قال: «بينما أنا قائم عشاء في المسجد الحرام، إذ أتاني آت فأيقظني، فاستيقظت فلم أر شيئاً، فإذا أنا بكهينة خيال، فاتبعته بصري حتى خرجت من المسجد الحرام، فإذا أنا بدابة أدنى شبهة بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب الأذنين، يقال له: البراق. وكانت الأنبياء - عليهم السلام - تركبه قلبي، يَقَعُ حافره عند مَذْبُوحه، فركبته. فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرني أسالك، يا محمد، انظرني أسالك. فلم أجبه ولم أقم عليه، فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داع عن يساري: يا محمد، انظرني أسالك، فلم أجبه ولم أقم عليه. فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله، فقالت: يا محمد، انظرني أسالك. فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها، حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء توثقها بها. ثم أتاني جبريل - عليه السلام - بلنّاءين: أحدهما خمر، والآخر لبن، فشربت اللبن، وتركيت الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك. فقلت: الله أكبر، الله أكبر. فقال جبريل: ما رأيت في وجهك هذا؟ قال: فقلت: بينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرني أسالك. فلم أجبه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعي اليهود، أما إنك لو أجبته - أو: وقفت عليه - لتهودت أمتك. قال: وبينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يساري: يا محمد، انظرني أسالك. فلم ألتفت إليه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعي النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك. قال: فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، عليها من كل زينة خلقها الله تعالى تقول: يا محمد انظرني أسالك. فلم أجبها ولم أقم عليها. قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبته أو أقمت عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة. قال: ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلّى كل واحد منا ركعتين. ثم أتيت بالمعراج الذي تُعْرَجُ عليه أرواح بني آدم، فلم يرَ الخلائق أحسنَ من المعراج، أما رأيت الميت حين يَشْقُ بَصْرُهُ طامحاً إلى السماء، فإنما يَشْقُ بَصْرُهُ طامحاً إلى السماء عَجَبَهُ بالمعراج. قال: فَصَعِدْتُ أنا وجبريل، فإذا أنا بِمَلَكٍ يقال له إسماعيل، وهو صاحبُ سماء الدنيا، وبين يديه سبعون ألفَ مَلَكٍ، مع كل جُنْدٍ مائة ألفٍ مَلَكٍ، قال: قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَكْفُرُ جُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. قال: فاستفتح جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بِأَدَمَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خلقه الله تعالى على صورته، لم يتغير منه شيء، فإذا هو تُعْرَضُ عليه أرواح ذُرِّيَّته المؤمنين، فيقول: روح طيبة ونفس طيبة، اجعلوها في عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذُرِّيَّته الفُجَّار، فيقول: روح خبيثة ونفس خبيثة، اجعلوها في سجين، فقلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم عليه السلام فسَلَّمَ عليّ ورَحَّبَ بي فقال: مرحباً بالابن الصالح. ثم مضيت هُتَيْةً، فإذا بِأُخُوْتِي عليها لحم مُشْرِخٌ ليس يقرُّبها أحد، وإذا أنا بِأُخُوْتِي أُخْرَى عليها لحم قد أزوَحَ وأنتَنَ، عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أُمَّتِكَ، يتركون الحلال ويأتون الحرام. قال: ثم مضيت هُتَيْةً فإذا أنا بِأَقْوَامٍ بطونهم أمثال البيوت، كُلُّمَا نَهَضَ أَحَدُهُمْ خَرَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، لَا تَقِمِ السَّاعَةَ، قال: وهم على سَابِلَةِ آلِ فرعون، قال: فتجيء السابلة فتطوهم، قال: فَسَمِعْتُهُمْ يَضْجُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قال: قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أُمَّتِكَ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. قال: ثم مضيت هُتَيْةً فإذا أنا بِأَقْوَامٍ مشافِزهم^(١) كمشافِزِ الإبل، قال فَتَمْتَحُ أفواههم ويلْقَمُونَ من ذلك الجمر، ثم يخرج من

(١) الشفر للبعير كالشفة للإنسان (أي شفاهم مثل شفاء الإبل).

أسافلهم . فسمعتهم يَضِجُونَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ . فقلتُ : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَتِنَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَوِيرًا﴾ [النساء : ١٠] ، قال : ثم مضيتُ هُتَيْةً فإذا أنا بنساء يُعَلِّقْنَ بُثْدِيَهُنَّ ، فسمِعْتُهُنَّ يَضْجُجْنَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، قلتُ : يا جبريل ، من هؤلاء النساء؟ قال : هؤلاء الزناة من أمتك . قال : ثم مضيتُ هُتَيْةً فإذا أنا بأقوام يقطع من جُئوبهم اللحم ، فيُلَقِّمُونَ ، فيُقال له : كُلْ كما كنتَ تأكلُ من لحم أخيك . قلتُ : يا جبريل ، من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازُونَ . قال : ثم صَعِدْنَا إلى السماء الثانية ، فإذا أنا بِرَجُلٍ أَحْسَنَ ما خلق الله عَزَّ وَجَلَّ ، قد فَضَّلَ النَّاسَ بالحسن كالقمر ليلةَ البَدْرِ على سائر الكواكبِ ، قلتُ : يا جبريل ، من هذا؟ قال : هذا أَخُوكَ يوسفُ ومعه نفر من قومه ، فَسَلَّمْتُ عليه ، وَسَلَّمْ عليَّ . ثم صَعِدْتُ إلى السماء الثالثة ، فإذا أنا بِيحْيَى وعيسى عليهما السلام ، ومعهما نَفَرٌ من قومهما ، فسَلَّمْتُ عليهما ، وَسَلَّمَا عليَّ . ثم صَعِدْتُ إلى السماء الرابعة ، فإذا أنا بِإدريس - عليه السلام - قد رفعه الله - عَزَّ وَجَلَّ - مكاناً عَلِيًّا ، فسَلَّمْتُ عليه ، وَسَلَّمْ عليَّ . قال : ثم صَعِدْتُ إلى السماء الخامسة فإذا بهارون - عليه السلام - ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء ، تكادُ لحيته تصيب سُرَّتَه من طولها ، قلتُ : يا جبريل ، من هذا؟ قال : هذا المحبَّب في قومه ، هذا هارونُ بن عمرانَ ومعه نَفَرٌ من قومه ، فسَلَّمْتُ عليه ، وَسَلَّمْ عليَّ . ثم صَعِدْتُ إلى السماء السادسة ، فإذا أنا بموسى بن عمران - عليه السلام - رجلٌ آدمٌ كثيرُ الشعر ، لو كانَ عليه قميصان لَنَفَذَ شعره دون القميص ، وإذا هُوَ يقولُ : يزعمُ الناسُ أَني أكرمُ على اللَّهِ من هذا ، بل هذا أكرمُ على الله تعالى مِنِّي . قال : قلتُ : يا جبريل ، مَنْ هذا؟ قال : هذا أَخوك موسى بنُ عمرانَ ومعه نَفَرٌ من قومه ، فَسَلَّمْتُ عليه ، وَسَلَّمْ عليَّ . ثم صَعِدْتُ إلى السماء السابعة ، فإذا أنا بِإِبْرَاهِيمَ خليلِ الرَّحْمَنِ - عليه السلام - ساندًا ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال ، قلتُ : يا جبريل ، من هذا؟ قال : هذا أبوك إبراهيم خليلُ الرحمنَ ومعه نَفَرٌ من قومه ، فَسَلَّمْتُ عليه ، وَسَلَّمْ عليَّ ، وإذا أنا بِأمتي شطرين ، شطرٌ عليهم ثيابٌ بيضٌ كأنها القراطيس ، وشرطٌ عليهم ثيابٌ رُمْدٌ ، قال : فدخلتُ البيتَ المعمور ، ودَخَلَ معي الذين عليهم الثيابُ البيض ، وَخِجِبَ الآخرون الذين عليهم الثيابُ الرُمْدُ ، وهم على خير . فَصَلَّيْتُ أنا ومن معي في البيت المعمور ، ثم خرجتُ أنا ومن معي ، قال : والبيتُ المعمورُ يُصَلِّي فيه كُلُّ يومٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ ، لا يَمُوتُونَ فيه إلى يوم القيامة . قال : ثم دُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى ، فإذا كُلُّ ورقةٍ منها تكادُ أن تغطِّي هذه الأمة ، وإذا فيها عينٌ تجري يقال لها : سُلْسِيلٌ ، فينشقُّ منها نهران ، أحدهما : الكوثر ، والآخر يقال له : نهرُ الرحمة . فاغتسلتُ فيه ، فغَفِرَ لي ما تَقَدَّمَ من ذنبي وما تأخر . ثم إنني دُفِعْتُ إلى الجنة ، فاستقبلتني جارية ، فقلتُ : لمن أنتِ يا جارية؟ فقالت : لزيد بن حارثة ، وإذا أنا بأنهارٍ من ماءٍ غير آسن ، وأنهارٍ من لَبَنٍ لم يَتَغَيَّر طعمُهُ ، وأنهارٍ من خَمَرٍ لَذَّةٌ للشاربين ، وأنهارٍ من عَسَلٍ مُصَفًّى ، وإذا رُمَانُها كأنه الدَّلَاءُ عِظْمًا ، وإذا أنا بطيرها كأنها بخيتكم هذه ، فقال عندها ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قد أَعَدَّ لعباده الصالحين ما لا عين رَأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلب بشر . قال : ثم عُرِضَتْ عليَّ النارُ ، فإذا فيها غضبُ الله وَزَجْرُهُ ونَقْمَتُهُ ، لو طُرِحَ فيها الحجارة والحديد لأكلتها ، ثم أَغْلِقْتُ دوني . ثم إنني دُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى ، فَتَغَشَّاني ، فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى ، قال : ونَزَلَ على كل ورقةٍ ملكٌ من الملائكة ، قال : وفَرَضْتُ عليَّ خمسون صلاةً . وقال : لك بكلِّ حسنة عشر ، إذا هَمَمْتَ بالحسنة فلم تَعْمَلْها كُتِبَتْ لك حسنةٌ ، فإذا عملتها كُتِبَتْ لك عَشْرًا . وإذا هَمَمْتَ بالسيئة فلم تَعْمَلْها لم يُكْتَبْ عليك شيءٌ ، فإن عملتها كُتِبَتْ عليك سيئةٌ واحدةٌ . ثم دُفِعْتُ إلى موسى - عليه السلام - فقال : بِمِ أَمْرِكَ رُبُّكَ؟ قلتُ : بخمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله

التخفيف لأمك، فإن أمك لا يطيقون ذلك، ومتى لا تُطيقه تكفر. فرجعت إلى ربي - عز وجل - فقلت: يا رب، خفف عن أمي، فإنها أضعف الأمم. فوضع عني عشراً، وجعلها أربعين. فما زلتُ أختلف بين موسى ورَبِّي - عز وجل -، كُلُّمَا أتيت عليه قال لي مثلُ مقالته، حتى رجعتُ إليه فقال لي: بمِ أُمِرْتَ؟ فقلتُ: أُمِرْتُ بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك - عز وجل -؛ فأسأله التخفيف لأمك. فرجعتُ إلى ربي فقلت: أي رب، خفف عن أمي فإنها أضعف الأمم. فوضع عني خمساً، وجعلها خمساً. فناداني ملكٌ عندها: تَمُمْتَ قَرِيبَتِي، وخَفَّفْتَ عن عبادي، وأعطيتهم بكلِّ حسنة عشرَ أمثالها. ثم رَجَعْتُ إلى موسى فقال: بمِ أُمِرْتَ؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى رَبِّكَ فأسأله التخفيف، فإنه لا يؤوده شيء، فأسأله التخفيف لَأُمِّكَ. فقلتُ: رجعتُ إلى رَبِّي حتى استحيت. ثم أصبح بمكة يخبرهم بالعجائب: إني أتيتُ البارحة بيتَ المقدس، وغُيِّرَ بي إلى السماء، ورَأَيْتُ كذا ورَأَيْتُ كذا. فقال أبو جهل - يعني ابن هشام -: ألا تَعَجِبُونَ مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا، وأحدنا يضربُ مَطِيئَةَ مُصَيْدَةٍ شهراً ومُقَفَّلَةً شهراً، فهذا مَسِيرَةُ شهرين في ليلة واحدة. قال: فأخبرهم بعيرٍ لَقْرِيش: لما كُنْتُ في مُضَعَدِي رأيتها في مكان كذا وكذا، وأنها نُفِّرَتْ، فلما رَجَعْتُ رأيتها عند العقبة. وأخبرهم بكل رجل وبغيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يُخْبِرُنَا بأشياء. فقال رجلٌ من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قُربُه من الجبل؟ فإن يَكُ محمدٌ صادقاً فسأخبركم، وإن يَكُ كاذباً فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرني: كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قُربُه من الجبل؟ قال: قُربُ رسولِ الله ﷺ بيتُ المقدس من مقعده، فَتَنْظُرُ إليه كَتَنْظُرِ أَحَدِنَا إلى بيته: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقُربُه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صَدَقْتَ. فَرجع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال، أو نحو هذا من الكلام^(١). وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبي هارون العبدي. وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدي، به. ورواه أيضاً من حديث محمد بن إسحاق: حدثني روح بن القاسم، عن أبي هارون، به نحو سياقه المتقدم. ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عَبدَةَ، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخُدْري - رضي الله عنه - فذكره بسياق طويلٍ حَسَنٍ أُنِيقَ، أجود مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النكارة. ثم ذكره البيهقي أيضاً من رواية نُوح بن قيسِ الحُدْثاني وهُشَيْمٍ ومعمر، عن أبي هارون العبدي - واسمه عُمارة بن جُوَيْن - وهو مُضَعَفٌ عند الأئمة. وإنما سقنا حديثه ها هنا لما في حديثه من الشواهد لغيره ولما رواه البيهقي:

[٤١٦٠] أخبرنا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، أنبأنا أبو نُعَيْمٍ أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبي حَكِيمٍ قال: رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمك يقال له: سفيان الثوري، لا بأس به؟ فقال رسول الله ﷺ: لا بأس به - حدثنا عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخُدْري، عنك ليلة أسري بك أنك قلت: «رأيتُ في

(١) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢٢٠٢٣ و ٢٢٠٢٤ والآجري في «الشرية» ص ٤٢٦، والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٩٠ - ٣٩٦، ومداره على عمارة بن جوين أبي هارون العبدي، وهو ضعيف جداً متروك، وكما ذكر ابن كثير في بعض ألفاظ هذا الحديث غرابة ونكارة، ولبعضه الآخر شواهد، والله أعلم.

السماء...»، فحدثته بالحديث؟ فقال لي: نعم. فقلت له: يا رسول الله، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك في السُرى معجائب؟ فقال لي: ذاك حديث القُصاص^(١).

[٤١٦١] رواية شَذَاد بن أَوْس - رضي الله عنه : قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحّاك الزبيدي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم الأشعري، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي، حدثنا الوليد بن عبد الرحمن، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، حدثنا شَذَاد بن أَوْس قال: قلنا: يا رسول الله، كيف أُسْرِي بك؟ قال: صَلَّيْتُ لأصحابي صلاة العتمة بمكة مُعْتِمًا، قال: فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض، أو قال: بيضاء، فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستصعبت عليّ، فَرَاها بأذنّها، ثم حملني عليها، فانطلقت تَهْوِي بنا يقع حافرها حيث أدرك طَرْفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل، فأنزلني فقال: صَلِّ. فصليت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ قلت: الله أعلم. قال: صَلَّيْتُ ببِثْرَب، صَلَّيْتُ بِطَيِّبَةِ. فانطلقت تَهْوِي بنا يقع حافرها حيث أدرك طَرْفها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل فنزلت، ثم قال: صَلِّ. فصليت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ قلت: الله أعلم. قال: صَلَّيْتُ بمدين، صَلَّيْتُ عند شجرة موسى - عليه السلام -. ثم انطلقت تَهْوِي بنا يقع حافرها حيث أدرك طَرْفها، ثم بلغنا أرضاً، بَدَتْ لنا قصور، فقال: انزل. فنزلت، فقال: صَلِّ. فصليت، ثم رَكِبْنَا فقال: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ قلت: الله أعلم. قال: صَلَّيْتُ ببَيْت لحم حيث وُلِدَ عيسى المسيح ابن مَرْيَم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني، فأتى قبلة المسجد، فَرَبَط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فَأَتَيْتُ بِلَنَاءَيْن، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، أُرْسِلَ إِلَيَّ بهما جميعاً، فَعَدَلْتُ بينهما، ثم هداني الله تعالى، فأخذت اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ حتى قرعْتُ به جَبِينِي، وبين يدي شيخ متكئ، على مَثْوَاة له، فقال: أخذ صاحبك الفِطْرَةَ، إنه لِيُهْدَى. ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة، فإذا جَهَنَّم تنكشفُ عن مثل الزَّوَابِي، قلت: يا رسول الله، كيف وجدتها؟ قال: مثل الحَمَّة السَّخِيَّة، ثم انصرف بي، فَمَرَرْنَا بِعِيرٍ لُقْرِيش بمكان كذا وكذا، قد أَضَلُّوا بعيراً لهم قد جَمَعَهُ فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتيت أصحابي قبل الصُّبْح بمكة، فأتاني أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: يا رسول الله، أين كُنْتَ الليلة؟ فقد التمسكت في مَنَامِكَ. فقال: عَلِمْتُ أَنِّي أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ اللَّيْلَةَ؟ فقال: يا رسول الله، إنه مسيرة شهر قَصِيفَه لي. قال: فَفُتِّحَ لي صراطٌ كأنِّي أنظر إليه، لا يسألني عن شيءٍ إلا أنبأته عنه. قال أبو بكر - رضي الله عنه - أشهد أنك رسول الله. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة، يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة. قال: فقال: إن من آيَةٍ ما أقول لكم أنني مَرَزْتُ بعير لكم بمكان كذا وكذا، قد أَضَلُّوا بعيراً لهم، فَجَمَعَهُ فلان، وإن مَسِيرَهُم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يَقْدُمُهُمْ جَمَلٌ آدَم، عليه مِسْحٌ أسود وغِرَارَتان سوداوان. فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون، حتى كان قريب من نصف النهار، حتى أقبلت العِيرُ يَقْدُمُهُمْ ذلك الجمل، الذي وَصَفَهُ رسولُ الله ﷺ^(٢). هكذا رواه البيهقي من طريقين، عن أبي إسماعيل الترمذي، به. ثم

(١) ذكره البيهقي ٤٠٥/٢ إثر الحديث المتقدم مستدلاً به على عدم صحة الحديث المتقدم.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣٥٥/٢ - ٣٥٦ والطبراني في «الكبير» ٧١٤٢ وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧٣/١ - ٧٤ وقال: وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي اهـ. وضعفه أبو داود ومحمد بن عوف الطائي، لكن للحديث شواهد.

قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً في أحاديث غيره، ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حَضَرنا». ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث. وقد روى هذا الحديث عن «شَدَّاد بن أوس» بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، به. ولا شك أن هذا الحديث - أعني الحديث المروي عن شَدَّاد بن أوس - مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي، ومنها ما هو مُنْكَر، كالصلاة في بيت لَحْم، وسؤال الصديق - رضي الله عنه - عن نَعْتِ بيت المقدس، وغير ذلك، والله أعلم.

[٤١٦٢] رواية عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه قال: حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: ليلة أُسْرِيَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ دخل الجنة، فَسَمِعَ فِي جَانِبِهَا وَجْساً فقال: يا جبريل، ما هذا. قال: هذا بلالُ المؤذن. فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلى الناس: قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا. قال: فلقية موسى - عليه السلام - فَرَحَّبَ به، وقال: مرحباً بالنبي الأمي، قال: وهو رَجُلٌ آدم طويل، سَبَطَ شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى. قال: فمضى، فلقية شيخٌ جليل مُتَهَيِّبٌ فرَحَّبَ به وسلَّم عليه، وكلُّهم يُسَلِّمُ عليه، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم عليه السلام. قال: ونظر في النار، فإذا قومٌ يأكلون الجيف، قال: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس. ورأى رجلاً أَحْمَرَ أَزْرَقَ جَدًّا، قال: مَنْ هذا يا جبريل؟ قال: هذا عاقِرُ الناقَةِ. فلما أتى النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يُصَلُّون معه. فلما انصرف جيءَ بِقَدَحَيْنِ، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عَسَلٌ، فأخذ اللبن فَشَرِبَ منه، فقال الذي كان معه القدح: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ^(١). إسناد صحيح، ولم يخرجه.

[٤١٦٣] طريق أخرى، وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حَدَّثَنِي عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: أُسْرِيَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ وَبِعِلَامَةِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَبِعَيْرِهِمْ، فقال ناس: نحن لا نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بما يقول. فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، - قُبِّحَهم الله -. وقال أبو جهل - قُبِّحَ الله - يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزقوم، هاتوا ثَمراً وَزَيْدًا فَتَزَقَّمُوا. ورأى الدجال في صورته زُؤياً عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم - عليهم السلام - فَسُئِلَ النبي ﷺ عن الدجال، فقال: رأيتُه فِيلِمَانِيًّا أَقْمَرَ هِجَانًا، إحدى عينيه قائمةٌ كأنها كوكب ذُرِّي، كأن شعر رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ. ورأيت عيسى أبيض، جَعَدَ الرَّأْسِ، حديد البصر، مَبْطُنُ الخَلْق. ورأيت موسى - عليه السلام - أسْحَمَ أَدَمَ، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم - عليه السلام - فلم أنظر إلى أَرَبٍ منه إلا نظرت إليه مني، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سَلِّمَ عَلَى مَالِكٍ. فسلمت عليه^(٢). ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد، عن هلال - وهو ابن خَبَّاب - به، وهو إسنادٌ صحيح.

[٤١٦٤] طريق أخرى، وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعي، أنبأنا

(١) أخرجه أحمد ٢٥٧/١، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٠٠/٩: ورجاله رجال الصحيح غير قابوس، وقد وثق وفيه ضعف. وصحح إسناده ابن كثير، والصواب أن قابوس غير قوي. وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣٧٤/١ والنسائي في «الكبرى» ١١٢٨٣ وأبو يعلى ٢٧٢٠.

إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت ليلة أُسري بي موسى بن عمران، رجلاً طويلاً جعداً، كأنه من رجال شثوة، ورأيت عيسى ابن مريم، مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس. وأري مالكا خازن جهنم والدجال، في آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] - فكان قتادة يُفسرها: أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى - عليه السلام - ﴿وَعَمَلْنَاهُ هُدًى لِنَبِيِّ إِِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء، ٢، والسجدة: ٢٣]، قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل^(١). رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان، وأخرجه من حديث شعبة، عن قتادة مختصراً.

[٤١٦٥] طريق أخرى، وقال البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصّفار، حدثنا دُبَيْسُ الْمُعَدَّلُ، حدثنا عَفَّانُ قال: حدثنا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: لما أُسري بي مرّت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: مائِطَةُ بَنَاتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادُهَا، سقط مُشْطُهَا من يدها، فقلت: باسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ. قالت: أُولَئِكَ رَبٌّ غَيْرُ أَبِي؟ قالت: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ الله. قال: فدعاها فقال: أَلَيْكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قالت: نعم، رَبِّي وَرَبُّكَ الله عَزَّ وَجَلَّ. قال: فأمر بِفَرَقَةٍ من نحاس فَأُخِمَتْ، ثم أُمِرَ بها أَنْ تُتْلَى فيها، قالت: إن لي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قالت: تَجْمَعُ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي مَوْضِعٍ. قال: ذاك لك، لما لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ. قال: فأمر بهم فَأَلْقَوْا واحداً واحداً، حتى بَلَغَ رَضِيْعاً فِيهِمْ، فقال: قُبِي يَا أُمَاءُ وَلَا تَفَاعَسِي، فإنا على الحق. قال: وَتَكَلَّمْ أَرْبَعَةً وَهَمَّ صَغَارًا، هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام. إسناده لا بأس به^(٢)، ولم يخرجوه.

[٤١٦٦] طريق أخرى، وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وَزَوْجُ - المَعْنَى - قالوا: حدثنا عوف عن زُرَّارة بن أَوْفَى، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: لما كان ليلة أُسري بي فَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَطَلَعْتُ بِأَمْرِي وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكْذِبِي. فقعِدَ معْتَزلاً حزيناً، فمر به عدو الله أبو جهل - قبحه الله - فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزىء: هل كَانَ من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم. قال: وما هو؟ قال: إِنِّي أُسْرِي بِبِئْرِ اللَّيْلَةِ. قال: إلى أين؟ قال: إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ. قال: ثم أَصْبَحْتُ بَيْنَ ظَهْرَانِيْنَا؟ قال: نعم. قال: فلم يَرَهُ أَنَّهُ يَكْذِبُهُ مَخَافَةً أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثُ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ. فقال: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ إِلَيْكَ أَتَحَدِّثُهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي. قال: فَأَنْفَضْتُ إِلَيْهِ الْمَجَالِسَ وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا. قال: حَدَّثْتُ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي. فقال رسول الله ﷺ: إِنِّي أُسْرِي بِبِئْرِ اللَّيْلَةِ، فقالوا: إلى أين؟ قال: إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ. قالوا: ثم أَصْبَحْتُ بَيْنَ ظَهْرَانِيْنَا؟ قال: نعم. قال: فَمَنْ بَيْنَ مُصَفَّقِي، وَمَنْ بَيْنَ وَاضِعِ يَدِهِ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّباً لِلْكَذِبِ - رَعِمَ - قالوا: وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَعْتَ الْمَسْجِدَ؟ - وفي القوم مَنْ قد سافر إلى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ - قال رسول الله ﷺ: فَذَهَبَتْ أَنْعْتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعْتُ حَتَّى التَّبَسَّ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ - قال: فَجِئْتُ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظَرُ إِلَيْهِ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٦٥ ح/ ٢٦٧ والبيهقي في «الدلائل» ٣٨٦/٢. وأخرجه البخاري ٣٣٩٦ ومسلم ١٦٥ من حديث ابن عباس مختصراً.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله! والصواب أن إسناده ضعيف، أخرجه البيهقي ٢٨٩/٢ وعطاء بن السائب اختلط بأخوه، ثم إن عجزه موقوف من قول ابن عباس، وتقدم الكلام عليه في سورة يوسف: ٢٦.

عقيل - أو: عقال - فنعته، وأنا أنظر إليه - قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه - يقول عوف - قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه^(١). وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جميلة، وهو الأعرابي، به. ورواه البيهقي من حديث الثوري بن شمير وهوذة، عن عوف، وهو ابن أبي جميلة الأعرابي، أحد الأئمة الثقات، به.

[٤١٦٧] رواية عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا السري بن خزيمة، حدثنا يوسف بن يهلؤل، حدثنا عبد الله بن ثمير، عن مالك بن مغول، عن الزبير بن عدي، عن طلحة بن مصرف، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لما أسري برسول الله ﷺ فانتهي إلى سيدة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض منها، ﴿إِذْ يَنْشَى الْغَيْثُ مَا يَأْتِي﴾، قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطاني رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله الْمُفْجَمَاتُ، يعني الكبائر^(٢). ورواه مسلم في صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن ثمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله بن ثمير، به. ثم قال البيهقي: «وهذا الذي ذكره عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - طَرَفٌ من حديث المعراج، وقد رَوَاهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ، ثم عن أبي ذرٍّ، عن النبي ﷺ، ثم رواه مرة مرسلاً دون ذكرهما». ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم.

[٤١٦٨] قلت: وقد روي عن ابن مسعود، - رضي الله عنه - بأبسط من هذا، وفيه غرابة؛ وذلك فيما رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور: حدثنا مزوان بن معاوية، عن قَتَانِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّهْمِي، حدثنا أبو ظَبْيَانَ الْجَنِّي قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - يعني ابن مسعود - ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وهما جالسان، فقال محمد بن سعد لأبي عُبَيْدَةَ: حَدَّثْنَا عَنْ أَيْكَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فقال أبو عُبَيْدَةَ: لا، بل حَدَّثْنَا أَنْتَ عَنْ أَيْكَ. فقال محمد: لو سألتني قبل أن أسألك لفعلت. قال: فأنشأ أبو عُبَيْدَةَ يحدث - يعني عن أبيه - كما سُئِلَ، قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريلُ بدابة فوق الحمار ودُونَ الْبَغْلِ، فحملني عليه، ثم انطلق يَهْوِي بنا كُلَّمَا صَعِدَ عَقْبَةً اسْتَوَتْ رِجْلَاهُ كَذَلِكَ مَعَ يَدِيهِ، وَإِذَا هَبَطَ اسْتَوَتْ يَدَاهُ مَعَ رِجْلَيْهِ، حَتَّى مَرَرْنَا بِرَجُلٍ طَوَالَ سَبِيلِ آدَمَ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ أَزْدَ شَنْوَةَ، وَهُوَ يَقُولُ: فَرَّقَ صَوْتُهُ -: أَكْرَمْتُهُ وَقَضَيْتُهُ. قال: فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا مَعَكَ يَا جَبْرِيلُ؟ قال: هَذَا أَحْمَدُ. قال: مرحباً بالنبي الأمي العربي، الذي بَلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ. قال: ثم اندفعنا فقلت: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قال: هَذَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ. قال: قلت: وَمَنْ يَعَاتِبُ؟ قال: يُعَاتِبُ رَبَّهُ فَيْكَ. قلت: وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَى رَبِّهِ؟ قال: إِنْ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ عَرَفَ لَهُ جِدَّتَهُ. قال: ثم اندفعنا حَتَّى مَرَرْنَا بِشَجَرَةٍ كَأَنَّ ثَمَرَهَا السَّرْحُ تَحْتَهَا شَيْخٌ وَعِيَالُهُ، قال: فقال لي جبريل: اعْبُدْ إِلَى أَيْكَ إِبْرَاهِيمَ، فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، فقال إِبْرَاهِيمُ: مَنْ هَذَا مَعَكَ يَا جَبْرِيلُ؟ قال: هَذَا ابْنُكَ أَحْمَدُ. قال: فقال: مرحباً بالنبي الأمي الذي بَلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، يَا بَنِي، إِنَّكَ لَأَقْرَبُ رَيْكُ اللَّيْلَةِ، وَإِنْ أَمَتَكَ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَضْعَفُهَا، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ حَاجَتَكَ

(١) صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٢٨٥ وأحمد ٣٠٩/١ والطبراني في «الأوسط» ٢٤٦٨ والبيهقي ٣/٦٣. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦٤/١ - ٦٥ وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٣ والبيهقي في «الدلائل» ٣٧٢/٢ - ٣٧٣.

أو جُلُّها في أُمَّتِكَ فافعل. قال: ثم ائذَفَعْنَا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحَلَقَةِ التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء - عليهم السلام - تَرِيطُ بها. ثم دخلتُ المسجدَ فعرفتُ النبيَّ من بين قائم وراكع وساجد، قال: ثم أُتِيتُ بكأسين من عَسَلٍ ولبن، فأخذتُ اللَّبَنَ فَشَرَبْتُ، فَضَرَبَ جبريلُ - عليه السلام - مَثَكِبِي وقال: أَصَبْتَ الفِطْرَةَ رَبِّ مُحَمَّد. قال: ثم أُقِيمَت الصلاة فَأَمَمْتُهُمْ، ثم انصرفنا فَأَقْبَلْنَا. إسنَادٌ غَرِيبٌ ولم يُخْرِجُوهُ، فيه من الغَرَائِبِ: سؤالُ الأنبياء عنه - عليه السلام - ابتداءً، ثم سؤالُه عنهم بعد انصرافه. والمشهور في الصحاح كما تقدم: أنَّ جبريلَ - عليه السلام - كان يُغْلِمُهُ بهم أولاً لِيَسْلَمَ عليهم سلامَ مَعْرِفَةٍ. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء - عليهم السلام - قبل دخوله المسجد، والصحيحُ أنه إنما اجتمع بهم في السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصَلَّى بهم فيه، ثم رَكِبَ البَرَّاقَ وَكَّرَ راجعاً إلى مكة^(١)، والله أعلم.

[٤١٦٩] طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عَفَاة، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: لَقِيتُ ليلةَ أُسْرِي بي إبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - فتذكروا أمر الساعة، قال: فَرَدُّوا أمرهم إلى إبراهيم - عليه السلام - فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى موسى - عليه السلام - فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى عيسى - عليه السلام - فقال: أَمَا وَخَيْتُهَا فلا يعلم بها أحدٌ إلا الله عزَّ وجلَّ، وفيما عهد إليَّ رَبِّي أَنَّ الدَّجَالَ خارج، قال: ومعِي قضيبان، فإذا رَأَيْتِي ذَابَ كما يَذُوبُ الرِّصَاصُ، قال: فَيَهْلِكُ الله إذا رَأَيْتِي، حتى إن الحَجَرَ والشَّجَرَ يقول: «يا مُسْلِمُ، إن تحتي كافرًا، فتعال فاقتله»، قال: فَيَهْلِكُهم الله، ثم يرجعُ الناسُ إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرجُ يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كل حَدَبٍ ينسِلون، فيطنون بلادهم، فلا يؤتونَ على شيءٍ إلا أَهْلَكُوهُ. ولا يَمْرُونَ على ماءٍ إلا شَرَبُوهُ، قال: ثم يرجعُ الناسُ إليَّ فيشكونهم، فأدعو الله عليهم، فَيَهْلِكُهم ويُمِيتُهم، حتى تَجْوَى الأرض من ثَنِّ رِيحهم - أي: ثُنَّتِن - قال: فَيَنْزِلُ الله المطر، فَتُجْرَفُ أجسادُهم حتى يَقْذِفَهم في البحر. ففَما عَهدَ إليَّ رَبِّي أَنَّ ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحاملِ المُتِمِّ، لا يدري أهلها متى تَفْجُوهم بولادها ليلاً أو نهاراً^(٢). وأخرجه ابنُ ماجه، عن بُنْدَارٍ، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حَوَّشِب.

[٤١٧٠] روايةُ عبد الرحمن بن قُرْط - رضي الله عنه - أخِي عبد الله بن قُرْطِ الثُمالي: قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثني عُرْوَةُ بن رُويم، عن عبد الرحمن بن قُرْط: أن رسول الله ﷺ ليلةَ أُسْرِي به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زَمْرَمَ والمقام، جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلوى. فلما رَجَعَ قال: سمعتُ تَسْبِيحاً في السموات العلوى مع تسبيح كثير، سَبَّحَتِ السموات العلوى من ذي المهابة مُشْفِقَاتٍ من ذي العلو بما علا، سبحان العلوى الأعلى، سبحانه وتعالى. ونذكرُ هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿سَبِّحْ لَهُ النُّجُودُ النَّبِيُّ وَالْأَرْضُ﴾^(٣) [الإسراء: ٤٤]... الآية.

(١) فيه إرسال بين أبي عبيدة وأبيه ابن مسعود، وفيه غرابة لكن لأكثر الحديث شواهد، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٨١ وأحمد ٣٧٥/١ وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناده صحيح رجاله ثقات، ومؤثر بن عفاة

ذكره ابن حبان في «الثقات»، وباقي رجال الإسناده ثقات. وصححه الحاكم ٤/٨٨٨ ووافقه الذهبي.

(٣) وسيأتي الحديث فيها حيث نُخرجه.

[٤١٧١] رواية عُمَرُ بن الخطاب - رضي الله عنه - : قال الإمام أحمدُ: حدثنا أسود بن عامر، حَدَّثَنَا حماد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عُبَيْد بن آدم وأبي مَرْزَيْم وأبي شعيب: أن عُمَرَ بن الخطاب - رضي الله عنه ؛ كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس - قال: قال أبو سلمة: فحدثني أبو سنان، عن عُبَيْد بن آدم قال: سَمِعْتُ عُمَرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول لكعب: أَيْنَ تَرَى أن أَصْلِي؟ فقال: إن أخذت عَنِّي صَلَّيْتُ خَلْفَ الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك. فقال عمر - رضي الله عنه -: ضاهيت اليهودية، ولكن أَصْلِي حيث صَلَّى رسولُ الله ﷺ فتقدم إلى القبلة فصلَّى، ثم جاء فَبَسَطَ رداءه، وَكَنَسَ الكُنَاسَةَ في رِداءه، وَكَنَسَ الناسَ^(١). فلم يُعْظَمَ الصخرة تعظيماً يُصَلِّي وراءها وهي بين يديه، كما أشار به كعبُ الأحبار، وهو من قوم يعظمونها حتى جَعَلُوها قبلتهم. ولكن مَنْ الله عليه بالإسلام فهُدِيَ إلى الحق. ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين - رضي الله عنه -: «ضاهيت اليهودية»، ولا أهانها إهانةُ النصارى الذين كانوا قد جعلوها مَزيلَةً من أجل أنها قبلَةُ اليهود، ولكن أَمَاط [عنها] الأذى، وكنس عنها الكُنَاسَةَ بِردائه.

[٤١٧٢] وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم، عن أبي مَرْزُئِدِ العَنَوِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»^(٢).

[٤١٧٣] رواية أبي هريرة - رضي الله عنه - وهي مَطْوُولة جداً، وفيها غَرَابَةٌ: قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير «سورة سبحان»: حَدَّثَنَا عَلِي بن سهل، حَدَّثَنَا حجاج، حَدَّثَنَا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرِّياحي، عن أبي هريرة - أو غيره - شك أبو جعفر - في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنْكَ السَّجِدِ الْكَرَّارِ إِلَى السَّجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ مَّائِينَ آيَاتِهِ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾، قال: جاء جبريل - عليه السلام - إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريل لميكائيل: اتنني بطَسْتٍ من ماء زمزم، كيما أَطْهَرَ قَلْبَهُ وَأَسْرَحَ له صَدْرَهُ. قال: فَشَقَّ عنه بطنه فغسله ثلاثَ مرات. واختلَفَ إليه ميكائيل بثلاثِ طَسَاسٍ من ماءِ زَمْزَم، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غِلٍّ، ومَلَأَ حِلْمًا وعِلْمًا، وإِيمَانًا وَيَقِينًا وإِسْلَامًا، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة. ثم أتاه بفرس فَحَمَلَهُ عليه، كُلَّ خُطْوَةٍ منه مُتَبَيِّنَةٌ بِصَرِّهِ - أو: أَقْصَى بَصَرِهِ - قال: فسار وسار معه جبريل - عليه السلام - قال: فَاتَى على قَوْمٍ يَزْرَعُونَ في يومٍ ويحصدون في يوم، كُلُّمَا حَصَدُوا عاد كما كان، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريلُ، ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تُضَاعَفُ لهم الحسنةُ بِسِعْمَانَةٍ ضِعْفٍ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خيرُ الرازقين. ثم أتى على قوم تُزْصَخُ رؤوسهم بالصخر، كُلُّمَا رُضِخَتْ عادت كما كانت، ولا يُفْتَرُ عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين تَتَنَاقَلُ رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة. ثم أتى على قوم على أقبالهم رِقَاعٌ وعلى أديبارهم رِقَاعٌ، يَسْرَحُونَ كما تَسْرَحُ الإبلُ والنَّمَم، ويأْكُلُونَ الضَّرِيعَ والزَّرْقَوْمَ وَرَضَفَ جهنم وحجارتها، قال: ما هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين لا يُؤَدُّون صَدَقَاتِ أموالهم، وما ظَلَمَهُم الله شيئاً، وما الله بظلام للعبيد. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نُضِيج في قِدْرٍ، ولحمٌ آخَرُ نِيءٌ في قِدْرٍ خَبِيثٍ، فجعلوا يأْكُلُونَ مِنَ الثَّمِيءِ الخَبِيثِ وَيَدْعُونَ النُّضِيجَ الطيب، فقال: ما هؤلاء يا جبريلُ؟ فقال: هذا الرجلُ من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأةً خبيثةً فيبيثُ عندها حتى يُصْبِحَ، والمرأة تقوم من عند زَوْجِها حَلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فَتَبِثُ عنده حتى تُصْبِحَ. قال: ثم أتى على خشبةٍ على

(١) أخرجه أحمد ٣٨/١ ح ٢٦٣ وإسناده ضعيف لضعف أبي سنان - عيسى بن سنان - وشيخه عبيد مجهول.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٩٧٢ والترمذي ١٠٥١ وأبو داود ٣٢٢٩ وأحمد ١٣٥/٤ وابن حبان ٢٣٢٠.

الطريق، لا يمرُّ بها ثوب إلا شَقَّتْهُ، ولا شيء إلا خرَّقَتْهُ، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُنُسِكُمْ لِحُرْمَتِ الْوُجُودِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَسِيْلُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٦]. قال: ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل عليها. ثم أتى على قوم تُقْرَضُ ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد، كلُّما قُرِضَتْ عادت كما كانت، لا يُقْتَرُ عنهم من ذلك شيء، قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء خطباء الفتنة. ثم أتى على جحر صغير يخرج منه نورٌ عظيم، فجعل النور يريد أن يرجع من حيث خرَّج، فلا يستطيع فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الرجل يتكلَّم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردَّها. ثم أتى على وادٍ فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: يا جبريل، ما هذه الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟ وما هذا الصوت؟ قال: هذا صوت الجنة، تقول: يا رب، اتنني بما وعدتني فقد كثرت عُرفي، وإستبرقي وخبري وسُنْدُسي وعبرتي، ولؤلؤي ومزجاني، وفُضْتي وذَهْبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي، وعَسْلي ومائي ولبني وخمري، فأتني ما وعدتني. فقال: لك كلُّ مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرُسْلي وعَمِلَ صالحاً ولم يُشْرِكْ بي، ولم يتخذ من دوني أنداداً. ومن خَشِنِي فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليَّ كفيته، إني أنا الله، لا إله إلا أنا، لا أخْلِفُ الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين. قالت: قد رَضِيتُ. قال: ثم أتى على وادٍ فَسَمِعَ صوتاً منكراً، ووجد ريحاً مُنِيئَةً، فقال: ما هذه الريح يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟ فقال: هذا صوت جهنم، تقول: يا رب، أتني ما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالِي، وسَعِيرِي وخَمِيمِي، وضُرَيْعِي وغَسَاقِي وعَذَابِي، وقد بَعُدَ قَعْرِي واشتدَّ حرِّي، فأتني ما وَعَدْتَنِي. فقال: لك كلُّ مُشْرِكٍ ومُشْرِكَةٍ، وكافر وكافرة، وكلُّ خبيث وخبيثة. وَكُلُّ جَبَّارٍ لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رَضِيتُ.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزلَ فَرَبَطَ فَرَسَهُ إِلَى صَخْرَةٍ، ثم دَخَلَ فصلى مع الملائكة، فلما قُضِيَتِ الصَّلَاةُ قالوا: يا جبريل، من هذا معك؟ قال: محمد ﷺ قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاهُ الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: ثم لقي أرواح الأنبياء - عليهم السلام - فأتوا على رَبِّهِمْ، فقال إبراهيم - عليه السلام -: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني مُلْكاً عظيماً، وجعلني أمةً قانتاً يُؤْتَمَ بي، وأنقذني من النار، وجعلها عَلَيَّ برداً وسلاماً. ثم إن موسى - عليه السلام - أثنى على رَبِّهِ - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي كَلَّمَنِي تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إن داود - عليه السلام - أثنى على رَبِّهِ - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي جعل لي مُلْكاً عظيماً، وعَلَّمَنِي الزبور، وألَّن لي الحديد، وسَخَّرَ لي الجبال يُسَبِّحُنَ والطير، وأعطاني الحكمةَ وَفَضَّلَ الْخُطَابَ. ثم إن سليمان - عليه السلام - أثنى على رَبِّهِ - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي سَخَّرَ لي الرياح، وسَخَّرَ لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محارِبٍ وتمائيلٍ، وجفانٍ كالجوابي وقُدُورٍ راسياتٍ، وعَلَّمَنِي مَنْطِقَ الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسَخَّرَ لي جُنُودَ الشياطين والإنس، والطير، وفَضَّلَنِي على كثير من عباده المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا يَنْبَغِي لأحدٍ من بَعْدِي، وجعل ملكاً طيباً ليس فيه حساب. ثم إن عيسى - عليه السلام - أثنى على رَبِّهِ - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي جَعَلَنِي كلمته، وجعل مثلي مثل آدم، خَلَقَهُ من تراب ثم قال له: كن، فيكون. وعَلَّمَنِي الكتاب والحكمةَ والتوراة والإنجيل، وجَعَلَنِي أخلق من الطين كهينة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً

بِإِذْنِ اللَّهِ، وَجَعَلَنِي أَبْرَأَ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَأَحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَرَفَعَنِي وَطَهَّرَنِي، وَأَعَاذَنِي وَأَمَنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْنَا سَبِيلٌ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَانِي عَلَى رِيهِ - عَزَّوَجَلَّ - فَقَالَ: كُلُّكُمْ أَتَانِي عَلَى رِيهِ، وَأَتَانِي مَثْنً عَلَى رِيهِ - عَزَّوَجَلَّ - فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَكَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْفُرْقَانَ فِيهِ بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ أَمَتِي خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَجَعَلَ أَمَتِي أُمَّةً وَسَطًا، وَجَعَلَ أَمَتِي هُمُ الْأَوَّلُونَ وَهُمْ الْآخِرُونَ، وَشَرَحَ لِي صَدْرِي، وَوَضَعَ عَنِي وَزِيرِي، وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي فَاتِحًا وَخَاتَمًا. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: بِهَذَا فَضَّلَكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ: خَاتِمُ النَّبَوَةِ، فَاتِحُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ أَتَانِي بَاتِيَةً ثَلَاثَةُ مَغْطَاةٍ أَفْوَاضَهَا، فَأَتَانِي بِإِنَاءٍ مِنْهَا فِيهِ مَاءٌ فَقِيلَ: اشْرَبْ. فَشَرِبَ مِنْهُ يَسِيرًا، ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِ إِنَاءً آخَرَ فِيهِ لَبَنٌ، فَقِيلَ لَهُ: اشْرَبْ. فَشَرِبَ مِنْهُ حَتَّى رَوِيَ. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِ إِنَاءً آخَرَ فِيهِ خَمْرٌ فَقِيلَ لَهُ: اشْرَبْ. فَقَالَ: لَا أَرِيدُهُ قَدْ رَزَيْتُ. فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَمَا إِنَّهَا سَتُحَرِّمُ عَلَى أُمَّتِكَ، وَلَوْ شَرِبْتَ مِنْهَا لَمْ يَتَّبِعَكَ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا قَلِيلٌ.

قَالَ: ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مِنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنَعَمْ الْأَخُ وَنَعَمْ الْخَلِيفَةُ، وَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَدَخَلَ فَلِذَا هُوَ بِرَجُلٍ تَامِ الْخَلْقِ، لَمْ يَنْقُصْ مِنْ خَلْقِهِ شَيْءٌ كَمَا يَنْقُصُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، عَلَى يَمِينِهِ بَابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِيحٌ طَيِّبَةٌ، وَعَنْ شِمَالِهِ بَابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِيحٌ خَبِيثَةٌ، إِذَا نَظَرَ إِلَى الْبَابِ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَاسْتَبَشَرَ، وَإِذَا نَظَرَ إِلَى الْبَابِ الَّذِي عَنْ يَسَارِهِ بَكَى وَحَزَنَ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، مِنْ هَذَا الشَّيْخُ التَّامِ الْخَلْقِ الَّذِي لَمْ يَنْقُصْ مِنْ خَلْقِهِ شَيْءٌ؟ وَمَا هَذَانِ الْبَابَانِ؟ فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهَذَا الْبَابُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ بَابُ الْجَنَّةِ، فَلِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ يَدْخُلُهُ مِنْ ذَرِيَّتِهِ ضَحِكَ وَاسْتَبَشَرَ، وَالْبَابُ الَّذِي عَنْ شِمَالِهِ بَابُ جَهَنَّمَ، إِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ يَدْخُلُهُ مِنْ ذَرِيَّتِهِ بَكَى وَحَزَنَ. ثُمَّ صَعِدَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مِنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. قَالُوا: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنَعَمْ الْأَخُ وَنَعَمْ الْخَلِيفَةُ، وَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ. قَالَ: فَدَخَلَ، فَلِذَا هُوَ بِشَابِيَيْنِ فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ، مَنْ هَذَانِ الشَّابَانِ؟ قَالَ: هَذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا، ابْنَا الْخَالَةِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. قَالَ: فَصَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالُوا: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنَعَمْ الْأَخُ وَنَعَمْ الْخَلِيفَةُ، وَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ. قَالَ: فَدَخَلَ فَلِذَا هُوَ بِرَجُلٍ عَلَى النَّاسِ فِي الْحُسْنِ، كَمَا فَضَّلَ الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، قَالَ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ الَّذِي [قَدْ] فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحُسْنِ؟ قَالَ: هَذَا أَخُوكَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ: ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالُوا: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنَعَمْ الْأَخُ وَنَعَمْ الْخَلِيفَةُ، وَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ! قَالَ: فَدَخَلَ، فَلِذَا هُوَ بِرَجُلٍ، قَالَ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَفَعَهُ اللَّهُ مَكَانًا عَلِيًّا. ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالُوا: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنَعَمْ الْأَخُ وَنَعَمْ الْخَلِيفَةُ، وَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ. ثُمَّ دَخَلَ فَلِذَا هُوَ بِرَجُلٍ جَالِسٍ وَحَوْلَهُ قَوْمٌ يَقْضُ عَلَيْهِمْ، قَالَ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ وَمَنْ هَؤُلَاءِ حَوْلَهُ؟ قَالَ: هَذَا هَارُونَ الْمُحِبُّ فِي قَوْمِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ. ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنَعَمْ الْأَخُ وَنَعَمْ الْخَلِيفَةُ، وَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَلِذَا هُوَ بِرَجُلٍ جَالِسٍ، فَجَاوَزَهُ فَبَكَى

الرجل، فقال: يا جبريل، من هذا؟ قال: موسى - عليه السلام - قال: فما باله يبكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أنني أكرم بني آدم على الله عز وجل، وهذا رجل من بني آدم قد خلّفتني في دنيا، وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال، ولكن مع كل نبي أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح، فقبل له: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلّص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلّصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: يا جبريل، من هذا الأشمط؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء؟ وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها فجاؤوا وقد صفّت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم - عليه السلام - أول من شبط على الأرض. وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا لإيمانهم بظلم. وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فقوم خلّطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتأبوا فتاب الله عليهم. وأما الأنهار فالوها رحمة الله، والثاني نعمة الله، والثالث سقايم ربهم شراباً طهوراً.

قال: ثم انتهى إلى السدرة فقبل له: هذه السدرة ينتهي إليه كل أحد خلا من أمتك على سبيلك. فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذّة للشاربين، وأنهار من غسل مصفى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلّها سبعين عاماً لا يقطعها، والورقة منها مغطّية للامة كلها. قال: فغشيتها نور الخلاق عز وجل، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة من حبّ الرب تبارك وتعالى، قال: فكلّمه الله تعالى عند ذلك فقال له: سل. قال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيتك ملكاً عظيماً، وكلّمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألّمت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له الياح، وأعطيتك ملكاً عظيماً لا ينبي لأحد من بعده. وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل. فقال له الرب عز وجل: وقد اتخذتك خليلاً - وهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضععت عنك وزرك. وزعمت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين وهم الآخرين، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلت أول النبين خلفاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضى له. وأعطيتك سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجعلت لك فاتحاً وخاتماً. فقال النبي ﷺ: فضّلني ربي بست: أعطاني فواتح الكلم وخواتيمه، وجوامع الحديث، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً. وقذف في قلوب عذوي الرعب من مسيرة شهر، وأجلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض كلها طهوراً ومسجداً. قال: وفرض عليّ خمسين صلاة. فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يا محمد؟ قال: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع

النبي ﷺ إلى ربه - عَزَّ وَجَلَّ - فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رَجَعَ إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ قال: بأربعين. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعفُ الأمم، وقد لَقِيتُ من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع النبي ﷺ إلى رَبِّهِ فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ قال: أُمِرْتُ بثلاثين. فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعفُ الأمم، وقد لَقِيتُ من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع إلى رَبِّهِ فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ أُمِرْتُ بعشرين قال: ارجع إلى رَبِّكَ فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعفُ الأمم، وقد لَقِيتُ من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع إلى ربه - عَزَّ وَجَلَّ - فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فَرَجَعَ إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ قال: أُمِرْتُ بِعَشْرٍ. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعفُ الأمم، وقد لَقِيتُ من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع على حياء من ربه، فسأله التخفيف فَوَضَعَ عنه خمساً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ قال: بخمس. فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعفُ الأمم، وقد لَقِيتُ من بني إسرائيل شدة، قال: قد رَجَعْتُ إلى ربي حتى استحييتُ، فما أنا راجعٌ إليه. قيل: أما إِنَّكَ كما صَبَرْتَ نَفْسَكَ على خمس صلوات، فإنهن يُجْزَيْنَ عنك خمسين صلاة، فإن كلَّ حسنة بعشر أمثالها. قال: فَرَضِي محمد ﷺ كُلَّ الرضا. قال: وكان موسى - عليه السلام - من أشدهم عليه حين مَرَّ به، وخَيَّرهم له حين رجع إليه^(١). ثم رَوَاهُ ابنُ جرير عن محمد بن عُبَيْد الله، عن أَبِي النضر هاشم بن القاسم، عن أَبِي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أَبِي العالية أو غيره - شك أبو جعفر - عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ فذكره بمعناه. وقد رَوَاهُ الحافظ أبو بكر البيهقي عن أَبِي سَعْدٍ الماليني، عن ابن عَدِيٍّ، عن محمد بن الحسن السكوني البالسي بالرملة، حدثنا علي بن سهل... فذكر مثل ما رَوَاهُ ابن جرير، عنه. وذكر البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله رَوَاهُ عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبيري، عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس، عن أَبِي العالية، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ فذكره. وقال ابنُ أبي حاتم: ذَكَرَ أَبُو زُرْعَةَ، حدثنا محمد بن عبد الله بن ثَمِير، حدثنا يونس بن بُكَيْر، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس البكري، عن أَبِي العالية أو غيره - شك عيسى - عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: قال الله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢). . . فذكر الحديث بطوله كنعو مما سَقْنَاهُ. قلت: أبو جعفر الرازي، قال فيه الحافظ أبو زُرْعَةَ الرازي: «يَهْمُ فِي الْحَدِيثِ كَثِيرًا». وقد ضَعَفَهُ غيره أيضاً، وَوَثَّقَهُ بعضهم. والأظهر أنه سَيِّئُ الْحِفْظِ، ففيمَا تَفَرَّدَ بِهِ نَظَرُ. وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابَةٌ وَنَكَارَةٌ شَدِيدَةٌ، وفيه شيء من حديث المنام من رواية سُمُرَةَ بن جُنْدَبٍ في المنام الطويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام وقصة أخرى غير الإسراء، والله أعلم.

[٤١٧٤] وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال: قال النبي ﷺ حين أُسْرِيَ به: لَقِيتُ موسى - عليه السلام -

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٠٢١، والبيهقي في «الدلائل» ٣٩٧/٢ - ٤٠٤ من حديث أبي هريرة، وفيه عيسى بن أبي عيسى، أبو جعفر الرازي ضعفه الجمهور، وقد روى مناكير كثيرة، وقد شك في روايته، وقد تفرد في هذا الحديث بالفاظ، وهو غير حجة.

(٢) إسناده ضعيف كسابقه.

قال: فَتَعَتَهُ، فإذا رجل حَسِبْتَهُ قال -: مضطرب، رَجُلُ الرَّأْسِ، كأنه من رجال شَنْوَةَ، قال: ولقيت عيسى - عليه السلام - فَتَعَتَهُ النبي ﷺ قال: رُبْعَةٌ أَحْمَرُ، كأنما خرج من دِيَمَاسٍ - يعني حَمَامًا - قال: ورأيت إبراهيم - عليه السلام - وأنا أَشْبَهُ وَلَدِهِ به. قال: وَأَتَيْتُ بِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ، قيل لي: خُذْ أَيهُما شِئْتَ. فأخذتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ، فقيل لي: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أو: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أما إنك لو أخذتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أَمَتُكَ^(١). وأخرجاه من وجه آخر، عن الزهري، به نحوه.

[٤١٧٥] وفي صحيح مسلم عن زُهَيْرِ بْنِ حَرْبٍ عن حُجَّيْنِ بْنِ الْمُثَنَّى، عن عبد العزيز بن أبي سَلَمَةَ. عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أَثْبِتْهَا، فَكُرِّبْتُ كَرْبًا مَا كُرِّبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ. فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، مَا سَأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَأَنْبَأْتُهُمْ بِهِ. وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى - عليه السلام - قائم يصلي، فإذا رَجُلٌ ضَرْبُ جَعْدٍ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قائم يصلي أقرب الناس به شَبْهًا عُرُوهُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - قائم يصلي أشبه الناس به صَاحِبِكُمْ - يعني نفسه - فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَغْتُ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا مَالِكُ صَاحِبِ النَّارِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَبَدَأَنِي بِالْإِسْلَامِ»^(٢).

[٤١٧٦] وقال ابنُ أَبِي حَاتِمٍ: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عن علي بن زيد، عن أبي الصَّلْتِ، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي لَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَنظَرْتُ فَوْقَ فَإِذَا رَعْدٌ وَبَرْقٌ وَصَوَاعِقُ - قال: وَأَتَيْتُ عَلَى قَوْمٍ يَطُونُهُمْ كَالْبَيُوتِ فِيهَا الْحَيَاتُ تُرَى مِنْ خَارِجِ بَطُونِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قال: هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرَّبِّاءِ. فَلَمَّا نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا نَظَرْتُ أَسْفَلَ مِنِّي فَإِذَا أَنَا بِرَهْجٍ وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قال: هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يَحُومُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ»^(٣). ورواه الإمامُ أَحْمَدُ عَنْ حَسَنِ وَعَفَانَ، كلاهما عن حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ. به. ورواه ابنُ ماجه من حديث حَمَادٍ، به.

رواية جماعة من الصحابة ممن تَقَدَّمَ وغيرهم - رضي الله عنهم -:

[٤١٧٧] قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله - يعني الحاكم - أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهَمْذَان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمداني، حدثنا أبو محمد - هو إسماعيل بن موسى - الْفَرَارِيُّ، حدثنا عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ النَّضْرِيُّ، من بني نَضَرَ بْنِ قُعَيْنَ، حدثني عبد العزيز، وليث بن أبي سُلَيْمٍ، وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب - بعضهم يزيد في الحديث على بَعْضٍ - عن علي بن أبي طالب وعن عبد الله بن عباس - ومحمد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه عن ابن عباس - وعن سليم بن مسلم الْعَقِيلِيِّ،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٣٧ ومسلم ١٦٨ والترمذي ٣١٣٠ وأحمد ٢/٢٨٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢/٣٨٧ وابن جبان ٥١.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢/٣٥٨.

(٣) ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٢٢٧٣ وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف، وشيخه أبو الصلت، وهو مجهول كما في التقريب، والحديث تقدم تخريجه في سورة الأعراف عند آية: ١٨٥.

عن عامر الشَّعْبِيّ، عن عبد الله بن مسعود - وجُوَيْر، عن الضَّحَّاك بن مزاحم - قالوا: كان رسولُ الله ﷺ في بيت أم هانئ راقداً وقد صَلَّى العشاء الآخرة^(١)، قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ... وذكر الحديث، فكتبتُ المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدَّرَج والملائكة وغير ذلك مما لا يُنكَرُ شيء منها في قدرة الله إن صَحَّت الرواية. قال البيهقي: فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبَّدي في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق. قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رَحِمَهُ الله عليهم أجمعين.

[٤١٧٨] رواية عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها -: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا محمد بن كثير الصنعاني، حدثنا معمر بن راشد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما أُسْرِي بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يُحَدِّث النَّاسَ بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمَنُوا به وصدَّقوه، وسَعَوْا بذلك إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أُسْرِي به الليلة إلى بيت المقدس. فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدَّق. قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غَدوة أو رَوْحة. فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق، رضي الله عنه^(٢).

[٤١٧٩] رواية أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها -: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح باذان، عن أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها - في مَسْرَى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول: ما أُسْرِي برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة، فصلَّى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قُبَيْلَ الفجر أَعْبَنَا رسولُ الله ﷺ، فلما صَلَّى الصبح وصلَّينا معه قال: يا أم هانئ، لقد صَلَّيتَ معكم العشاء الآخرة كما رأيْتُ بهذا الوادي، ثم جِئْتُ بَيْتَ المقدس فصَلَّيتَ فيه، ثم صَلَّيتَ صلاة الغداة معكم الآن كما تَرَيْنَ^(٣). الكلبي: متروك بمرة ساقط. لكن رواه أبو يعلى في مُسنَّده عن محمد بن إسماعيل الأنصاري، عن ضَمْرَةَ بن زَبِيْعَةَ، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيَّاني، عن أبي صالح، عن أم هانئ^(٤) بأبسط من هذا السياق، فليكتب ها هنا.

[٤١٨٠] وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المُسَّاور، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِي به في بيتي، فَقَفَدْتُهُ من الليل، فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عَرَضَ له بعضُ قُرَيْش، فقال رسولُ الله ﷺ: إن جبريلَ عليه السَّلام أتاني فأخذ بيدي فأخرجني، فإذا على الباب دابةٌ دون البغل وفوق الحمار، فحملني عليها ثم انطلق حتى انتهى بي إلى بيت المقدس، فأراني إبراهيم - عليه السَّلام - يُشَبِّهُ خَلْقَهُ خَلْقِي، وَيُشَبِّهُ خَلْقِي خَلْقَهُ، وأراني موسى - عليه السَّلام - آدمَ طويلاً سَبَطَ

(١) إسناده ضعيف جداً. أخرجه البيهقي ٤٠٤/٢ وضعفه بقوله: رواه مجهول، وهو منقطع.

(٢) ضعيف. أخرجه الحاكم ٦٢/٣ والبيهقي ٣٦٠/٢ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وفيه عمد بن كثير، وهو ضعيف. قال أحمد: حدث بمنكير ليس لها أصل ولفظ «فارتد ناس» من مناكيره، فإنه لم يرتد أحد في حادثة الإسراء إذ لم يكن آمن قبل الإسراء إلا القليل.

(٣) إسناده ضعيف جداً. محمد بن السائب متروك، وشيخه أبو صالح باذان وضعفه البخاري والنسائي وغيرهما.

(٤) وهو معلول بأبي صالح أيضاً كما تقدم.

الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة. وأراني عيسى ابن مريم - عليه السلام - رُبعة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفي. وأراني الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بقطن بن عبد العزى. قال: وأنا أريد أن أخرج إلى قريش، فأخبرهم بما رأيت. فأخذت بثوبه فقلت: إني أذكرك الله، إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقاتلك، فأخاف أن يسطوا بك. قالت: فضرب ثوبه من يدي، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس، فأخبرهم ما أخبرني. فقام جبير بن مطعم فقال: يا محمد، لو كنت شاباً كما كنت، ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرائنا. فقال رجل من القوم: يا محمد، هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، والله وجدتهم قد أضلوا بغيراً لهم، فهم في طلبه. قال: فهل مررت بإبل لبني فلان؟ قال: نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا، وقد انكسرت لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها. قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة، قال: قد كنت عن عدتها مشغولاً. فقام فأتني بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة. ثم أتني قريشاً فقال لهم: سألتُموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان. وسألتُموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان، وهي مصبحتكم بالغداة على الثنية. قال: فقعدهوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوه: هل ضل لكم بغير؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كانت عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، ولا أهرأقه في الأرض. فصَدَّقَهُ أبو بكر وآمن به، فسَمِّيَ يومئذٍ الصديق^(١).

فصل: فإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرّة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه وزاد بعضهم أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرّة على حدة، فأثبت إسرائيات متعدّدة، فقد أبعد وأغرب. وهرب إلى غير مهرب، ولم يتحصّل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه ﷺ أسري به مرّة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرّة من مكة إلى السماء فقط، ومرّة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وقريح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم يُنقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدّد هذا التعدّد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقلته الناس على التعدّد والتكرار.

قال موسى بن عُقبة، عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً. والحق أنه ﷺ أسري به يقظة لا مناماً إلى بيت المقدس، راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد رُبط الدابة عند الباب، ودخله فصلّى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى بالمعراج - وهو كالسلم ذو درج يزقي فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فلتقاه من كل سماء مقرّبوها، وسلم عليه الأنبياء - عليهم السلام - الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم - عليه السلام - في السادسة، وإبراهيم الخليل - عليه السلام - في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ

(١) واو يمرة، أخرجه الطبراني ٤٣٢/٢٤ - ٤٣٤، وفي «الأوسط» (٤١ مجمع البحرين) من حديث أم هانئ، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٣٩: فيه عبد الأعلى بن أبي المساور متروك كذاب أه، فالإسناد ساقط لا شيء، لكن لأصله شواهد وعجزه تقدم أنفاً، والله أعلم.

وعليهما وعلى سائر الأنبياء - حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سِذْرَةَ المنتهى وَغَشِيَّتَهَا من أمر الله تعالى عظيمة عظيمة، من قرأش من ذهب، والوان متعددة، وَغَشِيَّتَهَا الملائكة، ورأى هنالك جبريل - عليه السلام - على صورته، له ستمائة جناح، ورأى زُفْراً أَخْضَرَ قد سد الأفق. ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل - عليه السلام - باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سَبْعُونَ ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفَرَضَ الله - عز وجل - عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خَفَفَهَا إلى خمس، رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بِشَرَفِ الصلاة وعظمتها.

ثم هَبَطَ ﷺ إلى البيت المقدس، وهبطَ مَعَهُ الأنبياء فصلّى بهم فيه لما حانت الصلاة. وَيَحْتَمِلُ أنها الصبح من يومئذ: ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دُخُولِهِ إليه والظاهر أنه بعد رجوعه إليه. لأنه لما مَرَّ بهم في منازلهم جَعَلَ يسأل عنهم جبريل - عليه السلام - واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناح العلوي، ليفرض عليه وعلى أمته ما شاء الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل - عليه السلام - له في ذلك. ثم خَرَجَ من بيت المقدس فَرَكِبَ البَرَّاق وعاد إلى مكة بَعْلَسَ، والله سبحانه وتعالى أعلم. وأما عَرِضُ الآتية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع، فقد وَرَدَ أنه في البيت المقدس، وجاء أنه في السماء. وَيَحْتَمِلُ أن يكون ها هنا وها هنا، لأنه كالضياقة للقادم، والله أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببذنه ﷺ وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أُسْرِيَ ببذنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا يُنْكِرُونَ أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة، لأنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والدليل على هذا قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أُنْزِلَتْ بِهِ حَقُّهُ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كنفاز قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال - عز شأنه -: ﴿أُنْزِلَتْ بِهِ حَقُّهُ لَيْلًا﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَرْثِيَّكَ إِلَهَ أَرْضِكَ إِلَّا لِنَفْسِكَ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - هي رؤيا عين، أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم. رواه البخاري، وقال تعالى: ﴿وَمَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا بَرَأَتْ لَهَا لَمَعَانٌ﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آيات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حُمِلَ على البراق، وهو دابة بيضاء بَرَأَتْ لَهَا لَمَعَانٌ، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب يُرَكَّبُ عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله ﷺ بروحه لا بجسده.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس: أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سُئِلَ عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة^(١). وحدثني

(١) موقوف ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٠٣٢، من طريق ابن إسحق، وهو متقطع بين يعقوب ومعاوية.

بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فُقِدَ جَسَدُ رسولِ الله، ولكن أسري بروحه^(١). قال ابن إسحاق: فلم يُنكَرْ ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَ مُحَمَّدٍ أَرْثًا إِلَّا قِصَّةً لِّلنَّاسِ﴾، ولقول الله في الخبر عن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَازِلِ أَنَّكَ قَانَطَرٌ مَاذَا تَرَى﴾ [الصفات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرُفْتُ أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظاً ونياماً.

[٤١٨١] وكان رسول الله ﷺ يقول: «تنام عيناى، وقُلُوبِي يَقْظَانُ»^(٢)، فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه، وعابن فيه مِن الله ما عابن، على أي حالاته كان، نائماً أو يقظاً، كل ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق. وقد تَعَقَّبَهُ أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالردِّ والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدَّم، والله أعلم.

فائدة حسنة جلييلة:

[٤١٨٢] روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة»، من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عُمر بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي، قال: بَعَثَ رسول الله ﷺ دِحْيَةَ بن خليفة إلى قيصر، فذكر وُزُودَهُ عليه وقدمه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وُفُورِ عقل هِرَقل، ثم استدعى من بالشام من التجار، فجاء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يَجْهَدُ أن يَحْقِرَ أمره وَيُصَغِّرَهُ عنده، قال في هذا السياق، عن أبي سفيان: والله ما يمنعني أن أقولَ عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أنني أكره أن أكذبَ عنده كَذِبَةً يأخذها عليّ، ولا يُصَدِّقَنِي بشيء. قال: حتى ذكرتُ قوله ليلة أسري به، قال: فقلتُ: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كَذَّبَ؟ قال: وما هو؟ قال: قلتُ: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحَرَمِ في ليلة، فجاء مسجداً هذا مسجداً إيلياء^(٣)، فرجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريقِ إيلياءَ عند رأس قيصر، فقال بطريقِ إيلياءَ: قد عَلِمْتُ تلك الليلة؟ قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما عَلِمْتُك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقتُ الأبوابَ كُلَّهَا غير باب واحد غَلَبَنِي، فاستعنتُ عليه بعمالي ومن يحضرني كلُّهم فعاالجته فغلبنِي، فلم نستطع أن نُحرِّكه، كأنما نزاول به جبلاً. فَدَعَوْتُ إليه النَّجَاجِرَةَ^(٤) فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه التَّجَافُ والبنيان، وما نستطيع أن نُحرِّكه حتى نُصْبِحَ فَتَنْظُرَ من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحْتُ غَدَوْتُ عليهما، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أَثَرٌ مُزَبِطُ الدابة. قال: فقلتُ لأصحابي: ما حُبِسَ هذا الباب الليلة إلا على نبيٍّ، وقد صَلَّى الليلة في مسجدنا^(٥). . . . وذكر تمام الحديث.

(١) باطل لا أصل له من كلام عائشة. أخرجه الطبري ٢٢٠٣٣ من طريق ابن إسحاق عن بعض آل أبي بكر عن عائشة، بعض آل أبي بكر مجاهيل، وابن إسحاق حدث عن مجاهيل بما لا أصل له وهذا منها. ولا يصح عن عائشة رضي الله عنها فإن عائشة لم تبلغ آنذاك خمس سنوات، ولم تكن بعد عند رسول الله ﷺ، فكيف تنفي فقدان جسد رسول الله؟، نعم إن عائشة نفت الرواية كما سيأتي في سورة النجم.

(٢) بعض حديث متفق عليه، وتقدم. (٣) إيلياء: بيت المقدس، ومسجدها هو الأقصى.

(٤) النجاجرة: جمع نجار.

(٥) إسناده ضعيف جداً، فهو مرسل محمد بن كعب تابعي، وله علة ثانية محمد بن عمر الواقدي متروك، وحديث هرقل وحواره مع أبي سفيان، ليس فيه هذا الذي ذكره الواقدي.

فائدة: قال الحافظ أبو الخطاب عُمر بن دحية في كتابه: «التنوير في مولد الشراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد - ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عُمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صفصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قزط، وأبي حبة وأبي ليلي الأنصاريين، وعبد الله بن عُمر، وجابر، وحذيفة، وبُرَيْدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسُمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصُهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد. وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون، «يُرِيدُونَ يَظُنُّوا قَوْلَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» ﴿٨﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

لما ذُكر تعالى أنه أسرى بعبدته محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده وكليمه - عليه السلام - أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: «وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ»، يعني التوراة، «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا»، أي: أي: الكتاب «هُدًى»، أي: هادياً «لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا»، أي: لئلا تتخذوا، «مِن دُونِي وَكِيلًا»، أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبدوه وحده لا شريك له. ثم قال: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ»، تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهيج وتنبية على الميتة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم، «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا»، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالني إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد في الحديث. وفي الأثر عن السلف: أن نوحاً - عليه السلام - كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأيه كله، فلهذا سُمي عبداً شكوراً. قال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي حصين، عن عبد الله بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سُمي نوح عبداً شكوراً، لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله.

[٤١٨٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَ اللَّهَ عَلَيْهَا»^(١). وهكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، من طريق أبي أسامة، به. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال.

[٤١٨٤] وقد ذكر البخاري ههنا حديث أبي زرعة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» بطوله، وفيه: «فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ»^(٢). . . وذكر الحديث بكماله.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٣٤ والترمذي ١٨١٧ وأحمد ١١٧/٣ وأبو يعلى ٤٣٣٢.

(٢) يأتي عند آية: ٧٩ من هذه السورة إن شاء الله.

﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرْبَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴿٥﴾ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَحْسَنَتْهُ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَقُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عُلُوًّا نَبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدّم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم: أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون عُلُوًّا كبيراً، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْنَا ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصَيَّرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ٦٦]، أي: تقدّمنا إليه وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾، أي: أولى الإنسنتين، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: سلطنا عليكم جنوداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي: قوّة وعُدّة وسلطة شديدة، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾، أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وتصرّفوا ذاهبين وجائين، لا يخافون أحداً، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أدبوا عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾. وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية تزيقه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مَقْعَدًا ضَعِيفًا يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل. وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً^(١). وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث. والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره. وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج الجزري رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب. وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها، لأنّ منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنيّة عنها، والله الحمد. وفيما قصّ الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقیة الكتب قبله، ولم يُخَوِّجْنَا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغّوا وطغّوا سلط عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما زلّك بظلام للعبيد فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن

(١) هو عند الطبري ٢٢٠٥٧ من حديث حذيفة بن اليمان، وفيه رواد بن الجراح متهم، والحمل عليه فيه.

يحيى بن سعيد قال: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنِ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ: ظَهَرَ بُخْتَنْصَرُ عَلَى الشَّامِ، فَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَقَتْلَهُمْ. ثُمَّ أَتَى دِمَشْقَ فَوَجَدَ بِهَا دُمًا يَغْلِي عَلَى كِبَا، فَسَأَلَهُمْ: مَا هَذَا الدَّمُ؟ فَقَالُوا: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذَا، وَكُلَّمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ الْكِبَا ظَهَرَ. قَالَ: فَقَتَلَ عَلَى ذَلِكَ الدَّمِ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَسَكَنَ. وَهَذَا صَحِيحٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَأَنَّهُ قَتَلَ أَشْرَافَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ يَحْفَظُ التَّوْرَةَ، وَأَخَذَ مَعَهُ خَلْقًا مِنْهُمْ أَسْرَاءَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَجَزَّتْ أُمُورٌ وَكَوَانِنٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا. وَلَوْ وَجَدْنَا مَا هُوَ صَحِيحٌ أَوْ بِقَارِبِهِ، لَجَازَ لَنَا كِتَابَتُهُ وَرَوَايَتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، أَي: فَعَلِيهَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ مِثْلًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾، أَي: الْمَرَّةُ الْآخِرَةُ، أَي: إِذَا أَفْسَدْتُمُ الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ وَجَاءَ أَعْدَاؤُكُمْ، ﴿لِيَسْخَرُوا مِنِّي وَيَكْفُرُوا﴾، أَي: يُهَيِّنُوكُمْ وَيَقْهَرُوكُمْ، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾، بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿كَأَنَّهُمْ دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أَي: الَّتِي جَاسُوا فِيهَا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴿وَلِيَشْرَوْا﴾، أَي: يُدْمَرُوا ﴿وَيُخْرَبُوا﴾، أَي: مَا ظَهَرُوا عَلَيْهِ ﴿نَبِيْرًا﴾ ٧ ﴿عَنْ رَبِّكَ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾، أَي: فَيَصْرِفُهُمْ عَنْكُمْ، ﴿وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أَي: مَتَى عُدْتُمْ إِلَى الْإِفْسَادِ ﴿عَذَابًا﴾ إِلَى الْإِدَالَةِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا نَذَرَهُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَحَمَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، أَي: مُسْتَقَرًّا وَمُخَصَّرًا وَسِجْنًا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَصِيرًا﴾، أَي: سِجْنًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُحْصَرُونَ فِيهَا. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: فَرَّاشٌ وَمِهَادٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدِ عَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْحَيَّ، مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ، يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْرَبُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ٨
وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٩

يَمْدَحُ تَعَالَى كِتَابَهُ الْعَزِيزَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ، بَأَنَّهُ يَهْدِي لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحِ السَّبِيلِ، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِهِ، ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ عَلَى مَقْتَضَاهُ، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أَي: وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ ١٠

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ، وَدُعَائِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ ﴿بِالشَّرِّ﴾، أَي: بِالمَوْتِ أَوْ الْهَلَاكِ وَالْدمَارِ وَاللَّعْنَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَوْ اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ لَهْلَكَ بِدُعَائِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]. وَكَذَا قُسِّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ.

[٤١٨٥] وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، أَنْ تَوَافَقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً إيجابية يَسْتَجِيبُ فِيهَا»^(١). وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ابْنُ آدَمَ عَلَى ذَلِكَ عَجَلَتُهُ وَقَلْبُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. وَقَدْ ذَكَرَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَابْنُ عَبَّاسٍ هَا هُنَا قِصَّةَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ هَمَّ بِالنَّهْوِضِ قَائِمًا قَبْلَ

أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحتها، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع، وقال: يا رب، عجل قبل الليل.

﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ فَحَوتًا آيَةَ الْيَلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٧﴾﴾

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار؛ ليسكنوا في الليل ويتنشقوا في النهار، للمعاش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك، ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾، فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً، لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَوْيَسِّرُ لِي جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْيَلَّ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ اللَّهُ بِأَيْتِكُمْ بِضِيَاءً أَفْلا تَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ أَوْيَسِّرُ لِي جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ اللَّهُ بِأَيْتِكُمْ يَلِيلًا تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القصاص: ٧١-٧٣]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ كَيْفَتُكَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ الْيَلَّ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الْيَلَّ وَسَحَرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كُلٌّ يَجْرِي لِجُلِّي مُسَكِّي آلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ﴾ [الزمر: ٥]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا الْإِصْبَاحُ جَعَلَ الْيَلَّ مَسْكًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ أَلَّ الْيَلَّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]. ثم إنه تعالى جعل الليل آية، أي: علامة يُعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وظهور الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وضياء الشمس ليُعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾، إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي لِقَوتُ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَاجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]... الآية.

قال ابن جريج، عن عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَحَوتًا آيَةَ الْيَلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، قال: ظلمة الليل وشذقة النهار. وقال ابن جريج، عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل. ﴿فَحَوتًا آيَةَ الْيَلِ﴾، قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، ﴿فَحَوتًا آيَةَ الْيَلِ﴾: السواد الذي في القمر. وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكواء سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن: ﴿فَحَوتًا آيَةَ الْيَلِ﴾ فهذه مَحْوَةٌ. وقال قتادة في قوله: ﴿فَحَوتًا آيَةَ الْيَلِ﴾: كنا نحدث أن مَحْوُ آية الليل سَوَادُ الْقَمَرِ الذي فيه ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أي: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وقال ابن أبي نجيع، عن ابن عباس: ﴿وَجَعَلْنَا الْيَلَّ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾، قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله تعالى.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمِنَهُ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ
بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمِنَهُ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ ۖ﴾. وطائفة: هو ما طار عنه من عمله - كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد - من خير وشر، يلزم به ويجازي عليه، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ۝١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰكُمْ الْحُوفُوفُ ۝١٠﴾ كِرَامًا كَذِيبِينَ ﴿١١﴾ يَتْلُونَ مَا تَتْلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَلِلْفَجَارِ لَفِي حَبِيرٍ ﴿١٤﴾ [الانفطار: ١٠-١٤]. وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم: ٧]، وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًءًا يَجْزِ يَوْمَ﴾ [النساء: ١٢٣]. والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

[٤١٨٦] قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «طَائِفٌ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي عُنُقِهِ». قال ابن لهيعة: يعني الطَّيْرَةَ^(١). وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث غريب جداً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾، أي: نجمع له عمله كله في كتاب يُعطاه يوم القيامة، إما يمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً. «منشوراً»، أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره: ﴿يَبْقَى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ [القيامة: ١٣-١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٢)، أي: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكلُّ أحدٍ يقرأ كتابه من كاتب وأمي. وقوله: ﴿أَلَمِنَهُ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ﴾، إنما ذكر العُنُقَ، لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر:

اذْهَبْ بِهَا، اذْهَبْ بِهَا طَوَّقَتْهَا طَوَّقَ الْحَمَامَةِ

[٤١٨٧] قال قتادة، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - عن نبي الله ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيْرَة»، وكلُّ إنسان أَلَمِنَهُ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ^(٢). كذا رواه ابن جرير.

[٤١٨٨] وقد رواه الإمام عبد بن حُميد - رحمه الله - في مسنده مُتَّصِلًا^(٣)، فقال: حدثنا الحسن بن

(١) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٣/٣٦٠، ح ١٤٤٦٤ من حديث جابر. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٣: فيه ابن لهيعة، وحديث حسن، وبقي رجاله رجال الصحيح! كذا قال الهيثمي رحمه الله، والصواب أن ابن لهيعة ضعيف الحديث، وليس الراوي عنه أحد العبادلة، وللحديث علة ثانية: أبو الزبير مدلس، وقد عنعن، فالإسناد ضعيف، وسيأتي عن قتادة عن جابر، ليس فيه تفسير ابن لهيعة وهو أصح.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢١٣١ مسنداً عن قتادة عن جابر: وفيه عننة قتادة.

(٣) الظاهر أن إسناده الطبري إلى قتادة سقط من النسخة التي اعتمدها الحافظ ابن كثير، لذا قال «رواه عبد بن حميد متصلاً» والله أعلم. وإسناده الطبري ثابت برقم ٢٢١٣١: حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا معاذ بن هشام، قال: ثني أبي، عن قتادة، عن جابر بن عبد الله، فذكره مرفوعاً.

موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «طَيْرُ كُلِّ عَبْدٍ فِي عُنُقِهِ»^(١).

[٤١٨٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثني يزيد: أن أبا الخير حدثه: أنه سمع عُقْبَةَ بْنَ عامرٍ [رضي الله عنه] يُحَدِّثُ عن النبي ﷺ قال: «ليس من عَمَلٍ يومَ الْآلِ وَهُوَ يُخْتَمُ عليه، فإذا مَرَضَ المؤمنُ قالتِ الملائكةُ: يا ربُّنا، عبدُكَ فلانٌ، قد حَبَسْتَهُ؟ فيقولُ الربُّ - جَلَّ جلالُهُ - اختِمُوا له على مثلِ عمله، حتى يَبرَأَ أو يَمُوتَ»^(٢). إسنادهٌ جيدٌ قوي، ولم يُخرِجوه. وقال معمرٌ، عن قتادة: «الزَّيْنَةُ طَيْرٌ فِي عُنُقِهِ»، قال: عمله، «وَيُخْرَجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ»، قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾، قال معمرٌ: وثَلَا الحسنُ البصريُّ: «عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ» [ق: ١٧]، يا ابنَ آدم، بَسَطْتَ لَكَ صَحِيفَتَكَ، وَوَكَّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ، أَحَدُهُمَا عن يَمِينِكَ وَالْآخَرُ عن شِمَالِكَ، فَمَا الَّذِي عن يَمِينِكَ فيحفظُ حَسَنَاتِكَ، وَأما الَّذِي عن يَسَارِكَ فيحفظُ سَيِّئَاتِكَ، فاعملْ ما شئتَ، أَقْبِلْ أو أَكْثِرْ، حتى إذا مَتَّ طُوِيتْ صَحِيفَتُكَ فجعلتْ في عُنُقِكَ مَعَكَ في قَبْرِكَ، حتى تَخْرُجَ يومَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا تَلْقَاهُ مَنْشُورًا، «أَقْرَأَ كِتَابَكَ كُلِّي يَنْفَسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَيِّبًا»^(٣)، قد عدل - والله - عليك من جعلك حَسِيبَ نَفْسِكَ. هذا من حَسَنِ كَلَامِ الْحَسَنِ، رَجَمَهُ اللهُ.

﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخِرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى بَنَعَتْ رَسُولًا﴾^(٤)

يُخْبِرُ تعالى أن من اهتدى وأتبع الحقَّ واقتفى آثار النبوة فإنما يُحْصِلُ عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾، أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعوذ وبأل ذلك عليه. ثم قال: ﴿وَلَا نُزِرْ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخِرَى﴾، أي: لا يحمل أحدُ ذنب أحد، ولا يجني جانبٌ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَقْلَةً إِلَى جِلْدِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨]. ولا منافاة بين هذا وبين قولهِ تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَ أَثْقَالَهُمْ أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخرٍ بسبب ما أضلوا مَنْ أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده. وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى بَنَعَتْ رَسُولًا﴾: إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يُعَذِّبُ أحداً إلا بعد قيام الحجَّة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُنْزِلَتْ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٥) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ^(٦) [المسك: ٨-٩]، وكذا قوله: ﴿وَمِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ بِآيَاتٍ عَلَيْكُمْ يُبَيِّنُونَ لَكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ فَتُؤْمِنُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ^(٧)﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رِجَاءً آخِرَةً نَّعْمَلْ مِنْهُمْ صَاحِبًا عِزًّا أَلَمْ نَعْمَلْ أَوْلَى لَكُمْ مِنْكُمْ مَا يَذْكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ^(٨)﴾ [فاطر: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالَّة على أن الله تعالى لا يُدْخِلُ أحداً النارَ إلا بعد إرسال

(١) أخرجه أحمد ١٤٢٨١ (٣/٣٤٣) وفيه ابن لهيعة، لكن يقويه حديث قتادة المتقدم عن جابر، فإن رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ١٤٦/٤ والطبراني ٢٨٤/١٧، وعبد الله بن المبارك حدث عن ابن لهيعة قبل الاختلاط بالإسناد لا بأس به،

وله شواهد يتقوى بها انظر «مجمع الزوائد» ٣٠٣ - ٣٠٤.

الرسول إليه . ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت مُفَحَّمةً في صحيح البخاري، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

[٤١٩٠] حدثنا عُبيد الله بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «اختصمت الجنة والنار»... فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وإنه يُنشئ^(١) للنار خلقاً فيُلَقَّون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثاً... وذكر تمام الحديث. فهذا إنما جاء في الجنة لأنها دار فضل، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحدٌ إلا بعد الإعذار إليه، وقيام الحجَّة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة، وقالوا: لعله انقلب على الراوي،

[٤١٩١] بدليل ما أخرجه في الصحيحين - واللفظ للبخاري - من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «تَحَابَّتِ الجنة والنار»، فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تَمْتَلِئُ حتى يَضَعَ فيها قَدَمه، فتقول: قَطْ، قَطْ، فهناك تَمْتَلِئُ ويُرَوَّى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله يُنشئ لها خَلْقاً»^(٢).

بقي ها هنا مسألة قد اختلف العلماء فيها قديماً وحديثاً، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآبائهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة. وقد وردت في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً مُلَخَّصاً من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

[٤١٩٢] فالحديث الأول عن الأسود بن سريع: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع - رضي الله عنه - أنَّ نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرِم، ورجل مات في فترة». فأما الأصم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً. وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يخذفوني بالبعر. وأما الهرِم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً. وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول. فيأخذ موثيقهم ليُطِيعُنَّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فولذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»^(٣).

[٤١٩٣] وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه بَرْداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يُسْحَبُ إليها»^(٤). وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل بن إسحاق، عن علي بن عبد الله المديني، به، وقال: هذا إسناد صحيح.

(١) هذا الحديث عند البخاري ٧٤٤٩ بهذا الإسناد من حديث أبي هريرة، وقد جزم الحافظ ابن القيم رحمه الله بأن هذه الزيادة غلط من الراوي، وكذا أنكر هذه الرواية الحافظ البلقيني. راجع فتح الباري ١٣/٤٣٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٤ وسيأتي في تفسير سورة ق عند آية: ٣٠ إن شاء الله.

(٣) أخرجه أحمد ٢٤/٤ والبخاري ٢١٧٤ والبيهقي في «الاعتقاد» ص ١٣٥، وصحح إسناده الهيثمي في «المجمع» ٢١٦/٧.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٤١ ورجاله ثقات. وصحح إسناده الهيثمي في «المجمع» ٢١٦/٧ والبيهقي في «الاعتقاد».

[٤١٩٤] وكذا رواه حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ يُذَلِّي عَلَى اللَّهِ بِحُجَّةٍ»^(١)... فذكر نحوه.

ورواه ابْنُ جُرَيْرٍ، مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَذَكَرَهُ مَوْقُوفًا، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: «وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا». وكذا رواه مَعْمَرٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُوسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَوْقُوفًا^(٢).

[٤١٩٥] الحديث الثاني عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ، عَنْ يَزِيدٍ - هُوَ ابْنُ أَبَانَ - قَالَ: قُلْنَا لِأَنَسٍ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، مَا تَقُولُ فِي أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ فَيُعَذِّبُوا بِهَا، فَيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَيُجَازُوا بِهَا فَيَكُونُوا مُلُوكَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، هُمْ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣).

[٤١٩٦] الحديث الثالث عَنْ أَنَسٍ أَيْضًا: قَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ، حَدَّثَنَا جُرَيْرٌ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ عَبْدِ الْوَارِثِ، عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَرْبَعَةٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ: بِالْمَوْلُودِ، وَالْمَعْتُوهِ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ، وَالشَّيْخَ الْفَانِي الْهَيْمَ، كُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُ بِحُجَّتِهِ، فَيَقُولُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَمُتُّ مِنْ النَّارِ: ابْرُزْ. وَيَقُولُ لَهُمْ: إِنِّي كُنْتُ أَبْعَثُ إِلَى عِبَادِي رُسُلًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنِّي رَسُولُ نَفْسِي إِلَيْكُمْ، ادْخُلُوا هَذِهِ. قَالَ: فَيَقُولُ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ: يَا رَبِّ، أَتَى نَدَخْلُهَا وَمِنْهَا كُنَّا نَقْرُؤُ؟ قَالَ: وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ السَّعَادَةُ يَمْضِي فَيَقْتَرِحُ فِيهَا مَسْرَعًا، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْتُمْ لِرُسُلِي أَشَدُّ تَكْذِيبًا وَمَعْصِيَةً. فَيَدْخُلُ هَؤُلَاءِ الْجَنَّةَ، وَهَؤُلَاءِ النَّارَ»^(٤). وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مُوسَى، عَنْ جُرَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، بِإِسْنَادِهِ مَثْلَهُ.

[٤١٩٧] الحديث الرابع عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: قَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ أَيْضًا: حَدَّثَنَا قَاسِمُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ دَاوُدَ - عَنْ عُمَرَ بْنِ دَرٍّ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أُمَيَّةَ، عَنْ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ. وَسُئِلَ عَنْ

(١) إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد لكن يصلح للمتابعة.

(٢) وهو، وإن روي موقوفًا، فمثله لا يقال بالرأي، والمرفوع ورد من طرق، وعن جماعة من الصحابة. انظر الإحسان ٧٣٥٧ بتخريج الشيخ شعيب، وللحديث شواهد سنائي، وقد قال الحافظ في «الفتح» ٢٤٦/٣: وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة أهد. باختصار.

(٣) ضعيف، أخرجه الطيالسي ٢١١١ وأبو يعلى، ٤٠٩٠ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١٩٥٦، وأبو نعيم ٦/٣٠٨ من حديث أنس، قال الهيثمي: في إسناده أبي يعلى، يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، وقال ابن معين: رجل صدق، ووثقه ابن عدي، وبقية رجالهما ثقات أهد، بل الصواب أن يزيد بن أبان وإو، روى منكرات كثيرة، قال النسائي: متروك، وقال الدارقطني وغيره: ضعيف، وقال ابن معين: في حديثه ضعف. ثم إن للحديث علة أخرى، فيه الربيع بن صبيح، ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وقال عفان: أحاديثه مقبولة. والحديث ضعفه ابن كثير كما سيأتي قبل الحديث ٤٢١١، وكذا ضعفه الحافظ في «الفتح» ٢٤٦/٣. وورد من وجه آخر أخرجه البزار ٢٣٢ عن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن أنس، لكن علي بن زيد ضعيف، روى منكرات كثيرة، وعنه مبارك بن فضالة وثقه قوم، وضعفه آخرون، وهو مدلس، وقد عنعن. ثم إن البزار كرره موقوفًا، لم يرفعه. والله أعلم.

(٤) أخرجه أبو يعلى ٤٢٢٤ والبيهقي في «الاعتقاد» ص ١٣٥ - ١٣٦ وإسناده ضعيف، لضعف ليث أبي سليم وكذا عبد الوارث مولى أنس.

أولاد المشركين فقال: هم مع آبائهم. فقيل: يا رسول الله، ما يعملون؟ قال: الله أعلم بهم^(١). ورواه عُمر بن دُرٍّ، عن يزيد بن أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة - رضي الله عنه - فذكره.

[٤١٩٨] الحديث الخامس عن ثوبان: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا ربحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان - رضي الله عنه -: أن نبي الله ﷺ عظم شأن المسألة، قال: إذا كان يوم القيامة، جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم، فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولا، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكانا أطوع عبادك. فيقول لهم ربهم: أرايتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون: نعم. فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيطا وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم فيقولون: ربنا أخرجنا - أو: أخرجنا - منها، فيقول لهم: ألم ترعوا أنكم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيأخذ على ذلك موثقهم. فيقول: اعمدوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا ورجعوا، فقالوا: ربنا فرقنا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين. فقال نبي الله ﷺ: لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً^(٢). ثم قال البزار: ومثله هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ربحان بن سعيد. قلت: وقد ذكره ابن جبان في ثقافته. وقال يحيى بن معين والنسائي: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به، يكتب حديثه ولا يحتج به.

[٤١٩٩] الحديث السادس، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخفري - رضي الله عنه -: قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتى] بالهالك في الفترة والمعنوه والمولود، يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب. ويقول المعنوه: رب، لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً. ويقول المولود: رب، لم أدرك العقل. فترفع لهم ناز فيقال لهم: ردوها. قال: فبردها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل، ويُمسك عنها من كان في علم الله شقيماً لو أدرك العمل، فيقول: إياي عصيت، فكيف لو أن رسلي أتتكم؟^(٣) وكذا رواه البزار، عن محمد بن عمر بن هباج الكوفي، عن عبيد الله بن موسى، عن فضيل بن مرزوق، به. ثم قال: لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه، عن عطية، عنه. وقال في آخره: [فيقول الله: إياي عصيت، فكيف برسلي بالغيب].

[٤٢٠٠] الحديث السابع، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: قال هشام بن عمار، ومحمد بن المبارك الصوري: حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن حلبس، عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: عن نبي الله ﷺ قال: [يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً، وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيراً]. فيقول المسحوق عقلاً: يا رب، لو أتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد بعقله مني. وذكر في

(١) إسناده ضعيف، فيه يزيد بن أمية. ذكره الذهبي في «الميزان» ٩٦٧١ فقال: يزيد بن أمية عن رجل عن البراء، مجهول، تفرد عنه عمر بن ذر أه.

(٢) في إسناده ضعف، أخرجه البزار ٣٤٣٣ و٣٤٣٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٤٧/١٠ وقال: رواه البزار بإسنادين ضعيفين أه. لكن له شواهد، تقدم بعضها وسيأتي شواهد أخرى.

(٣) أخرجه البزار ٢١٧٦ وإسناده ضعيف، لضعف عطية العوفي.

الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك، فيقول الرب - عز وجل -: إني آمركم بأمر فتطيعوني؟ فيقولون: نعم. فيقول: اذهبوا فادخلوا النار. قال: ولو دخلوها ما صرّتهم، فتخرج عليهم قوايص، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الرب - عز وجل -: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتكم، وإلى علمي تصيرون، ضميهم. فتأخذهم النار^(١).

[٤٢٠١] الحديث الثامن عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريج - رضي الله عنه -^(٢).

[٤٢٠٢] وفي الصحيحين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»^(٣). وفي رواية قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٤).

[٤٢٠٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن عطاء بن ثور، عن عبد الله بن صفرة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ فيما أعلم، شك موسى - قال: ذراري المسلمين في الجنة، يكفلهم إبراهيم عليه السلام^(٥).

[٤٢٠٤] وفي صحيح مسلم، عن عياض بن جمار، عن رسول الله ﷺ عن الله - عز وجل - أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء»^(٦). وفي رواية لغيره: مسلمين.

[٤٢٠٥] الحديث التاسع عن سمرة - رضي الله عنه -: رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه «المستخرج على البخاري» من حديث عوف الأعرابي، عن أبي رجاء الطاردي، عن سمرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة. فناداه الناس: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين»^(٧).

[٤٢٠٦] قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم الضبي، عن عيسى بن شعيب، عن عباد بن منصور، عن أبي رجاء، عن سمرة قال: سألت رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خدّم أهل الجنة»^(٨).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٣/٢٠ وإسناده ضعيف فيه عمرو بن واقد. وهو متروك وبه أحله الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) تقدم برقم ٤١٩٣ و ٤١٩٤.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٤) هذه الرواية عند مسلم ٦٦٥٨ ح ٢٣ وأخرجه البخاري ١٣٨٤ ومسلم ٢٦٥٩ والنسائي ٥٨/٤ وابن حبان ١٣١ من وجه آخر من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه أحمد ٣٢٦/٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢١٩ وقال: وفيه عبد الرحمن بن ثابت، وثقه المديني وجماعة، وضعفه ابن معين وغيره، وبقي رجاله ثقات اهـ.

(٦) تقدم مراراً.

(٧) عوف فمن فوقه رجال البخاري ومسلم، ولم يذكر المصنف من دون عوف.

(٨) ضعيف، أخرجه البزار ٢١٧٢، والطبراني ٦٩٩٣، وفي «الأوسط» كما في «المجمع» ١١٩٥٥ من حديث سمرة، =

[٤٢٠٧] الحديث العاشر، عن عم حسناء: قال أحمد: أخبرنا رَوْحٌ، حدثنا عَوْفٌ، عن حسناء بنت معاوية، من بني ضَرِيم قالت: حَدَّثَنِي عَمِّي قال: قلتُ: يا رسولَ الله - من في الجنة؟ قال: «النبِيُّ في الجنة، والشهيدُ في الجنة، والمولودُ في الجنة، والوئيدُ في الجنة»^(١).

فمن العلماء من دَهَبَ إلى التوقف فيهم لهذا الحديث. ومنهم من جَزَمَ لهم بالجنة:

[٤٢٠٨] لحديث سَمُرَةَ بن جُنْدَب - رضي الله عنه - في صحيح البخاري: أنه ﷺ قال في جُمْلَة ذلك المنام، حين مَرَّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: «هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: نعم، وأولاد المشركين»^(٢). ومنهم من جَزَمَ أنهم في النار، لقوله ﷺ: «هم مع آبائهم»^(٣). ومنهم من ذهب إلى أنهم يُنْتَحَنون يوم القيامة في العَرَصات، فمن أطاع دَخَلَ الجنة وانكشف علمُ الله فيه بسابق السعادة، ومن عَصَى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بتقدُّم الشقاوة. وهذا القولُ يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرَّحت به الأحاديثُ المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القولُ هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري - رحمه الله - عن أهل السنة والجماعة. وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي - رحمه الله - في «كتاب الاعتقاد»، وكذلك غيره من مُحَقِّقي العلماء والحفاظ النقاد. وقد ذَكَرَ الشيخ أبو عمر بن عبد البر التَّمَرِّي - رحمه الله - بعض ما تقدم من أحاديث الامتحان، وقال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقومُ بها حجة، وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دارُ جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يُكَلَّفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يُكَلِّف نفساً إلا وسعها؟.

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نصَّ على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حَسَن، ومنها ما هو ضعيف يتقوَّى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها. وأما قوله: «إن الآخرة دارُ جزاء»، فلا شكَّ

= وقال الهيثمي: فيه عباد بن منصور وثقه يحيى القطان، وفيه ضعف، وبقي رجاله ثقات أه، قلت: إسناده ضعيف، جاء في «الميزان» ٤١٤١: عباد بن منصور، لم ير ضه يمى بن سعيد - القطان - وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال ابن الجنيّد: متروك، وضعفه النسائي، وقال يحمى وأبو حاتم: يكتب حديثه مع ضعفه، وقال الساجي: ضعيف مدلس، وقال أحمد: روى مناكير، وقال أبو الحسن بن القطان: كان يحمى ابن سعيد، حسن الرأي فيه أه، فتلخص من ذلك أنه إلى الضعف أقرب، وفي الإسناد عيسى بن شعيب البصري، قال الفلاس: صدوق، وقال ابن حبان: كان ممن يخطيء حتى فحش خطؤه فاستحق الترك. وزاد الألباني في الصحيحة ١٤٦٨ شاهداً آخر فقال: رواه ابن مندة في «المعرفة» ٢٦١/٢/١ معلقاً: حدث إبراهيم ابن المختار عن محمد بن إسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أبي مالك مرفوعاً، ثم قال الألباني: وهذا إسناده ضعيف، ابن إسحق مدلس، وقد عنعن، وإبراهيم بن المختار صدوق سيء الحفظ، ثم ذكر حديث أنس وحديث سمرة وذكر كلام الهيثمي ووافقه وحكم بصحة الحديث لشواهد، ولم يصب، فقد بينت وهن حديث سمرة وأنس. وأما حديث أبي مالك الذي استشهد به الألباني، واكتفى بتضعيفه، فليس كذلك، فإن له علة ثالثة لم يذكرها وهي سعد بن سنان، قال الجوزجاني: أحاديثه واهية، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: ضعيف. ويزيد مدلس، وقد عنعن، وهو معلق فالخير وإبمرة لا شيء، ولا يصلح للاستشهاد به، فالخير وإب، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد ٤٠٩/٥ وإسناده لين، حسناء مقبولة، لكن للحديث شواهد انظر «المجمع» ٢١٩/٧.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٦ و٧٠٤٧ وأحمد ٨/٥ - ٩ وابن حبان ٦٥٥ مطوَّلاً.

(٣) تقدم برقم ٤١٩٧، ولهذه الفقرة شواهد، والله أعلم.

أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عَرَصاتها قبلَ دخولِ الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ [القلم: ٤٢].

[٤٢٠٩] وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها: أن المؤمنين يَسْجُدُونَ لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يَسْتَطِيعُ ذلك ويعود ظهره طَبَقاً واحداً كُلَّمَا أَرَادَ السُّجُودَ خَرَّ لِقَفَاهُ^(١).

[٤٢١٠] وفي الصحيحين في الرُّجُل الذي يَكُونُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً منها: أَنَّ الله يَأْخُذُ عَهْدَهُ ومَوَاقِفَهُ أَلَا يَسْأَلُ غَيْرَ مَا هُوَ فِيهِ، ويتكرَّر ذلك مراراً، ويقولُ الله تعالى: «يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَعْدَدْتُكَ! ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»^(٢).

وأما قوله: «وكيف يُكَلِّفُهُمُ الله دخولَ النار، وليس ذلك في ونُسُجِهِمْ؟»، فليس هذا بمانع من صحَّة الحديث، فإنَّ الله يأمرُ العباد يومَ القيامة بالجواز على الصراط، وهو جَسَرٌ على جهنم أخذٌ من السَّيْفِ وأدقُّ من الشُّعْرَةِ، ويمرُّ المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالْبَرْقِ وكالْريِّحِ وكأجاويد الخيل والزَّكَّابِ، ومنهم السَّاعِي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكْدُوسُ على وَجْهِهِ في النار. وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا، بل هذا أطم وأعظم. وأيضاً فقد ثَبَّتَ السُّنَّةُ بأن الدجال يكون معه جَنَّةٌ ونار، وقد أمر الشارِعُ المؤمنين الذين يُدْرِكُونَهُ أَنْ يَشْرَبَ أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكون عليه بَرْدٌ وسلاماً، فهذا نظير ذلك؛ وأيضاً فإنَّ الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفُسَهُمْ، فَقَتَلَ بعضهم بعضاً حتى قَتَلُوا فيما قيل في غَدَاةٍ واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجلُ أباه وأخاه، وهم في عَمَايَةِ عَمَامَةٍ أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العِجَلِ، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصرُ عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصل: إذا تقرر هذا، فقد اختلفَ الناسُ في ولدانِ المشركين على أقوالٍ: أحدها: أنهم في الجنة.

[٤٢١١] واحتجوا بحديث سَمُرَةَ - رضي الله عنه - أنه ﷺ رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين^(٣).

[٤٢١٢] وبما تقدم في رواية أحمد، عن حسناء، عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «والمولود في الجنة»^(٤). وهذا استدلالٌ صحيحٌ، ولكنَّ أحاديثَ الامتحانِ أخَصُّ منه؛ فمن عَلِمَ الله - عزَّ وجلَّ - منهم أن يُطِيعَ جعلَ رُوحِهِ في البَرْزَخِ مع إبراهيم - عليه السلام - وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفِطْرَةِ، ومن عَلِمَ منهم أنه لا يُجِيبُ، فأمرُهُ إلى الله تعالى، ويوم القيامة يكون في النار كما دَلَّتْ عليه أحاديثُ الامتحان، ونقله الأشعري عن أهل السنة والجماعة، ثم من هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة مَنْ يَجْعَلُهُمْ مُسْتَقْلِلِينَ فيها، ومنهم مَنْ يَجْعَلُهُمْ خَدَمًا لهم، كما جاء في حديث علي بن زيد^(٥)، عن أنس، عند أبي داود الطيالسي، وهو ضعيف، والله أعلم.

(١) يأتي في سورة القلم إن شاء الله.

(٢) تقدم مطوَّلاً.

(٣) هو المتقدم برقم ٤٢٠٨.

(٤) هو المتقدم برقم ٤٢٠٧.

(٥) كذا وقع في سائر النسخ. والصواب أن الطيالسي رواه من طريق يزيد الرقاشي عن أنس، والذي رواه عن علي بن زيد إنما هو البزار كما تقدم في الحديث رقم ٤١٩٥.

القول الثاني: أنهم مع آبائهم في النار، واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي المغيرة: [٤٢١٣] حدثنا عتبة بن ضمرة بن حبيب، حدثني عبد الله بن أبي قيس مولى غطفان، أنه أتى عائشة رضي الله عنها - فسألها عن ذراري الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ: هم تبع لأبائهم: فقلت: يا رسول الله، بلا عمل؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين^(١).

[٤٢١٤] وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حبيب، عن محمد بن زياد الألهاني، سمعت عبد الله بن أبي قيس، سمعت عائشة تقول: سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المؤمنين، قال: هم من آبائهم. قلت: فذراري المشركين؟ قال: هم من آبائهم. قلت: بلا عمل؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين^(٢).

[٤٢١٥] ورواه الإمام أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبي عبيد بن الجراح، وهو متروك، عن مولاته بهيمة، عن عائشة - رضي الله عنها - أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أطفال المشركين فقال: إن شئت أسمعك تضاغيهم في النار^(٣).

[٤٢١٦] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، عن محمد بن فضيل بن غزوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي - رضي الله عنه - قال: سألت خديجة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال: هما في النار. قال: فلما رأى الكراهية في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما. قالت: فولدي منك؟ قال: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار. ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(٤) [الطور: ٢١]، وهذا حديث غريب، فإن في إسناده محمد بن عثمان مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرِك علياً - رضي الله عنه - والله أعلم.

[٤٢١٧] وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموودة في النار»^(٥). ثم قال الشعبي: حدثني به علقمة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود [عن النبي ﷺ].

[٤٢١٨] وقد رواه جماعة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن قيس

(١) إسناده قوي. أخرجه أحمد ٨٤/٦، وفيه «مع آبائهم» بدل «تبع لأبائهم».

(٢) جيد، أخرجه أبو داود ٤٧١٢، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٤٣.

(٣) ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٦/٢٠٨ وابن الجوزي في «العلل» ١٥٤١، قال ابن الجوزي: لا يصح، قال أحمد بن حنبل: يحسن بن المتوكل يروي عن بهية أحاديث منكورة وهو واهي الحديث. وقال يحيى: ليس بشيء، وقال علي والفلاس والنسائي: ضعيف، وقال ابن حبان: ينفرد بأشياء ليس لها أصول، وقال السعدي: سألت عن بهية كي أعرفها، فأعانا أهد، وقال الحافظ في الفتح ٣/٢٤٦: إسناده ضعيف جداً أهد. وتضاغيهم: أي صياحهم وضجيجهم.

(٤) والحديث ضعيف، أخرجه عبد الله في «المسند» ١١٣١، وابن أبي عاصم في «السنة» ٢١٣ عن علي عن خديجة، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٩٤٠: فيه محمد بن عثمان، ولم أعرفه، وبقي رجاله رجال الصحيح أهد، وقال الذهبي في الميزان ٧٩٣٣: لا يدرى من هو، فتشت عنه في أماكن، وخبره منكر، ثم ذكر هذا الحديث. وكذلك الإسناد منقطع بين علي وزاذان كما ذكر ابن كثير. وورد من وجه آخر أخرجه أبو يعلى، ٧٠٧٧ والطبراني ١٦/٢٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٩٤٢: رجالهما ثقات إلا أن عبد الله بن الحارث بن نوفل، وابن بريدة، لم يدركا خديجة أهد، فالخبر منقطع.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٧١٧ عن الشعبي مرسلًا، وكرره موصولًا ورجاله ثقات، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٤٨.

الأشجعي قال: أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تُقْرِى الضيفَ وتَصِلُ الرِّجَمَ، وإنها وأدت أختاً لنا في الجاهلية لم تبلغ الجَنَّةَ. فقال: الوائدةُ والموءدةُ في النار، إلا أن تُدْرِكَ الوائدةُ الإسلامَ فتُسلِمَ^(١). وهذا إسنادٌ حسنٌ.

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

[٤٢١٩] وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٢).

[٤٢٢٠] وكذلك هو في الصحيحين، من حديث الزهري، عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: أنه سُئِلَ عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٣). ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القول يرجع إلى قول من دُفِنَ إلى أنهم من أهل الجنة، لأن الأعراف ليس دَارَ قَرَارٍ، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدّم تقرير ذلك في «سورة الأعراف»، والله أعلم.

فصل: ولتعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء - كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يَخْتَلَفُ فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نَقَطَعَ به إن شاء الله تعالى. فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم تَوَقَّفُوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مِثْبَنة الله تعالى، قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، قالوا: وهو يشبه ما رَسَمَ مالك في مُوطئه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال الكفار تحت المِثْبَنة. انتهى كلامه، وهو غريب جداً. وقد ذَكَرَ أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة» نحو ذلك أيضاً، والله أعلم.

[٤٢٢١] وقد ذَكَرُوا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: «دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صَبِيٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طُوبَى له عصفورٌ من عصافير الجنة. لم يَعْمَلِ السوءَ ولم يَذْرِكْهُ. فقال: «أوغير ذلك يا عائشة، إن الله خَلَقَ الجنةَ وَخَلَقَ لها أهلاً وهم في أصْلَابِ آبائهم، وَخَلَقَ النارَ وَخَلَقَ لها أهلاً وهم في أصْلَابِ آبائهم»^(٤). رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا عِلْمَ عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، رُوِيَ ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم.

(١) إسناده كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٣ و٦٥٩٧ ومسلم ٢٦٦٠ وأبو داود ٤٧١١ والنسائي ٥٩/٤.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٤ ومسلم ٢٦٥٩ وأحمد ٢٥٩/٢ والنسائي ٥٨/٤ وابن حبان ١٣١.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٦٢ وأبو داود ٤٧١٣ والنسائي ٥٧/٤ وابن ماجه ٨٢ وأحمد ٤١/٦ وابن حبان ١٣٨.

[٤٢٢٢] وأخرج ابن حبان في صحيحه، عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس - رضي الله عنه - وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة موافقاً - أو: مقارباً - ما لم يتكلموا في الولدان والقدر»^(١). قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين. وهكذا رواه أبو بكر البزار، من طريق جرير بن حازم، به. ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء، عن ابن عباس موقوفاً.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ - فالمشهور قراءة التخفيف. واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قديراً، كقوله تعالى: ﴿أَتُنْهَوْنَ أَنْ تَقُولُوا لِمَنْ أَهْلَكْنَاهُ إِلَّا هُوَ يُبَيِّنُ أَمْرَهُمْ لِلْعَامِلِينَ﴾ [يونس: ٢٤]؛ فإن الله لا يأمر بالفحشاء. قالوا: معناها أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناها أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جرير عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبيرة أيضاً. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناها: جعلناهم أمراء. قلت: هذا إنما يجيء على قراءة من قرأ: ﴿أَمَرْنَا مترفيها﴾؛ قال علي بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَمَرْنَا مترفيها ففسقوا فيها﴾، يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مُتْرَفِيهَا يَمْتَكِرُونَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والربيع بن أنس.

وقال العوفي: عن ابن عباس - رضي الله عنه -: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾، يقول: أكثرنا عددهم. وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك، عن الزهري: ﴿أمرنا مترفيها﴾: أكثرنا. وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال:

[٤٢٢٣] حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعمة العدوي، عن مسلم بن بديل، عن إياس بن زهير، عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ ماهرة مأمورة، أو سكة مأمورة»^(٢). قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - في كتابه الغريب: المأمورة كثيرة النسل. والسكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأمورة من التأبير. وقال بعضهم: إنما جاء هذا متاسباً، كقوله:

[٤٢٢٤] «مأزورات غير مأجورات»^(٣).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ يَذُنُّبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾

يقول تعالى مُنْذِراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من

(١) أخرجه ابن حبان ٦٧٢٤، والحاكم ٣٣/١، والبزار ٢١٨٠، والطبراني ١٢٧٦٤، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٢/٧: رجاله رجال الصحيح، وصحح إسناده الشيخ شعيب، لكن أهله البزار بقوله: رواه جماعة، فوقوه على ابن عباس. وقد أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» ٧٠٣ واللالكائي في «السنة» ١١٢٧ من طريق جرير بن حازم به موقوفاً، وهو أشبه، والله تعالى أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤، وهو حديث ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف، أخرجه ابن ماجه ١٥٧٨ من حديث علي، وله قصة، قال البوصيري في «الزوائد»: دينار بن عمر أبو عمر، وإن وثقه وكيع وابن حبان، فقد قال الأزدي: متروك، وقال أبو حاتم: ليس بالمشهور، وقال الخليلي في «الإرشاد»: كذاب، وإسماعيل بن سليمان، قال أبو حاتم صالح. لكن قال ابن حبان في «الثقات» يخطئ.

بعد نوح، ودلّ هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح - عليهما السلام - على الإسلام، كما قاله ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. ومعناه أنكم أيها المكذوبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتهم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فَعَفَوْتَكُمْ أَوْلَى وَأَحْرَى. وقوله: ﴿وَكُنَّ بِرَبِّكَ يَذُوبٌ صَبَاورٌ خَيْرٌ بَصِيرًا﴾، أي: هو عالمٌ بجميع أعمالهم، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، لا يخفى عليه منها خافية، سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاصِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ يَحْصُلُ لَهُ، بَلْ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ. وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿يَصْلَاهَا﴾، أي: يَدْخُلُهَا حتى تغمره من جميع جوانبه، ﴿مَذْمُومًا﴾، أي: في حال كونه مَذْمُومًا على سوء تَصَرُّفِهِ وَصَنِيعِهِ، إِذْ اخْتَارَ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي، ﴿مَدْحُورًا﴾، مُبْعَدًا مَقْصِيًا حَقِيرًا ذَلِيلًا مَهَانًا.

[٤٢٢٥] قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا دُؤَيْد، عن أبي إسحاق، عن زُرْعَةَ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دارٌ من لا دار له، ومالٌ من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»^(١). وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾، أي: أَرَادَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَالسُّرُورِ ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾، أي: طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ، وَهُوَ مُتَابِعَةُ الرِّسُولِ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، أي: وَقَلْبُهُ مُؤْمِنٌ، أي: مُصَدِّقٌ مُوقِنٌ بِالثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ، ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾، أي: كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ، ثُمَّ هُمْ فِيهَا هُمْ فِيهِ ﴿وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾، أي: هُوَ الْمَتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ. وَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُغَيِّرَ لِمَا أَرَادَ. ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي: مَمْنُوعًا، أي: لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ وَلَا يَرُدُّهُ رَادٌّ. قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي: مَنْقُوصًا. وقال الحسن، وابن جُريج، وابن زيد: مَنْعُوعًا. ثم قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، أي: فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمْ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا، وَمَنْ يُعْمَرُ حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا، وَبَيْنَ ذَلِكَ، ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، أي: وَلِتَفَاوُثِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَابِلِهَا وَأَغْلَالِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يَتَفَاوُتُونَ فِيهَا هُمْ فِيهِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ مُتَفَاوِثُونَ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةَ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

[٤٢٢٦] وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليزون أهل عليين كما تزون الكوكب الغابر في أفق السماء»^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾.

[٤٢٢٧] وفي الطبراني، من رواية زاذان، عن سلمان مرفوعاً: «ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها»، ثم قرأ: ﴿وَلَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾^(٢).

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على شريكك به ﴿مَخْذُولًا﴾، لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً، لأن مالك النفع والضّر هو الله وحده، لا شريك له.

[٤٢٢٨] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما غنى آجل، وإما غنى عاجل»^(٣). ورواه أبو داود، والترمذي من حديث بشير بن سلمان، به، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

﴿وَوَصَّىٰ رَبُّكَ آلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَلْعَنَ عِنْدَكَ الْكَبِيرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا أَوْ لَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٢٢) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٢٣)

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء ها هنا بمعنى الأمر، قال مجاهد: ﴿وَوَصَّىٰ﴾ يعني: وصى. وكذا قرأ ذلك أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم. «وَوَصَّىٰ رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» ولهذا قرن بعبادته بوالدَيْنِ فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَاكَ إِلَهَ الْغَيْبِ﴾. وقوله: ﴿إِمَّا يَلْعَنَ عِنْدَكَ الْكَبِيرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا أَوْ لَا تَنْهَرُهُمَا﴾، أي: لا تُسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾، أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾: ﴿وَلَا تَنْفُضْ يَدَكَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ﴾. ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، أي: ليئناً طيباً حسناً بأدبٍ وتوقير وتعظيم. ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا﴾

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ومسلم ٢٨٣١ من حديث أبي سعيد الخدري وصلته «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرق من فوقهم...».

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٦١٠١، وأبو نعيم في «الحلية» ٢٠٤/٤، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٢٤: فيه أبو الصباح عبد الغفور، وهو متروك.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ١٦٤٥ والترمذي ٢٣٢٧ وأحمد ٤٠٧/١ وأبو يعلى ٥٣١٨، صحيحه الحاكم ٤٠٨/٢ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحِمَةِ ، أي: تواضع لهما بفعلك ، «وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِي» ، أي: في كبرهما وعند وفاتهما «كَمَا رَبَّانِي صَغِيرًا» . قال ابن عباس - رضي الله عنه - : ثم أنزل الله تعالى: «مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ» [التوبة: ١١٣] .

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها:

[٤٢٢٩] الحديث المروي من طُرُق عن أنس وغيره: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لما صَعِدَ المنبر قال: «أَمِينَ، آمِينَ، آمِينَ. فقالوا: يا رسول الله، عَلَامَ أَمْنْتُمْ؟» قال: أتاني جبريلُ فقال: يا محمد، رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عليك، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ دخل عليه شهرُ رمضان ثم خَرَجَ فلم يُغْفَرْ له، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل: آمين. فقلت: آمين»^(١).

[٤٢٣٠] حديث آخر، وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا علي بن زيد، أخبرنا زُرَّارة بن أوفى، عن مالك بن الحارث، رَجُلٌ منهم، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةُ. وَمَنْ أَعْتَقَ أَمْرًا مُسْلِمًا كَانَ فَكَاهَهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزَى بِكُلِّ غُضُوٍّ مِنْهُ غُضُوًّا مِنْهُ»^(٢).

[٤٢٣١] ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ زَيْدٍ... فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: ومن أدرك والديه أو أحدهما، فدخل النار، فأبعده الله»^(٣).

[٤٢٣٢] حديث آخر، وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زُرَّارة بن أوفى، عن مالك بن عمرو القشيري: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً فِيهِ فِدَاؤُهُ مِنَ النَّارِ، مَكَانَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عَظَامِ تَحْرِيرِهِ بِعَظْمٍ مِنْ عَظَامِهِ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَحَدَ الْوَالِدَيْنِ ثُمَّ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَمَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يُغْنِيَ اللَّهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٤).

[٤٢٣٣] حديث آخر، وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سَمِعْتُ زُرَّارَةَ بْنَ أَوْفَى يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي بَنٍ مَالِكِ الْقَشِيرِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَدْرَكَ الْوَالِدَيْنِ أَوْ أَحَدَهُمَا ثُمَّ دَخَلَ النَّارَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُ»^(٥). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ شُعْبَةَ، بِهِ. وَفِيهِ زِيَادَاتٌ أُخْرَى.

[٤٢٣٤] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوَانَةَ، حدثنا سُهَيْلُ بْنُ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٍ أَدْرَكَ

(١) حسن. أخرجه البزار كما في «المجمع» ١٠/١٦٦ من حديث أنس وقال: وفيه سلمة بن وردان، وهو ضعيف، وقد قال البزار: صالح، ورقية رجاله رجال الصحيح اهـ. وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٤٦ وإسماعيل القاضي ١٨ وابن حبان ٩٠٧ من حديث أبي هريرة وإسناده حسن.

وفي الباب من حديث جابر عند البخاري في «الأدب المفرد» ٦٤٤. وانظر «المجمع» ١٠/١٦٤ - ١٦٧.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٥/٢٩ (١٩٨١٩) وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد لكن له شواهد.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٥/٢٩ (١٩٨١٨) وهو حسن لشواهد.

(٤) حسن. أخرجه أحمد ٤/٣٤٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/١٣٩ - ١٤٠: وإسناده حسن. وله شواهد.

(٥) صحيح. أخرجه أحمد ٤/٣٤٤ وإسناده صحيح، وله شواهد.

وَالْيَدِيهِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا عِنْدَ الْكَبِيرِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ^(١). صَحِيحٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ سِوَى مُسْلِمٍ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَوَّانَةَ وَجَرِيرٍ وَسَلِيمَانَ بْنِ بِلَالٍ، عَنْ سُهَيْلٍ، بِهِ.

[٤٢٣٥] حَدِيثٌ آخَرُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا رِبْعِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ. قَالَ أَحْمَدُ: وَهُوَ أَخُو إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُثَيْبٍ، وَكَانَ يُفَضِّلُ عَلَى أَخِيهِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَزَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ. وَرَزَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَزَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عَنْدهُ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ فَلَمْ يَدْخُلَا الْجَنَّةَ». قَالَ رِبْعِيُّ: وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ: «أَوْ أَحَدَهُمَا»^(٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الدَّوْرَقِيِّ، عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ قَالَ: غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

[٤٢٣٦] حَدِيثٌ آخَرُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَيْسِ، حَدَّثَنَا أَسِيدُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ بَرِّ أَبَوَيْ شَيْءٍ بَعْدَ مَوْتِهِمَا أَبْرَهُمَا بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، خِصَالُ أَرْبَعٍ: الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاءُ عَهْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا رَجِمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قَبْلِهِمَا، فَهُوَ الَّذِي بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ بَرِّهِمَا بَعْدَ مَوْتِهِمَا»^(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةٍ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ، وَهُوَ ابْنُ الْقَيْسِ، بِهِ.

[٤٢٣٧] حَدِيثٌ آخَرُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا زَوْجٌ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْهُ مَعَاوِيَةُ بْنُ جَاهِمَةَ السُّلَمِيُّ: أَنَّ جَاهِمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ الْغَزَا، وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ؟ فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: الزَّمْنَاهُ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا، ثُمَّ الثَّانِيَةُ ثُمَّ الثَّالِثَةُ، فِي مَقَاعِدَ شَتَّى، كَمَثَلِ هَذَا الْقَوْلِ^(٤). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةٍ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ جُرَيْجٍ، بِهِ.

[٤٢٣٨] حَدِيثٌ آخَرُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا خَلْفُ بْنُ الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا ابْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ بَجِيرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ الْكِنْدِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأَبَائِكُمْ، إِنْ اللَّهُ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنْ اللَّهُ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنْ اللَّهُ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَلَا أَقْرَبَ»^(٥). وَقَدْ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةٍ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عِيَّاشٍ، بِهِ.

[٤٢٣٩] حَدِيثٌ آخَرُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يُونُسُ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَّانَةَ، عَنْ أَشْعَثَ بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي يَزْبُوعَ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يُكَلِّمُ النَّاسَ يَقُولُ: «يَدُ الْمَعْطِيِّ الْعُلْيَا. أَمْلِكُ وَأَبَاكَ، وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»^(٦).

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٥١ وأحمد ٣٤٦/٢.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٥٤٥ وأحمد ٢٥٤/٢ وابن حبان ٩٠٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٥١٤٢ وابن ماجه ٣٦٦٤ وأحمد ٤٩٨/٣ وفيه علي بن عبيد، قال الذهبي في الميزان: لا يعرف، وانظر ضعيف أبي داود ١١٠١.

(٤) حسن. أخرجه النسائي في الكبرى ٤٣١٢ وابن ماجه ٢٧٨١ وأحمد ٤٢٩/٣.

(٥) حسن. أخرجه ابن ماجه ٣٦٦١ وأحمد ١٣١/٤ و١٣٢ وإسناده حسن، وله شواهد.

(٦) صحيح، أخرجه أحمد ٦٤/٤ - ٦٥ و٣٧٧/٥ وقال الهيثمي في المجمع ٩٨/٣: ورجاله رجال الصحيح.

[٤٢٤٠] حديث آخر، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مُسْنَدِهِ: حدثنا إبراهيم بن المستمر العُروقي، حَدَّثَنَا عمرو بن سُفيان، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن علقمة بن مَرْزُد، عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه: أَنَّ رَجُلًا كَانَ فِي الطَّوَافِ حَامِلًا أُمَّهُ يَطُوفُ بِهَا، فَسَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ أَدَيْتَ حَقَّهَا؟ قَالَ: لَا، وَلَا بَرْقَرَةً وَاحِدَةً، أَوْ كَمَا قَالَ ^(١). ثُمَّ قَالَ الْبَزَارُ: لَا نَعْلَمُهُ يُرَوَّى إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. قُلْتُ: وَالْحَسَنُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ ضَعِيفٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿رَبِّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ ﴿٢٥﴾

قال سعيد بن جُبَيْر: هو الرجل تكون منه الباردة إلى أبيه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به. وفي رواية: لا يُريدُ إِلَّا الْخَيْرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿رَبِّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾، قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المستحسين. وفي رواية عنه: المُطِيعِينَ الْمُحْسِنِينَ. وقال بعضهم: هم الذين يُصَلُّونَ بَيْنَ الْعِشَاءِ. وقال بعضهم: هم الذين يُصَلُّونَ الضُّحَى. وقال شعبة، عن يحيى بن سَعِيد، عن سَعِيد بن المسيَّب في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾، قال: الذي يُصِيبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ، وَيُصِيبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري ومعمّر، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّب، به. وكذا رواه الليث وابن جُرَيْج، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيَّب، به. وكذا قال عطاء بن يسار.

وقال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد، عن عُبيد بن عُمر في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾، قال: هو الذي يذكر ذنوبه في الْخَلَاءِ، فيستغفر الله منها. ووافقه مجاهد في ذلك. وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مُسلمة، عن عمرو بن دينار، عن عُبيد بن عُمر في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾، قال: كُنَّا نَعِدُ الْأَوَابَ الْحَفِيطَ، أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَحْبَبْتُ فِي مَجْلِسِي هَذَا. قال ابن جرير: «والأولى في ذلك قول مَنْ قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذي قاله هو الصواب: لأنَّ الْأَوَابَ مشتق من الْأَوْب، وهو الرجوع، تقول: أَب فلان إذا رَجَعَ، قال الله تعالى: ﴿إِنْ إِيَّانَا بُدِئَ بِهِمُ الْبُزْءُ﴾ [الغاشية: ٢٥].

[٤٢٤١] وفي الحديث الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ قَالَ: «أَيُّونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» ^(٢).

﴿وَأَتِذَا الْقَرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا﴾ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْبَذِيرَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ أَيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْحُمَهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ﴿٢٨﴾

لما ذَكَرَ تَعَالَى بِرِ الْوَالِدَيْنِ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ.

[٤٢٤٢] كما تقدم في الحديث: «أُمَّكَ وَأَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»، وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب» ^(٣).

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٢٥٥ من هذا الوجه بنحوه، وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٣٧/٨ وقال: وفيه الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف من غير كذب، وليث بن أبي سليم مدلس اهـ.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٧٩٧ ومسلم ١٣٤٤ وأبو داود ٢٧٧٠ وأحمد ٦٣/٢ وابن حبان ٢٧٠٧ من حديث ابن عمر مطوّلًا.

(٣) تقدم برقم ٤٢٣٩.

[٤٢٤٣] وفي الحديث: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيَسْأَلَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَجْمَهُ»^(١).

[٤٢٤٤] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا يَذَّارِكُ إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاهما «فذلك»^(٢). ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمي، وخميد بن حماد بن أبي الحوار. وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، وقد إنما فتحت مع خير سنة سبغ من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا؟ فهو إذاً حديث منكّر، والأشبه أنه من وضع الرافضة. والله أعلم.

وقد تقدّم الكلام على المساكين وابن السبيل في «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ها هنا. وقوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. ثم قال مُتَقَرِّفاً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا الْخَسِرَانِ﴾، أي: أشباههم في ذلك. وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: والتبذير الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مُبَذِّراً. ولو أنفق مذباً في غير حقه كان تبذيراً. وقال قتادة: التبذير الإنفاق في المعصية، وفي غير الحق وفي الفساد.

[٤٢٤٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مالٍ كثير، وذو أهلٍ وولَدٍ وحاضرة، فأخبرني: كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرُك، وتصل أقباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين. فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ قال: ﴿وَمَا يَذَّارِكُ إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا أدبتها إلى رسولي فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها»^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا الْخَسِرَانِ﴾، أي: في التبذير والسرف، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْخَسِرَانِ لِرَبِّهِمْ كُفُورًا﴾، أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: ﴿وَمَا تَرْضَنَ عَنْهُمْ إِتْعَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾، أي: وإذا سألك أقبائك ومن أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة، «فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا»، أي: عدهم وعداً سهولة ولين: إذا جاء رزق الله فسَنَصِلُكُمْ إن شاء الله. هكذا فسر قوله: «فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا» بالوعد - مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغير واحد.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٨٦ ومسلم ٢٥٥٧ وأحمد ٢٢٩/٣ وابن حبان ٤٣٨.

(٢) باطل، أخرجه أبو يعلى ١٠٧٥ و١٤٠٩، والطبراني كما في «المجمع» ١١١٢٥، وإسناده ضعيف جداً. قال الهيثمي: فيه عطية العوفي، ضعيف متروك أه، وله علة ثانية: فضيل بن مرزوق، وإن وثقه ابن عينة وابن معين، فقد ضعفه النسائي والدارمي، وقال الحاكم: عيب على مسلم إخراج له في الصحيح. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً، يروي عن عطية الموضوعات، قال الذهبي: عطية أضعف منه، وضعفه ابن معين أه الميزان ٦٧٧٢.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ١٣٦/٣ والطبراني في «الأوسط» ٨٧٩٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦٣/٣ وقال: رجاله أحمد رجال الصحيح.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۖ إِن رَّبَّكَ يُبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۖ إِنَّكُمْ كَانَتْ عِبَادَهُ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ (٢٩)

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، أي: لا تكن بخيلاً متوَعاً، لا تُعْطِي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود - عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: نُسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب. وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، أي: ولا تُسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتُخرج أكثر من دخلك، فتقعُد ملوماً محسوراً. وهذا من باب اللَّف والثَّر، أي: فتقعُد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ يَبْخُلْ بِمَالِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ يُلْغَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَمِ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير - وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الجلال، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبِئَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (٣) ثُمَّ أَنبِئِ الْبَصَرَ كَرِهْتَ إِن يَقْلِبَ إِلَيْكَ الْبَصَرَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) [الملك: ٣، ٤]، أي: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية بأن المراد منها البخل والسرف ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم.

[٤٢٤٦] وقد جاء في الصحيحين، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتَان من حديد، من ثدييهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا يُنفقُ إلا سبَّغت - أو: وقَّرت - على جلده، حتى تُخفي بَنَانَهُ وتَعْفُو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن يُنفق شيئاً إلا لَرَّقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مكانها، فهُوَ يُوسِعُهَا ولا تَتَّسع (١). هذا لفظ البخاري في «الزكاة».

[٤٢٤٧] وفي الصحيحين، من طريق هشام بن عروة، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَنفِقِي هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَلَا تُوعِي قِيُوعِي اللَّهِ عَلَيْكَ، وَلَا تُوَكِّي قِيُوكِي اللَّهَ عَلَيْكَ». وفي لفظ: «وَلَا تُحْصِي قِيُوحِي اللَّهِ عَلَيْكَ» (٢).

[٤٢٤٨] وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن قمام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي: أَنفِقْ أَنفِقْ عَلَيْكَ» (٣).

[٤٢٤٩] وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مَرْزَد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا» (٤).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٤٣ ومسلم ١٠٢١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٣٣ ومسلم ١٠٢٩ وأحمد ٣٤٥/٦ وابن حبان ٣٢٠٩.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٩٩٣ ح ٣٧.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٤٢ ومسلم ١٠١٠.

[٤٢٥٠] وروى مسلم، عن قُتَيْبَةَ، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١).

[٤٢٥١] وفي حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - مرفوعاً: «إِيَّاكُمْ وَالشَّخْ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمْرُهُمْ بِالْبُخْلِ فَبِخَلُّوا، وَأَمْرُهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَّعُوا، وَأَمْرُهُمْ بِالْفَجْرِ فَقَجَّرُوا»^(٢).

[٤٢٥٢] وروى البيهقي من طريق سغدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَخْرُجُ رَجُلٌ صَدَقَةً حَتَّى يُنْكَرَ لَخِي سَبْعِينَ شَيْطَانًا»^(٣).

[٤٢٥٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سُكَيْنُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا عَالَ مِنْ اقْتَصَدَ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: إخبارٌ أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء ويُفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ يَبْأُودُ خَيْرًا مِنْ بَصِيرَةٍ﴾، أي: خَيْرٌ بِصِيرٍ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ، كما جاء في الحديث:

[٤٢٥٤] «إِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ. وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ»^(٥). وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقْر عقوبةً، عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَ خِطْأًا كَبِيرًا﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه تعالى ينهى عن قتل الأولاد كما أوصى بالأولاد في الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، أي: خوف أن تفتقرُوا في ثاني

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٨ والترمذي ٢٠٢٩ وأحمد ٢٣٥/٢ وابن حبان ٣٢٤٨.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ١٦٩٨ من حديث عبد الله بن عمرو بهذا السياق. وأخرجه أحمد ١٩٥/٢ والحاكم ١١/١ وابن حبان ٥١٧٦ والبيهقي ٢٤٣/١٠ من حديث ابن عمرو بأتم منه، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٣٥٠/٥ والبيهقي في «السنن» ١٨٧/٤ وصححه الحاكم ٤١٧/١ على شرطهما، ووافقه الذهبي، ووثق رجاله الهيثمي في «المجمع» ١٠٩/٣، وقال المنذري في «الترغيب» ١٢٨٢: رواه أحمد والبزار والطبراني وابن خزيمة في «صحيحه» وتردد في سماع الأعمش عن بريدة اهـ. قلت: فيه عننة الأعمش وهو مدلس.

(٤) أخرجه أحمد ٤٤٧/١، والطبراني ١٠١١٨، والبيهقي في «الشعب» ٦٥٦٩، والقضاعي ٧٦٩ و ٧٧٠ من حديث ابن مسعود، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف. وورد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١٢٦٥٦، والبيهقي ٦٥٧٠ وإسناده ضعيف، الضحاك لم يلق ابن عباس. وورد من حديث ابن عمر بنحوه، أخرجه البيهقي ٦٥٦٨ وفيه غيبس بن تميم عن حفص، قال أبو حاتم: مجهولان، وورد بمعناه أحاديث واهية ربما يتقوى بها راجع المقاصد الحسنة ١٤٠، والشذرة ١٢٥، والله أعلم.

(٥) يأتي تحريمه في سورة الشورى، آية ٢٧ إن شاء الله تعالى.

الحال، ولهذا قَدِمَ الاهتمام برزقهم فقال: ﴿تَحْنُ رَزْقُهُمْ وَإِيَّاكَ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ آمَنُوا﴾، أي: من فقر، ﴿تَحْنُ رَزْقُكُمْ وَإِيَّاَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿إِنْ قَتَلْتُمْ كَانََ خَطَا كَبِيرًا﴾، أي: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم «كان خطأ كبيراً»، وهو بمعناه.

[٤٢٥٥] وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذَّنْبِ أعظم؟ قال: أن تجعلَ لله نِدَاءً وهو خلقك. قلت: ثم أيُّ؟ قال: أن تقتلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قلت: ثم أيُّ؟ قال: أن تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ^(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مُقَارِبَتِهِ، وهو مخالطة أسبابه ودَوَاعِيهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً﴾، أي: ذنباً عظيماً، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، أي: وبشَّ طريقاً ومسلِكاً.

[٤٢٥٦] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير، حدثنا سليم بن عامر، عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: ادن. فدنا منه قريباً، فقال: اجلس. فجلس، قال: أفتحبه لأهلك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعميتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخاليتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وقال: اللهم، اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه. قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(٢).

[٤٢٥٧] وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنبٍ بعد الشركِ أعظمُ عند الله من نُطْفَةِ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لَا يَحِلُّ لَهُ»^(٣).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَانُمْ مَنصُورًا﴾ (٣٣)

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: [٤٢٥٨] «لا يحلُ دَمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والزاني المحصن، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة»^(٤).

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٢ و ١٦٥.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٥٧/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ١٢٩: ورجال رجال الصحيح.

(٣) إسناده ضعيف جداً. فهو مرسل، الهيثم تابعي، وفيه بقية مدلس، وقد عنعن، وفيه أيضاً أبو بكر ضعيف.

(٤) تقدم.

[٤٢٥٩] وفي السُّنَنِ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِ»^(١). وقوله: «وَمَنْ قُتِلَ مَقْلُوبًا فَقَدْ جَمَعْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا»، أي: سُلْطَةُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَإِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِيهِ، إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ قَوْدًا، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلَى الدِّيَةِ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ مَجَانًا، كَمَا ثَبَتَ السُّنَّةُ بِذَلِكَ. وَقَدْ أَخَذَ الْإِمَامُ الْحَبْرُ بْنُ عَبَّاسٍ مِنْ عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَلَايَةَ مَعَاوِيَةَ السُّلْطَنَةِ، وَأَنَّهُ سَيَمْلِكُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ وَلِيِّ عُمَاسَانَ، وَقَدْ قُتِلَ عُمَاسَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَظْلُومًا. وَكَانَ مَعَاوِيَةُ يَطْلُبُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُسَلِّمَهُ قَتْلَتَهُ حَتَّى يَقْتَصَّ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ أَمَوِيٌّ، وَكَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَمْتَلُهُ فِي الْأَمْرِ حَتَّى يَتِمَّكَزَّ وَيَفْعَلَ ذَلِكَ، وَيَطْلُبُ عَلِيًّا مِنْ مَعَاوِيَةَ أَنْ يُسَلِّمَهُ الشَّامَ، فَيَأْبَى مَعَاوِيَةُ ذَلِكَ حَتَّى يُسَلِّمَهُ الْقَتْلَةَ، وَأَبَى أَنْ يُبَايِعَ عَلِيًّا هُوَ وَأَهْلُ الشَّامِ، ثُمَّ مَعَ الْمَطَاوِلَةِ تَمَكَّنَ مَعَاوِيَةُ، وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ كَمَا تَفَاعَلُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَاسْتَنْبَطَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَهَذَا مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ.

وَقَدْ رَوَى ذَلِكَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَيْرٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ضَمْرَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، عَنْ ابْنِ شَوْذَبٍ، عَنْ مَطَرِ الْوَرَّاقِ، عَنْ زُهْدِ الْجَزْمِيِّ قَالَ: كُنَّا فِي سَمَرِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ: إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا لَيْسَ بِسَرٍّ وَلَا عِلَاقِيَّةٍ؛ إِنَّهُ لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ مَا كَانَ، يَعْنِي عُمَانَ، قُلْتُ لِعَلِيٍّ: اعْتَزَلْ، فَلَوْ كُنْتُ فِي جُحْرِ طُلَيْتٍ حَتَّى تُسْتَخْرِجَ. فَعَصَانِي، وَابْنُ اللَّهِ لِيَتَأَمَّرَنَّ عَلَيْكُمْ مَعَاوِيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «وَمَنْ قُتِلَ مَقْلُوبًا فَقَدْ جَمَعْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا»، وَلَيَحْمِلَنَّكُمْ قَرِيشٌ عَلَى سُنَّةِ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَلَيُؤْتَمَّنَنَّ عَلَيْكُمْ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَالْمَجُوسُ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ يَمًا يُعْرِفُ نَجَا، وَمَنْ تَرَكَ، وَأَنْتُمْ تَارِكُونَ، كُنْتُمْ كَقَرْزَيْنِ مِنَ الْقَرْوَيْنِ، هَلَكَ فِيمَنْ هَلَكَ»^(٢). وَقَوْلُهُ: «فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ»، قَالُوا: مَعْنَاهُ: فَلَا يُسْرِفُ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِ الْقَاتِلِ، بِأَنْ يُمَثَّلَ بِهِ، أَوْ يَقْتَصَّ مِنْ غَيْرِ الْقَاتِلِ. وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا»، أَي: إِنَّ الْوَلِيَّ مَنْصُورٌ عَلَى الْقَاتِلِ شَرْعًا، وَغَالِبًا قَدْرًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُلًا﴾ (٣٤)

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أَي: لَا تَنْتَصِرِفُوا لَهُ إِلَّا بِالْغِنْبَةِ، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَنْوَلَكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْرًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وَ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

[٤٢٦٠] وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَحَبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي: لَا تَأْتِمِرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلِّئَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾، أَي: الَّذِي تُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ النَّاسَ وَالْعُقُودَ الَّتِي تَعَامِلُونَ بِهَا، فَإِنَّ الْعَهْدَ وَالْعَقْدَ كُلُّهُمَا يُسَالُ صَاحِبُهُ عَنْهُ، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَشْهُلًا﴾، أَي: عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، أَي: مِنْ غَيْرِ تَطْفِيفٍ، وَلَا تَبَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾،

(١) تقدم.

(٢) موقوف، أخرجه الطبراني ٣٢٠/١٠، وفيه مطر بن طهمان الوزاق، روى له مسلم، ولكن ضعفه أبو حاتم، وقال ابن سعد: فيه ضعف، وقال يحيى وأحمد: ضعيف في عطاء خاصة أمه، فالأثر غير قوي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٢٦ وأبو داود ٢٨٦٨ والنسائي ٢٥٥/٦ وابن حبان ٥٥٦٤.

فُرى بضم القاف وكُسرها كالقُرطاس، وهو: الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية. وقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، أي: لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: مآلاً ومنقلباً في آخرتكم.

[٤٢٦١] قال سعيد، عن قتادة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: خير ثواباً وعاقبة. وأخبرنا أن ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالى، إنكم ولّيتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يده، ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك»^(١).

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يقول: لا تَقْلُ. وقال العوفي عنه: ولا تَزِمَ أحداً بما ليس لك به عِلْمٌ. وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل رأيت، ولم تَرَ. وسمعت، ولم تسمع. وعلمت، ولم تعلم. فإن الله [تعالى] سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا عِلْمٍ، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِفْكٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

[٤٢٦٢] وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»^(٢).

[٤٢٦٣] وفي سنن أبي داود: «بش مطية الرجل: زعموا»^(٣).

[٤٢٦٤] وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا»^(٤).

[٤٢٦٥] وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بفاعل»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾، أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد. ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل عنه وعمّا عَمِلَ فيها. ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر:

ذُمَّ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَنَزَلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْنِشَ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْأَيَامِ

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)

يقول تعالى ناهياً عباده عن التَّجَبُّرِ والتَّبخُّرِ في المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: متبختراً

(١) هذا مرسل، أخرجه الطبري ٢٢٣٠٦ لكن له شواهد بمعناه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٦٦ ومسلم ٦٥٦٣ وأبو داود ٤٠٩١٧ وأحمد ٤٦٥/٢ وابن حبان ٥٦٨٧ من حديث أبي هريرة.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٨٣.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٤٣ من حديث ابن عمر.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٤٢ وأحمد ٢١٦/١ وابن حبان ٥٦٨٦ وأبو داود ٥٠٢٤ من حديث ابن عباس بأنهم منه.

متمايلاً مشي الجبارين، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾، أي: لن تقطع الأرض بمشيته، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤية بن العجاج:

وَقَاتِمِ الْأَغْمَاقَ خَاوِي الْمُخْرِقِ

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَلْعَ لِبَالًا طُولًا﴾، أي: بتمايكك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعِلُ ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح:

[٤٢٦٦] «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَعَلَيْهِ بُرْدَانٌ يَتَبَخَّرُ فِيهِمَا، إِذْ خَسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١). وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَسَفَ بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ.

[٤٢٦٧] وفي الحديث: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ، وَمَنْ اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللَّهُ فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ حَقِيرٌ، حَتَّى لَوْ أَبْغَضَ إِلَيْهِمُ مِنَ الْكَلْبِ أَوْ الْخَتَزِيرِ»^(٢).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «الْخُمُولِ وَالتَّوَاضُعِ»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مرَّ عليه ابن الأَهمم يريد المقصورة وعليه جَبَابٌ خَزٌّ قد نُصِّدَ بعضها فوق بعض على ساقه، وانفَرَجَ عنها قباؤه، وهو يمشي يتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أَفْ أَفْ، شامخٌ بأنفه، ثَانٍ عِظْفُهُ، مُصْعَرٌ خَذُهُ، ينظر في عطفه: أَي حَمِيقٌ، انظر في عطفك في نعم غير مَشْكُورَةٍ ولا مَذْكُورَةٍ، غير المَأخُوذِ بِأَمْرِ اللَّهِ فيها ولا المؤدَّى حَقَّ اللَّهِ منها. والله إن يمشي أحدهم طبيعته يَتَلَجَّلَجُ تَلَجَّلَجَ المجنون، في كل عُضْوٍ من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لَعْنَةٌ. فَسَمِعَهُ ابْنُ الْأَهمم فَرَجَعَ يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إليَّ، وَثُبْ إِلَى رَبِّكَ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تُلْعَ لِبَالًا طُولًا﴾^(٣).

ورأى العمريُّ العابدُ رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطُرُ في مِشْيَتِهِ، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مِشْيَتَهُ. قال: فتركها الرجلُ بعدُ. ورأى ابنُ عمر رجلاً يخطُرُ في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً. وقال خالد بن مغذان: إياكم والخطُرُ، فإن الرَّجُلَ قد نَبَا فَوَّادَهُ من دون سائر جسده. رواهما ابنُ أبي الدنيا.

[٤٢٦٨] وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خَلْفُ بن هشام البَرَّازُ، حدثنا حَمَادُ بن زيد، عن يحيى بن سعيد، عن يُحْنَسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطِيطَاءُ، وَخَدَمَتْهُمُ فَارِسُ وَالرُّومُ، سَلَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»^(٤).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٨٩ ومسلم ٢٠٨٨ وأحمد ٣١٥/٢ وأبو يعلى ٦٣٣٤ من حديث أبي هريرة.

(٢) صدره «من تواضع لله رفعه» صحيح، فهو عجز حديث، أخرجه مسلم، وتقدم برقم ٤٢٥٠، وله شواهد أخرى، وأما باقي المتن، فضعيف جداً أخرجه الخطيب ١١٠/٢، والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣٦٧ من حديث عمر، وقال الهيثمي: فيه سعيد بن سلام العطار، وهو كذاب.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» ٢٣٧، عن الحسن به.

(٤) حسن لشواهده، أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥٢٥/٦ وابن أبي الدنيا ٢٤٩ كلاهما عن يُحْنَسٍ بن عبد الله، وهو تابعي =

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۖ﴾، أما من قرأ «سينة»، أي: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ لَهُنَّ صُلْحٌ﴾ إلى ها هنا، فهو سينة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ «سيتهم» على الإضافة فمعناه عنده، كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى ها هنا، فسيته، أي: فقيحه مكروه عند الله، هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۖ﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد، لتأمر به الناس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾، أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، ﴿مَدْحُورًا﴾، أي: مبعداً من كل خير؛ وقال ابن عباس وقتادة: مطروداً. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه - صلوات الله وسلامه عليه - معصوم.

﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا ۚ إِنَّكَ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۖ﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾، أي: خصصكم بالذكر ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا﴾، أي: واختار لنفسه على زعيمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكَ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾، أي: في زعمكم أن الله ولد، ثم جعلكم ولده الإناث اللاتي تأتون أن يكن لكم، وربما قتلتموهن بالواد، فذلك إذا قسمة ضيزى. وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۚ تَكَاذَبْتُمْ وَتَقَعْتُمْ مِثْلَهُ لَقَدْ وَقَعَ آلُ الْأَرْضِ وَغِيْرُ الْبَالِ هَذَا ۚ﴾ أن دعوا للرحمن ولداً ﴿وَمَا يَتَّبِعِ الرَّحْمَنُ أَنْ يُتَّخَذَ وَلَدًا ۚ﴾ إن كل من في السموات والأرض إلا ما لي الرحمن عبداً ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ وَعَدْنَاهُ عَدًّا ۚ﴾ وكلهم ما يه يوم القيمة ﴿قَدْ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۖ﴾

يقول تعالى: ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ليذكروا؛ وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيّنات والمواعظ، فينزعجوا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾، أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: عن الحق، وبعداً منه.

= ثقة، فهو مرسل، ووصله الطبراني في «الأوسط» ١٣٢ بذكر أبي هريرة وحسنه الهيثمي ٢٣٧/١٠ مع أن فيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، لكن له شواهد. فقد أخرجه ابن المبارك ١٨٧ «رواية نعيم» والترمذي ٢٢٦١، والعقيلي ١٦٢/٤، وابن عدي ٢٣٣٥/٦، والبغوي ٤٢٠٠ من حديث ابن عمر، وفي إسناد الجميع موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. لكن ساقه الترمذي من طريق آخر، وإسناده قوي، رجاله ثقات. وورد من حديث خولة بنت قيس أخرجه ابن حبان ٦٧١٦ وإسناده غير قوي، لكن يشهد لما قبله، فالحديث حسن بشواهد، إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَاكَ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣)

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعْبَدُ لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتغنون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبدونه من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقُدَّسها فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤)

يقول تعالى: تُقَدَّسُهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، أي: من المخلوقات، وتُنَزِّهه وتُعَظِّمه وتُبَجِّله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

فَإِنِّي كُلُّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْقَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزْرٌ لِّلْبَالِ هَذَا﴾ (٤٥) ﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَّا﴾ (٤٦) ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَكَّا﴾ (٤٧).

[٤٢٦٩] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثنا غزوة بن رويم، عن عبد الرحمن بن قزط: أن رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات السبع، فلما رجع قال: سَمِعْتُ تَسْبِيحاً فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ مَعَ تَسْبِيحٍ كَثِيرٍ: سَبَّحَتِ السَّمَوَاتُ الْعُلَىٰ مِنْ ذِي الْمَهَابَةِ، مُشْفِقَاتٍ لِّذِي الْعُلُوِّ بِمَا عَلَا، سَبَّحَانَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَىٰ، سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَىٰ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، أي: وما من شيء من المخلوقات إِلَّا يُسَبِّحُ بحمد الله، ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم. وهذا عام في الحيوان والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين.

[٤٢٧٠] كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: «كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطعام وهو يؤكل»^(٢).

(١) منكر. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٢٤٣ والذهبي في الميزان ٨٤٨٠، وقال الذهبي: مسكين بن ميمون، لا أعرفه، وخبره منكر، ونقل الهيثمي كلام الذهبي، ووافقه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٧٩ والترمذي ٣٦٣٣ وابن حبان ٦٤٩٣.

[٤٢٧١] وفي حديث أبي ذرٍّ - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ أخذ في يده حصيات، فسَمِعَ لَهُنَّ تسبيحَ كَحَنِينِ الثَّحْلِ. وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم أجمعين - وهو حديث مشهور^(١) في المسانيد.

[٤٢٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابنُ لهيعة، حدثنا زُبَّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه مَرَّ على قوم وهم وقوفٌ على دوابِّ لهم ورواحلٍ، فقال لهم: «اركبوا سالمَةً، ودعوها سالمَةً، ولا تَتَّخِذُوهَا كِرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالْأَسْوَاقِ، فَزُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا، وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى مِنْهُ»^(٢).

[٤٢٧٣] وفي سُنَنِ النِّسَائِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الضَّفَدِ، وَقَالَ: نَقِيقُهَا تَسْبِيحٌ^(٣). وقال قتادة، عن عبد الله بن باباه، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: أن الرجل إذا قال: «لا إله إلا الله»، فهي كلمة الإخلاص التي لا يَقْبَلُ الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمد لله» فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبداً قط حتى يقولها، وإذا قال: «الله أكبر» فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال «سبحان الله»، فهي صلاة الخلاق التي لم يَدْعُ الله أحد من خلقه إلا قَرَّزَهُ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ. وإذا قال «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: أسلم عبدي واستسلم.

[٤٢٧٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصُّقْعَبَ بْنَ زُهَيْرٍ يُحَدِّثُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أَعْرَابِيٌّ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ طِيَالِسَةٍ مَكْفُوفَةٍ بِدِيْبَاجٍ، أَوْ: مَزُورَةٍ بِدِيْبَاجٍ، فَقَالَ: إِنْ صَاحِبُكُمْ هَذَا يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ كُلَّ رَاغٍ ابْنَ رَاغٍ، وَيَضَعَ كُلَّ رَأْسٍ ابْنَ رَأْسٍ. فَقَامَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ مُغَضَّباً، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ فَاجْتَذَبَهُ، فَقَالَ: لَا أَرَى عَلَيْكَ ثِيَابَ مَنْ لَا يَمُوتُ. ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ فَقَالَ: إِنْ نُوْحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَعَا ابْنَيْهِ فَقَالَ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ: أَمْرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنْ اثْنَتَيْنِ، أَنْهَاكُمَا عَنِ الشُّرْكِ وَالْكِبْرِ، وَأَمْرُكُمَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوُضِعَتْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى، كَانَتْ أَرْجَحَ. وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا خَلْقَةً، فَوُضِعَتْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» عَلَيْهِمَا لَقَصَصَتْهُمَا أَوْ لَقَصَصَتْهَا. وَأَمْرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ»^(٤). ورواه الإمام أحمد أيضاً عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصُّقْعَبِ بْنِ زُهَيْرٍ، بِهِ، أَطُولُ مِنْ هَذَا. تَقَرَّدَ بِهِ.

[٤٢٧٥] وقال ابنُ جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا محمد بن يعلى، عن موسى بن

(١) كذا ذكر المصنف رحمه الله! والصواب أنه غير مشهور، بل هو إلى الضعف أقرب. أخرجه البزار ٢٤١٣ و ٢٤١٤ والطبراني في «الأوسط» ١٢٦٥، وقال في «المجمع» ١٤١٠٣: رواه البزار بإسنادين رجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف، وأه، وضعفه الحافظ في «الفتح» ٥٩٢/٦ وهو كما قال، ففي أحد إسناده مجهول، وفي الآخر صالح بن أبي الأخضر، وقد ضعفه الجمهور.

(٢) أخرجه أحمد ٤٤٠/٣ ح ١٥٢١٩ وفيه ابن لهيعة عن زُبَّان عن سهل بن معاذ، وثلاثتهم ضعفاء، لكن رواه أحمد برقم ١٥٢١٢ و ١٥٢١٣ و ١٥٢١٤ من وجه آخر عن سهل بن معاذ به، وسهل ضعيف الحديث، روى مناكير.

(٣) مضى في سورة المائدة: ٩٦.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ١٦٩/٢ - ١٧٠ و ٢٢٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦١٩/٤ - ٦٢٠ وقال: رجاله ثقات. اهـ. قلت: رجال الإسناد على شرطهما سوى الصقعب، وهو ثقة.

عُبَيْدَة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بشيءٍ أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً - عليه السلام - قال لابنه: يا بني، أَمُرُّكَ أَنْ تَقُولَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ»، فإنها صلاة الخَلْقِ وتسبيح الخلق، وبها يُزَوَّدُ الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١). إسناده فيه ضعف، فإن الرَبْذِي ضَعِيفٌ عند الأكثرين. وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، قال: الأسطوانة تُسَبِّحُ، والشجرة تُسَبِّحُ. الأسطوانة: السارية. وقال بعضُ السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخَرِيرُ الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: الطعام يُسَبِّحُ. ويشهد لهذا القول آيةُ السجدة في أول الحج. وقال آخرون: إنما يُسَبِّحُ ما كان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات، قال قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، قال: كُلُّ شَيْءٍ فيه الروح يسبح من شجرة أو شيء فيه الروح.

وقال الحسن، والضحاك في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، قال: كُلُّ شَيْءٍ فيه الروح.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حُبَاب قالوا: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن في طعام، فَقَدَمُوا الخَوَان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يُسَبِّحُ هذا الخَوَان؟ فقال: كان يسبح مرة. قلت: الخَوَان هو المائدة من الخشب. وكان الحسن - رحمه الله - ذهب إلى أنه لما كان حَيًّا فيه خُضرة كان يُسَبِّحُ، فلما قُطِع وصار خَشَبَة يابسة انقطع تسبيحه.

[٤٢٧٦] وقد يُسْتَأْنَس لهذا القول بحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إِنَّهُمَا لَيَعْدَبَانِ، وما يَعْدَبَانِ في كبير، أما أحدهما فكان لا يَسْتَتِرُ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة. ثم أخذ جريدة زُطْبَة، فشققها نصفين، ثم غَرَزَ في كُلِّ قَبْرٍ واحدة، ثم قال: «لَعَلَّهُ يَخْفَفُ عَنْهُمَا ما لم ييسا»^(٢). أخرجه في الصحيحين. قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: «ما لم ييسا» لأنهما يُسَبِّحَانِ ما دام فيهما خُضرة، فإذا ييسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾، أي: إنه لا يُعَاجِلُ من عصاه بالعقوبة، بل يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ، فإن استمرَّ على كفره وعناده أَخَذَهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، كما جاء في الصحيحين:

[٤٢٧٧] «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَغْلِبْهُ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْسَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَكْبَرُ شَوْدٍ﴾ [هود: ١٠٢]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَتَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَعْبَرِ﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عِصْيَانٍ وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَتَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. وقال هـنا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾، كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَسْكُمَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٤١]، إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يَرَاهُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُورِهِمْ دَابْرَهُمْ وَلَئِنْ يَخْضَرُوا مِنْ لَاحِلٍ لَبِئْسَ أَجَلُهُمْ فَلَا تَعْلَمُ بِبَصِيرَةٍ﴾ [٤٢].

(١) أخرجه الطبري ٢٢٣٢٥ من حديث جابر وإسناده ضعيف، لضعف موسى بن عبيدة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٧٨ ومسلم ٢٩٢ وأبو داود ٢٠ والترمذي ٧٠ والنسائي ٢٨/١ - ٣٠ وابن ماجه ٣٤٧ وأحمد ٢٢٥/١ وابن حبان ٣١٢٨.

(٣) وتقدم الحديث في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّمْ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت - يا محمد - على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً. قال قتادة، وابن زيد: هو الأكِنَّة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء. وقوله: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾، أي: بمعنى ساتر، كميمون ومشووم بمعنى يامن وشائم، لأنه من يَمْنَهُم وشأنهم. وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى تزجيحه ابن جرير رَجَمَهُ الله.

[٤٢٧٨] وقال الحافظ أبو يعلَى الموصلي: حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهْمٍ﴾، جاءت العوزاء أم جُمَيْل ولها وَلَوْلَةٌ، وفي يدها فِهْر وهي تقول: مُدْمَمًا أَيْنَا، أو: أَيْنَا، قال أبو موسى: الشك مِنِّي - ودينه قُلَيْنَا، وأمره عَصَيْنَا. ورسولُ الله ﷺ جالس، وأبو بكر إلى جنبه، أو قال: معه، قال: فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: إنها لن تراني، وقرأ قرآنًا اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر، بَلَّغْنِي أَنْ صَاحِبَكَ هَجَانِي. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هَجَاكِ. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا (١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع «كِنَانٍ»، الذي يَغْشَى القلب، «أَنْ يَفْقَهُوهُ»، أي: لئلا يفهموا القرآن، «وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا»، وهو الثَقْل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً يفهمهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّمْ﴾، أي: إذا وَحَّدْتَ الله في تلاوتك، وَقُلْتَ: «لا إله إلا الله»، «وَلَوْ أَنَّ»، أي: أدَّبُوا رَاجِعِينَ «عَلَى أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا»، ونفور: جمع نافر، كغُفود جمع قاعد. ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٤٥]. قال قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّمْ وَلَوْ أَنَّ أَذْبَرَهُمْ نُفُورًا﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكُثِرَتْ عليهم، وصَافَهَا إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يُعْضِيَهَا وينصُرَهَا ويظهرها على من نَآوَأَهَا، إنها كلمة من خاصم بها قُلُج، ومن قَاتَلَ بها نُصِر، إنما يَعْرِفُهَا أَهْلُ هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائل، ويسير الدهر في فِثام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها.

قول آخر في الآية: قال ابن جرير: حدثني الحسين بن محمد الدَّارِع، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عَمْرُو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّمْ وَلَوْ أَنَّ أَذْبَرَهُمْ نُفُورًا﴾: هم الشياطين. وهذا غريب جداً في تفسيرها، وإلا فالشيطان إذا قُرِئ القرآن، أو نُودِيَ بالأَذَانِ، أو ذُكِرَ الله، انصَرَفَ.

(١) أخرجه أبو يعلى ٢٥ و ٢٣٥٨ من حديث ابن عباس دون ذكر الآية ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ...﴾ وإسناده ضعيف.

﴿تَحْنُ أَعْلَمَ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

يخبر تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بما تناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سرّاً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرثة، أي: إن تتبعون - إن اتبعتم محمداً - إلا بشراً يأكل، كما قال الشاعر:

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ قُلَانَا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسْحَرِ

وقال الآخر:

وَنُسْحَرُ بِالطُّغَامِ وَبِالشُّرَابِ

أي تُغْدَى: وقد صوب هذا القول ابن جرير. وفيه نظر، لأنهم إنما أرادوا ما هنا أنه مسحور له رثي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه. ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر، ولهذا قال [تعالى]: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾، أي: فلا يهتدون إلي الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

[٤٢٧٩] قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي خلّفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل - لعنه الله - فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كقَرَسِي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُذرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نُصدّقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه ^(١).

﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا لَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا

(١) هذا مرسل، ولاصله شواهد تعضده.

مَتَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُوا مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْنَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبشرين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَعْنَا﴾. أي: ترأباً. قاله مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: عُبَاراً. ﴿أَوَدَا لَسَبُوءُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلَقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعدما بَلَيْنَا وَصِرْنَا عَدَمًا يذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَوَدَا لَمَزِدُّوهُمْ فِي لَعَارِهِمْ﴾ ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا نَحْنُ﴾ ﴿قَالُوا يَكُنْ إِذَا كَرِهَ خَائِرَةٌ﴾ ﴿٥٢﴾ [النازعات: ١٠ - ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وهكذا أمر [سبحانه] رسوله هنا أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٠﴾، إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أَوْ خَلَقًا مَتَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾. قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس - رضي الله عنهما - عن ذلك فقال: هو الموت. وروى عطية، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال في تفسير هذه الآية. لو كنتم موتى لأحييكنم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ.

[٤٢٨٠] وقد ذكر ابن جرير حديث: «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: يَا أَهْلَ النَّارِ، أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فيقولون: نعم. فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ»^(١). وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلَقًا مَتَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾، يعني: السماء والأرض والجبال. وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فَيَسْعِدُكُمُ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِكُمْ. وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك، عن الزهري في قوله: ﴿أَوْ خَلَقًا مَتَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾، قال: «النبي ﷺ قال مالك: ويقولون: هو الموت».

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾، أي: من يُعِيدُنَا إِذَا كُنَّا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلَقًا آخَرَ شَدِيدًا، ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صِرْتُمْ بَشَرًا تَتَشَرُونَ، فإنه قادرٌ على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال، فهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أَمْرٌ عَلَيْهِ. وقوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يُحَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاءً. وهذا الذي قاله هو الذي فَهَّمَهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، فَإِنَّ الْإِنْفَاضَ هُوَ: التَّحَرُّكُ مِنْ أَسْفَلٍ إِلَى أَعْلَى، أَوْ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلظُّلُمِ، وَهُوَ وَلَدُ النِّعَامَةِ نَغْضًا، لِأَنَّهُ إِذَا مَشَى عَجَلًا فِي مِشْيَتِهِ وَحَرَّكَ رَأْسَهُ. ويقال: نَغَضْتُ سِنَّهُ: إِذَا تَحَرَّكَ وَارْتَفَعَتْ مِنْ مَثْنِيهَا، قَالَ الرَّاجِزُ:

وَنَغَضْتُ مِنْ مَرَمِ اسْنَانِهَا

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا مَتَى هُوَ﴾، إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

مَنْ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آتٍ آتٍ. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾، أي: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كُنَّجًا بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، و ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَجِدَتْ ﴿٥٢﴾﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤]، أي: إنما هو أمرٌ واحدٌ بانتهاز، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْدُودٍ﴾، أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿تَسْتَجِيبُونَ بِمَحْدُودٍ﴾، أي: بأمره. وكذا قال ابن جريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْدُودٍ﴾، أي: وله الحمد في كل حال.

[٤٢٨١] وقد جاء في الحديث: «ليس على أهلٍ «لا إله إلا الله» وخشة في قبورهم، وكأني بأهل «لا إله إلا الله» يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: «لا إله إلا الله»، وفي رواية يقولون: «لَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ أَذْهَبَ عَنْهُمُ الْحَزْنَ»^(١)، وسيأتي في سورة فاطر، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿وَتَنْظُرُونَ﴾، أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَيْسَتْ﴾، أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، كما قال: ﴿كَانَ يَوْمَ يَوْمِئِذٍ لَوْ يَسْتَوُونَ إِلَّا عِشَّةٌ أَوْ حُكْمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا ﴿٥٧﴾﴾ [التكوير: ١٠٢ - ١٠٤]، ﴿يَنْتَهُمُ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٥٨﴾﴾ [التكوير: ١٠٢ - ١٠٤]، ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُفَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَدُ سِينِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

بأمر تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنه إذا لم يفعلوا ذلك نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لأدم وذريته من حين امتنع من السجود لأدم، فعداؤه ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، وربما أصابه بها.

[٤٢٨٢] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُشِيرَنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يذري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من نار»^(٢). أخرجه من حديث عبد الرزاق.

[٤٢٨٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا علي بن زيد، عن الحسن قال: حدثني رجل من بني سليل قال: أتيت النبي ﷺ وهو في أزفلة^(٣) من الناس، فسمعتة يقول: المسلم أخو المسلم لا

(١) يأتي في فاطر.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٧٢ ومسلم ٢٦١٧ وأحمد ٣١٧/٢ وابن حبان ٥٩٤٨.

(٣) الأزفلة: الجماعة.

يظلمه ولا يخذله، التقوى ها هنا - قال حماد: وقال بيده إلى صدره - وما تَوَّأَدَ رجلان في الله فَيُفَرِّقُ بينهما إلا بِحَدِيثٍ يحدثه أحدهما، والمحدث شَرٌّ، والمحدث شَرٌّ، والمحدث شَرٌّ^(١).

﴿وَبِكُفْرٍ أَكْبَرُ مِنْ شَيْءٍ يَرْحَمَكُمُ أََوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَكْبَرُ مِنْ شَيْءٍ يَرْحَمَكُمُ أََوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٥﴾﴾
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرٍ أَكْبَرُ مِنْ شَيْءٍ يَرْحَمَكُمُ أََوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، أي: إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دَخَلَ الجنة، ومن عَصَاكَ دَخَلَ النار، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَكْبَرُ مِنْ شَيْءٍ يَرْحَمَكُمُ أََوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ كَلَمِ اللَّهِ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

[٤٢٨٤] وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢)، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصية، لا بمقتضى الدليل، لأنه إذا دَلَّ الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرُّسُلَ أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ مِنْ قُبْحٍ وَلِبَاسِهِمْ وَمُؤْمِنٍ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى - عليهم السلام - على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾: تنبيه على فضله وشرفه.

[٤٢٨٥] قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قمام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةِ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَائِيهِ لِتُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ» يعني القرآن^(٣).

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّبِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عَبَدُوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّبِّ عَنْكُمْ﴾، أي: بالكلية، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾،

(١) أخرجه أحمد ٧١/٥ ح ٢٠١٦٦ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، والحديث صحيح وله شواهد كثيرة دون عجزه فإنه تفرد به علي بن زيد، وهو غير حجة، وقد خالفه مبارك بن فضالة فلم يذكر عجز الحديث، وهذا أخرجه أحمد ٢٠١٦٥ و ٢٢٧٠٢ وعن عباد بن راشد رواه عن الحسن ٢٢٧١٨ بدون عجزه، وهو أصح، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٥٣.

(٣) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ٣١.

أي: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذي يقدرُ على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٨)، قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيراً.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أَوَلَمْ يُدْعُوا لَوْ سِغَلَةُ أَتَيْتُمْ أَقْرَبَ﴾، روى البخاري، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مغيرة، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أَوَلَمْ يُدْعُوا لَوْ سِغَلَةُ﴾، قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا، - وفي رواية قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزماني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أَوَلَمْ يُدْعُوا لَوْ سِغَلَةُ﴾، قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفي رواية عن ابن مسعود - رضي الله عنه -: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره وقال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أَوَلَمْ يُدْعُوا لَوْ سِغَلَةُ﴾، قال: عيسى، وأمه، وعزير. وقال مغيرة، عن إبراهيم، كان ابن عباس يقول في هذه الآية: هم عيسى، وعزير، والشمس، والقمر. وقال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة، واختار ابن جرير قول ابن مسعود، لقوله: ﴿يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أَوَلَمْ يُدْعُوا لَوْ سِغَلَةُ﴾، وهذا لا يُعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة، وقال: والوسيلة هي القرية كما قال قتادة، ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجِعُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المنامي وبالرجاء ينبعث إلى الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، أي: ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه.

﴿وَلَنْ يَنْ قَرِيبَةً إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ

مَسْطُورًا﴾ (٥٩)

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يُبِيد أهلها جميعهم أو يُعَذِّبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضية: ﴿وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ مِنْ قَرِيبٍ عَمَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَجَاسَتْهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَلَيْهَا عَذَابٌ لَكْرًا﴾ (٥٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حَسْرًا﴾ (٥٩) [الطلاق: ٨ - ٩].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا نُمُودَ النَّافَةِ مُبَصِّرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ

بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩)

[٤٢٨٦] قال سُئِد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون: يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فممنهم من سُخِّرَ له الريح، ومنهم من كان يُحيي الموتى، فإن سَرَكَ أن نؤمن بك ونُصَدِّقَكَ، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً. فأوحى الله إليه: إني قد سمعتُ الذي قالوا، فإن شِئْتَ أن

نفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن تستأني بقومك استأنيث بهم؟ قال: يا رب، أستأني^(١). وكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما.

[٤٢٨٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جريز، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سأل أهل مكة النبي أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يتخى الجبال عنهم فيزدروها. فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلکوا كما أهلکت من كان قبلهم من الأمم. قال: لا، بل أستأني بهم. فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا نَمُودُ الْثَاقَةَ ثَمِيرَةً﴾^(٢). وقد رواه النسائي من حديث جريز، به.

[٤٢٨٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، وتؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا، فاتاه جبريل - عليه السلام - فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال: بل باب التوبة والرحمة^(٣).

[٤٢٨٩] وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدثنا خلف بن تميم المصيصي، عن عبد الجبار بن عمر الأيلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير - رضي الله عنه - يقول: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس^(٤): يا آل عبد مناف، إني نذير. فجاءته قريش، فحذروهم وأنذروهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحي إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويُفجر لنا الأرض أنهاراً، فتتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فتكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهباً، فتنتح منها وتغنيينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم. قال: فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتهم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلمكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضيلوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم. وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم إنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحد من العالمين. ونزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ حتى قرأ ثلاث آيات، ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ

(١) أخرجه الطبري ٢٢٤٠٠ عن سعيد بن جبير مرسلاً. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣١٠ وأحمد ٢٥٨/١ والطبري ٢٢٩٨، وصححه الحاكم ٣٦٢/٢ ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد ٢٤٢/١ وذكر الهيثمي في «المجمع» ٥٠/٧ الرواية المتقدمة وهذه الرواية وقال: رجال الروایتین رجال الصحيح، إلا أنه وقع في أحد طرقه عمران بن الحكم، وهو وهم، وفي بعضها عمران أبو الحكم، وهو الصحيح، وهو من رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه اهـ.

(٤) جبل بمكة.

فُلِّمَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِنَّ الْمَوْقُ ﴿١﴾ [الرعد: ٣١]... الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَآيَاتِنَا تُؤْمَدُ الْآفَاقُ مَجِيئَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٢﴾﴾، أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا سبيل لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سُنَّتُنَا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أَهْلَهُ عَذَابًا لَا أَهْلَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا أن يخرج لهم ناقة تخرج من صخرة عيشتها، فدعا صالح - عليه السلام - ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعَقَرُوا الناقة، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَيُّنَا ثَمُودُ الْآتَاةُ مَجِيئَةً﴾ أي: دالة على وخدائبة من خلقها وصدق الرسول الذي أُجيب دعاؤه فيها، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، أي: كفروا بها ومتعوا شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما يشاء من آياته، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رُجِفَتْ على عهد ابن مسعود - رضي الله عنه - فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعيتكم، فأعتبوه. وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مرات، فقال عمر: أخذتُم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن.

[٤٢٩٠] وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله - عز وجل - يُخَوِّفُ بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودُعَائِهِ واستغفاره». ثم قال: يا أمة محمد، والله ما من أحدٍ غير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً^(٢).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ مُحَرَّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضتيه وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد، وغروة بن الزبير، والحسن، وقاتدة، وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، أي: عصمتك منهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية.

[٤٢٩١] قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، قال: هي رؤيا عَيْنِ أَرِيَهَا رسول

(١) والحديث ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٦٧٩، وفي إسناده عبد الجبار الأيلي، ضعيف، وشيخه عبد الله بن عطاء، قال يمين: لا شيء. وشيخ أبي يعلى، ذكره الزبي، وقال: أحد النساك، ولم أجد له ترجمة أم. وقال الهيثمي ١١٢٤٥ «مجمع» عبد الجبار، وعبد الله بن عطاء، كلاهما وثق، وضعفهما الجمهور.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٤٤ ومسلم ٩٠١ وأبو داود ١١٩١ والنسائي ١٣٢/٣ والبيهقي ٣٣٨/٣ من حديث عائشة مطوّلاً.

الله ﷻ ليلة أُسْرِىَ به، ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَةِ﴾: شجرة الزقوم^(١). وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عُيينة، به. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهكذا قُسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد. وقد تقدّمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستقصاة، والله الحمد والمثنة. وتقدّم أن ناساً رجفوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وبقيناً لآخرين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا يَشْنَعُ﴾، أي: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل - عليه لعائن الله -: هاتوا لنا تمرأ وزيداً، وجعل يأكل هذا بهذا، ويقول: تزقوموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا. حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغير واحد: وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسرّه كذلك بشجرة الزقوم. وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بثو أمية. وهو غريب ضعیف.

[٤٢٩٢] قال ابن جرير: حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، حدثني أبي، عن جدي قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان يثرون على منبره نزل القروء، فسأه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات، قال: فانزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا شِنَّةً لِلنَّاسِ﴾^(٢). . . الآية، وهذا السند ضعيف جداً، فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي: في الرؤيا والشجرة. وقوله: ﴿وَنَحْوُهُمْ﴾، أي: الكفار بالوعيد والعذاب والثكال، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، أي: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا أَلَدِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس - لعنه الله - لآدم، عليه السلام وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له، ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا أَلَدِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣). قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم. وكلها متقاربة، والمعنى أنه يقول: أرايتك هذا الذي شرفته وعظمت علي، لئن أنظرنتي لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفِزُّ مِنْ أُسْطَعَتْ مِنْهُمْ﴾

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧١٦.

(٢) باطل. أخرجه الطبري ٢٢٤٣٣ معلقاً بقوله «حدثت» وهذه حلة، وأعله ابن كثير أيضاً بالحسن بن زبالة، وأنه متروك، وأن شيخه ضعيف بالكلية والصحيح ما رواه البخاري آنفاً.

يَصَوِّرُكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكِ وَرِجَالِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٢﴾

لما سأل إبليس - عليه اللعنة - النظرة قال الله له: ﴿أَذْهَبْ﴾، فقد أنظرته. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [إلى يوم ألقيت المملوءة] ﴿٨١﴾ [ص: ٨٠ - ٨١]. ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ يَنْهَهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾، أي: على أعمالكم، ﴿جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾. قال مجاهد: وافرأ. وقال قتادة: مَوْفُورًا عليكم، لا ينقص لكم منه. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْهُمْ بِصَوْرِكَ﴾، قيل: هو الغناء، قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْهُمْ بِصَوْرِكَ﴾، قال: كلُّ داع دعا إلى معصية الله عز وجل. وقاله قتادة، واختاره ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكِ وَرِجَالِكَ﴾، يقول: واحمل عليهم بجندك خيالاتهم ورجالتهم؛ فإن الرجل جمع راجل، كما أن الركب جمع راكب، وصحب جمع صاحب. ومعناه: تُسلط عليهم بكل ما تقدر عليه. وهذا أمرٌ قدري، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَذُّعُهُمْ أُنَا﴾ [مریم: ٨٣]، أي: نزعهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكِ وَرِجَالِكَ﴾، قال: كلُّ راكب وماش في معصية الله. وقال قتادة: إنَّ له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه. وتقول العرب: «أَجْلِبَ فلانٌ على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه نُهي في المسابقة عن الجلب والجنب، ومنه اشتقاق الجلبة، وهي ارتفاع الأصوات. وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله [تعالى]. وقال عطاء: هو الرِّبا. وقال الحسن: [هو] جَمْعُهَا من خَبِيثٍ، وإنفاقها في حرام. وكذا قال قتادة. وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أمّا مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حُرِّموا من أنعامهم، يعني من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقاتدة. ثُمَّ قال ابن جرير: والأولى أن يُقال: إن الآية تُعْم ذلك كله. وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾، قال العوفي عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعني أولاد الزنا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قَتَلُوا من أولادهم سَفْهاً بغير علم. وقال قتادة، عن الحسن البصري: قد والله شارَكُهُم في الأموال والأولاد، مَجَسُوا وَهَوَّوْا وَنَصَرُوا وَصَبَّغُوا غير صِبْغَةِ الإسلام، وَجَزَّوْا من أموالهم جزءاً للشيطان. وكذا قال قتادة سواء. وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تَسْيِيئُهُم أولادهم عبد الحارث، وعبد شمس، وعبد فلان. قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كلُّ مولود وَلَدته أنثى عُصِي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله. أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو واده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه، فقد دَخَلَ في مشاركة إبليس فيه مَنْ وُلِدَ ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دُونَ معنى، فَكُلُّ ما عُصِي الله فيه أو به، وأُطِيع فيه الشيطان أو به، فهو مشاركة. وهذا الذي قاله مُتَّبِعُهُ، وكلُّ من السلف - رحمهم الله - فسر بعض المشاركة.

[٤٢٩٣] فقد ثبت في صحيح مسلم، عن عياض بن حمّار أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي خُفَاءً، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم»^(١).

[٤٢٩٤] وفي الصحيحين أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»^(١). وقوله: «وَعِدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا»، كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا خُصِّصَ الحق يوم يُقْضَى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَانْفَلْتُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]... الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، أي: حافظاً ومؤيداً وناصرأ.

[٤٢٩٥] قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن موسى بن وزدان، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيْطَانِيهِ، كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ». يُنْضِي، أي: يأخذ بناصيته ويظهره^(٢).

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَبَنَّوْا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَحِيمًا﴾^(٣)
يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيله لها لمصالح عباده لا بتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم. ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَحِيمًا﴾، أي: إنما فَعَلَ هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾^(٤)
يخبر تبارك وتعالى أنه إذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْهُ مُبِينِينَ إِلَيْهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ذَهَبَ عَنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ مَا تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ [تعالى]، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله ﷺ حين فُتِحَ مَكَّةَ، فذهب هاربًا، فَرَكِبَ فِي الْبَحْرِ لِيَدْخُلَ الْحَبْشَةَ، فجاءهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يُغْنِي عَنْكُمْ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره. اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد، فلاجدنه رؤفًا رَحِيمًا. فخرجوا من البحر، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فأسلم وحسن إسلامه. رضي الله عنه. وقوله [تعالى]: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، أي: نسيتم ما عرفتم من توحيدِهِ فِي الْبَحْرِ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾، أي: سجيته هذا، ينسى النعم ويجهلها، إلا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَفِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾^(٥)
يقول تعالى: أفحسبتم إن يُخْرِجْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَمِنْتُمْ مِنْ انتقامه وعذابه؟ ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَفِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو المَطَرُ الذي فيه حجارة، قاله مجاهد وغير واحد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٤١ و٣٢٧١ ومسلم ١٤٣٤ وأبو داود ٢١٦١ والترمذي ١٠٩٢ وابن ماجه ١٩١٩ وأحمد ١/

٢١٧ وابن حبان ٩٨٣ من حديث ابن عباس.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢/٣٨٠ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده ابن لهيعة ضعيف الحديث، وليس الراوي عنه أحد العبادة، واكتفى الهيثمي في «المجمع» ٤٥٢ بقوله: فيه ابن لهيعة.

عَلَيْكُمْ حَاسِبًا إِلَّا مَالٌ لَّوْلَ مَا كُنْتُمْ بِمَسْكُونٍ ﴿٦٩﴾ [القمر: ٣٤]، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وقال: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْآرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمِزُونَهُ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿٦٧﴾ [الملك: ١٦ - ١٧]. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾، أي: ناصراً يَرُدُّ ذلك عنكم ويُفِذْكم منه. والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُبِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذِلَّةً نَبِيعًا﴾ ﴿٦٩﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَنْ يُبِيدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾، أي: يَهْصِفُ الصَّواري^(١) ويغرق المراكب؛ قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: ﴿فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾، أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذِلَّةً نَبِيعًا﴾، قال ابن عباس: نصيراً. وقال مجاهد: نصيراً ثائراً. أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾

يُخَبِّرُ تعالى عن تَشْرِيفِهِ لبني آدم وتكريمه إياهم، في خَلْقِهِ لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٩٠﴾ [التين: ٤]، أي: يمشي قائماً منتصباً على رجله، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾، أي: على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، أي: من زروع وثمار، ولحوم والبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية [الكرامة] على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة: يا رَبَّنَا، إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون، ولم تُعْطِنَا ذلك فأعطيناه في الآخرة. فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان. وهذا الحديث مرسل^(٢) من هذا الوجه، وقد روي من وجه آخر متصلاً. فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني:

(١) صواري السفينة: هي الأعمدة التي ينصب عليها الشراع.

(٢) قوله مرسل، فيه نظر، فإن زيد بن أسلم لم يروه عن النبي ﷺ، حتى يقال: هو مرسل، ولعل المصنف استدلل على كونه مرسلًا بما بعده، والله أعلم.

[٤٢٩٦] حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد. حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن، فكان»^(١).

[٤٢٩٧] وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي: حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق، سمعت عروة بن رُويم اللخمي، حدثني أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقنا بني آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله عز وجل: لا أجعل من خلقتي بيدي، ونفخت فيه من روحي، كمن قلت له: كن، فكان»^(٢).

[٤٢٩٨] وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر بن سهل، حدثنا عبيد الله بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شفاف، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم. قيل: يا رسول الله. ولا الملائكة؟ قال: ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر»^(٣). وهذا حديث غريب جداً.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاثٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كُتِبَتْ لَهُ يَمِينُهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَرِيلاً﴾ (٧١) وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بئبيهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ (٧٢) [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير، وروى عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاثٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، أي: بكتاب أعمالهم. وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَرُفِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنْزِلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَاذِرُ صِفَرَةً وَلَا كِبْرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَعَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رِيكٌ أَلْحَا﴾ (٧٢) [الكهف: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئٌ كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» كما في «المجمع» ٢٦٥، وقال الهيثمي: فيه إبراهيم ابن عبد الله المصيصي، كذاب متروك، وفي سند «الأوسط» طلحة بن زيد، كذاب أه وناظر ما بعده.

(٢) إسناده ضعيف جداً، فيه محمد بن أيوب الرازي كذبه أبو حاتم كما في الميزان ٧٢٥٨، والأشبه في هذا الخبر، وما قبله، كونهما من كتب الأقدمين، والله أعلم.

(٣) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٢٦٦ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي: فيه عبيد الله بن تمام، وهو ضعيف أه ونقل الذهبي في الميزان ٥٣٤٨ عن البخاري قوله: عنده عن خالد الحذاء عجائب أه وهذا رواه عن خالد فهو من عجائبه.

﴿كُلُّكُمْ قَوْمٌ مِّمَّنْ لَكُمْ آلٌ مِّمَّنْ يَنْتَظِرُونَ﴾ (٧٨) هَذَا كَيْتَبُنَا بِطَلْقِ عَلَيْنَا إِنْ كُنَّا نَسْتَسْتَحْيُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ [الجاثية: ٢٨ - ٢٩]. وهذا لا ينبغي أن يُجاء بالنبي إذا حَكَمَ الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ بِزُورِ رَبِّهَا وَوَضَعَ الْكُتُبَ وَجَاءَ بِالْأَشْهَادِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿كَفَيْكَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. ويَحْتَمِلُ أَنْ المراد ﴿بِأَمِيرٍ﴾ أي: كُلُّ قَوْمٍ مِنْ أُمَّةٍ اتَّخَذُوا بِهِ، فَأَهْلُ الْإِيمَانِ اتَّخَذُوا بِالْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَأَهْلُ الْكُفْرِ اتَّخَذُوا بِأَمِيرِهِمْ، كما قال: ﴿وَمَمْلَأْنَاهُمْ أَهْمَةً يَكْذُوبُونَ إِلَهُ الْأُنْكَارِ﴾ [القصص: ٤١].

[٤٢٩٩] وفي الصحيحين: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» (١). الحديث. ولكن المراد هنا بالإمام هو كتاب الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْرِئِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ يَتَّبِعُوهُ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَحُونَ بِكُتُبِهِمْ﴾، أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَتَّبِعُوهُ يَقُولُ مَا أَزِفُوا كِتَابِي﴾ (٢) إِنْ عَلَنَتْ أَرْفَ مُلْكِي حِسَابِي ﴿٣﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَتَّبِعُوهُ يَقُولُ يَتَّبِعُونِي لَوْ أَنَّ كِتَابِي﴾ (٤) وَلَوْ أَذْرِي مَا حِسَابِي ﴿٥﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٦]. وقوله: ﴿وَلَا يَخْلَعُونَ قَبِيلًا﴾، قد تقدّم أن «الفَيْل» هو الخبط المستطيل في شِقِّ النواة.

[٤٣٠٠] وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن مَعْمَرٍ، ومحمد بن عثمان بن كُرَّامَةَ قَالَا: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْرِئِهِمْ﴾ قَالَ: يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جَسَمِهِ، وَيَبْيَضُّ وَجْهُهُ، وَيَجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ تَتَلَاأُ، فَيَنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيُرَوْنَهُ مِنْ بَعِيدٍ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اثْنِ بِهَذَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي هَذَا. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جَسَمِهِ، وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا، أَوْ: مِنْ شَرِّ هَذَا، اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَخْزِهِ. فَيَقُولُ: أَبْعَدْكُمْ اللَّهُ. فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا (١). ثُمَّ قَالَ الْبَزَارُ: لَا يُزَوَّى إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْيُنٌ فَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَعْيُنٌ وَأَصْلٌ سَيِّئًا﴾ (٢). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ﴾، أي: فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿أَعْيُنٌ﴾ عَنْ حُجَّاجِ اللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْيُنٌ﴾، أي: كَذَلِكَ يَكُونُ، ﴿وَأَصْلٌ سَيِّئًا﴾، أي: وَأَصْلٌ مِنْهُ، كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ اللَّيْلِ أُوحِيََا إِلَيْكَ لِتُفْتَرَىٰ عَلَيْنَا غَيْرُ وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَدْقَنَّكَ ضِعْفُ الْحَيَاةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله - صلوات الله عليه وسلامه - وتثبيتته، وعِصْمَتِهِ وَسَلَامَتِهِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ

(١) هو بعض حديث الروية، أخرجه البخاري ٧٤٣٧ ومسلم ١٨٢ عن أبي هريرة، وسيأتي.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٣٦ وصححه ابن حبان ٧٣٤٩ والحاكم ٢٤٢/٢ - ٢٤٣ وقال: على شرط مسلم، وافقه الذهبي!! مع أن مداره عند الجميع على عبد الرحمن بن أبي كريمة (والد السدي)، وهو مجهول كما قال الحافظ في التقریب. وقال الذهبي في الميزان: ما روى عنه سوى ابنه أهد. لكن وثقه ابن حبان، وحسن الترمذي حديثه هذا. ولهذا الحديث شواهد تعضده وإن حكم غير واحد بضعفه، والله أعلم.

وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفؤه، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (٧٦) سُنَّة مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على النبي ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وتركى سكنى المدينة. وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك. وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر.

[٤٣٠١] روى البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. قال: فصديق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾، فأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث^(١). وفي هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، ولقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقترض وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم.

[٤٣٠٢] ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم، عن غدير بن مغدان، عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ الْقُرْآنُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَكَنَةٍ: مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةَ، وَالشَّامَ»، قال الوليد: يعني بيت المقدس^(٢). وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس. والله أعلم. وقيل: نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف. حتى جمعهم الله وإياه بيدٍ على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم. ولهذا قال: «سُنَّة مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا»، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم ويؤتيهم العذاب،

(١) إسناده ضعيف جداً، والمثل باطل. أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٢٥٤/٥. وفي إسناده: عبد الرحمن بن غنم يختلف في صحبته، وعده المجلي في ثقات التابعين. وفيه أيضاً: العطاردي، ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٤٣ وقال: ضعفه غير واحد، وقال ابن عدي: أجمعوا على ضعفه، وقال الدارقطني: لا بأس به، وكتبه مطيع، واهمه ابن عقدة، والحديث ذكره الواحدى ٥٨٥ بدون إسناد. وأنكره القرطبي وذكر أن الآية مكية، والخطاب يتناول كفار قريش، راجع كلامه عند هذه الآية.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٧٧١٨ من حديث أبي أمامة، وأعله الهيثمي ١١٦٢٠ بضعف غير بن معدان، ولكن للحديث علة أخرى، الوليد هو ابن مسلم يدلّس التسوية، وقد عنعن.

ولولا أنه عليه الصلاة والسلام رسول الرحمة لجاهم من النقم في الدنيا ما لا يقبل لأحد به . ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفُ يَوْمٍ عَلَيْهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ يَوْمٍ لَهُمْ يُسْأَلُونَ عَنْهُمُ يُعَذِّبُهُمْ وَمَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

﴿أَفِرَّ الصَّلَاةَ لِذُلِّكَ أَشْسَ إِلَى عَسَى أَلَيْلٍ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَبِئْنَ أَلَيْلٍ فَتَهَاجَدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٩)

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أمرأ له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها : ﴿أَفِرَّ الصَّلَاةَ لِذُلِّكَ أَشْسَ﴾ قيل لغروبها . قاله ابن مسعود ، ومجاهد ، وابن زيد . وقال هُشيم ، عن مغيرة ، عن الشعبي ، عن ابن عباس ؛ ذلوكها : زوالها . ورواه نافع ، عن ابن عمر . ورواه مالك في تفسيره ، عن الزهري ، عن ابن عمر . وقاله أبو بزة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود ، ومجاهد . وبه قال الحسن ، والضحاك ، وأبو جعفر الباقر ، وقائدة . واختاره ابن جرير .

[٤٣٠٣] ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حُميد ، عن الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن ابن أبي ليلى ، عن رجل ، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : دعوتُ رسولَ الله ﷺ ومن شاء من أصحابه ، فطعمُوا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرجَ النبي ﷺ فقال : اخرج يا أبا بكر ، فذاك حين ذلكت الشمس^(١) . ثم رواه عن سهل بن بكر ، عن أبي عوانة ، عن الأسود بن قيس ، عن نُبَيْح العَنَزِيِّ ، عن جابر - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ ، نحوه . فعلى هذا تكون هذه الآية دَخَلَ فيها أوقات الصلوات الخمسة ، فمن قوله : ﴿لِذُلِّكَ أَشْسَ إِلَى عَسَى أَلَيْلٍ﴾ - وهو : ظلامه ، وقيل : غروبُ الشمس - أَخَذَ منه الظهْرُ والعصرُ والمغربُ والعشاءُ . وقوله : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ ، يعني : صلاة الفجر . وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله ، بتفاصيل هذه الأوقات ، على ما عليه عمل أهل الإسلام اليوم ، مما تَلَفَّوه خلفاً عن سلف ، وقرناً بعد قرن ، كما هو مُقَرَّر في مواضعه ، والله الحمد . ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ .

[٤٣٠٤] قال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود - وعن أبي صالح ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في هذه الآية : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ، قال : «تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار»^(٢) .

[٤٣٠٥] وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن أبي سلمة - وسعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «فُضِّلَ صلاةُ الجميع على صلاة الواحد خمسَ وعشرون درجةً ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر» . يقول أبو هريرة - رضي الله عنه - : اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٣) .

[٤٣٠٦] وقال الإمام أحمد : حدثنا أسباط ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ وحدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في قوله : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ .

(١) ضعيف . أخرجه الطبري ٢٢٥٨٣ برواية : «اخرج يا أبا بكر ، قد ذلكت الشمس» ، وفي إسناده : راو لم يسم ، وكرره ٢٢٥٨٤ بسند فيه مجهول .

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٥٩٤ وفيه أسباط بن محمد غير قوي ، والراجح وقفه .

(٣) صحيح . أخرجه البخاري ٦٤٨ ومسلم ٦٤٩ ح ٢٤٦ .

أَلْفَجْرِ كَأَنَّهُ مَشْهُودٌ» قال: تشهد ملائكة الليل، وملائكة النهار^(١). ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ثلاثهم عن عُبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٤٣٠٧] وفي لفظ في الصحيحين، من طريق مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَنْعُرُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(٢). وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء. وكذا قال إبراهيم النخعي، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد في تفسير هذه الآية.

[٤٣٠٨] وأما الحديث الذي رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَا هُنَا، مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ زِيَادَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ حَدِيثَ النُّزُولِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرْ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي أُعْطِهِ، مَنْ يَذْعُنِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ». فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: «وَقَرَأَ الْفَجْرَ إِنَّ الْفَجْرَ كَأَنَّهُ مَشْهُودٌ»، فَيَشْهَدُ اللَّهُ، وَمَلَائِكَةُ اللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ^(٣) فَإِنَّهُ تَقَرَّدَ بِهِ زِيَادَةُ، وَلَهُ بِهَذَا حَدِيثٍ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ.

وقوله تعالى: «وَمَنْ أَلْبَسَ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ»، أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة.

[٤٣٠٩] كما وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ قَالَ: «صَلَاةُ اللَّيْلِ»^(٤). وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ بَعْدَ الْمَكْتُوباتِ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّ التَّهَجُّدَ مَا كَانَ بَعْدَ نَوْمٍ. قَالَه عُلُقَمَةُ، وَالْأَسْوَدُ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ. وَكَذَلِكَ ثَبَتَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتَهَجَّدُ بَعْدَ نَوْمِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَائِشَةَ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هُوَ مَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ. وَيُحْمَلُ عَلَى مَا بَعْدَ النَّوْمِ. وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «نَافِلَةً لَكَ»، فَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّكَ مَخْصُوصٌ بِوَجُوبِ ذَلِكَ وَحْدَكَ، فَجَعَلُوا قِيَامَ اللَّيْلِ وَاجِبًا فِي حَقِّهِ دُونَ الْأَمَةِ. رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَهُوَ أَحَدُ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ، وَأَحَدُ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: إِنَّمَا جُعِلَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي حَقِّهِ نَافِلَةً عَلَى الْخُصُوصِ، لِأَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِنَّمَا يُكْفَرُ عَنْهُ صَلَوَاتُهُ النَّوَافِلُ الذُّنُوبُ الَّتِي عَلَيْهِ. قَالَه مُجَاهِدٌ، وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه الترمذي ٣١٣٥ والنسائي في «التفسير» ٣١٣ وابن ماجه ٦٧٠ وأحمد ٤٧٤/٢ وإسناده غير قوي لأجل أسباط بن محمد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥ ومسلم ٦٣٢ والنسائي ٢٤٠/١ وأحمد ٤٨٦/٢ وابن حبان ١٧٣٧.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٢٥٩٥ من حديث أبي الدرداء. وفي إسناده زيادة بن محمد الأنصاري، قال الحافظ في «التقريب»: منكر الحديث. وذكره الذهبي في «الميزان» ٢٩٨٨ بهذا الحديث، وقال: فهذه ألفاظ منكورة، لم يأت بها غير زيادة. قال البخاري والنسائي: منكر الحديث.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١١٦٣ وأبو داود ٢٤٢٩ والنسائي ٢٠٧/٣ وابن ماجه ٧٤٢ وأحمد ٣٠٣/٢ و٣٢٩ وأبو يعلى ٦٣٩٢.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، أي: افعلْ هذا الذي أمرتْك به لِتُقيمَكَ يوم القيامة مقاماً يَحْمَدُكَ فيه الخلاق كلُّهم وخَالِفَهُمْ تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يَقُومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربُّهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

ذُكِرَ من قال ذلك: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن صِلَّةَ بن زفر، عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: يُجْمَعُ الناسُ في صعيد واحد، يُسمِعُهُم الداعي وَيَنْفُذُهُم البصر، خُفَاءَ عَرَاءَ كما خُلِقُوا قياماً، لا تكلّم نفس إلا بإذنه، ينادى: يا محمد، فيقول: لبيك وسعديك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سُبْحَانَكَ رَبِّ البيت. فهذا المقام المحمود الذي ذَكَرَهُ الله تعالى. ثم رواه عن بُنْدَار، عن عُندَر، عن شعبة، عن أبي إسحاق، به. وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق، به. وقال ابن عباس: المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد، وقاله الحسن البصري. وقال قتادة: هو أول من تَنَشَّقُ عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

قلت: لرسول الله ﷺ تشريفات لا يَشْرُكُهُ فيها أحدٌ، وتشريفات لا يُساويه فيها أحدٌ، فهو أول من تَنَشَّقُ عنه الأرض، ويبعث ركباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقِفِ أكثر واردةً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله لِيَأْتِيَهُ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بين الخلاق، وذلك بعدما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لست لها، حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها»^(١)، كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أُمِرَ بهم إلى النار، فَيُرْثَوْنَ عنها. وهو أول الأنبياء يَقْضِي بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شَفِيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصُّور^(٢): أن المؤمنين كلُّهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها وأمه قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تَبْلُغُها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة في العَصَا تَشْفَعُ الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلاق لا يَعْلَم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يُساويه في ذلك. وقد بَسَطْتُ ذلك مُسْتَقْصَى في آخر كتاب «السيرة» في باب الخصائص، والله الحمد والمثنة.

وَلْتَذَكَّرِ الْآنَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وبالله المستعان:

[٤٣١٠] قال البخاري: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي، سمعتُ ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: إن الناس يعبرون يوم القيامة جُثّاً، كل أمة تتبع نبيّها، يقولون: «يا فلان اشفع، يا فلان اشفع»، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً^(٣). ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ.

(١) تقدم مراراً.

(٢) تقدم تخريجه باستيفاء، وهو حديث مطول.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧١٨.

[٤٣١١] قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا شُعَيْب بن الليث، حَدَّثَنِي الليث، عن عُبيد الله بن أبي جعفر أنه قال: سَمِعْتُ حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سَمِعْتُ عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأَذْنِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَيَقُولُ: لَسْتُ صَاحِبَ ذَلِكَ. ثُمَّ بِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَيَقُولُ كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحُلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمِئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَاماً مَحْمُوداً»^(١).

[٤٣١٢] وهكذا رواه البخاري في «الزكاة» عن يحيى بن بُكَيْر وعبد الله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد، به: وزاد: «فَيَوْمِئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَاماً مَحْمُوداً، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ كُلُّهُمْ»^(٢).

[٤٣١٣] قال البخاري: وحدثنا علي بن عَيَّاش، حدثنا شُعَيْب بن أَبِي حَمْزَةَ، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ، رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ النَّامِيَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتَ مُحَمَّدٌ الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَهُ - حَلَّتْ لَهُ شِفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣). انفرد به دون مسلم.

[٤٣١٤] حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زُهَيْر بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ الْأَنْبِيَاءِ وَخُطَيْبِهِمْ، وَصَاحِبَ شِفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فُخْرٍ»^(٤). وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عامر عبد الملك بن عَمْرٍو الْعَقْدِيُّ، وقال: «حديث حسن صحيح». وابن ماجه، من حديث عبد الله بن محمد بن عَقِيل، به.

[٤٣١٥] وقد قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ «أَبِي بَنِي كَعْبٍ» فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي آخِرِهِ: فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخْرُثُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ الْخَلْقُ، حَتَّى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٥).

[٤٣١٦] حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، حدثنا قتادة، عن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْهَمُونَ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَأَرَاخَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ: لَسْتُ هُنَاكَ. وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ الَّذِي أَصَابَ، فَيَسْتَجِجِي رَبُّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: وَلَكِنْ اتَّوَاثُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ: لَسْتُ

(١) صحيح. أخرجه الطبري ٢٢٦٣٧ وإسناده صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٧٤ - ١٤٧٥.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦١٤ وأبو داود ٥٢٩ والترمذي ٢١١ والنسائي ٢٦/٢ - ٢٨ وأحمد ٣/٣٥٤ وابن حبان ١٦٨٩.

(٤) أخرجه الترمذي بإثر ٣٦١٣ وابن ماجه ٤٣١٤ وأحمد ٦/١٣٧ و١٣٨ وإسناده غير قوي من أجل عبد الله بن محمد بن عَقِيل، لكن يشهد لمعناه أحاديث الباب، وانظر صحيح ابن ماجه ٣٤٨٢.

هناكم، ويذكر خطيئة سؤاله ربه - عز وجل - ما ليس له به علم، فَيَسْتَجِيبُ رَبُّهُ مِنْ ذَلِكَ، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناك، ولكن اتوا موسى، عِندَ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويذكر لهم النفس التي قَتَلَ بغير نفس، فَيَسْتَجِيبُ رَبُّهُ - عز وجل - من ذلك، ولكن اتوا عيسى، عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه. فيأتوني - قال الحسنُ هذا الحرف: فأقوم فأمشي بين محمداً ﷺ عبداً عَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ. فيأتوني - قال الحسنُ هذا الحرف: فأقوم فأمشي بين سيماطين من المؤمنين - قال أنس: حتى استأذِنَ على ربي، فإذا رأيت ربي وَقَعْتُ لَهُ - أو - خَرَزْتُ - ساجداً لربي، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، قال: ثم يقال: ارفع محمداً، قُلْ تَسْمَعُ، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يُعَلِّمْنِيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة. ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت - أو خَرَزْتُ - ساجداً لربي، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، ثم يقال: ارفع محمداً، قُلْ تَسْمَعُ، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعَلِّمْنِيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة. ثم أعود إليه الثالثة؛ فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خَرزت - ساجداً لربي، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، ثم يقال: ارفع محمداً، قُلْ تَسْمَعُ، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعَلِّمْنِيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة. قال: ثم أعود الرابعة فأقول: يا رب، ما بقي إلا من حَبَسَهُ الْقُرْآنُ. فحدثنا أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ بُرَّةً. ثم يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ شَعِيرَةً، ثم يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ ذَرَّةً^(١). أخرجاه في الصحيح من حديث سعيد، به. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عَفَّانَ، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله.

[٤٣١٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حَزْبُ بْنُ مَيْمُونٍ أَبُو الْخَطَّابِ الْأَنْصَارِيُّ، عن الثَّوْرِيِّ بْنِ أَنَسٍ، عن أنس - رضي الله عنه - حَدَّثَنِي نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لِقَائِمٌ أَنْتَظِرُ أَمْتِي تَعْبُرُ الصُّرَاطَ، إِذْ جَاءَنِي عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: هَذِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَدْ جَاءَتْكَ يَا مُحَمَّدُ يَسْأَلُونَ - أَوْ قَالَ: يَجْتَمِعُونَ إِلَيْكَ - وَيَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ، لَيْتَمَ مَا هُمْ فِيهِ، فَالْخَلْقُ مُلْجَمُونَ بِالْعِرْقِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ عَلَيْهِ كَالزُّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَغْشَاهُ الْمَوْتُ. فَقَالَ: أَنْتَظِرُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ. فَذَهَبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَلَقِي مَا لَمْ يَلْقَ مَلَكٌ مُصْطَفًى وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، فَأَوْحَى اللَّهُ - عز وجل - إِلَى جِبْرِيلَ: أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَقُلْ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلِّ تَعَطَّهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ. فَشَفَعْتُ فِي أَمْتِي: أَنْ أُخْرِجَ مِنْ كُلِّ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا وَاحِدًا، فَمَا زِلْتُ أَتَرَدَّدُ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا أَقُومُ مِنْهُ مَقَامًا إِلَّا شَفَعْتُ، حَتَّى أَعْطَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ذَلِكَ، أَنْ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَذْخِلْ مِنْ أَمَّتِكَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ - عز وجل - مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمًا وَاحِدًا مُخْلِصًا، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ»^(٢).

[٤٣١٨] حديث بُرَيْدَةَ - رضي الله عنه -: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: حَدَّثَنَا الْأَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْرَائِيلَ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ حَصِيرَةَ، عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى معاوية - رضي الله عنه - فَإِذَا رَجُلٌ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ بُرَيْدَةُ: يَا معاويةُ، إِذْنٌ لِي فِي الْكَلَامِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ سَيَتَكَلَّمُ بِمِثْلِ مَا قَالَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤٧٦ و٦٥٦٥ ومسلم ١٩٣ وأحمد ١١٦/٣ وابن حبان ٦٤٦٤.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٧٨/٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٧٣/١٠ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

الآخر، فقال بريدة: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَشْفَعَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَدَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ وَمَدْرَةٍ». قَالَ: فَتَرْجُوهَا أَنْتَ يَا معاوية ولا يرجوها علي رضي الله عنه؟^(١)

[٤٣١٩] حديث ابن مسعود - رضي الله عنه -: قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البُناني، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: جاء ابنا مُلَيْكَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَا: إِنَّ أُمَّنَا كَانَتْ تُكْرِمُ الزَّوْجَ، وَتَغْطِفُ عَلَى الْوَلَدِ، قَالَ: وَذَكَرَ الضَّيْفَ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ وَأَدَّتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالَ: أَتُكْمَا فِي النَّارِ. قَالَ: فَأَدْبِرَا وَالسُّوءَ يُرَى فِي وَجْهِهِمَا، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرَدَا، فَرَجَعَا وَالسُّرُورُ يُرَى فِي وَجْهِهِمَا؛ رَجَاءُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَثَ شَيْءٌ، فَقَالَ: أُمِّي مَعَ أَمْكَمَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: وَمَا يُغْنِي هَذَا عَنْ أُمِّهِ شَيْئاً وَنَحْنُ نَطْعُ عَقِبَهُ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - وَلَمْ أَرِ رَجُلًا قَطُّ أَكْثَرَ سُؤَالَ مِنْهُ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ وَعَدَكَ رَبُّكَ فِيهَا أَوْ فِيهِمَا؟ قَالَ: فَظَنَّ أَنَّهُ مِنْ شَيْءٍ قَدْ سَمِعَهُ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ رَبِّي، وَمَا أَطْمَعَنِي فِيهِ، وَإِنِّي لَأَقُومُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا ذَاكَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ؟ قَالَ: ذَاكَ إِذَا جِئَ بِكُمْ حُفَاةَ غُرَاةٍ غُرْلًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقول: اكْسُوا خَلِيلِي. فَيُؤْتِي بِرِيطَيْنِ بَيَضَاوَيْنِ، فَيَلْبَسُهُمَا ثُمَّ يَقْعِدُهُ مُسْتَقْبِلَ الْعَرْشِ، ثُمَّ أُوْتِيَ بِكِسْوَتِي فَالْبَسَهَا، فَأَقُومُ عَنْ يَمِينِهِ مَقَاماً لَا يَقُومُهُ أَحَدٌ، فَيَغِيطُنِي فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ. [قَالَ] وَيَفْتَحُ لَهُمْ نَهْرٌ مِنَ الْكُوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ. فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّهُ مَا جَرَى مَاءٌ قَطُّ إِلَّا عَلَى حَالٍ أَوْ رَضْرَاضٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: حَالُهُ الْمَسْكُ، وَرَضْرَاؤُهُ الثُّومُ. قَالَ الْمُنَافِقُ: لَمْ أَسْمَعْ كَالْيَوْمِ. فَإِنَّهُ قَلَمًا جَرَى مَاءٌ قَطُّ عَلَى حَالٍ أَوْ رَضْرَاضٍ إِلَّا كَانَ لَهُ نَبْتَةٌ. فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَهُ نَبْتُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قُضْبَانُ الذَّهَبِ. قَالَ الْمُنَافِقُ: لَمْ أَسْمَعْ كَالْيَوْمِ، فَإِنَّهُ قَلَمًا يَنْبُتُ قُضْبٌ إِلَّا أَوْرَقَ، وَإِلَّا كَانَ لَهُ ثَمَرٌ. فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَهُ ثَمَرَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَلْوَانُ الْجَوْهَرِ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ، وَمَنْ حُرِمَهُ لَمْ يَزَوْ بَعْدَهُ^(٢).

[٤٣٢٠] وقال أبو داود الطيالسي؛ حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن أبي الزعرارة، عن عبد الله - رضي الله عنه - قال: ثم يأذن الله - عز وجل - في الشفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى - قال أبو الزعرارة: لا أدري أيُّهما - قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحدٌ بعده أكثر مما شفّع، وهو المقام المحمود الذي قال الله عز وجل: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٣).

[٤٣٢١] حديث كعب بن مالك - رضي الله عنه -: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثني محمد بن حَرْبٍ، حدثنا الزبيدي، عن الزُّهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ،

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣٤٧/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٧٨/١٠ وقال: رواه أحمد، ورجاله وثقوا على ضعف كثير في أبي إسرائيل الملائتي.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٣٩٨/١ - ٣٩٩ والطبراني ١٠٠١٧ والبيهقي ٣٤٧٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٦١/١٠ - ٣٦٢ وقال: وفي أسانيدهم كلهم عثمان بن عمير، وهو ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف لضعف يحيى بن سلمة بن سهل، وفي الباب أحاديث تغني عنه.

ويكسوني ربّي - عز وجل - حُلَّة خضراء . ثم يؤذّن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود^(١).

[٤٣٢٢] حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - : قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول من يؤذّن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذّن له أن يرفع رأسه، فانظر إلى ما بين يديّ، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك. فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غرّ مُحَجَّلُونَ من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتُونَ كُتُبَهُم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذُرِّيَتُهُمْ»^(٢).

[٤٣٢٣] حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - : قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حيان، حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فتَهَس منها تهسة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يَجْمَعُ الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعُهُم الداعي وَيَنْفُذُهُم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيّفون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم. فيأتون آدم - عليه السلام - فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلّقك الله بيده، ونفّخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا تَرَى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فَعَصَيْتُهُ. نفسي، نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح عليه السلام. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليئه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا تَرَى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته. نفسي، نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى عليه السلام. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالته ويتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا تَرَى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلْتُ نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. قال: هكذا هو. وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤٥٦/٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥١/٧ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد ١٩٩/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٤٤/٧ وقال: ورجاله أحمد رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو ضعيف وقد وثق اهـ ولأصل الحديث شواهد يقوى بها.

عيسى: إن ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. ولم يَذْكُرْ ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ فَيَاتُونِي فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غَفَرَ الله لك ما تَقَدَّمَ من ذنبك وما تَأَخَّر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بَلَّغْنَا؟ فَأَقُومُ فَأَتِي تحت العرش، فَأَقْعُ ساجداً لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثم يفتح علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه وشيئاً لم يفتحهُ علي أحد قبلي فيقال يا محمد: ارفع رأسك، وَسَلِّ ثَعْلَةً، واشفع تُشْفَعُ. فأقول: يا رَبِّ، أُمْتِي أُمْتِي. يا رَبِّ، أُمْتِي أُمْتِي. يا رَبِّ، أُمْتِي أُمْتِي. فيقال: يا محمد، أَدْخِلْ من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سِوَاهُ من الأبواب. ثم قال: والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَمَّا بين مضراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وَهَجَرَ، أو كما بين مكة وَبُضْرَى^(١) أخرجاه في الصحيحين.

[٤٣٢٤] وقال مسلم - رحمه الله -: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِشْلُ بن زياد، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حَدَّثَنِي عبد الله بن قُروخ، حدثني أبو هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ من ينشق عنه القبر، وَأَوَّلُ شافع، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»^(٢).

[٤٣٢٥] وقال ابن جرير: حدثنا أبو كَرِيب، حَدَّثَنَا وَكِيع، عن داود بن يزيد الزعافري، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»، سنل عنها فقال: هِيَ الشَّفَاعَةُ^(٣).

[٤٣٢٦] ورواه الإمام أحمد عن وكيع ومحمد بن عُبَيْد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»، قال: هو المقام الذي أَشْفَعُ لأُمْتِي فِيهِ^(٤).

[٤٣٢٧] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن علي بن الحُسَيْن قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، مَدَّ اللهُ الأَرْضَ مَدَّ الأَدِيمِ، حَتَّى لَا يَكُونَ لِبَشَرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَوْضِعٌ قَدِيمِهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَكُونُ أَوَّلَ من يُدْعَى، وَجِبْرِيلُ عن يمين الرحمن، والله ما رَأَاهُ قَبْلَهَا، فَأَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، إِنْ هَذَا أَخْبَرَنِي أَنْكَ أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ. فيقول الله عزَّ وَجَلَّ -: صدق، ثم أَشْفَعُ. فأقول: يا رَبِّ، عِبَادُكَ عَبَدُوكَ فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ. قال: فَهُوَ المقام المحمود»^(٥). وهذا حديث مرسل.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١﴾

[٤٣٢٨] قال الإمام أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظَبْيَانَ، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٠ ومسلم ١٩٤ والترمذي ٢٤٣٤ وأحمد ٤٣٥/٢ - ٤٣٦ وابن حبان ٦٤٦٥.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢٦٣٤ وإسناده ضعيف لضعف داود بن يزيد.

(٤) أخرجه أحمد ٤٤١/٢ و٥٢٨ وإسناده ضعيف كسابقه.

(٥) ضعيف، أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٦١٤ وعنه الطبري ٢٢٦٣٩ و٢٢٦٤٠ عن علي بن الحسين رضي الله عنهما، وهو مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، والغريب فيه لفظ «ما رآه قبلها» وبقيّة المتن له شواهد تقويه. والله أعلم.

النبي ﷺ بمكة ثم أُمير بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُلْ رَبِّي أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (١).

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفر أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطرُدوه أو يؤثفوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله - عز وجل -: ﴿وَقُلْ رَبِّي أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾. وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّي أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، يعني المدينة، ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾، يعني مكة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، يعني الموت، ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾، يعني الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾، قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس، وليجعل له، وعز الروم وملك الروم، وليجعل له. وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله؛ فوال سلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدتهم ضعيفهم. وقال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: حجة بينة. واختار ابن جرير قول الحسن وقاتدة، وهو الأرجح، لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

[٤٣٢٨ م] وفي الحديث: «إن الله لينزع بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن» (٢). أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تهديد ووعد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا ميزة فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزهق باطلهم، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

[٤٣٢٩] وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي مغيرة، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نضب، فجعل يقطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبِيدُ﴾ (٣) [سبا: ٤٩]. وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي، كلهم من طريق عن سفيان بن عيينة، به. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري، عن ابن أبي نجيح. [٤٣٣٠] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شبابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر - رضي الله عنه - قال: دخلنا مع النبي ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً يعبدون من دون

(١) أخرجه أحمد ٢٢٣/١ وإسناده ضعيف لضعف قابوس.

(٢) ورد عن عثمان من قوله، وكذا عن عمر، وليس بمرفوع.

(٣) والحديث صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٧٨ و٤٧٢٠ ومسلم ١٧٨١ والترمذي ٣١٣٨ وأحمد ٣٧٧/١ وابن حبان ٥٨٦٢.

الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فَأُجِيبَتْ لوجهها، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١).

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٨٣)

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد - إنه ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، القرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق به واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكديباً وكفرًا. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي هَدَىٰ نَاسَنَا هَٰذَا وَنَبِّئُهُمْ بِمَا هُمْ فَعَلُوا﴾^(٨٤)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا الْخُسَارَىٰ﴾^(٨٥)، أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يبعيه، فإن الله تعالى جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾^(٨٦) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ

فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾^(٨٧)

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، ﴿أَعْرَضَ﴾ عن طاعة الله تعالى وعبادته ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾، قال مجاهد: بُعد عنا. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَثَفْنَا عَلَيْهِ ضَرَرٌ مِّمَّا كَانُوا يَمْنَنَ﴾^(٨٨)، قال مجاهد: يونس: ١٢، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَخَسَّدَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾^(٨٩) [الإسراء: ٦٧] - وبأنه إذا مسه الشر، وهو المصائب والحوادث والنوائب، ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾، أي: قَبِطَ أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كما قال: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كَافِرٌ﴾^(٩٠)، ولكن أذقته نعمته بعد ضرائه مسته ليقول: ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنْهُ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ^(٩١)، إِلَّا الَّذِينَ صَدُّوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ^(٩٢) [هود: ٩ - ١١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ﴾، قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على جذبه وطبيعته. وقال قتادة: على نيته. وقال ابن زيد: دينه. وكل هذه الأقوال مُتَقَارِبَةٌ في المعنى. وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾^(٩٣) وَأَنْتُمْ بِأَعْيُنِنَا إِنَّا مُنْظِرُونَ^(٩٤) [هود: ١٢١ - ١٢٢]. ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾^(٩٥)، أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله، فإنه لا يخفى عليه خافية.

﴿وَسَخَّلُونَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٩٦)

[٤٣٣١] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله - هو ابن مسعود، رضي الله عنه - قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَزْثٍ في المدينة، وهو مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَصِيْبٍ^(١)، فَمَرَّ بِقَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ. قَالَ: فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، مَا الرُّوحُ؟ فَمَا زَالَ مُتَوَكِّئًا عَلَى الْعَصِيْبِ، قَالَ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَسْتَئْتِلُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢). قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ قُلْنَا لَكُمْ لَا تَسْأَلُوهُ^(٣). وهكذا رواه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش، به.

[٤٣٣٢] ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حَزْثٍ، وهو مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَصِيْبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا زَأْبَكُمْ إِلَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا: سَلُّوهُ فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَسْتَئْتِلُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾... الآية^(٣). وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بإدبي الرأي أَنَّ هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كُلُّهَا مكية. وقد يُجَابُ عن هذا بأنها قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرَّةً ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه وَخِي بِأَن يُجِيبَهُمْ عَمَّا سَأَلُوا بِالْآيَةِ الْمُتَقَدِّمِ إِنْزَالَهَا عَلَيْهِ، وهي هذه الآية: ﴿وَسْتَئْتِلُوكَ عَنِ الرُّوحِ﴾.

[٤٣٣٣] ومما يُدَلُّ على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نَسْأَلُ عَنْهُ هَذَا الرَّجُلَ. فَقَالُوا: سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَسَأَلُوهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَسْتَئْتِلُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤)، قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتيت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. قال: وأنزل الله: ﴿قُلْ لَوْ كَانُ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(٥) [الكهف: ١٠٩].

[٤٣٣٤] وقد روى ابنُ جرير، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الرُّوحِ، فأنزل الله: ﴿وَسْتَئْتِلُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥)، فقالوا: أنزعْ أنا لم نُؤْتِ من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة، وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. قال: فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ مِثْمَةً أَبْحَرَ مَا نَفِذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(٥) [لقمان: ٢٧]، قال: ما أُوتِيتُمْ من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل.

(١) العصية: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٥ ومسلم ٢٧٩٤ والترمذي ٣١٤٠ وأحمد ٤٤٤/١ وأبو يعلى ٥٣٩٠.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢١، وانظر الحديث المتقدم.

(٤) والحديث أخرجه الترمذي ٣١٣٩ وأحمد ٢٥٥/١ وأبو يعلى ٢٥٠١ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. قلت: هو من رواية داود بن حصين عن عكرمة، وهي ضعيفة. ومع ذلك صحيح إسناده الألباني في صحيح الترمذي ٢٥١٠.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢٦٧٧ وهذا مرسل، وهو من رواية داود عن عكرمة.

[٤٣٣٥] وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَا أَوْتِيَتْهُ مِنَ الْغَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحرار يهود فقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَا أَوْتِيَتْهُ مِنَ الْغَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أفعتين أم عنيبت قومك؟ فقال: كلاً قد عنيبت. قالوا: فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: هي في علم الله قليل، وقد أتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم، وأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَمْدِهِ مَبْعُودٌ أَجْمَعٌ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ها هنا على أقوال، أحدها: أن المراد بالروح أرواح بني آدم.

[٤٣٣٦] قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسْتَئْتُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾... الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا ما الروح؟ وكيف تُعَذَّب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يُحْزِ إليهم شيئاً. فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيَتْهُ مِنَ الْغَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: جاءني به جبريل من عند الله؟ فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدو لنا. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عِدْوًا لِيَعْنِيْلَ فَإِنَّهُ رَزَّاهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٢) [البقرة: ٩٧]، الآية. وقيل: المراد بالروح ها هنا جبريل. قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقيل: المراد به ها هنا ملك عظيم يقدر المخلوقات كلها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَسْتَئْتُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، يقول: الروح ملك (٣).

[٤٣٣٧] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُرْسٍ المِصْرِي، حدثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ مَلَكًا، لو قيل له: التقم السموات السبع والأرضين بِلَقَمَةٍ واحدة، لفعل، تسيبُحه: سبحانك حيث كنت» (٤). وهذا حديث غريب، بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثنا أبو هُرَازَنَ يَزِيدُ بن سَمُرَةَ صاحب قيسارية، عَمَّنْ حدثه، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال في قوله: ﴿وَسْتَئْتُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، قال: هو مَلَكٌ من الملائكة، له سبعون ألف وجه، في كل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها سبعون ألف لغة، يُسَبِّحُ الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة (٥). وهذا أثر غريب عجيب، والله أعلم.

وقال السهيلي: رُوِيَ عن علي أنه قال: هو مَلَكٌ، له مائة ألف رأس، لكل رأس مائة ألف وجه، لكل

(١) هو مرسل، ومع إرساله فيه مجاهيل.

(٢) والحديث أخرجه الطبري، وفيه عطية العوفي، ضعيف.

(٣) هذا بعيد جداً يعارض الأحاديث الصحيحة التي تقدمت آنفاً.

(٤) باطل، والثن منكر، أخرجه الطبراني ١١٤٧٦ وفي «الأوسط» ٦٤٣٨، وقال: تفرد به وهب الله بن رزق، قال الهيثمي ٢٥٤: ولم أر من ذكر له ترجمة أه فهو مجهول، والحمل عليه في هذا الحديث، فإنه من الإسرائيليات بلا ريب وقد ساقه من طريق الأوزاعي بإسناد كالشمس.

(٥) لا يصح عن علي. أخرجه أبو الشيخ في «المعظمة» ٤١٠ وفيه مجاهيل، والأشبه أنه من الإسرائيليات، فقد أسنده أبو الشيخ ٤٠٧ عن وهب بن منبه، وهو أصح، وهب روى الكثير عن كتب الأقدمين.

وجوه مائة ألف فم، في كل فم مائة ألف لسان، يُسَبِّحُ الله بلغاتٍ مختلفة. قال السهيلي: وقيل: المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم. وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم. وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يُحِيطُ أَحَدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى. والمعنى: أنْ عِلْمُكُمْ في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يُطْلِعْكم عليه، كما أنه لم يُطْلِعْكم إلا على القليل من علمه تعالى.

[٤٣٣٨] وسياتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر «أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر في البحر نقرة، أي: شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى، ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر». أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقال السهيلي: قال بعض الناس: لم يجبهم عما سألوا، لأنهم سألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم. وعول السهيلي على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: من شرعه، أي: فادخلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما يُنال من جهة الشرع. وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر، والله أعلم.

ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس، أو غيرها، وقَرَّرَ أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عُروق الشجر. وقَرَّرَ أن الروح التي ينفخها المَلَكُ في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكتسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعَبْثَةِ وعَصِرَ منها صار إما مُضْطَاراً^(١) أو خمرأ، ولا يقال له: «ماء» حينئذٍ إلا على سبيل المجاز. وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما نقول أن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مُركَّبَةٌ منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كُلِّ وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم. قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها وصفوها في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منذر في كتاب سمعناه في الروح.

﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧﴾ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: تطرق الناس ريع حمراء - يعني في آخر الزمان - من قبل الشام، فلا يبقى في مُصحف رجل ولا في قلبه آية،

ثم قرأ ابن مسعود - رضي الله عنه - : ﴿وَلَيْنِ شَيْئًا لَّنْذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ... الآية . ثم نُبّه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم ، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله ، لما أطاقوا ذلك ولا استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظاهروا ، فإنّ هذا أمر لا يستطيع ، وكيف يُشبه كلام المخلوقين كلام الخالق ، الذي لا نظير له ، ولا مثال له ، ولا غديل له . وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس - رضي الله عنه - : أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود ، جاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا له : إنّنا نأتيك بمثل ما جئتنا به ، فأنزل الله هذه الآية . وفي هذا نظر ؛ لأنّ هذه السورة مكيّة ، وسيافها كلّ مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة ، فالله أعلم . وقوله : ﴿وَلَقَدْ صَرَقْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ، أي : بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضّحنا لهم الحقّ وشرحناه وبسطناه ، ومع هذا ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ، أي : جحوداً للحقّ وردّاً للضّواب .

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ﴾ (٩٠) **أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ**
الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَيَجْري مِنْهَا سُرَّةٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۖ كَذِبًا ۖ (٩١) **أَوْ تَنْصَلِقَ الْأَسْمَاءُ ۖ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِغًا يَأْتِي اللَّهَ وَالْمَلَائِكَةَ قِيَلًا ۖ** (٩٢)
أَوْ يَكُونُ لَكَ يَبْتُ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْيِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ (٩٣)

[٤٣٣٩] قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني شيخ من أهل مصر قديم منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلاً من بني عبد الدار ، وأبا البختريّ أخا بني أسد ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأمّية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وثبيها ومُتَبِّها ابني الحجاج السهميين اجتمعوا ، أو : من اجتمع منهم ، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصّموه حتى تُعذّروا فيه . فبعثوا إليه أنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك . فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظنّ أنه قد بدا لهم في أمره بداء - وكان عليهم حريصاً ، يحبّ رشدّهم ، ويعزّز عليه عنّتهم - حتى جلس إليهم ، فقالوا : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لتُعذّر فيك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شمت الآباء ، وعيبت الدين ، وسفّهت الأحلام ، وشمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح إلا وقد جنته فيما بيننا وبينك . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً ، جَمَعْنَا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سؤدناك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رزقاً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن : الرّئيّ - فربّما كان ذلك ، بذلنا أموالنا في طلب الطبّ ، حتى نُبرّك منه ، أو نُعذّر فيك . فقال رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم . أو كما قال رسول الله ﷺ . فقالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك ، فقد علّمت أنه ليس أحد من الناس أضيق

بلاداً، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشاً منا، فسئل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقتك، صدقتك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت. إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر وأمل، حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسئل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، أسأله فيجعل لك جنائناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغيثك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتبس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربّه هذا. وما يُبعث إليكم بهذا. ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر وأمل، حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك. فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك ويُعَلِّمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ فقد بلغنا أنه إنما يُعلمك هذا رجل باليامة، يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نُهلكك أو تُهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهن بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً. فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته، عاتكة ابنة عبد المطلب - فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تُعجل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفاً لما فاتته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مبادئهم إياه^(١). وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن إسحاق: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعُكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ سِوَاهُ. وَهَذَا الْمَجْلِسُ الَّذِي اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ لَهُ، لَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ ذَلِكَ اسْتِرْشَاداً لِأَجْبِیْوْا إِلَيْهِ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَطْلُبُونَ ذَلِكَ كُفْراً وَعِنَاداً، فَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْنَاهُمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا عَذَّبْنَاهُمْ عَذَاباً لَا أَعْذِبُهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَقَالَ: بَلْ تَفْتَحُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ. كَمَا تَقْدُمُ ذَلِكَ فِي حَدِيثِي ابْنِ عَبَّاسٍ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ أَيْضاً، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا نَمُودُ الْفَاكَّةَ شَجَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ إِلَّا يُنَادِبُ إِلَّا نَحْنُ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْتَضِلُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ

(١) أخرجه الطبري ٢٢٧١٩، وفيه رجل لم يسم، وكرره ٢٢٧٢٠ من وجه آخر وفيه محمد بن أبي محمد شيخ ابن إسحاق، قال الذهبي: لا يعرف، راجع الميزان. لكن المتن يتأيد بالآيات الكريمة، والله أعلم.

فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلَاقَىٰ إِلَهُهُ كَفْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيكَ ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ [الفرقان: ٧ - ١١].

وقوله تعالى: ﴿حَقِّقْ تَفَجَّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾، التَّبُوعُ: العينُ الجارية، سألوه أن يجري لهم عينًا معينًا في أرض الحجاز ها هنا وما هنا. وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لَفَعَلَهُ ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْصَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يَبُودُونَ﴾ ﴿٩١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٢﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى النَّارِ لَنَافَخُنَّ إِلَيْهَا نَارًا وَنَخْرُجُنَّ إِلَيْهَا نَارًا لَقَدَّرْنَا فِيهَا جَهَنَّمَ كُلًّا مِمَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَنْشَأَ اللَّهُ لِكَلِمَةٍ أَصْحَابَهُمْ يَهْلِكُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُوطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَيْنَا كِسْفًا﴾، أي: إنك وعدتنا أن يوم القيامة تَنَشَقُّ السماءُ وتُهَيَّي، وتُدَلِّي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كَسْفًا، أي: قطعًا، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَاتِّمِرْ عَلَيْنَا حِمَاكُمُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وكذلك سأل قوم شُعَيْبٍ منه فقالوا: ﴿فَأَسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظُّلَّة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي التوبة ونبي الرحمة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعلَّ الله أن يُخْرِجَ من أصلابهم من يعبدُه لا يشرك به شيئًا. وكذلك وقع، فَإِنَّ من هؤلاء الذين ذُكِّروا مَنْ أسلم بعد ذلك وَحَسُنَ إسلامه، حتى عبدَ الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلامًا تامًّا، وأُتَابَ إلى الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتٌ مِّنْ ذُرِّيِّهِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذَهَبٍ»، ﴿أَوْ تَرَفُّقٌ فِي السَّمَاءِ﴾، أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك، ﴿وَكِنْ تَوَيْمَنَ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُ فِيهِ﴾، قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، تُصَبِّحُ عند رأسه موضوعة. وقوله تعالى: ﴿فَلَقَّ سَيِّحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، أي: سبحانه وتعالى وتقُدَّسَ أن يتقدَّم بين يديه أحد في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفَعَّالُ لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجيبكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أُبَلِّغُكُمْ رِيسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله عزَّ وجلَّ.

[٤٣٤٠] قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحير، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «عَرَضَ رَبِّي - عزَّ وجلَّ - لي بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، أو نحو ذلك، فإذا جُعتُ تضرَّعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبعْتُ حمدتك وشكرتك» (١). ورواه الترمذي في «الزهد» عن سُويد بن نصر، عن ابن المبارك، به وقال: هذا حديث حسن. وعلي بن يزيد يُضَعِّفُ في الحديث.

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٤٧ وأحمد ٢٥٤/٥، وإسناده ضعيف، فهو مسلسل بالضعفاء ابن زحر وابن يزيد والقاسم. ومع ذلك حسنه الترمذي، مع أنه قال: علي بن يزيد ضعيف الحديث، والظاهر أن مراده: حسن المتن دون الإسناد، والله أعلم.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾، أي: أكثرهم، ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بغيته البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا وَأَنذِرُ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا بَعْدَ مَا قَالُوا ۚ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَتُؤْتِنُ بُشْرًا بِقُلُوبِنَا ۖ قُلْ نَحْنُ مُؤْمِنُونَ ۚ قَوْمُكُمْ لَا عِندَهُ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك قالت الأمم لرسولهم: ﴿إِنْ أَنشَرْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا تُرِيدُونَ أَنْ تُصْذِقُوا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرة. ثم قال تعالى مُنْهِيَةً عَلَى لطفه ورحمته بعباده: إنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسلاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَأَ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا يَنْذِرُكُمْ بِتِلْكَ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَلِيَ الْكِتَابِ وَالْحِسْمَةِ وَلِيُكَلِّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَكَلِّمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ فَأَذْرُوهُ أَلَكُومًا وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]، ولهذا قال ما هنا: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مَطْمَئِنِّينَ﴾، أي: كما أنتم فيها، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾، أي: من جنسهم. ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى مُرْشِداً نَبِيَّهُ ﷺ إلى الْحُجَّةِ عَلَى قومه، في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ، عالم بما جئتمكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال: ﴿وَلَوْ قَوْلَ طَيْفَا بِمَقْعِ الْأَقَابِلِ﴾ ﴿٩٨﴾ لَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٩٩﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآوِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، أي: علمهم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة، ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عَمِيًَّا وَرَبُّكَ وَصَّاءٌ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، وتنفوذ حكمه، وأنه لا مُعْتَقَبَ لَهُ، بأنه من يَهْدِيهِ فلا مُضِلَّ لَهُ، ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: يهدونهم، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الكهف: ١٧]، وقوله: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ﴾.

[٤٣٤١] قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل، عن ثَعْبَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى وَجُوهِهِمْ؟ قَالَ: الَّذِي أَمْسَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادَرٌ عَلَى أَنْ يَمْشِيهِمْ عَلَى وَجُوهِهِمْ^(١). وأخرجه في الصحيحين.

[٤٣٤٢] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا الوليد بن جُمَيْعٍ القرشي، حدثنا أبو

الطَّفِيلَ عامر بن وائلة، عن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ قَالَ: قَامَ أَبُو ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ: يَا بَنِي غِفَارٍ، قُولُوا وَلَا تَخْلِفُوا، فَإِنَّ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ حَدَّثَنِي: أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَفْوَاجٍ: فَوْجُ رَاكِبِينَ طَاعِمِينَ كَاسِيَيْنَ، وَفَوْجُ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ، وَفَوْجُ تَسْحَبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَتَحْشَرُهُمُ إِلَى النَّارِ. فَقَالَ قَاتِلٌ مِنْهُمْ: هَذَا قَدْ عَرَفْنَاهُمَا، فَمَا بِالَّذِينَ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ؟ قَالَ: يُلْقَى اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الْآفَةُ عَلَى الظَّهْرِ، حَتَّى لَا يَبْقَى ظَهْرٌ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ لَتَكُونَ لَهُ الْحَدِيقَةُ الْمَعْجِبَةُ، فَيُعْطِيهَا بِالشَّارِفِ ذَاتَ الْقَتَبِ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا^(١)، وَقَوْلُهُ: ﴿عَتِيًّا﴾، أَي: لَا يُبْصِرُونَ. ﴿وَيَكْفًا﴾، يَعْنِي لَا يَنْطَقُونَ. ﴿وَسُمًّا﴾، لَا يَسْمَعُونَ. وَهَذَا يَكُونُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ. جَزَاءٌ لَهُمْ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بِكَمَا وَعُثِيًّا وَصُنًّا عَنِ الْحَقِّ، فَنُجُوزُوا فِي مَحْشَرِهِمْ بِذَلِكَ أَحْوَجَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، ﴿مَأْوَانَهُمْ﴾، أَي مُنْقَلِبَهُمْ وَمَصِيرَهُمْ ﴿جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَكَنَتْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: طَفِئَتْ. ﴿وَذَنَّهُنَّ سَعِيرًا﴾، أَي: لَهَا وَوَجَعًا وَجَمْرًا، كَمَا قَالَ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِإِنْتِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبهكم والضنم جزاءهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾، أي: بأدلتنا وحججنا واستبعدوا وقوع البعث، ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا﴾، أي: بالية نخررة، ﴿أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، أي: بعدما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نعد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم وتبهم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمُتْ بِمُخْلِقِينَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُمِيتَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٠﴾ [الاحقاف: ٣٣]. وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٩٩﴾ [يس: ٨١ - ٨٣]. وقال ما هنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، يعيد أبدانهم ويُنشئهم نشأة أخرى، ويُعيدهم كما بدأهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ ﴿١٠٤﴾ [هود: ١٠٤]. وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾، أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾، إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٠﴾

(١) أخرجه أحمد ١٦٤/٥ والنسائي في «الكبرى» ٢٢١٣ وصححه الحاكم ٣٦٧/٢ وقال الذهبي: على شرط مسلم، لكنه منكر، وقد قال ابن حبان في الوليد: فحش تفردته حتى بطل الاحتجاج به. وقد رجح الحاكم فقال في الوليد: لو لم يذكره مسلم في صحيحه لكان أولى، فالخبر ضعيف. والآفة: أي آفة الموت. والشارف: الناقة المسنة. والقتب: الرحل الصغير.

يقول تعالى لرسوله - صلوات الله عليه وسلامه - قل لهم: يا محمد، لو أنكم، أيها الناس، تملكون التصرف في خزائن الله ﴿لَأَتَسَكَّمْ خَشِيَّةَ الْإِثْمَانِ﴾. قال ابن عباس وقتادة: أي الفقر. أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا﴾. قال ابن عباس، وقتادة: أي بخيلاً متوَعاً. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ تَعَبٌ مِنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، أي: لو أن لهم نصيباً من ذلك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، - إلا من وفقه الله وهده -، بالبخل والجزع والهلع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [١٩] إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ جُرُوعًا ﴿٢٥﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْغِنَىٰ مُتَوَعًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرم الله وجوده وإحسانه.

[٤٣٤٣] وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، رأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمينه»^(١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ قِسْعَ مَائِيَةٍ يَنْتَبِطُ فَسَلَّ بَنَىٰ إِسْرَٰئِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [١١١] قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰبِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَبْرُغُوتُ مُتَبُورًا ﴿١١٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١١٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَٰئِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١١٤﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين، والطوفان، والبحر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس. وقال محمد بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطمنسة، والحجر. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي. وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تلقت العصا ما يافكون. ﴿فَأَسْكَبُوا وَأَكَلُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم، وكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿كُنْ تَوَكَّلْ عَلَىٰ رَبِّكَ فَإِنَّكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾... إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا، إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى، وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات، قال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾، قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْنَا عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَٰزِلُ كَآفًا جَاءَتْكَ وَأَنَّكَ تَكْفُرُ بِمَا كُنْتَ تَعْبُدُ﴾ [القصص: ٢٦]، أي: لا من ظلمت فربك بذلك حسناً بعد سوء فإني عفو رحيم ﴿١١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ يَغْنَمًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي نَتِجِ مَائِيَةٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَآفًا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١١٢﴾ [النمل: ١٠ - ١٢]. فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في «سورة الأعراف» وقصصها. وقد أوتي موسى - عليه السلام - آيات أخر كثيرة، منها: ضربه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما

أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكرها هنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالقوها وعاندوها كفرأ وجحودأ.

[٤٣٤٤] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي - رضي الله عنه - قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نَشِيعَ مَا يَنْتَوِي﴾. فقال: لا تقل له: نبي، فإنه لو سمعك لصارت له أربعة أعين. فسأله، فقال النبي ﷺ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحرُوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، أو قال: لا تغربوا من الزحف - شعبة الشاك - وأنتم يا يهود، عليكم خاصة ألا تغدوا في السبت. فقبلاً يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكما أن تتبعاني؟» قالوا: لأن داود - عليه السلام - دعا أن لا يزال من ذريته نبي، وإننا نخشى أن تقتلنا يهود^(١). فهذا الحديث رواه هكذا الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير في تفسيره من طريق، عن شعبة بن الحجاج، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بال عشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾، أي: حجباً وأدلة على صدق ما جئت بك به، ﴿وَلَا لِأَنْظُرِكَ بِتَغَيُّوْتٍ مَشُورًا﴾، أي: هالكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس - رضي الله عنه - ملعوناً. وقال أيضاً هو والضحَّاك: ﴿مَشُورًا﴾، أي: مغلوباً. والهالك - كما قال مجاهد - يشمل هذا كله، قال عبد الله بن الزبيري:

إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْعَدَايِ وَمَنْ مَالٍ مَسِيلُهُ مَشُورٌ

بمعنى هالك. وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: «علمت» وروي ذلك عن علي بن أبي طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [١٣] وَمَعْمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وظُلُومًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ [النمل: ١٤]. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. التي فيها حُجج إبراهيم على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث فإن هذه الوصايا ليس فيها حُجج على فرعون وقومه، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة»، فإن له بعض ما يُنكر. والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فَحَصَلَ وهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَوِيَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، أي يُجْلِيهِمْ منها ويزيلهم عنها، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾،

(١) ضعيف، أخرجه الترمذي ٢٧٣٣ و ٣١٤٤ والنسائي في «الكبرى» ٣٥٤١ و ٨٦٥٦ وابن ماجه ٣٧٠٥ وأحمد ٢٣٩/٤ - ٢٤٠، وإسناده ضعيف، فيه عبد الله بن سلمة، قال شعبة: عن عمرو بن مرة، سمعت عبد الله بن سلمة يحدثنا، وإننا لنعرف وننكر، وكان قد كبر، وقال البخاري: لا يتابع على حديثه. ووفقه العجلي ويعقوب بن شيبه. وقال أبو حاتم والنسائي: يعرف وينكر. أم من الميزان ٤٣٦٠ والظاهر أنه رواه بعدما كبر فأتى بألفاظ غريبة، به ابن كثير على بعضها، وسكت عن بعضها الآخر، والله أعلم.

وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَغْفِرَنَّكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٠٨ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝١٠٩﴾. ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها غنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلاً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاريها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١٠٩﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال ها هنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرُوا الْأَرْضَ إِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ حِثًّا بِكُمْ لَبِيفًا ۝١١٠﴾، أي: جميعكم أنتم وعدوكم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿لَبِيفًا﴾، أي: جميعاً.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١١٥ وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْفُرْقَانَهُ لِنُقَرِّمَكَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّهِ وَنَزَّلْنَاهُ عَلَى مَكِّهِ ۝١١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي: متضمناً الحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحُكْمِهِ ۝١١٦﴾ [النساء: ١١٦]، أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يُطْلِعَكُمْ عليه، من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾، أي: ووصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملا الأعلى، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾، أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين. وقوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْفُرْقَانَهُ﴾، أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفترقاً متجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأه ﴿فرقناه﴾، بالتشديد. أي: أنزلناه آية آية، مبيّناً مفسراً، ولهذا قال: ﴿لِنُقَرِّمَكَ عَلَى النَّاسِ﴾، أي: لئيلغى الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَى مَكِّهِ﴾، أي: مهل، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾، أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ مَا مَنُونا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا بِهِ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا ۝١١٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١١٨ وَيَخِرُّونَ لِلْآذَانِ يَكُونُ وَرِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١١٩﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الكافرين بما جشتم به من هذا القرآن العظيم: ﴿مَا مَنُونا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا بِهِ﴾، أي: سواء آمنتم به أم لا، هو حق في نفسه، أنزله الله ونزهه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾، أي: من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسِّكُونَ بكتابتهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ﴾، جمع ذفن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾، أي: لله - عز وجل - شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾، تعظيماً وتقديراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْآذَانِ يَكُونُ﴾، أي: خضوعاً لله - عز وجل - وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿وَرِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، أي: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ [محمد: ١٧]. وقوله: ﴿يَجْزُونَ﴾، عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْدَحَمِ
﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَا وَابْتِغِ
بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٨﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ
وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، أي: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْفَتْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢٠﴾، إلى أن قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

[٤٣٤٥] وقد رَوَى مكحول: أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم»، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية^(١). وكذا رَوَى عن ابن عباس، رواهما ابن جرير. وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾... الآية.

[٤٣٤٦] قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متواري بمكة، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَا وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، قال: كان إذا صلى بأصحابه رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فلما سَمِعَ ذَلِكَ المشركون سَبُّوا الْقُرْآنَ، وَسَبُّوا مِنْ أَنْزَلَهُ، وَمِنْ جَاءَ بِهِ. قال: فقال الله تعالى: لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾، أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبُّوا الْقُرْآنَ، ﴿وَلَا تَخَافُوا يَهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسَمِعْهُمْ الْقُرْآنَ حتى يأخذوه عنك، ﴿وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٢). أخرجه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس، به. وكذا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَزَادَ: «فلما هاجر إلى المدينة سَقَطَ ذَلِكَ، ففعلُ أَيُّ ذَلِكَ شاء».

[٤٣٤٧] وقال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يُصَلِّي تَفَرَّقُوا عَنْهُ وَأَبُوا أَنْ يَسْمِعُوهُ مِنْهُ، فكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يُصَلِّي، استرق السمع دونهم فَرَقًا مِنْهُمْ، فَإِنْ رَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَسْمَعُ ذَهَبَ خَشْيَةً أَذَاهُمْ فَلَمْ يَسْمَعْ. فَإِنْ خَفَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَهُ لَمْ يَسْمَعْ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ مِنْ قِرَائَتِهِ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عز وجل -: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ فَيَتَفَرَّقُوا عَنْكَ، ﴿وَلَا تَخَافُوا يَهَا﴾ فلا تُسْمِعْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ يَسْتَرْقِ ذَلِكَ [دونهم]، لعله يَزْعُمُ إِلَى بَعْضِ مَا يَسْمَعُ فَيَنْتَفِعُ بِهِ، ﴿وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٠٢ عن مكحول مرسلًا، ووصله ٢٢٨٠١ من وجه آخر، وكذا ابن مردويه، كما في «أسباب النزول» للسيوطي ٧٠٥ كلاهما عن ابن عباس، وفي إسناده الحسين بن داود - شديد - وهو ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٢ ومسلم ٤٤٦ والترمذي ٣١٤٦ والنسائي في «التفسير» ٣٢٠ وأحمد ٢٣/١ و٢١٥ والطبري ٢٢٨٢٥.

سَيَلَا^(١). وهكذا قال عكرمة، والحسن البصري، وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة. وقال شعبة، عن أشعث بن سليم، عن الأسود بن هلال، عن عبد الله بن مسعود: لم يخاف بها من أسمع أذنيه.

[٤٣٤٨] قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: ثُبُثُ أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان إذا صلى فقرأ خَفَضَ صوته، وأن عمر - رضي الله عنه - كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي - عز وجل - وقد علم حاجتي. فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرُدُ الشيطانَ وأوقظَ الوسنانَ. قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتَ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً^(٢). وقال أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء. وكذا روى الثوري، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أنها: نزلت في الدعاء. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبَر، وأبو عِيَّاض، ومكحول، وعروة بن الزبير. وقال الثوري، عن ابن عباس العائري، عن عبد الله بن شداد قال: كان أعراب من تميم إذا سلم رسول الله ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾.

قول آخر، قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها -: نزلت هذه الآية في التشهد: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتَ بِهَا﴾. وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قول آخر، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَجْهَرُ﴾، قال: لا تُصَلِّ وراءَ الناس، ولا تدعها مخافة الناس. وقال الثوري، عن منصور، عن الحسن البصري: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتَ بِهَا﴾، قال: لا تحسِّنَ علانيتهما وتسييئ سريرتها. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن، به. وهشيم، عن عوف، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قول آخر، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، قال: أهل الكتاب يخافتون. ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخاف كما يخاف القوم، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ النَّقَائِصِ فَقَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكًا فِي الْمَلَكِ﴾، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾، أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مُشِير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده، لا شريك له ومقدرها ومُدبرها بمشيئته وحده، لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾: لم يُحَالِفْ أحداً ولا يبتغي نَصراً أحد. ﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْخَرُ﴾، أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القُرظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾... الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً. وقالت

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٣٠ وإسناده ضعيف لأنه من رواية داود عن عكرمة، لكن له شواهد تعضده.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٨٣٥ وهذا مرسل ضعيف.

العرب: لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذلل. فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِنَا وَلاً وَكَانَ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرٌ﴾.

[٤٣٤٩] وقال أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يُعَلِّمُ أَهْلَهُ هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِنَا وَلاً وَكَانَ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرٌ﴾ الصغير من أهله والكبير^(١).

[٤٣٥٠] قلت: وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سَمَّاهَا آية العِزِّ^(٢). وفي بعض الآثار: أنها ما قرئت في بيت في ليلة فُيَصِّبُهُ سَرَقٌ أو آفَةٌ. والله أعلم.

[٤٣٥١] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سِيحان البصري، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى بن عبيدة الرِّبَدي، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة قال: خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي - أو يدي في يده - فأتى على رجل رث الهيئة، فقال: أي فلان، ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السقم والضر يا رسول الله. قال: ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر؟ قال: لا ما يسرني بها. إني شهدت معك بدرأ وأحدأ. قال: فَضَحِكَ رسول الله ﷺ وقال: وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع؟ قال: فقال أبو هريرة: يا رسول الله، إياي فَعَلَّمَنِي. قال: فقل يا أبا هريرة: توكلت على الحي الذي لا يموت، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِنَا وَلاً وَكَانَ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرٌ﴾. قال: فأتى علي رسول الله وقد حَسُنَتْ حَالِي، قال: قال لي: مَهَيِّمٌ. قال: قلت: يا رسول الله، لم أزل أقول الكلمات التي علمتني^(٣). إسناده ضعيف، وفي مثني نكارة. والله أعلم.

آخر تفسير سورة «سبحان»، والله الحمد والمنة

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٥٢ عن قتادة، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، لكن ورد من وجه آخر أخرجه ابن السني ٤٢٤ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وإسناده ضعيف، فيه عبد الكريم، أبو أمية، ضعيف، وكذا سفيان بن وكيع تغير حفظه، فضعفوه.

(٢) أخرجه أحمد ٤٣٩/٣ - ٤٤٠ والطبراني ١٩٢/٢٠ من حديث سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه مرفوعاً، قال في «المجمع» ١١١٤٢: رواه أحمد من طريقين، في إحداهما رشدين بن سعد، وهو ضعيف، وفي الأخرى، ابن لهيعة، وهو أصح منه أهد، وله علة ثالثة زيان بن فائد ضعيف، وكذا شيخه سهل بن معاذ، فهذه علة ثالثة للحديث، والله أعلم.

(٣) ضعيف منكر. أخرجه أبو يعلى ٦٦٧١، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٤٣: فيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. وقوله: «مهم» أي ما شأنك، ما أمرك.



وهي مَكِّيَّة

ذَكَرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا، وَالْعَشْرِ الْآيَاتِ مِنْ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا، وَأَنَّهَا عِصْمَةٌ مِنَ الدُّجَالِ:

[٤٣٥٢] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ يَقُولُ: قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ، وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَنَظَرَ فَلِذَا ضَبَابَةٌ، أَوْ: سَحَابَةٌ، قَدْ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ فَلَانُ، فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنْزَلَتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَنْزَلَتْ لِلْقُرْآنِ»^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ. وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهَا هُوَ: أَسِيدُ بْنُ الْحَضِيرِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

[٤٣٥٣] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، أَخْبَرَنَا هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدُّجَالِ^(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ بِهِ، وَلَفْظُ التِّرْمِذِيِّ: «مَنْ حَفِظَ الثَّلَاثَ الْآيَاتِ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ»، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٤٣٥٤] طَرِيقٌ أُخْرَى، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حُجَّاجٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، سَمِعْتُ سَالِمَ بْنَ أَبِي الْجَعْدِ يُحَدِّثُ عَنْ مَعْدَانَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَّلَةَ مِنَ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّجَالِ^(٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضاً وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ، بِهِ. وَفِي لَفْظِ التِّرْمِذِيِّ: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْكَهْفِ»، فَذَكَرَهُ.

[٤٣٥٥] حَدِيثٌ آخَرُ وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ ثَوْبَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَّلَةَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ فَإِنَّهُ عِصْمَةٌ لَهُ مِنَ الدُّجَالِ»^(٤). فَتَحْتَمِلُ أَنْ سَالِمًا سَمِعَهُ مِنْ ثَوْبَانَ وَمِنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

[٤٣٥٦] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنَا زَبَّانُ بْنُ فَايِدٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ بْنِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦١٤ ومسلم ٧٩٥ والتِّرْمِذِيُّ ٢٨٨٥ وأحمد ٢٨١/٤ وابن حبان ٧٦٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨٠٩ وأبو داود ٤٣٢٣ والتِّرْمِذِيُّ ٢٨٨٦ والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ٩٥١.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٤٤٦/٦ ومسلم ٨٠٩ والنسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٦.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٤، وإسناده صحيح إن كان سمعه سالم من ثوبان، فإنه كثير الإرسال. لكن يقويه ما قبله.

أنس الجهنني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قَدَمِهِ إلى رأسه. ومن قرأها كُلُّها كانت له نوراً ما بين السماء إلى الأرض»^(١). انفرد به أحمد ولم يخرجوه.

[٤٣٥٧] وروى الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوِيه في تفسيره بإسناد له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبي مَرْزَم، عن نافع، عن ابن عَمْرٍ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سُورَةَ الكَهْفِ في يومِ الْجُمُعَةِ سطع له نورٌ من تحت قدمه إلى عَنَانِ السَّمَاءِ، يُضِيءُ له يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَغُفِرَ له ما بينَ الْجَمْعَتَيْنِ»^(٢). وهذا الحديث في رفعه نظراً، وأحسن أحواله الوقف. وهكذا روى الإمام سعيد بن منصور في سُنَنِهِ، عن هُشَيْمِ بْنِ بَشِيرٍ، عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَزٍ، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي سعيد الخُدْرِي - رضي الله عنه - أنه قال: من قرأ سورة الكهف إلى يوم الجمعة أضاء له مِنَ النور ما بينه وبين البيت العتيق. هكذا وقع موقوفاً. وكذا رواه الثوري، عن أبي هاشم، به، من حديث أبي سعيد.

[٤٣٥٨] وقد أخرجه الحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ، عن أبي بكر محمد بن المؤمل، حدثنا الفضل بن محمد الشَّعْرَانِي، حدثنا نَعِيمُ بْنُ حَمَادٍ، حدثنا هشيم، حدثنا أبو هاشم، عن أبي مِجْلَزٍ، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبينه الْجَمْعَتَيْنِ»^(٣). ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سُنَنِهِ، عن الحاكم.

[٤٣٥٩] ثم قال البيهقي: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة»^(٤). والله أعلم.

[٤٣٦٠] وفي «المختارة» للحافظ الضياء المقدسي من حديث عبد الله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهنني، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي مرفوعاً: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وَإِنْ خَرَجَ الدَّجَالُ عُصِمَ مِنْهُ^(٥).

* * *

(١) أخرجه أحمد ٤٣٩/٣ والطبراني ١٩٧/٢٠ من حديث معاذ بن أنس، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٤٤: في إسناده أحمد، ابن لهيعة، وهو ضعيف، وقد يحسن بحديثه أه، قلت: وفيه زيان بن فائد، ضعيف، وسهل بن معاذ ضعيف أيضاً، وأحسن منه المتن الآتي برقم ٤٣٥٩.

(٢) إسناده ضعيف جداً، ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٤٧٠ في ترجمة محمد بن خالد الخثلي، ونقل عن ابن الجوزي قوله: كذبوه، وقال ابن مندة: روى منكر. ثم ساقه الذهبي بهذا الإسناد.

(٣) أخرجه الحاكم ٣٦٨/٢ والبيهقي في «السنن» ٢٤٩/٣ وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي فقال: نعيم بن حماد، ذو منكر. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٢٤٤٤ والدارمي ٤٥٤/٢ من طريق هشيم عن أبي سعيد الخدري موقوفاً، وصوب البيهقي الوقف فيه.

(٤) أخرجه الحاكم ٥٦٤/١ والبيهقي في «الشعب» ٢٤٤٦ والطبراني في «الأوسط» ١٤٧٨ وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ورواه الثوري فوقه اه ووافقه الذهبي. ورجع البيهقي الوقف فيه على أبي سعيد وانظر «مجمع الزوائد» ٢٣٩/١.

(٥) فيه عبد الله بن مصعب الجهنني، ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٦١٠ فقال: عن أبيه عن جده، فرفع خطبة منكراً، وفيهم جهالة أه، والغرابة في صدر المتن فقط، وأما عجزه، فتقدم قبل قليل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ فَيَمَّا يَلِئْذَرُ بَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴿٥﴾﴾

قد تقدّم في أول التفسير أنه تعالى يَحْمَدُ نفسه المقدّسة عند فَوَاحِ الأمور وَخَوَاتِيمِهَا، فإنه المحمودُ على كُلِّ حال، وله الحمدُ في الأولى والآخرة. ولهذا حَمَدَ نَفْسَهُ على إنزاله كتابه العزيزَ على رسوله الكريم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه أعظمُ نعمةٍ أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجَهُم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاجَ فيه ولا زَيْغَ، بل يَهْدِي إلى صراط مستقيم، بَيِّنًا وَاضِحًا جلياً، نَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ وَبَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ. ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾، أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زَيْغاً ولا مَيْلًا، بل جعله معتدلاً مستقيماً. ولهذا قال: ﴿فَيَمَّا﴾، أي: مستقيماً. ﴿يَلِئْذَرُ بَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾، أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، يُنذِرُهُ بَاسًا شَدِيدًا، عقوبة عاجلة في الدنيا وأجلة في الآخرة، ﴿وَمِنْ لَّدُنْهُ﴾، أي: من عند الله الذي لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدًا، ولا يُورِثُ وَثاقَهُ أَحَدًا. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بهذا القرآن الذين صَدَّقُوا إيمانهم بالعمل الصالح، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾، أي: مَثُوبَةً عند الله جميلة، ﴿مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا﴾، في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدِينَ فيه، ﴿أَبَدًا﴾، دائماً لا زوالَ له ولا انقضاء.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، قال ابنُ إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبُدُ الملائكةَ، وهم بنات الله. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: بهذا القول الذي افتروه وتَقَوَّلُوهُ، ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾، أي: أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: نصب على التمييز تقديره: كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمْ هذه ﴿كَلِمَةً﴾. وقيل: على التعجب، تقديره: أعظمُ بكلمتهم كلمةً، كما تقول: أَكْرَمُ بزيد رجلاً. قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعضُ قراء مكة «كبرت كلمة»، كما يقال: «عَظُمَ قولك»، و «كَبُرَ شأنك». والمعنى على قراءة الجمهور أظهر، فإن هذا تبشيعٌ لمقاتلتهم واستعظامٌ لإفكهم، ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليهم إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

[٤٣٦١] وقد ذكر محمد بن إسحاق سببَ نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخٌ من أهل مصر، قَدِمَ علينا منذ بضع وأربعين سنةً، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بَعَثَ قريشُ النضرَ بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ، إلى أحبار يَهُودَ بالمدينة، فقالوا لهم: سَلُّوهم عن محمد وَصَفُّوا لهم صَفَّتَهُ، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهلُ الكتاب الأول، وعندهم علمٌ ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فَخَرَجَا حتى قَدِمَا المدينة، فسألوا أحبارَ يَهُودَ عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعضَ قوله، وقالوا: إنكم أهلُ التوراة، وقد جئناكم لِتُخْبِرُونَا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم أحبار يهود: سَلُّوهم عن ثلاث نأمركم بهنَّ فإن أخبركم بهنَّ فهو

نبيٍّ مُرْسَلٍ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوْلٌ قَرَوًا فيه رأيكم: سلوه عن فتية دُفِبُوا في الدهرِ الأوَّل، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديثٌ عجيب. وسلوه عن رَجُلٍ طَوَّافٍ بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبُؤُهُ؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبيٌّ فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رَجُلٌ متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضرُ وعقبهُ حتى قَدِمَا على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بِفَضْلٍ ما بينكم وبين محمد، قد أَمَرْنَا أَجْبَارَ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أُمُورٍ، فَأَخْبَرَهُمْ بِهَا، فجاؤا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا. فسألوه عما أَمُرُوهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أَخْبِرْكُمْ غَدًا بما سألتكم عنه». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحَدِّثُ الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريلُ عليه السلام، حتى أَرَجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ وقالوا: وَغَدْنَا مُحَمَّدٌ غَدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحتا فيها، لا يُخْبِرُنَا بشيءٍ عما سألناه عنه. وحتى أَحْزَنَ رسول الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلم به أَهْلُ مَكَّةَ، ثم جاءه جبرائيلُ - عليه السلام - من عند الله - عزَّ وجلَّ - بسورة أصحاب الكهف، فيها معانيته إِيَّاهُ على حُزْنِهِ عليهم، وخَبَّرَ ما سألوه عنه من أمرِ الْفِتْيَةِ والرجُلِ الطَّوَّافِ، وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسْتَلَوْكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] (١).

﴿فَلَمَّا كَ بَخَعَ نَفْسَكَ عَلَى عَاقِبَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا إِنِ سَبَلُوهُمْ أَتَيْتُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٧) ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)

يقول تعالى مُسَلِّيًا رسوله ﷺ في حُزْنِهِ على المشركين، لتركههم الإيمان ويُعْدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٧٠]، وقال: ﴿لَمَّا كَ بَخَعَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [الشعراء: ٣]. باخع، أي: مُهِلِكَ نَفْسَكَ بِحُزْنِكَ عَلَيْهِمْ. ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا كَ بَخَعَ نَفْسَكَ عَلَى عَاقِبَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾، يعني: القرآن. «أَسَفًا»، يقول: لا تُهْلِكْ نَفْسَكَ أَسَفًا، قال قتادة: قَاتِلْ نَفْسَكَ غَضَبًا وحُزْنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعًا. والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية، مُزَيَّنَةً بِزِينَةٍ زائلة. وإنما جعلها دارَ اخْتِبَارٍ لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا إِنِ سَبَلُوهُمْ أَتَيْتُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٧).

[٤٣٦٢] قال قتادة، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي سعيد - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» (٣). ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، ودَهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)، أي: وإنا لَمُصَيِّرُوهَا بعد الزَّيْنَةِ إلى الْخَرَابِ والدَّمَارِ، فنجعلُ كُلَّ شيءٍ عليها هَالِكًا «صَعِيدًا جُرُزًا»، لا يُثْبِتُ ولا يُثَقِّعُ به، كما قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)، يقول: يهلك كل شيء عليها وَيَبِيد. وقال مجاهد: «صَعِيدًا جُرُزًا»: بَلْقَعًا. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابن زيد: الصعيد الأرض

(١) والحديث ضعيف، أخرجه الطبري ٢٢٨٦١ من طريق ابن إسحق به، وإسناده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحق، فإنه لم يسته، وفي بعض ألفاظه نكارة.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٦٥.

التي ليس فيها شيء، ألا تَرَى إِلَى قولهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ فَتُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَلَوْ أَنَّا لَجَعَلْنَاهُ مَا عَلَيْهَا صَبِيحًا جُرْرًا﴾، يعني الأرض، إن ما عليها لفانٍ وبائذ، وإن المرجع لإلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وتَرَى.

﴿أَمَرُ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَمْ يَشْعُرْ أَمَدًا ﴿١٢﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمَرُ حَسِبْتَ﴾، يعني يا محمد، ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، أي: ليس أمرهم عَجِيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء، أعجب من خبر أصحاب الكهف والرقيم، كما قال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿أَمَرُ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك. وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿أَمَرُ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، الذي آتَيْتُكَ من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حُجْجِي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وأما الكهف فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال العوفي، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة. وكذا قال عطية العوفي، وقتادة. وقال الضحاك: أما الكهف فهو: غار الوادي، والرقيم اسم الوادي. وقال مجاهد: الرقيم: كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: «الرقيم»، قال: يزعم كعب أنها القرية. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذي فيه الكهف. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس. وقال ابن جرير: أخبرني وهب بن سليمان، عن شُعَيْبِ الْجَبَلِيِّ: أَنَّ اسْمَ ذَلِكَ الْجَبَلِ بَنَاجُلُوسَ، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران. وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حثاناً، والأواه، والرقيم. وقال ابن جرير: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدري ما الرقيم؟ أكتب أم بنيان؟. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «الرقيم» الكتاب. وقال سعيد بن جبيرة: «الرقيم» لوح من حجارة، كَتَبُوا فِيهِ قِصَصَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، ثم وضَعُوهُ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الرقيم» الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَرْمُومٌ﴾ [المطففين: ٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» قَيْلٌ بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. يُخْبِرُ تعالى عن أولئك الفتية الذين قَرُّوا بدينهم من قَوْمِهِمْ لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبُوا مِنْهُمْ فَلَجُّوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَلُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، فقالوا حين دَخَلُوا سائِلِينَ مِنَ اللَّهِ تعالى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾،

أي: هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تَرْحَمُنَا بِهَا وَتَسْتَرِنَا عَنْ قَوْمِنَا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أي: وَقَدِّرْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا هَذَا رَشَدًا، أي: اجعل عاقبته رشداً، كما جاء في الحديث:
[٤٣٦٣] «وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا»^(١).

[٤٣٦٤] وفي المسند من حديث بُشَيْرِ بْنِ أَبِي عَازِبَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ، أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، أي: أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حِينَ دَخَلُوا إِلَى الْكَهْفِ، فَنَامُوا سِنِينَ كَثِيرَةً. ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ﴾، أي: مِنْ رَقْدَتِهِمْ تِلْكَ، وَخَرَجَ أَحَدُهُمْ بِدَرَاهِمَ مَعَهُ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ بِهَا شَيْئًا يَأْكُلُونَهُ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ لَنَجْعَلَ أَتَىٰ لِلْإِنْسَانِ﴾، أي: الْمَخْتَلِفِينَ فِيهِمْ، ﴿أَحْسَنَ لِمَا كَانُوا آمَدًا﴾، قِيلَ: عَدَدًا. وَقِيلَ: غَايَةً، فَإِنَّ الْأَمَدَ الْغَايَةَ كَقَوْلِهِ:

سَبَقَ الْجَوَادُ إِذَا اسْتَوَلَىٰ عَلَى الْأَمَدِ

﴿ثُمَّ نَفَخْنَا عَلَيْكَ نَبَاهَهُم بِالْحَقِّ إِنْ هُمْ فِيهِمْ فَتِيَّةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفُتْنًا إِذَا شِطَطَ ۝١٤ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝١٥ وَإِذْ أَغْرَقْنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝١٦﴾

من ها هنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله شباباً. وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. قال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطه - يعني الخلق - فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى﴾: استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص. ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى﴾، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَكَثُرَتْ نَفْسُهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَنَّا الْوَيْلُ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين [المسيح] عيسى ابن مريم - عليه السلام - والله أعلم. والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أجباز اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمبايعة لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أجباز اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول

(١) هو بعض حديث سيأتي.

(٢) أخرجه أحمد ١٨١/٤ والطبراني ١١٩٦ - ١١٩٨ وابن حبان ٩٤٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٧٨/١٠ وقال: ورجال أحمد، وأحد أسانيد الطبراني ثقاته، لكن بسر مختلف في صحبته.

الله ﷻ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدلّ هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدّم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومبايئتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة؛ فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرّجوا يوماً في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويدبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرّج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز عنهم، ويتبرّز عنهم ناحية. وكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هنالك الذي جمّع قلوبهم على الإيمان.

[٤٣٦٥] كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عُمَرَةَ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(١). وأخرجه مسلم في صحيحه، من حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

والناس يقولون: الجنسية علّة الضم. والغرض أنه جعل كل واحد منهم يكتّم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تَعَلَّمُونَ - والله يا قوم - أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليُظهِرْ كل واحد منكم ما بأمره. فقال الآخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به شيء، هو الله الذي خلق كل شيء، السموات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فَوَسَّوْا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودَعَوْه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾. ولن: لنفي التأييد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا﴾، أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً. ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾، أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك. فيقال: إن ملكهم لما دَعَوْه إلى الإيمان بالله أبي عليهم، وتَهَدَّدَهُم وتوعدهم، وأمر بتزعم لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم، لَعَلَّهُمْ يراجعون دينهم الذي كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصّلوا إلى

(١) ذكره البخاري ٣٣٣٦ معلقاً من حديث عائشة. وأخرجه مسلم ٢٦٣٨ والبخاري في «الأدب المفرد» ٩٠١ وأبو داود ٤٨٣٤

الْهَرَبَ مِنْهُ، وَالْفِرَارَ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَ وَقُوعِ الْفِتْنَةِ فِي النَّاسِ، أَنْ يَفِرَّ الْعَبْدُ مِنْهُمْ خَوْفًا عَلَى دِينِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:

[٤٣٦٦] «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالٍ أَحَدِكُمْ غَنَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتْنِ»^(١)؛ فَبِغِي هَذِهِ الْحَالِ تُشْرَعُ الْعِزْلَةُ عَنِ النَّاسِ وَلَا تُشْرَعُ فِيْمَا عَدَاهَا، لَمَّا يَفُوتُ بِهَا مِنْ تَرْكِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجَمْعِ. فَلَمَّا وَقَعَ عَزْمُهُمْ عَلَى الذَّهَابِ وَالْهَرَبِ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَاخْتَارَ اللَّهُ [تَعَالَى] لَهُمْ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ، فِي قَوْلِهِ: «وَإِذْ أَقْرَأْتَهُمْ وَمَا يَحْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ»، أَي: وَإِذْ فَارَقْتَهُمْ وَخَالَفْتَهُمْ بِأَدْيَانِكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ، فَفَارَقُوهُمْ أَيْضًا بِأَدْيَانِكُمْ، «فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»، أَي: يَسْطِ عَلَيْهِمْ رَحْمَةً يَسْتَرْكُمُ بِهَا مِنْ قَوْمِكُمْ، «وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ، «بِرَفَقَةٍ»، أَي: أَمْرًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هُرَابًا إِلَى الْكَهْفِ، فَأَوَّوْا إِلَيْهِ، فَفَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَتَطَلَّبَهُمُ الْمَلِكُ فَيَقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ، وَعَمِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَبَرُهُمْ.

[٤٣٦٧] كَمَا فَعَلَ نَبِيِّهِ ﷺ وَصَاحِبِهِ الصَّدِيقَ، حِينَ لَجَأَ إِلَى غَارِ ثُورٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قَرِيشٍ فِي الطَّلَبِ، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَيْهِ، وَعِنْدَهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ رَأَى جَزَعَ الصَّدِيقِ فِي قَوْلِهِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى مَوْضِعِ قَدَمِيهِ لِأَبْصَرَنَا»، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِهُمَا؟». وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَالِيفًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْكَافِرِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَنَّانٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ مَكِينَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُثُودٍ لَمْ تَرْوِكَا وَجَعَلَ لِكُلِّمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا لُشْكُلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيظُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»^(٢) [التوبة: ٤٠]، فَقَصَّةُ هَذَا الْغَارِ أَشْرَفُ وَأَجْلُ وَأَعْظَمُ وَأَعْجَبُ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنْ قَوْمُهُمْ ظَفَرُوا بِهِمْ وَوَقَفُوا عَلَى بَابِ الْغَارِ الَّذِي دَخَلُوا فِيهِ فَقَالُوا: مَا كُنَّا نُرِيدُ مِنْهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ. فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِرَدِّهِمْ بَابَهُ عَلَيْهِمْ لِيَهْلِكُوا مَكَانَهُمْ، فَفَعِلَ ذَلِكَ. وَفِي هَذَا نَظَرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي الْكَهْفِ بِكَرَّةٍ وَعَشِيَّةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (٣)

هَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَابَ هَذَا الْكَهْفِ كَانَ مِنْ نَحْوِ الشَّمَالِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا دَخَلَتْ عِنْدَ طُلُوعِهَا تَزْوُرُ عَنْهُ «ذَاتَ الْيَمِينِ»، أَي: يَتَقَلَّصُ الْفَيْءُ يَمَنَةً، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَتَادَةُ: «تَزْوُرُ»، أَي: تَمِيلُ. وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلَّمَا ارْتَفَعَتْ فِي الْأَفْقِ تَقَلَّصُ شِعَاعُهَا بَارْتِفَاعِهَا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الزَّوَالِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ. وَلِهَذَا قَالَ: «وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ»، أَي: تَدْخُلُ إِلَى غَارِهِمْ مِنْ شِمَالِ بَابِهِ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا، وَهَذَا بَيِّنٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ، وَكَانَ لَهُ عِلْمٌ بِمَعْرِفَةِ الْهَيْئَةِ، وَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، وَبَيَانِهِ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَابُ الْغَارِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِ لَمَا دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الْغُرُوبِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ نَاحِيَةِ الْقِبْلَةِ لَمَا دَخَلَهُ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الطُّلُوعِ وَلَا عِنْدَ الْغُرُوبِ، وَلَا تَزَاوَرَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٩ و ٣٣٠٠ وأبو داود ٤٢٣٧ والنسائي ١٢٣/٨ - ١٢٤ وأحمد ٤٣/٣ و ٥٧ وأبو يعلى ٩٨٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) وتقدم الحديث أثناء تفسيرها.

الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تنزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه والله الحمد.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾: تتركهم. وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي. وقد تكلف بعض المفسرين بذلك، فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نيتوى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. والله أعلم بأي بلاد الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه.

[٤٣٦٨] فقد قال رسول الله ﷺ: «ما تركت شيئاً يُقرَّبكم إلى الجنة ويُبعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به»^(١). فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَرَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّجَ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: تمثيل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾، أي: في متسع منه داخلًا، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت ثيابهم وأجسادهم، قاله ابن عباس. ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، حيث أرشدكم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. ثم قال: ﴿مَنْ يَدْعُ اللَّهَ فَهُوَ آتِيٌّ وَمَنْ يَسْتَدْلِقْ فَلَنْ يَجِدَ لَمْ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾؛ أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم؛ فإنه من هذه الله امتدى، ومن أضله فلا هادي له.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أُنُفْكَازًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أُنُفْكَازًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يطبق هذه ويفتح هذه وهو راقد، كما قال الشاعر:

يَنَامُ بِإِخْدَى مُثَلَّثَيْنِهِ وَتَشْقِي بِأُخْرَى الرِّزَايَا، فَهَوَ يَقْظَانُ نَائِمِ

وقوله تعالى: ﴿وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، قال بعض السلف: يُقَلَّبُونَ في العام مرّتين. قال ابن عباس: لو لم يُقَلَّبُوا لأكلتهم الأرض. وقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبّير، وقتادة: الوصيد الفناء. وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾، أي: مطبقة مغلقة. ويقال: «وصيد» و«أصيد». ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب. قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث ربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح، ولا صورة ولا جنب ولا كافر^(٢)، كما ورد به

(١) هو بعض حديث تقدم.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٢٧ و ٤١٥٢ والنسائي ١٤١/١ و ١٨٥/٧ من حديث علي، حسنه ابن كثير رحمه الله، وفي ذلك نظر، فإن في إسناده نُجَيّ الحضرمي، قال عنه الحافظ: مقبول، وقال عنه الذهبي في الميزان ٩٠١٩: لا يدرى من هو. قلت: وللحديث شواهد سوى لفظ «جنب» فقد تفرد به، وهو فير حجة، وضعف حديثه هذا غير واحد. وذكر الكلب والصورة في الصحيح، وقد تقدم.

الحديث الحسن. وسَمِلَتْ كَلْبَهُمْ بَرَكْتُهُمْ فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدةٌ ضحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكرٌ وخَيْرٌ وشأنٌ. وقد قيل: إنه كان كلبٌ صيِّدٌ لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كَلْبٌ طبَّاحُ الملك، وكان قد وافقهم على الدِّين فصَحَبَهُ كلبُهُ، فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدثنا صدقة بن عُمر الغساني، حدثنا عباد المنقري، سمعت الحسن البصري رحمه الله يقول: كان اسمُ كَبْشٍ إبراهيمَ جريز، واسم هدهد سليمان عَنقز، واسم كلب أصحاب الكهف قطمير، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبده: بَهْمُوت. وهبط آدم - عليه السلام - بالهند، وحواء بجَدَّة وإبليس بدست بيسان، والحية بأصبيان. وقد تقدم عن شُعَيْب الجَبِينِي أنه سماه حمران. واختلَفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه فإن مُسْتَنَدَهَا رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِثْتَ مِنْهُمْ تُبَّيْئًا﴾، أي: إنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظرٌ أحدٍ عليهم إلا هابهم، لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لاس، حتى يبلغ الكتابُ أجله، وتتفضي رَقَدَتُهُم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والرحمة البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسَعُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرِيقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صَحِيحَةً أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يَفْقِدُوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ﴾، أي: كم رَقَدْتُمْ؟ ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا﴾، كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، وإيقاظهم كان في آخر نهار، فلهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾، أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدَّد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرِيقِكُمْ هَذِهِ﴾، أي: فبُضِّتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصبحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فَتَصَدَّقُوا مِنْهَا وَبَقِيَ مِنْهَا، فلهذا قالوا: ﴿فَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرِيقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾، أي: مَدِينَتكم التي خرجتم منها. والألف واللام للعهد. ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾، أي: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ ﴿١٩﴾ [الأعلى: ١٤]. ومنه الزكاة التي تُطَبِّبُ المال وتُطَهِّره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زَكَا الزرع إذا كَثُر، قال الشاعر:

فَبَائِلُنَا سَبْعٌ وَأَتْنُمُ ثَلَاثَةٌ وَلِلْسَبْعِ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيبُ الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً. وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفْ كُلُّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾،

أَي: يُغْلِمُنْ ﴿يَكُنْ أَحَدًا﴾ ٢١ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ أَي: إِنْ عَلِمُوا بِمَكَانِكُمْ رَجَمُوكُمْ، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾، يَمْنُونُ أَصْحَابُ دَقْيَانُوسَ. يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَظْلَعُوا عَلَى مَكَانِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَى أَنْ يُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا أَوْ يَمُوتُوا، وَإِنْ وَاتَوْهُمْ عَلَى الْعُودَةِ فِي الدِّينِ فَلَا فَلَاحَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنْ تَقْلِعُوا إِذَا أَبْكَدَّا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَأَيْتُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ٢١

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أَي: أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمُ النَّاسَ، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ حَصَلَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ شُكٌّ فِي الْبَعْثِ وَفِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ قَالُوا: تُبْعَثُ الْأَرْوَاحُ وَلَا تُبْعَثُ الْأَجْسَادُ. فَبَعَثَ اللَّهُ أَهْلَ الْكَهْفِ حُجَّةً وَدَلَالَةً آيَةً عَلَى ذَلِكَ. وَذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي شِرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِيَأْكُلُوهُ، تَنَكَّرَ وَخَرَجَ يَمْشِي فِي غَيْرِ الْجَاذَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَكَرُوا أَنَّ اسْمَهَا دَفُسُوسُ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِهَا، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَأُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ، وَتَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمِنْ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَمَا الذِّبَاؤُ فَإِنْسُهَا كَدِيَارِهِمْ وَأَرَى رَجَالَ الْحَيِّ غَيْرَ رَجَالِهِ

فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا، لَا خَوَاصُّهَا وَلَا عَوَامِّهَا، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ: لَعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًّا، أَوْ أَنَا حَالِمٌ. وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا بِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ عَشِيَّةَ امْسٍ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ. ثُمَّ قَالَ: إِنْ تَعَجَّلَ الْخُرُوجَ مِنْ هَا هُنَا لِأَوَّلَى لِي. ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ النَّفَقَةِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَ بِهَا طَعَامًا. فَلَمَّا رَأَاهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ، وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَقُولُونَ: لَعَلَّ هَذَا قَدْ وَجَدَ كُنْزًا. فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ، وَمَنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ النَّفَقَةُ؟ لَعَلَّهُ وَجَدَهَا مِنْ كُنْزٍ، وَيَمُنُّ أَنْتَ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ امْسٍ وَفِيهَا دَقْيَانُوسَ. فَتَسْبُوهُ إِلَى الْجَنُونِ، فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ وَعَنْ أَمْرِهِ، حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِي حَالِهِ، وَمَا هُوَ فِيهِ. فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ قَامُوا مَعَهُ إِلَى الْكَهْفِ، مُتَوَلِّينَ الْبَلَدَ وَأَهْلَهَا، حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْكَهْفِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَتَقَدَّمَكُمْ فِي الدَّخُولِ لِأَعْلَمَ أَصْحَابِي، فَدَخَلَ فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ، وَأَخْفَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَبْرَهُ، وَيُقَالُ: بَلْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ، وَرَأَوْهُمْ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ وَاعْتَنَقَهُمْ، وَكَانَ مُسْلِمًا فِيمَا قِيلَ، وَاسْمُهُ تَيْدُوسِيْسُ، فَفَرَحُوا بِهِ وَأَنْسَوْهُ بِالْكَلَامِ، ثُمَّ وَدَّعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَتَوَفَّاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ قَتَادَةُ: غَزَا ابْنُ عَبَّاسٍ مَعَ حَبِيبِ بْنِ مُسْلِمَةَ، فَمَرُوا بِكَهْفٍ فِي بِلَادِ الرُّومِ، فَرَأَوْا فِيهِ عِظَامًا، فَقَالَ قَاتِلُ: هَذِهِ عِظَامُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَقَدْ بَلَّيْتُ عِظَامَهُمْ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَي: كَمَا أَرَقَدْنَاهُمْ وَأَيَقَظْنَاهُمْ بِهَيَاتِهِمْ أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمْ أَهْلَ ذَلِكَ الزَّمَانِ، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، أَي: فِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ، فَمِنْ مُثَبِّتٍ لَهَا وَمِنْ مُنَكِّرٍ، فَجَعَلَ اللَّهُ ظُهُورَهُمْ عَلَى أَصْحَابِ الْكَهْفِ حُجَّةً لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ. ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَأَيْتُمْ

أَعْلَمُ بِهِمْ»، أي: سُدُوا عليهم باب كهفهم الذي هم فيه، وَذَرَوْهم على حالهم، ﴿قَالَ الَّذِيكْ عَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَكْ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين، أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال:

[٤٣٦٩] «لن الله اليهود والنصارى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ»^(١)، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا. وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه لما وَجَدَ قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس، وأن تُدفن تلك الرقعة التي وَجَدُوهَا عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّايبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عِدَّةِ أصحاب الكهف، فَحَكَى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّفَ القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، أي: قول بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصابَ قَبِيلاً قصيد. ثم حكى الثالث وسَكَّتَ عليه أو قَرَّرَهُ بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رَدُّ العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وَقَفْنَا.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة. وكذا رَوَى ابن جرير، عن عطاء الخراساني، عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله عز وجل، ويقول: عدتهم سبعة. وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا ابن بشار، حَدَّثَنَا عبد الرحمن، حَدَّثَنَا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيدٌ صحيحةٌ إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد قال: لقد حَدَّثْتُ أنه كان على بعضهم من حادثة سِنَةِ وَضَحِ الْوَرِقِ. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله، ييكون ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مَكْسَلَمِينَا، وكان أكبرهم وهو الذي كَلَّمَ الملك عنهم ومحسيميلىنا، ويمليخا، ومَرْطُوس، وكشوطوش، وبيرونس، ودينموس، ويطونس قالوش. هكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل أن يكون هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية. وقد تقدم عن شُعَيْبِ الْجَبِّيَّ أن اسم كلبهم حُمران. وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته، والله أعلم؛ فإن غالب ذلك مُتَّفَقٌ من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، أي: سهلاً هَيِّنًا؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبيرُ فائدة، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي: فإنهم لا عِلْمَ لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رَجْمًا

بالغيث، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاء الله - يا محمد - بالحق الذي لا شك فيه ولا مزية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي ربي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۖ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله - عز وجل - علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

[٤٣٧٠] كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود - عليهما السلام -: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية: على تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يُقاتل في سبيل الله. فقيل له، وفي رواية: فقال له الملك: قل: إن شاء الله. فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهم إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: «إن شاء الله»، لم يحدث، وكان ذكراً لحاجته»^(١) وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»^(٢). وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ، لما سُئِلَ عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أُحييكم». فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثنى عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصري. وقال هشيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة. وكان يقول: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. قيل للأعمش: سمعته من مجاهد؟ قال: حدثني به ليث بن أبي سليم، يرى زهب كسائي هذا. ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به. ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة»، أي: إذا نسي أن يقول في خلفه أو كلامه «إن شاء الله»، وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير - رحمه الله - ونص على ذلك، لا أن يكون ذلك رافعاً لحنث اليمين ومُسْقِطاً للكفارة. وهذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح. وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم. وقال عكرمة: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أي: إذا غُضِبْتَ. وهذا تفسير باللزام. وقد قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحارث الجبيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد العزيز بن حصين، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال: إذا نسيت الاستثناء فاستثنى إذا ذكرت. وقال: هي خاصة لرسول الله ﷺ وليس لأحد منّا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه. ثم قال: تفرّد به الوليد، عن عبد العزيز بن الحصين. ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله عز وجل - قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٢ ومسلم ١٦٥٤ والنسائي ٣١/٧ وأحمد ٢٧٥/٢ وأبو يعلى ٦٢٤٤.

(٢) هذه الرواية عند مسلم برقم ١٦٥٤ ح ٢٥.

ذكر الله تعالى لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرْ﴾، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر، ولهذا قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لِقُرْبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك. وقيل غير ذلك في تفسيره، والله أعلم.

﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦)

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾، أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك في ذلك توقيف من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلع الله عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: هذا قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾، قال: وفي قراءة عبد الله: «وقالوا: ولَيْسُوا»، يعني أنه قاله الناس. وهكذا قال - كما قال قتادة - مطرّف بن عبد الله. وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، وظاهر الآية إنما هو من أخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير - رحمه الله - ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور. فلا يحتج بها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعُ﴾، أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. وقال ابن جرير: «وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه. وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء». ثم روى عن قتادة في قوله: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعُ﴾، فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال ابن زيد: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعُ﴾، يَرَى أَعْمَالَهُمْ، وَيَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ سَمِيعًا بَصِيرًا. وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، أي: إنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مُشِير، تعالى وتقدس سبحانه.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِيشِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨)

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: غير مُغَيِّر لها ولا محرف ولا مُؤَوِّل. وقوله: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، عن مجاهد ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال: مُلْجَأ. وعن

قتادة: ولياً ولا مولى قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تثل ما أوجي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله. كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهِمُ الرُّسُولُ بَلِغًا مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رَسَالَتُ اللَّهِ وَأَلَّهُ يَقْضِيكَ مِنَ الْآثِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْيِكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، أي: سائلك عما فَرَضَ عليك من إِبْلَاحِ الرسالة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمِيرٌ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهلّلونه، ويحمدونه ويُسَبِّحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرةً وعشيّاً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وخذّه ولا يُجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وضمّه وخباب وابن مسعود، وليُفَرِّدَ أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]... الآية، وأمره أن يُضَيِّرَ نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَأَمِيرٌ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

[٤٣٧١] وقال مسلمٌ في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي، عن إسرائيل، عن المقدّام بن شريح، عن أبيه، عن سعد - هو ابن أبي وقاص - قال: كنّا مع النبي ﷺ سيّئة نَفَرٍ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرُدْ هؤلاء لا يَجْتَرِئُونَ علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجلٌ من هذيل، وبلال، ورجلان نسيّت اسمَهُمَا. فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله - عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(١). انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري.

[٤٣٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي التّياح قال: سمعت أبا الجعد يُحدّث عن أبي أمامة قال: خرّج رسول الله ﷺ على قاص يقص، فأمنسك، فقال رسول الله ﷺ: «قص، فلأن أفعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب إليّ من أن أعتيق أربع رقاب»^(٢).

[٤٣٧٣] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هشام، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت كردوس بن قيس - وكان قاصّ العامّة بالكوفة - يقول: أخبرني رجلٌ من أصحاب بدر: أنه سمع النبي ﷺ يقول: لأن أفعد في مثل هذا المجلس أحب إليّ من أن أعتيق أربع رقاب. قال شعبة: فقلت: أيّ مجلس؟ قال: كان قاصّاً^(٣).

[٤٣٧٤] وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إليّ من أن أعتيق ثمانية من ولد إسماعيل، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً». فحسبنا ديّانهم ونحن في مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين ألفاً، وها هنا

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٥٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٦١/٥ ح ٢١٧٥١ والطبراني كما في «المجمع» ٩١١ من حديث أبي أمامة. قال الهيثمي: رجاله موثقون، إلا أن أبا الجعد، إن كان النعلفاني، فهو من رجال الصحيح. وإن كان غيره، فلم أعرفه أهد... قلت: لم ينسب، ولم أجد قرينة تعينه، فلي نظر.

(٣) أخرجه أحمد ٤٧٤/٣ من حديث كردوس عن رجل من أهل بدر، قال الهيثمي في «المجمع» ٩١٢: كردوس ابن قيس، وثقه ابن حبان، وبقيه رجاله رجال الصحيح أهد، وقال الذهبي في «الميزان» ٦٩٥٦: كردوس بن قيس، لا يُعرف أهد، وقال أبو حاتم الرازي: فيه نظر.

من يقول: أربعة من ولد إسماعيل، والله ما قال «إلا ثمانية، دِيَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا»^(١).

[٤٣٧٥] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم - وهو كوفي - أن رسول الله ﷺ مرَّ برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبي ﷺ سَكَتَ، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نفسي معهم»^(٢). هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر مرسلاً.

[٤٣٧٦] وحدثناه يحيى بن المَعْلَى بن منصور، حدثنا محمد بن الصَّلْتِ، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي مُزَيْبَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ قَالَا: جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الجنجر أو سورة الكهف، فسَكَتَ، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نفسي معهم»^(٣).

[٤٣٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون المَرَزِيُّ، حدثنا ميمون بن سبياه، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله، لا يُرِيدُونَ بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ بَدَّلْتُ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ»^(٤). تفرد به أحمد رحمه الله.

[٤٣٧٨] وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حَنِيْفٍ قال: نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وهو في بعض أبياته: «وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»، فخرج يَلْتَمِسُهُمْ، فوجد قوماً يذكرون الله، منهم ثائر الرأس، وجافي الجليد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جَلَسَ معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمي مَنْ أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَصْبِرَ نفسي معهم»^(٥). عبد الرحمن هذا ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة. وأما أبوه فمن سادة الصحابة رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: «وَلَا تَقَدْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زَيْتَةَ الْحَيَّةِ الدُّنْيَا»، قال ابن عباس: «ولا تُجَاوِزْهُمْ إِلَى غيرهم». يعني: تطلب بذلهم أصحاب الشرف والثروة. «وَلَا تَطْعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا»، أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، «وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْبًا»، أي: أعماله وأفعاله سَفَهَ وتفريط وضياع، ولا تكن مُطِيعاً له ولا مُحِبّاً لطريقته، ولا تُغَيِّطْهُ بما هو فيه، كما قال تعالى: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَتْ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى» ﴿١٣١﴾ [طه: ١٣١].

(١) أخرجه الطيالسي ٢١٠٤ وفيه يزيد بن أبان الرقاشي، ضعيف لكن للحديث شواهد راجع للمجمع ١٩٠/١ و ١٠٤/١٠ - ١٠٥. وفي الباب أحاديث أخرى، والله تعالى أعلم.

(٢) إسناده ضعيف، فيه عمرو بن ثابت، وهو متروك.

(٣) ضعيف. أخرجه البزار ٢٣٢٦ «كشف» وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٦٤/٧ وقال: رواه البزار متصلاً ومرسلاً، وفيه عمرو بن ثابت أبو المقدم، وهو متروك.

(٤) أخرجه أحمد ١٤٢/٣ وأبو يعلى ٤١٤١ والطبراني في «الأوسط» ١٥٧٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧٦/١٠ وقال: وفيه ميمون المرثي وثقه جماعة، وفيه ضعف، وبقي رجال أحمد رجال الصحيح.

(٥) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٣٠١٧ عن عبد الرحمن بن سهل وهو مختلف في صحبته، وفيه أسامة بن زيد، وهو متروك ليس بشيء وتقدم أن السورة مكية وهذا الخبر مدني.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ؛ هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾: هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾، أي: أرسدنا للظالمين، وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها.

[٤٣٧٩] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لِسُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ، كَثَافَةٌ كُلُّ جِدَارٍ مِثْلُ مَسَافَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(١). وأخرجه الترمذي في «صفة النار»، وابن جرير في تفسيره، من حديث ذرّاج أبي السّمح، به. وقال ابن جرير: قال ابن عباس: «أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا»، قال: حائط من نار.

[٤٣٨٠] قال ابن جرير: حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم، عن عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حبيب بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَحْرُ هُوَ جَهَنَّمُ»^(٢)، قال: فْقِيلَ لَهُ: كَيْفَ ذَلِكَ؟، فتلا، أو قرأ هذه الآية: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، ثم قال: والله لا أدخلها أبداً، أو: ما دمت حياً، ولا تصيبي منها قطرة^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، قال ابن عباس: المهل: ماء غليظ مثل دُرْدِيّ الزيت. وقال مجاهد: هو كالدّم والقح. وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حرّه. وقال آخرون: هو كلّ شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخذود، فلما انماح وأزبد قال: هذا أشبه شيءً بالمهل. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وشجرها أسود، وأهلها سود. وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإنّ المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلّها، فهو أسود مثنّين غليظ حارّ، ولهذا قال: «يَشْوِي الْوُجُوهَ»، أي: من حرّه، إذا أراد الكافر أن يشرّبه وقرّبه من وجهه شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه.

[٤٣٨١] كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، بإسناده المتقدم في سُرَادِقِ النَّارِ، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَاءُ كَالْمُهْلِ»، قال: كَعَكْرِ الزَّيْتِ فَإِذَا قُرُبَ إِلَيْهِ سَقَطَتْ قَرْوَةٌ وَجْهَهُ فِيهِ»^(٤). وهكذا رواه الترمذي في «صفة النار من «جامعه»، من حديث رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن ذرّاج، به. ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تُكَلِّمَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ حَفْظِهِ. هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لهيعة، عن ذرّاج، والله أعلم.

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٨٤ وأبو يعلى ١٣٨٩، وأحمد ٢٩/٣، والحاكم ٦٠٠/٤ - ٦٠١ كلهم من حديث أبي سعيد، وابن لهيعة تابعه رشدين، لكن في رواية ذرّاج عن أبي الهيثم ضعف، ومع ذلك صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي هذه الأحاديث يمكن التساهل.

(٢) إلى هنا الحديث المرفوع، وما بعده من كلام يعلى بن أمية، كما هو واضح في مسند أحمد.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٠٦ وأحمد ٢٢٣/٤، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٦٩: رجال أحمد ثقات.

(٤) تقدم تخريجه في سورة إبراهيم: ١٧.

[٤٣٨٢] وقال عبد الله بن المبارك، وبقية بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن نُسْرٍ، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسَقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَٰكِدٍ﴾، قال: «يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكْرَّمُهُ، فَإِذَا قُرَّبَ مِنْهُ شَوَىٰ وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ قُرُوءُ رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَسْتَفِيشُوا بِقَاتِلُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَسْكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾»^(١). وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاحتلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يغرفهم لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يُصَبُّ عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود. ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿يَسْكُ الشَّرَابُ﴾، أي: يش هذا شراباً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَشَقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ مَّائِيَّةٍ﴾^(٢) [الغاشية: ٥]، أي: حارّة، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَّاوٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضِعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾^(٣) [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٤) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَتِمَّ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(٥)

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلمهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، والعَدْنُ: الإقامة. ﴿تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال فرعون: ﴿وَهٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا﴾ الآية. ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، أي: من الجلبية ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾، وقال في المكان الآخر: ﴿وَلَوْثُوا رَبَّاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، وقضله ها هنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، فالسندس: ثياب رفّاع رقائق كالقمصان وما جَرَى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾، الإنكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا.

[٤٣٨٣] ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا أكل متكناً»^(٦)، فيه القولان. والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة. والله أعلم. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، عن قتادة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾، قال: هي الحبال. قال معمر: وقال غيره: السُرُرُ في الحبال. وقوله: ﴿يَتِمَّ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: نغمت الجنة ثواباً على أعمالهم، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾^(٧)، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ يَمَّا صَبَرُوا وَتَلَافَتْ فِيهَا قِيَّةٌ وَسَلَامًا﴾^(٨) خَلِيدٌ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾^(٩).

(١) تقدم كسابقه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٣٩٨ والترمذي ١٨٣٠ وابن ماجه ٣٢٦٢ وأحمد ٣٠٩/٤ وابن حبان ٥٢٤٠ من حديث أبي جحيفة.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَانَتَ أَكْلَهُمَا وَلَمْ نَطْلِقْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَمْ تُمَرَّ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بستانين من أعناب، محفوظتين بالنخل المجددة في جنابتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع شمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَانَتَ أَكْلَهُمَا﴾، أي: أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ نَطْلِقْ مِنْهُ شَيْئًا﴾، أي: ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾، أي: والأنهار تتخرق فيهما ها هنا وها هنا. (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) قيل: المراد المال. روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار. وهو أظهر ها هنا، ويؤيده القراءة الأخرى. (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) بضم الشاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثمرة، كخشبة وخشب. وقرأ آخرون: ﴿ثَمَرٌ﴾ بفتح الشاء والميم. ﴿فَقَالَ﴾، أي: صاحب هاتين الجننتين ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، أي: يجادله ويخاصمه، يفخر عليه ويرأس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً. قال قتادة: تلك - والله - أمانة الفاجر: كثرة المال وعزوة الثغر.

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبّره وإنكاره المعاد، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تنفث ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، أي: كائنه، ﴿وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، أي: ولئن كان معاد وزجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا لأنني مخطف عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]. وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧]، أي: في الدار الآخرة، تألّى على الله عز وجل. وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتُصِحَّ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصِحَّ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه جُحود ربه، الذي خلقه وأبتدأ خلق الإنسان من طين، وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، أي: كيف تجحدون ربكم،

ودلالته عليكم ظاهرة جليّة، كلّ أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدّوماً ثم وُجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات، لأنه بمثابة، فعلم استناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كلّ شيء، ولذا قال المؤمن: ﴿لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾، أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية، والوحدانية، ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ كَرِهُنَا أَقَلُّ مِنكُمَا مَالًا وَلَوْلَا ۖ﴾ (٣٩) هذا تحفيض وحثّ على ذلك، أي: هلا إذ أعجبتك جنّتك حين دخلتها ونظرت إليها حمّدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يُعط غيرك، وقلت: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة.

[٤٣٨٤] وقد روي فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده. حدثنا جرّاح بن مخلّد، حدثنا عمّار بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زُرارة، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبده نعمة من أهل أو مال أو وليد، فيقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فيرى فيه آفة دون الموت». وكان يتأول هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(١). قال الحافظ أبو الفتح الأزدي: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زُرارة، عن أنس: لا يصح حديثه.

[٤٣٨٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثني شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رُفيم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إلا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله»^(٢). فنُردّ به أحمد.

[٤٣٨٦] وقد ثبت في الصحيح، عن أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال له: «إلا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٣).

[٤٣٨٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا بكير بن عيسى، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لي نبي الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قال: قلت: نعم، فذاك أبي وأمي. قال: أن تقول: لا قوة إلا بالله. قال أبو بلج: وأحسب أنه قال: فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم. قال: فقلتُ لعمرو، قال أبو بلج: قال عمرو: قلتُ لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٤).

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في «الصغير» ٥٨٨ و «الأوسط» كما في «المجمع» ١٧١٥١، وقال الهيثمي: عبد الملك بن زُرارة، ضعيف. وانظر «الميزان» ٥٢٠٦. ونسبه ابن كثير لأبي يعلى، والظاهر أنه في المسند الكبير، والخبر ضعيف بكل حال.

(٢) أخرجه أحمد ٤٦٩/٢ وإسناده لين، عبيد هو ابن كثير مقبول. والصحيح ما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٨٤ و ٦٦١٠ ومسلم ٢٧٠٤ وأبو داود ١٥٢٨ والترمذي ٣٣٧١ وأحمد ٤٠٢/٤ وأبو يعلى ٧٢٥٢.

(٤) أخرجه أحمد ٣٣٥/٢ و ٣٠٩ والبخاري ٣٠٨٦، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٩٩/١٠ وقال: رواه أحمد والبخاري بنحوه، =

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ رِبِّي أَنْ يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾، أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبديد ولا تفتن، ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، وقطادة، ومالك عن الزهري: أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه مطرٌ عظيم مزعج، يقلع رزعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فَتَصْبِحُ صَبِيحًا زَلَقًا﴾، أي: بلقماً تراباً أملس، لا يشبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجزر الذي لا يثبت شيئاً. وقوله: ﴿أَوْ يَصْبِحُ مَاوًهَا غَوْرًا﴾، أي: غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلِكٍ مُبِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، أي: جارٍ وسائح، وقال ها هنا: ﴿أَوْ يَصْبِحُ مَاوًهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾ [٤١]، والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر:

تَظَلُّ جِيَادُهُ نَزْحاً عَلَيْهِ مُقْلَدَةً أَعْنَتْهَا صُفُونَا

بمعنى: نائحات عليه.

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَلِمَتَهُ عَلَى مَا آفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [٤٢] وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا [٤٣] هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [٤٤]

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾: بأمواله، أو بشماره، على القول الآخر. والمقصود أنه وَقَعَ بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوْفَهُ به المؤمن من إرسال الحُسابان على جَنَّتِهِ التي اغتر بها وأَلْهَتَهُ عن الله عز وجل، ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَلِمَتَهُ عَلَى مَا آفَقَ فِيهَا﴾، قال قتادة: يصفق كَفْيَهُ متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها. ﴿وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [٤٢] وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً، أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز، ﴿يَصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ [٤٣] هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ - اختلف القراء ها هنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا هُنَالِكَ﴾، أي: في ذلك الموطن الذي حُلَّ به عذاب الله، فلا منقذ له منه، ويبتدىء بقوله: ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾، ومنهم من يقف على: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾، ويبتدىء بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾. ثم اختلفوا في قراءة ﴿الْوَلِيَّةُ﴾، فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك المُوَالاة لله، أي: هنالك كلُّ أحد من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى مَوَالَاتِهِ والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنْهَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٩٠] مَاتْنِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [يونس: ٩٠ - ٩١]. ومنهم من كَسَرَ الواو من ﴿الْوَلِيَّةُ﴾، أي: هنالك الحكم لله الحق. ثم منهم من رَفَعَ ﴿الْحَقُّ﴾، على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ أَلْحَقٌ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]. ومنهم من خَفَضَ القاف، على أنه نعت لله - عز وجل - كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾، أي: جزاء ﴿وَحَيْرٌ عُقْبًا﴾، أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير، وعاقبتها حَمِيدَةٌ رَشِيدَةٌ، كُلُّهَا خير.

ورجالهما رجال الصحيح، غير أبي بلج الكبير، وهو ثقة اهـ. قلت: وثقه ابن معين والنسائي والدارقطني، وقال البخاري: فيه نظر، وقال أحمد: روى حديثاً منكراً، وقال الجوزجاني: غير ثقة، وقال ابن حبان: كان يخطئ. فالخير ضعيف بهذا اللفظ، والصحيح حديث أبي موسى المتقدم.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ۝٤٥﴾ أَلَمَالٌ وَالْبُسُورُ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾، في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والشور والشجرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً، ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾، أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾، أي: هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤]... الآية، وقال في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفاً لَوْنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُخْضَجاً ثُمَّ يَجْمَعُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١١﴾. وقال في سورة الحديد: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لُبٌّ وَفُتْرٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَالُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَلًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْقُرْآنُ ۝١٢﴾.

[٤٣٨٨] وفي الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة»^(١). وقوله: ﴿أَلَمَالٌ وَالْبُسُورُ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصْمَةِ وَالْخَلْيِ السُّومَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْعَزْوَاقِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ۝١١﴾ [آل عمران: ١٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٢﴾ [التغابن: ١٥]، أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، قال ابن عباس، وسعيد بن جببر، وغير واحد من السلف: ﴿وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ﴾: الصلوات الخمس. وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جببر، عن ابن عباس: ﴿وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سُئِلَ أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - عن ﴿وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ﴾، ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[٤٣٨٩] رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سمع الحارث مولى عثمان - رضي الله عنه - يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بقاء في إناء، أظنه أنه سيكون فيه مَذٌّ، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلّى صلاة الظهر، غفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلّى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلّى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلّى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذُهِبْنَ السيئات. قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله،

وسبحانه الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١). تفرد به.

وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال محمد بن عجلان، عن عمارة قال: سألتني سعيد بن المسيب عن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فقلت: الصلاة والصيام. قال: لم تُصِب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تُصِب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن نافع بن سرجس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قاله ابن جريج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك. وقال مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنَّ الباقيات الصالحات.

[٤٣٩٠] قال ابن جرير: وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، مِنَ الباقيات الصالحات»^(٢).

[٤٣٩١] قال: وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، أن ذراجاً أبا السَّمْح حَدَّثَهُ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: استكثروا من الباقيات الصالحات. قيل: وما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: المِلَّةُ. قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التكبير، والتلهيل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٣). وهكذا رواه أحمد، من حديث دراج، به.

[٤٣٩٢] وبه قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله حَدَّثَهُ قال: أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي، فقال: قل له: أَلْقَنِي عند زاوية القبر، فَإِنِّي إِلَيْكَ حَاجَةٌ. قال: فالتقيا، فَسَلَّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، ثُمَّ قَالَ سَالِمٌ: مَا تَعْدُ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ؟ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. فقال سالم: متى جعلتَ فيها «لا حول ولا قوة إلا بالله»؟ فقال: ما زلت أجعلها، قال: فراجعته مرتين أو ثلاثاً، فلم يَنْزِعْ، قال: فَأَثَبْتُ. قال سالم: أجل قَائِبْتُ؟ فَإِنِ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِي حَدَّثَنِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهو يقول: «عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَأَرَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ، مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ. فَرَحَّبَ بِي وَسَهَّلَ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ أَمْتُكَ فَلْتَكْثُرْ مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ تَرْتِيبَهَا طَيِّبَةٌ، وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ. فقلت: وما غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله^(٤).

(١) أخرجه أحمد ٧١/١ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٩٧/١ وقال: ورجاله رجال الصحيح غير الحارث بن عبد الله، وهو ثقة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣١٠٠ وجادة، وهي أضعف أنواع تحمل الحديث. لكن للحديث ما يؤيده. وأخرجه الطبراني في «الصغير» ٤٠٧ من حديث أبي هريرة من وجه آخر بنحوه وقال الهيثمي في «المجمع» ٨٨/١٠: رجال الصغير، رجال الصحيح غير داود بن بلال، وهو ثقة اهـ.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣١٠٢ وإسناده ضعيف لضعف دراج، لكن له شواهد، راجع «المجمع»، ٨٨/١٠ - ٩١.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣٠٩٩ وإسناده ضعيف لضعف أبي صخر واسمه حيد بن زياد.

[٤٣٩٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوّام، حدثني رجل من الأنصار من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير، قال: خَرَجَ علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خَفَضَ، حتى ظَنَنَّا أنه قد حَدَثَ في السماء شيء، ثم قال: أما إنه سيكونُ بعدي أمراء، يَكْذِبُونَ وَيُظْلِمُونَ، فمن صَدَقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَمَالَاهُمْ على ظُلْمِهِمْ فليس مِنِّي ولا أنا منه، ومن لم يُصَدِّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ ولم يمالئهم على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه. أَلَا وإنَّ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» هُنَّ الباقيات الصالحات»^(١).

[٤٣٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن مَوْلَى لرسول الله ﷺ أن رسول الله قال: بَيْخُ بَيْخٍ لخمسة ما أثَقَلَهُنَّ في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يَتَوَقَّى فيحتسبه والده. وقال: بَيْخُ بَيْخٍ لخمسة، من لقي الله مستيقناً بهنَّ دخل الجنة، يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب»^(٢).

[٤٣٩٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي، عن حَسَّانَ بن عطية قال: كان شداد بن أوس - رضي الله عنه - في سفر فَتَزَلَّ منزلاً، فَقَالَ لَعَلَّامَهُ: «اتننا بالشَّفَرَةِ نَعْبَثُ بها». فَأَنْكَرْتُ عليه، فقال: ما تَكَلَّمْتُ بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أَخْطِئُهَا وَأَزْمُهَا غير كلمتي هذه. فلا تحفظوها علي، واحفظوها ما أقول لكم: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِذَا كَثُرَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَانْكَبُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّباتَ في الأمر، والعَزِمةَ على الرُّشدِ، وأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وأَسْأَلُكَ حَسَنَ عِبَادَتِكَ، وأَسْأَلُكَ قَلْباً سَليماً، وأَسْأَلُكَ لِسَاناً صَادِقاً، وأَسْأَلُكَ من خَيْرِ ما تعلم، وأَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما تعلم، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»^(٣). ثم رواه أيضاً النسائي من وجه آخر، عن شداد، بنحوه.

[٤٣٩٦] وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمي الحسين، عن يونس بن نُفَيْعِ الجَدَلِيِّ، عن سعد بن جُنَادَةَ - رضي الله عنه - قال: كُنْتُ في أَوَّلِ مَنْ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلي من السَّراةِ غُدُوَّةً، فَأَتَيْتُ مَنْى عِنْدَ الْعَصْرِ، فَتَصَاعَدْتُ فِي الْجَبَلِ ثُمَّ هَبَطْتُ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمْتُ، وَعَلَّمَنِي: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»^(٤)، و «إِذَا زُلْزِلَتْ»، وعلمني هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: «هن الباقيات الصالحات»^(٥).

[٤٣٩٧] وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومَضْمَضَ فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة - غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ إِلَّا الدَّمَاءَ فَإِنَّهَا لَا تَبْطُلُ»^(٥). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: «وَالْبَقِيَّةُ الْفَاضِلَاتُ»، قال: هي ذكرُ الله، قول: لا إله

(١) أخرجه أحمد ٢٦٧/٤ - ٢٦٨ وفي إسناده رجل لم يسم، لكن لصدوره شواهد في كتاب أحاديث الإمامة، ولعجزه شواهد، وهي المقدمة. فالتمن حسن إن شاء الله.

(٢) أخرجه أحمد ٤٤٣/٣ - ٢٣٧ وفيه ذكره الهيثمي في «المجمع» ٨٨/١٠ وقال: ورجاله رجال الصحيح، والصحابي الذي لم يسم هو ثوبان إن شاء الله.

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٣٥.

(٤) أخرجه الطبراني ٥٤٨٢، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٧٦: فيه الحسين بن الحسن العوفي، وهو ضعيف اهـ قلت: لكن لعجزه شواهد، وهي المقدمة.

(٥) إسناده كسابقه، وأصل هذا الحديث في الصحيح.

إِلَّا اللَّهَ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَتَبَارَكَ اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَالصَّبَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْحَجِّ وَالصَّدَقَةِ، وَالْعِثَّةِ، وَالْجِهَادِ، وَالصَّلَاةِ، وَجَمِيعِ أَعْمَالِ الْحَسَنَاتِ. وَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ، الَّتِي تَبْقَى لِأَهْلِهَا فِي الْجَنَّةِ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُنَّ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨) ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٤٦) ﴿وَنُفِثَ الْجِبَالُ سُفًّا﴾ (٤٧) [الطور: ٩ - ١٠]، أَيْ: تَذْهَبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَزُولُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَاوِدَةً وَفِي ثَمَرِهَا ثَمَرَاتٌ مَرَّةً مَرَّةً﴾ [النمل: ٨٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ السَّنْفُوشِ﴾ (٤٨) [القارعة: ٥]، وَقَالَ: ﴿وَنُفِثَ لَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (٤٩) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (٥٠) ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (٥١) [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهُ تَذْهَبُ الْجِبَالُ، وَتَتَسَاوَى الْمَهَادُ، وَتَبْقَى الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا، أَيْ: سَطْحًا مُسْتَوِيًا لَا عِوَجَ فِيهِ، ﴿وَلَا أَمْتًا﴾، أَيْ: لَا وَادِي وَلَا جَبَلٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أَيْ: بَادِيَةً ظَاهِرَةً، لَيْسَ فِيهَا مَغْلَمٌ لِأَحَدٍ وَلَا مَكَانٌ يُوَارِي أَحَدًا، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ضَاخُونَ لِرَبِّهِمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، لَا خَمَرٌ فِيهَا وَلَا غَيَابَةٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا بِنَاءَ وَلَا شَجَرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أَيْ: وَجَمَعْنَاهُمْ، الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ، فَلَمْ نَتْرِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا، لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ (٤٩) ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى يَوْمِ مَعْلُومٍ﴾ (٥٠) [الراقة: ٤٩ - ٥٠]. وَقَالَ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ [هود: ١٠٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: أَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ صَفًّا وَاحِدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢٨) [النبا: ٢٨]، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقُومُوا صَفُوفًا صَفُوفًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٧) [الفجر: ٢٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هَذَا تَفْرِيعٌ لِلْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ، وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخَاطَبًا لَهُمْ: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾، أَيْ: مَا كَانَ ظَنُّكُمْ أَنَّ هَذَا وَقَعُ بِكُمْ، وَلَا أَنَّ هَذَا كَائِنٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، أَيْ: كِتَابُ الْأَعْمَالِ الَّذِي فِيهِ الْجَلِيلُ وَالْحَقِيرُ، وَالْقَتِيلُ وَالْقَاطِمِيرُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، أَيْ: مِنْ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، ﴿وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا مَالٌ هَذَا﴾، أَيْ: يَا حَسْرَتَنَا وَوَيْلَنَا عَلَى مَا قَرَطْنَا فِي أَعْمَارِنَا، ﴿مَالٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، أَيْ: لَا يَتْرِكُ ذَنْبًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا عَمَلًا وَإِنْ صَغُرَ، ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، أَيْ: ضَبَطَهَا وَحَفِظَهَا.

[٤٣٩٨] وروى الطبراني، بإسناده المتقدم في الآية قبلها، إلى سفيان بن جندب قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: اجمعوا، من وجد عوداً فليأت

به، ومن وجد حطياً أو شيئاً قليلاً به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه زكاًماً، فقال النبي ﷺ: أترون هذا؟ فذلك تُجمع الذنوب على الرجل منكم كما جَمَعْتُمْ هذا. فليُتَقِ الله رجلٌ ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها مُخَصَّاةٌ عليه^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، أي: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ الْإِنْسُ يُجْزَىٰ بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُنُ السَّكَارَةُ﴾ [الطارق: ٩]، أي: تظهرُ المخبات والضمائر.

[٤٣٩٩] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شُعْبَةُ، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يُعرَفُ به»^(٢). أخرجاه في الصحيحين.

[٤٤٠٠] وفي لفظ: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِيقَافِهِ غَذْرَتَهُ، يُقَالُ: هَذِهِ غَذْرَةُ فُلَانٍ بَنِ فُلَانٍ»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظِلُّ رُكْبَكَ أَحَدٌ﴾، أي: فيحكم بين عبادته في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعمو ويصفح ويغفر ويرحم، ويُعَذَّبُ من يشاء بقدرته وحكمته وعده، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويُخَلِّدُ فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجوز ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّدَرْوٍ وَإِنَّكَ تَكُ حَسَنَةً يُصَنِّفُهَا وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَنْبَاءً عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَتَصْنَعُ الْكَوْبِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. والآيات في هذا كثيرة.

[٤٤٠١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا قُتَيْبٌ بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجلٍ سمعه من رسول الله ﷺ فاشترت بعيراً ثم شددت عليه رحلي، فميزت عليه شهراً، حتى قديمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس. فقلت للبواب: قل له: جابرٌ على الباب. فقال: ابنُ عبد الله؟ قلت: نعم. فخرجَ يَطَأُ ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعَه. فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يحشر الله - عز وجل - الناس يوم القيامة، أو قال: العباد، عُرَاءَ غُرْلٍ بَهُمَا - قلت: وما بهما؟ قال: ليس معهم شيء - ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قُرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحدٍ من أهل الجنة حق، حتى أفضه منه، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند أحدٍ من أهل النار حق حتى أفضه منه حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله عُرَاءَ غُرْلٍ بَهُمَا؟ قال: بالحسنات والسيئات^(٤).

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ٥٤٨٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٩٠/١٠: وفيه نفي بن داود، وهو ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٨٧ ومسلم ١٧٣٧ وأحمد ١٤٢/٣ وأبو يعلى ٣٣٨٢.

(٣) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٢٤.

(٤) أخرجه أحمد ٤٩٥/٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٤٥/١٠: ورجاله وثقوا.

[٤٤٠٢] وعن شعبة، عن العوّام بن مراحم، عن أبي عثمان، عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْجَنَّمَ لَتَقْتَصِرَ مِنَ الْقَرْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه عبد الله ابن الإمام أحمد. وله شواهد من وجوه أخر، قد ذكرناها عند قوله تعالى: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا»، وعند قوله تعالى: «إِلَّا أَمُّ أَتَانِكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لَكُمْ رَيْبٌ مِنْهُمْ بِمَشْرُوتٍ»^(١) [الأنعام: ٣٨].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مُتَّبِعًا بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومُفَرَّعًا لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه، وبإلطف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كُلُّه وإلى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ»، أي: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره في أول سورة «البقرة». «اسْجُدُوا لِآدَمَ»، أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُورٍ ﴿٧٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٩﴾» [الحجر، الآيتان ٢٨-٢٩]. وقوله: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ»، أي: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور.

[٤٤٠٣] كما ثبت في صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(٢). فعند الحاجة نُصَحَ كُلُّ وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّمُ بأفعالِ الملائكة وتَشَبَّه بهم، وتَعَبَّدُ وتَسَكُّ، فلهذا دخل في خطابهم، وعَصَى بالمخالفة. وَتَبَّه تعالى ها هنا على أنه «مِنَ الْجِنِّ»، أي: إنه خُلِقَ مِنْ نَارٍ، كما قال: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» [ص: ٧٦]. قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طَرَفَةً عَيْنٍ قَطُّ، وإنه لأصلُ الجنِّ، كما أن آدم - عليه السلام - أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حيٍّ من أحياء الملائكة، يقال لهم «الجنُّ»، خلقوا من نار السَّمُومِ من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، قال: وكان خازنًا من خُزَّانِ الجنة، [قال:] وخُلِقَتِ الملائكة من نور غَيْرِ هذا الحي، قال: وخُلِقَتِ الجنُّ الذين ذُكِرُوا فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهب. وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكْرَمِهِمْ قَبِيلَةً، وكان خازنًا على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا ولسطان الأرض، وكان مما سَوَّلَتْ له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شَرْفًا على أهل السماء، فوقع من ذلك في قَلْبِهِ كِبَرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. فاستخرج الله ذلك الكِبَرُ منه حين أمره بالسُّجُودِ لِآدَمَ، «وَأَسْتَكَرَّ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٣٤]، قال ابن عباس: وقوله: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ»، أي: من خُزَّانِ الجنان، كما يُقال للرجل: مَكِّي، ومَدَنِي، وبَصْرِي، وكُوفِي. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

(١) وتقدم تخريج الحديث هناك.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية ١٢.

يقول تعالى مُخْبِرًا عما يُخَاطَبُ به المشركين يوم القيامة: على رؤوس الأشهاد، تقريراً لهم وتوبيخاً: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا، ادعواهم اليوم، يُقَدِّونَكُمْ مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكِبْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَأَنْتُمْ تُلَاحِظُونَ﴾ ﴿وَمَا نَرَاكُمْ شُعَاعَةً كَمَا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ لَقَدْ قَطَعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ ﴿١٧﴾ ﴿[الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾، كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ [الاحقاف: ٥، ٦]... وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَيْكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٢١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٢٢﴾ [سرم: ٨١ - ٨٢]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾، قال ابن عباس، وقناة، وغير واحد: مَهْلِكًا. وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عَمْرًا الْبِكَالِيَّ حَدَّثَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وقال: هو واد عميق، فُِرِقَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَأَهْلِ الضَّلَالَةِ. وقال قتادة: ﴿مَوْبِقًا﴾: وادياً في جهنم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القَرَاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن دزهم، سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾، قال: واد في جهنم، من قَيْحٍ وَدَمٍ. وقال الحسن البصري: ﴿مَوْبِقًا﴾ عداوة. والظاهر من السياق ها هنا: أنه المَهْلِكُ، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا فِي الْآخِرَةِ، فلا خلاصَ لواحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مَهْلِكٌ وَهَوْلٌ عَظِيمٌ وَأَمْرٌ كَبِيرٌ. وأما إن جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه يُفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ بِهِ، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِرُ بِنَفَرٍ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ ﴿١٤﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَ يُصَدَّقُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ نَارُ الْيَوْمِ أَنبِيَاءُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [س: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارٌ تَقْبَضُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿١٧﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿١٩﴾، أي: إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها نُقَادٌ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مع كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهَمِّ والحزن لهم، فإن تَوَقَّعَ الْعَذَابَ والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز؛ وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أي: وليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها.

[٤٤٠٤] قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ فَيُظَنُّ أَنَّهَا مَوَاقِعُهَا مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(١).

[٤٤٠٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي

سَعِيدُ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُنْصَبُ الْكَافِرُ مَقْدَارُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ كَمَا لَمْ يَعْمَلْ فِي الدُّنْيَا. وَإِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ، وَيَظُنُّ أَنَّهَا مَوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(١).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَقًّا جَدًّا ٥٤﴾

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور وفصلناها لئلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

[٤٤٠٦] قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ: أَلَا تُصَلِّيَانِ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثْنَا. فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَزْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٌّ يَضْرِبُ فِخْذَهُ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَقًّا جَدًّا﴾^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ.

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَتَجِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ٥٦﴾

يخبر تعالى عن تَعَرُّدِ الْكُفْرَةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، وَتَكْذِيبِهِم بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ، مَعَ مَا يَشَاهِدُونَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْآثَارِ وَالِدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ، وَأَنَّهُ مَا مَنَعَهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ ذَلِكَ إِلَّا طَلَبُهُمْ أَنْ يَشَاهِدُوا الْعَذَابَ الَّذِي وَعَدُوا بِهِ عَيْنًا، كَمَا قَالَ أُولَئِكَ لِنَبِيِّهِمْ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٨٧﴾. وَآخَرُونَ قَالُوا: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنِّكَ فَانْظِرْ عَلَيْنَا حِسَابَهُ إِنْ كُنَّا نَكْفُرُ بِعَذَابِ آلِهَةٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وَقَالُوا: يَأْتِيهَا إِلَهِي نُزْلٌ عَلَيْهِ الْإِكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ٥٥ لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكِ كَذِبًا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٥٦﴾ [الحجر: ٦، ٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾، مِنْ غَشْيَانِهِم بِالْعَذَابِ، وَأَخَذِهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أَي: يَرَوْنَهُ عَيْنًا مُوَاجِهَةً وَمُقَابِلَةً، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، أَي: قَبْلَ الْعَذَابِ مُبَشِّرِينَ مِنْ صَدَقَتِهِمْ وَأَمْنِهِمْ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكَفَارِ بِأَنَّهُمْ يَجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أَي: لِيُضَعِفُوا بِهِ ﴿الْحَقَّ﴾ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلٍ لَهُمْ.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٧٥/٣ وَأَبُو يَعْلَى ١٣٨٥ وَالْحَاكِمُ ٥٩٧/٤ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَكَذَا حَسَنَةُ الْهَيْثَمِيِّ ٣٣٦/١٠ «مَجْمَعٌ» مَعَ أَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ دَرَجٍ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، وَفِيهَا ضَعْفٌ. لَكِنْ وَرَدَ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنْ دَرَجٍ عَنْ ابْنِ حَبِيرة، وَهُوَ ثِقَةٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا، أَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَانَ ٧٣٥٢، وَدَرَجٌ حَسَنَ الْحَدِيثِ فِي رِوَايَتِهِ عَنْ غَيْرِ أَبِي الْهَيْثَمِ، وَقَدْ حَسَنَ إِسْنَادُهُ الشَّيْخُ شُعَيْبٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(٢) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ١١٢٧ وَ٤٧٢٤ وَمُسْلِمٌ ٧٧٥ وَالنَّسَائِيُّ فِي «التَفْسِيرِ» ٣٢٥ وَاحِدٌ ٩١/١ وَابْنُ حَبَانَ ٢٥٦٨.

﴿وَأَنذَرُوا عَائِنِي وَمَا أَنذَرُوا هُزُرًا﴾، أي: اتخذوا الحُجَجَ والبراهين وخَوَارِقَ العادات التي بُعِثَ بها الرسلُ وما أُنذروهم وخَوَفوهم به من العذاب ﴿هُزُرًا﴾، أي: سَخِرُوا منهم في ذلك، وهو أشدُّ التَكْذِيبِ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْأَفْرُوسُ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: وإني عباد الله ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾، أي: غطية وغشاوة، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: صمم معنوي عن الرشد، ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، أي: ربك - يا محمد - غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِيهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشد، ومن استمر منهم فله يوم يثيب فيه الوليد، ونضع كل ذات حمل حملها. ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾، أي: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا مغيد. وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَفْرُوسُ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكتناهم بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾، أي: جعلناهم إلى مدة معلومة ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي وتلدري.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّى أَتِلْغَ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمُوتَ حَقًّا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَيْسَنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

سَبَبُ قول موسى - عليه السلام - لفتاه، وهو يوشع بن نون، هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحظ به موسى، فاحبب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَا أُبْرَحُ حَتَّى أَتِلْغَ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ﴾، أي: لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَثَ نِسَاؤُهُمْ بِطُحَاءِ ذِي قَارِ، عِيَابَ اللَّطَائِمِ

قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ أَمَضَى حُقْبًا﴾، أي: ولو أنني أسير حقبا من الزمان. قال ابن جرير رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْب في لغة قيس سَنَةٌ. ثم رَوَى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقْب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سَبْعُونَ خريفاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمَضَى حُقْبًا﴾، قال: دهرأ. وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثَمَّة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: عين الحياة، فناما هناك، وأصاب الحوت من رَشَاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مِكَتَلٍ مع يَوْشَعَ، وطَفَر^(١) من المِكَتَل إلى البحر، فاستيقظ يَوْشَعَ - عليه السلام - وسقط الحوت في البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتصم بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، أي: مثل السَّرب في الأرض. قال ابن جريج: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حَجَر، وقال العوفي، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا ييس، حتى يكون كَصَخْرَةٍ.

[٤٤٠٧] وقال محمد - هو ابن إسحاق - عن الزُّهري، عن عُبَيْد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أَبِي بِن كَعْبٍ قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالْكُوة حتى رجع إليه موسى فرأى مَسْلَكَهُ، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُغُ﴾^(٢). وقال قتادة: سَرَبٌ مِنَ الْبَرِّ^(٣) حتى أفضى إلى البحر، ثم سَلَكَ فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، أي: المكان الذي نسيَا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يَوْشَعَ هو الذي نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح على أحد القولين. فلما ذهبوا عن المكان الذي نسياه فيه مَرْحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتْنَةٍ مِّنَّا غَدَاةً لَّقَدْ لَبِيتْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا﴾، أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَسِيًّا﴾، يعني تعباً. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ﴾، قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: «أَذْكُرْهُ». ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾، أي: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُغُ﴾، أي: هذا الذي نطلب، ﴿فَارْتَدَّا﴾، أي: رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾، أي: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾، أي: يَقْصُصَانِ أثر مشيهما، ويقفون أثرهما. ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا لَيْنًا رَّحِيمًا مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾^(٤)، وهذا هو الْخَضِرُ عليه السلام، كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة بذلك عن رسول الله ﷺ.

[٤٤٠٨] قال البخاري: حدثنا الحُمَيْدِيُّ، حدثنا سفيان، حدثنا عَمْرُو بن دينار، أخبرني سعيد بن جُبَيْر قال: قلت لابن عباس: إن تَوْفَا الْبِكَالِي يزعم أن موسى صاحب الْخَضِرِ ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس: كَذَبَ عَدُوُّ الله. حدثنا أَبِي بِن كَعْبٍ - رضي الله عنه - أنه سَمِعَ رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فُسِّيل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فَعَتَبَ الله عليه إذ لم يَرُدْ

(١) المِكَتَل: زنبيل يُعْمَل من خوص. وطفر: وثب.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣١٨٥، بإسناد ضعيف، ابن إسحق مدلس، وقد عنعن.

(٣) كذا في الأصل والذي في تفسير الطبري ٢٣١٨٧ «الجزء بدل البر». والجزء: الحبل.

الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. فقال موسى: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قال: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا، فَتَجْعَلُهُ فِي مَكْتَلٍ، فحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحَوْتَ فَهُوَ ثَمٌّ. فَأَخَذَ حُوتًا، فَجَعَلَهُ بِمَكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حَتَّى إِذَا أَتَى الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحَوْتُ فِي الْمَكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحَوْتَ جَزِيَّةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ. فَلَمَّا اسْتَيْقِظَ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحَوْتَ، فَانْطَلَقَا بِقِيَةِ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿إِنِّيَا عَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾. وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَا الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ. قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْحَوْتَ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قَالَ: فَكَانَ لِلْحَوْتَ سَرَبًا وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قَالَ: فَجَعَلَا يَقْضَانِ أَثَرَهُمَا، حَتَّى انْتَهِيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فإِذَا رَجُلٌ مُسَخًى يَتَوَبُّ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِيرُ: وَآتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامَ. قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لَتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٥٧)، يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمِيهِ، لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمَكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ. فَقَالَ مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. قَالَ لَهُ الْخَضِيرُ: ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَكْبِرْ عَنْ شَيْءٍ وَحَقِّ أُسُوتِ لَكَ إِنَّهُ ذِكْرٌ﴾. فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ فَعَرَفُوا الْخَضِيرَ، فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِيرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنَ الْوِاحِ السَّفِينَةَ بِالْقُدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا، لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. ﴿قَالَ أَأَنْتَ أَقَلُّ إِنْ لَكَ أَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٥٨) قَالَ لَا تُؤَايِدُنِي بِمَا كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ لَقَدْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ إِمْرًا. قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا». قَالَ: وَجَاءَ عَصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْبِ السَّفِينَةِ، فَفَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَفْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِيرُ: مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعَصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ. ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِيرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِيرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَفَلَيْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً يَقْدِرُ نَفْسٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٥٩) ﴿قَالَ أَأَنْتَ أَقَلُّ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٠). قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى. ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْغِرْ فَقَدْ بَلَّغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا﴾ (٦١) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ، قَالَ: مِثْلُ، فَقَالَ الْخَضِيرُ بِيَدِهِ «فَأَقَامَهُ»، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمُ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يَطْعَمُوا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا «لَوْ شِئْتَ لَخَدَدْتَ عَلَيْهِمْ جَنَاحًا» (٦٢) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَيْتُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٦٣). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَوَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقْضَى اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا». قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا»، وَكَانَ يَقْرَأُ: «وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ» (١).

[٤٤٠٩] ثم رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ قُتَيْبَةَ، عَنْ سَفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، فَذَكَرَ نَحْوَهُ، وَفِيهِ: «فَخَرَجَ مُوسَى وَمَعَهُ فَتَاهُ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ، وَمَعَهُمَا الْحَوْتُ حَتَّى انْتَهِيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَتَزَلَا عَنْهَا، قَالَ: فَوَضَعَ مُوسَى رَأْسَهُ فَنَامَ، قَالَ سَفْيَانُ: وَفِي حَدِيثٍ غَيْرِ عَمْرٍو قَالَ: وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا الْحَيَاةُ، لَا يَصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٥ واحد ١١٧/٥ و ١١٨ و مسلم ٢٣٨٠ وأبو داود ٤٧٠٧ والترمذي ٣١٤٩ وابن حبان ٦٢٢٠ من طرق عن سفيان به.

حَيٍّ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسلَّ من المِكتَل، فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفته: ﴿إِنَّا عَدَاْنَا﴾. الآية قال، وساق الحديث: «ووقع عصفورٌ على حرف السفينة، فغمسَ منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلمُ الخلائق في عِلْمِ الله إلا مقدارٌ ما غمس هذا العصفورُ منقاره». وذكر تمامه بنحوه^(١).

[٤٤١٠] وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبَّير - يزيد أحدهما على صاحبه - وغيرهما قد سمعته يُحدِّث عن سعيد بن جبَّير قال: إنَّا لعند ابن عباس في بيته، إذ قال: سلُوني. فقلت: أيُّ أبا عباس. جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاصٌّ، يقال له «نُوفٌ»، يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل - أما عمرو فقال لي: قال: كَذَبَ عَدُو الله. وأما يغلى فقال لي: قال ابن عباس: حَدَّثَنِي أَبِي بن كعب قال: قال رسولُ الله ﷺ: موسى رسولُ الله، ذَكَرَ النَّاسَ يوماً، حتى إذا فاضَتِ العيونُ ورَقَّتِ القلوبُ وَلَّى فادركه رجل فقال: أيُّ رسولَ الله، هل في الأرض أحد أعلمُ منك؟ قال: لا. فعتَبَ الله عليه إذ لم يَزِدْ العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أيُّ ربِّ، وأين؟ قال: بمجمَع البحرين. قال: أيُّ رب، اجعل لي علماً أعلمُ ذلك به. قال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت. وقال لي يعلى: خُذْ حوتاً ميتاً حيث يُنفَخ فيه الروح. فأخذ حوتاً فجعله في مِكتَل، فقال لفته: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كَلَّفْتُ كبيراً. فذلك قوله جلَّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ﴾ يُوْشَع بن نُون، ليست عن سعيد بن جبَّير - قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثُرَيَّان^(٢) إذ تَضَرَّبَ الحوت وموسى نائم، فقال لفته: لا أوقظُه، حتى استيقظ فتَسي أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جزيَّة الماء حتى كأنَّ أثره في حَجَرٍ، قال: فقال لي عمرو: هكذا كأنَّ أثره في حَجَرٍ، وحلَّق بين إيهاميه واللتين تليانيهما - ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، قال: «وقد قطع الله عنك النَّصَب» ليست هذه عن سعيد أخبره - فرجعاً فوجدا خَضِرًا. قال: قال لي عثمان بن أبي سليمان: على طِفْئَةِ خضراء على كبد البحر. قال سعيد بن جبَّير: مُسَجَّى بثوب، قد جعل طرفه تحت رجله، وطرفه تحت رأسه، فسَلَّم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضي من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتُك لِتُعَلِّمَنِي مما عَلَّمْتَ رُشدًا. قال: أما يكفيك أن التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك. يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جَنِبِ علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، حتى إذا ركباً في السفينة وجدا مَعَابِرَ صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى ذلك الساحل الآخر - عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح؟ - قال: قلنا لسعيد: خَضِرٌ؟ قال نعم: لا تحمله بأجر. فخرَّقهَا، وَوَدَّ فِيهَا وَتَدَا. قال موسى: ﴿أَخْرَقَهَا لِنَارِكَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ - قال مجاهد: منكرًا - قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عَمْدًا. قَالَ لَا تُؤْخِذُنِي بِمَا نَيْبِشْتَ وَلَا تَهْجِنِي مِنْ أَمْرِ عَسْرًا، فانطلقا حتى لقيَا غلاماً قَتَلَهُ - قال يعلى: قال سعيد، وجد غلاماً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظَرفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، قال: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾: لم تَعْمَل الجُنْحَ، وابن عباس قرأها ﴿زَكِيَّةً﴾ - ﴿زَكِيَّةً﴾: مُسَلِّمَةٌ كقولك: غلاماً زكياً - فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٧ وانظر ما تقدم.

(٢) الثريان: يقال ذلك إذا رسخ المطر في الأرض حتى التقى ونداما.

ينقض فأقامه قال بيده، هكذا ورفع بيده فاستقام - قال يَغْلَى: حَبِيبْتُ أَنْ سَعِيداً قال: فَمَسَحَ بيده فاستقام، قال: ﴿لَوْ شِئْتُ لَنُخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، قال سعيد: أجراً نأكله. ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُ مَلِكٌ﴾: وكان أمامهم، قراها ابن عباس: «أمامهم ملك»، يزعمون عن غير سعيد أنه هُذَذُ بْنُ بُدَدَ، والغلام المقتول اسمه - يزعمون - جيسور ﴿يَتَّخِذُ كُلُّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فأردت إذا هي مرت به أن يَدْعُهَا بعيها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها. ومنهم من يقول: سَدُّوْهَا بِقَارورة، ومنهم من يقول: بالقار. ﴿فَكَانَ أَبُوهُمُ الْمُؤْتِنَ﴾، وكان كافراً، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾. أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ﴿فَارْزُقَا أَنْ يَبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ لقوله: ﴿أَفَلَنْ تَقْسَازَكِيَّةً﴾. وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: هما به أرحمُ منهما بالأول الذي قتل خَضِرُ. وَزَعَمَ غيرُ سعيد بن جبير أنهما أبديلا جارية. وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية^(١). وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب موسى - عليه السلام - بني إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني. فَأَمِرَ أَنْ يُلْقَى هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان؛ والله أعلم.

[٤٤١١] وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عُمارة، عن الحكم بن عَتِيبة، عن سعيد بن جبير قال: جلستُ عند ابن عباس، وعنده نُقُرٌ من أهل الكتاب، فقال بعضهم: يا أبا العباس، إن نوحاً ابن امرأة كعب يزعم عن كعب، أن موسى النبي الذي طَلَبَ العالم إنما هو موسى بن ميثا؟ قال سعيد: فقال ابنُ عباس: أتوفٍ يقولُ هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سمعتُ نوحاً يقولُ ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم، قال: كَذَبَ نَوْفٌ. ثم قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: أن موسى بن إسرائيل سأل ربه فقال: أي رب، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني، فدلني عليه. فقال له: نعم، في عبادي من هو أعلم منك. ثم نعت له مكانه وأذن له في لِقَائِهِ. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوثٌ مَلِيحٌ، قد قيل له إنه إذا حَيِيَ هذا الحوث في مكان فصَاحِبُكَ هنالك، وقد أدركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوث يحملانه، فسار حتى جَهِدَ السير، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء ماء الحياة، من شرب منه خَلَدَ، ولا يقاربه شيء مِتَّ إِلَّا حَيِيَ. فلما نَزَلَا وَمَسَّ الحوث الماء حَيِيَ ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَرَكًا﴾. فانطلقا فلما جاوزا مُنْقَلَبَهُ قال موسى لفتاه: ﴿إِنَّا عَدَاءُكَ لَقَدْ لَبِيتْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قال الفتى، وَذَكَرَ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْمَوْتُ وَمَا أُنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرُ وَأَتَّخِذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ حَبْرًا﴾، قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا إليها، فإذا رجلٌ مُتَلَفِّفٌ في كساء له، فسلم موسى عليه، فرد عليه العالم، ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك في قومك لَشَغْلٌ؟ قال له موسى: جئتُك لِتُعَلِّمَنِي مما عَلَّمْتَ رُشْدًا. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. وكان رجلاً يَعْلَمُ عِلْمَ الْغَيْبِ، قد عَلَّمَ ذلك - فقال موسى: بلى. قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا تَرَى يُطْرَقُ بِهِ خَيْرٌ﴾؟ أي: إنما تعرف ظاهر ما تَرَى من العدل، ولم تُحِطْ من علم الغيب بما أعلم. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. وإن رأيتُ ما يخالفني، قال: ﴿فَإِنْ أَكْبَهْتَنِي فَلَا تُنْكَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾. وإن أنكرته - ﴿حَقٌّ أَتَوْهُ لَكَ مِنْهُ ذِكْرٌ﴾. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرَّضان الناس، يَلْتَمِسَانِ مَنْ يَحْمِلُهُمَا، حتى مَرَّتْ بهما سفينةٌ جديدة وثيقة، لم يمرَّ بهما من السفن شيء أحسن ولا أجمل ولا أوثق منها. فسألا أهلها أن يحملوهما، فَحَمَلُوهُمَا، فلما اطمأننا فيها وَلَجَجَتْ بهما مع أهلها، أخرج مِثْقَاراً له ويطرقة، ثم عَمَدَ إلى ناحيةٍ منها فَضْرَبَ فيها بالمتقار

حتى خَرَقَهَا. ثم أخذ لوحاً فطَبَّقَهُ عليها، ثم جلس عليها يَرْقَعُهَا. فقال له موسى، وَرَأَى امراً فَطَع به: ﴿أَخْرَقَهَا لِنَفْسِكَ أَهْلَكَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا﴾ (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤْيِسْ بِي مَا نَسِيتُ، أي: بما تَرَكْتُ من عَهْدِكَ، ﴿وَلَا تُؤْيِسْ بِي مِنْ أَمْرِ عَصْرًا﴾. ثم خرجا من السفينة فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قرية فإذا غلمانٌ يَلْعَبُونَ خَلْفَهَا، فيهم غلام ليس في الغلمان غلامٌ أَظْرَفَ منه ولا أَثْرَى ولا أَوْضَأَ منه، فأخذه بيده، وأخذ حجراً، قال: فَضْرَبَ بِهِ رَأْسَهُ حَتَّى دَمَعَهُ فَقَتَلَهُ، قال: فرأى موسى امراً فَطِيعاً لا صَبْرَ عَلَيْهِ، صَبِي صغير قتله لا ذَنْبَ لَهُ، قال: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْساً ذَكِيَّةً﴾، أي: صَغِيرَةً ﴿بِعَمَلٍ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً لَكْرًا﴾ (٧٣) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ قَوْمٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصِيبَنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٥﴾، أي: قد اغْدَرْتُ فِي شَانِي، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَتَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾، فَهَدَمَهُ ثُمَّ قَعَدَ بَيْنَهُ، فَصَجَرَ مُوسَى مِمَّا يَرَاهُ يَصْنَعُ مِنَ التَّكْلِيفِ، وَمَا لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِ صَبْرٌ، فَقَالَ: ﴿لَوْ شِئْتُ لَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: قد اسْتَطَعْنَا هُمُ فَلَمْ يُطِيعُونَا، وَضِفْنَا هُمُ فَلَمْ يُضَيِّقُونَا، ثُمَّ قَعَدْتُ تَعْمَلُ مِنْ غَيْرِ صَنِيعَةٍ، وَلَوْ شِئْتُ لَأَعْطَيْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا فِي عَمَلِهِ. قال: ﴿هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأَيْتُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٦) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَمِيبَهَا وَكَانَ وَكَلَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٧﴾ - وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: «كل سفينة صالحة» - وَإِنَّمَا عِثْنُهَا لِأَرَدَهُ عَنْهَا، فَسَلِمَتْ مِنْهُ حِينَ رَأَى الْعَيْبَ الَّذِي صَنَعَتْ بِهَا. ﴿وَأَمَّا الْفُلُفُلُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَأَخْبَرْنَاهُمَا طَعْنًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنَّا عَنْ أَمْرِهِ﴾، أي: مَا فَعَلْنَاهُ عَنْ نَفْسِي، ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. فكان ابن عباس يقول: مَا كَانَ الْكَثْرُ إِلَّا عِلْمًا^(١).

[٤٤١٢] وقال العوفي، عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله: أَنْ ذَكَّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ^(٢). فخطب قومه، فَذَكَرَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ، وَذَكَّرَهُمْ إِذْ أَنْجَاهُمُ اللَّهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَذَكَّرَهُمْ هَلَاكَ عَدُوِّهِمْ، وَمَا اسْتَخْلَفَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَقَالَ: كَلِمَ اللَّهُ نَبِيَّكُمْ تَكْلِيمًا، وَاصْطَفَانِي لِنَفْسِي، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ مِجَّةً مِنْهُ، وَأَتَاكُمْ اللَّهُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، فَنَبِيَّكُمْ أَفْضَلَ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَنْتُمْ تَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ، فَلَمْ يَتْرِكْ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ذَكَرَهَا وَعَرَّفَهُمْ بِهَا. فقال له رجل من بني إسرائيل: هُنَّ كَذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْنَا الَّذِي تَقُولُ، فَهَلْ عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا. فَبِعَثَ اللَّهُ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَمَا يُدِيرُكَ أَيْنَ أَضْعُ عِلْمِي؟ بَلَى، إِنْ عَلَى شَطْطِ الْبَحْرِ رَجُلًا أَعْلَمُ مِنْكَ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْخَضِرُ - فَسَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ إِيَّاهُ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: أَنْ أَتِ الْبَحْرَ، فَإِنَّكَ تَجِدُ عَلَى شَطْطِ الْبَحْرِ حُوتًا، فَخُذْهُ فَادْفَعْهُ إِلَى قِتَاكَ، ثُمَّ الزَمْ شَطْطَ الْبَحْرِ، فَإِذَا نَسِيتَ الْحَوْتَ وَهَلَكَ مِنْكَ فَتَمَّ تَجَدُّ الْعَبْدِ الصَّالِحِ الَّذِي تَطْلُبُ. فلما طَالَ سَفَرُ مُوسَى نَبِيَّ اللَّهِ وَنَصِبَ فِيهِ سَالٌ فَتَاهُ عَنْ الْحَوْتَ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ وَهُوَ غَلَامُهُ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَكْسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك، قَالَ الْفَتَى: لَقَدْ رَأَيْتُ الْحَوْتَ حِينَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ. فَارْجَعَ حَتَّى أَتَى الصَّخْرَةَ فَوَجَدَ الْحَوْتَ، فَجَعَلَ الْحَوْتَ يَضْرِبُ فِي الْبَحْرِ وَتَبِعَهُ مُوسَى، وَجَعَلَ مُوسَى يَقْدُمُ عَصَاهُ يَفْرُجُ بِهَا عَنْهُ الْمَاءَ يَتَّبِعُ الْحَوْتَ، وَجَعَلَ الْحَوْتَ لَا يَمَسُّ شَيْئًا مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا يَسِسَ، حَتَّى يَكُونَ

(١) أخرجه الطبري ٢٣٢٠٩، وإسناده ضعيف، فيه عن عنة ابن إسحق، وضعف الحسن بن عمار.

(٢) انظر سورة إبراهيم: ٥.

صخرة، فجعل نبي الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقى الخضر بها فسلم عليه، فقال الخضر: وعليك السلام. وأتى يكون هذا السلام بهذه الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال الخضر: أصحاب بني إسرائيل؟ قال: نعم. فرحب به وقال: ما جاء بك؟ قال: جئتك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألني عن شيء أصنعته حتى أبين لك شأنه، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (١).

[٤٤١٣] وقال الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو والخضر بن قيس بن حضن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر. فمرّ بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيته، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بيننا موسى - عليه السلام - في ملا من بني إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لقيته، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت، فارجع فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر. فقال فتى موسى لموسى: «أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نبئت الحوت؟» قال موسى: «ذلك ما كنا تبع فآرقدنا على آثارهما قصصًا». فوجدنا عبدنا خضرًا، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه (٢).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى - عليه السلام - لذلك الرجل العالم، وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ﴾، سؤال بتلطف لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَيْتُكَ﴾، أي: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: مما علمك الله شيئاً استرشد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، أي: أنت لا تقدر أن تصابريني، لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنني على علم من علم الله ما علمك الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيته الله، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ ٦٨، فإنا أعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما أطلعت على حكمته ومصالحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾، أي: على ما أرى من أمورك، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، أي: ولا أخالفك في شيء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ ابتداء ﴿حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب عن هارون بن عثرة، عن أبيه عن ابن عباس قال: سأل

(١) أخرجه الطبري ٢٣٢١١ موقوفاً على ابن عباس، وهو ضعيف لضعف العوفي وهو عطية بن سعد.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٤ والطبري ١٣٢١٣.

موسى عليه السلام ربه - عز وجل - قال: أي رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأني عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أي رب، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يتبعني علم الناس إلى عليه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. قال: أي رب، فهل في الأرض أعلم مني؟ قال: نعم. قال: فمن هو؟ قال: الخضر. قال: فأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله، وانتبه موسى إليه عند الصخرة، فسلم كل واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إني أريد أن تصحبني. قال: إنك لن تطيق صحبتي. قال: بلى. قال: فإن صحبتني ﴿فَلَا تَتْلَوْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، قال: فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحور، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه. قال: ويحك الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزاً^(١) من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزاً. قال: يا موسى، فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء. وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه، أو تكلم به، فمن ثم أير أن يأتي الخضر^(٢). وذكر تمام الحديث في خرق السفينة وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدىء به من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة. وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرّفوا الخضر، فحملوهما بغير نول - يعني بغير أجرة - تكريماً للخضر. فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولججت، أي: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من الواحها، ثم رقعها، فلم يملك موسى - عليه السلام - نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿أَخَرَقَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا﴾. وهذه اللام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر:

لَبَدُوا لِلْمَوْتِ وَابْتَدَأُوا لِلْخَرَابِ

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، قال مجاهد: منكراً. وقال قتادة: عجباً. فعندها قال له الخضر مُدْكراً بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك ألا تنكر علي فيها، لأنك لم تحط بها خيراً، ولها داخل هو مصلحة، ولم تعلمه أنت. ﴿قَالَ﴾، أي موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، أي: لا تضيق علي ولا تشدد. ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

عَذْرًا ﴿٧٦﴾

(١) رزاه: أصاب منه شيئاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٢٠٤ هكذا موقوفاً، وإسناده غير قوي لأجل هارون بن عترة.

يقول تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾، أي: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَبَيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾. وقد تقدّم أنّه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمّد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم، فقتله، قروي أنه احتزّ رأسه، وقيل: رَضَخه بحجر. وفي رواية: اقتلعه بيده. فالله أعلم. فلما شاهد موسى - عليه السلام - هذا أنكره أشدّ من الأول، وبادر فقال: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا رَّكِيَةً﴾، أي: صغيرة لم تعمل الحنث، ولا حملت إثماً بعد قتلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغير مُسْتَنَدٍ لقتله، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾، أي: ظاهر النكارة. ﴿قَالَ أَتَرَأَىٰ لَكَ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥)، فأكد أيضاً في التذكّار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾، أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة، ﴿فَلَا تُصِحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾، أي: قد اغدّرت إليّ مرة بعد مرة.

[٤٤١٤] قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حفصة الزيات، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ مُوسَى، لو كنت مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصِحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾، مُثَقَّلَةٌ (١).

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابُوا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُمَا قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَيْتُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما أنّهما انطلقا بعد المرتين الأوليين، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، روى ابن جرير، عن ابن سيرين أنها الآية.

[٤٤١٥] وفي الحديث: «حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِثَامًا» (٢)، أي: بخلاء، ﴿فَابُوا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾، إسناد الإرادة هنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإنّ الإرادة في المحدثات بمعنى الميل. والانقضاء هو السقوط. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُمَا﴾، أي: فرّده إلى حالة الإستقامة. وقد تقدّم في الحديث أنه رَدّه بيديه، ودَعَمه حتى رَدّ ميله. وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: لأجل أنهم لم يُضَيِّقُونَا، كان ينبغي ألاّ تعمل لهم مجاناً، ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهذا فراق بيني وبينك، ﴿سَأْنَيْتُكَ بِتَأْوِيلٍ﴾، أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩)

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى - عليه السلام - وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر - عليه السلام - على حكمة باطنه، فقال: أما السفينة فإنما خَرَقْتُهَا لأعيبها، لأنهم كانوا يمرّون بها على ملك من

(١) صحيح. أخرجه الطبري ٢٣٢٣٢ بهذا الإسناد. وأخرجه أبو داود ٣٩٨٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٣١٠ وابن حبان ٩٨٩ من طرق عن حمزة الزيات به. وهو حديث صحيح. وأخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢ في أثناء حديث طويل.

(٢) جاء في رواية مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢، دون البخاري.

الظَّلَمَةَ، يأخذ كل سفينة صالحة، أي: جيدة غَضَباً، فاردت عَيْبُهَا لَأَرُدَّهَ عنها بِعَيْبِهَا فَيَنْتَفِعَ بها أصحابُها من المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام. وروى ابن جُرَيْج، عن وهب بن سليمان، عن شُعَيْب الجَبْيِيِّ: أن اسمَ ذلك المَلِكِ هُذُلُ بْنُ بُدَد. وتقدم أيضاً في رواية البخاري، وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق، وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨١)

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جَيْشُور.

[٤٤١٦] وفي الحديث عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طُبعَ يوم طبع كافرًا»^(١). رواه ابن جرير من حديث أبي إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، به، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، أي: يحملهما حُبَهُ على متابعتة على الكفر. قال قتادة: قد فَرِحَ به أبواه حين وُلِدَ، وحَزَنَّا عليه حين قُتِلَ، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليَرْضَ امرؤُ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمنين فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب.

[٤٤١٧] وصح في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قِضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أي: ولدًا أذكى من هذا، وهما أرحم به منه. قال ابن جُرَيْج. وقال قتادة: أَبْرَ بوالديه. وقد تقدم أنهم بُدِّلَا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حَامِلًا بغلام مسلم. قاله ابن جُرَيْج.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٢)

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً: ﴿حَقَّقْ إِذَا نَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، وقال ها هنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، يعني مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصْلَحَ لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة، وقاتدة، وغير واحد: كَانَ تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان تحته كَنْزٌ عِلْمٌ، وكذا قال سعيد بن جُبَيْر. وقال مجاهد: صُحُفٌ فيها عِلْمٌ. وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك:

[٤٤١٨] قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البَزَّاز - في مسنده المشهور -.. حدثنا

(١) أخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢ والترمذي ٣١٤٨ في أثناء حديث طويل. وأخرجه أبو داود ٤٧٠٥ و ٤٧٠٦ والطبري ٢٣٢٤٧ وابن حبان ٦٢٢٢ من حديث أبي بن كعب مختصراً.

(٢) صحيح. وقد تقدم.

إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله اليحصبي، عن عياش بن عباس القتيبي، عن ابن حُجيرة، عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - رَفَعَهُ قَالَ: إِنْ الْكَتَرُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ مُضْمَتٌ ^(١) مَكْتُوبٌ فِيهِ: عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ، لِمَ يَنْصِبُ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ النَّارَ، لِمَ يَضْحَكُ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ، لِمَ غَفَلَ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ^(٢). وبشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المصيصة، قال الحافظ أبو جعفر العُقيلي: فِي حَدِيثِهِ وَهَمٌ. وقد روي في هذا آثار عن السلف. فقال ابن جرير في تفسيره: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ حَبِيبٍ بْنُ نَدْبَةَ، حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، عَنْ نَعِيمِ الْعَنْبَرِيِّ - وَكَانَ مِنْ جُلَسَاءِ الْحَسَنِ - قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ - يَعْنِي الْبَصْرِيَّ - يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾، قَالَ: لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ مَكْتُوبٌ فِيهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ الْقَدَرِ، كَيْفَ يَحْزَنُ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُوقِنُ بِالْمَوْتِ، كَيْفَ يَفْرَحُ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَتَقْلِبُهَا بِأَهْلِهَا، كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا؟ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وَحَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ عَمْرِو مَوْلَى عُفْرَةَ قَالَ: إِنْ الْكَتَرُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِي السُّورَةِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا الْكَهْفُ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾، قَالَ: كَانَ لَوْحًا مِنْ ذَهَبٍ مُضْمَتٍ، مَكْتُوبًا فِيهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجِبْتُ لِمَنْ عَرَفَ النَّارَ ثُمَّ ضَحِكَ. عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ نَصِبَ. عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثُمَّ آمَنَ. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَحَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ حَازِمٍ الْغَفَّارِيُّ، حَدَّثَنَا هُنَادَةُ بْنُث مَالِكُ الشَّيْبَانِيُّ قَالَتْ: سَمِعْتُ صَاحِبِي خَمَادَ بْنَ الْوَلِيدِ الثَّقَفِي يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾، قَالَ: سَطْرَانٌ وَنِصْفٌ لَمْ يَتِمَّ الثَّالِثُ: عَجِبْتُ لِلْمُوقِنِ بِالرِّزْقِ كَيْفَ يَتَعَبُ؟ وَعَجِبْتُ لِلْمُوقِنِ بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَغْفُلُ؟ وَعَجِبْتُ لِلْمُوقِنِ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ فِتْنًا حَسِيرَةً﴾ [الأنبياء: ٤٧]. قَالَتْ: وَذَكَرَ أَنَّهُمْ حَفِظُوا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهُمَا صَلاَحَ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْأَبِ الَّذِي حَفِظَا بِهِ سَبْعَةَ أَبَاءَ، وَكَانَ نَسَاجًا. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ لَا أَلَمَةَ، وَوَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الْمَتَقَدِّمُ، وَإِنْ صَحَّ ^(٣) لَا يَنَافِي قَوْلُ عِكْرَمَةَ: إِنَّهُ كَانَ مَالًا؛ لِأَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ لَوْحًا مِنْ ذَهَبٍ، وَفِيهِ مَالٌ جَزِيلٌ، أَكْثَرُ مَا زَادُوا أَنَّهُ كَانَ مُودَعًا فِيهِ عِلْمٌ، وَهُوَ جَكَمٌ وَمَوَاعِظُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يُحْفَظُ فِي ذَرِيَّتِهِ، وَتَشْمَلُ بَرَكَةُ عِبَادَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِشَفَاعَتِهِ فِيهِمْ وَرَفَعُ دَرَجَتِهِمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، لَتَقَرَّ عَيْنُهُ بِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَوَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: حَفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمَا صَلاَحَ. وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ الْأَبُ السَّابِعُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾، هَا هُنَا أَسْنَدُ الْإِرَادَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ بُلُوغَهُمَا الْحُلُمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ. وَقَالَ فِي الْغَلَامِ: ﴿فَأَرَادْنَا أَنْ يُبَيِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وَقَالَ فِي السَّفِينَةِ: ﴿فَأَرَادْتُ أَنْ أُبَيِّبَهَا﴾، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أي خالص، لا يخالطه شيء.

(٢) إسناد ضعيف، والمتن منكر، أخرجه البزار ٢٢٢٩ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١١٥١: بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقي رجاله ثقات. أهد، قلت: بشر بن المنذر، صدوق، ذكره ابن أبي حاتم، وعلة الحديث، شيخه الحارث اليحصبي، فإنه مجهول، والمتن منكر، والأشبه أنه متلف عن أهل الكتاب، وليس بمرفوع، وقد ورد عن الحسن وغيره كما هو الآتي، وهو أصح، والصواب أنه كثر من المال.

(٣) لم يصح كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾، أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، واليذي الغلام، واليذي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾، لكنني أمرتُ به ووقفتُ عليه. وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر - عليه السلام - مع ما تقدم في قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (١٦). وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. نقله الماوردي في تفسيره. وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً. فالله أعلم.

وذكر ابنُ قتبية في «المعارف» أن اسم الخضر يُلَبَّأ بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. قالوا: وكان يُكنى أبا العباس، ويُلقَّب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابنُ الصلاح إلى بقاءه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف^(١)، وجاء ذكره في بعض الأحاديث. ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديثُ التعزية^(٢)، وإسناده ضعيف. ورُجِّح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّنْ قَبْلِكَ آلَافًا﴾ [الأنبياء: ٣٤].

[٤٤١٩] ويقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم، إن تهلك هذه العصابة لا تُعَبِّد في الأرض»^(٣)، ويأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس.

[٤٤٢٠] وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حَيَّين ما وَسَّعَهما إلا اتباعي»^(٤).

[٤٤٢١] وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى مِمَّنْ هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرَفُ^(٥). إلى غير ذلك من الدلائل.

[٤٤٢٢] قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابنُ المبارك، عن معمر، عن همام بن منبّه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في الخضر قال: إنما سُمِّيَ خَضِرًا لأنه جَلَسَ على قَرْوَةٍ بيضاء، فإذا هي تحته تهتزُّ خضراء^(٦). ورواه أيضاً عن عبد الرزاق.

[٤٤٢٣] وقد ثبت في صحيح البخاري، عن هَمَّام، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سُمِّيَ الخَضِرُ لأنه جَلَسَ على قَرْوَةٍ فإذا هي تهتزُّ من تحته خضراء»^(٧). والمراد بالقَرْوَةِ ها هنا الحشيش اليابس، وهو الهَشِيمُ من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، أي: هذا تفسير ما ضُفِّتْ به ذرعاً، ولم تُصْبِرْ حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبينه

(١) لا يحتاج بالحكايات والآثار في هذه المواضع، فإنه يعارض ظاهر الآيات، والأحاديث الصحيحة.

(٢) تقدم الكلام عليه، وأنه خبر باطل، وانظر تفسير القرطبي بتعليقي عقب حديث ٤١٨٩.

(٣) تقدم.

(٤) يأتي في سورة يوسف عند آية: ٣ وفي سورة العنكبوت عند آية: ٥١ إن شاء الله. وتقدم أيضاً في سورة آل عمران عند آية: ٨٢.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ١١٦ و٥٦٤ ومسلم ٢٥٣٧ وأبو داود ٤٣٤٨ والترمذي ٢٢٥١ وأحمد ٨٨/٢ وابن حبان ٢٩٨٩ من حديث ابن عمر.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٠٢ والترمذي ٣١٥١ وأحمد ٣١٢/٢ وابن حبان ٦٢٢٢.

(٧) هو الحديث المتقدم.

ووضّحه وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَر تَسْلِعْ﴾، وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً، فقال: ﴿سَأَتَيْتَكَ يَنْأَوِيلَ مَا لَر تَسْلِعَ مَلِيَّو سَنِيْرًا﴾، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخفّ بالأخفّ، كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَسْأَلُكُمْ أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾، وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ لَمَ تَقْبَلْ﴾، وهو أشقّ من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذُكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما. وفتى موسى معه تَبَعَ. وقد صُرّح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يُوَسَّعُ بن ثُون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليهم السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره، حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثني ابن إسحاق، عن الحسن بن غمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع بفتى موسى يُذكر في حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يُذكر من حديث الفتى، قال: شَرِبَ الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر، فإنها لتعوجّ به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب. إسناده ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْكَينِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَتْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ۝٨٤﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَسَأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنْ ذِي الْقَرْكَينِ﴾، أي: عن خبره. وقد قدّمنا أنه بعث كفاراً مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض. وعن فتية لا يدري ما صنعوا، وعن الروح. فنزلت سورة الكهف^(١).

[٤٤٢٤] وقد أورد ابن جرير ما هنا، والأموي في مغازيه، حديثاً أسنده وهو ضعيف، عن عقبة بن عامر: أن نفرأ من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداءً، فكان فيما أخبرهم به: «أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك في السماء، وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب»^(٢). وفيه طول وتكارة، ورفع لا يصح، وأكثر ما فيه من أخبار بني إسرائيل. والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلالته قدره، ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني، وهو ابن فيليب المقدوني، الذي تُورّخ به الروم، فأما الأول فقد ذكر الأزرق وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل - عليه السلام - أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان معه الخضر عليه السلام. وأما الثاني فهو إسكندر بن فيليب المقدوني اليوناني، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور، والله أعلم. وهو الذي تُورّخ به من مملكته ملة الروم. وقد كان قبل المسيح - عليه السلام - بنحو من ثلثمائة سنة، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرق وغيره، وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم -

(١) تقدم في أول السورة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٢٧٥ من حديث عقبة بن عامر، وإسناده ضعيف جداً، فيه ابن لهيعة وعبد الرحمن بن زياد الأفريقي، وكلاهما ضعيف، والراوي عن عقبة لم يسم.

عليه السلام - وقَرَّبَ إلى الله تعالى قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب «البداية والنهاية» بما فيه كفاية، والله الحمد.

قال وهب بن مَثَبَة: كان ملكاً، وإنما سُمِّيَ ذا القرنين لأنَّ صفحتي رأسه كانتا من نحاس. قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه مَلَكَ الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل قال: سُئِلَ علي - رضي الله عنه - عن ذي القرنين، فقال: كان عبداً ناصحاً الله عز وجل فَنَاصَحَهُ، دعا قومه إلى الله فَضَرَبَ على قُرْنَيْهِ فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضرَبوه على قُرْنَيْهِ فمات، فَسُمِّيَ ذا القرنين. وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبي بَزَّة، عن أبي الطفيل، سَمِعَ علياً يقول ذلك. ويقال: إنه إنما سُمِّيَ ذا القرنين لأنه بَلَغَ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرْنُ الشمس ويغرب. وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أعطيناه مُلْكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما تُؤْتَى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات. ولهذا مَلَكَ المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وَخَضَعَتْ له ملوك العِبَادِ، وَخَدَمَتْهُ الأمم، من العَرَب والعَجَم. ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سُمِّيَ ذا القرنين لأنه بلغ قُرْنَيِ الشمس مشرقها ومغربها. وقوله: ﴿وَأَيُّنْتُ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علماً. وقال قتادة أيضاً في قوله: ﴿وَأَيُّنْتُ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾، قال: منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّنْتُ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾، قال: تعليم الألسنة، قال كان لا يغزو قوماً إلا كُلَّمْهُمْ بلسانهم. وقال ابن لهيعة: حدثني سالم بن غيلان، عن سعيد بن أبي هلال: أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يَرْبِطُ خيله بالثرثرا؟ فقال له كعب: إن كنت قلتُ ذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَيُّنْتُ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾. وهذا الذي أنكره معاوية - رضي الله عنه - على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلو عليه الكَذِبَ». يعني فيما ينقله، لا أنه كان يعتمد نقل ما ليس في صُحُفِهِ، ولكن الشأن في صُحُفِهِ أنها من الإسرائيليات التي غَالِبُهَا مُبْدَلٌ مصحَّفٌ مُحَرَّفٌ مَخْتَلَقٌ، ولا حاجة لنا مع خَبَرِ الله تعالى ورسوله ﷺ إلى شيء منها بالكُفَّةِ، فإنه دَخَلَ منها على الناس شر كثير، وفَسَادٌ عَرِيضٌ. وتَأْوِيلُ كعب قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّنْتُ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾، واستشهاده في ذلك على ما يجده في صُحُفِهِ من أنه كان يربط خيله بالثرثرا، غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترفي في أسباب السموات. وقد قال الله تعالى في حق بلقيس: ﴿وَأَوَيَّتْ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي: مما يؤتى مثله من الملوك، وهكذا ذو القرنين يَسَّرَ الله له الأسباب أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي وكَسَّرَ الأعادي، وَكَبَّتْ مُلُوكُ الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتي من كُلِّ شيء ما يَحْتَاجُ إليه مثله سبباً، والله أعلم. وفي «المختارة» للحافظ الضيَاء المقدسي، من طريق قُتَيْبَة، عن أبي عوانة، عن سماك بن حَرْبٍ، عن حبيب بن جَمَارٍ قال: كنتُ عند علي - رضي الله عنه - وسأله رجلٌ عن ذي القرنين: كيف بَلَغَ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله، سَحَّرَ له السَّحَابَ، وَقَدَّرَ له الأسبابَ، وبسط له اليَدَ.

﴿فَأَنبَعَ سَبِيلاً﴾ (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَبْنَؤُا الْفَرْنَ

إِمَّا أَنْ تَعْلِبَ وَإِمَّا أَنْ نَلْجِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا

﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلًا﴾^(١)، يعني بالسَّبَب المنزل. وقال مجاهد: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلًا﴾^(٢): منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: ﴿سَبِيلًا﴾، قال: طَرَفِي الأرض. وقال قتادة: أي اتَّبَعَ منازل الأرض ومَعَالِمِهَا. وقال الضَّحَّاك: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلًا﴾^(٣)، أي: المنازل. وقال سعيد بن جُبَيْر في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلًا﴾^(٤)، قال: عَلِمًا. وهكذا قال عكرمة، وعُبَيْد بن يَغْلَى، والسَّدِّي. وقال مطر: معالم الأرض وآثَارُ كانت قبل ذلك. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْيَبَ الْاَشْتَيْنِ﴾، أي: فَسَلَكَ طريقاً حتى وصلَ إلى أقصى ما يُسَلَّك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصولُ إلى مغرب الشمس من السماء فمُتَعَذِّرٌ، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مَدَّةَ الشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثرُ ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاقُ زنادِقَتِهِمْ وَكَذَّبَتِهِمْ. وقوله: ﴿وَبَدَّهَا نَزْرُوبًا فِي عَيْنِ حِمَّةٍ﴾، أي: رأى الشمس في منظره تَغْرُبُ في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تَغْرُبُ فيه، وهي لا تفارق الفلَّكَ الرابع الذي هي مُثَبَّتة فيه لا تفارقه. والحِمَّةُ: مُشْتَقَّة على إحدى القراءتين من «الحَمَاء» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْتُورٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، أي: طين أَمْلَسَ. وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني نافع بن أبي نُعَيْم: سَمِعْتُ عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس [يقول]^(١): ﴿فِي عَيْنِ حِمَّةٍ﴾، ثم فُسِّرَها: ذات حَمَاء. قال نافع: وسُئِلَ عنها كعب الأحبار، فقال: أنتم أعلمُ بالقرآن مِنِّي، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء. وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وغير واحد.

[٤٤٢٥] وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد بن أوس، عن مصدغ، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ أقرأه ﴿حِمَّةٍ﴾^(٢). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وجدتها تغرب في عين حامية»، يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القاريُّ فهو مصيبٌ. قلت: ولا منافاة بين مَغْنِيئِهِمَا، إذ قد تكون حارةً لمجاورتها وَهَجَ الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل. و ﴿حِمَّةٍ﴾: في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

[٤٤٢٦] وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله قال: نظر رسولُ الله ﷺ إلى الشمس حين غَابَتْ، فقال: «في نار الله الحامية، في نار الله الحامية، لولا ما يَزْعُمُها من أمرِ الله لَأَحْرَقَتْ ما عَلَى الْأَرْضِ»^(٣). قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد الله بن عمرو، من زَامِلَتِيهِ اللَّتَيْنِ وَجَدَهُمَا يوم اليرموك، والله أعلم.

(١) سقط من الأصل، والاستدراك من تفسير الطبري.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٩٨٦ والترمذي ٢٩٣٤ والطبري ٢٣٣٠٨ وضعفه الترمذي بقوله: غريب. والصحيح ما روي عن ابن عباس قراءته اهـ. أي ليس بمرفوع. لكن ورد من وجه آخر عن ابن عباس مرفوعاً: أخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٤ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وانظر «فتح القدير» للشوكاني ١٥٢٧ بتخريري.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٣٣٠٧ وأحمد ٦٩٣٤، قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٣٦١: فيه راوٍ لم يسم أهـ فالخبر ضعيف، وقد أشار ابن كثير لذلك.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا حجاج بن خَمْزَةَ، حدثنا محمد - يعني ابنُ بشرٍ - حدثنا عمرو بن ميمون أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عباس دُكِرَ له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف: «تغرب في عين حامية»، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: ما نقرأها إلا ﴿حِجَّةً﴾، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو: كيف تقرأها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها. قال ابن عباس: قلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن. فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سَلْ أَهْلَ الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ بِهَا، وَأَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَجِدُ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِي التَّوْرَةِ فِي مَاءٍ وَطِينٍ. وأشار بيده إلى المغرب، قال ابنُ حاضر: لو أتني عندكم أُنَدِّتُكُمْ بِكَلَامٍ تَزْدَادُ فِيهِ بَصِيرَةٌ فِي ﴿حِجَّةٍ﴾. قال ابن عباس: وإذا ما هو؟ قلت: فيما يُؤثر من قول تبع، فيما ذكر به ذا القرنين، في تَخَلُّقه بالعلم واتباعه إياه:

بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي أَسْبَابَ أَمْرِ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدٍ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَثَأْطٍ حَزْمِدٍ

قال ابن عباس: ما الخُلْبُ؟ قلت: الطين بكلامهم - يعني بكلام جَمِيرٍ - قال: فما الثَأْطُ؟ قلت: الحُمْأة. قال: فما الحَزْمَدُ؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابنُ عباس رجلاً أو غلاماً، فقال: اكْتُبْ ما يقولُ هذا الرَّجُلُ. وقال سعيد بن جبیر: بينا ابنُ عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿وَبَدَعًا تَقْرُبُ فِي عَيْنٍ حِجَّةٍ﴾. فقال كعب: والذي نفس كعب بيده ما سمعتُ أحداً يقرأها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس؛ فإننا نجدُها في التوراة تغرب في مَدْرَةِ سوداء.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال: في تفسير ابن جريج: ﴿وَبَدَعًا تَقْرُبُ﴾، قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تَجِبُ. وقوله: ﴿وَبَدَعًا تَقْرُبُ﴾، أي: أمة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم. وقوله: ﴿فَلَمَّا يَدْعَا الْقَرْيَتَيْنِ إِذَا أَنْ تَعْدَبُ وَلَمَّا أَنْ تَنْجُدَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، معنى هذا: أن الله تعالى مَكَّنَهُ مِنْهُمْ، وحكَّمَهُ فِيهِمْ، وأظهره عليهم، وخيَّره إن شاء قَتَلَ وَسَبَى، وإن شاء مَنَّ وَأَفْدَى، فَعَرَفَ عَدْلُهُ وَإِيمَانُهُ فِيمَا أَبْدَاهُ عَدْلُهُ وَبَيَانُهُ، في قوله: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، أي: من استمرَّ على كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ بِرَبِّهِ، ﴿فَسَوْفَ نَذَبُهُ﴾، قال قتادة: بالقتل، وقال السدي: كان يحمي لهم بَقَرُ النَّحَاسِ ويضعهم فيه حَتَّى يَذُوبُوا. وقال وَهْبُ بْنُ مُثَنَّبٍ: كان يُسَلِّطُ الظُّلْمَةَ فتدخل أفواههم ويؤتوهم، وتَغْشَاهُمْ من جميع جهاتهم، والله أعلم. وقوله: ﴿ثُمَّ يَدْعُ إِلَى رَبِّهِ فَيَعْبُدُهُ عَذَابًا لَكْرًا﴾، أي: شديداً بليغاً وجيماً اليماً. وفي هذا إثبات المَعَادِ وَالْجَزَاءِ. وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾، أي: تابَعْنَا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ أَتَمُّنَ﴾، أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل، ﴿وَسَقُولُ لَهُمْ مِنْ أَمْرٍ يُشْرَكُ﴾، قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأُ﴾ (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ

وَقَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

يقول: ثم سَلَكَ طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كُلُّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ فَهَرَمَ وَعَلَبَهُمْ وَدَعَاهُمْ إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أَذْلَهُمْ وَأَرْغَمَ أَنفُسَهُمْ، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتأخيم لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة، يجوب الأرض طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ﴾، أي: أمة ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾، أي: ليس لهم بناء يَكْتُمُهُمْ، ولا

أشجار تُظِلُّهم وتسترهم من حر الشمس. قال سعيد بن جبیر: كانوا حُمْراً قصاراً، مَسَاكِينُهم الْغِيْرَانُ، أَكْثَرُ مَعِيشَتِهِمْ مِنَ السَّمَكِ.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل بن أبي الصلّت، سَمِعْتُ الْحَسَنَ وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْ لَهُمْ يَمِينًا وَبُيُوتًا يَتَرَوْنَ﴾، قال: إن أرضهم لا تحبّل البناء، فإذا طلعت الشمس تَغَوَّرُوا فِي الْمِيَاهِ، فإِذَا غَرَبَتْ خَرَجُوا يَتَرَاغُونَ كَمَا تَرْغِي الْبَهَائِمُ.

[٤٤٢٧] فَحَدَّثْتُ عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَسْتَرَأُ: أَيُّ بِنَاءٍ، لَمْ يُبْنَ فِيهَا بِنَاءٌ قَطُّ؛ كَانُوا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَخَلُوا أَسْرَابًا لَهُمْ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ»^(٩١). وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ بِأَرْضٍ لَا تُنْبِتُ لَهُمْ شَيْئًا، فَهُمْ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَخَلُوا فِي أَسْرَابٍ، حَتَّى إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ خَرَجُوا إِلَى حُرُوتِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ. وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ كَهِيلٍ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ لَهُمْ أَكْنَانٌ، إِذَا طَلَعَتِ عَلَيْهِمْ، فَلَا أَحَدِيْهِمْ أَذْنَانٌ يَفْتَرِشُ إِحْدَاهُمَا وَيَلْبَسُ الْآخَرَى. وقال عبد الرزاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَهَا تَلَّحُّ عَلَى قَوْرِ لَّهُمْ يَمِينًا وَبُيُوتًا يَتَرَوْنَ﴾، قال: هم الزنج. وقال ابن جريج في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا تَلَّحُّ عَلَى قَوْرِ لَّهُمْ يَمِينًا وَبُيُوتًا يَتَرَوْنَ﴾، قال: لم يَبْنُوا فِيهَا بِنَاءً قَطُّ، وَلَمْ يُبْنَ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِنَاءً قَطُّ؛ كَانُوا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَخَلُوا أَسْرَابًا لَهُمْ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، أَوْ دَخَلُوا الْبَحْرَ، وَذَلِكَ أَنَّ أَرْضَهُمْ لَيْسَ فِيهَا جَبَلٌ، جَاءَهُمْ جَيْشٌ مَرَّةً فَقَالَ لَهُمْ أَهْلُهَا: لَا تَطْلَعَنَّ عَلَيْكُمُ الشَّمْسُ وَأَنْتُمْ بِهَا. قَالُوا: لَا تَبْرُحْ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، مَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟ قَالُوا: هَذِهِ جَيْفُ جَيْشٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ هَا هُنَا فَمَاتُوا. قَالَ: فَذَهَبُوا هَارِبِينَ فِي الْأَرْضِ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾^(٩٢)، قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالسَّيِّدِيُّ: عَلِمًا. أَي: نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ جَيْشِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أَمَمُهُمْ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٩٣) [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا﴾^(٩٤) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا^(٩٥) قَالُوا يَنْذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرِيبًا عَلَّآ أَنْ جَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا^(٩٦) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا^(٩٧) ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَلِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا^(٩٨)

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا﴾^(٩٤)، أَي: ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، وَهُمَا جَبَلَانِ مُتَنَاوِحَانِ بَيْنَهُمَا ثَغْرَةٌ يُخْرَجُ مِنْهَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عَلَى بِلَادِ التُّرْكِ، فَيَعِيشُونَ فِيهِمْ فُسَادًا، وَيُهْلِكُونَ الْحَرثَ وَالنَّسْلَ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ سَلَاةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٤٤٢٨] كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا آدَمُ. يَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فيقول: ابْعَثْ بَعَثَ النَّارَ. فيقول: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ فيقول: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمَائَةِ تِسْعَةٍ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي «الْعُظْمَى» ٩٧٨ وَ ٩٧٩ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، لَهُ عِلَتَانِ: ابْنُ جَرِيرٍ لَمْ يَذْكُرْ مِنْ أَخْبَرَهُ بِهِ عَنْ الْحَسَنِ، وَالْحَسَنُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ سَمُرَةَ سِوَى حَدِيثِ الْعَقِيقَةِ، وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

تَنْبِيهِ: كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي الْأَصُولِ بَعْدَ أَثَرِ ابْنِ جَرِيرٍ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ فِي الصَّفْحَةِ السَّابِقَةِ. وَفِي الْأَصُولِ هُنَا عِبَارَةٌ «قَالَ الْحَسَنُ: هَذَا حَدِيثُ سَمُرَةَ» هَكَذَا فَقَطُّ. وَلَا مَعْنَى لَهُ فِي الْمَحَلِّ الْأَوَّلِ، وَفِيهِمْ مِنَ الْعِبَارَةِ فِي الْمَحَلِّ الثَّانِي أَنْ مَكَانَهُ هُنَا فَلْيَنْقُلْ؛ وَهَذَا مَا فَعَلْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الجنة؟ فحينئذ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، فيقال: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ، ما كانتا في شيءٍ إلا كَثُرَتْ: يا جوج ومأجوج^(١). وقد حكى النووي - رحمه الله - في «شرح مسلم»، عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خُلِقُوا مِنْ مَنِيِّ حَرْجٍ مِنْ آدَمَ فَاخْتَلَطَ بِالتُّرَابِ، فَخُلِقُوا مِنْ ذَلِكَ. فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا القول غريب جداً، لا دليل عليه لا من عقل ولا نقل، ولا يجوز الاعتمادُ ما هنا على ما يحكيه بعضُ أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم.

[٤٤٢٩] وفي مسند الإمام أحمد، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَدُ نُوحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامٌ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافَثُ أَبُو التُّرْكِ»^(٢). فقال بعضُ العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي التُّرْك. قال: إنما سُمُّوا هؤلاء تَرْكاً لأنهم تَرَكُوا مِنْ وَرَاءِ السَّدِّ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، أَوْ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبَاءُ أَوْلَئِكَ، وَلَكِنْ كَانَ فِي أَوْلَئِكَ بَنِي وَفْسَادٍ وَجَرَاءَةٍ. وقد ذكر ابن جرير هنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجبياً في سير ذي القرنين، وبنائه السَّدَّ، وكيفيته ما جَرَى لَهُ. وفيه طَوَّلٌ وَغَرَابَةٌ وَتَكَازُؤٌ فِي أَشْكَالِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، وَطَوَّلُهُمْ وَقَصَرُ بَعْضِهِمْ، وَأَذَانُهُمْ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَحَادِيثَ غَرِيبَةً فِي ذَلِكَ لَا تَصِحُّ أُسَانِدُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَتْقَوْنَ قَوْلًا»، لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس. «قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءُوجٌ قَدْ آمَنَّا بِكَ فَأَنْتَ بِمَنْعِهِمْ لَذَلَّةٌ عَلَى آلِهِمْ وَهُمْ فِي هَتَاكٍ» [النمل: ٢٢]. قال ابن جرير عن عطاء، عن ابن عباس: أجرأ عظيمًا. يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: «مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ»، أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: «أَتُحَدِّثُونَ يُسَالُو فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْنَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فِرْقَانٌ» [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبدلونه، ولكن ساعدوني «بِقُوَّةٍ»، أي: بعملكم وآلات البناء، «لِنَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا» [١٥] «أَتُحَدِّثُونَ يُسَالُو فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْنَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فِرْقَانٌ». قاله ابن عباس، ومجاهد، وقَتَادَةُ. وهي كَاللَّبْنَةِ، يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي، أو تزيد عليه. «حَتَّىٰ إِذَا سَاوَيْنَا بَيْنَ الْفُرْعَانِ»، أي: وَضَعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ حَتَّىٰ إِذَا حَازَى بِهِ رُؤُوسَ الْجَبَلَيْنِ طَوَّلاً وَعَرْضاً. واختلفوا في مساحة عَرْضِهِ وطوله على أقوال، «قَالَ أَنْفَخُوا» أي: أَجَجَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّىٰ صَارَ كُلُّهُ نَارًا، «قَالَ مَا تَوَدُّ أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا». قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقَتَادَةُ، والسَّدي: هو النحاس. وزاد بعضهم: الْمُدَّاب. ويستشهد بقوله تعالى: «وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ» [سبا: ١٢]، ولهذا يشبه بالبرِّد المُحْبَر.

[٤٤٣٠] قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: «ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ رَأَيْتُ سَدَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. قال: انعته لي. قال: كَالْبُرْدِ الْمُحْبَرِ، طَرِيقَةُ سُودَاءَ، وَطَرِيقَةُ حَمْرَاءَ. قال: قَدْ رَأَيْتَهُ»^(٣). هذا حديث مرسل. وقد بعث الخليفة الواصل في دولته بعض أمرائه، وَجَهَّزَ مَعَهُ جَيْشًا سَرِيَّةً، لِيَنْظُرُوا إِلَى السَّدِّ وَيُعَايِنُوهُ وَيَنْعَثُوهُ لَ إِذَا رَجَعُوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْكٍ إِلَى

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٣٠ ومسلم ٢٢٢ وأحمد ٣٢٢ - ٣٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد ١١/٥ من حديث الحسن عن سمرة، وفيه عنقة الحسن. وأخرجه الطبراني ١٨/١٤٥ - ١٤٦ والحاكم ٢/٥٤٦ من حديث الحسن عن عمران بن حصين عن سمرة بن جندب، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وفيه عنقة الحسن، وهو مدلس، ونفى أو حاتم سماعه من عمران.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٣٤٠ عن قتادة، وهذا مرسل، وهو بصيغة التمریض، فهو ضعيف جداً، والثن باطل.

مُلْك، حتى وَصَلُوا إِلَيْهِ، ورَأَوْا بِنَاءَهُ مِنَ الْحَدِيدِ وَمِنَ النُّحَاسِ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا فِيهِ بَاباً عَظِيماً، وَعَلَيْهِ أَقْفَالٌ عَظِيمَةٌ، ورَأَوْا بَقِيَّةَ اللَّيْلِ وَالْعَمَلَ فِي بُرْجٍ هُنَاكَ، وَأَنَّ عِنْدَهُ حَرَساً مِنَ الْمُلُوكِ الْمَتَاخِمَةِ لَهُ، وَأَنَّهُ عَالٌ مَنِيفٌ شَاقِقٌ، لَا يُسْتَطَاعُ وَلَا مَا حَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَكَانَتْ غِيبتُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ، وَشَاهَدُوا أَهْوَالاً وَعَجَائِبَ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَمَا اسْطَلَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَبْقَا ۖ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا ۖ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قَدَرُوا على أن يصعدُوا فوق هذا السِّدِّ، ولا قَدَرُوا على نَقْبِهِ من أسفله. ولما كان الظهورُ عليه أسهل من نَقْبِهِ قابلٌ كلاً بما يناسبه، فقال: ﴿فَمَا اسْطَلَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَبْقَا ۖ ﴿٩٧﴾﴾. وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نَقْبِهِ، ولا شيء منه.

[٤٤٣١] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «إِن يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ لِيَحْفَرُونَ السِّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِم: ارْجِعُوا، فَسَتَحْفَرُونَهُ غَدًا. فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدَّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِم: ارْجِعُوا، فَسَتَحْفَرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَيسْتَنِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفَرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيَنْشِفُونَ الْمِيَاءَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حَصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ. فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَقْعًا فِي أَقْفَانِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ دَوَّابُ الْأَرْضِ لَتَسْمَنَ، وَتَشْكُرُ شُكْرًا مِنْ لَحْمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ»^(١). وَرواه أحمد أيضاً عن حسن - هو ابن موسى الأشيب - عن سفيان، عن قتادة، به. وكذا رواه ابن ماجه، عن أزهري بن مَرْوَانَ، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عوانة، عن قتادة. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وهذا إسناد جيد قوي، ولكن في رفعه نكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نَقْبِهِ، لِإِخْكَامِ بِنَائِهِ وَصَلَابَتِهِ وَشِدَّتِهِ. ولكن هذا قد رُوِيَ عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فَيَلْحَسُونَهُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَيَقُولُونَ: غَدًا نَفْتَحُهُ. فَيَأْتُونَ مِنَ الْغَدِ وَقَدْ عَادَ كَمَا كَانَ، فَيَلْحَسُونَهُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَيَقُولُونَ كَذَلِكَ، وَيَصْبَحُونَ وَهُوَ كَمَا كَانَ، فَيَلْحَسُونَهُ وَيَقُولُونَ: غَدًا نَفْتَحُهُ. وَيُلْهِمُونَ أَنْ يَقُولُوا: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فَيَصْبَحُونَ وَهُوَ كَمَا فَارَقُوهُ، فَيَفْتَحُونَهُ. وَهَذَا مُتَّجِهٌ، وَلَعَلَّ أَبَا هُرَيْرَةَ تَلَقَّاهُ مِنْ كَعْبٍ، فَإِنَّهُ كَثِيرٌ مَا كَانَ يَجَالِسُهُ وَيُحَدِّثُهُ، فَحَدَّثَ بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ، فَتَوَثَّاهُ بَعْضُ الرِّوَاةِ عَنْهُ أَنَّهُ مَرْفُوعٌ، فَرَفَعَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيُوكَدُ مَا قُلْنَاهُ، مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ نَقْبِهِ وَلَا نَقْبِ شَيْءٍ مِنْهُ، وَمِنْ نَكَارَةِ هَذَا الْمَرْفُوعِ، قَوْلُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ:

(١) إسناد حسن، ومتن غريب، أخرجه الترمذي ٣١٥٣، وابن ماجه ٤١٩٩، والحاكم ٤/٤٨٨، والطبري ٢٣٣٣١ وأحمد ٢/٥١٠ - ٥١١ من حديث أبي هريرة، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وهو كما قال، لكن استنكر ابن كثير رحمه الله المتن وذكر أحاديث - ستاتي - أصح منه، ومفادها أن فتح الروم يكون شيئاً فشيئاً، والله أعلم، وانظر الأحاديث الآتية.

[٤٤٣٢] حدثنا سفيان، عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمها أم حبيبة، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: لا إله إلا الله. ويل للعرب من شرٍ قد اقترب. فتفتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وخلق، قلت: يا رسول الله، أتهلك وفيها الصالحون؟ قال: نعم إذا كثُر الخبث^(١). هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخرجه، من حديث الزهري. ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإِسناد، منها رواية الزهري عن عروة، وهما تابعيان، ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده، كلهن يروي بعضهن عن بعض. ثم كل منهن صحابية، ثم ثنتان ربيتان وثنان زوجتان، رضي الله عنهن.

[٤٤٣٣] وقد روي نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا مؤمل بن إسماعيل حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين^(٢). وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهب به. وقوله تعالى: «قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي»، أي لما بناه ذو القرنين «قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي»، أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي»، أي إذا اقترب الوعد الحق «جَعَلَهُ دَكَّاءَ»، أي ساواه بالأرض تقول العرب ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها وقال تعالى: «فَلَمَّا بَلَغَ لُدَّهُمُ إِلَهِكُمْ جَعَلَهُ دَكَّاءَ» [الأعراف: ١٤٣] أي مساوياً للأرض. وقال عكرمة في قوله: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ»، قال: طريقاً كما كان. «وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا»، أي: كائناً لا محالة. وقوله: «وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمُ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ»، أي: الناس يومئذ، أي: يوم يُدَكُّ هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويُفْسِدُونَ على الناس أموالهم ويُثْلِفُونَ أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: «وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمُ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ»، قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله تعالى - عند قوله: «حَقَّقَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» [١٦] «وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧]، وهكذا قال هنا: «وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمُ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي الْأَشْوَارِ لِحِمَّتِهِمْ جَمًّا» [١٦]، قال ابن زيد في قوله: «وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمُ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ». قال: هذا أول يوم القيامة، ثم «وَفُتِحَ فِي الْأَشْوَارِ» على أثر ذلك، «لِحِمَّتِهِمْ جَمًّا». وقال آخرون: بل المراد بقوله: «وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمُ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ»، أي: يوم القيامة يختلط الإنسان والجن.

روى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمي، عن هارون بن عثرة، عن شيخ من بني قزاة في قوله: «وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمُ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ»، قال: إذا ماج الجن والإنس قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق، فيجد الملائكة قد تطبقوا الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة تطبقوا الأرض، ثم يظعن يمينا وشمالاً حتى ينتهي إلى أقصى الأرض، فيجد الملائكة تطبقوا الأرض، فيقول: ما من محيص فبينما هو كذلك إذ عَرَضَ له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟ ألم تكن في الجنان؟ فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله قرَضَ عليّ فريضة لعبدته فيها عبادة لم يُعْبِده مثلها

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٦ ومسلم ٢٨٨٠ وأحمد ٤٢٨/٦ والترمذي ٢١٨٧ وابن ماجه ٣٩٥٣ وابن حبان ٣٢٧.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٧ ومسلم ٢٨٨١.

أحد من خلقه. فيقول: فإن الله قد فَرَضَ عليك فريضةً. فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فَيَتَلَكَّا عليه، فيقول به ويدُزِيته بجناحيه فيقذِفُهُم في النار. فتزفر جهنم زفرة لا يبقى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبي مُرْسَلٌ إلا جثًّا لِرُكْبَتَيْهِ. وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم من حديث يعقوب القُفَيْي، به. ورواه من وجه آخر، عن يعقوب، عن هارون بن عَثْرَةَ، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ بِبَعْضٍ﴾، قال: الجن والإنس، يمجُج بعضهم في بعض.

[٤٤٣٤] وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أُرْسِلُوا لَأَفْسَدُوا عَلَى النَّاسِ مَعَايِشَهُمْ. ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذُرِيته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أُمَمٍ: تاويل، وتاريس، ومنسك^(١). هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

[٤٤٣٥] وَرَوَى النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَالِمٍ، عَنِ ابْنِ عَمْرٍو بْنِ أَوْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، مَرْفُوعاً: «إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ لَهُمْ نِسَاءٌ يُجَامِعُونَ مَا شَاؤُوا، وَشَجَرٌ يَلْقَحُونَ مَا شَاؤُوا، وَلَا يَمُوتُ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَلْفًا فَصَاعِداً»^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾.

[٤٤٣٦] وَالصُّورُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ، وَالَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣)، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ بِطَوْلِهِ، وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ.

[٤٤٣٧] وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَطِيَّةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعاً: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ تَقَمَّ الْقَرْنُ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ. قَالُوا: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿لَمَجْمَعَتُهُمْ جَمْعًا﴾، أَي: أَحْضَرْنَا الْجَمِيعَ لِلْحِسَابِ ﴿قُلْ لَيْتَ الْآوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١٠﴾ لَمَجْمُوعُونَ لِمَا يُقَدَّرُ يَوْمَ تَمْلَأُ ﴿١١١﴾﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠]، ﴿وَحَشَرْتَهُمْ فَلَاحَظُوا رَبَّهُمْ أَلَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١١١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة، أنه يعرض عليهم جهنم، أي: يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا، لِيَرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أُبْلَغَ فِي تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ لَهُمْ.

(١) أخرجه الطيالسي ٢٢٨٢ والطبراني كما في «المجمع» ١٢٥٧١، وقال الهيثمي: رجاله ثقات أه. ومداره على وهب بن جابر الحنطوي، جاء في التهذيب: وثقه يحيى في رواية، وكذا العجلي، وابن حبان، وقال علي المدني والنسائي: مجهول. وذكره الذهبي في «الميزان» ٩٤٢٣ فقال: قال ابن المدني: مجهول، قلت: لا يكاد يعرف تفرد عنه أبو إسحق أه. وللحديث علة ثانية أبو إسحق هو السبيعي، مدلس، وقد عنعن. وقال ابن كثير في النهاية ١٤٥/١: غريب، وقد يكون من كلام عبد الله بن عمرو من الزاملتين، والله أعلم.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٣٣٤ وفيه ابن أوس ذكره الحافظ في التهذيب من غير جرح ولا تعديل، وقال: اسمه عبد الرحمن.

(٣) تقدم في سورة الأنعام عند آية: ٧٣.

(٤) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٧٣.

[٤٤٣٨] وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَقَاذُ بَسْمِعين ألفَ زَمَامٍ، مع كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ»^(١). ثم قال مخبراً عنهم: «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَقٍ عَن ذِكْرِي»، أي: تعاموا وتغافلوا وتصاصوا عن قبول الهدى وأتباع الحق، كما قال تعالى: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يَقِينْ» [الزخرف: ٣٦]، وقال ها هنا: «وَكَاوُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعًا»، أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيهِ. ثم قال: «أَتَحْسِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنْجِدُوا عِبَادِي مِن دُونِ آلِهَاتِهِ؟» أي: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، ويستفهمون بذلك؟ «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَيْدَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» [مريم: ٨٢]، ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا] ﴿١٠٣﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٤﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٥﴾

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مصعب قال: سألت أبي - يعني سعد بن أبي وقاص - عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [١٠٣] أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنَّة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد - رضي الله عنه - يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطيء وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُودُ يَوْمِهِمْ كَنُفُوسِهِمْ﴾ [١٠٣] عَابِلَةً نَّاسِيَةً ﴿١٠٤﴾ تَصَلَّى نَارًا كَاسِيَةً ﴿١٠٥﴾ [الغاشية: ٢ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِذَا مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَلَجَعَلْنَاهُ نَفِيسًا﴾ [النور: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ يَسْبُغُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَرًّا إِذَا جَاءَهُمْ لُزْجَدُهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٢٩]. وقال في هذه الآية الكريمة، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾، أي: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ ثم فسرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ﴾، أي: جحدوا آيات الله في الدنيا، وبإبراهيمه التي أقام على وحدانيته، وصندق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾، أي: لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير.

[٤٤٣٩] قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة، حدثني أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾»^(٢). وعن

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٤٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٩ ومسلم ٤٦٧٨.

يحيى بن بُكَيْر، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، مثله. هكذا ذكره عن يحيى بن بكير مُعَلَّقًا. وقد رواه مسلم، عن أبي بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به.

[٤٤٤٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن صالح مولى التَّوْأمة، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْأَكُولِ الشَّرِيبِ الْعَظِيمِ، فَيُوزَنُ بِحَبَّةٍ فَلَا يَزْنُهَا». قال: وقرأ: «فَلَا تُقِيمُ لَمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا»^(١). وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن أبي الصَّلْتِ عن ابن أبي الزناد، عن صالح مولى التَّوْأمة، عن أبي هُرَيْرَةَ مرفوعاً. فذكره بلفظ البخاري سواء.

[٤٤٤١] وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عُمارة، حدثنا هشام بن حَسَّان، عن واصل، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يَخْطُرُ فِي حُلَّةٍ لَهُ، فلما قَامَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قال: يَا بُرَيْدَةُ، هَذَا مِمَّنْ لَا يُقِيمُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا^(٢). ثم قال: تَقَرَّدَ بِهِ وَاصِلٌ مَوْلَى أَبِي عَنبَسَةَ، وعنه عون بن عُمارة وليس بالحافظ. ولم يتابع عليه.

وقد قال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شَيْمَرٍ، عن أبي يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل، فلا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا: «فَلَا تُقِيمُ لَمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا»، وقوله: «ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِهِمْ بِمَا كَفَرُوا»، أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آياتِ الله ورُسُلِهِ هُزُؤًا، استهزؤوا بهم وكذبوهم أشدَّ التكذيب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۖ﴾

يخبر تعالى عن عباده السَّعْدَاءِ، وهم الذين آمَنُوا بالله ورُسُلِهِ وَصَدَّقُوهُمْ فيما جاؤوا به، بأنَّ لهم جناتِ الْفِرْدَوْسِ. قال مجاهد: الفردوس هو البُستان بالرومية. وقال كعب، والسَّدي، والضَّحَّاك: هو البستان الذي فيه شجرُ الأُعتاب. وقال أبو أمامة: الفردوسُ سُورَةُ الْجَنَّةِ. وقال قتادة: الفردوسُ: ربوةُ الجنة وأوسطها وأفضلها.

[٤٤٤٢] وقد رُوي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ، عن النبي ﷺ: «الفردوسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ، هي أوسطها وأحسنها»^(٣). وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سَمُرَةَ، مرفوعاً. وروى عن قتادة، عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه. روى ذلك كله ابن جرير.

[٤٤٤٣] وفي الصحيحين: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَنْفَجِرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٤). وقوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾، أي: ضيافة، فَإِنَّ النَّزْلَ الضِّيَافَةُ. وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مُقِيمِينَ ساكنين فيها، لا يَظْعَنُونَ عنها أبداً، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي: لا يختارون غيرها، ولا يُحِبُّونَ سواها، وكما قال الشاعر:

(١) أخرجه الطبري ٢٣٣٩٩، وفي الإسناد صالح بن نيهان، اختلط، لكن يشهد له ما قبله.

(٢) أخرجه البزار ٢٩٥٦، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨٥٣٢: عون بن عُمارة، ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٤١٥ و٢٣٤١٦ والطبراني ٦٨٨٦ و٨٨٥ و٧٠٨٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٩٨/١٠، وقال: وأحد أسانيد الطبراني رجاله وتقوا، وفي بعضهم ضعف اهـ. قلت: يشهد له ما بعده.

(٤) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٣٣.

فَحَلَلْتُ سُودًا الْقَلْبَ، لَا أَنَا بَاغِيًا سِوَاهَا، وَلَا عَنْ حُبِّهَا أَتَحَوَّلُ

وفي قوله عز وجل: ﴿لَا يَتَّبِعُونَ عَنَّا حَوْلًا﴾، تنبيه على رغبته فيها، وحبه لها، لأنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يملّه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً، ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلاً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩)

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب به كلمات ربّي وجكّمه وآياته الدالة عليه، لتفقد البحر قبل أن تفرغ كتابة ذلك، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، أي: بمثل البحر آخر، وهلمّ جزءاً، بحور ثمّده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلّهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلّها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١١٠). يقول: لو كان البحر مداداً، والشجر كلّها أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يفقد قدرها ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَرَ

يقول تعالى لرسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذّبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، فمن يزعم أنني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه. وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته، ﴿إِلَهُ وَحْدٌ﴾، لا شريك له، ﴿فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَرَ﴾، وهو الذي يراؤ به وجهه الله وحده لا شريك له. وهذان ركن العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

[٤٤٤٤] وقد روى ابن أبي حاتم، من حديث معمر، عن عبد الكريم الجذري، عن طاووس قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني. فلم يرّد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَرَ﴾ (١). وهكذا أرسل هذا مجاهد، وغير واحد.

[٤٤٤٥] وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بني هاشم، عن شهر بن حوشب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئني عما أسألك عنه: أرايت رجلاً يصلي بيتني وجهه الله ويحب أن يحمّد، ويصوم ويبغني وجهه الله ويحب أن يحمّد، ويتصدق ويبغني وجهه الله ويحب أن يحمّد، ويحج ويبغني وجهه

الله وَيُحِبُّ أَنْ يُحَمِّدَ؟ فقال عبادة: ليس له شيء، إِنَّ الله تعالى يقول: أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ، فَمَنْ كَانَ لَهُ مَعِيَ شَرِيكَ فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ، لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ^(١).

[٤٤٤٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا كثير بن زيد، عن زُبَيْح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْرِي، عن أبيه عن جَدِّهِ قَالَ: كُنَّا نَتَنَاقَشُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَنَبِّتُ عَنْهُ، تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ، أَوْ يَطْرُقُهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَبْعَثُنَا. فَكَثُرَ الْمُحْتَسِبُونَ وَأَهْلُ الثُّوبِ، فَكُنَّا نَتَحَدَّثُ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذِهِ التَّخَوُّي؟ [أَلَمْ أَنْهَكُمُ عَنِ النَّجْوَى] قَالَ: قُلْنَا: ثَبْنَا إِلَى اللَّهِ أَنِّي نَبِيُّ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا فِي ذِكْرِ الْمَسِيحِ، وَفَرَّقْنَا مِنْهُ، فَقَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَسِيحِ عِنْدِي؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: الشُّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّيَ لِمَكَانِ الرَّجُلِ^(٢).

[٤٤٤٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، يعني ابن بهرام، قال: قال شهر بن حَوْشَبٍ: قَالَ ابْنُ غَنَمٍ: لَمَّا دَخَلْنَا مَسْجِدَ الْجَابِيَةِ أَنَا وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، لَقِينَا عِبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، فَأَخَذَ يَمِينِي بِشِمَالِهِ، وَشِمَالُ أَبِي الدَّرْدَاءِ بِيَمِينِهِ، فَخَرَجَ يَمْشِي بَيْنَنَا وَنَحْنُ نَتَنَاجَى بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا نَتَنَاجَى بِهِ، فَقَالَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ: إِنْ طَالَ بِكُمَا عَمْرٌ أَحَدُكُمَا أَوْ كَلَيْكُمَا لَتَوْشِيكَانَ أَنْ تَرَيَا الرَّجُلَ مِنْ تَبِيعِ الْمُسْلِمِينَ - يَعْنِي مِنْ وَسْطٍ - قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَعَادَهُ وَأَبْدَاهُ، وَأَحْلَ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَنَزَلَ عِنْدَ مَنَازِلِهِ. أَوْ قَرَأَهُ عَلَى لِسَانِ أَخِيهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَعَادَهُ وَأَبْدَاهُ، وَأَحْلَ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَنَزَلَ عِنْدَ مَنَازِلِهِ، لَا يَخُورُ فِيكُمْ إِلَّا كَمَا يَخُورُ رَأْسُ الْحِمَارِ الْمَيِّتِ. قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ، وَعُوفُ بْنُ مَالِكٍ، فَجَلَسَا إِلَيْنَا، فَقَالَ شَدَادُ: إِنْ أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مِنْ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ وَالشُّرْكِ. فَقَالَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ: اللَّهُمَّ غَفِّراً. أَوَّلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ حَدَّثَنَا أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَبْسُ أَنْ يُعْبَدَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَأَمَّا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا، هِيَ شَهَوَاتُ الدُّنْيَا مِنْ نَسَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَمَا هَذَا الشُّرْكُ الَّذِي تُخَوِّفُنَا بِهِ يَا شَدَادُ؟ فَقَالَ شَدَادُ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ رَأَيْتُمْ رَجُلًا يُصَلِّيَ لِرَجُلٍ، أَوْ يَصُومُ لِرَجُلٍ أَوْ يَتَصَدَّقُ لَهُ، أَتَرَوْنَ أَنَّهُ قَدْ أَشْرَكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَاللهُ إِنَّهُ مِنْ صَلَّى لِرَجُلٍ أَوْ صَامَ لَهُ أَوْ تَصَدَّقَ لَهُ، لَقَدْ أَشْرَكَ. فَقَالَ شَدَادُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يَرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ». فَقَالَ عُوفُ بْنُ مَالِكٍ عِنْدَ ذَلِكَ: أَفَلَا يَعْبُدُ اللهَ إِلَى مَا ابْتَغَى بِهِ وَجْهَهُ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ كُلِّهِ، فَيَقْبَلُ مَا خَلَصَ لَهُ وَيَدَعُ مَا أَشْرَكَ بِهِ؟ فَقَالَ شَدَادُ عِنْدَ ذَلِكَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنْ عَمَلَهُ قَلِيلٌ وَكَثِيرُهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَ بِهِ، أَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ»^(٣).

[٤٤٤٨] طريق آخرى لبعضه، قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني عبد الواحد بن زيد، أخبرنا عُبَادَةُ بْنُ نُسَيْبٍ، عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَبْكَانِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: أَتَخَوِّفُ عَلَى أُمَّتِي الشُّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ

(١) أخرجه الطبري ٢٣٤٢٩ وفيه إرسال بين شهر وعبادة بن الصامت، لكن للحديث شواهد.

(٢) أخرجه أحمد ٣٠/٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣١٥/١ وقال: ورجاله موثقون. قلت: بل زُبَيْح غير معروف، وقال البخاري: منكر الحديث، فالإسناد ضعيف. لكن لأصل الحديث شواهد.

(٣) أخرجه أحمد ٤/١٢٥ - ١٢٦، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٢١/١٠ وقال: وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره، وضعفه غير واحد، وبقي رجاله ثقات. قلت: شهر غير حجة، لكن للحديث شواهد.

اللَّهُ، أَتَشْرِكُ أَمْتُكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلَا قَمَراً، وَلَا حَجَراً وَلَا وَثْناً، وَلَكِنْ يُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يَصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِماً فَتَعْرِضَ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرَكَ صَوْمَهُ^(١). ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان، عن عبادة بن نسي، به. وعبادة فيه ضعف، وفي سماعه من شداد نظر. [٤٤٤٩] حديث آخر، قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي بن ثابت، حدثنا قيس بن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: أنا خير شريك، من أشرك بي أحداً فهو له كله»^(٢).

[٤٤٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال: أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك^(٣). تفرد به من هذا الوجه.

[٤٤٥١] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْفَرُ. قَالُوا: وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْفَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُمْ تَرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جِزَاءً»^(٤).

[٤٤٥٢] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا عبد الحميد - يعني ابن جعفر - أخبرني أبي، عن زياد بن ميناء، عن أبي سعيد بن أبي قُصَّالَةَ الأنصاري - وكان من الصحابة - أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٌ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ أَحَدًا فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشَّرْكَاءَ عَنِ الشَّرْكِ^(٥). وأخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث محمد بن بكر، وهو البُزْزَانِيُّ به.

[٤٤٥٣] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة - عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهِ بِهِ»^(٦).

[٤٤٥٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فزاس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرَآئِي يُرَآئِي اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُسْمَعُ يُسْمَعُ اللَّهُ بِهِ»^(٧).

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٤/ ١٢٤ ح ١٦٦٧١، وابن ماجه ٤٢٠٥ والحاكم ٤/ ٣٣٠ ح ٧٩٤٠ وصححه، ورده الذهبي بقوله: عبد الواحد - بن زيد - متروك. وذكره المنذري ٥٠، ونقل تصحيح الحاكم، ثم عقبه: كيف، وعبد الواحد بن زيد الزاهد، متروك اهـ. وأعله ابن كثير بعبادة بن نسي أيضاً.

(٢) إسناده غير قوي، علي بن ثابت فيه ضعف، لكن المتن صحيح بشواهد.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٤/ ٢٢٨٩ وأحمد ٢/ ٣٠١ و٤٣٥ والطبراني ٢٥٥٩ وابن ماجه ٤٢٠٢ وابن حبان ٣٩٥.

(٤) تقدم.

(٥) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٥٤ وابن ماجه ٤٢٠٣ وأحمد ٣/ ٤٦٦ والبيهقي في «الشعب» ٦٨١٧، وقال الترمذي: حسن غريب اهـ وله شواهد كثيرة تقويه.

(٦) جيد. أخرجه أحمد ٥/ ٤٥ والبزار ٣٥٦٣ والطبراني كما في «المجمع» ١٠/ ٢٢٢ وقال الهيثمي: وأسانيدهم حسنة.

(٧) متن جيد، أخرجه الترمذي ٢٣٨١ وأحمد ٣/ ٤٠ وقال الترمذي: حسن صحيح. كذا قال، والإسناد ضعيف لضعف عطية بن سعد، لكن المتن محفوظ بشواهد.

[٤٤٥٥] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من سمع الناس بعمله سمع الله به، سامع خلفه، وصغره وخفّره». فذكرت عينا عبد الله^(١).

[٤٤٥٦] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله - عز وجل - يوم القيامة في صُحفٍ مُحْتَمَةٍ فيقول الله: ألقوا هذا، واقبلوا هذا. فتقول الملائكة: يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي»^(٢). ثم قال: الحارث بن غسان، روى عنه جماعة، وهو ثقة بصري ليس به بأس.

[٤٤٥٧] قال ابن وهب: حدثني يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخزازي: أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رياءً وسمعةً لم يزل في مقب الله حتى يجلس»^(٣).

[٤٤٥٨] وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو. فتلك استهانة استهان بها ربّه عز وجل»^(٤).

[٤٤٥٩] وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس الكندي: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية... «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكْ يَمَادَةً رَبِّهِ أُتَدَأُ»، وقال: إنها آخر آية نزلت في القرآن^(٥). وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم.

[٤٤٦٠] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قرّة، عن سعيد بن المسيّب، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ فِي لَيْلَةٍ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكْ يَمَادَةً رَبِّهِ أُتَدَأُ﴾، كَانَ لَهُ نَوْرٌ مِنْ عَدْنٍ أَبِينِ إِلَى مَكَّةَ، حَشْوَةُ الْمَلَائِكَةِ»^(٦). غريب جداً.

(١) حسن. أخرجه أحمد ١٦٢/٢ و ١٩٥ و ٢١٢ و ٢٢٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٢/١٠ وقال: رواه الطبراني وأحمد باختصار، وسمى الطبراني الرجل، وهو هيثمة بن عبد الرحمن، فهذا الاعتبار رجال أحمد، وأحد أسانيد الطبراني في «الكبير» رجال الصحيح.

(٢) أخرجه العقيلي ٢١٨/١، وأعله بالحارث بن غسان، وأنه حدث بمنكير. وقال الذهبي في الميزان: مجهول، فالخبر إلى الضعف أقرب.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٢٢٣/١٠ وقال الهيثمي: وفيه يزيد بن عياض، وهو متروك.

(٤) تقدم في سورة النساء: ١٤٢.

(٥) فيه هشام بن عمار، صدوق، لكن تغير بأخذه، وفيه إسماعيل بن عياض غير قوي، وقد صح أن آخر آية نزلت «وَأَلْقُوا يَوْمَ تُبْعَثُونَ فَبِئْسَ إِلَهًا تَدْعُونَ».

(٦) ضعيف، أخرجه الحاكم ٣٧١/٢ ح ٥٤٠٣، والبزار ٣١٠٨، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: أبو قرّة، فيه جهالة، ولم يضعف اهـ. وقال في الميزان: مجهول، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٠٦٢: أبو قرّة لم يرو عنه غير النضر بن شميل اهـ.



وهي مكية

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل، عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَمِيعَصَ ١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ٢ ﴿١﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ٣ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ ﴿٣﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ ﴿٤﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ أَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ ﴿٥﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدّم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾. أي: هذا ذكر رحمة ربك بعبده زكريا. وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿ذَكَرْ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾. ﴿زَكَرِيَّا﴾: يُمْدُ وَيُقْصِرُ، قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل. وفي صحيح البخاري: أنه كان نجاراً^(١)، أي: إنه كان يأكل من عمل يديه في التجارة. وقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا﴾، قال بعض المفسرين: إنما أخفى دُعَاؤه لئلا يُنْسَبَ في طلب الولد إلى الزعونة ليكبروه. حكاه الماوردي. وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله. كما قال قتادة في هذه الآية: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا﴾^(٢): إن الله يعلم القلب النقي، ويسمع الصوت الخفي. وقال بعض السلف: قام من الليل وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه، يقول خَفِيَّةً: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ. فقال الله: لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، أي: ضَعُفَ، وَخَارَتِ الْقُوَى، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، أي: اضطرم المشيب في السواد، كما قال ابن دريد في مقصورته:

إِذَا تَرَى رَأْسِي خَاكِي لَوْنُهُ طَرَّةً صُبْحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى

وَاشْتَعَلَ الْمُبْيِضُ فِي مُسَوَدِّهِ مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الْغَضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة. وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ

(١). أخرجه مسلم ٢٣٧٩ وأحمد ٢/٢٩٦ و٤٠٥ و٤٨٥ وابن ماجه ١١٥٠ وأبو يعلى ٦٤٢٦ من حديث أبي هريرة، ولم أره عند البخاري.

رَبِّ شَقِيًّا»، أي: ولم أعهذ منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تُردني قط فيما سألتك. وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ آلَإِمْلَآئِ مِن دُونِكَ﴾، قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من «آلِإِمْلَآئِ»، على أنه مفعول. وعن الكسائي أنه سكن الياء، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ فِي السَّعَاءِ الْقَرِيقُ^(١) أَيْدِي جَوَارٍ يَتَعَاطِينَ الْوَرِقَ

وقال الآخر:

فَتَى لَوْ يُبَارِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوْ الْقَمَرَ السَّارِي لَأَلْقَى الْمَقَالِدَا

ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي:

تَغَايِرَ الشَّعْرِ فِيهِ إِذْ سَهَرَتْ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَائِمِهِ سَتَقَتَّلُ

وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: أراد بالموالي العصبية. وقال أبو صالح: الكلاله. وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه كان يقرؤها: «وَإِنِّي خَفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِي»، بتشديد «الفاء»، بمعنى: قلت عصباتي من بعدي. وعلى القراءة الأولى وجهُ خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من ورائتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يُشفق على ماله إلى ما هذا حذّه وأن يأنف من ورائه عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد، لينحور ميراثه دونهم. هذا وجه.

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان تجاراً يأكل من عمل يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً، ولا سيما الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

[٤٤٦١] الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُورث؛ ما تركنا فهو صدقة»^(٢).

[٤٤٦٢] وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن - معاشر الأنبياء - لا نُورث»^(٣). فعلى هذا تعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾^(٤)، على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَبَرِّثْ مِن آلِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾، أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصّه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والمِلل أن الولد يرث أباه، فلو لا أنها ورائة خاصة لما أخبر بها. وكل هذا يُقرّره ويبيّنه ما صحّ في الحديث:

[٤٤٦٣] «نحن - معاشر الأنبياء - لا نُورث، ما تركنا فهو صدقة»^(٥).

(١) القرق: المكان المستوي، والقاع: أرض سهلة مطمئنة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٠٩٤ ومسلم ١٧٥٧ وأبو داود ٦٩٦٣ والترمذي ١٦١٠ وأبو يعلى ٢ من حديث أبي بكر الصديق، في أثناء حديث.

(٣) لم يروه الترمذي ولا غيره بلفظ «نحن» وقد نص على ذلك الحافظ في «الفتح» ١٢/٨ بقوله: وما اشتهر في كتب الأصول وغيرهم بلفظ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة للفظ «نحن» لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ «إنا معاشر الأنبياء لا نورث» وهو كذلك يمسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو أثقن أصحاب ابن عيينة. اهـ ملخصاً، وانظر مسند الحميدي ٢٢ وانظر ما قاله الحافظ في الجمع بين هذه الأحاديث والآية الكريمة.

(٤) هو كسابقه.

قال مجاهد في قوله: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ﴾: كان ورثته علماً، وكان زكريا من ذرية يعقوب. وقال هُشَيْم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ﴾، قال: يكون نبياً، كما كانت أبائهم أنبياء. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة، عن الحسن: يرث نبوته وعلمه. وكذا قال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَرِثٌ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ﴾، قال: نبوتهم. وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ﴾، قال: يرث مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

[٤٤٦٤] وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله زكريا. وما كان عليه من ورثة؟ ويرحم الله لوطاً. إن كان ليأوي إلى ركنٍ شديد»^(١).

[٤٤٦٥] وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك - هو ابن فضالة - عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي زكريا. ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ﴾»^(٢). وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَجْمَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، أي: مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحبه إلى خلقك، في دينه وخلقه.

﴿يَنْزَكِرْنَا إِنَّا نَبْتَرُكُ بِقُلُوبِ أَسْمَاءُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَيِّئًا ۝٧﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: ﴿يَنْزَكِرْنَا إِنَّا نَبْتَرُكُ بِقُلُوبِ أَسْمَاءُ يَحْيَى﴾، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذَارٌ لَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ مِنْ دُونِكَ مُنَبِّئَةٌ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْ قَبْلُ نَذِيرٌ﴾. فنادته الملككة وهو قائم يسكن في الحراب أن الله يبتريك يحيى موصوفاً بكلمة من الله وسيداً وحضواً ونبياً من الصالحين [آل عمران: ٣٨ - ٣٩]. وقوله: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَيِّئًا﴾، قال قتادة: وابن جريج وابن زيد، أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَيِّئًا﴾، أي: شبيهاً. أخذه من معنى قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ هَلْ تَقْلَهُ لَمْ سَيِّئًا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: شبيهاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله. وهذا دليل على أن زكريا - عليه السلام - كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة - عليهما السلام - فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، لا لغفرها، ولهذا قال: ﴿أَبْتَرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّيَ الْكَبِيرَ فِيمَ تَبْتَرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، مع أنه كان ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٦﴾ قالوا أفتنجين من أمر الله رحمته الله وبركته عليك أهل البيت إنهم حديد مجيد ۝٧٦﴾ [هود: ٧٢ - ٧٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾

(١) ضعيف، أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٧٣٥، والطبري ٢٣٥٠٠ و ٢٣٥٠١ هكذا مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف، والوهن في صدره فقط، وأما عجزه، فقد ورد موصولاً بأسانيد صحيحة.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٣٤٩٩ عن الحسن مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف، وله علة ثانية: جابر بن نوح ضعفه يمين وغيره. وفيه مبارك بن فضالة، غير قوي.

هَذَا تَعَجَّبَ مِنْ زَكَرِيَّا - عَلَيْهِ السَّلَام - حِينَ أَجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ، وَبُشِّرَ بِالْوَلَدِ، فَفَرَحَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَسَأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَا يُوَلَّدُ لَهُ، وَالْوَجْهَ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْهُ الْوَلَدُ، مَعَ أَنَّ امْرَأَتَهُ عَاقِرٌ لَمْ تَلِدْ مِنْ أَوَّلِ عَمَرِهَا مَعَ كِبَرِهَا، وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَعَتَا، أَيُّ: عَسَا عَظُمَهُ وَنَحُلَ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ لِقَاحٌ وَلَا جَمَاعٌ. تَقُولُ الْعَرَبُ لِلْعَوْدِ إِذَا بَيَسَ: «عَتَا» يَغْتَوِ عِتْنًا وَعُتْوًا، وَعَسَا يَعْسُو عُسْوًا وَعِيسِيًّا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «سَيِّئًا» يَمَعْنِي نُحُولُ الْعَظَمِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: «عِيسِيًّا»، يَعْنِي الْكِبَرَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَخْصُ مِنَ الْكِبَرِ.

[٤٤٦٦] وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا مُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا خُصَيْنٌ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ السَّنَةَ كُلَّهَا، غَيْرَ أَنِّي لَا أَدْرِي أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ أَمْ لَا؟ وَلَا أَدْرِي كَيْفَ كَانَ يَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ: «وَقَدْ بَلَّغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِيسِيًّا»، أَوْ «عِيسِيًّا»^(١). وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُرَيْجِ بْنِ النُّعْمَانِ، وَأَبُو دَاوُدَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ أَيُّوبَ، كِلَاهُمَا عَنْ مُشَيْمٍ، بِهِ. «قَالَ»، أَيُّ: الْمَلِكُ مُجِيبًا لَزَكَرِيَّا عَمَّا اسْتَعْجَبَ مِنْهُ: «كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَذِهِ»، أَيُّ: لِإِجَادِ الْوَلَدِ مِنْكَ وَمِنْ زَوْجَتِكَ هَذِهِ لَا مِنْ غَيْرِهَا، «هَذِهِ»، أَيُّ: يَسِيرُ سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ. ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْجَبَ مِمَّا سَأَلَ فَقَالَ: «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا»، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا» ﴿١٠﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ ﴿١١﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعِشِيًّا﴾ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً»، أَيُّ: عَلَامَةً وَدَلِيلًا عَلَى وُجُودِ مَا وَعَدْتَنِي لِتُسَقِّتَ نَفْسِي وَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِمَا وَعَدْتَنِي، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُعْطِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ ثَوَمِنٌ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ» [البقرة: ٢٦٠]... الآية، «قَالَ آيَتُكَ»، أَيُّ: عَلَامَتِكَ «أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، أَيُّ: أَنْ تَحْبِسَ لِسَانَكَ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَأَنْتَ صَاحِبُ سَوِيٍّ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَوَهْبُ بْنُ مُثَنَّبٍ، وَالسَّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: اعْتَقَلَ^(٢) لِسَانَهُ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَانَ يَقْرَأُ وَيُسَبِّحُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكَلِّمَ قَوْمَهُ إِلَّا إِشَارَةً. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، أَيُّ: مُتَتَابِعَاتٍ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ عَنْهُ وَعَنِ الْجُمْهُورِ أَصَحُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آلِ عِمْرَانَ: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذُنًا رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّيْتِ وَالْإِنْكَارِ» ﴿١١﴾. وَقَالَ مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: «ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، مِنْ غَيْرِ خَرَسٍ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكَلِّمُ النَّاسَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ وَأَيَّامِهَا «إِلَّا رَمْرًا»، أَيُّ: إِشَارَةً، وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ»، أَيُّ: الَّذِي بُشِّرَ فِيهِ بِالْوَلَدِ، «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، أَيُّ: أَشَارَ إِشَارَةً خَفِيَّةً سَرِيعَةً: «أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعِشِيًّا»، أَيُّ: مُوَافَقَةً لَهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ زِيَادَةً عَلَى أَعْمَالِهِ، وَشُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، أَيُّ: أَشَارَ إِلَيْهِمْ. وَبِهِ قَالَ وَهْبٌ، وَقَتَادَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي رِوَايَةِ عَنْهُ: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، أَيُّ: كَتَبَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ. وَكَذَا قَالَ السَّدِّيُّ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٢٣٥١٤ وَاحِدًا ٢٤٩/١ - ٢٥٧ - ٢٥٨. وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ: حَصِينٌ هُوَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ اخْتَلَطَ.

(٢) كَذَا وَرَدَ عَنْ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ، لَكِنْ يَشْكَلُ عَلَى ذَلِكَ الْآيَةِ فِي آلِ عِمْرَانَ «وَأَذُنًا رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّيْتِ وَالْإِنْكَارِ» فَامْرُءٌ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْعُدْ لِسَانَهُ، أَوْ أَنَّهُ عَقَدَ عَنِ النَّاسِ دُونَ ذِكْرِ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿يَبْعَثْ خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ۝١٧ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره: أنه وُجد هذا الغلام المُبَشَّر به. وهو يحيى - عليه السلام - وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكمُ بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريائيون والأخبار. وقد كان سيئه إذ ذاك صغيراً، فلماذا نُؤْهِدُ بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يَبْعَثْ خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، أي: تَعَلَّمْ الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجِدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ أي: الفهم والعلم والجِدُّ والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حديث السن. قال عبد الله بن المبارك، قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما لِلْعَبِّ خُلْفَتًا. قال: فلهذا أنزل الله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾. وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، يقول: ورحمةٌ من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقاتدة، والضحاك وزاد: لا يَقْدِرُ عليها غيرُنا. وزاد قاتدة: رَجِمَ الله بها زكريا. وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، وتعطفاً من ربه عليه. وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال: محبةٌ عليه. وقال ابنُ زيد: أُمَّا الْحَنَانُ فَالْمَحَبَّةُ. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال: تعظيماً من لدنا. وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سَمِعَ عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: لا والله، ما أدري ما حَنَانًا.

وقال ابن جريج: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، سَأَلَتْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فقال: سَأَلْتُ عَنْهَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَلَمْ يُحِزْ فِيهَا شَيْئاً. والظاهر من هذا السياق أن قوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾، أي: وآتيناه الحكم، وحناناً، وزكاةً، أي: وجعلناه ذا حَنَانٍ وزكاةٍ، فالحنان هو المحبة في شَفَقَةٍ وَمِثْلِ، كما تقول العرب: «حَنَّتِ الناقة على ولدها، وحَنَّتِ المرأة على زوجها». ومنه سميت المرأة «حَنَنَةً» من الجنة، وَحَنُّ الرَّجُلِ إِلَى وَطَنِهِ، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر:

تَحَنَّنَ عَلَيَّ - هَذَاكَ الْمَلِيكَ - فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالاً

[٤٤٦٧] وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار، ينادي ألف سنة: يا حَنَانُ، يا مَنَانُ»^(١). وقد يُقْنَى، ومنهم من يجعل ما وَرَدَ من ذلك لغةً بذاتها، كما قال طرفة:

أَبَا مُنْذِرٍ، أَفْتَنَيْتِ، فَاسْتَبَقِي بَغْضَنَا حَنَانِيكَ، بَغْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَغْضِ

وقوله تعالى: ﴿وَزَكَاةً﴾، معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾، فالزكاة الطهارة من الدُّنَسِ والآثام والذنوب. وقال قاتدة: الزكاة: العمل الصالح. وقال الضحاك، وابن جريج: العمل الصالح الزكي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ قال: بركة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: طَهُرَ، فلم يعمل بذنوب. وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ وَأَنَّهُ خَلَقَهُ ذَا رَحْمَةٍ وَزَكَاةٍ وَتَقَى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عُقُوقَهُمَا، قولاً وفِعْلاً أمراً ونهياً. ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. ثم قال بعد هذه

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٢٣٠/٣ وأبو يعلى ٤٢١٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٨٤/١٠ وقال: ورجالهما رجال الصحيح،

غير أبي ظلال، وضعفه الجمهور، وثقه ابن حبان.

الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥)، أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. وقال سفيان بن عُيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم وُلِدَ، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه. ويوم يَمُوتُ، فيرى قوماً لم يكن عاينهم. ويوم يُبْعَثُ، فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا، فمَحَّصَهُ بالسَّلام عليه فقال: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥). رواه ابن جرير، عن أحمد بن منصور المروزي، عن صدقة بن الفضل، عنه.

[٤٤٦٨] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال النبي ﷺ: ما من أحد يلتقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا. قال قتادة: ما أذنب، ولا هم بامرأة^(١). مرسل.

[٤٤٦٩] وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا»^(٢). ابن إسحاق مَدْلَس. وقد عنعن هذا الحديث، فالله أعلم.

[٤٤٧٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»^(٣). وهذا أيضاً ضعيف، لأن علي بن زيد بن جُدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى - عليهما السلام - التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني. فقال له الآخر: استغفر لي، أنت خير مني. فقال له عيسى: أنت خير مني، سلّمت على نفسي، وسلّم الله عليك. فغفر والله فضلها.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦) فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ قَدِيرًا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ مِائَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا - عليه السلام - وأنه أوجد منه في حال كبره وعظم زوجته ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا، عطّف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى - عليهما السلام - منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة. ولهذا ذكرهما في آل عمران وها هنا، وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما

(١) هو مرسل لكن يعتضد بما بعده، ومراسيل ابن السيب صحيحة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٥٦٦ وفي إسناده ابن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن كما ذكر المصنف.

(٣) أخرجه أحمد ٢٥٤/١ و٢٩٢ وأبو يعلى ٢٥٤٤ وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جُدعان، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٩/٨: وفيه علي بن زيد ضعفه الجمهور، وقد وثق، وبقي رجال أحمد رجال الصحيح اهـ. قلت: لكن للحديث شواهد يقوى بها، انظر «مجمع الزوائد» ٢٠٨/٨ - ٢٠٩ وهو يعتضد بما قبله عن عبد الله بن عمرو بن العاص ويمرسل ابن المسيب، والله أعلم، وعجز الحديث صحيح.

بينهما في المعنى، ليدل عباده على قُدْرته وعظْمته سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في «آل عمران»، وأنها نذرتُها مُحَرَّرةً، أي: لخدمة بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبذل والدُّوْب، وكانت في كفالة زوج أختها - وقيل: خالتها - زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يَرْجِعُون إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهرهُ، ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْغُرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِيقًا قَالَ يَرْيَمُ إِنَّكَ لَكِبْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُنِي مِنْ شَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في «آل عمران». فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى - عليه السلام - أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، ﴿أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، أي: اعتزلتهم وتنحّت عنهم، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس. قال السدي: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُذَيْبَةَ، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كُتِب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صَرَفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾. قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين حدثنا خالد بن عبد الله عن داود عن عامر عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله لقوله الله تعالى: ﴿أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾؛ واتخذوا ميلاد عيسى قبله. وقال قتادة «مَكَانًا شَرْقِيًّا»: شاسعاً مُتَنَجِّحاً. وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بِقُلَيْبِهَا تستقي من الماء. وقال نوف البكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾، أي: استترت منهم وتواوِث، فأرسل الله تعالى إليها جبريل - عليه السلام - ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، أي: على صورة إنسان تامّ كامل. قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، ووهب بن منبّه، والسدي في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، يعني جبريل عليه السلام. وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]. وقال أبو جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: إن روح عيسى - عليه السلام - من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم عليه السلام، وهو الذي تمثّل لها بشراً سَوِيًّا، أي: روح عيسى، فحملت الذي خاطبها وحل في فيها. وهذا في غاية الغرابة والثكارة، وكأنه إسرائيلي. ﴿قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا ﴿١٨﴾﴾، أي: لما تبدّى لها المَلَك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنّت أنه يريد بها على نفسها، فقالت: ﴿إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾، أي: إن كنت تخاف الله، تذكّر له بالله. وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل [فالأسهل]، فخوّفته أولاً بالله عزّ وجلّ.

قال ابن جرير: حدثني أبو كريّب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل - وذكر قصة مريم - فقال: قد عَلِمْتُ أن الثَّقِيّ ذو نهيّة حين قالت: ﴿إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا ﴿١٨﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ. أي: فقال لها المَلَك مجيباً لها ومزيلاً ما حَصَلَ عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنّين، ولكنني رسول ربك، أي: بعثني الله إليك. ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريلُ فرَقاً، وعاد إلى

هَيْئَتِهِ، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِیَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء، أحد مشهوري القراء. وقرأ الآخرون: ﴿لَا هَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم الأخرى. «قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ»، أي: فَتَعَجَّبَتْ مَرِيَمُ مِنْ هَذَا وَقَالَتْ: كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟ أي: عَلَى أَيْ صِفَةٍ يُوَجِّدُ هَذَا الْغُلَامُ مِنِّي، وَلَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا يُتَصَوَّرُ مِنِّي الْفُجُورُ. وَلِهَذَا قَالَتْ: «وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا». واليغني: هي الزانية.

[٤٤٧١] ولهذا جاء في الحديث النهي عن مهر البغي^(١). «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْئَةٍ»، أي: فقال لها الملك مَجِيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سَيُوجِدُ مِنْكَ غُلَامًا، وإن لم يكن لك بَعْلٌ، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: «وَلَنَجْكَفَنَّ أَمْرَهُ لِلنَّاسِ»، أي: دَلَالَةً وَعِلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَةِ بَارِئِهِمْ وَخَالِقِهِمْ، الَّذِي نَوْعٌ فِي خَلْقِهِمْ، فَخَلَقَ أَبَاهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الذَّرِّيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، إِلَّا عِيسَى فَإِنَّهُ أَوْجَدَهُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وقوله تعالى: «وَرَحْمَةً مِنَّا»، أي: وَنَجْعَلُ هَذَا الْغُلَامَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْمَكَلِّينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]، أي: يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّهِ فِي مَهْدِهِ وَكُهُولِهِ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم - ذُحَيْمٌ - حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد قال: قالت مريم - عليها السلام - كنت إذا خلوتُ حَدَّثَنِي عِيسَى وَكَلَّمَنِي وَهُوَ فِي بَطْنِي، وَإِذَا كُنْتُ مَعَ النَّاسِ سَبَّحَ فِي بَطْنِي وَكَبَّرَ^(٢). وقوله: «وَكَاكَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا»، يَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ جَبْرِيلَ لِمَرْيَمَ، يُخْبِرُهَا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مَقْدَرٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرُهُ وَمَشِيئَتُهُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَبَرِ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهُ كَتَبَ بِهَذَا عَنِ النَّفْخِ فِي فَرْجِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا» [التحریم: ١٢]، وقال: «وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا» [الأنبياء: ٩١]. قال محمد بن إسحاق: «وَكَاكَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا»، أي: إن الله قد عَزَمَ عَلَى هَذَا، فَلَيْسَ مِنْهُ بَدَلٌ. واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره، ولم يَخْلِكْ غَيْرَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريلُ عن الله تعالى ما قال استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غيرُ واحدٍ من علماء السلف أن الملك - وهو جبريلُ عليه السلام - عند ذلك نفخ في جَنَبِ درعها، فنزلت النفخة حتى وَلَجَتْ فِي الْفَرْجِ، فَحَمَلَتْ بِالْوَلَدِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى. فلما حملت ضاقت ذرعاً به، ولم تَذِرْ

(١) يشير المصنف لحديث أبي مسعود الأنصاري عند البخاري ٢٢٣٧ ومسلم ١٥٦٧ وأبو داود ٣٤٨١ والترمذي ١٢٧٦ وابن ماجه ٢١٥٩ وأحمد ١١٩/٤ و١٢٠ وابن حبان ٥١٥٧ ولغظه النبي رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن.

(٢) هو متلفى عن أهل الكتاب، لا حجة فيه البتة.

ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدّقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرّها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا. وذلك أن زكريا - عليه السلام - كان قد سأل الله الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعزيت يا مريم أني حبلتي؟ فقالت لها مريم: وهل عليمي أيضاً أني حبلتي؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجدد الذي في بطنها يسجد للذي في بطن مريم، أي: يُعظّمه ويخضع له، فإن السجود كان في ملتئمهم عند السلام مشروعا، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام. ولكن حُرّم في ملتنا هذه، تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قرىء على الحارث بن مسكين وأنا أسمع: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك - رحمه الله - : بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى - عليه السلام - لأن الله جعله يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص. ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى - عليه السلام - فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر. قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. وقال ابن جريج: أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت. وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَعَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (١٦) فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاضُ إِذَا بِهَا يَحْيَى الْخَلَقَ، فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٥) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَوْنًا الْوُظْأَ لَحْمًا﴾ (المؤمنون: ١٢ - ١٤). فهذه الفاء للتعقيب بحسبها.

[٤٤٧٢] وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوماً^(١). وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَلْزَمْتُكَ الْوَيْسَ السَّكَنَاءَ مَاءً قَتَصِيحَ الْأَرْضِ مُخَصَّرَةً﴾ (الحج: ٦٣)، فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمّل النساء بأولادهن، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراياتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى يقل بطنها وبكره أنكر ذلك من أمرها، ثم صرّفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوس في فكره، لا يستطيع صرّفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول، فقال: يا مريم، إني سألتك عن أمر فلا تعجلي عليّ. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون شجر قط من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم - وفهمت ما أشار إليه -: أما قولك: «هل يكون شجر من غير حب، وزرع من غير بذر» فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر. «وهل يكون ولد من غير أب»، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدّقها، وسلم لها حالها. ولما استشعزت مريم من قومها آثامها بالرّيبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لئلا تراهم ولا يزوها. قال محمد بن إسحاق: قلما حملت به وملاّت قلنتها وزججت استمسك عنها الدم، وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغيّر اللون حتى فطر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما

(١) مراده «إن أحدهم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة...» الحديث أخرجه البخاري، وتقدم.

دَخَلَ عَلَى آلِ زَكَرِيَّا، وَشَاعَ الْحَدِيثُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: إِنَّمَا صَاحِبُهَا يَوْسُفُ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا فِي الْكَنِيسَةِ غَيْرُهُ، وَتَوَارَتْ مِنَ النَّاسِ، وَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَلَا يَرَاهَا أَحَدٌ وَلَا تَرَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاشُ إِنَّ جَنَعَ النَّخْلَ﴾، أَي: فَاضْطَرَّهَا وَالْجَاهُ الطَّلُقُ إِلَى جَذْعِ النَّخْلَةِ، وَهِيَ نَخْلَةٌ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ. وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ السَّدِّيُّ: كَانَ شَرْقِيَّ مَحْرَابِهَا الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُثَنِّهِ: ذَهَبَتْ هَارِيَّةً، فَلَمَّا كَانَتْ بَيْنَ الشَّامِ وَبِلَادِ مِصْرَ ضَرَبَهَا الطَّلُقُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ وَهْبٍ: كَانَ ذَلِكَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فِي قَرْيَةٍ هُنَاكَ يُقَالُ لَهَا: بَيْتُ لَحْمٍ.

[٤٤٧٣] قُلْتُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، مِنْ رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَابِيهَيْهِ عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَنَّ ذَلِكَ بَيْتُ لَحْمٍ^(١). فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَلَا تُشْكُ فِيهِ النَّصَارَى أَنَّهُ بَيْتُ لَحْمٍ، وَ [قَدْ] تَلَقَّاهُ النَّاسُ. وَقَدْ وَزَدَ بِهِ الْحَدِيثُ إِنْ صَحَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ عَنْهَا: ﴿فَأَتَتْ بِيَلَّتَيْنِ مِثْلَ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾، فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّيِ الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتَبْتَلِي وَتُمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ، الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ، وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا، وَبِعَدَمِ كَانَتِ عَنْدهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً، تُصْبِحُ عَنْدهُمْ فِيمَا يَطْشُونَ عَاهِرَةً زَانِيَةً، فَقَالَتْ: ﴿بِلَّتَيْنِ مِثْلَ قَبْلِ هَذَا﴾، أَي: قَبْلَ هَذَا الْحَالِ، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾، أَي: لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ السَّدِّيُّ: قَالَتْ وَهِيَ تُطَلَّقُ مِنَ الْحَبْلِ، اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ: يَا لَيْتَنِي مِثْلَ قَبْلِ هَذَا الْكَزْبِ الَّذِي أَنَا فِيهِ، وَالْحَزَنَ بَوْلَادَتِي الْمَوْلُودِ مِنْ غَيْرِ بَغْلٍ ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾، نُسِيٌّ فَتَرَكْ طَلَبَهُ، كَخَزَقِ الْحَبِضِ الَّتِي إِذَا أُلْقِيَتْ وَطُرِحَتْ لَمْ تُطَلَّبْ وَلَمْ تُذَكَّرْ. وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ نُسِيٌّ وَتَرَكْ فَهُوَ نُسِيٌّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾، هُوَ السَّقَطُ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَمْ أَكُنْ شَيْئًا قَطُّ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى النَّهْيِ عَنْ تَمَنِّيِ الْمَوْتِ إِلَّا عِنْدَ الْفِتْنَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَقَفَى مَسْلُومًا وَالْحَقِيقِي بِالْمَلَكِيِّينَ﴾.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَاكِي سَرِيًّا ۝٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكَ يَمْنَعُ النَّخْلَةَ سُقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ فَكُلِّي وَأَشْرِي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝٢٦﴾

قَرَأَ بَعْضُهُمْ: «مَنْ تَحْتَهَا» بِمَعْنَى الَّذِي تَحْتَهَا. وَقَرَأَ آخَرُونَ «مِنْ تَحْتِهَا»، عَلَى أَنَّهُ حَرْفُ جَرٍّ. وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ، مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ الْعَوْفِيُّ وَغَيْرُهُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾: جَبْرِيلُ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عِيسَى حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمُهَا. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ، وَالسَّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ: إِنَّهُ الْمَلَكُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَي: نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾، قَالَ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ إِبْرَاهِيمُ. وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَائِثِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّهُ ابْنُهَا^(٢)، قَالَ: أَوْلَمْ تَسْمَعْ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: وَاخْتَارَهُ ابْنُ زَيْدٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ فِي تَفْسِيرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾، أَي: نَادَاهَا قَائِلًا: لَا تَحْزَنِي، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَاكِي﴾

(١) تقدم في سورة الإسراء كما ذكر المصنف.

(٢) الراجح ما قاله ابن عباس وغيره، والله أعلم.

سَرِيًّا»، قال سفيان الثوري وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب: «قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا»، قال: الجدول. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السَّرِي: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تَشْرَبُ منه. وقال مجاهد: هو النهر، بالسريانية. وقال سعيد بن جبيرة: السَّرِي: النهر الصغير بالبطنية، وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية. وقال إبراهيم النخعي: هو النهر الصغير. وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز. وقال وهب بن منبه: السَّرِي: هو ربيع الماء. وقال السدي: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير.

[٤٤٧٤] وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، فقال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا يحيى بن عبد الله البالبلي، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سَمِعْتُ ابن عمر - رضي الله عنه - يقول: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ السَّرِيَّ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لَمَرِيمَ: «قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا»، نَهْرٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لِتَشْرَبَ مِنْهُ»^(١). وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحلي، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضَعِيف. وقال أبو زرعة. منكر الحديث، وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث. وقال آخرون: المراد بالسري عيسى عليه السلام، وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عباد بن جعفر: وهو إحدى الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. والقول الأول أظهر، ولهذا قال بعده: «وَهَزَى إِلَيْكَ بِمِجْنَعِ النَّخْلَةِ»، أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مشمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. وقال الثوري، عن أبي داود نفيح الأعمى: كانت صَرْفَانَةً. والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه. ولهذا امتن عليها بذلك أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: «تَنْقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا» ﴿٥٥﴾ فَكُلْ وَاشْرَبِي وَفَرِحِي عَيْتًا»، أي: طيبي نفساً. ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من الثمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

[٤٤٧٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا شيبان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأزاعي، عن عروة بن رويم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْرَمُوا عَمَتَكُمْ النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام، وليس من الشجر شيء يُلَقَّحُ غيرها، وقال رسول الله ﷺ: أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطباً فتمر، وليس من الشجرة شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران»^(٢). هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبان به.

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ١٣٣٠٣ من حديث ابن عمر، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١١١٥٦ بضعف يحيى بن عبد الله البالبلي أنه وله علة ثانية وهي ضعف أيوب بن نهيك، بل هو متروك.

ورود من حديث البراء بن عازب أخرجه الطبراني في «الضعيف» ٦٨٥ وقال الهيثمي ١١١٥٥: فيه معاوية بن يحيى الصدفي، وهو ضعيف أنه. وله علة ثانية بقية بن الوليد مدلس، وقد عمن، وفيه سعيد بن سنان فيه ضعف، والأشبه في هذا كونه عن ابن عباس، وغيره كما تقدم، والله أعلم.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه أبو يعلى ٤٥٥ وابن حبان في «المجروحين» ٤٤/٣ وأبو نعيم ١٢٣/٦ وابن عدي ٤٣١/٦ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١٨٤/١ وأعله الهيثمي في «المجمع» ٨٩/٥ بمسرور بن سعيد، وهو ضعيف أنه وقال ابن حبان: يروي عن الأزاعي المناكير، وحكم ابن الجوزي بوضعه، وللحديث علة ثانية: عروة بن رويم عن علي منقطع، والله أعلم.

وقرأ بعضهم: «تَسَاقُطُ»، بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نَهِيك: «تُسْقِطُ عليك رطباً جنياً»، وروى أبو إسحاق، عن البراء: أنه قرأها «يَسَاقُطُ»، أي: الجذع؛ والكل متقارب.

وقوله تعالى: ﴿فَمِمَّا تَوَيَّنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾، أي: مهما رأيت من أحد، ﴿فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، والمراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي، لئلا ينافي ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. قال أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾، أي: صُمتاً. وكذا قال ابن عباس، والضحَّاك. وفي رواية عن أنس: «صوماً وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما. والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليه الطعام والكلام، نص على ذلك السدي، وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: خلف ألا يكلم الناس اليوم. قال عبد الله: كلم الناس وسلم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم عليها السلام - ليكون عُذراً لها إذا سُئِلَتْ. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير رحمهما الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي؟ لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عُذري عند الناس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام، ﴿فَمِمَّا تَوَيَّنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهب.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيْلُهُ قَالُوا يَنْمِرِمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَوْ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَنِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُدْفَنُ ﴿٣٣﴾ أَتَعْتُ حَيًّا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بخجتها فسلمت لأمر الله - عز وجل - واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيْلُهُ﴾، فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، ﴿قَالُوا يَنْمِرِمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، أي: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقاتدة، والسدي، وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: وخرج قومها في طلبها. قال: وكانت من أهل بيت ثبوة وشرف، فلم يحسوها منها شيئاً، فرأوا راعي بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نعثها؟ قال: لا، ولكن رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة سجدت نحو هذا الوادي.

قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاؤا حتى قاموا عليها، ﴿قَالُوا يَنْمِرِمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، أمراً عظيماً. ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾، أي: يا شبيهة هارون في العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَوْ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَنِيًّا﴾، أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك. قال علي بن أبي طلحة، والسدي: قيل لها: ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾، أي: أخي موسى، وكانت من نسله،

كما يقال للتيمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر. وقيل: تُسَبِّت إلى رَجُلٍ صالح كان فيهم اسمه هارون، وكانت تُقاس به في العبادة والزهادة. وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شَبَّهوها برجل فاجر كان فيهم، يقال له: هارون. ورواه ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة.

وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْهَيْثَمِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا الْمُفَضَّلُ - يعني ابن فضالة - حَدَّثَنِي أَبُو صَخْرٍ، عَنِ الْقُرْظِيِّ، فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿يَا أَيُّهَا هَارُونَ﴾، قَالَ: هِيَ أُخْتُ هَارُونَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَهِيَ أُخْتُ مُوسَى أَخِي هَارُونَ الَّتِي قُصَّتْ أُمُّ مُوسَى، ﴿فَبَصَّرَتْ بِهَا رَبُّهُ مِنْ جَنِّبٍ وَهَمَّ لَا يُشْعِرُونَ﴾ [القصص: ١١]. وَهَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ مُحَضَّرٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ قَفَى بَعِيسَى بَعْدَ الرُّسُلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ بَعَثًا، وَلَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا مُحَمَّدٌ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -.

[٤٤٧٦] وَلِهَذَا ثَبِتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»^(١)، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ لَمْ يَكُنْ مُتَأَخِّرًا عَلَى الرُّسُلِ سِوَى مُحَمَّدٍ، وَلَكَانَ قَبْلَ سَلِيمَانَ وَدَاوُدَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ دَاوُدَ بَعْدَ مُوسَى - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَدَأَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يُنْزِلَ فِي سَكِينٍ مِّنَّا﴾، فَذَكَرَ الْقِصَّةَ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَتَكَلَّمَ دَاوُدُ جَالُوسًا﴾ [البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١]... الْآيَةُ - وَالَّذِي جَرَأَ الْقُرْظِيُّ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ مَا فِي التَّوْرَةِ بَعْدَ خُرُوجِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْبَحْرِ، وَإِعْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، قَالَ: «وَكَانَتْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ أُخْتُ مُوسَى وَهَارُونَ النَّبِيِّينَ تَضْرِبُ بِالذُّفِّ هِيَ وَالنِّسَاءُ مَعَهَا يُسَبِّحْنَ اللَّهَ وَيُشْكِرُنَّهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ». فَاعْتَقَدَ الْقُرْظِيُّ أَنَّ هَذِهِ هِيَ أُمُّ عِيسَى. وَهِيَ مَهْوَةٌ وَغُلَطَّةٌ شَدِيدَةٌ، بَلْ هِيَ بِاسْمِ هَذِهِ، وَقَدْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

[٤٤٧٧] حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ، سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُهُ عَنْ سِمَاكِ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ واثِلٍ، عَنْ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى نَجْرَانَ، فَقَالُوا: أَرَأَيْتَ مَا تَقْرَءُونَ: ﴿يَا أَيُّهَا هَارُونَ﴾، وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: فَرَجَعْتُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: «إِلَّا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ»^(٢). انفرد بإخراجه مسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سِمَاكِ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ إِدْرِيسَ». وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُثَيْمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي صَدْقَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: ثُبُثَ أَنَّ كَعْبًا قَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا هَارُونَ﴾. لَيْسَ بِهَارُونَ أَخِي مُوسَى. قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: كَذَبْتَ. فَقَالَ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَهُ فَهُوَ أَعْلَمُ وَأَخْبَرُ، وَإِلَّا فَإِنِّي أَجِدُ بَيْنَهُمَا سِتْمَةً سَنَةٍ. قَالَ: فَسَكَتَ^(٣). وَفِي هَذَا التَّارِيخِ نَظَرٌ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا بَشَرٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ يَتِيمًا﴾، قَالَ: كَانَتْ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُعْرِفُونَ بِالصَّلَاحِ وَلَا يُعْرِفُونَ بِالْفُسَادِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْرِفُونَ بِالصَّلَاحِ وَيَتَوَالَّدُونَ بِهِ، وَآخَرُونَ يُعْرِفُونَ بِالْفُسَادِ وَيَتَوَالَّدُونَ بِهِ. وَكَانَ هَارُونَ مُصْلِحًا مُحِبًّا فِي عَشِيرَتِهِ، وَلَيْسَ بِهَارُونَ أَخِي مُوسَى، وَلَكِنَّهُ هَارُونَ آخِرُ، قَالَ: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ شَبَّعَ جَنَازَتَهُ يَوْمَ مَاتَ أَرَبْعُونَ

(١) تقدم في سورة النساء عند آية: ١٥٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٣٥ والترمذي ٣١٥٥ والنسائي في «الكبرى» ١١٣١٥ وأحمد ٢٥٢/٤ والطبري ٢٣٦٩١.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٦٨٩ بإسناد ضعيف لانقطاعه، حيث فيه لفظ «ثُبُثَ».

ألفاً، كلهم يُسمى هارون، من بني إسرائيل. وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٨)، أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قصتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها وزنيها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامئة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمكين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾. قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، قالت: كلّموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نُكَلِّمَ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا! وقال السدّي: لما أشارت إليه غَضِبُوا، وقالوا: لَسَخَرِيتُهَا بِنَا حِينَ تَأْمُرُنَا أَنْ نُكَلِّمَ هَذَا الصَّبِيَّ أَشَدُّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاهَا. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، أي: مَنْ هُوَ موجودٌ فِي مَهْدِهِ فِي حَالِ صَبَاهِ وَصُغْرِهِ، كَيْفَ يَتَكَلَّمُ؟ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّهَ جَنَابَ رَبِّهِ تَعَالَى، وَبَرَأَ اللَّهَ عَنِ الْوَلَدِ، وَاثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْعُبُودِيَّةَ لِرَبِّهِ. وقوله: ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تَبَرُّهُ لَأَمِّهِ مِمَّا نَسَبَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ. قَالَ تَوْفُ الْبِكَايَلِيِّ: لَمَّا قَالُوا لَأَمِّهِ مَا قَالُوا، كَانَ يَرْتَضِعُ ثَدْيَهُ، فَتَنَزَّعَ الثَدْيُ مِنْ فَمِهِ، وَاتَّكَأَ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْسَرِ، وَقَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. وَقَالَ حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ: رَفَعَ إصْبَعَهُ السَّابِغَةَ فَوْقَ مَنْكِبِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾... الآية. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، أَي: قَضَى أَنْ يُؤْتِنِي الْكِتَابَ فِيمَا قَضَى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصطفى، حدثنا يحيى بن سعيد - هو العطار - عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان عيسى ابن مريم قد دَرَسَ الإنجيل وأحكمه وهو في بطن أمه، فذلك قوله: ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(١). يحيى بن سعيد العطار الجعفي متروك.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، قال مجاهد، وعُمر بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عن مجاهد: نفاعاً. وقال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي، سمعتُ وَهْبَ بْنَ الْوَرْدِ مَوْلَى بَنِي مَخْزُومٍ قَالَ: لَقِيَ عَالِمٌ عَالِماً هُوَ فَوْقَهُ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، مَا الَّذِي أَعْلَمُ مِنْ عِلْمِي؟ قَالَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَإِنَّهُ دِينُ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ أَنْبِيََاءَهُ إِلَى عِبَادِهِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، قِيلَ: مَا بَرَكَتُهُ؟ قَالَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَيْنَمَا كَانَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَعِذْ بِكَ بِحَقِّ يَأْتِيكَ الْبَقِيَّةُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، قَالَ: أَخْبَرَهُ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِهِ حَتَّى يَمُوتَ، مَا أَثْبَتَهَا لِأَهْلِ الْقَدْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَرَأَ بِرَأْيِي﴾، أَي: وَأَمَرَنِي بِبِرِّهِ وَالدِّينِ، ذَكَرَهُ بَعْدَ طَاعَةِ اللَّهِ رَبِّهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةِ الْوَالِدِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَوَقَّعَ رَبُّكَ أَلا تَقْدُوا إِلَّا إِتَاءَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وَقَالَ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَّا الْغَيْبُ﴾ [لقمان: ١٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، أَي: وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَبِرِّهِ وَالدِّينِ، فَاشْتَقَى بِذَلِكَ. قَالَ سَفِيانُ الثَّوْرِيُّ: الْجَبَّارُ الشَّقِيُّ: الَّذِي يُقْبَلُ عَلَى الْغَضَبِ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا تَجِدُ أَحَدًا عَاقًا لَوَالِدَيْهِ إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَبَرَأَ بِرَأْيِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾^(٢)، قَالَ: وَلَا تَجِدُ سَيِّئَةَ الْمَلِكَةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ مُخْتَلًا فَخُورًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

(١) لا يصح عن أنس، وهو من منكرات يحيى بن سعيد العطار، فقد روى موضوعات ومناكير، وشيخه مجهول، ولم يدرك أنساً، وهو ظاهر البطلان.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يُحيي الموتى ويُبْرِئُ الأكمّة والأبرص، في آيات سَلَطَهُ اللهُ عليهنَّ، وأذن له فيهنَّ، فقالت: طوبى للبطن الذي حَمَلَكَ والثدي الذي أَرْضَعْتَ به. فقال نبي الله عيسى - عليه السلام - يُجيئها: طوبى لمن تلا كتاب الله، فأتبع ما فيه، ولم يكن جباراً شقيّاً. وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٤﴾: إثبات منه لعبوديته لله - عز وجل - وأنه مخلوق من خلق الله، يحيي ويموت ويُبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٥﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَعَّضَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٣٥﴾ وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ خَبَرِ عِيسَى، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، أي: يختلف المُبْطِلُونَ والمُجْحِفُونَ ممن آمن به وكَفَر به، ولهذا قرأ الأكثرون: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾، برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد الله بن عامر: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾. وعن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾. والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٣٥﴾ [البقرة: ١٤٧]. ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نَزَّهَ نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾، أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون عُلوّاً كبيراً، ﴿إِنَّا فَعَّضَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أي: إذا أراد شيئاً فإنما يَأْمُرُ به، فيصيرُ كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥١﴾ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٣٥﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠]. وقوله: ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٦﴾، أي: ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أي: قويم، من أتبعه رَشَدٌ وهُدًى، ومن خالفه ضَلٌّ وَعَوًى. وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَصَمَّمَت طَائِفَةٌ - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زَنِيَّةٌ، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد رُوِيَ نحو هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقاتدة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٥﴾، قال: اجتمع بنو إسرائيل، فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رُفِعَ، فقال أحدهم: هو الله مَبْطُوعٌ إِلَى الْأَرْضِ فَأَحْيَا مِنْ أَحْيَا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء. وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كَذَبْتَ. ثم قال اثنان منهم للثالث: قُلْ أنت فيه. قال: هو ابن الله. وهم النسطورية. فقال الاثنان: كَذَبْتَ. ثم قال أحد الاثنان للآخر: قُلْ فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله. وهم الإسرائيلية ملوك النصارى، عليهم لعائن الله. قال الرابع: كَذَبْتَ، بل هو عبد الله ورسوله وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ. وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقْتَتَلُوا، فَظَهَرَ عَلَى

المسلمين، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَفُّوا عَلَى الدِّبْرِ بِأَمْشُوتِ بِالْقِسْطِ مِنَ الْكَاثِبِ﴾ [آل عمران: ٢١]. وقال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، وعن عُرْوَةَ بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جَمَعَهُمْ فِي مَحْفِلٍ كَبِيرٍ مِنْ مَجَامِعِهِمُ الثَّلَاثَةِ الْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ، فَكَانَ جَمَاعَةُ الْأَسَاقِفَةِ أَلْفَيْنِ وَمِئَةً وَسَبْعِينَ أَسْقِفًا، فَاخْتَلَفُوا فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا جَدًّا، فَقَالَتْ كُلُّ شَرْمَةٍ فِيهِ قَوْلًا، فَمِنَ تَقْوُلٍ فِيهِ قَوْلًا، وَسَبْعُونَ تَقْوُلٍ فِيهِ قَوْلًا آخَرَ، وَخَمْسُونَ تَقْوُلٍ فِيهِ شَيْئًا آخَرَ، وَمِئَةً وَسِتُونَ تَقْوُلٍ شَيْئًا، وَلَمْ يَجْتَمِعْ عَلَى مَقَالَةٍ وَاحِدَةٍ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٍ مِنْهُمْ، اتَّفَقُوا عَلَى قَوْلٍ وَصَّغُوا عَلَيْهِ، وَمَالَ إِلَيْهِمُ الْمَلِكُ، وَكَانَ فِيلَسُوفًا، فَقَدِمَهُمْ وَنَصَّرَهُمْ وَطَرَّدَ مِنْ عِدَاهِمُ، فَوَضَعُوا لَهُ الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ، بَلْ هِيَ الْخِيَانَةُ الْعَظِيمَةُ، وَوَضَعُوا لَهُ كِتَابَ الْقَوَانِينِ، وَشَرَعُوا لَهُ أَشْيَاءَ، وَابْتَدَعُوا بِدْعًا كَثِيرَةً، وَحَرَّفُوا دِينَ الْمَسِيحِ وَغَيَّرُوهُ، فَابْتَنَى لَهُمْ حَيْثُذُ الْكِنَائِسِ الْكِبَارِ فِي مَمْلَكَتِهِ كُلِّهَا: بِلَادَ الشَّامِ، وَالْجَزِيرَةِ، وَالرُّومِ، فَكَانَ مَبْلَغُ الْكِنَائِسِ فِي أَيَّامِهِ مَا يَقَارِبُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ كَنِيسَةٍ، وَبُنِيَ أُمُّهُ هَيْلَانَةً قُمَامَةً عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ الْمَصْلُوبُ الَّذِي تَزْعُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّهُ الْمَسِيحُ، وَقَدْ كَذَّبُوا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تهديدٌ ووعدٌ شديدٌ لِمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَافْتَرَى، وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا. وَلَكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَجْلَهُمْ جُلْمًا وَثَقَّةً بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ:

[٤٤٧٨] «إِنَّ اللَّهَ لَيُعْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (١) [هود: ١٠٢].

[٤٤٧٩] وفي الصحيحين أيضاً، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدْنَى سَجْمَةٍ مِنْ اللَّهِ، إِنْهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٢)، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِينَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَلِئِنْ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْسَفُكَ اللَّهُ غَدَفًا عَمَّا يَمْحُلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيُؤْمَرُوا بِتَشْخُصٍ فِيهِ الْأَبْصَرُ ﴿١٩﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وَلِهَذَا قَالَ هَا هُنَا: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أَي: يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[٤٤٨٠] وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» (٣).

﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْمَصَرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

(١) وتقدم الحديث في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٧١.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة أنهم يكونون أشمع شيء وأبصره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُومُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَمَلَّ صُلَحًا إِنَّا مُقْتَدِرُونَ﴾ [السجدة: ١٧] أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاناة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿اتَّبِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ﴾، أي: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، يعني يوم القيامة، ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾، أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَسْرَةِ﴾، أي: أنذر الخلاق يوم الحسرة، ﴿إِذْ فُتِنَ الْأَمْرُ﴾، أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وَمَ﴾، أي: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به، ﴿وَمَ لَا يَوْمُونَ﴾، أي: لا يصدقون به.

[٤٤٨١] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَسْرَةِ إِذْ فُتِنَ الْأَمْرُ وَمَ فِي غَفْلَةٍ﴾، وأشار بيده. قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا»^(١). هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، من حديث الأعمش. به. ولفظهما قريب من ذلك. وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثني أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، مثله. وفي سنن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحوه. وهو في الصحيحين عن ابن عمر. ورواه ابن جريج قال: قال ابن عباس: فذكر من قبله نحوه. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول في قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة، فيذبح والناس ينظرون.

وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل: حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله - هو ابن مسعود - في قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة. فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعدّه الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمتم وعملت صالِحاً، كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة. فتأخذهم الحسرة، قال: ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار. فيقال: لولا أن من الله عليكم. وقال السدي. عن زياد، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَسْرَةِ إِذْ فُتِنَ الْأَمْرُ﴾، قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أتى بالموت في صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، هذا الموت الذي كان يُميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة من الجنة إلا تنظر إليه، ثم ينادي: يا أهل النار، هذا الموت الذي كان يُميت الناس في الدنيا. فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا تنظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٩/٣. وأخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤٩ وأبو يعلى ١٠٧٥ والبيهقي في «البعث» ٥٨٤ من طرق عن الأعمش به بنحوه. وفي الباب من حديث أبي هريرة عند الترمذي ٢٥٥٧ وابن ماجه ٤٣٢٧ وأحمد ٢٦١/٢ وابن حبان ٧٤٥٠. ومن حديث ابن عمر عند البخاري ٦٥٤٤ و٦٥٤٨ ومسلم ٢٨٥٠ وأحمد ١١٨/٢ وابن حبان ٧٤٧٤.

يُنَادَى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، هُوَ الْخُلُودُ أَبَدَ الْآبِدِينَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، هُوَ الْخُلُودُ أَبَدَ الْآبِدِينَ. فَيُفْرَحُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحَةً لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِثْلًا مِنْ فَرَحِ مَاتُوا، وَيَسْهَقُ أَهْلُ النَّارِ سَهَقَةً لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِثْلًا مِنْ سَهَقَةِ مَاتُوا، فذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْفِتْرِ إِذْ يَقُولُ الْآمُرُ﴾، يَقُولُ: إِذْ دُبِحَ الْمَوْتُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْفِتْرِ﴾، مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، عَظُمَهُ اللَّهُ وَحَذَرَهُ عِبَادُهُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بَنَ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْفِتْرِ﴾، قَالَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَقَرَأَ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَقَسٌ بِهَضْرَتِكَ عَنْ مَا قَرُطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَوْنَ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو - تعالى وتقدس - ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا يثقال ذرة.

قال ابن أبي حاتم: ذكر هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ الْقَيْسِيُّ: حَدَّثَنَا حَزْمُ بْنُ أَبِي حَزْمٍ الْقُطَيْمِيُّ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ صَاحِبِ الْكُوفَةِ: أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى خَلْقِهِ حِينَ خَلَقَهُمُ الْمَوْتَ، فَجَعَلَ مُصِيرَهُمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ فِيمَا أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ الصَّادِقِ الَّذِي حَفَظَهُ بِعِلْمِهِ، وَأَشْهَدُ مَا تَكْتُمُ عَلَى خَلْقِهِ: إِنَّهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَتَابِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَتَابِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَتَابِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وَاتْلُوهُ عَلَى قَوْمِكَ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَأَذْكُرْ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ خَبَرِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ، وَقَدْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا، مَعَ أَبِيهِ، كَيْفَ نَهَاهُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَقَالَ: ﴿يَتَابِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، أَي: لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَدْفَعُ عَنْكَ ضَرَرًا. ﴿يَتَابِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾. يَقُولُ: فَإِنْ كُنْتُ مِنْ صُلْبِكَ وَتَرَى أَنِّي أَصْغَرُ مِنْكَ، لِأَنِّي وَلَدُكَ، فَاعْلَمْ أَنِّي قَدْ أَطْلَعْتُ مِنَ الْعِلْمِ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا لَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ وَلَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ وَلَا جَاءَكَ بَعْدُ، ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِيَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، أَي: طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا مُوَصِّلًا إِلَى نَيْلِ الْمَطْلُوبِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْمَرْهُوبِ. ﴿يَتَابِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾، أَي: لَا تُطِيعْهُ فِي عِبَادَتِكَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ، فَإِنَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلَى ذَلِكَ، وَالرَّاضِي بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَعْهِدْ إِلَىكُمْ يَتَابِعْ مَا دَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، وَقَالَ: ﴿إِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَّا لِنَاظِرٍ وَإِنْ يَدْعُوا إِلَّا لَنَسْتَأْذِنَ إِلَّا لَنَنْزِلُنَّكَ مَرِيدًا ١١٧﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾، أَي: مُخَالِفًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، فَطَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ، فَلَا تَتَّبِعْهُ تَصِرْ مِثْلَهُ. ﴿يَتَابِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، أَي: عَلَى شَرِّكَ وَعَصِيَانِكَ لِمَا أَمَرَكَ بِهِ، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، يَعْنِي: فَلَا يَكُونُ لَكَ مَوْلَى وَلَا نَاصِرٌ وَمَغْنِيٌّ إِلَّا إِبْلِيسُ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأُمُورِ شَيْءٌ، بَلِ اتَّبَاعُكَ لَهُ مُوجِبٌ لِإِحَاطَةِ الْعَذَابِ بِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَىٰ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَهْلَهُمْ فَهُوَ وَرَثَتُهُمْ يَوْمَ ذَاكَ الْأَيَّامِ ١٦٣﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًا ۖ﴾ (٤٦) قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ
سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًا ۖ ﴿٤٧﴾ وَاعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى
أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۖ﴾ (٤٨)

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دَعَاهُ إليه أنه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي﴾
يعني إن كنت لا تُريدُ عبادتها ولا تَرْضَاهَا؟ فانتَه عن سَبِّهَا وَشَتْبِهَا وَعَيْبِهَا، فإنك إن لم تَنْتَهِ عن ذلك
اقتصصت منك وشمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابنُ عباس، والسدي، وابنُ جرير،
والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًا﴾، قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن
إسحاق: يعني دهرًا. وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً. وقال السدي: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًا﴾، قال: أبداً. وقال
علي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًا﴾، قال: سويًا سالماً قبل أن تصيبك مني
عقوبة. وكذا قال الضحاك، وقتادة، وعطية الجذلي، وأبو مالك، وغيرهم. واختاره ابن جرير. فعندها قال
إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَلَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]،
وقال تعالى: ﴿وَلَا سَمِعُوا اللَّعَنَ أَفْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْنَاكُمْ وَلَكُمْ أَعْنَاكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكَ لَا بُدْئِيَ الْجَاهِلِينَ﴾
﴿٥٥﴾ [الفصل: ٥٥]. ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾، يعني: أما أنا فلا ينالك مِنِّي مكروه ولا
أذى، وذلك لحُرمة الأبوة، ﴿سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي﴾، أي: ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يَهْدِيكَ وَيَغْفِرَ ذَنْبَكَ،
﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًا﴾. قال ابنُ عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته والإخلاص له، وقال
مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًا﴾، قالوا: عَوْدَةُ الإِجَابَةِ. وقال السدي: «الحفي» الذي يَهْتَمُّ
بأمره.

وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مُدَّةً طويلةً، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن وُلِدَ
له إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤٩)
[إبراهيم: ٤٩]. وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداءً
بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا
بُرْهَانُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا يَكُرُّهُنَا وَمِمَّا يُبْتِغِى السَّعَادَةُ وَالْبُخْسَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ
لِأَبِيهِ لَا تَسْتَفِزَّنِيكَ وَمَا هُم بِأَمْثَلُكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ قَوْمٍ ۖ﴾ [المنحنة: ٤] الآية، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به. ثم
بين تعالى أن إبراهيم أقنع عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُمْ أَنْ هُمْ أَصْحَابُ الْحَرِّمِ﴾ (٥٠) وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ
إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿٥١﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤]،
وقوله: ﴿وَاعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾، أي: اجتنبكم وأتبرأ منكم ومن الهتكم التي تعبدونها
من دون الله، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾، أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ و«عسى»
هذه مُوجِبَةٌ لَا مَحَالَةَ فَإِنَّهُ - عليه السلام - سيُدُ الْأَنْبِيَاءُ بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ

رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ إِبْرَاهِيمَ صِدْقًا عَلِيمًا ۖ﴾ (٥٠)

يقول: فَلَمَّا اعْتَزَلَ الْخَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي اللَّهِ أَبَدَهُ اللَّهُ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَوَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ،

يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِنْ وَدَّوْهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِسَيِّدِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابِدُكَ إِزِيدِهِمْ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكرها هنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نُبئ في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف فإنه نبي أيضًا.

[٤٤٨٢] كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حين سُئِلَ عن خير الناس، فقال: «يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله»^(١).

[٤٤٨٣] وفي اللفظ الآخر: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»^(٢). وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الشئ الحسن. وكذا قال السدي، ومالك بن أنس. وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾، لأن جميع الليل والأديان يُشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّكُمْ كَانُمْ مَخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَمِينًا ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه عطفًا بذكر الكليم، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّكُمْ كَانُمْ مَخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة. قال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن أبي ثبابة قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذي يعمل لله، لا يحب أن يحمدَهُ الناس. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مُصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾، أي: الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾، أي: من جانبه الأيمن من موسى، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، رآها تلوح فقصدتها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غزيبه عند شاطئ الوادي. فكلّمه الله تعالى، وناداه وقربه فناداه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى - هو القطان - حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن عباس: ﴿وَفَرَّقْنَاهُ يَمِينًا﴾، قال: أدنى حتى سمع صريف القلم. وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة. وقال السدي: ﴿وَفَرَّقْنَاهُ يَمِينًا﴾، قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَفَرَّقْنَاهُ يَمِينًا﴾، قال: نجا بصدقه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، عن أبيه وأصله، عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرّب الله موسى نجيًا بطور سيناء، قال: يا موسى،

(١) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ٤.

(٢) أيضًا تقدم في تفسير سورة يوسف.

إذا خلقت لك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تُعينُ على الخير فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزنُ عنه [هذا] فلم أفتح له من الخير شيئاً. وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾ ، أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ٥٤﴾ [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُومًا ٥٥﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ لَنَا هَارُونَ ٥٦﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ قَلْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ٥٧﴾ [الشعراء: ١٣ - ١٤]. ولهذا قال بعضُ السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعَةً في الدنيا أعظمَ من شفاعَةِ موسى في هارونَ أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾. قال ابنُ جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابنُ عُليَّة، عن داودَ، عن عكرمة قال: قال ابنُ عباسٍ قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾، قال: كان هارونُ أكبرَ من موسى، ولكن أراد، وهب له نبوته. وقد ذكره ابنُ أبي حاتمٍ معلّقاً، عن يعقوب - وهو ابنُ إبراهيمَ الدوزقي - به.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السلام - وهو والدُ عَزَبِ الحجاز كُلِّهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾. قال ابنُ جرير: لم يعذرُ ربُّه عَذَّةً إلا أنجزها. يعني ما التزم عبادةً قَطُّ بِبَنَدِرٍ إلا قام بها، ووقَّاهَا حَقُّهَا. وقال ابنُ جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حَدَّثَهُ: أن إسماعيلَ النبي - عليه السلام - وَعَدَ رَجُلًا مكاناً أن يأتيه فيه، فجاء ونسي الرجلُ، فظَلَّ به إسماعيلُ ويات حتى جاء الرجلُ من الغد، فقال: ما بَرَحْتُ من ها هنا؟ قال: لا. قال: إني نسيْتُ. قال: لم أَكُنْ لأبرحَ حتى تأتيَنِي. فلذلك: ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾. وقال سفيانُ الثَّوْرِيُّ: بَلَغَنِي أَنَّهُ أَقَامَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ يَنْتَظِرُهُ حَوْلًا حَتَّى جَاءَهُ. وقال ابنُ شَوْذَبٍ: بَلَغَنِي أَنَّهُ اتَّخَذَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ سَكَنًا.

[٤٤٨٤] وقد روى أبو داود في سنَّته، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه «مكارم الأخلاق»، من طريق إبراهيم بن طهمان، عن بُذَيْلِ بْنِ مَيْسَرَةَ، عن عبد الكريم - يعني ابن عبد الله بن شقيق - عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايَعْتُ رسولَ الله ﷺ قبل أن يُبْعَثَ فَبَقِيْتُ لَهُ عَلَيَّ بَقِيَّةٌ، فوَعَدْتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ ذَلِكَ، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث، وهو في مكانه ذلك، فقال لي: يا فتى، لقد شَقَقْتُ عَلَيَّ، أنا ها هنا منذ ثلاثٍ أَنْتَظِرُكَ^(١). لفظ الخرائطي، وساق آثاراً حسنة في ذلك. ورواه ابنُ مَنَظَرٍ أبو عبد الله في كتاب «معرفَةِ الصَّحَابَةِ»، بإسنادِهِ عن إبراهيم بن طهمان، عن بُذَيْلِ بْنِ مَيْسَرَةَ، عن عبد الكريم، به.

وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فَصَدَّقَ فِي ذَلِكَ. فَصَدَّقَ الْوَعْدَ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، كما أن خُلُقَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ١١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾.

[٤٤٨٥] وقال رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَوْثَمَرَ

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود ٤٩٩٦، ومداره على عبد الكريم بن عبد الله العقيلي. ذكره الذهبي في الميزان ٥١٦٢ فقال: لا يُعرف، وقال عنه الحافظ في التقریب: مجهول، وفي هذا المتن نكارة.

خَانَ^(١). ولما كانت هذه صفات المنافقين، كَانَ التلبس بِضِدِّهَا من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ إسماعيل بِصدق الوعد، وكذلك كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صادق الوعد أيضاً، لَا يَعِدُ أَحَدًا شَيْئًا إِلَّا وَفَى لَهُ بِهِ.

[٤٤٨٦] وقد أثنى على أَبِي العاصِ بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: حَدَّثَنِي فَصَّدَّقَنِي، وَوَعَدَنِي قَوْفِي لِي^(٢).

[٤٤٨٧] ولما ثَوَّفِي النَّبِيُّ ﷺ قَالَ الْخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: من كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَّةٌ أَوْ دِينَ قَلْبًا يَتَنَبَّأُ أَنْجَزَ لَهُ. فجاءه جَابِرُ بن عبد الله، فقال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَالَ: «لَوْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - يَعْنِي مِلَّةَ كُفْيِهِ - فَلَمَّا جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَمَرَ الصِّدِّيقُ جَابِرًا فَاغْرَفَ بِيَدِهِ مِنَ الْمَالِ، ثُمَّ أَمَرَ بِعَدِّهِ، فَإِذَا هُوَ خَمْسَمِئَةِ دِرْهَمٍ، فَأَعْطَاهُ بِثَلَاثَةِ مِئَاتٍ^(٣)».

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، فِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى شَرَفِ إسماعيل عَلَى أَخِيهِ إِسْحَاقَ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا وُصِفَ بِالنَّبُوءَةِ فَقَطْ، وَإِسْمَاعِيلُ وُصِفَ بِالنَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ.

[٤٤٨٨] وقد ثبت فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ^(٤)». وَذَكَرَ تَمَامُ الْحَدِيثِ، فَذُلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَاهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾: هَذَا أَيْضًا مِنَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ، وَالصِّفَةِ الْحَمِيدَةِ وَالْخَلَةِ السَّيِّدَةِ، حَيْثُ كَانَ مُثَابِرًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرًا بِهَا أَهْلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَابُ لِلْفُقَرَى﴾ [طه: ١٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ [التحریم: ٦]... الآية، أَي: مُزَوِّهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا تَدْعُوهُمْ فَمَمَلًا فَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٤٤٨٩] وقد جاء فِي الْحَدِيثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَبْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَجِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَبْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ^(٥)». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ.

[٤٤٩٠] وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا اسْتَقْبَطَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَبْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ^(٦)». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَاللَّفْظُ لَهُ.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۖ﴾

(١) تقدم.

(٢) صحيح - أخرجه البخاري ٣٧٢٩ من حديث المسور بن غرملة.

(٣) لم أره بعد، فليتظر.

(٤) تقدم فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ آيَةِ: ١٢٤.

(٥) جيد - أخرجه أبو داود ١٣٠٨ والنسائي ٢٠٥/٣ وابن ماجه ١٣٣٦ وأحمد ٢٥٠/٢ و٤٣٦ وابن حبان ٢٥٦٧ والبيهقي ٢/٥١ وصححه الحاكم ٣٠٩/١ ووافقه الذهبي، وإسناده قوي.

(٦) جيد - أخرجه أبو داود ١٣٠٩ والنسائي فِي «الكبرى» ١٣١٠ وابن ماجه ١٣٣٥ وابن حبان ٢٥٦٨ والبيهقي ٥٠١/٢ وإسناده صحيح، صححه الحاكم ٣١٦/١ ووافقه الذهبي، وانظر «صحيح أبي داود» ١١٦٣.

وهذا ذِكْرُ إدریس - عليه السلام - بالثناء عليه، بأنه كان صِدِّيقًا نَبِيًّا، وأن الله رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا.

[٤٤٩١] وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وهو في السماء الرابعة^(١).

وقد روى ابنُ جريرٍ ما هنا أثرًا غريبًا عجيبًا، فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابنُ عباس كعبًا وأنا حاضر، فقال له: ما قولُ الله - عزَّ وجلَّ - لإدریس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾؟ فقال كعب: أما إدریس فإن الله أوحى إليه أني أرفعُ لك كُلَّ يومٍ مثلَ عَمَلِ جَمِيعِ بني آدم. فَأَحَبُّ أن يَزِدَّادَ عملاً. فاتاه خليلُ له من الملائكة فقال: إِنَّ الله أوحى إليَّ كذا وكذا، فَكَلَّمْ لي ملكَ الموت، فَلْيُخَرِّني حتى أَزِدَّادَ عملاً. فَحَمَلَهُ بين جناحيه، ثم صَعِدَ به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم مَلَكُ الموت مُتَحَدِّراً، فَكَلَّمْ ملكَ الموت في الذي كَلَّمَهُ فيه إدریس، فقال: وأين إدریس؟ فقال: هو ذا على ظهري. قال ملك الموت: فالحعجبُ. بُعِثْتُ وقيل لي: اقْبِضْ رُوحَ إدریس في السماء الرابعة: فجعلت أقول: فكيف أقْبِضُ رُوحَهُ في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فَاقْبِضْ رُوحَهُ هناك. فذلك قولُ الله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾. هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة، والله أعلم. وقد رواه ابنُ أبي حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: «أنه سأل كعباً... فذكر نحو ما تقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله - يعني ملكَ الموت - كم بقي من أجلي؟ لكي أَزِدَّادَ من العمل... وذكر باقيه، وفيه أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال: لا أدري حتى أنظر، فنظر ثم قال: إنك تسألني عن رَجُلٍ ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جَنَاحِهِ إلى إدریس، فإذا هو قد قُبِضَ عليه السلام، وهو لا يشعر به. ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدریس كان خياطاً، فكان لا يغرُرُ إبرةً إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسي حين يمسي، وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذي قبله، أو نحوه.

وقال ابنُ أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾، قال: إدریس رُفِعَ ولم يَمُتْ، كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ قال: السماء الرابعة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾، قال: رُفِعَ إلى السماء السادسة فمات بها، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقال الحسن، وغيره، في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾، قال: الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطراد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾... الآية. قال السدي وابن جرير: فالذي غني به من ذُرِّيَةِ مَنْ حَمَلْنَا مع نوح إبراهيم، والذي غني به من ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي غني به من ذُرِّيَةِ إِسْرَءِيلَ موسى وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم. قال ابن جرير: «ولذلك فَرَّقَ أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأنَّ فيهم من ليس من وَلَدِ مَنْ كان مع نوح في السفينة، وهو إدریس، فإنه جدُّ نوح». قلت: هذا هو الأظهر أَنَّ إدریسَ في عُمُودِ نَسَبِ

نوح عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ:

[٤٤٩٢] «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح»^(١) ولم يقل: والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن عمرو أن إدريس أقدم من نوح، بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، ويعملوا ما شأوا، فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل. ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَذَكَرْنَا هَدْيَنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤) وَذَكَرْنَا وَنَحْنُ وَالْيَاسَ كُلِّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ فَغَلَّابًا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧)، إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْدَرَهُ قَدْ لَمْ أَمْلِكْكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٨)، وقال سبحانه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي «ص» سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْدَرَهُ﴾، فنبهكم ممن أير أن يقتدي بهم، قال: وهو منهم. يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا نُلْقِيَ عَلَيْكَ الْبُرْهَانَ خَرُوءًا سَجْدًا وَبِكَايَا﴾، أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة. والبُكْيَا: جَمْعُ بَاكٍ، فهذا أجمع العلماء على شرعية السجود لها هنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنازلهم. قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مغيرة، قال: قرأ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سورة مريم فسجد وقال: هذا السجود، فأين البُكْيَا؟ يريد البكاء. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وسقط من روايته ذكر أبي مغيرة - فيما رأيته - والله أعلم.

﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَا﴾ (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٠)

لما ذكر تعالى جزب السعداء، وهم الأنبياء - عليهم السلام - ومن أتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدِّين فرائض الله، التاركين لزواجه، ذكر أنه خَلَفَ ﴿مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ﴾، أي: قرون أخرى، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع، لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد. وأقبلوا على شهوات الدنيا وملأوها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سَيَلَقُونَ غِيَا، أي: خَسَاراً يوم القيامة. وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ها هنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي، وابن زيد بن أسلم، والسدي، واختاره ابن جرير. ولهذا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، لحديث:

[٤٤٩٣] «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»^(١).

[٤٤٩٤] والحديث الآخر: «المعهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»^(٢). وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مُخَيَّمَة في قوله: «خَلَفَ مِنْ بَدِيمِ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ»، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً. وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن مسعود، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يُكْثِرُ ذِكْرَ الصلاة في القرآن: «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٥٩﴾» [الماعون: ٥]، و «عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ» [المعارج: ٢٣]، و «عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْظِلُونَ» [المعارج: ٣٤]، فقال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على التزك؟ قال: ذلك الكفر. [و] قال مسروق: لا يحافظ أحدٌ على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة. وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن. وقال الأوزاعي، عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: «خَلَفَ مِنْ بَدِيمِ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾»، ثم قال: لم تكن إضاعتهن تركها، ولكن أضاعوا الوقت. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «خَلَفَ مِنْ بَدِيمِ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ»، قال: عند قيام الساعة وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ، ينزُّو بعضهم على بعضهم في الأرقعة، وكذا روى ابن جريج، عن مجاهد، مثله. وروى جابر الجعفي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح: أنهم من هذه الأمة. يعضون في آخر الزمان. وقال ابن جريج: حدثني الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: «خَلَفَ مِنْ بَدِيمِ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ»، قال: هم في هذه الأمة، يترابكون تراكب الأنعام والحمر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون الناس في الأرض.

[٤٤٩٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني: أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة واتباعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر. قال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به، والفاجر يتأكل به^(٣). وهكذا رواه أحمد، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، به.

[٤٤٩٦] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب، عن مالك، عن أبي الرجال: أن عائشة كانت ترسل بالشيء صدقة لأهل الصفة، وتقول: لا تعطوا منه بزريراً ولا بزريرة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: هم الخلف الذين قال الله تعالى: «خَلَفَ مِنْ بَدِيمِ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ»^(٤). هذا حديث غريب. وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١ وهو صحيح.

(٢) تقدم أيضاً في تفسير سورة النساء، وهو صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٣/٣٨ بهذا الإسناد، من حديث أبي سعيد، ورجاله ثقات كلهم سوى الوليد بن قيس، وثقه ابن حبان والمعجلي فقط وقال الحافظ في التقریب: مقبول أه أي حيث يتابع. والغريب فيه ذكر «ستين سنة» ولباقية شواهد، والله تعالى أعلم.

(٤) إسناده ضعيف، والتين منكر، أخرجه الحاكم ٢/٢٤٤ ح ٢٩٦٣، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: عبيد الله - ابن عبد الرحمن بن موهب - مختلف في توثيقه، ومالك لا أعرفه، ثم هو منقطع أه فهذه علل ثلاث مع نكارة منه، والظاهر أنه من وضع أحد دعاة الشعبية.

عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حريز، عن شَيْخٍ من أهل المدينة: أنه سمع مُحَمَّد بن كعب القُرَظِيُّ يقول في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيدِمٍ خَلْفٌ﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب، يملكون، وهم شُر من ملك.

وقال كعب الأحبار: والله إني لأجدُ صِفَةً المنافقين في كتاب الله - عز وجل - شَرَّابِينَ لِلْقَهَوَاتِ، تَرَاكِينَ لِلصَّلَوَاتِ، لَعَابِينَ بِالْكَعْبَاتِ، رُقَادِينَ عَنِ الْعَنَمَاتِ، مُفْرُطِينَ فِي الْغَدَوَاتِ، تَارِكِينَ لِلْجُمُعَاتِ، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيدِمٍ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٥٩). وقال الحسنُ البصري: عَطَلُوا المساجدَ وَلَزَمُوا الضَّيِّعَاتِ. وقال أبو الأشهب العطَّاردي: أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود، حَذِرْ وَأَنْذِرْ أَصْحَابَكَ أَكُلْ الشَّهَوَاتِ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عُقِلَها عَنِّي محجوبة، وإنْ أهْوَى ما أَصْنَعُ بالعبد من عِبِيدِي إذا أثار شهوةً من شهواته عَلَيَّ أن أَخْرِمَهُ طاعتي.

[٤٤٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني أبو السَّمْح السَّهْمِي، عن أبي قَبِيل، أنه سمع عُقْبَةَ بن عامر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني أخاف على أمتي اثنتين: القرآن واللِّبَن، أما اللِّبَن فَيَنْتَعُونَ الرِّيفَ، وَيَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ، وَيَتْرَكُونَ الصَّلَوَاتِ، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين» (١). ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا أبو قَبِيل، عن عُقْبَةَ، به مرفوعاً بنحوه. تفرد به.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾، أي: خسراناً. وقال قتادة: شراً. وقال سفيان الثوري، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبي إسحاق السَّيِّعِي، عن أبي عُبَيْدَةَ، عن عبد الله بن مسعود: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾، قال: وإد في جَهَنَّمَ، بعيدُ القعر، حَبِيبُ الطَّعْمِ. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾، قال: واد في جهنم من قَبِيعٍ وَدَمٍ.

[٤٤٩٨] وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن زياد بن زُبَّار، حدثنا شُرَيْقُ بن قُطَيْمٍ، عن لُقْمَانَ بن عامر الخَزَاعِي قال: جِئْتُ أبا أُمَامَةَ صَدِّي بن عَجَلَانَ الْبَاهِلِي فقلت: حَدِّثْنَا حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: فدعا بَطْنَامَ، ثم قال: قال رسولُ الله ﷺ: لو أن صَخْرَةً زِنَّةٌ عَشْرَ أَوَاقٍ قُذِفَ بِهَا مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ ما بَلَغَتْ قَعْرُهَا خَمْسِينَ خَرِيفاً، ثم تنتهي إلى غِيٍّ وَأَنَامٍ. قال: قلت: وما غِيٍّ وَأَنَامٌ؟ قال: بثران في أسفل جَهَنَّمَ، يسيل فيهما صديدُ أهل النار، وهما اللَّتَانِ ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾. وقوله في الفرقان: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٢) [الفرقان: ٦٨]. هذا حديثٌ غريبٌ، ورفعه منكرٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَاعْمَلَ صَالِحًا﴾، أي: إلا من رَجَعَ عن تَرْكِ الصَّلواتِ وَاتَّبَعَ الشَّهَوَاتِ فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، وَيُحَسِّنُ عَاقِبَتَهُ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النِّعَمِ. ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها.

(١) أخرجه أحمد ١٥٦/٤ ٢٧٤/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٨٧/١ وقال: وفيه ذراج أبو السَّمْح، وهو ثقة مختلف في الاحتجاج به اهـ، وأخرجه أحمد ١٥٥/٤ وأبو يعلى ١٧٤٦ من وجه آخر بنحوه وإسناده ضعيف، لضعف ابن لهيعة. وأخرجه الحاكم ٣٧٤/٢ من وجه آخر أيضاً وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) والحديث أخرجه الطبري ٢٣٧٩٠ والبيهقي في «البعث» ٥٢٢ والطبراني ٧٧٣١. قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٩١: فيه ضعفاء، قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون اهـ. وهو في الزهد لابن المبارك ٣٠٢ عن أبي أُمَامَةَ موقوفاً، ولاكثره شواهد، والوهن فقط في قوله «غِيٍّ وَأَنَامٍ».

[٤٤٩٩] وفي الحديث الآخر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١)، ولهذا لا يُنْقَضُ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قُوبِلُوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدرًا وترك نسيًا، وذهب مَجَانًا، من كَرَم الكريم، وجَلَم الحليم. وهذا الاستثناء ها هنا كَقَوْلِهِ تعالى في سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزِفُّونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخَذَّ فِيهِ مَهْكًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ﴾.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُوهَا مَائِيًا﴾^(٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾^(٦٢) نِلَّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا﴾^(٦٣)

يقول: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾، أي: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما راوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُوهَا مَائِيًا﴾، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يَخْلِفُ الميعاد ولا يَبْدُلُهُ، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾، أي: كائن لا محالة. وقوله ها هنا: ﴿مَائِيًا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسبائثونه. ومنهم من قال مَائِيًا آتِيًا، لأن كُلَّ ما أتاك فقد آتيت، كما تقول العرب: آتت عَلَيَّ خمسون سنة، وآتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً﴾، أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا. وقوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْنِيًا﴾^(٦٥) إِلَّا فَيَلَا سَلَامًا سَلَامًا﴾^(٦٦) [الواقعة: ٢٥ - ٢٦]. وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾، أي: في مثل وقت البُكْرَات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مَضِيَّهَا بأضواء وأنوار.

[٤٥٠٠] كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمرَةٍ تَلِجُ الجنةَ صُورُهُمْ على صُورَةِ القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخضون فيها، ولا يتغوطون. آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومَجَامِيرُهُمُ الْأَلْوَةُ»^(٢)، ورَشَحَهُمُ الْجِسَنُكُ، ولكُلِّ واحدٍ منهم زوجتان، يرى مَخْ ساقها من وِزَاءِ اللَّحْمِ؛ من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قُلُوبُهُمْ على قلبٍ واحدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًا»^(٣). أخرجاه في الصحيحين، من حديث مَعْمَرٍ به.

[٤٥٠١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني الحارث بن فضيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد الأنصاري، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارقي نهر بباب الجنة، في قُبَّة خضراء، يخرجُ عليهم رِزْقُهُمْ من الجنة بكرة وعشيًا»^(٤). تفرد به أحمد من هذا الوجه.

(١) حسن. أخرجه ابن ماجه ٤٢٥٠ والطبراني في «الكبير» ١٠٢٨١ وأبو نعيم في «الحلية» ٤/٢١٠ والقضاعي ١٠٨ من حديث ابن مسعود، وإسناده منقطع، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه شيئاً على الراجح، وقيل: سمع أحرافاً سيرة. وللحديث شواهد منها حديث أبي سعيد الأنصاري عند الطبراني ٧٧٥/٢٢ وأبي نعيم ٤٩٨/١٠، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» ٣٤٢٧.

(٢) الألوة: عود يتبخر به.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٤٥ ومسلم ٢٨٣٤ والترمذي ٢٥٣٧ وأحمد ٣١٦/٢ وابن حبان ٧٤٣٦.

(٤) أخرجه أحمد ٢٦٦/١ والطبري ٨٢١٣ والطبراني ١٠٨٢٥ وابن حبان ٤٦٥٨ وصححه الحاكم ٧٤/٢ ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٩٨/٥: رجال أحمد ثقات.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَمْ يَرْفُثْهُمْ فِيهَا بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾، قال: مقادير الليل والنهار.

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَرْفُثْهُمْ فِيهَا بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾، قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب. ويعرفون مقدار النهار برفع الحُجُب وفتح الأبواب. وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُليد، عن الحسن البصري - وذكر أبواب الجنة فقال -: أبواب يُرى ظاهرها من باطنها، فتكلم وتكلم، فتفهم انتفيحي انتفلي، فتفعل. وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَمْ يَرْفُثْهُمْ فِيهَا بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾. فيها ساعتان، بُكَرَةٌ وعِشْيٌ، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس فيها بكرة ولا عِشْيٌ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا. وقال الحسن، وقاتدة، وغيرهما: كانت العرب، الاتعم فيهم، من يتعدى ويتعشى، ونزل القرآن على ما في أنفسهم من التَّعِيم، فقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَرْفُثْهُمْ فِيهَا بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾. وقال ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن: ﴿وَلَمْ يَرْفُثْهُمْ فِيهَا بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾، قال: البكور يرد على خدير العشي، والعشي يرد على البكور، ليس فيها ليل.

[٤٥٠٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سليم بن منصور بن عمار، حدثني أبي، حدثنا محمد بن زياد قاضي أهل شمشاط^(١)، عن عبد الله بن خدير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من عِدَاةٍ من عِدَوَاتِ الجنة، وكل الجنة عِدَوَاتٌ، إلا أنه يُرْفُثُ إلى ولي الله فيها زوجة من الحور العين، أدناهن التي خلقت من الزعفران»^(٢). قال أبو محمد: هذا حديث غريب منكر.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ لِمَنْ أَتَى ثَوْبٌ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ نَفِيًّا﴾، أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي ثورتها عبادنا المؤمنين، وهم المطيعون لله - عز وجل - في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾، إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ هُمْ يُرْثُونَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿١٤﴾ رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٥﴾﴾

[٤٥٠٣] قال الإمام أحمد: حدثنا يعلی ووكيع قالوا: حدثنا عمر بن دُرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما يمتنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(٣). انفرد بإخراجه البخاري، فزواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعیم، عن عمر بن دُرٍّ به. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عمر بن دُرٍّ، به. وعندهما زيادة في آخر الحديث: فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ.

[٤٥٠٤] وقال العوفي، عن ابن عباس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ فوجد رسول الله ﷺ من ذلك

(١) مدينة بالروم على شاطئ الفرات أحد معجم البلدان.

(٢) حكم أبو محمد، وهو ابن أبي حاتم، بنبكة هذا الحديث، وهو كما قال، في إسناده، منصور بن عمار الواعظ، قال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: يروي عن ضعفاء أحاديث، لا يتابع عليها أحد، الميزان، وشيخه مجهول لم أجدهم ترجمه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣ و٧٤٥٥ والترمذي ٣١٥٨ والنسائي في «التفسير» ٣٣٩.

وَحَزَنَ، فَأَنَاءَ جَبْرِيلُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَّا بَكَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُبِينًا﴾ (١).

[٤٥٠٥] وقال مجاهد: لَبِثَ جَبْرِيلُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَيَقُولُونَ: أَقْلَبِي؟ فَلَمَّا جَاءَهُ قَالَ: يَا جَبْرِيلُ، لَقَدْ رِئْتُ عَلَيَّ حَتَّى ظَنُّ الْمُشْرِكُونَ كُلُّ ظَنٍّ. فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَّا بَكَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُبِينًا﴾ (٢)، قَالَ: وهذه الآية كَأَلْتِي فِي الضحى. وكذلك قال الضحاك بن مُزَاحِمٍ، وقتادة، والسدي، وغير واحد: إنها نزلت في احتباس جبريل.

[٤٥٠٦] وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريلُ النزولَ على رسول الله ﷺ أربعين يوماً، ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: ما نزلت حتى اشتقت إليك. فقال له جبريلُ: بل أنا كنتُ إليك أشوق، ولكني مأمور، فأوجي إلى جبريل أن قل له: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾... الآية (٣). رواه ابن أبي حاتم [رحمه الله]، وهو غريب.

[٤٥٠٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرُّسُلُ على النبي ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: ما حبسك يا جبريل؟ فقال له جبريل: وكيف تأتيمكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُثَقِّنون بَرَأجَمَكُم، ولا تأخذون شَوَارِبَكُم، ولا تَسْتَأْثِنُونَ؟ ثم قرأ: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾... الآية (٤).

[٤٥٠٨] وقد قال الطبراني: حدثنا أبو عامر النحوي، حدثنا محمد بن إبراهيم الصوري، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرني ثعلبة بن مسلم، عن أبي كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أن جبريل أبطأ عليه، فذكر ذلك له، فقال: وكيف وأنتم لا تَسْتَأْثِنُونَ، ولا تَقْلَمُونَ أظفاركم، ولا تقصون شَوَارِبَكُم، ولا تُثَقِّنُونَ رَوَاجِبَكُم (٥). وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه.

[٤٥٠٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب ختن مالك بن دينار: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَصْلَحِي لَنَا الْمَجْلِسَ، فَإِنَّهُ يَنْزِلُ مَلِكٌ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ إِلَيْهَا قَطُّ» (٦). وقوله: «لَمْ مَّا بَكَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا»، قيل: المراد بـ «مَّا بَكَيْنَ أَيْدِينَا»: أَمْرُ الدُّنْيَا، «وَمَا خَلَقْنَا»: أَمْرُ الْآخِرَةِ، «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ»: مَا بَيْنَ النَّفَخَتَيْنِ. هذا قول أبي العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة. وقتادة - في رواية عنهما - والسدي، والربيع بن أنس. وقيل: «مَّا بَكَيْنَ أَيْدِينَا» ما نستقبل من أمر الآخرة، «وَمَا خَلَقْنَا»، أي: ما مضى من الدنيا، «وَمَا بَيْنَ

(١) أخرجه الطبري ٢٣٨٠٧. بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي، لكن يتأيد بما قبله.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٨١١ وإسناده ضعيف، والمحفوظ لفظ البخاري وأحمد.

(٣) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

(٤) ضعيف، أورده الواحدي ٦٠٧ عن مجاهد بدون إسناد، وعلة الإرسال، وانظر ما بعده.

(٥) منكر. في إسناده سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي فيه كلام، لكن وثق، وفيه ثعلبة بن مسلم، قال عنه الحافظ: مستور،

وقال الذهبي في الميزان: عن أبي كعب، وعنه إسماعيل بن عياش، بخبر منكر.

سنن الأضراس: سوكها. والرواجب: مفاصل أصول الأصابع، أو بواطن مفاصلها.

(٦) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٢٩٦/٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٥٩٤. فيه تابعي لم يسم، وبقيه رجاله ثقات.

ذَلِكَ»، أي: ما بين الدنيا والآخرة. يُروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثوري. واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، قال مجاهد: معناه ما نسيك ربك. وقد تقدّم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿وَالضَّحَّاكُ﴾ (١) وَأَلَيْكَ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَّ (٣) [الضحى: ١ - ٣].

[٤٥١٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقي، حدثنا محمد بن عثمان - يعني أبا الجماهر - حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن خينة، عن أبيه، عن أبي الدرداء - يرفعه - قال: ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (١). وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاسْجُدْ لِعِزَّتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَيِّئًا﴾، قال علي بن أبي طلحة. عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبهاً. وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبّير، وقتادة، وابن جريج، وغيرهم. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره. تبارك وتعالى، وتقدس اسمه.

﴿وَقُولُوا لِلْإِنْسَانِ أَوْدًا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا﴾ (٦٦) أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (٦٧) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ (٧٠)

يُخْبِرُ تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِبَ فَمَجِبْ قَوْلَهُمْ أَوْدًا كَمَا تَرَبَّأُوا لِي خَلْقِي جَدِيدٌ﴾ [الرعد: ٥]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ تَطْفِئَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) [يس: ٧٧ - ٧٩]. وقال هاهنا: ﴿وَقُولُوا لِلْإِنْسَانِ أَوْدًا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا﴾ (٦٦) أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا (٧٧)، يستدل تعالى بالبداة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يكن شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

[٤٥١١] وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كَذَبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَكْذِبَنِي. وَأَذَانِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِنِي، أَمَا تَكْذِبُهُ إِثَّاي فَقوله: لن يُعِيدَنِي كما بَدَأَنِي. وليس أول الخلق بأهونَ عَلَيَّ من آخره. وأما أَدَاهُ إِثَّاي فَقوله: إن لي ولداً؛ وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» (٢).

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب - تبارك وتعالى - بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: يعني قعوداً، كقوله: ﴿وَرَبِّي كُلُّ أَتَوَّجَّيَّةٍ﴾. وقال السدي في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾

(١) أخرجه البزار ١٢٣ و ٢٢٣١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٥/٧، ورجاله ثقات اهـ. وإسناده لا بأس به، عاصم صدوق يخطئ، وإسماعيل حسن الحديث في روايته عن أهل بلده، وهذا إسناد شامي.

(٢) صحيح. وقد تقدم في سورة البقرة عند آية: ١١٦

﴿وَلَنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧٦) ثُمَّ نَحْيِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يَمَان، عن مالك بن مِفْوَل، عن أبي إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمِّي لم تلدني. ثم يَبْكِي، فقيل: ما يُبْكِيكَ يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنَّا وارَدُوها، ولم نُخَيَّرْ أنا صادِرُونَ عنها. وقال عبدُ الله بن المُبارك، عن الحسن البصري قال: قال رجلٌ لأخيه: هل أتاك بَأَثُكَ وارِدُ النارِ؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر؟ قال: لا. قال: فَيَسِمُ الضحك؟

هذا اء. وصححه الحاكم ٥٨٧/٤ ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن.

قال: فما رُئي ضاحكاً حتى لَحَقَ بالله. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو، أخبرني من سَمِعَ ابن عباس يُخاصِمُ نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورودُ الدخولُ؟ فقال نافع: لا. فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ورُدُّوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، أورَدُّوها أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل تخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مُخرجك منها بتكذيبك. فضحك نافع.

وروي ابن جريج، عن عطاء قال: قال أبو رائيِد الحُرَوْرِيّ - وهو نافع بن الأزرق -: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَاسِبَةً﴾ [الأنبياء: ١٠٢]: فقال ابن عباس: ويليكَ. أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٦]، ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم، أخرجني من النار، سالمًا، وأدخلني الجنة غانمًا. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عُبيد المحاربي، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مُجاهِد قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يُقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أرايت قول الله: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فستَرِدُّها، فانظر: هل تصدر عنها أم لا؟

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبه، أخبرني عبد الله بن السائب، عَمَّن سَمِعَ ابنَ عباس يقرأها كذلك: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني الكفار. وهكذا روى عُمر بن الوليد الشني، أنه سمع عكرمة يقرأها كذلك ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: وهم الظلمة، كذلك كانوا يقرأونها. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا﴾، يعني البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَكْسُ الْوُرُودُ الْمَوْرُودُ﴾، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾، فسمي الورد في النار دخلاً، وليس بصادر.

[٤٥١٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال رسول الله ﷺ: «يَرِدُ النَّاسُ كُلَّهُمْ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم»^(١). ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن عُبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي، به. ورواه من طريق شعبه، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفاً^(٢). هكذا وقع هذا الحديث ها هنا مرفوعاً.

وقد رواه أسباط، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود قال: يَرِدُ النَّاسَ جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعذو الرجل، حتى إن آخرهم مرّاً رجل نوره على موضعي إبهامي قديمي، يمر يتكفأ به الصراط،

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٥٩ وأحمد ٤٣٥/١ والدارمي ٣٢٩/٢ والحاكم ٣٧٥/٢ وإسناده حسن لأجل السدي، وهو إسماعيل بن عبد الرحمن، فهو وإن روى له مسلم، لكن فيه كلام، والحديث صحيحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد تعضده. انظر «الترغيب والترهيب» ٥٢٦٥ و٥٣١٤.

(٢) هكذا وقع في بعض النسخ «موقوفاً» وفي بعض «مرفوعاً» وكلاهما محتمل فهو عند الترمذي ٣١٦٠ عن شعبه عن السدي عن مرة عن ابن مسعود موقوف، ثم ذكر الترمذي عن شعبه قوله لابن مهدي: وقد سمعته من السدي مرفوعاً، ولكنني عمداً أدعاه.

والصراط دَخَضَ مَزَلَّةً، عليه حَسَكٌ كَحَسَكِ الْقَنَادِ، حَافَتَاهُ مَلَائِكَةٌ، معهم كَلَالِيْبٌ من نارٍ، يَخْتَطِفُونَ بها الناس... وذكر تمام الحديث. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقال ابنُ جرير: حدثنا خَلَادُ بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: الصُّرَاطُ على جَهَنَّمَ مثلُ حَدِّ السيفِ، فتمرُّ الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يَمُرُّون والملائكة يقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ. ولهذا شواهد في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما، من رواية أَنَسٍ، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر، وغيرهم من الصحابة، رضي الله عنهم.

وقال ابنُ جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابنُ عُليَّة، عن الجُرَيْرِي، عن أبي السَّليل، عن عُثَيْمِ بن قَيْسٍ قال: ذَكَرُوا وُرُودَ النَّارِ، فقال كعبٌ: تَمَسَّكَ النَّارُ لِلنَّاسِ كَأَنَّهَا مِثْلُ إِهَالَةٍ حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَيْهَا أَقْدَامُ الْخَلَائِقِ، بَرَّهْمٌ وَفَاجِرُهُمْ، ثم يناديها منادٌ: أَنْ أَمْسِكِي أَصْحَابَكِ، وذِئبي أصحابي. قال: فَتَخْشِفُ بِكُلِّ وَلِيٍّ لَهَا، وَلَهَيَّ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنَ الرَّجُلِ بَوْلِهِ، ويخرج المؤمنون نَدِيَّةً ثِيَابُهُمْ. قال كعبٌ: ما بين مَنَكِبَيْي الخازن من خَزْنَتِهَا مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عَمُودٌ ذو شُعْبَتَيْنِ، يَدْفَعُ به الدَّفْعَةُ فَيَصْرَعُ به في النار سَبْعِمِئَةِ أَلْفٍ.

[٤٥١٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: إني لأرجو ألا يدخل النار إن شاء الله أحدٌ شهد بداراً والحديبية. قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قالت: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ أَتَقُوا وَتَذَرُ الْفَالِغِينَ فِيهَا جِيئًا﴾ (٧٢) ﴿١﴾.

[٤٥١٥] وقال أحمد أيضاً: حدثنا ابنُ إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر - امرأة زيد بن حارثة - قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة، فقال: لا يدخل النار أحدٌ شهد بداراً والحديبية. قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ أَتَقُوا﴾ (٧٢) ﴿٢﴾.

[٤٥١٦] وفي الصَّحِيحَيْنِ، من حديث الزُّهري، عن سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تَمَسُّهُ النَّارُ، إِلَّا تَحْلَةَ الْقَسَمِ» (٣).

[٤٥١٧] وقال عبدُ الرزاق: قال معمرٌ: أَخْبَرَنِي الزُّهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «من مات له ثلاثة لم تَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحْلَةَ الْقَسَمِ». يعني الوُرُودَ (٤).

[٤٥١٨] وقال أبو داود الطَّلَيْسِيُّ: حدثنا زَمْعَةُ، عن الزُّهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، فَتَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحْلَةَ الْقَسَمِ». قال

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٢٨١ وأحمد ٦/٢٨٥. وأخرجه مسلم ٢٤٩٦ وأحمد ٦/٤٢٠ من وجه آخر عن جابر به.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٦/٣٦٢ وابن حبان ٤٨٠٠ والطبري ٢٣٨٥٨ وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٥١ ومسلم ٦٦٥٦ والترمذي ١٠٦٠ والنسائي ٢٥/٤ وأحمد ٢/٢٣٩ وابن حبان ٢٩٤٢ من طرق عن الزهري به.

(٤) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٧٧٨، ورجاله رجال البخاري ومسلم.

الزهرري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(١).

[٤٥١٩] وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ يعوذ رجلاً من أصحابه وعيكاً، وأنا معه، ثم قال: «إن الله تعالى يقول: هي نار يأسلطها على عبدي المؤمن، لتكون حظه من النار في الآخرة»^(٢). غريب، ولم يُخْرِجْوه من هذا الوجه.

وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحُمَى حَطُّ كُلِّ مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

[٤٥٢٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يخطمها عَشْرَ مَرَّاتٍ، بَنَى الله له قصرًا في الجنة. فقال عمر: إذا نستكثر يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب»^(٣).

[٤٥٢١] وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ألف آية في سبيل الله كُتِبَ يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، إن شاء الله. ومن حَرَسَ من وراء المسلمين في سبيل الله مُتَطَوِّعاً لا بأجرة سلطانٍ لم يَزِ النارَ بعينيه إلا تحلة القَسَمِ، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وإن الذكر في سبيل الله يُضَاعَفُ فوق النفقة بسبعمئة ضعف، وفي رواية: بسبعمئة ألف ضعف»^(٤).

[٤٥٢٢] وروى أبو داود، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب، كلاهما عن زبَّان، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر تُضَاعَفُ على النفقة في سبيل الله بسبعمئة ضعف»^(٥). وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: هو المَمْرُ عليها.

[٤٥٢٣] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين أن يدخلوها، وقال النبي ﷺ: «الزَّالُونَ والزَّالَاتُ يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سِطَاطَانٌ»^(٦) من الملائكة، دعاؤهم: يا الله، سَلِّمْ سَلِّمْ»^(٧). وقال السُّدِّي، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾، قال: قسماً واجباً. وقال مجاهد: حتماً، قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْئِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، أي: إذا مرَّ الخلائق كلُّهم على النار، وسقط فيها من سَقَطَ من

(١) متن صحيح. أخرجه الطيالسي ٢٣٠٤ بإسناد ضعيف لضعف زمعة، وهو ابن صالح، لكن توبع في الحديث المتقدم، والمتن صحيح.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٣٨٥١ وفي إسناده: عبد الرحمن بن يزيد، وهو ضعيف متروك.

(٣) إسناده ضعيف، ويأتي في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

(٤) إسناده ضعيف، تقدم تخريجه في سورة النساء: ٦٩.

(٥) أخرجه أبو داود ٢٤٩٨ وقد تقدم تخريجه.

(٦) سِطَاطَانُ القوم: صفهم.

(٧) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٣٨٤٩، وهذا معضل، وابن زيد ضعيف الحديث.

الكُفَّار والعصاة ذوي المعاصي، بحسبهم، نَجَّى الله تعالى المؤمنين المُتَّقِينَ منها بحسب أعمالهم. فَجَوَّزَهُمْ على الصراط وسرَّعَتْهُمْ بِقَدْرِ أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يُشْفَعُونَ في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشْفَعُ الملائكة والنبيون والمؤمنون، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قد أَكَلَتْهُمْ النَّارُ، إلا دارات وجوههم - وهي مواضع السجود - وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فَيُخْرِجُونَ أَوْلًا من كان في قلبه مثقالَ دينارٍ من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يُخْرِجُونَ من كان في قلبه أدنى أدنى مثقالِ ذَرَّةٍ من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله»، وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وَجِبَ عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نَتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾.

﴿وَإِذَا تَلَّٰلَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِئْسَ مَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَءَحْسَنُ نَدِيًّا ۖ وَكَذَٰلِكَ ءَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَوْمٍ هُمْ ءَحْسَنُ أَتْنَا وَرَدَّيَا ۖ﴾ (٧٦)

يخبر تعالى عن الكُفَّار حيث تُلَّى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان، أنهم يَصِدُّونَ عن ذلك، ويُعْرِضُونَ ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومُحتَجِّين على صِحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَءَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، أي: أحسن منازل وأرفع دُوراً وأحسن ندياً، وهو مُجْتَمَعُ الرجال للحديث، أي: ناديتهم أعمارٌ وأكثر وادراً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقال قومٌ نوح: ﴿الَّذِينَ لِلَّهِ وَأَتَمَّكَ الْأَرْقُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيُتَوَلَّوْا أَهْلُكُلًا مِّنْ أَهْلِكُلَا ۖ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنَتٍ ءَآلِيسَ اللَّهُ بِءَٰلِمٍ بِالظَّالِمِينَ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٣]، ولهذا قال تعالى رَدًّا عليهم شبهتهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ ءَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَوْمٍ﴾، أي: وكم من أمة وقرنٍ من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمٌ ءَحْسَنُ أَتْنَا وَرَدَّيَا﴾، أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعةً ومناظرٍ وأشكالاً. قال الأعمش، عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَءَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، قال: المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرأي: المنظر. وقال العوفي، عن ابن عَبَّاسٍ: المقام: المسكن، والندي: المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله تعالى لقوم فرعون حين أهلكهم وقصَّ شأنهم في القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ تَرَكُوا مِجَنَّتٍ وَعِجُونًا ۖ وَنَدُوعًا وَمَقَارًا كَرِيرًا ۖ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال فيما قصَّ على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُشْكِرَ﴾ [المنكبات: ٢٩]، والعربُ تُسَمِّي المجلس: النادي. وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قَسَافَةٌ^(١)، فَعَرَّضَ أَهْلَ الشُّرْكِ بما تسمعون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَءَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك. ومنهم من قال في الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المتاع. ومنهم من قال: الثياب. والرئي: المنظر، كما قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال الحسن البصري: يعني الصُّور. وكذا قال مالك: ﴿أَتْنَا وَرَدَّيَا﴾: أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

(١) القشف: ضيق العيش، ورثالة الهيئة.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّا الْعَذَابَ وَإِلَيْنَا الشَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٥)

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بزعمهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾، أي: منا ومنكم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾، أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يُلْقَى ربه وينقضي أجله، ﴿إِنَّا الْعَذَابَ﴾ يُصِيبُهُ، ﴿وَإِلَيْنَا الشَّاعَةُ﴾ بغتة تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حيثُ ﴿مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي. قال مجاهد في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾، فليدعه الله في طغيانه. وهكذا قرّر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله. وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أُولَئِكَ لَكُمْ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦١]، أي: ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم، إن كنتم تدعون أنكم على الحق فإنه لا يضركم الدعاء. فتكلموا عن ذلك، وقد تقدّم تقرير ذلك في سورة «البقرة» مبسوطاً، والله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصاري في سورة «آل عمران» حين صمّموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجَهُ وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ فَقُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ وَأَنزِلْنَا سُلْطَانًا وَنُفِيسًا وَأَنزِلْنَا سُلْطَانًا وَنُفِيسًا وَأَنزِلْنَا سُلْطَانًا وَنُفِيسًا وَأَنزِلْنَا سُلْطَانًا وَنُفِيسًا﴾ [النجم: ٢٤]، فتكلموا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلِيغَتِ الضَّلِيلَةِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦)

لما ذكر تعالى إمداداً من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَا أَنْزَلَتْ سُورَةَ فَيَنْهَرُ مَنْ يَتَّبِعُ آيَاتَكُمْ زَادَتْهُ هُدًى لِيَسْتَأْذِنَ فَاثِمًا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ (٧٦) وأما الذين ﴿وَالْبَلِيغَتِ الضَّلِيلَةِ﴾، قد تقدّم تفسيرها والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف». ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾، أي: جزاء ﴿وَفَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾، أي: عاقبة ومرداً على صاحبها.

[٤٥٢٤] وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم، فأخذ غوداً يابساً فحطّ وزقّة ثم قال: «إِنْ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ تَحُطُّ الْخَطَايَا كَمَا تَحُطُّ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ، خُذْهُمْ يَا أَبَا الدرداء قبل أن يُحَال بينك وبينهن، هُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لَا أَهْلُكُنَّ اللَّهَ، وَلَا أَكْبِرُنَّ اللَّهَ، وَلَا سُبْحَنَ اللَّهَ، حتى إذا رأيته الجاهل حَسِبَ أَنِّي مَجْنُونٌ^(١). وهذا ظاهره أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة، عن أبي الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع في سُنَنِ ابن ماجه، من حديث أبي معاوية، عن عمر بن راشد، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء، فذكر نحوه.

(١) ضعيف. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٧٨٥ والطبري ٢٣٨٩٨. وابن ماجه ٣٨١٣ وقال البوصيري في «الزوائد» في إسناده عمر بن راشد قال فيه البخاري: حديثه عن ابن أبي كثير مضطرب ليس بالقائم، قال ابن حبان: يضع الحديث، لا يجل ذكره إلا على سبيل القدح فيه.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ ۝٧٧ ۖ أَطَّلَعَ الْآفِيَّةَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝٧٨ ۖ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ ۝٧٩ ۖ وَنُرِيثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾

[٤٥٢٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الارت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أنتقاضه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم تبعث جنتني ولي ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ ۝٧٧﴾ إلى قوله: ﴿وَنُرِيثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾^(١). أخرجه صاحب الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به. وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة، فعلمت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أنتقاضه^(٢)... فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾، قال: مؤثفاً.

[٤٥٢٦] وقال عبد الرزاق: أخبرنا الشوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال خباب بن الارت: كنت قيناً بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت أنتقاضه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا تبعثت كان لي مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ ۝٧٧﴾، إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾^(٣). وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألسم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وخيراً، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالا وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جنتم به. فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل. وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً»، وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رؤية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ فَرْدًا لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وَلَدٍ شَيْءٍ وُلْدًا

وقال الحارث بن جلة:

وَلَقَدْ زَايْتُ مَعَايِرًا قَدْ تَمَرُّوا مَالًا وَّوُلْدًا

وقال الشاعر:

فَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ وَلَدَ جِمَارٍ

وقيل: إن الولد - بالضم - جمع، والولد - بالفتح - مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْآفِيَّةَ﴾، إنكار على هذا القائل: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، يعني يوم القيامة، أي: أعلم ماله في الآخرة حتى تألَّى وحلف على ذلك، ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، أم له عند الله عهد أن سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري: أنه المؤثف. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْآفِيَّةَ﴾ أي اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٩١ ومسلم ٢٧٩٥ الترمذي ٣١٦٢ وأحمد ١١١/٥ وابن حبان ٤٨٨٥.

(٢) هذا اللفظ عند البخاري برقم ٤٧٣٣.

(٣) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٧٩٣ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

عَهْدًا ﴿٨١﴾، قال: لا إله إلا الله، فِيرْجُوهُ بها. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿إِنَّ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، قال شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾: هي حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، أي: من طلبه ذلك وحُكِّمهُ لنفسه بما تمناه، وكُفِّرهُ بالله العظيم، ﴿وَنَعُدُّكَ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذًا﴾، أي: في الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفَرهُ بالله في الدنيا، ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، أي: من مال وولَد، نسلُبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتَى في الدار الآخرة مالاً وولداً زيادةً على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يُسَلَّبُ مِنَ الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، أي: من المال والولد. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: نَرِثُهُ. وقال مجاهد: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾. وفي حَرْفِ ابن مسعود «ونرثه ما عنده». وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: لا مال له ولا وَلَد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، قال: ما جَمَعَ من الدنيا، وما عَمِلَ فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَذًّا ﴿٨٢﴾ فَلَا تَعْبَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٣﴾

يُخْبِرُ تعالى عن الكُفَّارِ المشركين برَبِّهم أَنهم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، لَتَكُونَ لَهُمْ تِلْكَ الْآلِهَةُ ﴿عِزًّا﴾ يَعْتَرُونَ بهم ويستنصرونهم. ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زَعَمُوا، ولا يكون ما طَعِبُوا، فقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: بخلاف ما ظَنُّوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَدْعِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلاَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَإِنَّا خِشَرْنَا النَّاسَ كَاوُؤًا لَّهُمْ أَصْنَاءُ وَكَأُوْا بِعِبَادَتِهِمْ كَفِيرِينَ﴾ ﴿٦﴾ [الاحقاف: ٥ - ٦]. وقرأ أبو نَهِيك: «كُلُّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ». وقال السدي: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: بخلاف ما رَجَوْا منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: أعواناً. قال مجاهد: عَوْناً عليهم، تُخَاصِمُهُمْ وَتُكَذِّبُهُمْ. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: قُرَنَاء. وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض. وقال السدي: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: الخصماء الأشداء في الخصومة. وقال الضحاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: أعداء. وقال ابن زيد: الضد: البلاء. وقال عكرمة: الضد: الحسرة. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَذًّا﴾ ﴿٨٢﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: تُغْوِيهِمْ إغواء. وقال العوفي عنه: تُحَرِّضُهُمْ على محمد وأصحابه وقال مجاهد: تُشْلِيهِمْ إشلاء. وقال قتادة: تُزَعِجُهُمْ إزعاجاً إلى معاصي الله. وقال سفيان الثوري: تُغْرِيهِمْ إغراء وتستعجلهم استعجالاً. وقال السدي: تُطْغِيهِمْ طُغْيَاناً. وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَنِ زَكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَمْ يَسْطِغْ لَهُمْ قُوَّةٌ لَمْ يَرَوْا قِيَمًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقوله: ﴿فَلَا تَعْبَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿٨٣﴾، أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾، أي: إنما نُؤَخِّرُهُمْ لأجلِ معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة، إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفُولًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَفْصُلُ فِيهِ الْآفَافُ﴾ ﴿٣٧﴾ [إبراهيم: ٤٢]. ﴿تَهْلِكُ الْكُفَرِينَ آمَنَهُمْ رَبُّنَا﴾ ﴿٣٧﴾ [الطارق: ١٧]. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ﴿نُعَمِّمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذَابٍ

فَيَظْهَرُ ﴿٢٤﴾ [القمان: ٢٤]، «قُلْ تَسْتَوُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» [إبراهيم: ٣٠]. وقال السدي: «إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا، السنين، والشهور، والأيام، والساعات. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا، قال: نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَذَٰكَ ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾»

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذي خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمرهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه يحشرهم يوم القيامة وقد أ إليه. والوفد: هم القادِمون ركبانا، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون غنفاً إلى النار، ﴿وَذَٰكَ﴾: عطاشاً، قاله أبو هريرة، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وها هنا يقال: «أَيُّ الْفَيْقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَوِيًّا».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس الملائي، عن أبي مَرْزُوقٍ: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿٨٥﴾، قال: يَسْتَقْبِلُ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ قَبْرِهَ أَحْسَنَ صُورَةٍ رَأَاهَا، وَأَطْيَبَ رِيحًا، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن [الله] قد طَيَّبَ رِيحَكَ وَحَسَّنَ وَجْهَكَ. فيقول: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِح، وهكذا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا، حَسَّنَ الْعَمَلَ طَيَّبَهُ، فَطَالَمَا رَكِبْتَكَ فِي الدُّنْيَا، فَهَلُمَّ ارْكَبْنِي. فيركبه، فذلك قوله: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿٨٥﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿٨٥﴾، قال: ركبانا.

وقال ابن جرير: حدثني ابن المشي، حدثنا ابن مهدي، عن سعيد، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبي هريرة: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿٨٥﴾، قال: على الإبل. وقال ابن جريج: على النجائب. وقال الثوري: على الإبل الثوق. وقال قتادة: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿٨٥﴾، قال: إلى الجنة.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مُسْنَدِ أَبِيهِ: حدثنا سُؤيد بن سعيد، أخبرنا علي بن مُسْنَرٍ، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا الثُّمَّان بن سَعِيد قال: كنا جلوساً عند علي - رضي الله عنه - فقرأ هذه الآية: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿٨٥﴾، قال: لا، والله ما على أرجلهم يُحْشَرُونَ، ولا يُحْشَرُ الْوَفْدُ عَلَى أَرْجُلِهِمْ، ولكن يثوق لم يَزِ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها، حتى يضرَبُوا أَبْوابَ الْجَنَّةِ. وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني، به. وزاد: «عليها رحائل الذهب، وأزمتها الزبرجد»^(١)، والباقي مثله.

[٤٥٢٧] وقد روى ابن أبي حاتم ما هنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً، عن علي - رضي الله عنه - فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل التَّهْدِي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي، سمعت أبا معاذ البصري قال: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ علي هذه الآية: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ

(١) موقف ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢٣٩٢٩، وفي إسناده ابن أبي حاتم، سويد بن سعيد ضعيف جرحه ابن معين، لكن توبع عند الطبري، ومداره عندهما على عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي، جاء في الميزان ٤٨١٢: ضعفه، قال أحمد: منكر الحديث، وقال يحيى: متروك، وضعفه النسائي.

وَقَدْ أَهْلًا ۖ فَقَالَ: مَا أَظُنُّ الْوَفْدَ إِلَّا الرِّكْبَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْهُمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ يُسْتَقْبَلُونَ - أَوْ: يُؤْتَوْنَ - بِثَوْبٍ بَيْضٍ لَهَا أَجْنَحَةٌ، وَعَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ، شُرُكُ نِعَالِهِمْ نُورٌ، يَتَلَا كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْهَا مَدَّ الْبَصَرِ، فَيَنْتَهَوْنَ إِلَى شَجَرَةٍ يَنْبُغُ مِنْ أَصْلِهَا عَيْنَانِ، فَيَشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا، فَتُغْسِلُ مَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ دَنَسٍ وَيَغْتَسِلُونَ مِنَ الْآخَرَى فَلَا تَشْعَثُ أَبْشَارُهُمْ وَلَا أَشْعَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ النِّعِيمِ، فَيَنْتَهَوْنَ، أَيْ: فَيَأْتُونَ بَابَ الْجَنَّةِ، فَإِذَا حَلَقَتْهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ عَلَى صَفَائِحِ الذَّهَبِ، فَيَضْرِبُونَ بِالْحَلَقَةِ عَلَى الصَّفِيحَةِ فَيَسْمَعُ لَهَا طَلِينَ يَا عَلِيَّ، فَيَبْلُغُ كُلُّ حُورَاءٍ أَنَّ زَوْجَهَا قَدْ أَقْبَلَ، فَتَبْعَتْ قِيَمَهَا فَيَفْتَحُ لَهُ، فَإِذَا رَأَى حَزْرَ لَهُ - قَالَ مُسْلِمَةٌ: أَرَاهُ قَالَ: سَاجِدًا - فيقول: اارْقِعْ رَأْسَكَ، إِنَّمَا أَنَا قِيَمُكَ، وَكُلْتُ بِأَمْرِكَ فَيَتْبَعُهُ وَيَقْفُو أثره، فَتَسْتَحِفُّ الْحُورَاءُ الْعَجَلَةَ، فَتَخْرُجُ مِنْ خِيَامِ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ حَتَّى تَعْتَنِقَهُ، ثُمَّ تَقُولُ: أَنْتَ جِئْتَنِي وَأَنَا جِئْتُكَ، وَأَنَا الْخَالِدَةُ الَّتِي لَا أَمُوتُ، وَأَنَا النَّاعِمَةُ الَّتِي لَا أَبْأَسُ، وَأَنَا الرَّاظِيَةُ الَّتِي لَا أَسْخَطُ، وَأَنَا الْمَقِيْمَةُ الَّتِي لَا أَظْعَنُ. فَيَدْخُلُ بَيْتًا مِنْ أَسْهُ إِلَى سَقْفِهِ مِثْلَ أَلْفِ ذِرَاعٍ، بِنَاوُهُ عَلَى جَنْدَلِ اللَّوْلُؤِ طَرَائِقُ أَصْفَرُ وَأَحْمَرُ وَأَخْضَرُ، لَيْسَ مِنْهَا طَرِيقٌ تَشَاكِلُ صَاحِبَتَهَا. وَفِي الْبَيْتِ سَبْعُونَ سَرِيرًا، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ حَشِيَّةً، عَلَى كُلِّ حَشِيَّةٍ سَبْعُونَ زَوْجَةً، عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً، يُرَى مُخٌّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ الْحُلَّةِ، يُقْضَى جَمَاعُهَا فِي مَقْدَارِ لَيْلَةٍ مِنْ لِيَالِيكُمْ هَذِهِ، الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِمْ تَطْرُدُ، أَنْهَارُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسَنِ - قَالَ: صَافٍ لَا كَدْرَ فِيهِ - وَأَنْهَارُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ الْمَاشِيَةِ، وَأَنْهَارُ مِنْ خَمَرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، لَمْ يَتَعَصَّرْهَا الرِّجَالُ بِأَقْدَامِهِمْ، وَأَنْهَارُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بَطُونِ النَّحْلِ، فَيَسْتَحْلِي الثَّمَارَ، فَإِنْ شَاءَ أَكَلَ قَائِمًا، وَإِنْ شَاءَ قَاعِدًا، وَإِنْ شَاءَ مَتَكِّنًا، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَدَائِمَةُ عَلَيْهِمْ لِبَاسُهُمْ دِرَاسُ ثِيَابٍ قُلُوبُهَا تَنَزَّلُ﴾ [الإنسان: ١٤]، فَيَسْتَهْطِي الطَّعَامَ فَيَأْتِيهِ طَيْرٌ أَبْيَضُ، وَرَبِمَا قَالَ: أَخْضَرُ، فَتَرْفَعُ أَجْنَحَتُهَا، فَيَأْكُلُ مِنْ جُنُوبِهَا أَيْ: الْأَلْوَانِ شَاءَ، ثُمَّ تَطِيرُ فَتَذْهَبُ، فَيَدْخُلُ الْمَلِكُ فيقول: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، ﴿وَيَلَاكُ لَكُمُتُ إِلَهِ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وَلَوْ أَنَّ شَعْرَةَ مِنْ شَعْرِ الْحُورِ الْعَيْنِ وَقَعَتْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ لِأَضَاءَتِ الشَّمْسِ مَعَهَا سَوَادٌ فِي ثَوْبٍ^(١). هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ مَرْفُوعًا، وَقَدْ رَوَيْنَاهُ فِي الْمَقْدَمَاتِ مِنْ كَلَامِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِنَحْوِهِ، وَهُوَ أَشْبَهُ بِالصَّحَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْكَافِرِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَدَا ۖ﴾، أَيْ: عَطَاشًا، لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ كَمَا يَشْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿قَدْ كُنَّا مِنْ شَفِيعِينَ﴾ وَلَا صَافِيٍّ جِيمٍ ۖ﴾^(٢). وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، بِمَعْنَى: لَكِنْ مِنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا، وَهُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهَا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، قَالَ: الْعَهْدُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَبْرَأُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَمَّارُ بْنُ خَالِدٍ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْوَاسِطِيُّ، عَنْ الْمَسْعُودِيِّ، عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي فَاحْتَةَ، عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدٍ قَالَ: قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، ثُمَّ قَالَ: اتَّخَذُوا عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فَلْيَقُمْ» قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَعَلَّمَنَا. قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،

(١) ضعيف جداً، فيه أبو معاذ سليمان بن أرقم، متروك الحديث، ولم يدرك علياً، فهاتان علتان تقدحان في صحة الحديث، وتقدم موقوفاً.

(٢) الشعراء، الأيتان ١٠٠ - ١٠١.

عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلمني إلى عملي يُقربني من الشر ويُباعدني من الخير، وإني لا أئق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤدبه إلي يوم القيامة، إنك لا تُخلف الميعاد. قال المسعودي: فحدثني زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يلجئ بهم: خائفاً مستجيراً مستغفراً، راهباً راغباً إليك. ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودي، بنحوه.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٩ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩١ إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٢ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٣ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٤﴾

لما قرّر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، ودكر خلفه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً - تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً - فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾، أي: في قولكم هذا «شَيْئًا إِدًّا»، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيمًا. ويقال: «إِذَا» بكسر الهمزة وفَتْحِهَا، ومع مَدِّهَا أيضاً، ثلاث لغات، أشهرها الأولى. وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٩ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠﴾، أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهم هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهم مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأخذ الصمد:

وفي كل شيء له آية تذل على أنه واجد

[٤٥٢٨] وقال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٩ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠﴾، قال: إن الشرك فرغت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين. وقال رسول الله ﷺ: «لَقَنُوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: تلك أوجب وأوجب. ثم قال: والذي نفسي بيده، لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحت بهن^(١). هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة^(٢)، والله أعلم.

وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾، أي: يتشققن فرقا من عظمة الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾، أي: غصبا لله عز وجل. ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، قال ابن عباس: هذما. وقال سعيد بن جبير: ﴿هَذَا﴾: ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

(١) أخرجه الطبري ٢٣٩٥٣ وفيه إرسال بين علي بن أبي طلحة وابن عباس، لكن له ما يشهد له.

(٢) يأتي في سورة الأنبياء عند آية: ٤٧ إن شاء الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر، عن عون بن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسميه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاك الله عز وجل؟ فيقول: نعم، ويستبشر قال عوف: فهي للخير أسمع، أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزُّوا لِلْإِلهِ هَذَا ۖ﴾ ﴿٩٦﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا ۖ﴾.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هوزة، حدثنا عوف، عن غالب بن عجرود، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة - ولم تزل الأرض والشجر بذلك، حتى تكلم فجره بني آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم: ﴿أَتَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض، وشاك الشجر. وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا.

[٤٥٢٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: لا أحد أضبر على أذى سمعه من الله؛ إنه يشرك به، ويجعل له ولد، وهو يعافيههم ويدفع عنهم، ويرزقهم^(١). أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيههم». وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٧﴾، أي: لا يصلح له، ولا يليق به لإجلاله وعظمته، لأنه لا كُفء له من الخلق، لأن جميع الخلق عبيد له، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا لَآتِي الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ ﴿٩٨﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ﴿٩٩﴾، أي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم، وصغيرهم وكبيرهم. ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْدًا﴾ ﴿١٠٠﴾، أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ﴿١٠١﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۖ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۖ﴾ ﴿١٠٣﴾

يخبر تعالى أنه يفرس لعباده المؤمنين الذي يعملون الصالحات - وهي الأعمال التي ترضي الله - عز وجل - لمتابعتها الشريعة المحمدية - يفرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه.

[٤٥٣٠] قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل. قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً. قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إني أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل. ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦ و ١٢٦ وهو عند البخاري ٦٠٩٩ ومسلم ٢٨٠٤ وأحمد ٤/٣٩٥.

البغضاء في الأرض^(١). ورواه مسلم من حديث سَهْلٍ. ورواه أحمدُ والبخاريُّ، من حديث ابن جُرَيْجٍ، عن موسى بن عُقْبَةَ، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

[٤٥٣١] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المَرْتَبِيُّ، حدثنا محمد بن عُبَادٍ المخزومي، عن ثوبان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَزَالُ بِذَلِكَ، فيقول الله عز وجل لجبريل: إِنْ فَلَانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرَضِّيَنِي؛ أَلَا وَإِنْ رَحِمْتِي عَلَيْهِ، فيقول جبريل: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى فَلَانٍ، ويقولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ويقولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ^(٢)». غَرِيبٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

[٤٥٣٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عابر، حدثنا شريك، عن مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ الْوَاسِطِيِّ، عن أَبِي ظَبْيَةَ، عن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَقَّةَ مِنَ اللَّهِ - قَالَ شَرِيكٌ: هِيَ الْمَحَبَّةُ - وَالصِّيتُ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ لَجَبْرِئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا». فِينَادِي جَبْرِئِلُ: إِنْ رَيْكُم يَمَقُّ - يَعْنِي يُحِبُّ - فَلَانًا، فَأَجِيبُوهُ - وَأَرَى شَرِيكًا قَدْ قَالَ: فَتَنْزِلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي الْأَرْضِ - وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا قَالَ لَجَبْرِئِلُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ. قَالَ: فِينَادِي جَبْرِئِلُ: إِنْ رَيْكُم يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ - قَالَ: أَرَى شَرِيكًا قَدْ قَالَ: فَيَجْرِي لَهُ الْبُغْضُ فِي الْأَرْضِ^(٣)». غَرِيبٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ.

[٤٥٣٣] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ الْحَفَرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ - يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ، وَهُوَ الدَّرَاوَزْدِيُّ - عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جَبْرِئِلُ: «إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فَلَانًا فَأَجِيبْهُ». فِينَادِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُنْزَلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾^(٤). ورواه مسلم والترمذي كلاهما عن قُتَيْبَةَ، عن الدَّرَاوَزْدِيِّ بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾. قَالَ: حُبًّا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنْهُ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾، قَالَ: مَحَبَّةٌ فِي النَّاسِ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنْهُ: يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ، يَعْنِي: إِلَى خَلْقِهِ الْمُؤْمِنِينَ. كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: الْوُدُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ، وَاللِّسَانُ الصَّادِقُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾. أَيُّ وَاللَّهُ، فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ هَرَمَ بْنَ حَيَّانٍ كَانَ يَقُولُ: مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بَقْلِيهِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَرَزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَعْمَلُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ -

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٠٩ و٧٤٨٥ ومسلم ٢٦٣٧ والترمذي ٣١٦١ وأحمد ٢٦٧/٢ و٥٠٩ وابن حبان ٣٦٤ طرق عن أبي هريرة به.

(٢) أخرجه أحمد ٢٧٩/٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٢/١٠: ورجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان، وهو ثقة. وقال الذهبي في «الميزان» ٢٣٤/٤٠: قال الفلاس: صدوق، لكنه ضعيف الحديث. وقال النسائي: ليس بالقوي. ثم ذكر الذهبي حديثاً غير هذا قال هذا منكراً. فالإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد ٢٦٣/٥ و٢٥٩ والطبراني ٧٥٥١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٧١/١٠: ورجاله وثقوا. قلت: شريك ساء حفظه لما تولى القضاء، فالإسناد ضعيف لكن لأصله شواهد.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٣٧ والترمذي ٣١٦١.

عز وجل - رِذَاءَ عَمَلِهِ. وقال ابنُ أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبدُ الرحمن بن مهدي، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن البصري - رحمه الله - قال رجلٌ: والله لأعبدنَّ الله عبادةً أذكرُ بها. فكان لا يُرى في حين صلاةٍ إلا قائماً يُصلِّي، وكان أولُ داخلٍ إلى المسجد وأخِرُ خارجٍ، فكان لا يُعْظَمُ، فمكثَ بذلك سبعةَ أشهر، وكان لا يمرُّ على قومٍ إلا قالوا: انظروا إلى هذا المرائي. فأقبلَ على نفسه فقال: لا أراني أذكرُ إلا بشرٌ، لأجعلنَ عملي كُلَّهُ لله عز وجل، فلم يَزِدْ على أن قلبَ نيَّته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمل. فكان يمرُّ بعدُ بالقوم، فيقولون: رحم الله فلاناً الآن. وتلا الحسن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُكُورًا﴾ (٩٦). وقد رَوَى ابنُ جريرٍ أثرًا أنَّ هذه الآية نزلت في هِجْرَةِ عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإنَّ هذه السورة بِتمامها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يَصِحَّ سندُ ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَسْتَنْتَهُ﴾، يعني: القرآن، ﴿بِلِسَانِكَ﴾، أي: يا محمد، وهو اللسان العربيُّ المبين الفصيح الكامل، ﴿يُنَبِّئُكَ بِهِ الصَّغِيرَاتِ﴾، أي: المستجيبين لله المُصدِّقين لرسوله، ﴿وَيُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾، أي: عوجاً عن الحقِّ مائلين إلى الباطل. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: لا يستقيمون. وقال الثوري، عن إسماعيل، وهو السدي، عن أبي صالح، ﴿وَيُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾: عوجاً عن الحق. وقال الضحاك: الألد: الخَصِمُ. وقال القُرطبي: الألد الكذاب. وقال الحسن البصري: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: ضماً. وقال غيره: ضَمُّ آذان القلوب. وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ يعني قريشاً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: فُجَاراً. وكذا رَوَى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد. وقال ابن زيد: الألد: الظلوم، وقرأ قول الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَاةَ﴾ [البقرة: ٢٠٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ أَفْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾، أي: من أُمّةٍ كَفَرُوا بآيات الله وكذبوا رسله، ﴿فَلَمْ يُحْسِ وَيَتَّخِذْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعْ لَهُمْ وَكُفْرًا﴾، هل ترى منهم أحداً، ﴿أَوْ تَسْمَعْ لَهُمْ وَكُفْرًا﴾، قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جببر، والضحاك، وابن زيد: يعني: صوتاً. وقال الحسن، وقاتدة: هل ترى عيناً، أو تسمع صوتاً. والرَّكْزُ في أصل اللغة هو: الصوتُ الخفيُّ، قال الشاعر:

فَتَوَجَّسْتُ رِكَزَ الْأَنْبِيَاءِ قَرَأَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ، وَالْأَنْبِيَاءُ سَقَامُهَا

آخر تفسير سورة مريم، والله الحمد والمنّة

سُورَةُ طه

آياتها
١٣٥ترتيبها
٢٠

وهي مكية

[٤٥٣٤] وروى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الجزامي: حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن يسمار، عن عمر بن حفص بن ذكوان، عن مولى الحرقة - يعني عبد الرحمن بن يعقوب - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بالف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجواف تحيل هذا. وطوبى لألسن تكلم بهذا^(١). هذا حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاَلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن يُجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

تَقَدَّمَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبه الواسطي، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - أنبأنا إسرائيل، عن سالم الأقطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجل. وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومحمد بن كعب، وأبي مالك، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن أبي نعيم أنهم قالوا: طه: يا رجل. وفي رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والثوري: أنها كلمة بالبطية معناها: يا رجل. وقال أبو صالح: هي مُعَرَّبَةٌ.

[٤٥٣٥] وأسد القاضي عياض في كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى،

(١) ضعيف جداً. أخرجه الدارمي ٤٥٦/٢ ح ٣٢٩٠ وابن عدي ٢١٦/١ وابن حبان في «المجروحين» ١٠٨/١ وابن الجوزي ١١٠/١ «موضوعات». قال ابن عدي: لم أجد لإبراهيم بن مهاجر حديثاً أنكر من هذا. وقال البخاري: ابن المهاجر: منكر الحديث. وقال ابن الجوزي: وفيه عمر بن حفص، قال أحمد: خرقت حديثه، وقال ابن حبان: هذا متن موضوع، وتعبه السيوطي في «اللائي» بما لا طائل تحته، عل أن الدارمي يطلقون على كتابه اسم الصحيح، أه واكتفى العراقي في الإحياء ٢٧٤/١ بقوله: ضعيف أه.

فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾، يعني طي الأرض يا محمد، ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيَتَشَقَّ﴾^(١). ثم قال: ولا خفاء بما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة. وقوله: ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيَتَشَقَّ﴾، قال جُوَيْر، عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى. فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيَتَشَقَّ﴾^(٢) إِلَّا نَذِيرٌ لِمَن يَخْشَى. فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً؛ كما ثبت في الصحيحين، عن معاوية قال:

[٤٥٣٦] قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يُفَقِّهه في الدين»^(٣). وما أحسن الحديث الذين رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال:

[٤٥٣٧] حدثنا أحمد بن زعيم، حدثنا العلاء بن مسleme أبو سالم، حدثنا إبراهيم الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سُفْيَانَ، عن سِمَاكِ بن حرب، عن ثعلبة بن الحَكَم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لِقْضَاءِ عِبَادِهِ: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أبالي»^(٤). إسناده جيد، وثعلبة بن الحَكَم هذا هو الليثي، ذكره أبو عَمَر في استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، ورؤى عنه سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيَتَشَقَّ﴾: هي كقولها: ﴿فَاقْرَأْ مَا يَنْزِلُ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يعلّقون الجبال بضؤورهم في الصلاة. وقال قتادة: ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيَتَشَقَّ﴾^(٥): لا، والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة. ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لِمَن يَخْشَى﴾^(٦): إن الله أنزل كتابه، وبعث رسوله رحمة، رَجِمَ بها العباد، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه. وقوله: ﴿تَبَيَّلَا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾^(٧)، أي: هذا القرآن الذي جاءك

(١) هذا مرسل، الربيع بن أنس تابعي، وأبو جعفر هو الرازي عيسى بن أبي عيسى، ضعفه غير واحد، وورد موصولاً من حديث علي بلفظ «كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه، يقوم على كل رجل، حتى نزلت ﴿طه...﴾»، أخرجه البزار ٢٢٣٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٥: فيه يزيد بن بلال، قال البخاري: فيه نظر، وكيسان أبو عمرو، وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات أهد وحسنه السيوطي في «الدر» ٥١٦/٤ أهد وهذا اللفظ أقرب وأحسن من لفظ الربيع بن أنس المتقدم. وورد من وجوه أخرى، أوردها السيوطي في «الدر المنثور» ٥١٦/٤، وبهذا يعلم أن له أصلاً، لكن المعتمد حديث علي رضي الله عنه، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٩.

(٣) منكر. أخرجه الطبراني ١٣٨١، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٢٧: رجاله موثقون أهد وكذا وقع للمنذري في «الترغيب» ١٣١: رجاله موثقون. وجوده الحافظ ابن كثير مع أن مداره على مسلمة أبو سالم، ذكره الذهبي في «الميزان» ٥٧٤٣ ونقل عن الأزدي قوله: لا تحمل الرواية عنه، وقال ابن طاهر: كان يضع الحديث، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات، ثم إنه تفرد بلفظ «إذا قعد على كرسيه» وهذه اللفظة منكراً جداً، وورد بدون هذه اللفظة، أخرجه الطبراني في «الصغير» ٥٩١ من حديث أبي موسى، وقال الهيثمي ٥٢٨: فيه موسى بن عبيدة الزبدي، وهو ضعيف جداً. وأدرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٦٣/١ وأعله بطلحة بن زيد أيضاً. وورد من حديث أبي أمامة أو وائلة بن الأسقع، أخرجه ابن عدي ١٦٢/٥، ومن طريقه ابن الجوزي ٢٦٣/١ - ٢٦٤ وأعله بعثمان بن عبد الرحمن وأن عنده عجائب. وورد من ديث ابن عباس أخرجه العقيلي ٣٣٢ وفيه مجاهد بن سميد، ضعيف، وأعله العقيلي بعدي بن أرطاة. والخبر منكر، فإن العالم سيسأل ويحاسب كثيره من العامة، أو أكثر، والحديث لا يرتقي عن درجة الضعيف لشدة ضعف أسانيده، والله أعلم.

قلت: ابن الفضل الأنصاري؟ قال: نعم - عن القاسم بن عبد الرحمن، عن محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين في حرٍّ شديد، فنحن متفرقون بين واحد واثنين، مُنتَشِرِينَ، قال: وكنت في أول العسكر إذ عارضتنا رجلٌ فسَلَّم، ثم قال: أيُّكم مُحمَّدٌ؟ ومضى أصحابي وَوَقَفْتُ معه، فإذا رسولُ الله ﷺ قد أقبل في وَسَطِ الْعَسْكَرِ على جَمَلٍ أَحْمَرٍ، مُقَنَّنٌ بِثَوْبِهِ على رَأْسِهِ من الشمس، فقلت: أيُّها السائل، هذا رسولُ الله قد أتاك. فقال: أيُّهم هو؟ فقلت: صاحب البَكْرِ الأحمر. فدنا منه، فأخذ بِخِطَامِ راحلته، فكفَّ عليه رسولُ اللَّهِ، فقال: أنت مُحمَّدٌ؟ قال: نعم. قال: إني أريد أن أسألك عن خِصَالٍ لا يَعْلَمُهُنَّ أَحَدٌ من أهل الأرض إلا رَجُلٌ أو رجلان. فقال رسولُ الله ﷺ: سَلْ عَمَّا شِئْتَ. فقال: يا مُحمَّدُ، أينام النبي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: تنام عيناه ولا ينام قلبه. قال: صَدَقْتَ. ثم قال: يا مُحمَّدُ، مِن أين يُشبه الولد أباه وأُمه؟ فقال رسولُ الله: ماء الرجل أبيضٌ غليظٌ، وماء المرأة أصفر رقيقٌ، فأَيُّ المائِين غَلَبَ على الآخر نَزَعَ الولدُ. فقال: صَدَقْتَ. فقال: ما للرجُلِ من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: للرجُلِ الْعِظَامُ والمُروِقُ والعصب، وللمرأة اللحم والدم والكبد والشعر. قال: صَدَقْتَ. ثم قال: يا مُحمَّدُ، ما تحت هذه؟ يعني الأرض. فقال رسولُ الله ﷺ: خَلَقْتُ. فقال: فما تحتهم؟ قال: أرض. قال: فما تحت الأرض؟ قال: الماء. قال: فما تحت الماء؟ قال: ظُلْمَةٌ. قال: فما تحت الظُّلْمَةَ؟ قال: الهَوَاءُ. قال: فما تحت الهواء؟ قال: الثرى. قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عَيْنَا رسولِ الله ﷺ بالبكاء، وقال: انقطع عِلْمُ المخلوقين عند عِلْمِ الخالق أيها السائل ما المسؤول عنها بأَعْلَمَ من السائل. قال: فقال: صَدَقْتَ، أشهد أنَّك رسولُ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: أيُّها الناس، هل تدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا جبريلُ ﷺ^(١). هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيبٌ تَفَرَّدَ به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس يُساوي شيئاً»، وَضَعَفَهُ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِي، وقد قال ابنُ عَدِيٍّ: لا يُعْرَفُ. قلت: وقد خَلَطَ في هذا الحديث، وَدَخَلَ عليه شيءٌ في شيء، وحديثٌ في حديث. وقد يَحْتَمِلُ أَنَّهُ تَعَمَّدَ ذلك، أو أَدَخَلَ عليه فيه، فإله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَأَخْفَى﴾، أي: أنزل هذا القرآن الذي خَلَقَ الأرض والسموات العُلَى الذي يعلم السرَّ وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَأَخْفَى»، قال: السرُّ ما أسرَّ ابنُ آدمَ في نفسه، «وَأَخْفَى»، ما أخفى على ابنِ آدمَ مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فإله يعلم ذلك كله، فَعَلِمَهُ فيما مَضَى من ذلك وما بَقِيَ عِلْمٌ واحد، وجميعُ الخلائق في ذلك عنده كنفَسٍ واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِشْرَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [سورة لقمان: ٢٨]. وقال الضحَّاك: «يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَأَخْفَى»، قال: السرُّ ما تَحَدَّثَ به نفسك، وأخفى ما لم تَحَدَّثَ به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جبَّير: أنت تعلم ما تُسرُّ اليوم، ولا تعلم ما تُسرُّ غداً، والله يعلم ما تُسرُّ اليوم، وما تُسرُّ غداً. وقال مجاهد: «وَأَخْفَى»، يعني الوُسُوسَةُ. وقال أيضاً هو وسعيد بن جبَّير: «وَأَخْفَى»، أي: ما هو

(١) إسناده وإياه ابن كثير رحمه الله بالقاسم بن عبد الرحمن ذكره الذهبي في الميزان ٦٨٢٢ بقوله: ضعفه أبو حاتم، وقال: حدثنا عنه محمد بن عبد الله الأنصاري بحديثين باطلين. وقال ابن معين: لا يساوي شيئاً أه، والظاهر أن أحد الحديثين هو هذا، وقد خلط في هذا الحديث كما ذكر ابن كثير، فبعضه محفوظ، جاء في روايات أخرى، وبعضه الآخر منكر. والله أعلم.

عامله مما لم يُحدث به نفسه. وقوله: ﴿أَلَمْ يَلَمْ أَلاَ هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسَمَّوْنَ﴾ (٨)، أي: الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى. وقد تقدّم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف، والله الحمد والمئة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَلٍ عَلَى النَّارِ هُذًى﴾ (١٠)

من ها هنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأصل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شِعَابٍ وَجِبَالٍ، في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزئد معه ليؤري نارا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرراً ولا شيئاً. فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور نارا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يئسّوهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي: شهاب من نار. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾، وهي الجمر الذي معه لَهَبٌ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصاص: ٢٩]، دل على وجود البزد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دل على وجود الظلام.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَجْدَلٌ عَلَى النَّارِ هُذًى﴾، أي: يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق. كما قال الثوري، عن أبي سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ أَجْدَلٌ عَلَى النَّارِ هُذًى﴾، قال: من يهديني إلى الطريق. وكانوا شاتين وضلوا الطريق. فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَنهَا لُودَىٰ بِمُوسَىٰ﴾ (١١) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِرِّ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٢) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾ (١٣) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١٤)

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾، أي: النار واقترب منها، ﴿لُودَىٰ بِمُوسَىٰ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿لُودَىٰ مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوتَ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال ها هنا: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، أي: الذي يكلمك ويخاطبك، ﴿فَاتْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾. قال علي بن أبي طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي. وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبسة. قال سعيد بن جبّير: كما يؤمّر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد دخول الكعبة. وقيل: ليطلأ الأرض المقدسة بقدميه خافياً غير متعيل. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لُودَىٰ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان. وقيل: عبارة عن الأمر بالطوط بقدميه. وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوي له البركة وكُزرت. والأول أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقُدْسِ لُودَى﴾ (١٥) [النازعات: ١٦]. وقوله: ﴿وَأَنَا أَنْتَرْتُكَ﴾، كقوله: ﴿إِنِّي أَمْلَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: على جميع الناس من

الموجودين في زمانه . وقد قيل : إن الله تعالى قال : يا موسى ، أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال : لا . قال : لأنني لم يتواضع لي أحد تواضعك . وقوله : ﴿ فَاسْتَجِبْ لِمَا يُوْحَىٰ ﴾ ، أي : اسمع الآن ما أقول لك وأوجبه إليك ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ : هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ ، أي : وحّدني وقم بعبادتي من غير شريك ، ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ﴾ ، قيل : معناه صلّ لتذكركني . وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي .

[٤٥٤١] ويشهد لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا المثنى بن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : إذا رقد أحدكم عن الصلاة ، أو غفل عنها ، فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ﴾ ^(١) .

[٤٥٤٢] وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصلّيها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك » ^(٢) . وقوله : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ ، أي : قائمة لا محالة ، وكانت لا بد منها . وقوله : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾ ، قال الضحّاك ، عن ابن عباس : أنه كان يقرأها : « أكاد أخفيها من نفسي » ، يقول : لأنها لا تخفى من نفس الله أبدًا . وقال سعيد بن جبّير ، عن ابن عباس : من نفسه . وكذا قال مجاهد ، وأبو صالح ، ويحيى بن رافع . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾ ، يقول : لا أطلع عليها أحدًا غيري . وقال السدي : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود : « إنني أكاد أخفيها من نفسي » ، يقول : كتمتها من الخلائق ، حتى لو استطعت أن أكتُمها من نفسي لفعلت . وقال قتادة : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾ ، وهي في بعض القراءة « أخفيها من نفسي » ، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقرّبين ، ومن الأنبياء والمرسلين . قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] ، وقال : ﴿ تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَشْرٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، أي : ثقل علمها على أهل السموات والأرض . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا منجاب ، حدثنا أبو ثُميلة ، حدثني محمد بن سهل الأسدي ، عن وقيّ قال : أقرأنيها سعيد بن جبّير « أكاد أخفيها » - يعني بنصب الألف وخفض الفاء - يقول : أظهرها ، ثم قال : أما سمعت قول الشاعر :

دَابَّ شَهْرَيْنِ ، ثُمَّ شَهْرًا دَمِيكَ بِأَرْيَكَيْنِ يَخْفِيَانِ غَمِيرًا

وقال السدي : الغمير : نبت رطب ، ينبت في خلّال بيس . والأريكين : موضع ، والدّميك : الشهر التام . وهذا الشعر لِكَعْب بن زهير . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ، أي : أقيمها لا محالة لأجزئي كل عامل بعمله ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ شِئْئًا شَرًّا يَفْعَلْ دَرَرًا خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ^(٣) ، وَمَنْ يَعْمَلْ شِئْئًا شَرًّا يَرَهُ ^(٤) [الزلزلة : ٦ ، ٧] ، و ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحریم : ٧] . وقوله : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ ^(٥) ، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي : لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة ، وأقبل على ملاذه في دنياه ، وعصى مولاه ، واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ، ﴿ فَتَرْدَى ﴾ ، أي : تهلك وتغطب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ ^(٦) [الليل : ١١] .

(١) صحيح . أخرجه مسلم ٦٨٤ و ٣١٦ وأحمد ١٨٤/٣ من طريق المثنى به .

(٢) صحيح . أخرجه البخاري ٥٩٧ ومسلم ٦٨٤ وأبو داود ٤٤٢ والترمذي ١٧٨ والنسائي ٢٩٣/١ وابن ماجه ٦٩٦ وأحمد ٢٤٣/٣ و ٢٦٩ وابن حبان ١٥٥٥ .

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتْمُوسَىٰ ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِلُ ۚ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَفَلَهَا يَتْمُوسَىٰ ۖ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝١٩ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْضُ سَنُيِّدُهَا سَبِيلَهَا ۚ الْأُولَىٰ ۝٢٠﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى - عليه السلام - ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة، دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله - عز وجل - وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل. فقله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتْمُوسَىٰ ۝١٧﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن. ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتْمُوسَىٰ ۝١٧﴾، استفهام تقرير، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾، أي: اعتمد عليها في حال المشي ﴿وَاهْتَسُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أي: اهتد بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمي. قال عبد الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والاهتس: أن يضع الرجل المبحج في الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وتثمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِلُ أُخْرَىٰ﴾، أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهت، ف قيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة. والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية. وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم عليه السلام. وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ماشا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَلَهَا يَتْمُوسَىٰ ۝١٨﴾، أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى، ألقها. ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝١٩﴾، أي: صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك بحركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهي أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَىٰ﴾، أي: تمشي وتضطرب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عتبة، حدثنا حفص بن جُميع، حدثنا سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝١٩﴾: ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مدبراً، فتودي أن: يا موسى، خذها. فلم يأخذها، ثم تودي الثانية: أن خذها ولا تحف. فقيل له في الثالثة: إنك من الآيين. فأخذها. وقال وهب بن مئب في قوله: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝١٩﴾، قال: فآلقها على وجه الأرض، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، يدب يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخليفة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالثاب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عينا تتقدان نارا، وقد عاد المبحج منها عرفاً، قيل: شعره مثل الثيازك، وعاد الشعبان منها مثل القلب الواسع، فيه أضراس وأنياب، لها صريف. فلما عين ذلك موسى ولّى مدبراً ولم يعقب. فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم تودي: يا موسى، أن ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَحْضُ سَنُيِّدُهَا سَبِيلَهَا ۚ الْأُولَىٰ﴾، وعلى موسى حينئذ مذرعة من صوف، قد خلها بخلا من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المذرعة على يده،

فقال ملك: أرايت يا موسى، لو أذن الله بما تُحاذِر أكانت المدرعة تُغني عنك شيئاً؟ قال: لا. ولكنني ضعيف، ومن ضَعِيف خُلِفْتُ. فكشَفَ عن يده ثم وضعها على فم الحيّة، حتى سَمِعَ جِسْ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عَصَاهُ التي عَهدَها، وإذا يَدُهُ في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشُعْبَتَيْنِ. ولهذا قال تعالى: ﴿سَمِعْتُمَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾، أي: إلى حالها التي تُعرَفُ قبل ذلك.

﴿وَأَضْمَمُ بِذَلِكَ إِلَن جَنَاحَكَ فَخَرُجْ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سَوِّءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (٢٧) ﴿لِرَبِّكَ مِن ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٨) اذْهَبْ إِلَن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٩) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٣٠) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٣١) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي (٣٢) يَقْفَهُوا قَوْلِي (٣٣) وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٣٤) هَازِلُونَ آمَنُوا (٣٥) أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى (٣٦) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٧) كَىٰ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٨) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٩) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٤٠) ﴿

وهذا برهان ثانٍ لموسى عليه السلام، وهو أنَّ الله أمره أن يُدْخَلَ يَدَهُ في جيبه، كَمَا صَرَّحَ به في الآية الأخرى، وها هنا عُبِّرَ عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمَمُ بِذَلِكَ إِلَن جَنَاحَكَ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَأَضْمَمُ إِلَنَكَ جَنَاحَكَ مِن الرِّقَابِ فَلَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَبِّكَ إِلَن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصاص: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمَمُ بِذَلِكَ إِلَن جَنَاحَكَ﴾: كَفَّهُ تَحْتَ عَضْدِهِ وذلك أن موسى - عليه السلام - كان إذا ادْخَلَ يَدَهُ في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألا كأنها فُلْقَةٌ قمر. وقوله: ﴿فَخَرُجْ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سَوِّءٍ﴾، أي: من غير بَرَصٍ ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: أخرجها - والله - كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لَقِيَ رَبَّهُ عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿لِرَبِّكَ مِن ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٨). وقال وهب: قال له ربُّه: اذْهَبْ. فلم يَزَلْ يُدْنِيهِ حتى أسند ظهره بِجَلْعِ الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرُّعْدَةُ، وَجَمَعَ يَدَهُ في العَصَا، وَخَضَعَ برأيه وَعُنُقَهُ.

وقوله تعالى: ﴿اذهَبْ إِلَن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجْتَ فَارًا منه وهاربًا، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فُلَيْحِيسِينَ إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى. وقال وهب بن مُثَنَّبٍ: قال الله لموسى: انطلق بِرِسالَتِي فإِنَّكَ وبِعَيْنِي وَسَمْعِي، وَإِن مَعَكَ أَيْدِي وَنُفُوسِي، وَإِنِّي قَدْ أَلْبَسْتُكَ جُنَّةً مِّنْ سُلْطَانِي لِتَسْتَكْمِلَ بِهَا الْقُوَّةَ فِي أَمْرِي، فإِنَّ جُنْدَ عَظِيمٍ مِّنْ جُنْدِي، بِعَثْكَ إِلَيَّ خَلَقِي ضَعِيفٌ مِّنْ خَلْقِي، بِطَرِ نِعْمَتِي، وَأَمِن مَكْرِي، وَغَرَّتْهُ الدُّنْيَا عَنِّي، حَتَّى جَعَدَ حَقِّي، وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتِي، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُنِي؛ فَإِنِّي أَقْسِمُ بِعِزَّتِي لَوْ لَا الْقَدَرُ الَّذِي وَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي لَبَطَشْتُ بِهِ بَطْشَةَ جَبَّارٍ، يَغْضَبُ لَغَضْبِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْجِبَالُ وَالْبَحَارُ، فَإِن أَمَرْتُ السَّمَاءَ حَصْبَتَهُ، وَإِن أَمَرْتُ الْأَرْضَ ابْتِلَغَتْهُ، وَإِن أَمَرْتُ الْجِبَالَ دَمَرَتْهُ، وَإِن أَمَرْتُ الْبِحَارَ غَرَقَتْهُ، وَلَكِنَّهُ هَانَ عَلَيَّ، وَسَقَطَ مِن عَيْنِي، وَوَسِعَهُ جِلْمِي، وَاسْتَغْنَيْتُ بِمَا عِنْدِي. وَحَقُّ إِنِّي أَنَا الْغَنِيُّ لَا غَنِيَّ غَيْرِي. قَبْلُغَهُ رِسالَتِي، وَادْعُهُ إِلَى عِبَادَتِي وَتَوْحِيدِي وَإِخْلَاصِي، وَذَكَّرَهُ أَيَّامِي، وَحَذَّرَهُ نِقَمَتِي وَبَأْسِي، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُومُ شَيْءَ لِّغَضَبِي، وَقُلْ لَهُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى، وَخَبَّرَهُ أَنِّي إِلَيَّ الْعَفْوُ وَالْمَغْفَرَةُ أَسْرَعُ مِنِّي إِلَى الْغَضَبِ وَالْعُقُوبَةِ وَلَا يُورِئُوكُمْ مَا أَلْبَسْتُهُ مِّنْ لِّبَاسِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي، لَيْسَ يَنْطَلِقُ وَلَا يَطْرِفُ وَلَا يَنْتَفِسُّ إِلَّا بِإِذْنِي. وَقُلْ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ فَإِنَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفَرَةِ، وَقَدْ أَهْلَكَ أَرْبَعِمِئْتَةَ سَنَةٍ، فِي كُلِّهَا أَنْتَ مَبَارُزُهُ بِالْمَحَارَبَةِ، تَسْبُهُ وَتَمْتَلُ بِه، وَتَصُدُّ عِبَادَهُ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ يُعْطِرُ عَلَيْكَ السَّمَاءَ، وَيُنِثُّ لَكَ الْأَرْضَ، لَمْ تَسْقُمْ وَلَمْ تَهْرَمْ وَلَمْ تَقْتَفِرْ وَلَمْ تُغْلَبْ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُعْجَلَ لَكَ الْعُقُوبَةُ لَفَعَلَ، وَلَكِنَّهُ ذُو أَنَاةٍ وَجِلْمٍ عَظِيمٍ. وَجَاهِذْهُ

بنفسك وأخيك، وأنتما تحتسيبان بجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجند لا قتلَ له بها لَفَعَلْتُ، ولكن ليَعْلَمَ هذا العبدُ [الضعيف] الذي قد أَغْجَبَتْهُ نفسه وجموعُه أن الفِئَةِ القليلة - ولا قليلٌ مِنِّي - تغلبُ الفِئَةَ الكثيرةَ بِإِذْنِي. ولا تُعْجِبَنَّكُمَا زِينَتُهُ، ولا ما مُتَّعَ بِهِ، ولا تَمُدُّا إلى ذلك أَعْيُنَكُمَا، فإنها زُفْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وزِينَةُ الْمُتَرَفِّينَ. ولو شئت أن أُزَيِّنَنَّكُمَا مِنَ الدُّنْيَا بَزِينَةٍ لَيَعْلَمَنَّ فِرْعَوْنُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا أن مَقْدِرَتَهُ تَعْجِزُ عن مثل ما أُوتِيْتُمَا، فَعَلْتُ. ولكن أَرَعْبُ بِكُمَا عن ذلك وَأَزْوِيهِ عَنْكُمَا. وكذلك أَفْعَلُ بِأُولِيائِي. وقديماً ما جرت عَادَتِي فِي ذلك، فإني لأَذُوهُمْ عن نعيمها وَرَحَائِهَا، كما يَذُوُّ الرَّاعِي إِبِلَهُ عن مَبَارِكِ المَعْرَةِ. وما ذاك لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ، ولكن لِيَسْتَكْمِلُوا نَصِيْبَهُمْ من كَرَامَتِي سَالِماً مَوْفِراً لِمَ تَكَلَّمَهُ الدُّنْيَا. واعلم أنه لا يَتَزَيَّنُ لِي الْعِبَادُ بَزِينَةٍ هِيَ أَبْلَغُ فِيمَا عِنْدِي مِنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فإنها زِينَةُ الْمُتَّقِينَ، عَلَيْهِمْ مِنْهَا لِبَاسٌ يُغْرَقُونَ بِهِ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْخُشُوعِ، سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ من أَثَرِ السُّجُودِ، أُولَئِكَ أُولِيَائِي حَقّاً حَقّاً، فإِذَا لَقِيتَهُمْ فَاحْفَظْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَذَلَّلْ قَلْبَكَ وَلِسَانَكَ، واعلم أنه من أَهَانَ لِي وَلِيّاً أو أَخَافَهُ فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمَحَارَبَةِ، وَبَادَأَنِي وَعَرَّضَ لِي نَفْسَهُ وَدَعَانِي إِلَيْهَا، وَأَنَا أَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَى نُصْرَةِ أُولِيَائِي، أَقِظُنُّ الَّذِي يَحَارِبُنِي أَن يَقُومَ لِي، أَمْ يَظُنُّ الَّذِي يُعَادِيَنِي أَن يُعْجِزَنِي، أَمْ يَظُنُّ الَّذِي يُبَارِزُنِي أَن يَسْبِقَنِي أو يَقُوتَنِي. وكيف وأنا الثَّائِرُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَا أَكِلَ تُضَرَّتَهُمْ إِلَى غَيْرِي، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٢) ﴿وَيَذِّرْ لِي أَمْرِي﴾، هذا سُؤَالُ من موسى - عليه السلام - لربه - عزَّ وجلَّ - أن يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ قد أَمَرَهُ بِأَمْرِ عَظِيمٍ، وَخَطَبَ جَسِيمٍ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مُلْكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ وَأَجْبَرَهُمْ وَأَشْدَّهُمْ كَفْراً، وَأَكْثَرَهُمْ جُنُوداً، وَأَعَمَّرَهُمْ مُلْكاً، وَأَطْعَمَهُمْ وَأَبْلَغَهُمْ تَمَرُّداً، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَن ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ، وَلَا يَعْلَمُ لِرَعَايَاهِ إِلَهاً غَيْرَهُ. هذا وقد مكث موسى فِي دَارِهِ مَدَّةً وَلِيداً عِنْدَهُمْ، فِي جَبَرٍ فِرْعَوْنُ عَلَى فِرَاشِهِ، ثُمَّ قَتَلَ مِنْهُمْ نَفْساً فَخَافَهُمْ أَن يَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَدَّةَ بِكَمَالِهَا. ثُمَّ بَعْدَ هَذَا بَعَثَهُ رَبُّهُ - عزَّ وجلَّ - إِلَيْهِمْ نَذِيراً يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - أَن يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. ولهذا قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٢) ﴿وَيَذِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٣)، أَي: إِن لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي، وَعَضْدِي وَظَهِيرِي، وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ. ﴿وَأَمَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٤) ﴿يَقْفُوهَا قَوْلِي﴾ (٢٥)، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ أَصَابَهُ مِنَ اللَّغْنِ، حِينَ عَرَّضَ عَلَيْهِ التَّمْرَةَ وَالْجَمْرةَ، فَأَخَذَ الْجَمْرةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ. وَمَا سَأَلَ أَن يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكَلْبَةِ، بَلْ بِحَيْثُ مَا يَزُولُ الْعَبِيُّ وَيَحْصُلُ لَهُمْ فَهْمٌ مَا يُرِيدُ مِنْهُ وَهُوَ قُدْرُ الْحَاجَةِ. وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالُوا، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ، وَلِهَذَا بَقِيََتْ بَقِيَّةٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَاراً عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٢٦) [الزخرف: ٥٢]، أَي: يَفْصَحُ بِالْكَلَامِ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿وَأَمَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧)، قَالَ: حُلَّ عُقْدَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَوْ سَأَلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أُعْطِيَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَكَا مُوسَى إِلَى رَبِّهِ مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتِيلِ، وَعُقْدَةُ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةً تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَن يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ يَكُونُ لَهُ رِذْءاً وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصَحُ بِهِ لِسَانُهُ، فَأَتَاهُ سُؤْلُهُ، فَحُلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: ذَكَرَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَثْمَانَ، حَدَّثَنَا بِقِيَّةٌ، عَنْ أَرْطَاةَ بْنِ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْهُ قَالَ: أَتَاهُ دُو قُرَابَةٍ لَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا بَكَ بِأَسَى لَوْلَا أَنَّكَ تَلَحَّنُ فِي كَلَامِكَ، وَلَسْتُ تُعْرَبُ فِي قِرَاءَتِكَ، فَقَالَ الْفَرَزْدِيُّ: يَا ابْنَ أَخِي، أَلَسْتُ أَفْهِمُكَ إِذَا حَدَّثْتُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا سَأَلَ رَبَّهُ أَن يَحُلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ كِي يَفْقَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَلَامَهُ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا. هَذَا لَفْظُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٣٦) هَرُونَ أَخِي (٣٧)، وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فُتِيءَ هارونُ ساعتئذٍ حين نُبِئَ موسى عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن ابن ثُمير، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها خَرَجَتْ فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسَمِعَتْ رجلاً يقول: أي أخ في الدنيا كان أنفعَ لأخيه؟ قالوا: ما نُدري. قال: أنا والله أدري؟ - قالت: فقلْتُ في نفسي: في حَلْفِيهِ لا يستثنِي إنه لَيَعْلَم أَيُّ أَخٍ فِي الدُّنْيَا كَانَ أَنْفَعَ لِأَخِيهِ - قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة. فقلْتُ: صَدَقَ اللهُ. وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى - عليه السلام -: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِؤْسًا أَرَى﴾ (٣٨)، قال مجاهد: ظَهري. ﴿وَأَشْرَكَ فِيَّ أُنثَى﴾ (٣٩) أي: في مشاورتي، ﴿كَيْ سَمِعَكَ كَيْبَرًا﴾ (٤٠) وَذَكَرَكَ كَيْبَرًا (٤١)، قال مجاهد: لا يكون العبدُ من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيرًا﴾ (٤٢)، أي: في اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وَبَغَيْتِكَ لنا إلى عَذُوكَ فِرْعَوْنَ، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٤٣) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٤٤) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى (٤٥) أَنْ أَقْبِضِيهِ فِي النَّابِوتِ فَأَقْبِضِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٤٦) إِذْ تَنَسَّيْتُ أَخْطَاكَ فَقُولْ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْتُكَ إِلَيْكَ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقُلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُوكًا﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى - عليه السلام - فيما سأل من ربه - عز وجل - وتذكير له بتبعيه السالفية عليه، فيما كان ألهم أمه حين كانت تُرضعه، وتَحْذَرُ عليه من فرعون ومَلِيهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ، لأنه كَانَ قد وُلِدَ في السِّتَةِ التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذَتْ له تَابُوتًا، فكانت تُرَضِّعُهُ ثم تَضَعُهُ فيه، وتُرْسِلُهُ في البحر - وهو النِيل - وتُسَبِّكُهُ إلى منزلها بحبل، فذَهَبَتْ مرة لِيَتْرِطَهُ فانفلت منها وذهب به البحر، فَحَصَلَ لها من الغَمِّ والهِمِّ ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أَمْرًا مَوْسَى قَدِيقًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحرُ إلى دَارِ فِرْعَوْنَ، ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي: قَدَرًا مقدوراً من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حَذَرًا من وجود موسى، فَحَكَّمَ اللهُ - وله السلطان العظيم والقدرة التامة - أَنْ لا يُرْبَى إلا على فراش فرعون، ويُغْذَى بِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، مع مُحِبَّتِهِ وَزَوْجَتِهِ له. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِّنِّي﴾. أي: عند عَذُوكَ، جَعَلْتَهُ يُحِبُّكَ. قال سلمة بن كهيل: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِّنِّي﴾ قال: حَبَّتُكَ إلى عبادي: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، قال أبو عمران الجوني: تُرْبَى بعين الله. وقال قتادة: تُغْذَى على عيني. وقال معمر بن المثنى: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، بحيث أَرَى. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أجمعه في بيت المُلْكِ، يَنْعَم وَيَتَرَفُّ، غِذَاؤُهُ عِنْدَهُمُ غِذَاءُ المُلْكِ، فتلك الصنعة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَنَسَّيْتُ أَخْطَاكَ فَقُولْ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْتُكَ إِلَيْكَ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، وذلك أنه لما استقرَّ عند آل فِرْعَوْنَ، عَرَضُوا عليه المَرَضِيعَ، فأبَاهَا. قال الله - عز وجل - ﴿وَعَرَّضْنَا عَلَيْكَ الْمَرَضِيعَ مِن قَبْلُ﴾، فجاءت أختُه وقالت: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ [القصص: ١٢]، تعني

هل أدلكم على من تُزِيعُهُ لكم بالأجرة؟ فذهبت به وَهُمْ معها إلى أُمِّه، فَعَرَضَتْ عليه ثَدْيَهَا، فَقَبِلَهُ، فَفَرَّخُوا بِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادةٌ ورفعةٌ وراحةٌ في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل. ولهذا جاء في الحديث:

[٤٥٤٣] **مَثَلُ الصَّانِعِ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ كَمَثَلِ أُمِّ مُوسَى، تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا^(١).** وقال تعالى ما هنا: **﴿فَرَجَعْنَاهُ إِلَيْنَا أُمُّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنًا وَلَا تَحْزَنَ﴾**، أي: عليك، **﴿وَقُلْتَ نَسَا﴾**، يعني: القبطي، **﴿فَتَجِدْنَاهُ بَيْنَ الْقَوْمِ﴾**، وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففرّ منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: **﴿لَا تَخَفْ فَمَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الْقَلِيلِينَ﴾** [القصاص: ٢٥].

وقوله تعالى: **﴿وَقُلْتَ فُتُونًا﴾**؛ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي - رحمه الله - في كتاب التفسير من سننه: قوله: **﴿وَقُلْتَ فُتُونًا﴾**، حديث الفتون:

[٤٥٤٤] حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبيرة قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله - عز وجل - لموسى - عليه السلام -: **﴿وَقُلْتَ فُتُونًا﴾**، فسألته عن الفتون، ما هو؟ فقال: استأنف النصارى ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبح غدوث إلى ابن عباس لانتجّز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم - عليه السلام - أن يجعل في ذريته أنبياء ومُلوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب. فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم. فقال فرعون: فكيف تزون؟ فانتصروا واجتمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشغار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يُموتون بأجالهم والصغار يذبحون، قالوا: لئوشك أن تُفثوا بني إسرائيل فتصيروا أن تُبأشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكراً، فيقل نبتاتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكاناً من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثرُوا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مُكاثرتهم إياكم، ولن يقتلوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم. فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يُلبخ فيه الغلمان، فولدته علانيةً آمنةً، فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن - وذلك من الفتون يا ابن جبير - ما دخل عليه وهو في بطن أمه، مما يزد به. فأوحى الله إليها أن لا تخافي **﴿وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**. فأمّرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في النيم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما تَوَازَى عنها ابنها أنها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت يا بني، لو ذبح عندي فواريته وكففته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وجيتانيه. فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْضة مُسْتَقَى جَوَارِي امرأة فرعون، فلما رأيته أخذته فهُمِّنْ أن يفتخر التابوت، فقال بعضهم: إن في هذا مالاً، وإننا إن فتحناه لم نُصَدِّقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملته كهيته لم يُخرج من شياً حتى دفعته إليها. فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقي عليها منه محبةً لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى. فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشغارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت لهم: أفرؤوه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فاستويهبه منه، فإن وقبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أملككم. فأنت فرعون

فَقَالَتْ: «فَرَّقْتُ مَيْنِي وَلَكَ» فَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَكُونُ لَكَ، فَأَمَّا لِي فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي يُخْلَفُ بِهِ لَوْ أَقْرَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ، كَمَا أَقْرَتْ أُمُّهُ، لَهْدَاهُ اللَّهُ كَمَا هَدَاهَا، وَلَكِنْ حَزَمَهُ ذَلِكَ». فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَنْ حَوْلَهَا، إِلَى كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا لَبَنٌ لِتَخْتَارَ لَهُ ظِئْرًا، فَجَعَلَ كُلُّمَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ لِثَرِيعَةً لَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَهَا حَتَّى أَشْفَقَتْ امْرَأَةً فِرْعَوْنَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ، فَأَحْزَنْتَهَا ذَلِكَ. فَأَمَرَتْ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى السُّوقِ وَمَجْمَعِ النَّاسِ، تَرْجُو أَنْ تَجِدَ لَهُ ظِئْرًا تَأْخُذُهُ مِنْهَا، فَلَمْ يَقْبَلْ.

وَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالْهَاءُ، فَقَالَتْ لِأَخْتِ: قُصِّي أَثَرَهُ وَاطْلُبِيهِ، هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا؟ أَحْيِ ابْنِي أَمْ قَدْ أَكَلَتْهُ الدُّوَابُّ؟ وَتَبَيَّنَتْ مَا كَانَ اللَّهُ وَعَدَهَا فِيهِ، فَبَصُرَتْ بِهِ أَخْتُهُ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ - وَالْجُنُبُ: أَنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الْإِنْسَانِ إِلَى شَيْءٍ بَعِيدٍ، وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ لَا يُشْعِرُ بِهِ - فَقَالَتْ مِنَ الْفَرَحِ حِينَ أَعْيَاهُم الظُّنُورَاتُ: أَنَا أَدْلُكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا: مَا يُدْرِيكَ؟ مَا نَصَحَهُمْ لَهُ؟ هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟ حَتَّى شَكُّوا فِي ذَلِكَ - وَذَلِكَ مِنَ الْفَتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ - فَقَالَتْ: نَصَحَهُمْ لَهُ وَشَفَقْتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَتُهُمْ فِي ظَنُورَةِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءُ مَنَفَعَةِ الْمَلِكِ. فَأَرْسَلُوهَا فَانطَلَقَتْ إِلَى أُمِّهَا، فَأَخْبَرَتْهَا الْخَبَرَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حَجَرِهَا نَزَا إِلَى ثَدْيِهَا فَمَضَاهُ حَتَّى امْتَلَأَ جَنْبَاهُ رِيًّا، وَانطَلَقَ الْبُشْرَاءُ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ يُبَشِّرُونَهَا أَنْ قَدْ وَجَدْنَا لَابْنِكَ ظِئْرًا. فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ بِهَا وَبِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا يَصْنَعُ بِهَا قَالَتْ: امْكُثِي تَرْضِعِي ابْنِي هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَحِبُّ شَيْئًا خَبِيْهَ قَطُّ. قَالَتْ أُمُّ مُوسَى: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدْعَ بَيْتِي وَوَلَدِي فَيَضِيعَ، فَإِنْ طَابَتْ نَفْسُكَ أَنْ تُعْطِيَنِيهِ، فَأَذْهَبَ بِهِ إِلَى بَيْتِي، فَيَكُونُ مَعِيَ لَا آلُوهُ خَيْرًا فَعَلْتُ، فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكَةٍ بَيْتِي وَوَلَدِي، وَذَكَرْتُ أُمُّ مُوسَى مَا كَانَ اللَّهُ وَعَدَهَا فِيهِ، فَتَعَاسَرَتْ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَابْيَقَنْتُ أَنْ اللَّهُ مُنْجِزُ مَوْعَدِهِ، فَرَجَعَتْ بِهِ إِلَى بَيْتِهَا مِنْ يَوْمِهَا، وَأَنْبَتَهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا، وَحَفِظَ لَهَا قَدْ قَضَى فِيهِ.

فَلَمْ يَزَلْ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَهُمْ فِي نَاحِيَةِ الْقَرْيَةِ مَمْتَنِعِينَ مِنَ السُّخْرَةِ وَالظُّلْمِ مَا كَانَ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَرَعَزَّ قَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَأُمِّ مُوسَى: أَزِيرِينِي ابْنِي؟ فَوَعَدَتْهَا يَوْمًا تُزِيرُهَا إِلَيْهَا فِيهِ، وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِحَزَانِهَا وَظُنُورِهَا وَقَهَارَتِهَا: لَا يَبْقِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا اسْتَقْبَلَ ابْنِي الْيَوْمَ بِهَذِيَّةٍ وَكَرَامَةٍ لَأَرَى ذَلِكَ فِيهِ، وَأَنَا بَاعِثَةٌ أَمِينًا يُحْصِي مَا يَصْنَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ، فَلَمْ تَزَلِ الْهَدَايَا وَالتَّحُلُّ وَالْكَرَامَةُ تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حِينَ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ أُمِّهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا تَحَلَّتْهُ وَكَرَمَتْهُ وَفَرَحَتْ بِهِ، وَتَحَلَّتْ أُمُّهُ لِحُسْنِ أَثَرِهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا تَبْنَ بِهِ فِرْعَوْنَ فَلْيَنْتَحِلْهُ وَلْيُكْرِمْهُ. فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهِ عَلَيْهِ جَعَلَهُ فِي حَجَرِهِ، فَتَنَاولَ مُوسَى لِحِيَةَ فِرْعَوْنَ فَمَدَّهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ الْعَوَاةُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ لِفِرْعَوْنَ: أَلَا تَرَى مَا وَعَدَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّهُ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنْ يَرْثَكَ وَيَعْلُوكَ وَيَصْرَعُكَ. فَأَرْسَلَ إِلَى الذُّبَّاحِينَ لِيَذْبَحُوهُ؛ وَذَلِكَ مِنَ الْفَتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ، بَعْدَ كُلِّ بَلَاءٍ ابْتُلِيَ بِهِ وَأُرِيدَ بِهِ قُتُونًا. فَجَاءَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ: مَا بَدَأَ لَكَ فِي هَذَا الْغُلَامِ الَّذِي وَهَبْتَهُ لِي؟ فَقَالَ: أَلَا تَرَيْتَهُ، إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَصْرَعُنِي وَيَعْلُونِي. فَقَالَتْ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَمْرًا يُعْرِفُ فِيهِ الْحَقُّ، إِنِّي بِجَمْرَتَيْنِ وَلَوْ لَوُؤْتَيْنِ فَقَرْنَهُنَّ إِلَيْهِ، فَإِنْ بَطَسَ بِاللُّوؤُوتَيْنِ وَاجْتَنَبَ الْجَمْرَتَيْنِ عَرَفْتُ أَنَّهُ يَفْقُلُ، وَإِنْ تَنَاولَ الْجَمْرَتَيْنِ وَلَمْ يَرِدِ اللَّوؤُوتَيْنِ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا لَا يُؤَيِّزُ الْجَمْرَتَيْنِ عَلَى اللَّوؤُوتَيْنِ وَهُوَ يَفْقُلُ. فَقَرَّبَ إِلَيْهِ، فَتَنَاولَ الْجَمْرَتَيْنِ فَانْتَزَعَهُمَا مِنْهُ مَخَافَةَ أَنْ تَحْرَقَا يَدَهُ، فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: أَلَا تَرَى؟ فَصَرَفَهُ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَمَا كَانَ قَدْ هَمَّ بِهِ، وَكَانَ اللَّهُ بِالْعَالَمِ فِيهِ أَمْرَهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَكَانَ مِنَ الرِّجَالِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَخْلُصُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ يَظْلُمُ وَلَا سُخْرَةٍ، حَتَّى امْتَنَعُوا كُلُّ الْامْتِنَاعِ. فَبَيْنَمَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَمْشِي فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ إِذَا هُوَ بِرَجُلَيْنِ يَفْتَتِلَانِ، أَحَدُهُمَا فِرْعَوْنِي وَالْآخَرُ إِسْرَائِيلِي، فَاسْتَغَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَقَعَصَبَ مُوسَى غَضَبًا.

شديداً، لأنه تتأوله وهو يعلم منزله من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يُطْلَع عليه غيره. فوكز موسى الفِرْعَوْنِي فَقَتَلَهُ، وليس يراهما أحد إلا الله - عز وجل - والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾، ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار. فأُتِيَ فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا تُرخص لهم. فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صغوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بيعة ولا ثبت. فاطلبوا لي علم ذلك أخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا يجدون ثبتاً إذا موسى من العَدَدِ رأى ذلك الإسرائيلي يُقاتِل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفِرْعَوْنِي، فصاذف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، ففَضِب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفِرْعَوْنِي، فقال للإسرائيلي لِمَا فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَنُورٌ مُبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفِرْعَوْنِي، فخاف أن يكون بعدما قال له: ﴿إِنَّكَ لَنُورٌ مُبِينٌ﴾، أن يكون إياه أَرَادَ، ولم يكن أَرَادَهُ إنما أراد الفِرْعَوْنِي. فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿يَكُونُ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقْتُلَهُ فتنازكا، وانطلق الفِرْعَوْنِي فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾، فأرسل فرعون الدُّبَابِجِينَ ليقْتُلُوا موسى، فأخذ رُسُل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هَيْبَتِهِمْ يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يموتهم، فجاء رجل من شبيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبَّههم إلى موسى، فأخبره الخبر؛ وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى مُتَوَجِّهاً نحو مَدِينِ، لم يَلَقْ بلاءً قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عز وجل؛ فإنه قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۖ﴾ وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أَمَةً إِنَّهَا تَنَسَّقُونَ وَجَعَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ تَذَوِّبَانِ، يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خُطِبَكُمَا مُعْتَزِلَتَيْنِ لا تَسْقِيَانِ مع الناس؟ فقالتا: ليس لنا قوة نزاجم القوم، وإنما ننتظر فُضُولَ جِيَاضِهِمْ. فسقى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرِّعَاءِ. فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما. وانصرف موسى - عليه السلام - فاستظل بِشَجَرَةٍ، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَتَزَلَّتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَاقْبَلْهُ﴾. واستنكر أبوهما سرعة صُودُورهما بَعَثَهُمَا حُفْلاً بِطَانًا فقال: إن لكما اليوم لَشَانًا. فأخبرتا بما صنَّع موسى. فأمر إحدهما أن تَدْعُوهُ، فأتى موسى فدَعَتْهُ، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْ يَجُودُ مِنَ الْقَوِيِّ الظَّالِمِينَ﴾، ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحدهما: ﴿يَتَأْتِي أَسْتَجِيرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ﴾. فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يُدْرِيكَ ما قُوَّتُهُ؟ وما أمانته؟ قالت: أما قُوَّتُهُ فما رأيْتُ منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نَظَرُ إِلَيَّ حين أقبلْتُ إليه وشخصْتُ له، فلما عَلِمَ أَنِي امرأة صوب رأسه فلم يَرَفَعْهُ حتى بَلَغْتُهُ رِسَالَتَكَ. ثم قال لي: امشي خلفي، وانمتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين. فسُرِّي عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك ﴿أَنْ أَكْحَلَكَ لِإِخْوَتِي﴾ أَيْقُوْهُنَّ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي فَكُنِّي حِجَابًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَجَنِّ عَيْنَكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَتَّقِيَ عَلَيْكَ سَجْدَتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ^(١). ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثمانين سنين واجبة، وكانت ستان عدة منه، ففُضِيَ الله

عنه عِدَّتْه فَأَتَمَّتْهَا عَشْرًا. قَالَ سَعِيدٌ، وَهُوَ ابْنُ جُبَيْرٍ: فَلَقِينِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، قَالَ: هَلْ تَنْدِرِي أَيُّ الْأَجْلِينَ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لَا - وَأَنَا يَوْمُنْذ لَا أَدْرِي - فَلَقِيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ثَمَانِيًا كَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ وَاجِبَةً، لَمْ يَكُنْ نَبِيُّ اللَّهِ لِيَنْقُصْ مِنْهَا شَيْئًا، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ كَانَ قَاضِيًا عَنْ مُوسَى عِدَّتَهُ الَّتِي وَعَدَهُ فَإِنَّهُ قَضَى عَشْرَ سِنِينَ. فَلَقِيْتُ النَّصْرَانِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: الَّذِي سَأَلْتَهُ فَأَخْبَرَكَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِذَلِكَ. قُلْتُ: أَجَلٌ، وَأَوَّلَى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والغصا ويده ما قصَّ الله عليك في القرآن، فَشَكَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتِيلِ وَغُقْدَةَ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ غُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ، يَكُونُ لَهُ رِذَاءً، وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ. فَأَتَاهُ اللَّهُ سُؤْلَهُ، وَحَلَّ غُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَارُونَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ. فاندفع موسى بَعْضَاهُ حَتَّى لَقِيَ هَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَانْطَلَقَا جَمِيعًا إِلَى فِرْعَوْنَ، فَأَقَامَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لَا يُؤَدُّنَ لِهَمَّا، ثُمَّ أُذِنَ لَهُمَا بَعْدَ جِجَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، قَالَ: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ [طه: ٤٧ - ٤٩]. فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ. قَالَ: فَمَا تُرِيدَانِ؟ وَذَكَرَهُ الْقَتِيلَ، فَاعْتَذَرَ بِمَا قَدْ سَمِعْتَ. قَالَ: أَرِيدُ أَنْ تَوْفِيَا بِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَبَى عَلَيْهِ وَقَالَ: ﴿فَأَنْتَ بِتَائِيَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَوَازَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى عَظِيمَةً فَاعْرَضَ فَاها، مُسْرَعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ. فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنَ قَاصِدَةً إِلَيْهِ خَافَهَا، فَاقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ وَاسْتَعَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكْفُمَهَا عَنْهُ. ففعل، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جِيْبِهِ فَرَأَاهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ - يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ - ثُمَّ رَدَّهَا فَعَادَتْ إِلَى لُونِهَا الْأَوَّلِ. فَاسْتَشَارَ الْمَلَأَ حَوْلَهُ فِيمَا رَأَى، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا إِنْ سَاحَرَانِ ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكَ مِنَ الْثَلْثِ﴾ [طه: ٦٣] - يَعْنِي مُلْكُهُمُ الَّذِي هُمَ فِيهِ وَالْعَيْشُ - فَأَبَوْا عَلَى مُوسَى أَنْ يَعْطُوهُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ، وَقَالُوا لَهُ: اجْمَعْ لِهَمَّا السَّحْرَةَ، فَإِنَّهُمْ بَارِضُكَ كَثِيرٌ حَتَّى تَغْلِبَ بِسِحْرِكَ بِسِحْرِهِمَا. فَارْسَلْ إِلَى الْمَدَائِنِ فَحْشِرْ لَهُ كُلَّ سَاحِرٍ مُتَعَالِمٍ، فَلَمَّا أَتَوْا فِرْعَوْنَ قَالُوا: بِمِ يَعْمَلُ هَذَا السَّاحِرُ؟ قَالُوا: يَعْمَلُ بِالْحَيَاتِ. قَالُوا: فَلَا وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ يَعْمَلُ بِالسَّحْرِ بِالْحَيَاتِ وَالْحَبَالِ وَالْعَصِيِّ الَّذِي نَعْمَلُ. وَمَا أَجْرُنَا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا؟ قَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ أَقَارِبِي وَخَاصَّتِي، وَأَنَا صَانِعُ إِلَيْكُمْ كُلِّ شَيْءٍ أَحَبِّتُمْ. فَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزَّيْنَةِ، ﴿وَأَنْ يَحْشُرَ الْآخَرُ شُعْبًا﴾ [طه: ٥٩].

قال سعيد بن جبير: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ يَوْمَ الزَّيْنَةِ الْيَوْمَ الَّذِي أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَالسَّحْرَةَ، هُوَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْطَلِقُوا فَلْنَحْضُرْ هَذَا الْأَمْرَ، ﴿لَمَّا نَبَّيْتُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْقَلِيلِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ اسْتَهْزَأَ بِهِمَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى - لَقَدْزَنَيْتُمْ بِسِحْرِهِمْ - ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونُ نَحْنُ الْمُثْقَلِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]. ﴿قَالَ بَلْ أَفْتُوا﴾ [طه: ٦٦]. ﴿فَأَلْفُوا بِهَاجِلِهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. فَرَأَى مُوسَى مِنْ سِحْرِهِمْ مَا أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ ﴿أَنْتَ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فَلَمَّا أَلْقَاهَا صَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمَةً فَاعْرَضَ فَاها، فَجَعَلَتِ الْعَصِيَّ تَلْتَبِسُ بِالْحَبَالِ حَتَّى صَارَتْ جَزْرًا إِلَى الثُّعْبَانِ تَدْخُلُ فِيهِ، حَتَّى مَا أَبْقَتْ عَصَا وَلَا خَبَلًا إِلَّا ابْتَلَعَتْهُ، فَلَمَّا عَرَفَ السَّحْرَةَ ذَلِكَ قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَمْ يَبْلُغْ مِنْ سِحْرِنَا كُلِّ هَذَا، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَّا بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَتُثَوِّبُ إِلَى اللَّهِ مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ. فَكَسَّرَ اللَّهُ ظَهْرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَأَشْيَاعِهِ، وَظَهَرَ الْحَقُّ، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٧] فَتَلَبَّوْا هُنَاكَ وَأَقْبَلُوا صَغِيرِينَ ﴿١٨﴾ [الأعراف: ١١٨]، وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بَارِزَةً مُتَبَدِّلَةً تَدْعُو اللَّهَ بِالنَّصْرِ لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، فَمَنْ رَأَاهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ظَنَّ أَنَّهَا إِنَّمَا ابْتَدَلَتْ لِلشَّفَقَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ حُزْنُهَا وَهَمُّهَا لِمُوسَى.

فلما طال مُكُثُّ مُوسَى بِمَرَايِدِ فِرْعَوْنَ الكاذبة، كُلُّمَا جَاءَ بَايَةٌ وَعَدَهُ عِنْدَهَا أَنْ يُرْسِلَ معه بني إسرائيل، فإذا مضت أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ وقال: هل يستطيع رَبُّكَ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ هَذَا؟ فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَى قَوْمِهِ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَّلاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُرُ إِلَى مُوسَى وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفُفَهَا عَنْهُ، وَيُؤَاتِيهِ عَلَى أَنْ يُرْسِلَ معه بني إسرائيل، فإذا كُفِّ ذلك عنه أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ، وَنَكَثَ عَهْدَهُ. حتى أَمَرَ اللهُ موسى بالخروج بقومه فَخَرَجَ بهم ليلاً، فلما أَصْبَحَ فِرْعَوْنُ ورأى أَنَّهُمْ قد مَضُوا أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، فَتَبِعَهُ بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٍ، وَأَوْحَى إِلَى الْبَحْرِ؛ إِذَا ضَرَبَكَ عَبْدِي مُوسَى بِعَصَاهُ فَانْفَلِقْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً، حتى يَجُوزَ موسى وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ اتَّقَ عَلَى مَنْ يَبْقَى بَعْدُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ. فَتَنَبَّأَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِالْعَصَا، وَانْتَهَى إِلَى الْبَحْرِ وَلَهُ قَصِيفٌ مَخَافَةً أَنْ يَضْرِبَهُ مُوسَى بِعَصَاهُ وَهُوَ غَافِلٌ قَيْصِرٌ عَاصِيًا لِلَّهِ.

فلما تراءى الجمعان وَتَقَارَبَا، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] افْعَلْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ تَكْذِبْ: قَالَ: وَعَدَنِي إِذَا أَتَيْتُ الْبَحْرَ انْفَرَقَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً حَتَّى أَجَاوِزَهُ. ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَصَا، فَضَرَبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ حِينَ دَنَا أَوَائِلُ جُنْدِ فِرْعَوْنَ مِنْ أَوَاخِرِ جُنْدِ مُوسَى، فَانْفَرَقَ الْبَحْرُ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ وَكَمَا وَعَدَ مُوسَى، فَلَمَّا أَنْ جَاوزَ مُوسَى وَأَصْحَابُهُ كُلَّهُمُ الْبَحْرَ، وَدَخَلَ فِرْعَوْنُ وَأَصْحَابُهُ، التَقَى عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ كَمَا أَمَرَ، فَلَمَّا جَاوَزَ مُوسَى الْبَحْرَ قَالَ أَصْحَابُهُ: إِنَّا نَخَافُ أَنْ لَا يَكُونَ فِرْعَوْنُ غَرِقَ وَلَا نُؤْمِنُ بِبَهْلَاكِهِ. فَدَعَا رَبُّهُ فَأَخْرَجَهُ لَهُ يَبْدِيهِ حَتَّى اسْتَقْبَلُوهُ بِبَهْلَاكِهِ. ثُمَّ مَرُّوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى قَوْمٍ يَعْبُكُونُ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴿قَالُوا يَنْتَهِسُوا أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ [١٧٨] إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَكَلِيلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الاعراف: ١٣٨، ١٣٩]، قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَسَمِعْتُمْ مَا يَكْفِيكُمْ وَمَضَى. فَانْزَلَهُمُ مُوسَى مِنْزَلًا وَقَالَ: أَطِيعُوا هَارُونَ فَإِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي. وَأَجْلَلَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فِيهَا. فَلَمَّا أَتَى رَبُّهُ وَأَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَقَدْ صَامَهُنَّ لَيْلَهُنَّ وَنَهَارُهُنَّ، وَكَرِهَ أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ وَرِيحٌ فِيهِ - رِيحٌ فَمِ الصَّائِمِ - فَتَنَاولَ مُوسَى مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ شَيْئًا فَمَضَغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ حِينَ أَتَاهُ: لِمَ أَفْطَرْتَ؟ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِالَّذِي كَانَ - قَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَكَلِّمَكَ إِلَّا وَفِي طَيْبِ الرِّيحِ. قَالَ: أَوْ مَا عَلِمْتَ يَا مُوسَى أَنَّ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، ارْجِعْ فَصُمْ عَشْرًا ثُمَّ أَتِنِي. فَفَعَلَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا أَمَرَ بِهِ.

فَلَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي الْأَجَلِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ. وَكَانَ هَارُونَ قَدْ خَطَبَهُمْ وَقَالَ: إِنَّكُمْ قَدْ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ، وَلَقَوْمُ فِرْعَوْنَ عِنْدَكُمْ عَوَارِي وَوَدَائِعُ، وَلَكُمْ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَأَنَا أَرَى أَنَّكُمْ تَحْتَسِبُونَ مَا لَكُمْ عَنْدهُمْ، وَلَا أَحُلُّ لَكُمْ وَدِيعَةً اسْتَوْدِعْتُمُوهَا وَلَا عَارِيَةً، وَلَسْنَا بِرَافِئِينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا مُنْصِيكِيهِمْ لَأَنْفُسِنَا، فَخَفَّرَ خَفِيرًا، وَأَمَرَ كُلَّ قَوْمٍ عَنْدهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ جَلِيَّةٍ أَنْ يَقْدِفُوهُ فِي ذَلِكَ الْخَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَحْرَقَهُ، فَقَالَ: لَا يَكُونُ لَنَا وَلَا لَهُمْ. وَكَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ جِيرَانِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا، فَقَضَى لَهُ أَنْ رَأَى أَثَرًا فَقَضَى مِنْهُ قَبْضَةً، فَمَرَّ بِهَارُونَ، فَقَالَ لَهُ هَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: يَا سَامِرِيُّ، أَلَا تُلْقِي مَا فِي يَدِكَ؟ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ، فَقَالَ: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثَرِ الرِّسُولِ الَّذِي جَاوَزَ بِكُمْ الْبَحْرَ، وَلَا أَلْقِيهَا لِشَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَذْهَبُوا اللَّهُ إِذَا أَلْقَيْتُهَا أَنْ يَكُونَ مَا أُرِيدُ. فَالْقَاهَا، وَدَعَا لَهُ هَارُونَ، فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عِجْلًا. فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الْخَفِيرَةِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ جَلِيَّةٍ أَوْ نَحَاسٍ أَوْ حديدٍ، فَصَارَ عِجْلًا أَجُوفًا، لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ، لَهُ خَوَارٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لَهُ صَوْتُ قَطُّ، إِنَّمَا كَانَتِ الرِّيحُ تَدْخُلُ فِي دُبُرِهِ وَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، فَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ. فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرْقَةً، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: يَا سَامِرِيُّ، مَا هَذَا؟ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ. قَالَ: هَذَا رَبُّكُمْ، وَلَكِنْ مُوسَى أَضَلَّ الطَّرِيقَ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا نَكْذِبُ بِهَذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَإِنْ كَانَ رَبَّنَا لَمْ نَكُنْ ضَلَعَيْنَاهُ وَعَجَزْنَا فِيهِ

حين رأينا وإن لم يكن زينا فإننا ننتج قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس برزنا ولا تؤمن به ولا تصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأغلثوا التَّكْذِيبَ به، فقال لهم هارون: ﴿يَقُولُ إِنَّمَا فَتِنَتْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: ٩٠] وليس هكذا. قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا؟ هذه أربعون يوماً قد مضت. وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه. فلما كلم الله موسى وقال له ما قال: أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، فقال لهم ما سمعتم في القرآن، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَافُوا اللَّهَ﴾ [الاعراف: ١٥٠]، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له، وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وقطنت لها وعُميت عليكم، ﴿فَبَدَّلْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ﴿١٥١﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْجِدًا لَنْ تُغْلَبَهُمُ وَإِنَّ إِلَهُكَ إِلَهُهُمُ فَلَمَّا كَلَّمَهُ لَمْ تَكُنْ فِي يَسَّرٍ لَهِّلَ لَكَ بَعْدُ وَكَانَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتنبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألو الخير خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَرَأَيْتَ أَتَيْنَاكَ بِمَا قَدَّرَ أَسْفَهًا وَمَآ﴾ [الاعراف: ١٥٥]، وفيهم من كان الله أطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَفَسَّحْنَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ دُورَهُمُ الْكَوْكُورَةِ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الْقِيَامَةِ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٦ - ١٥٧]. فقال: يا رب، سالتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبها لقوم غير قومي، فلينت أخرجني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة. فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والدٍ وولدٍ، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون وأطلع الله من ذنوبهم فاعتزفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى - عليه السلام - متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكّت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمره به أن يبلغهم من الوظائف، فتقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقرؤا بها، فتنت الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيامهم وهم مضطربون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر - وذكرنا من يمارهم أمراً عجيباً من عظمها - فقالوا: ﴿يَكُونُ إِذْ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ﴾ لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنَّا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم، من الجبارين - آمنا بموسى. وخزجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا، إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ويقول أناس: إنهما من قوم موسى - فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: ﴿يَكُونُ إِذْ لَوْ تَدَخَّلْنَا بِدَايَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَوَدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾. فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما

رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذٍ فاستجاب الله تعالى له، وسَمَّاهم كما سَمَّاهم موسى: فاسقين، فَحَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ، يُصِيبُحُونَ كُلَّ يَوْمٍ فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ. ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْقَمَامَ فِي الثَّيِّهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَجَعَلَ لَهُمْ ثِيَابًا لَا تَبْلَى وَلَا تَتَشَيخُ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ حَجَرًا مَرْبُوعًا، وَأَمَرَ مُوسَى فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ، ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَجْمًا﴾ [البقرة: ٦٠]، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلَاثُ أَعْيُنَ، وَأَعْلَمَ كُلَّ سَبِيحٍ عَيْنُهُمُ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا، فَلَا يَزْتَحِلُّونَ مِنْ مَرَحَلَةٍ إِلَّا وَجَدُوا ذَلِكَ الْحَجَرَ بَيْنَهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالْأَمْسِ. رَفَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَصَدَّقَ ذَلِكَ عِنْدِي أَنَّ مَعَاوِيَةَ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ حَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الْفِرْعَوْنِي الَّذِي أَفْشَى عَلَى مُوسَى أَمْرَ الْقَتِيلِ الَّذِي قُتِلَ، فَقَالَ: كَيْفَ يُفْشِي عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ عَلِيمًا بِهِ وَلَا ظَهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي خَضَرَ ذَلِكَ؟ فَقَضِبَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَأَخَذَ يَبْدُو مُعَاوِيَةَ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَالِكِ الزُّهْرِيِّ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، هَلْ تَذْكُرُ يَوْمَ حَدَّثْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتِيلِ مُوسَى الَّذِي قُتِلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ؟ الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي أَفْشَى عَلَيْهِ أَمُ الْفِرْعَوْنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَفْشَى عَلَيْهِ الْفِرْعَوْنِي بِمَا سَمِعَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ وَخَضَرَهُ^(١). هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ النَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى»، وَأَخْرَجَهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِيهِمَا، كُلُّهُمَا مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ، بِهِ. وَهُوَ مَوْقُوفٌ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِيهِ مَرْفُوعٌ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُ، وَكَانَهُ تَلَقَّاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِمَّا أُبِيحَ نَقْلُهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَنْ كُفَّابِ الْأَحْبَارِ أَوْ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْحَافِظَ أَبَا الْحَجَّاجِ الْمِزْنَِي يَقُولُ ذَلِكَ أَيْضًا.

﴿فَلَيْسَتْ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤْنَ ﴿٤١﴾ وَأَصْطَفَيْنَكَ لِنَفْسِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَلَوْكَ يَتَابِقِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٣﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٤﴾ يَخْشَى ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى - عليه السلام -: إِنَّهُ لَبِثَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَارَاَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، يَزْعَى عَلَى صَهْرِهِ، حَتَّى انْتَهتِ الْمُدَّةُ وَانْقَضَى الْأَجَلُ، ثُمَّ جَاءَ مُوَافِقًا لِقَدَرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ الْمُسْتَرِ عِبَادَهُ وَخَلَقَهُ فِيمَا يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ عَلَى مَوْعِدٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤْنَ﴾، قَالَ: عَلَى قَدَرِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَصْطَفَيْنَكَ لِنَفْسِي﴾^(١)، أَيُّ: أَصْطَفَيْتُكَ وَاجْتَبَيْتُكَ رَسُولًا لِنَفْسِي، أَيُّ: كَمَا أُرِيدُ وَأَشَاءُ.

[٤٥٤٥] وَقَالَ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: حَدَّثَنَا الصُّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ، حَدَّثَنَا

(١) أَخْرَجَهُ بَطْوَلُهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْكُبْرَى» ١١٣٢٦ وَأَبُو يَعْلَى ٢٦١٨ وَالطَّبْرِيُّ ٢٤١٣١ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهُوَ مَوْقُوفٌ، لَيْسَ فِيهِ مَرْفُوعٌ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُ، وَفِيمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ نَظَرَ، فَإِنَّ الرَّاهِي ذَكَرَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَفَعَ هَذَا الْحَدِيثَ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلِّ الْحَدِيثِ. وَالْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ بِكُلِّ حَالٍ مَدَارُهُ عَلَى أَصْبَغِ بْنِ زَيْدٍ، جَاءَ فِي «الْمِيزَانِ» ١٠١٠: وَثَقَهُ يَحْيَى، وَقَالَ النَّسَائِيُّ: لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ، وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ: ثَقَّةٌ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ وَقَدْ سَأَلَ لَهُ ثَلَاثَةَ أَحَادِيثَ: وَهَذِهِ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ، وَهُوَ رَاوِي حَدِيثِ الْفَتُونِ. وَزَادَ الْحَافِظُ فِي التَّهْذِيبِ ٦٥٦/١: وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: شَيْخٌ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: مَا بِحَدِيثِهِ بَأْسٌ، وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: كَانَ ضَعِيفًا فِي الْحَدِيثِ، وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ: كَانَ يُحْطَى كَثِيرًا، لَا يَجُوزُ الْإِحْتِجَاجُ بِغَيْرِهِ إِذَا انْفَرَدَ، وَقَالَ مُسْلِمَةُ بْنُ قَاسِمٍ: لَيْتَنِي، لَيْسَ بِحُجَّةٍ أَهْلٌ فَيُتَخَصَّصُ بِهَذَا أَنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى تَوْحِيدِهِ، وَأَنَّهُ إِلَى الضَّعْفِ أَقْرَبُ، وَلَمْ يَتَابِعْهُ هَلْ هَذَا الْحَدِيثُ أَحَدٌ، فَالْمَرْفُوعُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ سِوَاهُ بَعْضُهُ، أَوْ كُلُّهُ، وَأَمَّا كَوْنُهُ مَوْقُوفًا، فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ، فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، رَوَى أَشْيَاءَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ كَثِيرٍ هَهُنَا، وَكَذَا شَيْخُهُ الْمَزِّي، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته، واصطفاك لنفسيه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فتحج آدم موسى^(١). أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكَ بَنَاتِي﴾، أي: بحججي وبراهمني ومعجزاتي، ﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تبطلنا. وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تضعفا. والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكran الله في حال مواجهة فزعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له؛ كما جاء في الحديث:

[٤٥٤٦] «إِنْ عَبْدِي كُلِّ عَبْدِي لِلَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُتَاجِرُ قَرْنِهِ»^(٢). ﴿أَذْهَبَا إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، أي: تمرد وعنا وتجهرم على الله وعصاه، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ لَكَ لَنَا لَعْلَمْ يَذْكُرْ أَوْ يَخْشَى﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فزعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمِرَ ألا يخاطب فزعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ﴾: يا مَنْ يتحَبَّبُ إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاّه ويتناهى؟ وقال وهب بن منبه: قولاً له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى العصب والعتوية. وعن عكرمة في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ﴾، قال: لا إله إلا الله. وعن عمرو بن عبّيد، عن الحسن البصري: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ﴾: أغذرا إليه، قولاً له: إنّ لك ربّاً، ولك معاداً، وإنّ بين يديك جنة وناراً. وقال بقیة، عن علي بن هارون، عن رجل، عن الضحاک بن مزاحم، عن الثّوّال بن سبرة، عن علي في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ﴾، قال: كنّه. وكذا روي عن سفيان الثوري: كنّه بأبي مرّة. والحاصل من أقوالهم أنّ دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْظِعِ الْحَسَنِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِهِ أَحْسَنَ﴾ [النحل: ١٢٥]... الآية. وقوله: ﴿لَعْلَمْ يَذْكُرْ أَوْ يَخْشَى﴾، أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يَخْشَى﴾، أي: يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْجُو أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، فالتذكّر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة. وقال الحسن البصري: ﴿لَعْلَمْ يَذْكُرْ أَوْ يَخْشَى﴾، يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أغفلك، قبل أن تعذرا إليه.

وها هنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويؤيّد لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق: وأنت الذي من فضل من ورّحمة
بعتت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له: فاذهب وهازون فادعوا
إلى الله فروع الذي كان باغيا
فقلوا له: هل أنت سويت هذه
بلا وتد حتى استقلت كما هيّا
وقلوا له: أنت رفعت هذه
بلا عمد؟ أرفق إذا بك بانيا
وقلوا له: أنت سويت وسطها
مُنيرا إذا ما جئت الليل هاديا
وقلوا له: من يخرج الشمس بكرة
فيصبح ما مسّت من الأرض ضاحيا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٦ ومسلم ٢٦٥٢ من طريق ابن سيرين به.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٥٨٠ من حديث عمارة بن زعكرة وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوي اهـ. قلت: فيه عفير بن معدان، وهو ضعيف الحديث.

وقولاً له: مَنْ يُنْبِئُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي زُرُوسِهِ
فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِياً؟
فَفِي ذَٰكَ آيَاتٌ لِّمَنْ كَانَ وَاعِياً

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦)
فَأَنبَأَهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ
مَنْ أَتْبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨) ﴿

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون - عليهما السلام - أنهما قالَا مُسْتَجِيرِينَ بِاللَّهِ شَاكِيَيْنِ إِلَيْهِ: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ، يعنيان أن يَنْدَرُ إليهما بِمَقْرُوبَةٍ ، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك . قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَنْ يَقْرُطَ﴾ : يَعْجَلُ . وقال مجاهد: يَنْسَطُ علينا . وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ : يَغْتَدِي . ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ، أي : لا تخافا منه ، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفي عليّ من أمركم شيء ، واعلما أن ناصيته يدي ، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبتسط إلا بإذني وبعد أمري ، وأنا معكما بحفظي ونضري وتأيدي .

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّنَافِيسِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبُو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مَرْة ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله قال: لما بعث الله - عز وجل - موسى إلى فِرْعَوْنَ قال: رَبِّ ، أَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ؟ قال: قُلْ: هِيَ شَرُّ هِيَ . قال الأعمش: تَفْسِيرُ ذَلِكَ . الْحَيُّ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْحَيُّ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ (١) . إسناده جيد ، وشيء غريب . ﴿فَأَنبَأَهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ، قد تقدّم في حديث «الفُتُون» عن ابن عباس أنه قال: مكنا على بابِه حيناً لا يؤذُنُ لهما ، ثم أذن لهما بعد حجابٍ شديد .

وذكر مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ موسى وأخاه هارونَ خرجا فوقفا بِيَابِ فِرْعَوْنَ يَلْتَمِسَانِ الْإِذْنَ عَلَيْهِ وهما يَقُولَانِ: إِنَّا رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأَذِنُوا بِنَا هَذَا الرَّجُلُ . فمكنا فيما بلغني ستين يَغْدُوَانِ وَيَرُوحَانِ ، لا يعلم بهما ولا يجترئ أحدٌ على أن يُخْبِرَهُ بشأنهما ، حتى دخل عليه بَطَالٌ لَهُ يَلَاعِبُهُ وَيُضْحِكُهُ ، فقال له: أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ عَلَى بَابِكَ رَجُلًا يَقُولُ قولاً عجباً ، يزعم أن له إلهاً غيرَكَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكَ . قال: ببابي؟ قال: نعم . قال: أَدْخِلُوهُ . فَدْخَلَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ وَفِي يَدِهِ عَصَاهُ ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى فِرْعَوْنَ قال: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَعَرَفَهُ فِرْعَوْنُ . وذكر السدّي أنه لما قَدِمَ بِلَادَ مِصْرَ ، ضَافَ أُمَّهُ وَأَخَاهُ وهما لا يَعْرِفَانِهِ ، وَكَانَ طَعَامُهُمْ لِيَلْتَبِذَ الطَّفِيشِلَ وَهُوَ اللَّفْتُ ، ثُمَّ عَرَفَاهُ وَسَلَّمَا عَلَيْهِ ، فقال موسى: يَا هَارُونُ ، إِنْ رَبِّي قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَتِيَ هَذَا الرَّجُلَ فِرْعَوْنَ فَادْعُوهُ إِلَى اللَّهِ ، وَأَمْرٌ أَنْ تُعَاوَنَنِي . قال: افْعَلْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ . فذَهِبَا ، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلًا ، فَضَرَبَ موسى بَابَ الْقَصْرِ بِعَصَاهُ ، فَسَمِعَ فِرْعَوْنُ فَغَضِبَ وقال: مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ؟ فَأَخْبَرَهُ السُّدَنَةُ وَالْبَوَايُونَ أَنَّ هُنَا رَجُلًا مَجْنُونًا يَقُولُ: «إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ» . فقال: عَلَيَّ بِهِ . فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ .

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ ، أي: بِدَلَالَةٍ وَمُعْجَزَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتْبَعَ الْهُدَى﴾ ، أي: وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ إِنْ أَتْبَعْتَ الْهُدَى .

[٤٥٤٧] ولهذا لما كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرْقَلٍ عَظِيمِ الرُّومِ كِتَاباً ، كَانَ أَوَّلُهُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرحيم، من محمد رسول الله إلى هِرْقُلَ عظيم الروم، سلام على من اتَّبَعَ الْهُدَى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فَأَسْلِمَ تَسْلَمَ يُوْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»^(١).

[٤٥٤٨] وكذلك لما كَتَبَ مُسَيْلِمَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كِتَاباً صُورَتُهُ: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. فإني قد أَشْرِكْتُ في الأمر مَعَكَ، فَلكَ الْمَدْرُ وَلِي الْوَيْزُ، ولكن قُرَيْشاً قَوْمٌ يَعْتَدُونَ». فكتب إليه رسولُ الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكَذَّاب، سلام على من اتَّبَعَ الْهُدَى، أما بعد فَإِنَّ الْأَرْضَ لله يَوْمُئِثُهَا من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»^(٢). ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون: ﴿وَأَسْلَمَ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْمَلَكُ (١٧) إِنَّا قَدْ أُرِئِيَ إِنَّا أَنْ الْمَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٨)﴾، أي: قد أَخْبَرَنَا اللهُ فيما أوحاه إلينا من الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ أَنَّ الْعَذَابَ مُتَمَحْضٌ لِمَنْ كَذَّبَ بآيات الله وتَوَلَّى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ هَمَّ (١٧) وَآثَرَ الْمَلِئَةَ الدُّنْيَا (١٨) فَلَهُ الْكَبِيمَ (١٩)﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلَكَّنَّ (١٩) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (٢٠) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٢١)﴾ [الليل: ١٤ - ١٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَا سَفَكٌ وَلَا مَلَكٌ (٢١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٢٢)﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٢]، أي: كَذَّبَ بِقَلْبِهِ وَتَوَلَّى بِفِعْلِهِ.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُتِمُّونَ (٢٢) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٢٣)﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٢٤) قَالَ عِلْمُهُمَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَحْصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٢٥)﴾

يقول تعالى مخبراً عن فِرْعَوْنَ أنه قال لموسى مُنْكَرًا وَجُودَ الصَّانِعِ الْخَالِقِ، إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبِّهِ وَمَلِيكِهِ، قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يُتِمُّونَ﴾، أي: الذي بعثك وأرسلك مَنْ هو؟ فإني لا أعرفه، وما عَلِمْتُ لَكُمْ من إِلَهٍ غَيْرِي، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٢٣)﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، يقول: خَلَقَ لكل شيء رَوْجَةً. وقال الضحاك، عن ابن عباس: جَعَلَ الْإِنْسَانَ إِنْسَانًا، والحمَارَ حِمَارًا، والشاة شاة. وقال لَيْثُ بن أبي سُلَيْمٍ، عن مجاهد: أعطى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: سَوَى خَلْقَ كُلِّ دَابَّةٍ. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، قال: أعطى كُلَّ ذِي خَلْقٍ مَا يُصْلِحُهُ من خَلْقِهِ، ولم يجعل للإنسان من خَلْقِ الدابة، ولا للدابة من خَلْقِ الْكَلْبِ، ولا للكلب من خَلْقِ الشاة، وأعطى كُلَّ ذِي شَيْءٍ ما ينبغي له من النكاح، وهيًا كُلَّ شَيْءٍ على ذلك، ليس شيء يشبه شيئاً من أفعاله في الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالنِّكَاحِ. وقال بعضُ المفسرين: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَنَّا (٢٤)﴾ [الأعلى: ٣]، أي: قَدَّرَ قَدْرًا، وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، أي: كَتَبَ الْأَعْمَالَ وَالْأَجَالَ وَالْأَرْزَاقَ، ثم الْخَلَائِقَ مَا شَوْنٌ على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدِّرون أَحَدًا على الخروج منه. يقول: رَبُّنَا الَّذِي خَلَقَ، وَقَدَّرَ الْقَدْرَ، وَجَبَّلَ الْخَلِيقَةَ على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٢٤)﴾، أصحُّ الأقوال في معنى ذلك أَنَّ فِرْعَوْنَ لما أَخْبَرَهُ مُوسَى بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ هو الذي خَلَقَ وَرَزَقَ وَقَدَّرَ فَهَدَى، شَرَعَ يَحْتَجُّ بِالْقُرُونِ الْأُولَى، أي: الذين لم يَعْبُدُوا الله، أي: فما بِالْهُم إِذْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ لم يَعْبُدُوا رَبَّكَ، بل عْبَدُوا غَيْرَهُ؟ فقال له موسى في جَوَابِ ذلك: هُمْ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ، فَإِنَّ عَمَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ مَضْبُوطٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ فِي كِتَابِ اللهِ، وهو اللَوْحُ الْمَحْفُوظُ وَكِتَابُ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧ وقد تقدم.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢٠٩/١ في أثناء خبر طويل عن ابن عباس والمسور بن رفاعه وعمرو بن أمية وغيرهم، وفي الإسناد الواقدي، وهو إمام في المغازي لكنه واهي الحديث، ولكن الشواهد تعضده.

الاعمال، ﴿لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾، أي: لا يتيسد عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعثر به نقصانان، أحدهما: عَدَمُ الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقٍ ۝٥٣﴾ ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَأُولِي النُّعَى ۝٥٤﴾ ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاهُ وَمِنَّا نُعِيدُهُ وَمِنَّا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝٥٥﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُمْ كُلَّهَا فَكَذَّبُوا وَأَنَّى ۝٥٦﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه - عز وجل - حين سأله فزعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَنْطَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾^(١)، وفي قراءة بعضهم: ﴿مَهْدًا﴾، أي: قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسايقرون على ظهرها، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَالًا مَسْجُودًا لَكُمْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقٍ﴾. أي: من ألوان النباتات من زروع وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع. ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لانعامكم لأقواتها خضراً ويابساً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، أي: لدلالات وحججاً وبراهين ﴿لَأُولِي النُّعَى﴾، أي: ليدوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه. ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاهُ وَمِنَّا نُعِيدُهُ وَمِنَّا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝٥٥﴾، أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أبائكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَمِنَّا نُعِيدُهُمْ﴾، أي: وإليها نصيرون إذا مِتُّم وبليثم، ﴿وَمِنَّا نُخْرِجُهُمْ﴾، ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء: ٥٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنَّا تُخْرَجُونَ ۝٥٧﴾ [الأعراف: ٢٥].

[٤٥٤٩] وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دُفِن الميت أخذ قبضة من الثراب فألقاها في القبر ثم قال: ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاهُ﴾. ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَمِنَّا نُعِيدُهُمْ﴾. ثم أخرى وقال: ﴿وَمِنَّا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُمْ كُلَّهَا فَكَذَّبُوا وَأَنَّى ۝٥٦﴾، يعني فزعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاین ذلك وأبصره، فكذب بها وأبامها كُفراً وعناداً ونغيًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَ وَاسْطَيْتِنَاهُمْ ظُلُمًا وَطُورًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝٥٧﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ۝٥٧﴾ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ۝٥٨﴾ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ صُفْحَى ۝٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فزعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر، جئت لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثروا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرِكَ، فلا يغتر بك ما أنت فيه، ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾، أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكانٍ مُعَيَّن ووقتٍ مُعَيَّن. فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، وهو يوم عيدهم

وَتُورِزُهُمْ وَتَفَرِّغُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ واجتماعهم جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومُعْجَزَاتِ الأنبياء، ويطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾، أي: جميعهم ﴿شَيْئاً﴾، أي: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح. وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح بين، ليس فيه خفاء ولا ترويع. ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً ضحى. قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء. وقال السدي، وقتاده، وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبير: يوم سوقهم. ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فزعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح^(١). وقال وهب بن ميثبه: قال فزعون: يا موسى، اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى: لم أؤمر بهذا، إنما أُمِرْتُ بِمَنَاجِرَتِكَ، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له أن يجعل هو. قال فزعون: اجعله إلى أربعين يوماً. ففعل. وقال مجاهد، وقتاده: ﴿مَكَا سُوءٍ﴾، قال: منصفاً. وقال السدي: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَكَا سُوءٍ﴾: يتبين الناس ما فيه، لا يكون صوب ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض، مستريح حين يرى.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ١١٠ ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَايْلَكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَرَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ ١١١ ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ ١١٢ ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطِرْفَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ١١٣ ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَفْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ ١١٤

يقول تعالى مخبراً عن فزعون أنه لما تواعد هو وموسى - عليه السلام - إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من نُسب إلى سحر في ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَشْفِينِ بِكُلِّ سَاحِرٍ ظَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]. ثم أتى، أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فزعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى - عليه السلام - يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فزعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم، ويوعبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنّيهم، فيقولون: ﴿إِنَّا لَأَكْبَرُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [١١٣] قَالَ نَعَمْ وَإِلَكُمْ لَوْنُ الْمُقَرَّبِينَ [١١٤] [الأعراف: ١١٣ - ١١٤]. ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَايْلَكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: لا تسحروا للناس بأعمالكم لإيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيَسْحَرَكُم بِعَذَابٍ﴾، أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقیة له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ [١١١] فَنَزَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ، قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقاتل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك. والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾، أي: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدَانِ﴾، هذه لغة لبعض العرب جاءت هذه القراءة على إعرابها. ومنهم من قرأ: (إن هذين لساحران)، وهذه اللغة المشهورة. وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه. والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران

(١) يأتي عند الآية ٨٢، والمراد يوم عاشوراء.

بِصَنَاعَةِ السَّحَرِ، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقويكم ويستوليا على الناس، وتبعيهما العامة ويقَاتِلَا فِرْعَوْنَ وجنوده، فينتصرا عليه ويُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ. وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾، أي: ويستبدأ بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا مُعْظَمِينَ بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفرّدا بذلك، وتمحّضت لهما الرياسة بها دونكم. وقد تقدّم في حديث الفتون عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾، يعني: مُلْكُهُم الذي هم فيه والعيش. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ثَعْمَانُ بْنُ حَمَادٍ، حدثنا هُشَيْمٌ، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سَمِعَ الشَّعْبِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾، قال: يَضْرِفَانِ وَجْهَ النَّاسِ إِلَيْهِمَا. وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾: قال: أُولَى الشَّرِّ وَالْعَقْلِ وَالْإِنْسَابِ. وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾: أشرافكم وسروراتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أَكْثَرَ الْقَوْمِ عِدْدًا وَأَمْوَالًا، فقال عدو الله: يُريدان أن يذهبا بها لأنفسهما. وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾، بالذي أنتم عليه. وقوله: ﴿فَاتَّجَمُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتَرُوا صَفًّا﴾، أي: اجتمعوا كلُّكم صفًّا واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَقَلَّ﴾، أي: منّا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تَتْلِي وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخِيَلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى ٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٦٧ فَلَمَّا لَا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِلَى ٦٨ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى ٦٩ فَالْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَا بِرَبِّ هَٰؤُلَاءِ وَمُوسَى ٧٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى - عليه السلام - أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تَتْلِي﴾، أي أنت أولاً. ﴿وَلِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾، أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جليّة أمرهم، ﴿فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخِيَلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى﴾. وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا قالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْزِئُوا بِهِمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]: وقال ها هنا: ﴿فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخِيَلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى﴾. وذلك أنهم أودعوا من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يُخِيلُ لِلنَّاسِ أَنَّهَا تَسَعَى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جنماً غفيراً وجمعاً كبيراً، فالقى كلُّ منهم عصاً وحبلًا، حتى صار الوادي ملأً حياث يركب بعضها بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٦٧﴾، أي: خاف على الناس أن يفشيئوا بسحرهم ويفتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراحنة أن ﴿وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ﴾، يعني عصاه، فإذا هي تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا، وذلك أنها صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ذا عيون وقوائم وعقن ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم يَبْقَ مِنْهَا شَيْئٌ إِلَّا تَلَقَّفَتْه وابتلغته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جَهْرَةً، نَهَاراً ضَحْوَةً. فقامت المعجزة، وأتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى﴾.

[٤٥٥٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن موسى الشيباني، حدثنا حماد بن خالد،

حدثنا ابن معاذ - أحسبه الصائغ - عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أخذتم - يعني الساحر فاقتلوه، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُلْقِ السَّاحِرُ جَنْحَ آفٍ﴾»، قال: لا يُؤْمَنُ به حيث وُجِدَ^(١). وقد رَوَى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، عَلِمُوا عَلِمَ اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مِرْيَةَ فيه، ولا يَقْدِر على هذا إلا الذي يقول للشيء كُن فيكون. فعند ذلك وقَعُوا سُجُوداً لله وقالوا: ﴿إِنَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾. [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢]. ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيْد بن عُمَيْر: كانوا أول النهار سَحَرَةً، وفي آخر النهار شُهَدَاءُ بَزَرَةٍ. وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً. وقال القاسم بن أبي بَزَرَةٍ: كانوا سبعين ألفاً. وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً. وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفَيْع، عن أبي ثُمَامَةَ: كان سَحَرَةً فرعون تسعة عشر ألفاً. وقال محمد بن أبي إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً. وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مُحَمَّد بن علي بن حَمْزَةَ، حدثنا علي بن الحسين بن وَاقِدٍ، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً^(٢)، أصبحوا سَحَرَةً وأمسوا شُهَدَاءَ.

قال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْمُسَيَّب بن وَاضِح بمكة، حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَك قال: قال الأوزاعي: لما خَرَّ السَحَرَةُ سُجُوداً رُفِعَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا. قال: وذكر عن سعيد بن سلام: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَيْر. قوله: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُوداً﴾، قال: رَأَوْا مَنَازِلَهُمْ ثَبَتُوا لَهُمْ وَهُمْ فِي سُجُودِهِمْ. وكذا قال عكرمة، والقاسم بن أبي بَزَرَةٍ.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنْ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْذِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَعْفَرَ لَكَ خَطْلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فِرْعَوْنَ وعناده وبغيه ومكابرتِه الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب - شرع في المكابرة والبُهْتِ، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهدهم وأوعدهم، وقال: ﴿آمَنْتُمْ لَمْ﴾، أي: صَدَقْتُمُوهُ ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنْ لَكُمْ﴾، أي: وما أمرتكم بذلك وافتننتم علي في ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بُهَتَ وكذَّبَ: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعييتي لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُذَّبٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْوَيْدَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. ثم أخذ يتهدهم فقال: ﴿فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾، أي: لأجعلنكم مثلة ولاقتلنكم ولأشهرنكم. قال ابن عباس: فكان أول من

(١) الحسن عن جندب، منقطع، لم يسمع منه كما في «مراسل» ابن أبي حاتم ص ٤٢، وتقدم الكلام على ذلك باستيفاء في سورة البقرة، عند الآية ١٠٢.

(٢) الأرقام المتقدمة، فيها ضرب من الخيال، وهذا الوارد عن ابن عباس، هو الأقرب، فلو كانوا آلافاً مولفة لا يجوز لهم الاستسلام بل عليهم مقاتلة فرعون وجنوده. كيف ومعهم نبي من أولي العزم. والله أعلم.

فَعَلْ ذَلِكَ . رواه ابنُ أبي حاتم . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلَّمُنَا آيَاتَنَا أَشَدُّ حَذَاكًا وَابْتِغَاءً ﴾ ، أي : أنتم تقولون : إني وقومي على ضلالة ، وأنتم مع موسى وقوميه على الهدى . فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه . فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم ، هانت عليهم أنفسهم في الله - عز وجل - ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ ، أي : لن نختاركَ على ما حصل لنا من الهدى واليقين . ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ : يحتجّل أن يكون قسماً ، ويحتجّل أن يكون معطوفاً على البيّنات . يعنون : لن نختاركَ على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم ، المبتدئ وخالقنا من الطين ، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت . ﴿ فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ ، أي : فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ، ﴿ إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، أي : إنما لك تسَلُطٌ في هذه الدار ، وهي دار الزوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار . ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَقْفِرَ لَنَا خُلُوعَنَا ﴾ ، أي : ما كان منا من الآثام ، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر ليعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ثَعْمِيمُ بْنُ حَمَادٍ ، حدثنا سفيان بن عُيينة ، عن أبي سَعْدٍ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ ، قال : أخذ فِرْعَوْنُ أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، فأمر أن يُعَلِّمُوا السحر بالقرمات ، وقال : علموهم تعليماً لا يُغْلِبُهم أحدٌ في الأرض . قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى ، الذين قالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَقْفِرَ لَنَا خُلُوعَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ، أي : خيرٌ لنا منك ، ﴿ وَأَبْقَى ﴾ ، أي : أدام ثواباً مما كنت وعدتنا ومثيبتنا . وهو رواية عن ابن إسحاق ، رحمه الله . وقال محمد بن كعب القرظي ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ ، أي : لنا منك إن أطيع ، ﴿ وَأَبْقَى ﴾ ، أي : منك عذاباً إن عصي ، وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً . والظاهر أن فِرْعَوْنَ - لعنه الله - صنم على ذلك وفعله بهم ، رحمه الله . ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء .

﴿ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِمْ تَجَرِماً فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى (٧٥) جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) ﴿

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون ، يُحَذِّرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد ، فقالوا : ﴿ إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ تَجَرِماً ﴾ ، أي : يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم ، ﴿ فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ . كقوله : ﴿ لَا يَفْضَنَ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُغْفَقُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُجْزَى كُلُّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر : ٣٦] ، وقال : ﴿ وَنَجِّنِي الْأَشْفَى (١) الَّذِي يَصَلُّ النَّارَ الْكُبْرَى (٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٣) ﴾ [الاعلى : ١١ ، ١٣] . وقال تعالى : ﴿ وَكَأَنَّا يَدُوكَ لِقَبْضِ عَيْنَيْ رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُم مُّكُونُونَ ﴾ (٧٧) [الزخرف : ٧٧] .

[٤٥٥١] وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا سعيد بن يزيد ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناسٌ نصيبهم النارُ بذنوبهم فتحييهم إمامة ، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة ، فجيء بهم صباير ، فقيثوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا أهل الجنة ، أفيضوا عليهم . فينبئون نبات الحبة تكون في حميل السيل ، فقال رجل من القوم : كان رسول الله ﷺ كان بالبادية^(١) . وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل ، كلاهما عن أبي مسلمة سعيد بن يزيد ، به .

[٤٥٥٢] وقال ابنُ بي حاتم: دُكِرَ عن عبد الوارث بن عبد الصّمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حيّان، سمعتُ سليمان التيمي، عن أبي نُضرة، عن أبي سعيد: أن رسولَ الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ مَن يَأْتِ رَبَّهُ بِحَسَنَةٍ فَإِنَّ لَّهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (٧٧)، قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يَمُوتون فيها ولا يَحْيَوْنَ، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تمسُّهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر، فيؤتى بهم نهراً يقال له: نهرُ الحياة - أو: الحيوان - فينبتون كما ينبتُ الثناء في حَمِيل السَّيْلِ» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِيهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾، أي: ومن لقي ربّه يوم المعاد مؤمناً القلب، قد صدّق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغُرَفِ الآمنات، والمساكن الطيبات.

[٤٥٥٣] قال الإمام أحمد: حدثنا عفّان، أنبأنا همام، حدثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبادة بن الصّاميت، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مئة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس» (٢). ورواه الترمذي، من حديث يزيد بن هارون، عن همام، به.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، أخبرنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه قال: كأن يقال: الجنة مئة درجة، في كلّ درجة مئة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض، فيهنّ الباقوت والحلي، في كلّ درجة أمير، يزورن له الفضل والسؤدد.

[٤٥٥٤] وفي الصحيحين: «إن أهل عليين ليزورن من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (٣).

[٤٥٥٥] وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعماء» (٤). وقوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾، أي: إقامة. وهو بدل من ﴿الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا»، أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن قَرَّبَ﴾، أي: طهر نفسه من الدنّس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وأتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خبر وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَصْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَىٰ﴾ (٧٧)
﴿فَأَنبَهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُجْرَدِهِ فَفَشِلَهُمْ مِنَ الْآيِمِّ مَا عَشِلَهُمْ﴾ (٧٨) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ (٧٩) ﴿

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى - عليه السلام - حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسري

(١) إسناده ضعيف، فهو معلق بصيغة التمريض، والوهن في تفسير الآية، وأما أصل الحديث ففي الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٥٣١ وأحد ٢٩٢/٢ ٣١٦/٥ وإسناده على شرط الشيخين وله شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٥٦ و٦٥٥٦ ومسلم ٢٨٣١ وأحد ٣٤٠/٥ وابن حبان ٧٣٩٣ من حديث أبي سعيد الخدري وصدقه «إن أهل الجنة ليرامون الغرف...».

(٤) أخرجه أبو داود ٣٩٨٧ والترمذي ٣٦٥٩ وابن ماجه ٩٦ وأحد ٢٧/٣ ٩٨ وأبو يعلى ١١٣٠ من حديث أبي سعيد الخدري، وإسناده ضعيف، لضعف عطية العوفي.

بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا موجب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه ورسايقه يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٨٠ وَلَهُمْ لَنَا لَقَاطُونَ ۝٨١﴾. ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَافِيَت ۝٨٢﴾، أي: عند طلوع الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانَ ۝٨٣﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرَكُونَ ۝٨٤﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَزِيدُنِي ۝٨٥﴾، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنْ أَتْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾، ف ضرب البحر بعصاه، وقال: ﴿انفلق ياذن الله﴾، ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٨٦﴾ أي: الجبل العظيم. وأرسل الله الريح على أرض البحر فلنفته حتى صار يابساً كوجه الأرض، ولهذا قال: ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا﴾، أي: من فرعون، ﴿وَلَا تُخَشَى﴾، يعني من البحر أن يغرق قومك، ثم قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُحْدَوِيهِمْ فَفَشيهم يَنْ الْيَمِّ﴾، أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُوكَ أَمْوَالُهم ۝٨٧﴾ فَفَشَنَها مَا غَشَى ۝٨٨﴾ [النجم: ٥٣ - ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أنا أبو النجم وشغري شغري

أي: الذي يعرف، وهو مشهور. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأصلهم وما هدام إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوَدَّهمُ النَّارُ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَرُودُ ۝٨٩﴾ [هود: ٩٨].

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْتَكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدَنَكم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى ۝٩٠﴾ كَلُوا مِن طَيْبِهَا مَا رَزَقْنَكُم وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمُ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۝٩١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ۝٩٢﴾

يذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل العظام، ومنته الجسم، حيث نجاهم من عدوهم فرعون، وأمر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جُنْدِهِ قد غرِقُوا في صبيحة واحدة، لم ينبج منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا ۝٩٣﴾ مَالِ فِرْعَوْنَ وَآثَرُ نَظَرِهِ ۝٩٤﴾.

[٤٥٥٦] وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون. فقال: نحن أولى بموسى، فصوموه (٩٥). رواه مسلم أيضاً في صحيحه. ثم إنه تعالى وأعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك. وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريباً. وأما المن والسلى، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها. فالمن: خلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسلى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿كَلُوا مِن طَيْبِهَا مَا رَزَقْنَكُم وَلَا

(١) الآيات السابقة من سورة الشعراء: ٥٤ - ٦٣.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٠ و٤٣٣٧ ومسلم ١١٣٠ ح ١٢٧ وأبو داود ٢٤٤٤ وأحمد ٢٩١/١ وابن جبان ٣٦٢٥.

تَلْقَوْا فِيهِ فَيَحِلُّ عَلَيْكَ غَضَبِي»، أي: كلوا من هذا الذي رزقكم، ولا تطغوا في رزقي فتأخذه من غير حاجة، وتخاللوا ما أمركم به، «فَيَحِلُّ عَلَيْكَ غَضَبِي»، أي: أغضب عليك، «وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى». قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فقد شقي. وقال شُعْبَةُ بن مَتَاعٍ: إن في جهنم قصراً يُرْمَى الكافر من أعلاه، فيهبوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: «وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى». رواه ابن أبي حاتم. وقوله: «وَلَا يَلْفَازُ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» (٨٢)، أي: كل من تاب إلى تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله: «تَابَ»، أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية. وقوله: «وَأَمَنَ»، أي: بقلبه، «وَعَمِلَ صَالِحًا»، أي: بجوارحه. وقوله: «ثُمَّ اهْتَدَى»، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ثم لم يشكك. وقال سعيد بن جبيرة: «ثُمَّ اهْتَدَى»، أي: استقام على السنة والجماعة. وروى نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: «ثُمَّ اهْتَدَى»، أي: لزم الإسلام حتى يموت. وقال سفيان الثوري: «ثُمَّ اهْتَدَى»، أي: علم أن لهذا ثواباً. وثُمَّ ها هنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوليه: «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» [البلد: ١٧]... الآية.

﴿وَمَا أَصْبَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَاجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَمْ خُورُوا فَعَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

لما سار موسى - عليه السلام - ببني إسرائيل - بعد هلاك فرعون، وأتوا «عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَى أَصْنَامِهِمْ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» قال إنكم قوم تجهلون ﴿٨٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيَحِلُّ مَا كَانُوا يَمْكُونُ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩]. وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم آتاهم له عسراً، فتنت له أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهاراً. وقد تقدم في حديث «الفتون» بيان ذلك. فسارع موسى - عليه السلام - مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي، أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور، «وَعَاجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى»، أي: لتزداد عني رضا. «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» ﴿٨٥﴾. أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحديث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمل له لهم ذلك السامري. وفي الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى في هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَمُونُ وَآمَنُوا قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُولِكُمْ دَارُ الْقَائِمِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ١٤٥]، أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾، أي: بعدما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحقق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم. ولهذا رجع

إليهم غضبانَ أَيْسَاءً. وَالْأَسَفُ: شِدَّةُ الْغَضَبِ. وقال مجاهدٌ: «عَظَبَنَ أَيْسَاءً»، أي: جَزَعًا. وقال قتادة والسُّدِّي: «أَيْسَاءً»، أي: حزيناً على ما صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ. «قَالَ يَقُولُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا»، أي: أَمَا وَعَدَكُمْ عَلَى لِسَانِي كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحَسَنَ الْعَاقِبَةِ، كَمَا قَدْ شَاهَدْتُمْ مِنْ نُصْرَتِهِ إِثَّاكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ وَإِظْهَارِكُمْ عَلَيْهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِ عِنْدَكُمْ؟ «أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ»، أي: فِي أَنْتِظَارِ مَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ، وَنَسِيَانِ مَا سَلَفَ مِنْ نِعَمِهِ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ. «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ؟». أَمْ: هَا هُنَا بِمَعْنَى بَل، وَهِيَ لِلْإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، وَعُدُولِ إِلَى الثَّانِي، كَأَنَّهُ يَقُولُ: بَلْ أَرَدْتُمْ بِصَنِيعِكُمْ هَذَا أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ «فَأَخْلَقْتُمْ مَوَدَّيَ قَالُوا»، أي: بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَوَابِ مَا أَتَبَهُمْ مُوسَى وَقَرَّبَهُمْ: «مَا أَكَلْنَا مَوَدَّةَ يَمَلِكَنَا»، أي: عَنْ قُدْرَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا. ثُمَّ شَرَعُوا يَعْتَلِزُّونَ بِالْعَدْرِ الْبَارِدِ، وَيُخْبِرُونَ عَنْ تَوَزُّعِهِمْ كَمَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ خُلِي الْقَبِيْطِ الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَعَارَوْهُ مِنْهُمْ، حِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ، «فَقَذَفْنَاهَا»، أي: أَلْقَيْنَاهَا عَنَّا، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ «الْفَتُون» أَنَّ هَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هُوَ الَّذِي كَانَ أَمْرُهُم بِالْقَاءِ الْحُلِيِّ فِي حَفِيرَةٍ فِيهَا نَارٌ. وَفِي رَوَايَةِ السُّدِّي، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا أَرَادَ هَارُونَ أَنْ يَجْتَمِعَ الْحُلِيُّ كُلُّهُ فِي تِلْكَ الْحَفِيرَةِ، وَيُجْعَلَ حَجَرًا وَاحِدًا، حَتَّى إِذَا رَجَعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَأَى فِيهِ مَا يَشَاءُ. ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ فَالْقَى عَلَيْهَا تِلْكَ الْقَبْضَةَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ الرُّسُولِ، وَسَأَلَ هَارُونَ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ فِي دَعْوَتِهِ، فَدَعَا لَهُ هَارُونَ - وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ - فَأَجِيبَ لَهُ، فَقَالَ السَّامِرِيُّ عِنْدَ ذَلِكَ: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ عِجْلًا. فَكَانَ عِجْلًا لَهُ خَوَارٌ، أي: صَوْتٌ، اسْتَدْرَاجًا وَإِمَهَالًا وَمَحَنَةً وَاخْتِيَارًا، وَلِهَذَا قَالُوا: «فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٧٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُمُ خَوَارٌ».

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْبَخْتَرِيِّ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا حَمَّادٌ، عَنْ سَيْمَانَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ هَارُونَ مَرَّ بِالسَّامِرِيِّ وَهُوَ يَنْتَحُتُ الْعِجْلَ. فَقَالَ لَهُ: مَا تَصْنَعُ؟ فَقَالَ: أَصْنَعُ مَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ. فَقَالَ هَارُونَ: اللَّهُمَّ اعْطِهِ مَا سَأَلَ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ. وَمَضَى هَارُونَ، فَقَالَ السَّامِرِيُّ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ يَخْوَرَ، فَكَانَ إِذَا خَازَ سَجَدُوا لَهُ، وَإِذَا خَارَ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ حَمَّادٍ، وَقَالَ: أَعْمَلُ مَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ. وَقَالَ السُّدِّي: كَانَ يَخْوَرُ وَيَمِشِي. «فَقَالُوا»، أي: الضَّلَالُ مِنْهُمْ الَّذِينَ افْتَتَنُوا بِالْعِجْلِ وَعَبَدُوهُ: «هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى قَتَلَهُ»، أي: نَسِيَهُ هَا هُنَا، وَذَهَبَ يَتَطَلَّبُهُ. كَذَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ «الْفَتُون» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ سَمَّاكٌ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «قَتَلَهُ»، أي: نَسِيَ أَنْ يُذَكِّرَكُمْ أَنَّ هَذَا إِلَهُكُمْ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقٍ، عَنْ حَكِيمِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالُوا: «هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى»، قَالَ: فَعَكَفُوا عَلَيْهِ وَأَحْبَوْهُ حَبًّا لَمْ يَحْبُوا شَيْئًا قَطُّ يَعْنِي مِثْلَهُ، يَقُولُ اللَّهُ: «قَتَلَهُ»، أي: تَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، يَعْنِي السَّامِرِيُّ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ، وَتَقْرِيبًا لَهُمْ، وَبَيَانًا لِفَضِيحَتِهِمْ وَسَخَافَةِ عُقُولِهِمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفَقًا ﴿٧٨﴾؟» أي: الْعِجْلُ، «أَفَلَا يَرَوْنَ» أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُمْ إِذَا سَأَلُوهُ، وَلَا إِذَا خَاطَبُوهُ، «وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفَقًا»، أي: فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي آخِرَاهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ خَوَارُهُ إِلَّا أَنْ يَدْخُلَ الرِّيحُ فِي ذُبُرِهِ فَيَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، فَيَسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي مَتْنِ الْحَدِيثِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: أَنَّ هَذَا الْعِجْلَ اسْمُهُ بُهْمُوثٌ. وَحَاصِلُ مَا افْتَتَزَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ أَنَّهُمْ تَوَزَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقَبِيْطِ، فَالْقَوْهَا عَنْهُمْ وَعَبَدُوا الْعِجْلَ. فَتَوَزَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَقَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ.

[٤٥٥٧] كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أَنَّهُ سَأَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَنِ دِمِ الْبُغُوضِ إِذَا

أصاب الثوب - يعني: هل يُصلى فيه أم لا؟ - فقال ابن عمر - رضي الله عنه -: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعني الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض^(١)؟

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَايَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾﴾

يُخبر تعالى عما كان من نهي هارون - عليه السلام - لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم أنما هذا فتنة لكم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعّال لما يريد، ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾، أي: فيما أمركم به، واتركوا ما أنهأكم عنه. ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَايَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾﴾، أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك وحازبوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِجَنِّي وَلَا يِرَاسِي إِيَّيْ حَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن موسى - عليه السلام - حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غيظاً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في «الأعراف» بسط ذلك.

[٤٥٥٨] وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبر كالمعاينة»^(٢). وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾، أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ﴾، أي: فيما كُنْتَ تَقْدُمُ إِلَيْكَ، وهو قوله: ﴿اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. قال: ﴿يَبْنَؤُمْ﴾، تَرْقُبُ له بذكر الأم، مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ما هنا أَرْقُ وَأَبْلَغُ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِجَنِّي وَلَا يِرَاسِي إِيَّيْ حَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الحسيم، قال: ﴿إِيَّيْ حَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائياً له مطيعاً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

يقول موسى - عليه السلام - للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامري

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٧٧٠ بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري ٥٩٩٤ وأبو يعلى ٥٧٣٩ بنحوه.

(٢) تقدم تحريجه في سورة الأعراف.

رجلاً من أهل باجرما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبَّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسم السامري: موسى بن ظفر. وفي رواية عن ابن عباس: كان من كزمان. وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامرا. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾، أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فزعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي من أثر قرصه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي بن عمار، عن علي - رضي الله عنه - قال: إن جبريل - عليه السلام - لما نزل فصعد بموسى إلى السماء، بصُر به السامري من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس، قال: وحمل جبريل موسى خلفه، حتى إذا دنا من باب السماء، صعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح. فلما أخبره أن قومه قد قُتِلوا من بعده قال: نزل موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غريب.

وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾، قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع. قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقي ما كان في يده على جلية بني إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً له خوار، حفيف الريح فيه، فهو خواره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي بن المديني، حدثنا يزيد بن [زريع]، حدثنا عمار، حدثنا عكرمة: أن السامري رأى الرسول فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فآلقتها في شيء، فقلت له: كُن، فكان. فقبض قبضة من أثر الرسول، فبيست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل استعاروا خلي آل فزعون، فقال لهم السامري: إن ما أصابكم من أجل هذا الخلي، فاجمعوه. فجمعوه فأوقدوا عليه، فذاب، فرأه السامري فألقى في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت: كُن. فكان. فقذف القبضة وقال: كُن. فكان عجلاً له خوار، فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾. ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْنَاهَا﴾، أي: ألقيتها مع من ألقي، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، أي: حسنت وأعجبها إذ ذاك، ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، أي: كما أخذت وميسنت ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فَعَقوبَتِكَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَقُولَ: لَا مِسَاسَ، أي: لا تُماسُ الناس ولا يمسونك. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾، أي: يوم القيامة، ﴿أَنْ تُخَلَّفَ﴾، أي: لا محيد لك عنه. قال قتادة: «أن تقول لا مساس»، قال: عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا أَنْ تُخَلَّفَ﴾، قال الحسن، وقاتدة، وأبو نعيم: لن تغيب عنه. وقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾، أي: معبودك، ﴿الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾، أي: أقمت على عبادته - يعني العجل - ﴿لَنْ نَرْتَدَّ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس، والسدي: سَحَلَه بِالْمَبَارِدِ وَالْقَاءِ عَلَى النَّارِ. وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقاه، أي: رماده في البحر، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمار بن عبد وأبي عبد الرحمن، عن علي - رضي الله عنه - قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمَد السامري فجمع ما قدر عليه من خلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المباردة فبرده بها، وهو على شط نهر. فلم يشرب أحد من ذلك الماء ومَن كان يعبد العجل إلا اصفرَّ وجهه مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما تويتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً. وهكذا قال السدي. وقد تقدم في تفسير سورة البقرة، ثم في حديث الفتون بسط ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِكْسَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رِيعَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَمًا﴾ (٩٨)، يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبد له. وقوله: ﴿رِيعَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَمًا﴾، نصب على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، ﴿أَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨] فلا ﴿يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبا: ٣]، ﴿وَمَا تَشْقَطُ مِنْ دَرَكَةٍ إِلَّا بِمِلْحَمِهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ثُلُثَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٩٩) ﴿هود: ٦﴾. والآيات في هذه كثيرة جدًا.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩) ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ (١٠١) ﴿

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية وبالأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾، أي: من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو القرآن العظيم، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٩٩) [فصلت: ٤٢]، الذي لم يعط نبي من الأنبياء - منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ - كتاباً مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه. ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾، أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى في غيره فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء السبيل، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠)، أي: إثماً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بُوهُ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْثَامٌ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧].

وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤْذِرُكُمْ بِهِمْ وَهُمْ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وذاع، فمن اتبعه هدى، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة. ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهِ﴾، أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾، أي: وبئس الحمل جملتهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١٠٢) ﴿يَخْلَفْتُونُ يَنُوبُهُمْ إِنْ لَيْسَ إِلَّا عَشْرًا﴾ (١٠٣) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْسَ إِلَّا يَوْمًا﴾ (١٠٤) ﴿

[٤٥٥٩] ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: ﴿قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ﴾ (١).

[٤٥٦٠] وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة: أنه قرن عظيم، الدارة منه يقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام (٢).

[٤٥٦١] وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٧٣.

(٢) تقدم.

له. فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(١). وقوله: «وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا»، قيل: معناه زُرْقُ العيون من شدة ما هم فيه من الأحوال. «يَتَخَفَتُونَ يَتَنَبَّهُونَ»، قال ابن عباس: يتسارون بينهم. أي: يقول بعضهم لبعض: «إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا»، أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبشكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها. قال الله تعالى: «وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ»، أي: في حال تنابيحهم بينهم، «إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ طَرِيقَةٌ»، أي: العاقل الكامل فيهم، «إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا»، أي: ليقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإن تكرر أوقاتها وتعاقبت ليلاتها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصِر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة. وكان غرضهم في ذلك ذمة قيام الحجة عليهم، ليقصر المدة، ولهذا قال تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ»^(٢) وَقَالَ الَّذِينَ أَوْفُوا الصَّوْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَاسِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^(٣) [الروم: ٥٥ - ٦٥]، وقال تعالى: «أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُدْكِرُ فِيهِ مَنْ تَدْكُرُ بَعَاءُكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ نَصِيرٌ» [ناظر: ٣٧]، وقال تعالى: «كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ»^(٤) [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤]، أي: إنما كان لبشكم فيها قليلاً، ولو أنكم كنتم تعلمون لآثرتُم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدَّمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.

﴿وَسَتَلَوْنَكُمْ عَنِ الْغِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ﴾^(٥)

يقول تعالى: «وَسَتَلَوْنَكُمْ عَنِ الْغِبَالِ»، أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ «فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا»، أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً، «فَيَذَرُهَا»، أي: الأرض «قَاعًا صَفْصَفًا»، أي: بساطاً واحداً. والقاع: هو المستوي من الأرض. والصفصاف تأكيد لمعنى ذلك. وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم. ولهذا قال: «لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا»^(٦)، أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف. «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ»، أي: يوم يرون هذه الأحوال والأحوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بآذوا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث كان لا ينفعهم، كما قال تعالى: «أَتَمِيعُ يَوْمَ تَأْتُونَنَا» [مریم: ٣٨]، وقال: «مُتَهَيِّئِينَ إِلَى النَّارِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِثْرٍ ۖ»^(٧) [القمر: ٨]. قال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فينبغ الناس الصوت فيأتونه، فذلك قوله: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ». وقال قتادة: «لَا عِوَجَ لَهُمْ»، لا يميلون عنه. وقال أبو صالح: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ»، لا عوج عنه.

وقوله تعالى: «وَوَخَّشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ»، قال ابن عباس: سكنت. وكذا قال السدي. «فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا»، قال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا

هَسًا: الصوت الخفي وهو رواية عن عكرمة والضحاك وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَسًا﴾ الحديث وسره، ووطء الأقدام. فقد جَمَعَ سعيد كلا القولين وهو مُحْتَمِلٌ، أما وَطءُ الأقدام فالمراد سَغِي الناس إلى المحشر، وهو مَشِيهِمْ فِي سَكُونٍ وَخُضُوعٍ. وأما الكلام الخفي فقد يكون في حالٍ دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَنْهَرُ شَرُّهُمْ وَسَوِيدٌ ۝١٠٩﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَمْ يَقُولَا ۝١١٠﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۝١١١﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝١١٣﴾

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾، أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَمْ يَقُولَا﴾، كقولهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولهِ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُنْفَعُ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا بِمَا أَمَرَ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَرِضَى ۝١١٠﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَنْفَعُوكَ إِلَّا لِيِنْ أَرْضَتْنِي﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْكَلْبَكُؤُ سَفًا لَا يَكْظُمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝١١١﴾ [النبا: ٣٨].

[٤٥٦٢] وفي الصحيحين من غير وجه، عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وهو سَيِّد وَلَدِ آدَمَ، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال: «أتيت تحت العرش فأخبر الله ساجداً، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تسمع، واسمع تنصت. قال: فيحذل لي خذاً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود». فذكر أربع مرات. صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء^(١).

[٤٥٦٣] وفي الحديث أيضاً «يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال من إيمان. فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان»^(٢)... الحديث.

وقولهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: يحيط علماً بالخلائق كلهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۝١١١﴾ كقولهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقولهِ: ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: خَضَعَتْ وَذَلَّتْ واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، يُدَبِّرُهُ ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ. وقولهِ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤذي كل حق إلى صاحبه، حتى يقتصر للشاة الجماء من الشاة القرناء.

[٤٥٦٤] وفي الحديث: «يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي، لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم»^(٣).

[٤٥٦٥] وفي الصحيح: «ياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٤). والخيبة كُلُّ الْخَيْبَةِ لِمَنْ

(١) تقدم.

(٢) تقدم، وانظر صحيح مسلم ١٨٣ حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) يأتي تحريجه.

(٤) يأتي في سورة المحشر عند آية ٩ من حديث جابر، أخرجه البخاري.

لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّكَ الْبَرُّكَ لَطَلُمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَمْلِكْ مِنَ الْقَوَالِحِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١١٣)، لما ذكر الظالمين ووعدهم ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره والهضم: النقص.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

يقول تعالى: وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَمْعًا لَا مُحَالَةَ، أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ بِشِيرًا وَنَذِيرًا، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ فَصِيح، لَا لِبَسٍ فِيهِ وَلَا عِيٍّ، ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، وهو لإيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، أي: تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ الْمَلِكُ الْحَقُّ، الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ، وَوَعِيدُهُ حَقٌّ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ حَقٌّ. وَعَدْلُهُ تَعَالَى أَلَّا يُعَذِّبَ أَحَدًا قَبْلَ الْإِنذَارِ وَبِعِثَةِ الرُّسُلِ وَالْإِعْذَارِ إِلَى خَلْقِهِ، لِثَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ. وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿لَا تَحْرُجْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١١) لَأَنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٢﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْبَلْهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٣﴾ ثُمَّ لَا إِلَيْنَا يَبَاسُهُ ﴿١٤﴾.

[٤٥٦٦] وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - كان يُعالج من الوحي شدة، فكان مما يُحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية (١). يعني أنه - عليه السلام - كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة جزئه على حفظ القرآن، فأرشدته الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لثلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تَحْرُجْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١١) لَأَنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٢﴾، أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْبَلْهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٣﴾ ثُمَّ لَا إِلَيْنَا يَبَاسُهُ ﴿١٤﴾. وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، أي: بل انصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: زِدْنِي مِنْكَ عِلْمًا. قال ابن عُيَيْنَةَ رَجَمَهُ اللَّهُ: ولم يَزَلْ - ﷺ - في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل. ولهذا جاء في الحديث:

[٤٥٦٧] إِنَّ اللَّهَ تَابَعَ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِهِ، حَتَّى كَانَ الْوَحْيُ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَوْمَ تُوُفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (٢).

[٤٥٦٨] وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نعيم، عن موسى بن عُبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله - ﷺ - يقول: «اللهم، انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً». والحمد لله على كل حال (٣). وأخرجه الترمذي، عن أبي كريب، عن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٢٧ ومسلم ٤٠٤٨ والنسائي ١٤٩/٢ والترمذي ٣٣٢٩ وأحمد ٣٤٣/١ وابن حبان ٣٩ من حديث ابن عباس بأتم منه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٢ ومسلم ٣٠١٦ وأحمد ٢٣٦/٣ والنسائي في «فضائل القرآن» ٨ من حديث أنس.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٥٩٩ وابن ماجه ٢٥١ و٣٨٣٣. حسنه الترمذي، واستغفره، والإسناد ضعيف، له علتان: موسى بن عبيدة الرندي، ضعيف، ومحمد بن ثابت مجهول كما في التقريب، والوهن فقط في «الحمد...» وأما صدره فله شواهد.

عبد الله بن نُمَيْر، به. وقال: غَرِيبٌ من هذا الوجه. ورواه البَزَّاز عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم، عن موسى بن عُبيدة، به. وزاد في آخره: «وأعوذُ بالله من حالِ أهلِ النارِ»^(١).

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسْوَى وَلَمْ يَحْذَرْ لَمْ عَزَمًا﴾ (١١٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (١١٦) ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ (١١٩) ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾ (١٢٠) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢١) ﴿ثُمَّ أَعْبَنَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١٢٢)

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنما سُمِّيَ الإنسان لأنه عُهِدَ إليه فَنَسِيَ. وكذا رواه علي بن أبي طلحة، عنه. وقال مجاهد، والحسن: تَرَكَ. وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه، وما فَضَّلَهُ به على كثير ممن خَلَقَ تفضيلاً. وقد تقدَّم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحجر»، و«الكهف» وسيأتي في آخر سورة (ص) - إن شاء الله تعالى - يذكر فيها تعالى خَلَقَ آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشریفاً وتكراماً، وبُيِّنَ عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً. ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، أي: امتنع واستكبر، ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَجِكَ﴾، يعني حواءَ عليهما السلام، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾، أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعب وتغنى وتشقى في طَلَبِ رِزْقِكَ، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء، لا كُفْلَةٍ ولا مَشَقَّةَ. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨): إنما قَرَنَ بين الجوع والعُرْيَ لأن الجوع ذُلُّ الباطن والعُرْيُ ذُلُّ الظاهر. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ (١١٩): وهذا أيضاً متقابلان، فالظَّمْأُ: حرُّ الباطن، وهو العطش. والصُّحْيُ: حرُّ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾ (١٢٠): قد تقدم أنه دلَّاهما بغرور، ﴿وَقَاَسَمَهُمَا إِيَّيْ لَكُمَا لَوْنٌ الثَّيِّبَتِ﴾ (١٢١) [الأعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يَزَلْ بهما إبليس حتى أَكَلَا منها، وكانت شجرة الخُلْدِ - يعني التي من أكل منها خُلد ودام مكثه -

[٤٥٦٩] وقد جاء في الحديث ذُكْرُ شجرة الخُلْدِ، فقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي الضحَّاك، سَمِعْتُ أبا هريرة يُحَدِّثُ، عن النبي - ﷺ - قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، مَا يَقْطَعُهَا، وَهِيَ شَجَرَةُ الْخُلْدِ»^(٢). ورواه الإمام أحمد.

[٤٥٧٠] وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَّالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ. فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةً،

(١) هذه الرواية عند البيهقي في «الشعب» ٤٣٧٦ من طريق أبي عاصم به.

(٢) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ٢٩.

فتنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، مِثْنِي تَقَرُّ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبُّ لَا، وَلَكِنْ اسْتِحْيَا، أَرَأَيْتَ إِنْ تَبَيْتَ وَرَجَعْتُ، أَعَائِدُنِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَقَدْ آدَمُ مِنْ زُجْرِهِ كَلِمَتًا فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ (١) [البقرة: ٣٧]. وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْفَقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ زَرْقٍ لَكِنَّتُ﴾، قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن الجهمال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، ﴿وَلَوْفَقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ زَرْقٍ لَكِنَّتُ﴾، قال: يترعان زرق الثين، فيجعلانه على سواتهما. وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (٢) ثُمَّ لَجْنَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَذَى (٣).

[٤٥٧١] قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن الثجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «حاج موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبيك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو: قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله - ﷺ -: فحج آدم موسى» (٢). وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد.

[٤٥٧٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك. قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برساليته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكتم وجدت الله كتب التوراة؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال رسول الله - ﷺ -: فحج آدم موسى». قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة، عن رسول الله - ﷺ - (٣).

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦)

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنة كلكم. وقد قدمنا بسط ذلك في سورة البقرة. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته. وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾، أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي،

(١) وإسناد الحديث ضعيف، وتقدم تحريجه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٨ بهذا الإسناد، وأخرجه البخاري ٦٦١٤ ومسلم ٢٦٥٢ وأبو داود ٤٧٠١ وابن ماجه ٨٠ وأحمد ٢٤٨/٢ وابن حبان ٦١٨٠ من طرق من حديث سفيان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٢ ح ١٥ من طريق أنس بن عياض به.

أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هَذَا، ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدريه، بل صدره ضيقٌ حَرَجٌ لَضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمْ ظَاهِرَهُ، وَلَبَسْ مَا شَاءَ، وَأَكَلْ مَا شَاءَ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى، فَهُوَ فِي قَلْبِي وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رَيْبَةٍ يَتَرَدَّدُ. فهذا من ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: الشقاء. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: كلُّ مالٍ أُعْطِيَتْهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي، قَلَّ أَوْ كَثُرَ، لَا يَتَقَيَّنِي فِيهِ، فَلَا خَيْرَ فِيهِ، وَهُوَ الضَّنْكَ فِي الْمَعِيشَةِ. ويُقال أيضاً: إِنَّ قَوْمًا ضَلَّالًا أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ، وَكَانُوا فِي سَعَةِ مِنَ الدُّنْيَا مُتَكَبِّرِينَ، فَكَانَتْ مَعِيشَتُهُمْ ضَنْكًا؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَزَوْنُ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ مُخْلَفًا لَهُمْ مَعَايِشُهُمْ، مِنْ سُوءِ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ يَكْذِبُ بِاللَّهِ، وَيُسِيءُ الظَّنَّ بِهِ وَالثَّقَةَ بِهِ، اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ مَعِيشَتُهُ، فَذَلِكَ الضَّنْكَ. وقال الضحاك: هو العمل السيئ، والرزق الخبيث. وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار. وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن أبي حازم، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: يُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فِيهِ. وقال أبو حاتم الرازي: النعمان بن أبي عَيَّاشٍ يُكْنَى أبا سَلَمَةَ.

[٤٥٧٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ - في قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: ضَمَّةُ الْقَبْرِ^(١). الموقوف أصح.

[٤٥٧٤] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج أبو السَّمْح، عن ابن حَجَّيْرَةَ - واسمه عبد الرحمن - عن أبي هُرَيْرَةَ، عن رسول الله - ﷺ - قال: «الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ، وَيُرْحَبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ قَبْرُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، أَنْتَدِرُونَ فِيهِمْ أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؟ أَنْتَدِرُونَ مَا الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُسَلِّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ ثَنِينًا، أَنْتَدِرُونَ مَا الثَّنِينَ؟ تِسْعَةَ وَتِسْعُونَ حَيَّةً، لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ يَنْفُخُونَ فِي جَنْبِهِ، وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَهُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»^(٢). رَفَعَهُ مُنْكَرٌ جَدًّا.

[٤٥٧٥] وقال البراء: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا هشام بن سَعْدٍ، عن سعيد بن أبي هلال، عن ابن حَجَّيْرَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي - ﷺ - في قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: المعيشة الضَّنْكَ الذي قال الله تعالى: أَنَّهُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعُونَ حَيَّةً، يَنْهَشُونَ لَحْمَهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٣).

[٤٥٧٦] وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا حُمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ

(١) إسناده ضعيف؛ له علتان: ابن لهيعة، ضعيف، ودراج ضعيف في روايته عن أبي الهيثم.

(٢) أخرجه ابن حبان ٣١٢٢ والطبري ٢٤٤٢٦ من طريقين عن دراج بهذا الإسناد، وعلى هذا توبع ابن لهيعة عند ابن حبان، لكن علة الحديث دراج، وقد حسن بعضهم حديثه إذا كان من روايته عن غير أبي الهيثم، وقد حسن إسناده الشيخ شعيب. وقد توبع دراج عند البراء ٢٢٣٣، لكن قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٧٠: فيه من لم أعرفه. وورد من حديث أبي سعيد مختصراً. أخرجه ابن حبان ٣١٢١ والدارمي ٢٧١١ وأحمد ٣٨/٣ لكنه من رواية دراج عن أبي الهيثم، وفيها ضعف. وانظر ما بعده.

(٣) تقدم مع ما قبله.

أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: عذاب القبر^(١). إسناده جيد.
 وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾، قال مجاهد: وأبو صالح، والسدي: لا حجة له. وقال
 عكرمة: غمي عليه كل شيء إلا جهنم. ويحتمل أن يكون المراد أنه يُحشَر أو يبعث إلى النار أعمى البصر
 والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمياً وَيَكْفُرُوا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ
 زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧]، ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾، أي: في الدنيا، قَالَ
 كَذَلِكَ إِنَّكَ ءَايَتُنَا فَتَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنصَبُ ﴿١٢٦﴾، أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم
 يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك اليوم تُعاملُك معاملة من ينسك، ﴿فَالْيَوْمَ
 نُنْشِرُهُمْ كُلًّا سَمَوًا لِّقَاءِ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]؛ فإنَّ الجزء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع
 فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى؛ فإنه
 قد وَرَدَتِ السُّنَّةُ بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

[٤٥٧٧] قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى ابن
 فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من رجل قرأ القرآن فتُسييه
 إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجْدَمُ»^(٢) ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن
 عبادة بن الصامت، عن النبي - ﷺ -، فذكر مثله سواء.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِشَايئِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [١٢٧]

يقول تعالى: وهكذا نَجْزِي المَسْرِفِينَ المكذِبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [٢٤] [الرعد: ٣٤]، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾، أي:
 أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مَخْلُدُونَ فيه.

[٤٥٧٨] ولهذا قال رسول الله - ﷺ -: «لِلْمُتَلَاعِنِينَ: إِنْ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهَوُا مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»^(٣).

(١) جوده المصنف، وفي ذلك نظر، فإن محمد بن عمرو روى له الشيخان متابعة، وقال يحيى ثقة، وفي رواية: كانوا يتقون
 حديثه. وقال الجوزجاني: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وقد أخرجه الطبري ٢٤٤٢١ من وجه
 آخر عن محمد بن عمرو بهذا الإسناد موقوفاً، وورد عن أبي سعيد مرفوعاً. أخرجه الحاكم ٣٨١/٢ ح ٣٤٣٩ وصححه على
 شرط مسلم، ووافقه الذهبي، لكنه معلول، فقد أخرجه الطبري ٢٤٤١٧ ٢٤٤١٨ ٢٤٤١٩ و٢٤٤٢٠ و٢٤٤٢٥ من عدة
 طرق عن أبي سعيد موقوفاً، وهو أصح من المرفوع لمجيئه من طرق كلها صحاح. فالخير فيه ضعف، وظاهر الآية أن المراد
 بذلك في الحياة الدنيا، كما يفهم من لفظ «معيشة»؛ والله أعلم بالصواب.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢٨٥/٥ ح ٢١٩٥٧. والبخاري ١٦٤٢ والطبراني ٥٣٨٨، وإسناده ضعيف جداً، له ثلاث علل:
 يزيد بن أبي زياد ضعفه الجمهور، وعيسى بن فائد، هو أمير الرقة مجهول، وفيه رجل لم يسم، والظاهر أن له علة رابعة،
 وهي أنه جعله من حديث سعد بن عبادة، والظاهر أنه وهم فيه أحد الرواة، وأن صوابه من حديث عبادة بن الصامت،
 كما أخرجه أحمد ٣٢٣/٥ ح ٢٢٢٥ وإسناده ضعيف جداً فهو الإسناد السابق. وقد أخرجه عبد الله ٣٢٣/٥ ح ٢٢٢٧٥
 عن يزيد عن عيسى عن عبادة، وهكذا أسنده عبد الله بإسقاط الرجل الذي لم يسم في رواية أبيه، وأياً كان فله علل ثلاث
 كما تقدم. وبهذا يتبين أن قول الهيثمي في «المجمع» ٩٠٣٤ و٩٠٣٥: - فيه راو لم يسم، وبقية أحد إسنادي أحمد رجالها
 رجال الصحيح - غير سليم، فإن يزيد بن أبي زياد، ما روى له مسلم في الأصول، وإنما روى له متابعة، وقد ضعفه يحيى
 وابن المبارك وغيرهما كما تقدم، فالخير وإو، والله تعالى أعلم. ثم إن عيسى بن فائد مجهول كما في التقريب، وروايته عن
 الصحابة مرسله. فإسناده عبد الله بن أحمد منقطع أيضاً.

(٣) يأتي في سورة النور إن شاء الله.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٢٨) وَلَا
كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَاجِبًا مُّسْمًى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ
الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المكذبين بم جنتهم به - يا محمد - كم أهلكنا من الأمم المكذبين
بالرسل قبلهم، فبادوا، فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلقوهم
فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الشُّعْنِ﴾، أي: العقول الصحيحة، والالباب المستقيمة، كما قال
تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آفَاقٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْتَ هَٰؤُلَاءِ يَأْتُونَهُمْ وَلَكِن نَّمَى
الْقُلُوبُ أَتَىٰ فِي الْأَشْدِيدِ﴾ (الحج: ٤٦)، وقال في سورة «السجدة»: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ يَسْمَعُونَ﴾ (١٢٩). ثم قال تعالى: ﴿وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ
لِزَامًا وَاجِبًا مُّسْمًى﴾ (١٢٩)، أي: لولا الكلمة السابقة من الله، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه -
والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة - لجاءهم العذاب بغتة. ولهذا قال لنبية
مسلياً له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أي: تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾، يعني صلاة
الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصر.

[٤٥٧٩] كما جاء في الصحيحين، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، -، فَنَظَرُ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي
رُؤْيَاهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»، ثم قرأ هذه الآية (١).

[٤٥٨٠] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عِمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ قَالَ:
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» (٢). رواه مسلم
من حديث عبد الملك بن عُمَيْرٍ، به.

[٤٥٨١] وفي المُسْتَدْرَكِ والسُّنَنِ، عَنْ ابْنِ عُمرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -: «إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ
يَنْظُرُ فِي مَلِكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِي سَنَةٍ، يَنْظُرُ إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَدْنَاهُ، وَإِنْ أَعْلَاهُ مَنْزِلَةً لِّمَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ» (٣). وقوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، أي: ساعاته فتَهَجِّدُ به. وَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمَغْرِبِ
وَالْعِشَاءِ، وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فِي مَقَابِلَةِ آنَاءِ اللَّيْلِ، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَقَرْضًا﴾ (الضحى: ٥).

[٤٥٨٢] وفي الصحيح: يقول الله تعالى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فيقول: هَلْ
رَضِيتُمْ، فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٥٥٤ و ٤٨٥١ ومسلم ٦٣٣ وأبو داود ٤٧٢٩ والترمذي ٢٥٥١ وابن ماجه ١٧٧ وأحمد ٣٦٠/٤ وابن حبان ٧٤٤٢.

(٢) صحيح . أخرجه مسلم ٦٣٤ وأبو داود ٤٢٧ والنسائي ٢٣٥/١ وأحمد ١٣٦/٤ وابن حبان ١٧٤٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٥٣ وأحمد ٦٤/٢ وأبو يعلى ٥٧١٢ والآجري في «الشرعية» ٦٣١ والبيهقي في «البعث والنشور» ٤٧٧
وإسناده ضعيف، لضعف ثوير بن أبي فاختة، وكذا ذكره الهيثمي في «المجمع» ٤١٠/١٠ وقال: وفي أسانيدهم ثوير بن أبي
فاختة جمع على ضعفه اهـ.

ذَلِكَ. فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أجل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١). [٤٥٨٣] وفي الحديث الآخر يقال: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه». فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؛ ويُثقل موازيننا؛ ويُزحزحنا عن النار؛ ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة^(٢).

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِزَّةُ لِلْقَوَىٰ ۖ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: لا تنظر إلى ما متعنا به هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرأههم، وما هم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنتخبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور. وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾، يعني الأغنياء، فقد أتاك الله خيراً مما أتاهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سِمًا مِّنَ الْمَنَاقِبِ وَالْفَرَاتِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ لا تَدَنَّ صَبْرَكَ إِنَّ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨]، وكذلك ما دحّره الله تعالى لرسوله ﷺ في الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ۖ﴾ [القصص: ٥]، ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ﴾.

[٤٥٨٤] وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله - ﷺ - في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهن، فراه متوسداً مضطجعاً على رمالٍ حصير، وليس في البيت إلا صبرةٌ من قُرْظٍ وأهبةٌ مُعلّقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله - ﷺ -: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قومٌ عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»^(٣). فكان - صلوات الله وسلامه عليه - أزهّد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له يُنفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

[٤٥٨٥] وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرني ابن وهب، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد: أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض»^(٤). وقال قتادة، والسدي: زهرة الدنيا، يعني زينة الحياة الدنيا، وقال قتادة: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ لِنَبْتَلِيَهُمْ. وقوله: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُوا نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده [من غلماننا] أنا ويزناب^(٥). وكان له ساعةٌ من الليل يُصلي فيها، قرئاً لم يتم فتقول: لا تقوم الليلة كما كان يقوم. وكان إذا استيقظ أقام - يعني أهله - وقال: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٤٩ و٧٥١٨ ومسلم ٢٨٢٩ وأحمد ٨٨/٣ والترمذي ٢٥٥ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٢٨٢ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) تقدم في سورة يونس.

(٣) يأتي في سورة التحريم عند آية: ٤.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٩٢١ ومسلم ١٠٥٢ في أثناء حديث.

(٥) هو مولى عمر، وما بين المعقوفين من الطبري ٢٤٤٦١.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلْهُ رِزْقًا فَحَنُ رِزْقُكَ﴾، يعني إذا أتممت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِي ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، ولهذا قال: ﴿لَا تَسْأَلْهُ رِزْقًا فَحَنُ رِزْقُكَ﴾، قال الثوري: ﴿لَا تَسْأَلْهُ رِزْقًا﴾، أي: لا تكلّفك الطلب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن أبيه: أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طرفاً فإذا رجّع إلى أهله فدخل الدار قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَحَنُ رِزْقُكَ﴾، ثم يقول: الصلاة الصلاة، رجمكم الله.

[٤٥٨٦] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القطواني، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبي - ﷺ - إذا أصابه خصاصة نادى أهله: يا أهلاه، صلّوا. صلّوا. قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة^(١).

[٤٥٨٧] وقد روى الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك. وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»^(٢).

[٤٥٨٨] وروى ابن ماجه من حديث الضحاك عن الأسود عن ابن مسعود سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم همّاً واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك»^(٣).

[٤٥٨٩] وروى أيضاً من حديث شعبة، عن عمر بن سليمان، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من كانت الدنيا همه فزق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتيه من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤). ﴿وَالْمَعِيقَةُ لِلنَّفَقَى﴾، أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة - وهي الجنة - لمن اتقى الله.

[٤٥٩٠] وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «رايت الليلة كأننا في دار عقبة بن رافع، وأنا أيتنا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديتنا قد طاب»^(٥).

(١) هذا مرسل، ثابت هو بن أسلم البناي، تابعي فحديثه مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

(٢) جيد. أخرجه الترمذي ٢٤٦٦ وابن ماجه ٤١٠٧ وأحمد ٣٥٨/٢ والحاكم ٤٤٣٢ وابن حبان ٣٩٣ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب اهـ، وانظر الصحيحة ١٣٥٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٥٧ و٤١٠٦ وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف، فيه نهشل، قيل إنه يروي المناكير، وقيل بل الموضوعات اهـ. لكن المتن محفوظ فقد أخرجه الحاكم ٤٤٣/٢ والبيهقي في «الشعب» ١٠٣٤٠ من حديث ابن عمر، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وهو بهذا الإسناد حسن.

(٤) جيد. أخرجه ابن ماجه ٤١٠٥ وابن حبان ٦٨٠ والطبراني في «الأوسط» ٧٢٦٧ والبيهقي في «الشعب» ١٧٣٦ و١٠٣٣٨. وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وللحديث شواهد يقوى بها، انظر «تفسير البيهقي» ٤٦٣ بتخريجي، و«الترغيب والترهيب» ٢٤/٤ - ٢٦ للمنزري.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٧٠ وأبو داود ٥٠٢٥ وأحمد ٢٨٦/٣ وأبو يعلى ٣٥٢٨ من حديث أنس.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَنَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرَضُوا فَنُتَّبِعُوا مَنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾، أي: هَلَا ﴿يَأْتِينَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا﴾، أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾، يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يُدَارِسْ أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافق عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمٌ عليها، يُصدق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْكَ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١].

[٤٥٩١] وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١). وإنما دُكِرَ هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه السلام، وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يحُدُّ ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه، ومقرر في مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، أي: لو أَنَّا أَهْلَكْنَا هؤلاء المكذبين قبل أن نُرْسِلَ إليهم هذا الرسول الكريم، ونُزِلَ عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا، حتى نُؤْمِنَ به ونُتَّبِعَهُ؟ كما قال: ﴿فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَنَ﴾، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين مُتَعَتِّونَ مُعَانِدُونَ لا يؤمنون، ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى رَوَوْا الْمَذَابَ الْآلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٧]، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابُنَا أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَلْيُحْمِوهُ وَانْفِرُوا لَمَلَكُمْ ثُمَّ حَمُونَ ﴿٩٨﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ وَرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ ﴿٩٩﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى الْكِتَابِ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا سَتَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْمَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥ - ١٠٧]، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِدْحَى الْأَسَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١١٢﴾﴾ [طاهر: ٤٢]، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْرِكُمْ بِهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾ وَقَوْلُكُمْ أَتُخَذُكُمْ آلِهَةً وَأَوْصَادُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾، أي: يا محمد لمن كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ واستمرَّ على كفره وعناده: ﴿كُلُّ مُرْتَضٍ﴾، أي: منا ومنكم، ﴿فَرَضُوا﴾، أي: فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾، أي: الطريق المستقيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾، إلى الحق وسبيل الرشاد. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَسْمَعُونَ حَيَاتٍ بَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَصْلُ سَيْلًا﴾ [الفرقان: ٤٢] وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ ﴿١٦﴾﴾ [الفرق: ٢٦].

آخر تفسير سورة طه، والله الحفد والمئة



وهي مكية

قال البخاري: حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حدثنا عُثْمَرُ، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: سَمِعْتُ عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْنِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ تَجَدَّثَ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْهِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَفْتُ أَحْلِمَ بَلْ أَفْتَرَيْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا نَبَايَةً كَمَا أُنْزِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا ءَامَنْتُ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها.

[٤٥٩٢] وقال النسائي: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، عن النبي - ﷺ -: ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، قال: «في الدنيا»^(٢). وقال تعالى: ﴿أَنْتَ أَتَرَأُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقُّ الْقَرَرِ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ (٢) [القمر: ١-٢]. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نُوَاس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنَنِ تَطْلَحُنْ

فقل له: من أين أخذت هذا؟ قال: من قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

[٤٥٩٣] وَرَوَى فِي تَرْجَمَةِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، مِنْ طَرِيقِ مُوسَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ: أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ فَأَكْرَمَ عَامِرٌ مَشَاوَهُ، وَكَلَّمَ فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَجَاءَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ: إِنِّي اسْتَقَطَعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَادِيًا فِي الْعَرَبِ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطِعَ لَكَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٩، وتقدم في سورة الإسراء.

(٢) صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٥٢ بهذا الإسناد، وأخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤٩ ج ٤١ من طريق عماد عن الأعمش به مطولاً.

منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١).

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزله الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ﴾، أي: جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَسْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْعَنُونَ﴾، كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكُتُب عما بأيديهم وقد حَرَفوه وبَدَّلوه، وزادوا فيه ونَقَصُوا منه، وكتابكم أحدثُ الكتب بالله تَقْرؤونه مَخْصُصاً لم يُشَبَّ. رواه البخاري بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: قائلين فيما بينهم خفية: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، يعنون رسول الله - ﷺ - يستبعدون كونه نبياً، لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؟! ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾، أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه، من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي: السميع لأقوالكم، ﴿الْقَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعد. وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّكُمْ أَهْلُكُمْ بِكُلِّ فِرْيَةٍ﴾: هذا إخبار عن تَعَثَّتِ الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يَصِفُونَ به القرآن وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مُفْتَرَى، كما قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]. وقوله: ﴿فَلْيَأْنِسْنَا مِثَالَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾، يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآيَاتُنَا مُدَوَّنَةٌ قُدُّهَا أَهْلُكُمْ فَطَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]... الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿مَا ءَمَنْتُ بِلَهُمْ مِّن قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَهْمُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢)، أي: ما آتينا قرية من القرى الذين بُعِثَتْ فيهم الرسل آية على يَدَي نبيها فآمنوا بها، بل كَذَّبُوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الْآيَاتِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦ - ٩٧]. هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات، على يَدَي رسول الله - ﷺ - ما هو أظهر وأجلنى، وأبهز وأقطع وأقهر، مما شوهذ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

[٤٥٩٤] قال ابن أبي حاتم رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحُبَاب: حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا الحارث ابن يزيد الحضرمي، عن علي بن رِزَاح اللُّخمي، حدثني من شهد عبادة بن الصامت يقول: كُنَّا فِي الْمَسْجِدِ، وَمَعَنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق - رضي الله عنه - يُقْرَأُ بَعْضُنَا بَعْضاً الْقُرْآنَ، فَجَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ سَلُولٌ، وَمَعَهُ تَمْرَةٌ وَزُرِّيَّةٌ، فَوَضَعَ وَائِثًا، وَكَانَ صَبِيحاً قَصِيحاً جَدلاً، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، قُلْ لِمَحْمَدٍ يَأْتِينَا بَأْيَةٌ كَمَا جَاءَ الْأُولُونَ؟ جَاءَ مُوسَى بِالْأُلُوحِ، وَجَاءَ دَاوُدُ بِالزُّبُورِ، وَجَاءَ صَالِحٌ بِالنَّاقَةِ، وَجَاءَ عِيسَى بِالْإِنْجِيلِ وَبِالْمَائِدَةِ. فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ - رضي الله عنه - فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَوْمُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - نَسْتَفِيثُ بِهِ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنَّهُ لَا يَقَامُ لِي، إِنَّمَا يَقَامُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَقَيْنَا مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ! فَقَالَ: أَتَى جَبْرِيلُ فَقَالَ لِي: أَخْرَجَ فَأَخْبَرَ بِنَعْمِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكَ، وَقَفَّيْلَتَهُ الَّتِي قُضِلَتْ بِهَا.

فبشرني أنه بعثني إلى الأحمر والأسود، وأمرني أن أنذر الجحش، وآتاني كتابه وأنا أُمِّي، وعَفَّرَ ذنبي ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمي في الأذان، وأمدني بالملائكة، وآتاني النضر، وجعل الرعب أمامي، وآتاني الكوثر، وجعل حوضي من أعظم الجياض يوم القيامة، ووعدني المقام المحمود والناس مهطعون مُقنعون رؤوسهم، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب، وآتاني السلطان والملك، وجعلني في أعلى عُزَّةٍ في الجنة في جنات عدن، فليس فوقني أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحل لي ولأمتي الغنائم، ولم تحل لأحد كان قبلنا^(١). وهذا الحديث غريب جداً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَعْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرُّسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾، أي: جميع الرُّسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ﴾ [الأحاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشِّرْ بِهَدُونَا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرُّسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعم الله على خلقه، إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾، أي: بل كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارٍّ لَهُمْ وَلَا نَاقِصٌ مِنْهُمْ شَيْئًا، كَمَا تَوْهَمُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهِ فِي الْأَشْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلَاقِيَ إِلَيْنَا كَذِبًا أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَكَانَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رِجَالًا مَسْخُورًا﴾ [الفرقان: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، وخاصتهم أنهم يُوحى إليهم من الله عز وجل، ينزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم في خلقه، مما يأمر به وينهى عنه. وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾، أي: الذي وعدهم ربهم، ﴿أَلَّا يَكُونُوا لِقَائِهِمْ﴾، صدقهم الله وعده، ففعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾، أي: أنبأهم من المؤمنين، ﴿وَأَعْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾، أي: المكذبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ

(١) إسناده ضعيف، له علتان: ابن لهيعة ضعيف الحديث، وفيه راو لم يسم، وتقدم بسياق آخر، والله أعلم.

فِيهِ وَمَسْكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مُنْجِبَهَا عَلَى شَرِّ الْقُرْآنِ، ومُحَرِّضًا لَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ قُدْرِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، قال ابن عباس: شَرَّفَكُمْ، وقال مجاهد: حَذِيثَكُمْ. وقال الحسن: دِينَكُمْ. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: هذه النعمة وتثقلونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَذِكْرُ اللَّهِ وَلِقَوْلِهِمْ وَسَوْفَ تَشْكُرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾. هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقال تعالى: ﴿فَكَأَيُّ يَوْمٍ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرْسِهَا وَبِئْسَ مَظَلَمَةٌ وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾، أي: أُمَّةٌ أُخْرَى بَعْدَهُمْ. ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾، أي: تَيَقَّنُوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبِيُّهُمْ، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ﴾، أي: يَفْرُونَ هَارِبِينَ، ﴿لَا تَرْكَبُوا وَأْتِجِعُوا إِلَى مَا تُؤْفِكُمْ فِيهِ وَمَسْكِينِكُمْ﴾، هذا تهكم بهم نزرًا، أي: قيل لهم نزرًا: لا تَرْكَبُوا هَارِبِينَ من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من التَّعَمُّدِ والشُّرُورِ، والعيشَةِ والمساكنِ الطيبة. قال قتادة: استهزاء بهم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة. ﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾، أي: ما زالت تلك المقالة - وهي الاعتراف بالظلم - هَجِيرًا هُمْ حَتَّى خَصَدْنَاهُمْ خَصْدًا. وخمدت حركاتهم وأصواتهم خُمُودًا.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْخَذَ لَوْ لَا تَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ﴿يَجْزِي الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثًا ولا لعبًا، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْآثَرِ﴾ [ص: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْخَذَ لَوْ لَا تَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْخَذَ لَوْ لَا تَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾، يعني من عندنا، يقول: وما خَلَقْنَا جَنَّةً وَلَا نَارًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا بَعْثًا، وَلَا حِسَابًا. وقال الحسن، وفتادة وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْخَذَ لَوْ لَا تَخَذْتَهُ﴾، اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن. وقال إبراهيم النخعي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْخَذَ لَوْ لَا تَخَذْتَهُ﴾، من الحورِ الغيب. وقال عكرمة، والسدي: المراد باللهو هاهنا الولد. وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْذَ وَلَكَّا لَأَخْطَأَنَّ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر: ٤]، فَتَزَهُ نَفْسُهُ عَنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ مُطْلَقًا، لَا يَبِيحُ عَمَّا يَقُولُونَ مِنَ الْإِفْكَ وَالْبَاطِلِ، من اتَّخَذَ عِيسَى، أو عَزِيرَ، أو الملائكة، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، قال قتادة،

وَالسَّادِّي، وإبراهيم النخعي، ومغيرة بن مقسم: أي ما كنا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار. وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾، أي: نُبَيِّنُ الْحَقَّ قَيْدَحَضُّ الْبَاطِلِ، ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب مُضْمَجِلٌ، ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ﴾، أي: أيها القائلون: لله وَلَدٌ، ﴿مِمَّا نَصِفُونَ﴾، أي: تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، وذأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَوْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُكُمْ﴾، يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَكْفَرُنَّ إِلَى جِيعًا ۝١٧٢﴾ [النساء: ١٧٢]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾، أي: لا يتعَبُونَ ولا يَمَلُّونَ، ﴿يَسِيرُونَ أَيْلًا وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝١٧٣﴾، فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مُطِيعُونَ قَصْدًا وَعَمَلًا، قَادِرُونَ عَلَيْهِ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

[٤٥٩٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي ذلامه البغدادي، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن محرز، عن حكيم بن جزام قال: بينا رسول الله - ﷺ - بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله - ﷺ -: «إني لأسمع أطيظ السماء، وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»^(١). غريب ولم يخرجوه. ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، مرسلًا. وقال محمد بن إسحاق، عن حسان بن غمار عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرايت قول الله تعالى للملائكة: ﴿يَسِيرُونَ أَيْلًا وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝١٧٣﴾، أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟ فقال: من هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب. قال: فقبل رأسي، ثم قال لي: يا بني، إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس، أليس أنت تتكلم وأنت تتنفس، وأنت تمشي وأنت تتنفس؟

﴿أَرِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ۝٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشْكِرُونَ ۝٢٣﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿أَرِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ۝٢١﴾، أي: أهم يُحيون الموتى ويُشِرُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ؟! أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نِدًا وَعَبْدُوهَا معه؟! ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ﴾، أي في السماء والأرض، ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْنَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا تَعْصِيَتُهُمْ عَلَيَّ بَعْضُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۝١١١﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عما يقولون أَنَّهُ وَلَدٌ أَوْ شَرِيكٌ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ الَّذِي يَفْتَرُونَ وَيُفَكِّحُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا. وقوله: ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشْكِرُونَ ۝٢٢﴾، أي: هو الحاكم الذي لا مُقَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ولا يعترض عليه أحد، لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ، وَعُلُوِّهِ وَحُكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلَطْفِهِ، ﴿وَهُمْ يُشْكِرُونَ﴾، أي: وهو سائل خلقه عَمَّا يَعْمَلُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُ أَجْمَعِينَ ۝١٢٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]. وهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ۝٨٨﴾ [المؤمنون: ٨٨].

(١) في إسناده عبد الوهاب بن عطاء الخفاف قال يحمي: ليس به بأس. وقال أحمد: ضعيف الحديث مضطرب، وثقه الدارقطني. وهو غريب بهذا اللفظ، ولعمريه شواهد. والغرابه فقط في صدره.

﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْخَلْقَ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، أي: دليلكم على ما تقولون، ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي﴾، يعني القرآن، ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾، يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم - أيها المشركون - لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه. ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، كما قال: ﴿وَتَمَثَّلَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا بِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفيضة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا بُرْهَانَ لهم، وحُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وعليهم عَذَابٌ شَدِيدٌ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْنَجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى راداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾، أي: الملائكة عباد الله، مُكْرَمُونَ عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً. ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر به ولا يخالفونه فيما أمر به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علّمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْفَرَ لَمْرٌ﴾ [سبا: ٢٣]، في آيات كثيرة في معنى ذلك. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾، أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ، أي: من ادعى منهم أنه إله من دُونِ الله، أي: مع الله، ﴿فَلْنَجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، أي: كل من قال ذلك. وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَعْبُدَنَّكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُوْثِقُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكًَا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى مُثَبِّهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق،

المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يُعبد معه غيره أو يُشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، أي: كان الجميع مُتصلاً، بعضه ببعض متلاصق، متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، فَتَقَّتْ هذه من هذه فَجَعَلَ السَّمَوَاتِ سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع، الفاعل المختار، القادر على ما يشاء:

فَنَبِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَى آيَةِ أَنَّهُ وَاجِدٌ

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة قال: سُئِلَ ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرايتم السموات والأرض حين كانتا رَتْقًا، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني ما قال لك. قال: فَذَهَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نعم، كانت السموات رَتْقًا لَا تُمَطِّرُ، وكانت الأرض رَتْقًا لَا تُنْبِتُ، فلما خُلِقَ لِلْأَرْضِ أَهْلًا فَتَقَّتْ هذه بالمطر، وَفَتَقَتْ هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صَدَقَ، هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يُعجبني جَرَاءُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ أُوْتِيَ فِي الْقُرْآنِ عِلْماً. وقال عطية العوفي: كانت هذه رَتْقًا لَا تُمَطِّرُ، فأمطرت. وكانت هذه رَتْقًا لَا تُنْبِتُ فَانْبَثَتْ.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: كانت السماء واحدة فَفَتَقَتْ مِنْهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وكانت الأرض واحدة فَفَتَقَتْ مِنْهَا سَبْعَ أَرْضِينَ. وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن الأرض والسماء متماسكتين. وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض مُلتزقتين، فلما رَفَعَ السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فَتَقَّهُمَا الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن، وقادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، أي: أَضَلَّ كُلَّ الْأَحْيَاءِ مِنْهُ.

[٤٥٩٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُمَاهِر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة أنه قال: يا نبي الله، إذا رأيتك قرأت عيني وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء»^(١).

[٤٥٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. قال: كل شيء خلق من ماء قال: قلت: أَنبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا عَمِلْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ. قال: أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامَ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ^(٢). ورواه أيضاً عن عبد الصمد، وعفان، وبهر، عن

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٩٥، وصححه الحاكم ٤/١٦٠ ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦/٥: رواه أحمد، ورجال رجال الصحيح، خلا أبا ميمونة، وهو ثقة. قلت: إسناده ضعيف. قال الذهبي في الميزان ٤/٥٧٩: أبو ميمونة عن أبي هريرة، وعنه قتادة قال الدارقطني: مجهول يُترك. وفيه عننة قتادة وهو مدلس.

(٢) إسناده ضعيف كسابقه. لكن لفظ «أفشي السلام...» له شواهد صحاح.

هَمَام. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَهَذَا إِسْنَادٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِينَ. إِلَّا أَنَّ أَبَا مَيْمُونَةَ مِنْ رِجَالِ السُّنَنِ وَاسْمُهُ سُلَيْمٌ ^(١)، وَالتِّرْمِذِيُّ يُصَحِّحُ لَهُ. وَقَدْ رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ مَرْسَلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾، أَي: جِبَالًا أَرْسَى الْأَرْضَ بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلَهَا، لِثَلَاثَةِ تَمِيدٍ بِالنَّاسِ، أَي: تَضْطَرِبُ وَتَتَحَرَّكُ، فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ عَلَيْهَا قَرَارٌ، لِأَنَّهَا غَامِرَةٌ فِي الْمَاءِ إِلَّا مَقْدَارَ الرَّبْعِ، فَإِنَّهُ بَادٍ لِلْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ، لِيُشَاهِدَ أَهْلُهَا السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَالْحُكْمِ وَالِدَّلَالَاتِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾، أَي: لِثَلَاثَةِ تَمِيدٍ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾، أَي: ثَغْرًا فِي الْجِبَالِ يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى أَقْلِيمٍ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ فِي الْأَرْضِ، يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَهَذِهِ الْبِلَادِ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ فُجُوزَةً لغيره، لِيَسْلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هَاهُنَا إِلَى هَاهُنَا. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَكُمْ مِمَّا يَهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْعًا﴾، أَي: عَلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ كَالْقُبَّةِ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْتٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٤٧]، وَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا ⑤﴾ [الشَّمْسُ: ٥]، ﴿أَنَّهُ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ⑥﴾ [ق: ٦]، وَالْبَنَاءُ هُوَ نَضْبُ الْقُبَّةِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:

[٤٥٩٨] «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خُمْسٍ» ^(٢)، أَي: خُمْسَ دَعَائِمِهِ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخِيَامِ، عَلَى مَا تَعَهَّدَهُ الْعَرَبُ. «مَحْفُوظًا»، أَي: عَالِيًا مَحْرُوسًا أَنْ يُنَالَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَرْفُوعًا.

[٤٥٩٩] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدُّشْتُكِيُّ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَشْعَثَ - يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ الْقُمِّيَّ - عَنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي الْمَغِيرَةِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ السَّمَاءُ، قَالَ: «هَذَا مَوْجٌ مَكْفُوفٌ عَنْكُمْ» ^(٣). إِسْنَادٌ غَرِيبٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ عَنْ عَائِنَاهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَايُنَ مِنْ عَائِنِهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَمْرُوتَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ⑩﴾ [يُوسُفُ: ١٠٥]، أَي: لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْإِتْسَاعِ الْعَظِيمِ وَالْإِرْتِفَاعِ الْبَاهِرِ، وَمَا زُيِّنَتْ بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ فِي لَيْلِهَا، وَفِي نَهَارِهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي تَقْطَعُ الْفَلَكَ بِكَمَالِهِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا وَسَيَّرَهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ «التَّفَكُّرُ وَالْإِعْتِبَارُ»: أَنَّ بَعْضَ عُبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَعَبَّدُوا ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا تَعَبَّدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَظْلَتَهُ غَمَامَةٌ، فَلَمْ يَرِ ذَلِكَ الرَّجُلَ شَيْئًا مِمَّا كَانَ يُرَى لِغَيْرِهِ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أُمِّهِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا بَنِي فَلَعْلَكَ أَذْنِبْتَ فِي مَدَّةِ عِبَادَتِكَ هَذِهِ، فَقَالَ: لَا، وَاللَّهُ مَا أَعْلَمُ، قَالَتْ: فَلَعْلَكَ هَمَمْتَ؟ قَالَ: لَا، وَاللَّهُ وَلَا هَمَمْتُ. قَالَتْ: فَلَعْلَكَ رَفَعْتَ بَصْرَكَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ رَدَدْتَهُ بِغَيْرِ فِكْرٍ، فَقَالَ: نَعَمْ، كَثِيرًا. قَالَتْ: فَمِنْ هَاهُنَا أُتَيْتَ. ثُمَّ قَالَ مُنْبَهًا عَلَى بَعْضِ آيَاتِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أَي: هَذَا فِي ظِلَامِهِ وَسُكُونِهِ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأَنْسِهِ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَى، وَعَكْسُهُ الْآخَرُ، ﴿وَاللَّسَّسَ وَالْقَمَرَ﴾، هَذِهِ لَهَا

(١) أَبُو مَيْمُونَةَ الَّذِي فِي الْإِسْنَادِ مَجْهُولٌ، وَهُوَ غَيْرُ أَبِي مَيْمُونَةَ الَّذِي يُرْوَى لَهُ أَصْحَابُ السُّنَنِ.

(٢) تَقْدِيمٌ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي «الْعِظْمَةِ» ٥٤١، رِجَالُهُ ثِقَاتٌ سِوَى جَعْفَرِ بْنِ أَبِي الْمَغِيرَةِ، ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ غَيْرِ جَرَحٍ وَلَا تَعْدِيلٍ، وَقَالَ ابْنُ مَنْدَةَ: لَيْسَ بِالْقَوِيِّ فِي سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، رَاجِعَ الْمِيزَانَ ١٥٣٦. وَالرَّاجِحُ وَقْفُهُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

نور. يخصها وفلك بذاته، وزمان على جذة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور خاص آخر وفلك آخر^(١)، وسير آخر، وتقدير آخر ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٤)، أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل والقمر، لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن كما قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ الْوَسِيلُ وَجَمَلَ آيَاتِ سَكَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٥) [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾ (٣٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥)

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ﴾، أي: يا محمد، ﴿الْخُلْدَ﴾، أي: في الدنيا، بل ﴿كُلٌّ مِنْ عَالِيَا قَانٍ﴾ (٣٦) ﴿وَبَيْنَ يَدَيْهِ رُكُوعُ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسَانِ﴾ (٣٧) [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]. وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر - عليه السلام - مات وليس بحي إلى الآن، لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾. وقوله: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾، أي: يا محمد، ﴿فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾؟! أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى فناء ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقد روي عن الشافعي رحمه الله، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تَمَتَّى رَجَالٌ أَنْ أَمُوتَ، وَإِنْ أُمْتُ فَتَلَكُ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ
فَقُلْ لِلَّذِي يَنْفِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى: تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكُنْ قَدِ

وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، أي: نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾، يقول: نبليكم بالشر والخير فتنه، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال. وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، أي: فتجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَنْحَدُّونَكَ إِلَّا هُزُوا أَمْهَدًا أَلَّذِي يَذْكُرُ الْإِهْتِكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٦) ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٣٧)

يقول تعالى لنبئه - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: كفار قريش، كابي جهل وأشباهه، ﴿إِنْ يَنْحَدُّونَكَ إِلَّا هُزُوا﴾، أي: يستهزئون بك ويستنقصونك، يقولون: ﴿أَمْهَدًا أَلَّذِي يَذْكُرُ الْإِهْتِكُمْ﴾، يعنون: أمهنا الذي يسب آلهم ويسفهم أحلامهم، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾، أي: وهم كفارون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُ يَنْحَدُّونَكَ إِلَّا هُزُوا أَمْهَدًا أَلَّذِي يَذْكُرُ الْإِهْتِكُمْ﴾ (٣٦) ﴿إِنْ كَادَ لَيُخْلِسُنَا عَنْ الْإِهْتِكُمْ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَهْلٌ سَبِيلًا﴾ (٣٧) [الفرقان: ٤١ - ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، أي: في الأمور. قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلق، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل بخلقه قبل غروب الشمس.

(١) كذا قال المصنف رحمه الله جرياً على ما كان عليه الأقدمون، والصواب، وكما ثبت علمياً في العصر الحديث، أن القمر لا نور له خاص، وإنما هو يعكس ضياء الشمس ونورها. وفلكه تبع لفلك الشمس.

[٤٦٠٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن عمرو ابن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وفيه أُهْبِطَ مِنْهَا، وفيه تَقُومُ السَّاعَةُ، وفيه سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّي - وَقَبَضَ أَصَابِعَهُ يَقْلُلُهَا - فَسَأَلَ اللَّهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: قَدْ عَرَفْتُ تِلْكَ السَّاعَةَ، وَهِيَ آخِرُ سَاعَاتِ النَّهَارِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَهِيَ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا آدَمَ^(١).

قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يُعَلِّي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، يُؤْجَلْ ثُمَّ يُعَجَّلْ، وَيُنْظَرُ ثُمَّ لَا يُؤَخَّرُ، ولهذا قال: ﴿سَأُزَيِّدُكُمْ آيَاتِي﴾، أي: يُقَيِّمِي وَحُكْمِي وَاقْتِدَارِي عَلَى مَنْ عَصَانِي، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونْ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبْتَهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضاً بِوُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ، تَكْذِيباً وَجُحُوداً وَكُفْراً وَعِنَاداً وَاسْتِعَاداً، فَقَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: لَوْ تَيَقَّنُوا أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِهِمْ لَا مُحَالَةٌ لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ حِينَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، ﴿لَمْ يَنْ قَوْعِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَنِجْمٌ ظُلَّلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾، وَقَالَ: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِنَ فَطْرَانٍ وَفُتْنَى وَجُوهِهِمُ النَّارُ﴾ (٤٠) [إبراهيم: ٥٠]، فَالْعَذَابُ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: لَا نَاصِرَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ﴾، أي: تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْةً، أي: فَجَاءَةً ﴿فَتَبْتَهُمْ﴾، أي: تَدْعُرُهُمْ فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا حَائِرِينَ لَا يَذَرُونَ مَا يَصْنَعُونَ، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾، أي: لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: وَلَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٣) مَنْ دُونَنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٤)

يقول تعالى مُسْتَلِياً لِرَسُولِهِ عَمَّا آذَاهُ بِهِ الْمَشْرِكُونَ مِنَ الْاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ١٠٤٦ والترمذي ٤٩١ وأحمد ٤٨٦/٢ والحاكم ٢٧٨/١ - ٢٧٩ وابن حبان ٢٧٧٢ وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وإسناده قوي. وأخرج صدره فقط مسلم ٨٥٤ والترمذي ٤٨٨ والنسائي ٨٩/٣ - ٩٠ وأحمد ٤٠١/٢.

قَبْلَكَ فَكَافٍ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْوَسَايِكَ (٢٢)﴾ [الأنعام: ٣٤]. ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، أي: بذل الرحمن، بمعنى غيره كما قال الشاعر:

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ الْمَرْقُفَا وَلَمْ تَذُقِ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْتُقَا

أي: لم تذوق بذل البُقُولِ الْفُسْتُقِ. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يُعْرِضُونَ عن آياته وآلائه. ثم قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَهْلَهُ تَمَنَعَهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾، استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم ألهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟! ليس الأمر كما توهموا، لا ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يَصْحَبُونَ﴾، قل العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يَصْحَبُونَ﴾، أي: يُجَاوِزُونَ. وقال قتادة: لا يَصْحَبُونَ من الله بخير. وقال غيره: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يَصْحَبُونَ﴾: يَمْنَعُونَ.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَافِلُونَ (٤٤)﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّعْرُ الذُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُنَوَّلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما عَزَّمْهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعمدون في الحياة الدنيا وتعمدوا، وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء. ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرعد» وأحسن ما فُسِّرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَمَرَرْنَا بِالْبُيُوتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)﴾ [الاحقاف: ٢٧]. وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكُفَر. والمعنى: أفلا يعتبرون بِنَصْرِ اللَّهِ لَأَوْلِيَائِهِ على أعدائِهِ، وإهلاكِهِ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ والقرى الظالمة، وإنجائِهِ لعباده المؤمنين. ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَافِلُونَ﴾، يعني: بل هم المغفلون الأسفلون الأخسرون الأرذلون. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾، أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذركم به من العذاب والثكال، ليس ذلك إلا عَمَّا أوحاه الله إلي، ولكن لا يُجِدِي هذا عَمَّنْ أَعْمَى الله بصيرته، وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّعْرُ الذُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُنَوَّلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)﴾، أي: ولئن مَسَّ هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، أي: ونضع الموازين العَدْلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمِعَ باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]،

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا وَلَئِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْسِكْهَا وَتُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَثَرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿يَبْقَىٰ لِلَّهِ إِنْ تَكَ شَقَالًا حَبْرٌ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

[٤٦٠١] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

[٤٦٠٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدثني عامر بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: سَمِعْتُ عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجْلًا، كُلُّ سِجْلٍ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمْتُكَ كَتَبْتَنِي الْخَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا، يَا رَبِّ. قَالَ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ قَالَ: فَيُنْهَتْ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بلى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا تَظْلِمُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ. فَيُخْرِجُ لَهُ بَطَاقَةً فِيهَا: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَا تَظْلِمُ قَالَ فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ. قَالَ: وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسَمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»^(٢). ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الليث ابن سعد، به، وقال الترمذي: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

[٤٦٠٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن عامر^(٣) بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله - ﷺ -: «تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، فَيُوضَعُ مَا أَحْصَىٰ عَلَيْهِ، فَتَمَازِيلُ بِهِ الْمِيزَانُ، قَالَ: فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَإِذَا أَدْبَرَ بِهِ إِذَا صَاحَّ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: لَا تَعْجَلُوا فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ. فَيُؤْتَى بِبَطَاقَةٍ فِيهَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ، حَتَّى يَمِيلَ بِهِ الْمِيزَانُ»^(٤).

[٤٦٠٤] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا أَبُو نُوحٍ قُرَاد، أَنبَانَا لَيْثُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لِي مَلُوكِينَ يَكْذِبُونَنِي وَيُحْشِنُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَضْرِبُهُمْ وَأَسْتَمُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: يُحْسَبُ مَا خَاثُوكَ وَعَصُوكَ وَكَذَّبُوكَ وَعَقَابُكَ إِيَاهُمْ، إِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ. وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كِفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْهِ. وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٠٦ و٧٥٦٣ ومسلم ٢٦٩٤ والترمذي ٣٤٦٧ وابن ماجه ٣٨٠٦ وأحمد ٢٢٣٢/٢ وابن حبان ٨٣١.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٦٣٩ وابن ماجه ٤٣٠٠ وأحمد ٢١٣/٢ و٢٢٢ والحاكم ٦/١ - ٥٢٩ وابن حبان ٢٢٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن غريب اهـ. ورجاله ثقات رجال مسلم.

(٣) وقع في مسند أحمد «عمرو» وكذا في سائر الأصول، والوهم، إما من ناسخ المسند، أو من غيره، والتصويب عن رواية أحمد المتقدمة، وكتب التراجم، والله أعلم.

(٤) أخرجه أحمد ٢٢١/٢، وقال الهيثمي في «الجمع» ٨٢/١٠: وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ. قلت: ابن لهيعة ضعيف، لكن لحديثه شواهد.

اقتَصِرْ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ الَّذِي بَقِيَ قَبْلَكَ . فَجَعَلَ الرَّجُلَ يَبْكِي بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - . وَيَهْتَفُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : « مَا لَهُ ؟ ! أَمَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ ؟ » ﴿٤٨﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَئِنْ كُنْتَ تُنْقَالُ حَكْمًا مِنْ خَدِّكَ أَلَيْسَ بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا ﴿٤٩﴾ . فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَجَدُ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي عِيْدَهُ - إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارُ كُلُّهُمْ ^(١) .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قد تقدّم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - وبين كتابيهما، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ . قال مجاهد: يعني الكتاب . وقال أبو صالح: التوراة . وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل . وقال ابن زيد: يعني النصر . وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية تستعمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعبي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، أي: تذكيراً لهم وعظة . ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ ، كما قوله: ﴿مَنْ خِشِيَ الزَّكَاةَ أَتَيْنَاهُ بِقَبْلِ نَجَاتٍ يَقْبَلُ ثَوْبًا ﴿٤٩﴾﴾ [ق: ٢٣] ، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَلَجَبٌ كَبِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الملك: ١٢] ، ﴿وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ ، أي: خائفون وجلون . ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ، يعني القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ، أي: أفنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟! .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الصَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم - عليه السلام - أنه آتاه رُشدَهُ من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال: ﴿وَبَرَكْتَ حُجَّتَنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَا قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] ، وما يُذكر عنه من الأخبار في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات فتبصر فيها، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعائماتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك ردّدناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نُصدّقه ولا نُكذّبه، بل نجعله وقفاً . وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف في

(١) منكر . أخرجه الترمذي ٣١٦٥ وأحمد ٦/ ٢٨٠ وقال الترمذي: غريب . وذكره النذري في «الترغيب» ٥٢٨ وقال: إسناده أحمد والترمذي متصلان، وروايتا ثقات . وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٥٣١ ولم يذكر له شواهد كعادته، وليس بصحيح، مداره على فراد، وهو وإن وثقه غير واحد، فقد قال غير واحد: روى منكر، ومنها هذا الحديث، بل قال أبو أحمد الحاكم: روى عن الليث حديثاً منكراً، ومراده هذا الحديث . وقال أحمد بن صالح: هذا باطل، بما وضع الناس . وقال الدارقطني: ليس هذا من حديث مالك، أخطأ فراد فيه . راجع «الميزان» ٥٨١/ ٢ و«التهذيب» ٦/ ٢٢٤ .

روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما يُنتفع به في الدين، ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلّفين في دينهم لبيّنته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلّكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصود هاهنا أن الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رُشدَه من قبل، أي: من قبل ذلك. وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، أي: وكان أهلاً لذلك. ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ وَقَوِيْهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتَ لَهَا عَاكِفٌ﴾ (٥٦)، هذا هو الرُشد الذي أُوتيه من صغره، الإنكار على قومه عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتَ لَهَا عَاكِفٌ﴾، أي: مُعتكِفون على عبادتها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصم بن ثبانة، قال: مرّ عليّ رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأنّ يَمَسَّ صاحبكم جُمرًا حتى يَظْفَأَ خَيْرَ له من أن يَمَسَّهَا. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (٥٧)، لم يكن لهم حُجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلّام معكم، فأنتم وهم في ضلال، على غير الطريق المستقيم. فلما سَفِهَ أحلامهم، وضلّل آباءهم، واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ النَّازِعِينَ﴾ (٥٨)، يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقولُه لآعاباً أو مُحَقّاً فيه؟ فإنا لم نَسْمَعْ به قبلك. قال: ﴿بَلْ زَكَّرَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾، أي: ربكم الذي لا إله غيره هو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتداء خلقهنّ، وهو الخالق لجميع الأشياء، ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ يُؤْلُوا مَذْبِرَيْنَ﴾ (٥٧) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٨) ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الْفَٰكِلِينَ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠) ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٢) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبْرُهُمْ هَٰذَا فَتَسَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ﴾ (٦٣)

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعَه بعض قومه: ليكيدَنَّ أصنامهم، أي: ليحرصنّ على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يؤلوا مَذْبِرَيْنِ، أي: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه. قال السدّي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بُنَيَّ، لو خَرَجْتَ معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق التقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم. فجعلا يَمْزُون عليه وهو صريع فيقولن: مَهْ! فيقول: إني سقيم. فلما جاز عاثنهم وبقي ضِعَاؤُهُمْ، قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾، فسمعه أولئك. وقال أبو إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خَرَجَ قوم إبراهيم إلى عيدهم، مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم، ألا تخرج معنا؟ قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقد كان بالأس قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ يُؤْلُوا مَذْبِرَيْنِ﴾، فسمعه ناس منهم. وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾، أي: خُطاماً، كَسَرَهَا كُلِّهَا ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾، يعني إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿قَرَأَ عَلَيْهِمْ صَرًّا بِاللَّيْنِ﴾ (٦٣) [الصفات: ٩٣]. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأُتِفَ أن تُعبد معه هذه الأصنام

الصُّغَارَ، فَكَسَّرَهَا. ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الْفَالِطِينَ﴾ (٥٩)، أي: حين رَجَعُوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الْفَالِطِينَ﴾ (٥٩)، أي في صنيعه هذا. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠)، أي: قال من سَمِعَهُ يَحْلِفُ إنه ليؤكد لهم: ﴿سَمِعْنَا فَتَى﴾، أي: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جريز بن عبد الحميد، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً^(١)، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِي النَّاسِ﴾، أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثيرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضرراً، ولا تستطيع لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك. ﴿قَالُوا أَأَتَتْ فَكَلَتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦١) قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدٌ هَذَا، يعني الذي تركه لم يكسره، ﴿تَتْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾. وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعتبروا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد.

[٤٦٠٥] وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن إبراهيم - عليه السلام - لم يكذب غير ثلاث، ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدٌ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾» [الصفات: ٨٩]. قال: وبينما هو يسير في أرض جبّار من الجبابرة، ومعه سارية إذ نزل منزلاً، فأتى الجبّار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا بأرضك رجلٌ معه امرأة أحسن الناس. فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلي. فانطلق إلى سارية فقال: إن هذا الجبّار سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذّبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلمٌ غيري وغيرك. فانطلق بها إبراهيم ثم قام يُصَلِّي، فلما دخلت عليه فرأها أفوى إليها فتناولها فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت له فأرسل، فاهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ. فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك. فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حُجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، أخرجه وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت. فلما أحس إبراهيم بمجيئها انقلبت من صلاته، قال: مهيم^(٢)؟ قالت: كف الله كَيْدَ الكافر الفاجر، وأخذمني هاجر. قال محمد بن سيرين. فكان أبو هريرة - رضي الله عنه - إذا حدث بهذا الحديث قال: قَتَلْتُكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ^(٣).

(١) في صحة ذلك عن ابن عباس نظر. فيه قابوس بن أبي ظبيان، ضعفه غير واحد. وأما المتن ففيه نظر، فإن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ فيما بعد الكهولة، وهو في الأربعين، في حين قال عن يحيى ﴿يَبْتَغِي حَيْثُ الْكَتَبَ يُقْوَىٰ وَيَإْتِنُكَ لَتَقُومَ صَبِيحًا﴾ والحكم هنا النبوة. فتنبه، والله تعالى أعلم.

(٢) قوله «مهيم» أي ما الشأن، ما الأمر.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٨ و٥٠٨٤ ومسلم ٢٣٧١ وأبو داود ٢٢١٢ وأحمد ٤٠٣/٢ وابن حبان ٥٧٣٧ والبيهقي ٣٦٦/٧.

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، أَي: بِالْمَلَامَةِ فِي عَدَمِ احْتِرَازِهِمْ وَجِرَاسَتِهِمْ لِأَلْهَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أَي: فِي تَرْكِكُمْ لَهَا مَهْمَلَةً لَا حَافِظَ عِنْدَهَا. ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، أَي: ثُمَّ أَطْرَقُوا فِي الْأَرْضِ فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. قَالَ قَتَادَةُ: أَدْرَكَتِ الْقَوْمَ حَيْرَةً سَوْءًا، فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، أَي: فِي الْفِتْنَةِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَي: فِي الرَّأْيِ. وَقَوْلُ قَتَادَةَ أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ حَيْرَةً وَعَجْزًا، وَلِهَذَا قَالُوا لَهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، فَكَيْفَ تَقُولُ لَنَا: سَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَنْطِقُ؟ فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ لِمَا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾، أَي: إِذَا كَانَتْ لَا تَنْطِقُ، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِن دُونِ اللَّهِ؟ ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧)، أَي: أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ الْغَلِيظِ، الَّذِي لَا يَرْجُو إِلَّا عَلَىٰ جَاهِلٍ ظَالِمٍ فَاجِرٍ؟ فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَالزَّمَمَ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]... الآية.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ (٦٨) قُلْنَا بِنَارٍ كَوْفٍ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

لَمَّا دَحَضَتْ حُجَّتُهُمْ، وَبَانَ عَجْزُهُمْ، وَظَهَرَ الْحَقُّ، وَانْدَفَعَ الْبَاطِلُ، عَدَلُوا إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ جَاهِ مُلْكِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾. فَجَمَعُوا حَطْبًا كَثِيرًا جَدًّا - قَالَ السُّدِّيُّ: حَتَّىٰ إِنْ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ، فَتَنْذِرُ إِنْ عَوْقِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطْبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ - ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جَوْزَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَضْرَمُوهَا نَارًا، فَكَانَ لَهَا شَرَرٌ عَظِيمٌ وَلَهَبٌ مَرْتَفِعٌ، لَمْ تَوْقِدْ قَطُّ نَارًا مِثْلَهَا، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي كَفَّةِ الْمَنْجَنِيْقِ بِإِشَارَةِ رَجُلٍ مِنْ أَعْرَابِ فَارَسٍ مِنَ الْأَكْرَادِ - قَالَ شُعَيْبُ الْجَبْتِيُّ: اسْمُهُ هَيْزَنٌ - فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ».

[٤٦٠٦] كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ»، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١) [آل عمران: ١٧٣].

[٤٦٠٧] وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا أَبُو هِشَامٍ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّارِ قَالَ: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ، وَأَنَا فِي الْأَرْضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ» (٢). وَيُرْوَى أَنَّهُ لَمَّا جَعَلُوا يُوقِئُونَهُ قَالَ: لَا

(١) والحديث صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٦٣.

(٢) ضعيف، أخرجه البزار ٢٣٤٩ «كشف الأستار» والدارمي في «الرد على الجهمية» ٧٥ وأبو نعيم ١٩/١ والخطيب ٣٤٦/١٠ والذهبي في «الميزان» ٨٣٢٦. قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٧٦٦: فيه عاصم بن عمر ابن حفص، وثقه ابن حبان، =

إله إلا أنت، سُبْحَانَكَ، لك الحمدُ، ولك الملكُ، لا شريك لك. وقال شُعَيْبُ الْجَبِينِيُّ: كان عمره إذ ذلك ست عشرة سنة. فإله أعلم. وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى. وقال سعيد بن جبيرة - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال: لما أُلْقِيَ إبراهيمُ جَعَلَ خازِنُ المَطَرِ يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: وكان أمرُ الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿يَنَارُ كُوِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، قال: فلم يبق من الأرض نارٌ إلا طِفِثَتْ. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحدٌ يومئذٍ بنارٍ، ولم تحرق النارُ من إبراهيم سيوى وثاقه.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُوِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (١)، قال: بردت عليه حتى كادت تقتله (٢)، حتى قيل: ﴿وَسَلَامًا﴾، قال: لا تضره. وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله - عز وجل - قال: ﴿وَسَلَامًا﴾، لأذى إبراهيم بزدماً. وقال جوير، عن الضحاك: ﴿كُوِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، قال: صنعوا له حظيرة من حطب جزل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شيء، حتى أحمدها الله. قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يصبه منها شيء غير ذلك. وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مهران، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن المنهال بن عمرو قال: أخبرنا أن إبراهيم أُلْقِيَ في النار، فقال: كان فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنت أياًماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها. وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رُفِعَ عنه الطبق وهو في النار، وجده يزّشج جبينه، قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم. وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ.

[٤٦٠٨] وقال الزهري: أمر النبي - ﷺ - بقتله وسماه قُوسِقاً (٣).

[٤٦٠٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثني عمي، حدثنا جرير ابن حازم، أن نافعا حدثه قال: حدثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة فرايت في بيتها رُمحاً. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرُمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاع، إن رسول الله - ﷺ - قال: «إن إبراهيم حين أُلْقِيَ في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غَيْرَ الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم. فَأَمَرْنَا رسول الله - ﷺ - بقتله (٣). وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠)، أي: المغلوبين الأسفلين، لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجّاه من النار، فغلبوا هنالك. وقال عطية

= وقال: بخطي، وبخالف، وضعفه الجمهور. كذا وقع للهيتمي، وقد نسب الذهبي فقال: عاصم بن بهدلة اه وهو صدوق سمي الحفظ. ثم إن فيه أبو جعفر، وهو الرازي اسمه عيسى ابن عبد الله وضعفه الجمهور، وكذا فيه أبو هشام، محمد بن يزيد قال البخاري: رأيتهما جميعين على ضعفه. وقال ابن نمير: كان يسرق الحديث، والحديث ضعفه الذهبي بقوله: غريب جداً.

(١) لا يصح عن أمير المؤمنين، فلم تكد النار لتقتله، وهو بحفظ الله ورعايته، وفيه رجل لم يسم، والصواب أن يقال: لو لم يقل الله «وسلاماً» ربما قتله من بردها. والله أعلم.

(٢) هذا مرسل، ومراسيل الزهري واهية كما هو مقرر في كتب المصطلح، وانظر ما بعده.

(٣) إسناده ضعيف. فيه أحمد بن عبد الرحمن أبو عبيد الله: قال ابن عدي: رأيت شيوخ مصر جميعين على ضعفه، وقال ابن حبان: أتى بمناكير في آخر عمره. وقال ابن يونس: لا تقوم به حجة.

العوفي: لما ألقى إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه، فطار شراة فوقعت على إبهاميه، فأحرقته مثل الصوفة.

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرِيْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبِئْسَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾. قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة. وكذا قال أبو العالية أيضاً. وقال قتادة: كانا بأرض العراق، فأُنجيا إلى الشام، وكان يُقال الشام عِمَادُ دَارِ الْهَجْرَةِ، وما نَقَصَ من الأرض زيد في الشام، وما نَقَصَ من الشام زيد في فلسطين. وكان يُقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال. وقال كعب الأحبار في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾: إلى حرّان. وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة، وهي ابنة ملك حرّان، وقد طعنت على قومها في دينهم، ف تزوجها على ألا يُغَيِّرَهَا. رواه ابن جرير. وهو غريب، والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده. وقال العوفي، عن ابن عباس: إلى مكة، ألا تسمع قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال عطاء، ومجاهد: عطية. وقال ابن عباس، وقتادة، والحكم بن عتيبة: النافلة ولد الولد. يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿بَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَبِنَ وَكَوْلَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾، أي: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾، أي: يُقْتَدَى بِهِمْ، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يذْعُون إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾، من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾، أي: فاعلين لما يأمرون الناس به. ثم عطف بذكر لوط - وهو لوط بن هارون بن آزر - كان قد آمن بإبراهيم وأتبعه، وماجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْكَ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فاتاه الله حكماً وعِلْماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالقوه وكذبوه، فأهلكهم الله وذمر عليهم، كما قص خبرهم في غير ما موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرِيْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبِئْسَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ اسْتِجَابَتِهِ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي

مَقْلُوبًا فَانْتَصِرَ ﴿٧٦﴾ [القمر: ١٠]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٧٧﴾﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُبْغَادُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَالِجًا كَفَّارًا ﴿٧٨﴾﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ تَأَذَّى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾، أي: الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنُ وَمَا ءَامَنُ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله - عز وجل - فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه، ويتواصون قزناً بعد قزناً، وجيلاً بعد جيل على خلافه. وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾، أي: ونَجَّيناه وخَلَّصناه منتصراً من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٩﴾﴾، أي: أهلكهم الله بعامته، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً، إذ دعا عليهم نبيهم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّأَ آيَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَفِّيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قال أبو إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرمًا قد نبئت عناقيده. وكذا قال شريح. قال ابن عباس: النفث الرغي. وقال شريح، والزهرى، وقناة: النفث بالليل. زاد قتادة: والهمل بالنهار. قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم قالا: حدثنا المحاربي، عن أشعث، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾، قال: كرم قد أثبت عناقيده، فأنسدته، قال: ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس.

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد حدثنا خليفة، عن ابن عباس قال: قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينهم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث فيكون لهم أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويؤدر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حزنهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذ أصحاب الحرث الحرث، وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خديج، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن مسروق قال: الحرث الذي نفست فيه الغنم إنما كان كرمًا نفست فيه الغنم، فلم تدع فيه رقة ولا عثوداً من عنب إلا أكلته، فأنوا داود فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فتعطى أهل الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيغمره ويصلحوه، حتى يعود كالذي كان ليلة نفست فيه الغنم، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم. وهكذا قال شريح، ومرة، ومجاهد، وقناة، وابن زيد، وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شياء هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهراً أم ليلاً؟ فإن كان نهراً فقد برىء صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾... الآية. وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد عن الزهري، عن حزام بن مخيص:

[٤٦١٠] أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فقضى رسول الله - ﷺ - على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها^(١). وقد غُلل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا آيَتَنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حميد: أن إياس بن معاوية لما استغضي آتاه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبي داود وسليمان - عليهما السلام - والأنبياء - حكماً يراد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، فأنى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال: - يعني الحسن -: إن الله أخذ على الحكماء ثلاثة: لا يشتروا به ثمنًا قليلاً، ولا يتبعوا فيه الهوى، ولا يخشوا فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَذَارُؤُا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ وَكَانَ اللَّهُ عَالِمَ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْعُرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

قلت: أما الأنبياء - عليهم السلام - فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف.

[٤٦١١] وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله - ﷺ - «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(٢)، فهذا الحديث يراد نَصاً ما توهمه «إياس» من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

[٤٦١٢] وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار. رجل عليم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل عليم الحق وقضى بخلافه فهو في النار»^(٣). وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال:

(١) أخرجه أبو داود ٣٥٧٠ وأحمد ٤٣٦/٥ وابن ماجه ٢٣٣٢ وابن الجارود ٧٩٦ والحاكم ٤٧/٢ من طرق عن الزهري به. وفيه إرسال. وورد موصولاً عند أبي داود ٣٥٦٩ وأحمد ٤٣٦/٥ والبيهقي ٣٤٢/٨ من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن عبيدة عن أبيه به، وانظر مزيد الكلام عليه في «الأحكام» ١٤٩٧ لابن العربي بتخريري.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٣٥٢ ومسلم ١٧١٦ وأبو داود ٣٥٧٤ وأحمد ١٩٨/٤ وابن ماجه ٢٣١٤ وابن حبان ٥٠٦١.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٣٥٧٣ وابن ماجه ٢٣١٥ والحاكم ٩٠/٤ والبيهقي في «الشعب» ٧٥٣١ من حديث بريدة، وإسناده حسن. ويشهد له حديث ابن عمر عند الطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» ١٩٣/٤ والقضاعي ٣١٧ وقال الهيثمي: ورجاله ثقات.

[٤٦١٣] حدثنا علي بن حفص، أخبرنا ورقاء، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، ففُضِيَ به للكبرى، فخرجنا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشبه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله! هو ابنتها، لا تشقه. ففُضِيَ به للصغرى»^(١). وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما. وبُوب النسائي عليه في كتاب القضاء: «باب الحاكم يؤهم خلاف الحكم ليستعلم الحق».

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة سليمان - عليه السلام - من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، فذكر قصة مطوَّلة، ملخصها: أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود - عليه السلام - أنها مكنت من نفسها كلباً لها، قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها. فلما كان عشيّة ذلك اليوم جلس سليمان، واجتمع معه ولدان مثله، فانتصب حاكماً، وتزّيا أربعة منهم بزّي أولئك، وآخر بزّي المرأة وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرّقوا بينهم. فقال لأولئك: ما كان لو الكلب؟ فقال: أسود، فعزله، واستدعى الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغيش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم، فحكى ذلك لداود، فاستدعى من قوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلّفوا عليه، فأمر بقتلهم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنّم به تَفِيفَ الطير في الهواء فتجاوبه، وتردّ عليه الجبال تأويماً.

[٤٦١٤] ولهذا لما مرّ النبي - ﷺ - على أبي موسى الأشعري، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود» قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تخيير^(٣). وقال أبو عثمان النّهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بزيط^(٤) ولا مزامير مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه. ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أوتي مزامير من مزامير آل داود».

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾، يعني: صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً. كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ أَنِ امْلِكِ السَّيْفَ وَفَدَّرْ فِي الْكُرْبِ﴾ [سبا: ١٠-١١]، أي: لا توسع الحلقة، فتقلق السمار ولا تغلظ السمار فتتقد الحلقة، ولهذا قال: ﴿لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾، يعني: في القتال، ﴿فَقُلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾، أي: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم؟ وقوله: ﴿وَلَسَلَيْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾، أي: وسخرنا لسليمان الريح

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٢٧ و ٦٧٦٩ ومسلم ١٧٢٠ والنسائي ٢٣٤/٨ - ٢٣٦ وأحمد ٣٢٢/٢ و ٣٤٠ وابن حبان ٥٠٦٦.

(٢) هو متلفى عن أهل الكتاب، ولعله لا يصح عن ابن عباس أصلاً، فإن الوليد بن مسلم، يدلّس التسوية، وقد عنعن. وهو أثر غريب جداً.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٧٩٣ والنسائي في فضائل القرآن ٨٣ وأحمد ٣٤٩/٥ والبيهقي ٢٣٠/١٠ من حديث بريدة.

(٤) الصنج: صفيحة مدورة من صفر يُضرب بها على أخرى مثلها؛ والبريط: العود (وهما من آلات الموسيقى).

العاصفة، «تَمْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا»، يعني أرض الشام، «وَكُنَّا يَكْلُ ثَمَرَهُ عَالِينَ»، وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيول والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترقه وتسير به، وتظهر الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه، قال الله تعالى: «فَمَرَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَمْرِي بِأَمْرِهِ نُفَاةً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٨٣﴾ [ص: ٣٦]»، وقال: «غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ» [سبا: ١٢].

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عُيينة، عن أبي سنان، عن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمئة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتطيرهم، ثم يأمر الريح فتحمله - ﷺ - . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم - كالجبل - ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بقرس من ذوات الأجنحة فترتفع حتى تصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، فهو مطايع رأسه، ما يلتفت يمينا ولا شمالا، تعظيماً لله - عز وجل - وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله تعالى، حتى تضيئه الريح حيث يشاء أن تضئه.

وقوله تعالى: «وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُوَفُّوهُ لِمَ»، أي: في الماء يستخرجون الجواهر واللاكي، «وَيَسْلُوهُ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ»، أي: غير ذلك، كما قال تعالى: «وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءُ وَعَوَاسٍ ﴿٢٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ» [ص: ٣٧ - ٣٨]. وقوله: «وَكُنَّا لَهُمْ حَفَظِينَ»، أي: يحرسه الله أن يناله أحد الشياطين بسوء بل كل في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء. ولهذا قال: «وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ».

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَئِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

يذكر تعالى عن أيوب - عليه السلام - ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده - يقال بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله - عز وجل - حتى عافه الجليس، وأفرده في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله.

[٤٦١٥] وقد قال النبي - ﷺ -: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمتل فالأمتل»^(١).

[٤٦١٦] وفي الحديث الآخر «يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»^(٢).

وقد كان نبي الله أيوب - عليه السلام - غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك. وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب - عليه السلام - بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٣٩٨ وابن ماجه ٤٠٢٣ وأحمد ١٧٢/١ و١٨٥ والحاكم ٤١/١ من حديث سعد ابن أبي وقاص. وإسناده حسن لأجل عاصم بن بهدلة وله شواهد، وليس فيه قوله «ثم الصالحون».

(٢) هو تمة الحديث المتقدم انظر الإحسان ٢٩٠١ وجامع الأصول ٧٣٥٢.

ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفَرَّغْتَ قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدُوِّي إبليس بالذي صنعت حسدني! قال: فَلقِي إبليس من ذلك مُنْكَرًا. قال: وقال أيوب - عليه السلام -: يا ربَّ إنَّكَ أعطيتني المالَ والولدَ فلم يَقمْ على بابي أحدٌ يشكوني لظلم ظَلَمْتُهُ، وأنت تعلم ذلك. وإنه كان يُوطأ لي الفِرَاشُ فانْزَعَهُ وأقولُ لنفسي: يا نفسُ، إنك لم تُخلقي لوطءِ الفُرْشِ، ما تركت ذلك إلا ابتغاءَ وَجْهِكَ. رواه ابنُ أبي حاتم. وقد ذُكر عن وهب بن مُنبه في خَبَرِهِ قِصَّةٌ طويلةٌ ساقها ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم بالسندِ عنه، وذكرها غيرُ واحدٍ من متأخري المُفسرين، وفيها غرابةٌ تركناها لِحالِ الطول. وقد روي أنه مكث في البلاء مُدَّةً طويلةً ثم اختلفوا في السبب المُهِيجَ له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقادة: ابتلي أيوب - عليه السلام - سبع سنين وأشهرًا مُلقًى على كُناسة^(١) لبني إسرائيل، تَحْتَلِفُ الدوابُّ في جَسَدِهِ، فَفَرَّجَ اللهُ عنه، وعَظُمَ له الأجرُ، وأحسَنَ عليه الثناء. وقال وهب بن مُنبه: مكث في البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدي: تساقط لحمُ أيوبَ حتَّى لم يَبْقَ إلا العَصَبُ والعظامُ، فكانت امرأته تقومُ عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوبُ، لو دَعَوْتَ اللهَ فَفَرَّجَ عنكَ! فقال: قد عِشْتُ سبعين سنةً صحيحاً، فهل قليلُ الله أن أصيرَ سبعين سنةً؟ فَجَزَعَتْ من ذلك فَخَرَجَتْ، فكانت تعملُ للناسِ باجرٍ وتأتيه بما تُصيبُ فَتُطْعِمُهُ، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهلِ فِلَسْطِينَ كانا صديقين له وآخرين، فاتاهما فقال: أخوكما أيوبُ أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه زُوراه واحملاً مَعَكُما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه بَرَأ. فأتياه فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتم؟ فقالا: نحن فلانٌ وفلانٌ. فرحبَ بهما وقال: مرحباً بمن لا يجفوني عند البلاء. فقالا: يا أيوبُ، لعلك كنت تُسر شيئاً وتُظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فَرَفَعَ رأسه إلى السماء ثم قال: هو يَعْلَمُ، ما أسزرتُ شيئاً أظهرتُ غيره. ولكن ربِّي ابتلاني لينظرَ أأصيرُ أم أجزعُ؟ فقالا له: يا أيوبُ، اشرب من خمرنا، فإنك إن شربتَ منه بَرَأْتَ. قال: فَغَضِبَ وقال: جاءكما الخبيثُ فامركما بهذا؟ كلاكما وطعامكما وشرابكما عليَّ حَرَامٌ؟ فقاما من عنده، وخَرَجَتْ امرأته تعملُ للناسِ، فَخَبَزَتْ لأهل بيتٍ لهم صبي، فَجَعَلَتْ لهم قِرْصَةً وكان ابنُهم نائماً، فَكَرِهُوا أن يوقظوه، فَوَهَبُوهُ لها. فأتت به إلى أيوب، فأنكره وقال: ما كنتُ تأتيني بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر، قال: فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القُرْصَ فلم يجدْه، فهو يبكي على أهله، فأنطَلِقِي به إليه. فأقبلت حتى بَلَغَتْ دَرَجَةَ القومِ فَتَطَحَّتْهَا شاةً لهم فقالت: تَعِسَ أيوبُ الخَطَاةُ! فلما صَعِدَتْ وَجَدَتِ الصبي قد استيقظ وهو يطلب القُرْصَ، ويبكي على أهله، لا يقبلُ منهم شيئاً غَيْرَهُ، فقالت: رَحِمَ اللهُ أيوبُ! فدفعت إليه القُرْصَ وَرَجَعَتْ. ثم إن إبليس أتاه في صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سَقَمُهُ، فإذا أراد أن يَبْرَأَ فليأخذ دُبَاباً فليُدْبِجْه باسمِ صَنَمِ بني فلان، فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك؟ فقالت ذلك لأَيُوبَ، فقال: قد أتاك الخبيثُ، اللهُ عَلَيَّ إن بَرَأْتُ أن أجِلِدَ مائةَ جَلْدَةٍ! فخرجت تسعى عليه، فَحُظِرَ عنها الرزقُ، فَجَعَلَتْ لا تأتي أهلَ بَيْتِ قَرِيدُونَهَا، فلما اشتدَّ عليها ذاك وخافت على أيوب الجوعَ، حلقت من شعرها قرناً، فباعته من صَبِيَّةٍ من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً، فأتت به أيوبُ، فلما رآه أنكره، وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عَمِلْتُ لأناسٍ فأطعموني. فأكل منه، فلما كان الغد خَرَجَتْ فَطَلَبَتْ أن تعمل فلم تجد، فَحَلَقَتْ أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيوبُ، فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين

(١) ذكر الكناسة ونحو ذلك، لا يليق بأنبياء الله، وهو متلفى عن أهل الكتاب، لم يرد شيء من ذلك عن الصادق

هو؟ فَوَضَعَتْ جِمَارَهَا، فلما رأى رَأْسَهَا مَحْلُوقًا جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا، فعند ذلك دعا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنِّي مَسْفِيٌّ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ نَوْفٍ الْبِكَالِيِّ: أَنَّ الشَّيْطَانَ الَّذِي عَزَّجَ فِي أَيُّوبَ كَانَ يَقَالُ لَهُ: مِسْوَطٌ قَالَ: وَكَانَتْ امْرَأَةُ أَيُّوبَ تَقُولُ: ادْعُ اللَّهَ فَيُشْفِيكَ. فَجَعَلَ لَا يَدْعُو، حَتَّى مَرَّ بِهِ نَفَرٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا أَصَابَهُ إِلَّا يَذْنِبُ عَظِيمَ أَصَابَةٍ. فعند ذلك قال: «رَبِّ إِنِّي مَسْنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: كَانَ لِأَيُّوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَخَوَانِ فَجَاءَ يَوْمًا فَلَمْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَدْخُلَا مِنْهُ، مِنْ رِيحِهِ، فَقَامَا مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: لَوْ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا مِنْ أَيُّوبَ خَيْرًا مَا ابْتَلَاهُ بِهَذَا، فَجَزَعَ أَيُّوبَ مِنْ قَوْلِهِمَا جَزَعًا لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَبْتَ لَيْلَةً قَطُّ شَيْعَانٍ وَأَنَا أَعْلَمُ مَكَانَ جَائِعٍ فَصَدَقَنِي. فَصَدَّقَ مِنَ السَّمَاءِ وَهُمَا يَسْمَعَانِ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ يَكُنْ لِي قِيمِصَانٌ قَطُّ، وَأَنَا أَعْلَمُ مَكَانَ عَارٍ فَصَدَقَنِي. فَصَدَّقَ مِنَ السَّمَاءِ وَهُمَا يَسْمَعَانِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بِعِزَّتِكَ. ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لَا أَرْفَعُ رَأْسِي أَبَدًا حَتَّى تُكْشِفَ عَنِّي. فَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى كَشَفَ عَنْهُ.

[٤٦١٧] وقد رواه ابن أبي حاتم من وَجْهِ آخَرَ مَرْفُوعًا بِنَحْوِ هَذَا، فَقَالَ: أَخْبَرَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي نَافِعُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بِلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ لَهُ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرْوَحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعَلَّمْ - وَاللَّهِ - لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَزَحْمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ. فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَضْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأَتَكْفُرُ عَنْهُمَا كِرَاهَةً أَنْ يَذْكُرَا اللَّهَ إِلَّا فِي حَقٍّ. قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ فِي حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتْ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ: أَنْ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ^(٢). رَفَعَ هَذَا الْحَدِيثُ غَرِيبٌ جَدًّا.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ يُونُسَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: وَالْبَسَهُ اللَّهُ حُلَّةً مِنَ الْجَنَّةِ، فَتَنَحَّى أَيُّوبُ فَجَلَسَ فِي نَاحِيَةٍ، وَجَاءَتْ امْرَأَتُهُ فَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَيْنَ دَهَبَ هَذَا الْمُبْتَلَى الَّذِي كَانَ هَاهُنَا؟ لَعَلَّ الْكِلَابَ ذَقَعَتْ بِهِ أَوْ الذَّنَابُ، فَجَعَلْتُ تُكَلِّمُهُ سَاعَةً، فَقَالَ: وَيْحَكَ! أَنَا أَيُّوبُ! قَالَتْ: أَتَسَحَّرُ مِنِّي يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَنَا أَيُّوبُ، قَدْ

(١) هذا الأثر بطوله عن السدي، وهو يروي الكثير عن كتب الأقدمين، وهذا منها.

(٢) أخرجه البزار ٢٣٥٧ وأبو يعلى ٣٦١٧ وابن حبان ٢٨٩٨ والحاكم ٥٨١/٢ - ٥٨٢ ح ٤١١٥ والطبراني في «الطوال» ٤٠ وأبو نعيم ٣٧٤/٣ - ٣٧٥ كلهم عن نافع بن يزيد بهذا الإسناد، قال الحاكم: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٨٠٠: رجال البزار رجال الصحيح اهـ. وقال أبو نعيم: غريب من حديث الزهري لم يروه إلا عُقَيْلٌ، ورواه متفق على عدالتهم، تفرد به نافع اهـ. ورواه يونس بن يزيد عن عُقَيْلٍ عن الزهري مرسلاً، أسنده نعيم في «زوائد الزهد» ١٧٩. وانظر «البداية والنهاية» ٢٢٢/١ - ٢٢٣، والله أعلم.

رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ جَسَدِي. وبه قال ابن عباس: وَرَدَّ عَلَيْهِ مَالَهُ وَلَوْلَدَهُ عِيَانًا، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ. وقال وَهْبُ بْنُ مُثَنَّى: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ: قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْكَ أَهْلَكَ وَمَالَكَ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ، فَاغْتَسِلْ بِهَذَا الْمَاءِ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً، وَقُرْبَ عَنْ صَاحِبَتِكَ قُرْبَانًا، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ عَصَوْنِي فَيْكَ. رواه ابن أبي حاتم.

[٤٦١٨] وقال أيضاً: حَدَّثَنَا أَبُو رُزْعَةَ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مَرْزُوقٍ، حَدَّثَنَا هَمَامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الثُّغْرِيِّ ابْنِ أَنَسٍ، عَنْ بَشِيرِ بْنِ نَهْيَكٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «لَمَّا عَافَى اللَّهُ أَيُّوبَ أَمْطَرَ عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي نَفْسِهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ، أَمَا تَشْبَعُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ رَحْمَتِكَ؟!» أصله في الصَّحِيحَيْنِ، وسيأتي في مَوْضِعٍ آخَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْبَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾، قد تقدّم عن ابن عباس أنه قال: رُدُّوا عَلَيْهِ بِأَعْيَانِهِمْ. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً، وزوي مثله عن ابن مسعود ومجاهد. وبه قال الحسن وقتادة. وقد زعم بعضهم أن اسم رُؤُوسِهِمْ رَحْمَةً، فَإِنَّ كَانَ أَخَذَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ فَقَدْ أَبْعَدَ التَّجَمُّعَ، وَإِنْ كَانَ أَخَذَهُ مِنْ نَقْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَضَحَّ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فَهُوَ مِمَّا لَا يُصَدَّقُ وَلَا يَكْذَبُ. وقد سماها ابن عساکر في تاريخه - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - قَالَ: وَيُقَالُ: اسْمُهَا لَيًّا ابْنُهُ مِثْلًا بِنِيسَافِ بْنِ يَوْسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ بِنْتَ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: وَيُقَالُ: لَيًّا بِنْتُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، زَوْجَةُ أَيُّوبَ، كَانَتْ مَعَهُ بِأَرْضِ الْبَيْتَانَةِ. وقال مجاهد: قِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ، إِنْ أَهْلَكَ لَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ أَتَيْنَاكَ بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ تَرَكْنَاهُمْ لَكَ فِي الْجَنَّةِ، وَعَوَّضْنَاكَ مِثْلَهُمْ؟ قَالَ: لَا بَلْ أَتْرُكُهُمْ لِي فِي الْجَنَّةِ. فَتَرَكُوا لَهُ فِي الْجَنَّةِ وَعَوَّضَ مِثْلَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وقال حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن ثَوْبَانَ الْبَكَّالِيِّ قَالَ: أُوتِيَ أَجْرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَأُعْطِيَ مِثْلَهُمْ فِي الدُّنْيَا. قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ مُطَرِّفًا، فَقَالَ: مَا عَرَفْتُ وَجْهَهَا قَبْلَ الْيَوْمِ. وهكذا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ، وَالسَّيِّدِيِّ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾، أَي: فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ بِهِ، ﴿وَزَكَاةً لِلْعَالَمِينَ﴾، أَي: وَجَعَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ قَدَوَةً، لِئَلَّا يَظُنُّ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَنَّمَا فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِيَهْوَاهُمْ عَلَيْنَا، وَلِيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَقْدَرَاتِ اللَّهِ وَابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَلَهُ الْحُكْمُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ.

﴿وَأَسْمِعِلْ وَإُدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلًّا مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنْ الصَّالِحِينَ (٨٦)

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدّم ذكره في سورة مريم، وكذلك إدريس عليه السلام. وأما ذُو الْكِفْلِ فالظاهر من السياق أنه ما قُرِنَ مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا. وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقال ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾، قَالَ: رَجُلٌ صَالِحٌ غَيْرُ نَبِيٍّ، تَكْفَّلَ لِابْنِي قَوْمِهِ أَنْ يَكْفِيَهُ أَمْرَ قَوْمِهِ وَيُقِيمَهُمْ لَهُ، وَيَقْضِي بَيْنَهُم بِالْعَدْلِ، فَعَمِلَ ذَلِكَ، فَسُمِّيَ: ذَا الْكِفْلِ. وكذا روى ابن أبي نجيع، عن مجاهد أيضاً.

وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَفَّانٌ، حَدَّثَنَا وَهْبٌ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: لَمَّا كَبُرَ الْيَسَعُ قَالَ: لَوْ أَنِّي اسْتَخْلَفْتُ رَجُلًا عَلَى النَّاسِ يَعْمَلُ عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِي، حَتَّى أَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُ؟

فَجَمَعَ النَّاسَ، فَقَالَ: مَنْ يَتَقَبَّلُ بِثَلَاثٍ: أَسْتَخْلِفُهُ يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَتَقَوَّمُ اللَّيْلَ، وَلَا يَغْضَبُ؟ قَالَ: فقام رجلٌ تَزْدَرِيهِ الْعَيْنُ، فَقَالَ: أَنَا. فَقَالَ: أَنْتَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقَوَّمُ اللَّيْلَ، وَلَا تَغْضَبُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَرُدُّهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَقَالَ مِثْلَهَا فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ، فَسَكَتَ النَّاسُ، وَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَقَالَ: أَنَا. فَاسْتَخْلَفَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يَقُولُ لِلشَّيَاطِينِ: عَلَيْكُمْ بِفُلَانٍ. فَأَعْيَاهُمْ ذَلِكَ الرَّجُلُ، قَالَ: دَعُونِي وَإِيَاهُ، فَأَنَاهُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ كَبِيرٍ فَقِيرٍ، فَأَنَاهُ حِينَ أَخَذَ مَضْجَعَهُ لِلْقَائِلَةِ - وَكَانَ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِلَّا تِلْكَ النُّومَةَ - فَدَقَّ الْبَابَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَظْلُومٌ. قَالَ: فقام ففتح الباب، فجعل يقصُّ عليه، فقال: إِنْ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي خَصُومَةٌ وَإِنَّهُمْ ظَلَمُونِي، وَفَعَلُوا بِي وَفَعَلُوا. وَجَعَلَ يُطَوِّلُ عَلَيْهِ حَتَّى خَضِرَ الرِّوَاخُ وَذَهَبَتِ الْقَائِلَةُ، فَقَالَ: إِذَا رَحُتُ فَأَنْتِي أَخَذِ لَكَ بِحَقِّكَ. فَانْطَلَقَ، وَرَاحَ، فَكَانَ فِي مَجْلِسِهِ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ هَلْ يَرَى الشَّيْخَ؟ فَلَمْ يَرَهُ، فَقَامَ يَتَّبِعُهُ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ جَعَلَ يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ، وَيَنْتَظِرُهُ فَلَا يَرَاهُ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْقَائِلَةِ فَأَخَذَ مَضْجَعَهُ أَنَاهُ فَدَقَّ الْبَابَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ الْمَظْلُومُ. فَفَتَحَ لَهُ فَقَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ، إِذَا قَعَدْتُ فَأَتِنِي؟ قَالَ: إِنَّهُمْ أَخْبَثُ قَوْمَ، إِذَا عَزَفُوا أَنْكَ قَاعِدٌ قَالُوا: نَحْنُ نَعْطِيكَ حَقَّكَ وَإِذَا قَمَتِ جَحَدُونِي. قَالَ: فَانْطَلَقَ، فإِذَا رَحُتُ فَأَتِنِي. قَالَ: فَفَاتَتْهُ الْقَائِلَةُ، فَرَاحَ، فَجَعَلَ يَنْتَظِرُهُ وَلَا يَرَاهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ الثَّمَاعُ، فَقَالَ لِبَعْضِ أَهْلِهِ: لَا تَدْعُنَّ أَحَدًا يَقْرُبُ هَذَا الْبَابَ حَتَّى أَنَامَ، فَإِنَّهُ قَدْ شَقَّ عَلَيَّ النَّوْمَ. فَلَمَّا كَانَ تِلْكَ السَّاعَةُ جَاءَ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَرَاءَكَ وَرَاءَكَ. فَقَالَ: إِنِّي قَدْ أَتَيْتُهُ أَمْسَ فَذَكَرْتُ لَهُ أَمْرِي. فَقَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَقَدْ أَمَرْنَا أَلَّا تَدْعَ أَحَدًا يَقْرُبَهُ. فَلَمَّا أَعْيَاهُ نَظَرَ فَرَأَى كُوَّةً فِي الْبَيْتِ، فَتَسَوَّرَ مِنْهَا، فَإِذَا هُوَ فِي الْبَيْتِ، وَإِذَا هُوَ يَدُقُّ الْبَابَ مِنْ دَاخِلٍ، قَالَ: فَاسْتَيْقِظَ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا فُلَانُ، أَلَمْ أَمُرْكَ؟ فَقَالَ: أَمَا مِنْ قِبَلِي وَاللَّهِ فَلَمْ تُؤْتِ، فَانْظُرْ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟ قَالَ: فَقَامَ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُغْلَقٌ كَمَا أَغْلَقَهُ، وَإِذَا الرَّجُلُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، فَعَرَفَهُ، فَقَالَ: أَعَدُّوا اللَّهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَعْيَيْتَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَفَعَلْتُ مَا تَرَى لِأَغْضَبِكَ. فَسَمَّاهُ اللَّهُ ذَا الْكِفْلِ، لِأَنَّهُ تَكْفَّلَ بِأَمْرٍ، فَوَقَّى بِهِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ زُهَيْرِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ مُجَاهِدٍ، بِمِثْلِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عِيَاشَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ قَاضٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَخَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَقَالَ: مَنْ يَقُومُ مَقَامِي عَلَى الْأَلَامِ يَغْضَبُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. فَسَمِّيَ ذَا الْكِفْلِ. قَالَ: فَكَانَ لَيْلَهُ جَمِيعًا يَصَلِّي، ثُمَّ يُصْبِحُ صَائِمًا فَيَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ - قَالَ: وَلَهُ سَاعَةٌ يَقِيلُهَا - قَالَ: فَكَانَ كَذَلِكَ، فَأَنَاهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ نَوْمَتِهِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنْسَانٌ مُسْكِينٌ، لَهُ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ، وَقَدْ غَلَبَنِي عَلَيْهِ. قَالُوا: كَمَا أَنْتَ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ - قَالَ: وَهُوَ فَوْقَ نَائِمٍ - قَالَ: فَجَعَلَ يَصْبِحُ عَمْدًا حَتَّى يَوْقِظَهُ، قَالَ: فَسَمِعَ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنْسَانٌ مُسْكِينٌ، لَهُ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ. قَالَ: أَذْهَبَ فَقُلْ لَهُ يُعْطِيكَ. قَالَ: قَدْ أَبَى. قَالَ: أَذْهَبَ أَنْتَ إِلَيْهِ. قَالَ: فَذَهَبَ، ثُمَّ جَاءَ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: ذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَلَمْ يَرْفَعْ بِكَلَامِكَ رَأْسًا. قَالَ: أَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ يُعْطِيكَ حَقَّكَ. قَالَ: فَذَهَبَ، ثُمَّ جَاءَ مِنَ الْغَدِ حِينَ قَالَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: اخْرُجْ، فَقَالَ اللَّهُ بِكَ، تَجِيءُ كُلُّ يَوْمٍ حِينَ يَنَامُ، لَا تَدْعُهُ يَنَامُ؟ فَجَعَلَ يَصْبِحُ: مِنْ أَجْلِ أَنِّي إِنْسَانٌ مُسْكِينٌ، لَوْ كُنْتُ غَنِيًّا؟ قَالَ: فَسَمِعَ أَيْضًا، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: ذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَضَرَبَنِي. قَالَ: امْسِ حَتَّى أَجِيءَ مَعَكَ. قَالَ: فَهُوَ مَمْسُكٌ بِيَدِهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ ذَهَبَ مَعَهُ نَثْرَ يَدِهِ مِنْهُ، فَفَرَّ. وَهَكَذَا رَوَاهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ، وَابْنُ حُجْبِرَةَ الْأَكْبَرِ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ السَّلَفِ، نَحْوُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْجُمَاهِرِ، أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ بَشِيرٍ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَبِي كَنَانَةَ

الأخسر قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل نبياً، ولكن كان - يعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مئة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مئة صلاة، فسمي ذا الكفل. وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة قال: «قال أبو موسى الأشعري...». فذكره منقطعاً، والله أعلم.

[٤٦١٩] وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سَمِعْتُ من رسول الله - ﷺ - حديثاً لو لم أسمعهُ إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - ولكن قد سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ من ذلك، قال: كان الكُفْلُ من بني إسرائيل، لا يتورع من ذنب عجله، فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قَعَدَ منها مَقْعَدَ الرجل من امرأته، أزعجت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتُك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حَمَلَنِي عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ ثم نَزَلَ فقال: اذهبي فالدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكُفْلُ أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابهِ: قد غَفَرَ الله للكُفْلِ^(١). هكذا وقع في هذه الرواية: «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يُخْرَجْه أحدٌ من أصحاب الكتب الستة^(٢)، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فَلَعَلَّهُ رَجُلٌ آخَرُ، والله أعلم.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْغَمْرِ وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

هذه القصة مذكورة هاهنا وفي سورة «الصفات» وفي سورة «ن»، وذلك أن يونس بن متى - عليه

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٤٩٦ وأحمد ٢٣/٢ والحاكم ٢٥٤/٤ ح ٧٦٥١ وصححه! وسكت الذهبي! مع أن في إسناده سعد مولى طلحة، وهو مجهول كما في التقريب. وأخرجه ابن حبان ٣٨٧ عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن عبد الله الرازي إلا أنه قال: عن سعيد بن جبيرة عن ابن عمر، وهذا إسناده ظاهره الحسن لكنه معلول. قال الترمذي عقب روايته: حديث حسن، ورواه غير واحد عن الأعمش، رفعوه، ورواه بعضهم عن الأعمش فلم يرفعه. ورواه أبو بكر بن عياش، فأخطأ فيه، فقال عن سعيد بن جبيرة عن ابن عمر، وهو غير محفوظ اهـ فالحديث إنما هو عن سعد مولى طلحة، وقد ذكره الذهبي في «الميزان» ٣١٣٠ فقال: عن ابن عمر، وعنه عبد الله الرازي فقط، وهذا إشارة منه إلى جهالته. وهناك علة أخرى، وهي الاضطراب في المتن ففي مسند أحمد وسنن الترمذي والمستدرک «كان الكفل» وعند ابن حبان «ذو الكفل». وعند ابن حبان «سمعت أكثر من عشرين مرة» وعند غيره «سبع مرات». ولو كان حدث به النبي ﷺ «سبع مرات» لرواه جمع من الصحابة غير ابن عمر. بل جاء عند ابن حبان «عشرين مرة» فكيف ذلك ولا يرويه إلا رجل مجهول، فأما الوهن على هذا الخبر ظاهرة، وقد جاء في قصة «أصحاب الغار الثلاثة الذين توسلوا بصالح أعمالهم» نحو هذا، وهو أصح. والله تعالى أعلم.

تنبيه: ولفظ «ذو الكفل» كما وقع في رواية ابن حبان، لا يصح البتة، فقد جاء ذكره مع الأنبياء، ووصفه الله بالصبر، والحديث يذكر أنه مات من ليلته التي تاب فيها. فلم يكن منه صبر، والحديث ضعيف بكل حال كما تقدم، والله تعالى أعلم.

(٢) كذا وقع للمصنف رحمه الله، وتقدم أن الترمذي قد رواه، والله تعالى أعلم.

السلام - بعثه الله إلى أهل قرية «نِيْنَوَى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادهما، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، وزعت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادهما، وثغيت الغنم وحملاتها. فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَاثَنَتْ فَتَقَعَهَا لِئَمَّا تَوَارَ يُونُسَ لَعْنَا ءَامِنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْغَرْزِ فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَنَقَّصْنَا إِلَى يَمِينٍ ۝﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم سفينة فلججت بهم وخافوا أن تفرق بهم، فافترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفقون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٤١]، أي: وقعت عليه القرعة، فقام يونس - عليه السلام - وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله - سبحانه وتعالى - من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا يأكل له لحماً، ولا يهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطئك يكون له سجيناً.

وقوله تعالى: ﴿وَذَا الَّتُون﴾، يعني الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْنِبًا﴾، قال الضحاك: لقومه ﴿فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نضيق عليه في بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُوِّرَ عَلَيْهِ رَيْقُهُ فَلْيَبْقُ وَمَا ءَلَنَّهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَكُفُّ اللَّهُ قَسَا إِلَّا مَا ءَاتَيْنَاهُ مَبْجَعًا ۚ اللَّهُ بِدَسِّسِ مَكْرٍ﴾ [الطلاق: ٧]. وقال عطية العوفي: ﴿فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: نقضي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قُدر وقُدر بمعنى واحد، قال الشاعر:

فَلَا عَائِدَ ذَاكَ الزَّمَانُ الَّذِي مَضَى تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرُ يَكُنْ، فَلَكَ الْأَمْرُ

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى آلَمَاءُ عَلَىٰ أَمْرِ قَدَرٍ﴾ [القمر: ١٢]، أي: قُدر. وقوله: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روي عن ابن عباس، وعمر بن ميمون، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادة. وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت، في بطن حوت آخر، في ظلمة البحر. قال ابن مسعود، وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها، حتى انتهى به إلى قرار البحر حتى سمع يونس تسبيح الحصى في قراره. فعند ذلك وهالك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ﴾. وقال عوف الأعرابي: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضع ما اتخذ أحد من الناس. وقال سعيد بن أبي الحسن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما ابن جرير.

[٤٦٢٠] وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن حذته، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخذش له لحماً ولا تكسر عظماً. فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس جساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح ذواب البحر. قال: فسبح وهو في بطن

الحوت، فَسَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ تَسْبِيحَهُ فَقَالُوا: يَا رُبَّنَا إِنَّا نَسْمَعُ صَوْتًا ضَعِيفًا بِأَرْضِ غَرِيبَةٍ! قَالَ: ذَلِكَ عَبْدِي يُونُسَ، عَصَانِي فَجَبَسْتُهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ. قَالُوا: الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ إِلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَشَفَعُوا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَمَرَ الْحُوتَ فَقَذَفَهُ فِي السَّاحِلِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَوْ سَيِّئًا﴾^(١). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَرَوَاهُ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ، مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَذَكَرَهُ بَنُوهُ، ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَمُهُ يُرَوَّى عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ.

[٤٦٢١] وَرَوَى ابْنُ عَبْدِ الْحَقِّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَةَ، عَنْ عَلِيٍّ مَرْفُوعًا: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى، سَبَّحَ اللَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ»^(٢). وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَسَيَّاتِي أَسَانِيدُهَا فِي سُورَةِ «ن».

[٤٦٢٢] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ اللَّهُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَخِي ابْنِ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا عَمِّي: حَدَّثَنِي أَبُو صَخْرٍ أَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيُّ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - وَلَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنْ أَنَسًا يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يُونُسَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ يَدَا لَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، قَالَ: اللَّهُمَّ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فَأَقْبَلَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ تَحْفَ بِالْعَرْشِ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، صَوْتُ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ مِنْ بِلَادِ غَرِيبَةٍ؟ فَقَالَ: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَاكَ؟ قَالُوا: لَا، يَا رَبَّنَا، وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: عَبْدِي يُونُسَ. قَالُوا: عَبْدُكَ يُونُسَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لَهُ عَمَلًا مُتَقَبِّلًا، وَدَعْوَةً مُجَابَةً؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: يَا رَبِّ أَفَلَا تَرَحَّمُ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرِّخَاءِ فَتُنَجِّيه مِنَ الْبَلَاءِ؟ قَالَ: بَلَى. فَأَمَرَ الْحُوتَ فَطَرَحَهُ فِي الْعَرَاءِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾، أَي: أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ وَتِلْكَ الظُّلُمَاتِ، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، أَي: إِذَا كَانُوا فِي الشَّدَائِدِ وَدَعَوْنَا مُنِيبِينَ إِلَيْنَا، وَلَا سِيَّامَا إِذَا دَعَا بِهَذَا الدُّعَاءِ فِي حَالِ الْبَلَاءِ، فَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعَاءِ بِهَا عَنْ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ.

[٤٦٢٣] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَمَرَ، حَدَّثَنَا يُونُسَ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنِي وَالِدِي مُحَمَّدٌ، عَنْ أَبِيهِ سَعْدٍ - وَهُوَ ابْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: مَرَزْتُ بَعْثَمَانَ بْنَ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي الْمَسْجِدِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلَأَ عَيْنِيهِ مَنِي ثُمَّ لَمْ يَرُدِّدْ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَأَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ حَدَّثَ فِي الْإِسْلَامِ شَيْءٌ؟ مَرَّتَيْنِ، قَالَ: لَا، وَمَا ذَاكَ؟

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٢٤٧٧٨ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَفِيهِ رَاوٍ لَمْ يَسْمُ. وَأَخْرَجَهُ الْبَزَّازُ ٢٢٥٤ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ سَقَطُ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ ابْنِ إِسْحَاقَ وَعَبْدِ اللَّهِ، فَابْنُ إِسْحَاقَ مَدْلَسٌ، وَقَدْ نَعْنَعَ هَهُنَا، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» ١١٣٠٢: رَوَاهُ الْبَزَّازُ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَسْمُهُ. وَفِيهِ ابْنُ إِسْحَاقَ مَدْلَسٌ أَيْ. فَالْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ، وَلَهُ شَاهِدٌ ضَعِيفٌ، وَهُوَ الْآثِي.

(٢) إِسْنَادُهُ غَيْرُ قَوِيٍّ مِنْ أَجْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَمَةَ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمَصْنَفِ» ٣١٨٥٤ وَالتُّحَاوِي فِي «الْمَشْكَلِ» ١٠١٣ مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ عَنْ ابْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ... فَذَكَرَهُ وَلَمْ يَرْفَعِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الْفَرَجِ بَعْدَ الشَّدَةِ» ٣٢ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَفِيهِ يَزِيدُ بْنُ أَبَانَ الرَّقَاشِيُّ ضَعِيفٌ، وَعَنْهُ أَبُو صَخْرٍ حَمِيدُ بْنُ زِيَادٍ يَخْتَلِفُ فِيهِ، ضَعْفُهُ النَّسَائِيُّ، وَوَقَّعَهُ يَحْيَى وَابْنُ حَبَانَ، وَيَشْهَدُ لَهُ مَا قَبْلَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قلت: لا، إلا أتني مررت بعثمان آنفاً في المسجد، فسلمت عليه، فعلاً عينيه وبني، ثم لم يزد علي السلام: قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما متك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. حتى خلعت وخلعت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، واستغفر الله وأتوب إليه، إنك مزرت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله - ﷺ - لا والله ما ذكرت قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة. قال سعد: فأنا أنيثك بها، إن رسول الله - ﷺ - ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشق له، حتى قام رسول الله - ﷺ - فأتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله - ﷺ - فقال: من هذا؟ أبو إسحاق؟ قال قلت: نعم، يا رسول الله، قال: «فمه» قلت: لا والله إنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابي فشق لك، قال: نعم دعوة ذي النون، إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له^(١). ورواه الترمذي والنسائي في «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد، به.

[٤٦٢٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن المطلب بن خنط - قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب - يعني ابن سعيد - عن سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: من دعا بدعاء يؤس استجيب له. قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

[٤٦٢٥] وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بشر بن منصور، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى. قال قلت: يا رسول الله، هي ليؤس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليؤس بن متى خاصة ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿تَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَبَبْنَا مِنَ الْعَذِّ وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سريج، حدثنا داود بن المحبر بن قحذم المقدسي، عن كثير بن مغيد قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابن أخي، أما تقرأ القرآن؟ قول الله عز وجل: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

(١) أخرجه أحمد ١٧٠/١ وأبو يعلى ٧٧٢ من طريق إسماعيل بن عمر به، وإسناده صحيح. وأخرجه الترمذي ٣٥٠٥ والنسائي في «الكبرى» ١٠٤٩٢ وصححه الحاكم ٥٠٥/١ و٣٨٢/٢ و٣٨٣ ووافقه الذهبي من طريق إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن سعد به مختصراً، ويؤيده ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أبو يعلى ٧٠٧، ورجاله ثقات. خلا كثير بن زيد، وهو صالح الحديث، ويشهد لما قبله.

(٣) إسناده ضعيف، أخرجه الحاكم ٥٠٥/١ - ٥٠٦ ح ١٨٦٥ والطبري ٢٤٧٧٩ كلاهما من حديث سعد، وفي إسناده الطبري، علي بن زيد، وهو ضعيف. وعند الحاكم عمرو بن بكر السكسكي الرمي، قال ابن عدي: له مناكير عن الثقات، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات الطامات، وقال الذهبي: أحاديثه موضوعة. وذكر الحاكم أحاديث في اسم الله الأعظم تعارضه، وهي أصح من هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (٩١)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا، حِينَ طَلَّبَ أَنْ يَهَبَهُ اللَّهُ وَلَدًا، يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا. وَقَدْ تَقَدَّمتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ سُورَةِ «مَرْيَمَ» وَفِي سُورَةِ «آلِ عِمْرَانَ» أَيْضًا، وَهَاهُنَا أَخْصَرُ مِنْهُمَا، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾، أَي: خَفِيَّةً عَنْ قَوْمِهِ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، أَي: لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَارِثَ يَقُومُ بَعْدِي فِي النَّاسِ، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، دَعَاءٌ وَثَنَاءٌ مَنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجُهُ﴾ أَي: امْرَأَتَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَتْ عَاقِرًا لَا تَلِدُ، فَوَلَدَتْ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَطَاءٍ: كَانَ فِي لِسَانِهَا طَوْلٌ فَاصْلَحَهَا اللَّهُ. وَفِي رَوَايَةٍ: كَانَ فِي خَلْقِهَا شَيْءٌ فَاصْلَحَهَا اللَّهُ. وَهَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالسَّدي. وَالْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ الْأَوَّلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، أَي: فِي عَمَلِ الْفُرَاتِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، قَالَ الثَّورِيُّ: ﴿رَغَبًا﴾، فِيمَا عِنْدَنَا، وَ﴿وَرَهَبًا﴾، مِمَّا عِنْدَنَا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَي مُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ. وَقَالَ مَجَاهِدٌ: مُؤْمِنِينَ حَقًّا. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: خَافِيَيْنِ. وَقَالَ أَبُو سَيَّانٍ: الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا. وَعَنْ مَجَاهِدٍ أَيْضًا ﴿خَشِيعِينَ﴾، أَي: مُتَوَاضِعِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ: ﴿خَشِيعِينَ﴾ أَي: مُتَذَلِّلِينَ لِلَّهِ عِزًّا وَجَلًّا. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّنَافِسيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْفَرَّسِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدُ، فَلَنِي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَتَشْوَاهُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَتَخْلُطُوا الرُّغْبَةَ بِالرُّهْبَةِ، وَتَجَمُّعُوا الْإِلْحَافَ بِالْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ عِزٌّ وَجَلُّ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرَجَهَا فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١)

هَكَذَا يَقْرُنُ تَعَالَى قِصَّةَ مَرْيَمَ وَأَبْنَاهَا عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ زَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَيَذْكُرُ أَوَّلًا قِصَّةَ زَكَرِيَّا، ثُمَّ يَتْبَعُهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ، لِأَنَّ تِلْكَ مُوَطَّئَةٌ لِهَذِهِ، فَإِنَّمَا إِيْجَادُ وَلَدٍ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ قَدْ طَعَنَ فِي السَّنِّ، وَمِنْ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ عَاقِرٍ لَمْ تَكُنْ تَلِدُ فِي حَالِ شَبَابِهَا، ثُمَّ يَذْكُرُ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَهِيَ أَعْجَبُ، فَإِنَّمَا إِيْجَادُ وَلَدٍ مِنْ أَنْثَى بِلَا ذَكَرٍ. هَكَذَا وَقَعَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَفِي سُورَةِ مَرْيَمَ، وَهَاهُنَا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ. فَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرَجَهَا فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾، يَعْنِي مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ. كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرَجَهَا فَفَتَحْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التَّحْرِيمُ: ١١٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، أَي: دَلَالَةً عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) [يس: ٨٢]. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ لَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مَرْيَمَ: ٢١]. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ، عَنْ شَيْبٍ - يَعْنِي ابْنَ يَشْرِ - عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، قَالَ: الْعَالَمِينَ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَهِنَا رَجِعُوتٌ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَإِنَّمَا كُنَّا لَكُمْ فَاكِهِينَ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصري في هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: سئلتكم سنة واحدة. فقوله ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إن واسمها، وأمتكم خبر إن، أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم. وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا لَكُمْ فَاكِهِينَ﴾، كما قال: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٩١) وَلَئِنْ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٩٢﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

[٤٦٢٦] وقال رسول الله - ﷺ -: «نحن مفسر الأنبياء أولاد علات» (١) يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسوله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاهٌ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾، أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال: ﴿كُلَّ إِلَهِنَا رَجِعُوتٌ﴾، أي: يوم القيامة، فيجازي كلًا بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، أي: قلبه مصدق، وعمل عملاً صالحاً، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَمْرًا مِنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، أي: لا نكفر سعيه، وهو عمله، بل نشكر، فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّمَا لَكُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَلَا يَضِيعُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي بُيُوتِهِمْ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى قَرْبَةٍ﴾، قال ابن عباس: وجب. يعني قدراً مقدراً أن كل أهل قرية أهلوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. وهكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة، وغير واحد. وفي رواية عن ابن عباس: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: لا يتوبون. والقول الأول أظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، قد قدمنا أنهم من سلالة آدم - عليه السلام - بل هم من نسل نوح أيضاً، من أولاد يافث أبي الترك، والترك شردمة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين. وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَاءَ دَكَّ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨) وَرَكَعًا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِ وَيَعْلَمُ مَا يَنْسُو فِي السُّورِ لَمَجْمَعُهُمْ جَمًّا [الكهف: ٩٨ - ٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦). أي: يسرعون في المشي إلى الفساد. والحَدَبُ: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثوري، وغيرهم. وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يَنْتَكِلِيكَ مِنْ خَلْقٍ﴾ [فاطر: ١٤]، هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: رأى ابن عباس صبيانا ينزرو بعضهم على بعض، يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج بأجوج ومأجوج. وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

[٤٦٢٧] فالحديث الأول، قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول «يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾»، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يئساً، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء. قال: ثم يهزأ أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مختبئة دماً، للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كنف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصيحون موتي لا يسمع لهم جرس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه، قد أوطئها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتي، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فيما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر^(١) عنه كإحسن ما شكرت عن شيء من الثبات أصابته قط^(٢). ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، به.

[٤٦٢٨] الحديث الثاني، قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي، عن أبيه، أنه سمع الثؤاس بن سفعان الكلبي قال: ذكر رسول الله - ﷺ - الدجال ذات غداة، فخفض فيه وزقع. حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عَرَفَ ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه وزقمت حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: غير الدجال أخوفني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب جعد قَطَطَ عينه طافية، وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق، فعات يميناً وشمالاً، يا عباد الله، اثبتوا. قلنا: يا رسول الله، ما لبثته في الأرض؟ قال: أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهري، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: لا، لا أقدروا له قذره. قلنا: يا رسول الله، فما إسرعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح. قال: فيمر بالحي فيدعوهم، فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذراً، وأمده خواصر، وأسبغه ضروراً. ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصيحون مُجِلين، ليس لهم من أموالهم شيء! ويمر بالخرية فيقول لها: «أخرجي كنوزك». فتتبعه كنوزها كيغاييب النحل. قال: ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية كنوزك^(٣).

(١) تشكر: أي تشمن.

(٢) حسن. أخرجه ابن ماجه ٤٠٧٩ وأحمد ٧٧/٣ وأبو يعلى ١٣٥١ والحاكم ٤٨٩/٤ - ٤٩٠ وابن حبان ٦٨٣٠ وصحح إسناده البوصيري في الزوائد، وكذا الحاكم، ووافقه الذهبي، وانظر الصحيحة ١٧٩٣.

الْعَرَضُ، ثم يدعوه فيقبل إليه يتهلَّل وجهه. فبينما هم على ذلك إذ بَعَثَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - المسيح ابن مَرْيَمَ، فينزُل عند المَنَارَةِ البيضاء، شرقي دِمَشقَ، بين مَهْرُودَتَيْنِ واضعاً يَدَهُ على أجنحةِ مَلَكَين، فيتبعُهُ فَيُذَرِّكُهُ، فيقتله عند باب لُدَّ الشَّرْقِيِّ. قال: فبينما هم كذلك إذ أوحى الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى عيسى ابن مَرْيَمَ أَنِّي قد أخرجتُ عباداً من عبادي لا يَدَانِ لك بقتالهم، فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور، فبيعت الله - عَزَّ وَجَلَّ - ياجوجَ ومأجوجَ وهم كما قال الله: ﴿مِن كَلْبٍ يَنْسِلُونَ﴾، فیرَغَبَ عيسى وأصحابه إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - فیرسل الله عليهم نَعْفًا^(١) في رقابهم، فيصبحون فَرَسَى، كموت نفس واحدة. فيهبطُ عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد مَلَأَ زَهْمُهُمْ وَنَثْنُهُمْ، فیرَغَبَ عيسى وأصحابه إلى الله فیرسل عليهم طيراً كاعناق البُخْتِ^(٢)، فتحمِلُهُمْ فتطرَحُهُمْ حيث شاء الله. قال ابنُ جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السُّكْسَكِيُّ، عن كعب أو غيره، قال: فتنطرحهم بالمَهْبِلِ. قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المَهْبِلُ؟ قال: مَطْلِعُ الشَّمْسِ. قال: ويرسلُ الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَةِ، ويقال للأرض: أَنبَتِي ثَمَرَتِكَ، وَرَدِّي بَرَكَتِكَ. قال: فيومئذ يأكل النَّفَرُ من الرَّمَانَةِ وَيَسْتَظِلُّون بِقُحْفِيهَا، وَيُبَارِكُ فِي الرُّسُلِ، حتى إن اللَّفْحَةَ من الإبل لتكفي الْفَقَامَ من الناس، واللَّفْحَةَ من البقر تكفي الْفَخْدَ^(٣). والشاة من الغنم تكفي أهل البيت. قال: فبينما هم على ذلك إذ بَعَثَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - ريحاً طيبة تحت آباطهم فتقبضُ رُوحَ كُلِّ مسلم - أو قال: كُلِّ مؤمن - ويبقى شرارُ الناس يتهازجون تهازجَ الحمير، وعليهم تقوم الساعة^(٤). انفرد بإخراجه مُسلمٌ دونُ البخاري، فرواه مع بَقِيَّةِ أَهْلِ السُّنَنِ من طُرُقٍ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به. وقال الترمذي: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٤٦٢٩] الحديث الثالث، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، عن ابن حزملة، عن خالته قالت: خَطَبَ رسولُ الله - ﷺ - وهو عاصِبٌ إضْبَعُهُ من لَذْعَةِ عَقْرِبٍ، فقال: إنكم تقولون: لا عَدُوٌّ لكم. وإنكم لا تزالون تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا حتى يأتي ياجوجَ ومأجوجَ عِراضَ الوجوه صغارَ العيون، شَهَبَ الشَّعَافِ من كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، كان وجوههم المَجَانُ الْمُطَرَّقَةَ^(٥). وكذا رواه ابنُ أبي حاتم من حديث مُحَمَّد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن حزملة المَدْلِجِيِّ، عن خالته له، عن النبي - ﷺ - فذكره مثله سَوَاءً.

[٤٦٣٠] الحديث الرابع: قد تقدَّم في تفسير آخرِ سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن هُشَيْمٍ، عن العَوَامِ، عن جَبَلَةَ بن سُهَيْمٍ، عن مُؤَيَّرِ بن عَفَّازَةَ، عن ابن مسعود، عن رسول الله - ﷺ - قال: «لَقِيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - قال: فتذاكروا أمر الساعة، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى، فقال: لا علم لي بها. فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى، فقال: أما وَجِبَتْهَا فلا يعلم بها أحدٌ إلا الله، وفيما عهدُ لي ربي أن الدجال خارج. قال: ومعِي قَضِيْبَانِ، فإذا رأيَ ذاب كما يَذُوبُ الرِّصَاصُ، قال: فَيُهْلِكُهُ الله إذا رأيَ، حتى إنَّ الْحَبَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ: يا مسلم إن تحتي كافرًا فتعال

(١) النَّعْفُ: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٢) البُخْت: النوق الخراسانية، وما وراء النهر.

(٣) بعض القبيلة. كني هاشم، فأنهم بعض قريش.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٣٧ وأبو داود ٤٣٢١ والترمذي ٢٢٤٠ والنسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٣ وابن ماجه ٤٠٧٥.

(٥) حسن. أخرجه أحمد ٢٧١/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/٦ وزاد نسبه للطبراني وقال: ورجالهما رجال الصحيح.

فَاتَّقِلْهُ. قَالَ: فَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسَ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطْنُونَ بِلَادَهُمْ، لَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكَوهُ، وَلَا يَمْزُؤُونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ. قَالَ: ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ يَشْكُوهُمْ فَأَدْعُو اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَيَهْلِكُهُمْ وَيَمِيتُهُمْ، حَتَّى تَجْوَى الْأَرْضُ مِنْ ثَنِّ رِيحِهِمْ، وَيُنْزِلُ اللَّهُ الْمَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ، حَتَّى يَقْذِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ. فَفِيمَا عَهْدٌ إِلَيَّ رَبِّي أَنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ اللَّيْتِمِ، لَا يَذَرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجُؤُهُمْ بَوْلادِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا^(١). وَرواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العَوَّامِ بْنِ حَوْشَبٍ، بِهِ نَحْوُهُ وَزَادَ: «قَالَ الْعَوَّامُ، وَوُجِدَ تَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَوَّصَ إِذَا فُيَعَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾». وَرواه ابن جرير هاهنا مِنْ حَدِيثِ جَبَلَةَ، بِهِ. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرٌ جَدًّا. وَالْأَثَارُ عَنِ السَّلَفِ كَذَلِكَ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ، عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هَلَالٍ، عَنْ أَبِي الصَّنِيفِ قَالَ: قَالَ كَعْبٌ: إِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حَفَرُوا حَتَّى يَسْمَعَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَرْعَ قُؤُوسِهِمْ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ قَالُوا: نَجِيءُ غَدًا فَنَخْرُجُ. فَيَعِيذُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَجِيثُونَ مِنَ الْغَدِ، فَيَجِدُونَهُ قَدْ أَعَادَهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ. فَيَحْفِرُونَهُ حَتَّى يَسْمَعَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَرْعَ قُؤُوسِهِمْ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَلْقَى اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: نَجِيءُ غَدًا فَنَخْرُجُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَيَجِيثُونَ مِنَ الْغَدِ فَيَجِدُونَهُ كَمَا تَرَكَوهُ. فَيَحْفِرُونَ حَتَّى يَخْرُجُوا. فَتَمُرُّ الزُّمْرَةُ الْأُولَى بِالْبَحِيرَةِ فَيَشْرَبُونَ مَاءَهَا، ثُمَّ تَمُرُّ الزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ فَيَلْحَسُونَ طِينَهَا، ثُمَّ تَمُرُّ الزُّمْرَةُ الثَّالِثَةُ فَيَقُولُونَ: قَدْ كَانَ هَاهُنَا مَرَّةً مَاءٌ، وَيَفِرُّ النَّاسُ مِنْهُمْ، لَا يَقُومُ لَهُمْ شَيْءٌ. ثُمَّ يَزْمُونَ بِسَهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ مَخْضُطَةً بِالدَّمَاءِ فَيَقُولُونَ: غَلَبْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَأَهْلَ السَّمَاءِ. فَيَدْعُو عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ، لَا طَاقَةَ وَلَا يَدَيْنَ لَنَا بِهِمْ، فَافْكُنَاهُمْ بِمَا شِئْتَ. فَيَسْلُطُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ دُودًا يَقَالُ لَهُ الثُّغْفُ، فَيَفْرُسُ رِقَابَهُمْ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا تَأْخُذُهُمْ بِمَنَاقِبِهَا فَتَلْقِيهِمْ فِي الْبَحْرِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ غَيْنًا يَقَالُ لَهَا: الْحَيَاةُ، يُطَهِّرُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيُنْبِتُهَا، حَتَّى إِنَّ الرَّمَاةَ لِيَشْبِعَ مِنْهَا السُّكُنَ - قِيلَ: وَمَا السُّكُنُ يَا كَعْبُ؟ قَالَ: أَهْلُ الْبَيْتِ - قَالَ: فَبَيْنَمَا النَّاسُ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاهُمُ الصَّرِيخُ أَنْ ذَا السُّوَيْقَتَيْنِ يَرِيدُهُ فَيَبْعَثُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ طَلِيعَةً سَبْعِمِئَةً، أَوْ بَيْنَ السَّبْعِمِئَةِ وَالثَّمَانِمِئَةِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا يَمَانِيَةً طَلِيَّةً، فَيَقْبِضُ فِيهَا رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ، ثُمَّ يَبْقَى عَجَاجُ النَّاسِ، فَيَتَسَافَدُونَ كَمَا تَتَسَافَدُ الْبَهَائِمُ، فَمَثَلُ السَّاعَةِ كَمَثَلِ رَجُلٍ يُطِيفُ حَوْلَ فَرَسِهِ يَنْتَظِرُهَا مَتَى تَضَعُ؟ قَالَ كَعْبٌ: فَمَنْ تَكَلَّفَ بَعْدَ قَوْلِي هَذَا شَيْئًا أَوْ: بَعْدَ عِلْمِي هَذَا شَيْئًا - فَهُوَ الْمُتَكَلِّفُ. هَذَا مِنْ أَحْسَنِ سِيَاقَاتِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، لَمَّا شَهِدَ لَهُ مِنْ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ، وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَحْجُ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ.

[٤٦٣١] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عُمَرَانُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عُبَيْةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَيَحْجُنَ هَذَا الْبَيْتُ، وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»^(٢). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا وَجِدْتَ هَذِهِ الْأَهْوَالَ وَالزَّلَازِلَ وَالْبَلَابِلَ أَزَقْتَ السَّاعَةَ وَاقْتَرَبْتَ، فَإِذَا كَانَتْ وَوَقَّعْتَ قَالَ الْكَافِرُونَ: «هَذَا يَوْمٌ غَيْرٌ» [القم: ٨]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، أَي: مِنْ شِدَّةِ مَا يَشَاهِدُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ. «يَتَوَلَّوْنَ» أَي: يَقُولُونَ: «يَتَوَلَّوْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا»، أَي: فِي الدُّنْيَا، «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ»، يَغْتَرَفُونَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ.

(١) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ١٨٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٧.

منهم - أو قال: سَعِدَ منهم - قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يَجْرُ ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَمِيسَهُ﴾.

وقال شعبة، عن أبي بشر، عن يوسف المَكِّي، عن محمد بن حاطب قال: سَمِعْتُ علياً يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾، قال: عُثْمَانُ وَأَصْحَابُهُ. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعيد - وليس بابن مَاهِك - عن محمد بن حاطب، عن علي، فذكره ولفظه: عُثْمَانُ مِنْهُمْ. وقال علي بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾: فأولئك أولياء الله يَمُرُّونَ عَلَى الصُّرَاطِ مَرًّا هُوَ أَسْرَعُ مِنَ الْبَرْقِ، ويبقى الكفار فيها جِثِيًّا. فهذا مطابق لما ذكرناه. وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عُزَيْرُ والمسيح. كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جُرَيْج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾، فقال: هُم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وكذا قال عكرمة، والحسن وابن جُرَيْج. وقال الضحَّاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾، قال: نزلت في عيسى ابن مَرْيَمَ وعُزَيْرَ عليهما السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحُسَيْنُ بن عيسى بن مَيْسَرَةَ، حدثنا أبو زُهَيْر، حدثنا سعد بن طَرِيف، عن الأصْبَغِ، عن عَلِيٍّ - رضي الله عنه - في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ قال: كُلُّ شَيْءٍ يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ فِي النَّارِ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وعيسى ابن مَرْيَمَ. إسناده ضعيف^(١). وقال ابن أبي نَجِيح، عن مُجَاهِدٍ: ﴿أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾، قال: عيسى، وعُزَيْرُ، والملائكة. وقال الضحَّاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا زُوَيْدٌ عن سعيد بن جُبَيْرٍ، وأبي صَالِحٍ وغير واحد. وقد رَوَى ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي ذَلِكَ حَدِيثًا غَرِيبًا جَدًّا، فقال:

[٤٦٣٢] حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ يَعْقُوبَ الرُّخَامِيُّ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مُغِيثٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ (١١١)، قال: عِيسَى، وَعُزَيْرُ، وَالْمَلَائِكَةُ^(٢). وذكر بعضهم قِصَّةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَمَنَاطِرَةَ الْمَشْرِكِينَ.

[٤٦٣٣] قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ مَرْزُوقٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْأَنْطَاطِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَزْرَةَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ، حَدَّثَنَا الْحَكَمُ، - يَعْنِي ابْنَ أَبَانَ - عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (١١١)، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: قَدْ عُيِدَتْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْمَلَائِكَةُ، وَعُزَيْرُ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، كُلُّ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ مَعَ الْكُفَّانِ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَكَّا صُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِيدُونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا يَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيثُونَ﴾ (٥٨) [الزخرف: ٥٧ - ٥٨]. ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ (١١١). رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ «الْأَحَادِيثُ الْمُخْتَارَةُ». وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي،

(١) سعد وأصبغ كلاهما وإو.

(٢) إسناده ضعيف، له علتان: سعيد بن مسلمة وليث بن أبي سليم، كلاهما ضعيف. وقد صح عن ابن عباس من قوله، وهو الصواب.

حدثنا قبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان - يعني الثوري - عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتَرُ لَهَا وَرُدُّوا﴾ (٩٨)، قال المشركون: فالملائكة، وعزير، وعيسى يُعبدون من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُوكَ إِلَهَةً مَا وَدَّعَهَا﴾، الآلهة التي يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وروى عن أبي كديئة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس مثل ذلك، وقال: فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٩٩).

[٤٦٣٤] وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار - رحمه الله - في كتاب السيرة وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ - فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله ﷺ - حتى أفضحه، وتلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتَرُ لَهَا وَرُدُّوا﴾ (٩٨). ثم قام رسول الله ﷺ - وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب أتفا ولا قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: كل ما يُعبد من دُونِ الله في جهنم مع من عبّده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبّد عزيراً، والنصارى تعبّد عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير، ورأوا أنه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ - فقال: «كل من أحب أن يُعبد من دُونِ الله فهو مع من عبّده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته. وانزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٩٩) لا يَسْمَعُونَ حَيِّسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ»، أي: عيسى، وعزير ومن عبّدا من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (١٠٦) لا يَسْمَعُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْمَعُونَ». إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]، ونزل فيما ذكر من أمر عيسى، وأنه يُعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضره من حُجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِيدُونَ﴾ (٩٧) وَقَالُوا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٩٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلَ الْبَاقِي إِسْرَافِيلَ﴾ (٩٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ لِكَلِّكَ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ (١٠٠) وَإِنَّكُمْ لَوَلِمَ لَسَاعَةً فَلَا تَمْتَرُونَ بِهَا﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٦١]، أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُونَ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١). وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لِعَابِدِيهَا، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح، ولم يرض بعبادة من عبّده، وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب. وقد أسلم عبد الله بن الزبير بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يهاجي المسلمين أولاً، ثم قال مُعْتَذِراً:

(١) هذا إسناد معضل، أخرجه الطبري ٢٤٨٣٦، وأصله شواهد عن ابن عباس. والله تعالى أعلم، وانظر «الدر المنثور» ٤/

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي زَاتِي مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَنِيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ﴾، قيل: المراد بذلك الموت. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ زَيْبَةَ، عَنْ عَطَاءٍ. وقيل: المراد بالفَرْع الأكبر النَفْخَةُ فِي الصُّورِ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبُو سَيَّانٍ سَعِيدُ بْنُ سَيَّانٍ الشَّيْبَانِي، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ. وَقِيلَ: حِينَ يُؤَمَّرُ بِالْعَبْدِ إِلَى النَّارِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ. وَقِيلَ: حِينَ تُطْبَقُ النَّارُ عَلَى أَهْلِهَا. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَابْنُ جُرَيْجٍ. وَقِيلَ: حِينَ يُذْبَحُ الْمَوْتُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْهَذَلِيُّ، فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَلَقَّاهُمُ الْمَلَكُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، يَعْنِي تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، تُبَشِّرُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أَي: قَابِلُوا مَا يَسُرُّكُمْ.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٠٤)

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْيَوْمِ وَالسَّوَاتِظُ مَطْوِيَاتٌ يَمْيِنُهُ سُبْحَتُهُ وَمَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

[٤٦٣٥] وقد قال البخاري: حدثنا مُقَدَّمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنِي عَمِّي الْقَاسِمُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ الْأَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ يَمِينَهُ»^(١). انفرد به من هذا الوجه البخاري، رحمه الله.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَجَّاجِ الرُّقِّي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي الْوَاضِلِ، عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ الْأَزْدِيِّ، عَنْ أَبِي الْجَوَّازِ الْأَزْدِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ بِمَافِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ، يَطْوِي ذَلِكَ كُلَّهُ يَمِينَهُ، يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي يَدِهِ بِمَنْزِلَةِ خَزَائِلَةٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قِيلَ: الْمَرَادُ بِالسِّجْلِ الْكِتَابُ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالسِّجْلِ هَاهُنَا مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَمَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْوَفَاءِ الْأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. قَالَ: السِّجْلُ مَلَكٌ، فَإِذَا صَعِدَ بِالِاسْتِغْفَارِ قَالَ: اكْتُبْهَا نُورًا. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنْ ابْنِ يَمَانَ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَيْ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ أَنَّ السِّجْلَ مَلَكٌ. وَقَالَ السُّدِّي فِي هَذِهِ الْآيَةِ: السِّجْلُ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالصُّحُفِ، فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ رُفِعَ كِتَابُهُ إِلَى السِّجْلِ فَطَوَاهُ، وَرَفَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِهِ اسْمُ رَجُلٍ صَحَابِي كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - الْوَحْيَ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ، حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي الْجَوَّازِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكُتُبِ، قَالَ: السِّجْلُ هُوَ الرَّجُلُ. قَالَ نُوحُ: وَأَخْبَرَنِي يَزِيدُ بْنُ كَعْبٍ - هُوَ الْغَوْذِيُّ - عَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ الْجَوَّازِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: السِّجْلُ

كَاتَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ. - وهكذا رواه أبو داود والنسائي عن قُتَيْبَةَ بن سعيد، عن نُوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السَّجْلُ كَاتَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ. ^(١) - ورواه ابن جرير عن نُصْر بن علي الجَهْضَمِيِّ، كما تقدم. ورواه ابنُ عَدِيٍّ من رواية يحيى بن عمرو بن مالك الثُّكْرِيِّ، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ - كَاتَبٌ يُسَمَّى السَّجْلُ، وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: كما يَطْوِي السَّجْلُ الْكِتَابَ، كذلك نَطْوِي السَّمَاءَ ^(٢) ثم قال: وهو غير محفوظ.

وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البرقاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن ثُمَيْر، عن عبيد الله بن عُمَر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السَّجْلُ كَاتَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ. - وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه - وإن كان في سنن أبي داود - منهم: شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج الميزي، فَسَّخَ الله في عُمُرِهِ، وَتَسَّأَ في أَجَلِهِ، وَخَتَمَ له بِصَالِحِ عَمَلِهِ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حِدَةٍ، والله الحمد. وقد تصدَّى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، وَزَدَهُ أَتَمَّ رَدًّا، وقال: لا يُعْرَفُ في الصحابة أحدٌ اسمه السَّجْلُ، وكتاب النبي ﷺ - معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السَّجْلُ. وَصَدَّقَ - رحمه الله - في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. وأما مَنْ ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السَّجْلَ هي الصحيفة. قاله علي بن أبي طلحة والعمري، عنه. ونَصَّ على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير، لأنه المعروف في اللغة، فَعَلَى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: على الكتاب، بمعنى المكتوب، فَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا وَقَدْ كُنَّا لِلْجَنِّ﴾ [الصفحات: ١٠٣]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا فِيهَا يَخْتَلِفُونَ﴾، يعني هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾، أي: كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جُمْلَةٍ وَعَدِ الله الذي لا يُخْلَفُ ولا يُبَدَّلُ، وهو القادر على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

[٤٦٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر وعفان المَعْنِيُّ قالوا: حدثنا شعبة، عن المغيرة ابن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ - بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله - عز وجل - خُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلٍ» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا فِيهَا يَخْتَلِفُونَ﴾ ^(١) ... وذكر تمام الحديث. أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة. ورواه البخاري عند هذه الآية في كتابه. وقد رَوَى

(١) باطل. لا يصح هذا عن ابن عباس، فيه يزيد بن كعب العودي، وهو مجهول، كما في التقريب. وقال الذهبي في «الميزان» ٩٧٤٣: لا يدرى من ذا أصلاً، ثم ذكر له هذا الحديث. وقد حكم بوضعه الإمام المزي وابن كثير وكذا رده الطبري، والله أعلم.

(٢) في إسناده يحيى بن عمرو النكري، رماه حماد بن زيد بالكذب. راجع الميزان ٩٥٩٥.

(٣) ذكره الذهبي في ترجمة حمدان بن سعيد ٢٢٨٦ «ميزان» وقال: هذا خبر كذب اه بتصرف.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٠ و٤٦٢٥ ومسلم ٢٨٦٠ ح ٥٧ وأحمد ٢٣٥/١ و٢٥٣.

ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبي - ﷺ - نحو ذلك^(١). وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾، وقال: نُهْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) **إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَصِيدِينَ** (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴿

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثته الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُعِمُّ الْأَشْهُدَ﴾ (٥١) [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]... الآية. وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، فهو كائن لا محالة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جببر عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، فقال الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن. وقال مجاهد: الزبور الكتاب. وقال ابن عباس، والشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور الذي أنزل على داود، والذكر التوراة. وعن ابن عباس: الذكر القرآن. وقال سعيد بن جببر: الذكر الذي في السماء. وقال مجاهد: الكتب بعد الذكر. والذكر: أم الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله. وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التي أنزلت على الأنبياء، والذكر: أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يورث أمة محمد - ﷺ - الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون. وقال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جببر، والشعبي، وقتادة، والسدي، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثوري. وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون. وقال السدي: هم المؤمنون. وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَصِيدِينَ﴾ (١٠٦)، أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد - ﷺ - لبلاغاً: لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحببه ورزاه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جعل محمداً - ﷺ - رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نَفْسَهُمُ اللَّهُ كُفْرًا وَآخَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٧٨) جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْكَرُونَ الْقَرَارَ (٧٩) [إبراهيم: ٢٨-٢٩]، وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَرُشْدٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَذَابِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

[٤٦٣٧] وقال مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، مَرْوَانُ الْفَزَارِيُّ، عن يزيد بن كيسان، عن أبي

(١) ليث فيه ضعف، ومجاهد عن عائشة منقطع، إلا أن الحديث يعتضد بما قبله، والله أعلم.

حازم، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادعُ على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعنًا، وإنما بُعثت رحمة»^(١). انفرد بإخراجه مسلم.

[٤٦٣٨] وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة»^(٢). رواه عبد الله بن أبي عرابة وغيره، عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال إبراهيم الحربي. وقد رواه غيره عن وكيع، فلم يذكر أبا هريرة. وكذا قال البخاري، وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلًا.

[٤٦٣٩] قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن شعير بن الخمس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إنما أنا رحمة مهداة»^(٣).

[٤٦٤٠] ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله بعثني رحمة مهداة، بُعثت برفع قوم وخفض آخرين»^(٤).

[٤٦٤١] قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمد بن صالح الثمار، عن ابن شهاب، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قَدِمَ مكة مُنْصَرِّفَهُ عن حَمْزَةَ: يا معشر قريش، إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعَه، وإنما يريد أن يُصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تُمرؤا طريقَه أو تقاربوه، فإنه كالأسد الضاري، إنه حينئذٍ عليكم لأنكم تَقْتِمُوهُ نفي القِرْدَانِ عن المَنَاسِمِ^(٥)، والله إن له لَسَحْرَةً. ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم قد عرفتم عداوةَ ابني قَيْلَةَ - يعني الأوس والخزرج - فهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدي: يا أبا الحكم والله ما رأيث أحداً أصدق لساناً ولا أصدق موعداً من أخيكم الذي طردتُم، وإذ فعلتم الذي فَعَلْتُمْ فكونوا أكفَّ الناس عنه. قال أبو سفيان بن الحارث: كونوا أشدَّ ما كنتم عليه، إن ابني قَيْلَةَ إن ظَفَرُوا بكم لم يَرْقُبُوا فيكم إلا ولا دِمَّةً، وإن أطلعتُموني أَلْحَمْتُمُوهُ خَيْرَ كِتَانَةٍ، أو تُخْرِجُوا مُحَمَّدًا من بين ظَهْرَانِيهِمْ، فيكون وحيداً مطروداً، وأما ابنا قَيْلَةَ فوالله ما هُما وأهل ذَهْلِكَ في المذلة إلا سِوَاة، وسأَكْفِيْكُمْ حَدَّهُمْ وقال:

سَأَمْنَحُ جَانِباً مِّنِّي غَلِيظاً عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبَعْدِ
رَجَالَ الْخَزْرَجِيَّةِ أَفْلُ دُلْ إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِدْ
فَبَلَّغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فقال: والذي نفسي بيده، لأَقْتُلَنَّهم ولَأَصْلَبَنَّهم ولَأَهْدِيَنَّهُم وهم كارهون،

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٩٩ وأبو يعلى ٦١٧٤.

(٢) جيد. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٣٠٠٥ والحاكم ٣٥/١ والقضاعي ١١٦٠ من طريق الأعمش به وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وهو يتقوى بما قبله، وله شواهد أخرى، منها ما يأتي، وانظر «مجمع الزوائد» ٦٩/٥ و ٣٠٥.

(٣) إسناده حسن، رجاله ثقات وله طرق وشواهد.

(٤) فيه راوٍ لم يسم، وصدوره يتقوى بشواهد، والوهن فقط في عجزه.

(٥) النسب: خف البعير.

إني رحمة بعثني الله، ولا يتوفاني حتى يُظهر الله دينه، لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكُفْر، وأنا الحاشِر الذي يُحشَر الناس على قَدَمي، وأنا العاقِب^(١). وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

[٤٦٤٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثني عمرو بن قيس، عن عمرو بن أبي قرّة الكِنْدِي قال: كان حذيفة بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان: يا حذيفة، إن رسول الله ﷺ - كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول، لقد علمت أن رسول الله ﷺ - خطب فقال: أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة، فلأنا أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة^(٢). وزواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة. فإن قيل: فإني رَحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق بن شامير، حدثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودي، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتبت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وهكذا زواه ابن أبي حاتم، من حديث المسعودي، عن أبي سعيد - وهو سعيد بن المرزبان البقال - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرَّمْلِي، عن أيوب بن سويد، عن المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤)، قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يُبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٥) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَمْرٌ بَعِيدٌ مَّا تُوْعَدُونَ﴾^(٦) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾^(٧) وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّكُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينَئِذٍ﴾^(٨) قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ﴾^(٩)

يقول تعالى أمراً رسولاً - صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٥)، أي: متبِعون على ذلك مُسْتَسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ له. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾^(٦)، أي: تركوا ما دعوتهم إليه، ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾^(٦)، أي: أعلمتكم أنني خرب لكم كما أنكم

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني ١٥٣٢ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «الجمع» ٩٩٤٠: رواه الطبراني من طريق أحمد بن صالح وجادة ورجاله ثقات اهـ قلت: علته فقط كونه وجادة، وهي أدنى أنواع التحمل، ثم إن في أحمد بن صالح كلام، وإن وثقه الجمهور. فقد ورد عن يحيى أنه جرحه وكذا النسائي، راجع الميزان، وذكر الأسماء محفوظة في الصحيح؛ والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٥٩ وأحمد ٤٣٧/٥ وإسناده حسن، لكن الثن صحيح فله شاهد من حديث أنس عند مسلم ٣٦٠٣ وابن حبان ٦٥١٤، وله شواهد أخرى.

حَزَبَ لِي، بَرِيءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بُرَاءٌ مِنِّي، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمَا أَفْعَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَلِنَا نَحَافَتٌ مِنْ قَوْمٍ عِصْيَانٌ فَأَذِذْ لِنِمْفَةٍ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي: لَيْكُنْ عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ يَنْبِذُ الْعَهْدَ عَلَى السَّوَاءِ، وَهَكَذَا مَا هُنَا، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، أي: أَعْلَمْتُكُمْ بِبِرَائَتِي مِنْكُمْ، وَبِرَاءَتِكُمْ مِنِّي، لَعَلَّمِي بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ أَذْرِيَّ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٍ مَا تُوعَدُونَ﴾، أي: هُوَ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةً، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لِي بِقُرْبِهِ وَلَا بِبُعْدِهِ، ﴿لَئِنْ يَعْلَمَ الْجَهَنَّمُ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمَ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [١١٠]، أي: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعَهُ، وَيَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يُسِرُّونَ، يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ وَالضَّمَائِرَ، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيَعْلَمُ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي إِجْهَارِهِمْ وَإِسْرَارِهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، عَلَى الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ أَذْرِيَّ لَعَلَّكُمْ فَتَنَةً لَكُمْ وَمَتَّعُوكَ جَنَّاتٍ﴾ [١١١]، أي: وَمَا أَذْرِيَّ لَعَلَّ هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَعَلَّ تَأْخِيرَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَتَنَةً لَكُمْ، وَمَتَّاعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى. وَحَكَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ لِلْحَقِّ﴾، أي: أَفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ. قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ. وَعَنْ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا شَهِدَ قِتَالًا قَالَ: ﴿رَبِّ أَسْكُرْ لِلْحَقِّ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ أَلْسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، أي: عَلَى مَا يَقُولُونَ وَيَقْتَرُونَ مِنَ الْكَذِبِ، وَيَتَنَوَّعُونَ فِي مَقَامَاتِ التَّكْذِيبِ وَالْإِفْكِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ.

هذا آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، والله الحمد والمنة

سُورَةُ الْحَجِّ

آيَاتُهَا
٧٨تَنْبِيْهَا
٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِيَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده بتقواه، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم تُشورهم إلى عَرَصات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدانهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا ﴿١﴾ وَاتَّخَذَتِ الْأَرْضُ الصَّغَارُ نُجًا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: ١-٢]. وقال تعالى: ﴿وَجِئَیْهِ الْأَرْضُ لِلْجِبَالِ فَذُكًّا ذُكًّا وَجِدَةً ﴿١١﴾ يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١٤-١٥]. وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿١﴾ وَسُيِّتَ الْجِبَالُ سُيًّا ﴿٢﴾ فَكَانَتْ هَبَاةً مُُّتْبَتِّئًا ﴿٣﴾﴾ [الواقعة: ٤-٦]. فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عُمر الدنيا، وأول أحوال الساعة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سُفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة. ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: ورؤي عن الشعبي، وإبراهيم وعُبيد بن عُمر، نحو ذلك. وقال أبو كُذَيْبَةَ، عن عطاء، عن عامر الشعبي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾، الآية، قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة.

[٤٦٤٣] وقد أورد الإمام أبو جعفر ابن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ، مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ رَافِعٍ قَاضِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَرَعَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ، فَأَعطَاهُ إِسْرَافِيلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيهِ، شَاحِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الصُّورُ؟ قَالَ: قُرْنٌ. قَالَ: فَكَيْفَ هُوَ؟ قَالَ: قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ، الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَرْعِ، وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصُّعْقِ، وَالثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَرْعِ. فَيَفْرِغُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَأْمُرُهُ فَيَمْدُهَا وَيُطَوِّلُهَا وَلَا يَفْشَرُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: ١٥] فَيُسِيرُ اللَّهُ الْجِبَالَ فَتَكُونُ سَرَابًا، وَتُرْجَ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًّا، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿١﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٢﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٣﴾﴾ [النازعات: ٦-٨]، فَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ الْمُؤَيَّنَةِ فِي الْبَحْرِ، تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ تَكْفُوها بِأَهْلِهَا، وَكَالْقِنْدِيلِ الْمَعْلُوقِ بِالْعَرْشِ تُرْجَحُهُ الْأَرْوَاحُ، فَتَمِيدُ النَّاسَ عَلَى ظَهْرِ، فَتَذْهَلُ الْمَرَاضِعُ، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ، وَيَشِيبُ الْوُلْدَانُ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً حَتَّى تَأْتِيَ الْأَطْطَارَ، فَتَلْقَاهَا الْمَلَائِكَةُ

فَتَضَرَّبَتْ وَجُوهَهَا، فترجع ويؤلي الناس مديريين، يُنادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّارِ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ مُنْذِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ قَائِمٍ﴾ [غافر: ٣٢ - ٣٣]، فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا فَأَخَذَهُمُ لِلْكَرْبِ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمُهَلِّ. ثم خِيفَ شَمْسُهَا وَخِيفَ قَمَرُهَا، وانتشرت نجومُها، ثم كُشِطَتْ عَنْهُمْ. قال رسول الله - ﷺ -: والأموث لا يعلمون بشيء من ذلك. قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَنَفِخْ مِنْ فِي السَّمَكَيْنِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْنَا اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وأمنتهم، وهو عذاب الله يبعثه على شِرَارِ خَلْقِهِ، وهو الذي يقول الله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ قَوْلٌ عَظِيمٌ﴾ [يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ] ﴿١﴾. وهذا الحديث قد رواه الطبراني، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغير واحد، مُطَوَّلًا جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لِقُرْبِهَا مِنْهَا، كما يُقال: أشرط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم. وقال آخرون: بل ذلك هو الفزع وزلزال وتلبال، كائناً يوم القيامة في العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

[٤٦٤٤] الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين: أن رسول الله - ﷺ - قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رَفَعَ بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ قَوْلٌ عَظِيمٌ﴾ [يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ] ﴿٢﴾، فلما سمع أصحابه بذلك خثوا المَطِي، وعرفوا أنه عند قولٍ يقوله. فلما تأشَبوا حوله قال: أتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذاك؟ ذاك يوم يُنَادَى آدَمُ - عليه السلام - فيناديه ربه - عز وجل - فيقول: يا آدَمُ، ابْعَثْ بَعَثَكَ إِلَى النَّارِ. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة. قال: فَأَبْلَسَ أَصْحَابُهُ حَتَّى مَا أَوْضَحُوا بَضَاحِكَةَ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: أَبْشِرُوا وَعَمَلُوا، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ ما كانتا مع شيء قط إلا كُتِرَتْ: يا جوج وماجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس، قال: فَسُرِّي عَنْهُمْ، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرُقْمَةُ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ ﴿٣﴾. وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سُنَنِهما، عن محمد بن بشار، عن يحيى - وهو القطان - عن هشام - وهو الدُّسْتَوَائِي - عن قتادة، به بنحوه. وقال الترمذي: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٤٦٤٥] طريق أخرى لهذا الحديث، قال الترمذي: حدثنا ابن أبي عمَر، حدثنا سفيان بن عُيَيْنَةَ، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حصين أن النبي - ﷺ - قال لما نزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ قَوْلٌ عَظِيمٌ﴾ [يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ]، قال: أنزلت عليه هذه وهو في سَفَرٍ، فقال: أتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذلك؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابْعَثْ بَعَثْ

(١) هو بعض حديث الصور المطول، وتقدم تحريجه؛ بعضه منكر، وبعضه الآخر له شواهد.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٦٩ والنسائي في «التفسير» ٣٦٠ وأحمد ٤٣٥/٤ والطبري ٢٤٩٠٤، وصححه الحاكم ٢٨/١

ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح اهـ. وفيه عننة الحسن، لكن له شواهد ستأتي.

النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمئة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله - ﷺ -: قَارِبُوا وَسَدُّوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال: فَيُؤَخِّدُ الْعَدَدُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنْ تَمَّتْ وَإِلَّا كَمَلَتْ مِنَ الْمَنَافِقِينَ، وما مثلكم والأسم إلا كمثل الرُّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ، أو كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فكَبُرُوا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبُرُوا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبُرُوا، ثم قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا^(١). وكذا رواه الإمام أحمد عن سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ بِهِ، ثم قال الترمذي أيضاً: هذا حديث حسن صحيح. وقد روي من غير وجه، عن الحسن، عن عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ. وقد رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ الْحَسَنِ وَالْعَلَاءِ بْنِ زِيَادِ الْعَدَوِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ، فذكره.

[٤٦٤٦] وهكذا رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بُنْدَارٍ، عَنْ عُثْمَرَ، عَنْ عَوْفٍ، عَنْ الْحَسَنِ قَالَ: بَلَّغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - لَمَّا قُفِلَ مِنْ غَزْوَةِ الْعُسْرَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ بَعْدَ مَا شَارَفَ الْمَدِينَةَ قَرَأَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقْرَأُ رِيبَكُمْ إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ قَوْفٌ عَظِيمٌ﴾... وذكر الحديث^(٢)، فذكر نحو سياق ابْنِ جُدَعَانَ، فآله أعلم.

[٤٦٤٧] الحديث الثاني، قال ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْنُ الطَّبَاعِ، حَدَّثَنَا أَبُو سَفْيَانَ الْمَعْمَرِيُّ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: نَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ قَوْفٌ عَظِيمٌ﴾... وذكر يعني نحو سياقِ الْحَسَنِ عَنْ عِمْرَانَ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: «وَمِنْ هَٰلِكَ مَنْ كَفَّرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ»^(٣). رواه ابْنُ جَرِيرٍ بِطَوْلِهِ، مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ.

[٤٦٤٨] الحديث الثالث، قال ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا عَبَّادٌ - يَعْنِي ابْنَ الْعَوَّامِ - حَدَّثَنَا هَلَالُ بْنُ خُبَّابٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - هَذِهِ الْآيَةَ... فذكر نحوه، وقال فيه: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. ففرحوا، وزاد أيضاً: وإنما أنتم جُزءٌ مِنْ أَلْفِ جُزءٍ^(٤).

[٤٦٤٩] الحديث الرابع، قال البخاري عند هذه الآية: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ ذَرِيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أَرَأَاهُ قَالَ - تِسْعَمِئَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ. فَحَيْثُ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ

(١) أخرجه الترمذي ٣١٦٨ وأحمد ٤/٣٢٢ وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: فيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، لكن توبع كما تقدم وله شواهد.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤٩٠٦ عن الحسن مرسلًا، وتقدم موصولًا.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٣١٢٢ والحاكم ١/٢٩ وابن حبان ٧٣٥٤ والطبري ٤٩١٠، صححه الحاكم على شرطيهما، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٩٤: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن مهدي، وهو ثقة اهـ.

(٤) جيد. أخرجه البزار ٣٤٩٧ «كشف» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٩٤: ورجاله رجال الصحيح، غير هلال بن خباب، وهو ثقة اهـ وله شواهد.

الوليّد، ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾. فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وَجُوهُهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: مِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ تَسْعَمُنَّو تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّودَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ. أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُئُوعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: ثَلَاثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبَّرْنَا^(١). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَمُسْلِمٌ، وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، مِنْ طُرُقٍ، عَنْ الْأَعْمَشِ، بِهِ.

[٤٦٥٠] الْحَدِيثُ الْخَامِسُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَمَّارُ بْنُ مُحَمَّدٍ - ابْنُ أُخْتِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ - وَعَبِيدَةُ الْمَغْنِيُّ، كِلَاهُمَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنَادِيًا يُنَادِي: يَا آدَمُ، إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكَ أَنْ تَبْعَثَ بَعثًا مِنْ دُورِكَ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ آدَمُ: يَا رَبِّ مَنْ هُمْ؟ فَيَقَالُ لَهُ: مِنْ كُلِّ مِثْقَلِ تَسْعَةٍ وَتَسْعِينَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: مَنْ هَذَا النَّاجِي مِثًا بَعْدَ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هَلْ تَذَرُونَ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي صَدْرِ الْبَعِيرِ»^(٢). انْفَرَدَ بِهَذَا السَّنَدِ وَهَذَا السِّيَاقِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

[٤٦٥١] الْحَدِيثُ السَّادِسُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ حَاتِمِ بْنِ أَبِي صَغِيرَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَلِيكَةَ أَنَّ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ أَخْبَرَهُ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -: قَالَ: «إِنَّكُمْ تَحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِفَاةَ عِرَاقٍ غَدَلًا» قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟! قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ الْأَمْرَ أَشَدَّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَاكَ»^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

[٤٦٥٢] الْحَدِيثُ السَّابِعُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، عَنْ خَالِدِ ابْنِ أَبِي عِمْرَانَ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ يَذْكُرُ الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا عِنْدَ ثَلَاثٍ فَلَا، أَمَّا عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَثْقُلَ أَوْ يَخْفُفَ فَلَا. وَأَمَّا عِنْدَ تَطَايُرِ الْكُتُبِ فَلَمَّا أَنْ يُعْطَى بِبَيْمِنِهِ أَوْ يُعْطَى بِشِمَالِهِ، فَلَا. وَحِينَ يَخْرُجُ عُثْقُ مِنَ النَّارِ فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، وَيَتَغَيَّظُ عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُ ذَلِكَ الْمُتَّقُ: وَكِلْتُ بِثَلَاثَةٍ، وَكِلْتُ بِثَلَاثَةٍ، وَكِلْتُ بِثَلَاثَةٍ: وَكِلْتُ بِمَنْ أَدْعَى مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَكِلْتُ بِمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَكِلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ غَنِيْد. قَالَ: فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، وَيَزِيهِمُ فِي غَمَرَاتٍ، وَلَجْهَتُمْ جِسْرَ أَذْقٍ مِنَ الشَّعْرِ وَاحِدٌ مِنَ السَّيْفِ، عَلَيْهِ كَلَالِيْبٌ وَحَسَكٌ يَأْخُذْنَ مِنْ شَاءِ اللَّهِ، وَالنَّاسُ عَلَيْهِ كَالطَّرْفِ وَكَالْبَزِقِ، وَكَالزَّرِيحِ، وَكَاجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرُّكَابِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ. فَتَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَمُخَدَّوْشٌ مُسَلِّمٌ، وَمُكَوَّرٌ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ»^(٤).

وَالْأَحَادِيثُ فِي أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْأَنَارِ كَثِيرَةٌ جَدًّا، لَهَا مَوْضِعٌ آخَرُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ رَازِلَةٌ السَّاعَةِ شَفٌّ عَظِيمٌ﴾، أَي: أَمْرٌ كَبِيرٌ، وَخُطْبٌ جَلِيلٌ، وَطَارِقٌ مُفْظِعٌ، وَحَادِثٌ هَائِلٌ، وَكَائِنٌ عَجِيبٌ.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤١ ومسلم ٢٢٢ والنسائي في «التفسير» ٣٥٩ واحد ٣٢٢/٣ والطبري ٢٤٩٠٧.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٣٨٨/١ وأبو يعلى ٥١٢٤ وإسناده ضعيف، لضعف إبراهيم بن مسلم الهجري، لكن له شواهد يقوى بها.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٢٧ ومسلم ٢٨٥٩ والنسائي ١١٤/٤.

(٤) هذا مرسل، أخرجه أحمد ١١٠/٦ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٥٨/١٠ - ٣٥٩ وقال: وفيه ابن لهيعة وفيه ضعيف، وقد وثق، وبقيته رجاله رجال الصحيح اهـ قلت: ابن لهيعة ضعيف الحديث، فليس الراوي عنه أحد العبادة، وقد أتى بالفاظ منكورة في هذا المتن، ولبعضه الآخر شواهد. وهو يشهد لما قبله.

والزلازل: هو ما يحصل للنفوس من الفزع والرعب كما قال تعالى: ﴿هَئِلَآلٌ أَسْفَلُ الْمَوَاقِرِ وَزُلْزُلًا زَلِيلًا مَّيِّدًا﴾ [الأحزاب: ١١]. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدفش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل «مرضعة». وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، أي: عن رضيعها قبل فطامه. وقوله: ﴿وَتَصْبُعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾، أي: قبل تماويه لشدة الهول، ﴿وَرَى النَّاسُ سُكْرَى﴾. وقرأ: «سكرى»، أي: من شدة الأمر الذي صاروا فيه قد ذهبت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حبيب أنهم سكارى، ﴿وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ ﴿٣﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، مثبِّعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء. ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: علم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ ﴿٣﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾، قال مجاهد: «يعني الشيطان»، يعني كتبت عليه كتابة قدرته ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾، أي: اتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: يضلُّه في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحارُّ المؤلم المزعج المقلق. وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذا قال ابن جريج.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سلم البصري، حدثنا عمرو بن المحرَّم أبو قتادة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خُبثاء قريش: أخبرونا عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو نحاس هو؟ فقعقت السماء قعقة - والقعقة في كلام العرب: الرعد - فإذا خف رأسه ساقط بين يديه. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: جاء يهودي فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من ذر من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته ^(١).

﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَردُّ إِلَىٰ أَرْدِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَترى الأرض هابدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ ﴿٥﴾ ﴿ذَٰلِكَ يَٰأَنَّا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المُنكِر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما

يُشَاهَدُ مِنْ بَدْنِهِ لِلخَلْقِ، فقال: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، أي: في شك ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾، وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد، يوم القيامة، ﴿فَلَمَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾، أي: أصل بَرْزُوكم من تُرَابٍ، وهو الذي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، أي: ثم جعل نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ﴿ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾. وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رَجَمِ المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك، يُضَافُ إِلَيْهِ مَا يَجْتَمِعُ إِلَيْهَا، ثم تنقلب عِلْقَةً حَمْرَاءَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فتكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مُضْغَةً: قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصوّر منها رأساً ويَدَانِ، وصدر ويطن، وفخذان، ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقّيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أي: كما تشاهدونها، ﴿إِنْسِينَ لَكُمْ وَيُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لِمَا أَجَلَ يُسَمَّى﴾ أي: وتارة تستقر في الرَّحِمِ لا تلقّيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوماً، وهي مُضْغَةٌ، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فتفتّح فيها الروح، وسوّاها كما يشاء الله عز وجل، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد.

[٤٦٥٣] كما ثبت في الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله - ﷺ - وهو الصادق المصدوق: «إِنْ خَلَقَ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ فِي بطن أمه أربعين ليلةً، ثم يكون عِلْقَةً مثل ذلك، ثم يكون مُضْغَةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، يكتب عمله وأجله ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم يفتّح فيه الروح»^(١).

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملك بكفه قال: يا رب، مُخَلَّقَةٌ أَوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ؟ فإن قيل: «غير مُخَلَّقَةٍ» لم تكن نَسَمَةً، وَقَدْ فَتِنَا الْأَرْحَامَ دَمًا. وإن قيل: «مُخَلَّقَةٍ»، قال: أي رب، ذكرٌ أَوْ أنثى؟ شقيٌّ أَوْ سعيدٌ؟ ما الأجل، وما الأثر؟ وبأي أرض يموث؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش في أرحامها، وتأكل رزقها وتطأ أقرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، قُذِفَتْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ. ثم تلا عابِرُ الشَّعْبِيِّ: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ آيَاتِهِ فَلَمَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾. فإذا بلغت مُضْغَةً نَكِسَتْ فِي الْخَلْقِ الرَّابِعِ فَكَانَتْ نَسَمَةً، فإن كانت غير مُخَلَّقَةٍ قُذِفَتْهَا الْأَرْحَامُ دَمًا، وإن كانت مُخَلَّقَةً نَكِسَتْ فِي الْخَلْقِ.

[٤٦٥٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبي الطُّفَيْلِ، عن حذيفة بن أسيد - يبلغ به النبي - ﷺ - قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرَّحِمِ أربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أَذْكَرٌ أَمْ أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يَزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ»^(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَمِنْ طُرُقٍ أُخَرِ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، بِنَحْوِ مَعْنَاهُ.

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٣٤.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٤٤ وأحمد ٦/٤ - ٧ والطحاوي في «المشكّل» ٢٦٦٣ وابن أبي عاصم في «السنّة» ١٧٩ من طرق عن عاصم به. وأخرجه مسلم ٢٦٤٥ والطحاوي ٢٦٦٤ وابن حبان ٦١٧٧ من وجه آخر من حديث حذيفة بنحوه.

وقوله: ﴿ثُمَّ تُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي: ضعیفاً في بَدَنِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَخَوَاسِهِ، وَيَطْبِئِهِ وَعَقْلَهُ. ثم يعطيه الله القُوَّةَ شيئاً فشيئاً وَيَلْطَفُ بِهِ. وَيُخْتَنُّ عَلَيْهِ وَالَّذِي فِي آتَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَتَجَبَّلُوا أَشْدَّكُمْ﴾، أي: يتكامل القوي ويتزايد، ويصل إلى غُفْوَانِ الشَّبابِ وَحُسْنِ الْمَنْظَرِ. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾، أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشَّيْخُوخَةُ وَالْهَرَمُ، وَضَعْفُ الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَتَنَاقُصُ الْأَحْوَالِ مِنَ الْخَرَفِ وَضَعْفِ الْفِكْرِ، ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

[٤٦٥٥] وقد قال الحافظ أبو يعلَى أحمد بن علي بن المُنْتَنَى المَوْصِلِي في مسنده: حدثنا منصور بن أبي مَرْحَم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود بن سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن خَزَم الأنصاري، عن أنس بن مالك - رَفَعَ الْحَدِيثَ - قال: المولود حتى يبلغ الجُنُثَ، ما عَمِلَ من حَسَنَةٍ كُتِبَتْ لوالده أو لوالدته، وما عَمِلَ من سَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى وَالِدِهِ، فإذا بلغ الجُنُثَ أَجَزَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْقَلَمَ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ اللَّذَانِ مَعَهُ أَنْ يَحْفَظَا وَأَنْ يُشَدَّدَا، فإذا بلغ أربعين سنةً في الإسلام أَمَنَهُ اللَّهُ مِنَ الْبَلَايَا الثَّلَاثِ: الْجُنُونِ، وَالْجُدَامِ، وَالْبَرَصِ. فإذا بلغ الخمسين، خَفَّفَ اللَّهُ مِنْ حِسَابِهِ. فإذا بَلَغَ السَّتِينَ رَزَقَهُ اللَّهُ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ بِمَا يُحِبُّ، فإذا بَلَغَ السَّبْعِينَ أَحَبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، فإذا بلغ الثمانين كَتَبَ اللَّهُ حَسَنَاتِهِ وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، فإذا بلغ التَّسْعِينَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَشَفَّعَهُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، وَكَانَ أَسِيرَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، فإذا بلغ أَرْذَلَ الْعُمُرِ ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي صَبَحَتِهِ مِنَ الْخَيْرِ، فإذا عَمِلَ سَيِّئَةً لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ^(١). هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وفيه نكارةٌ شديدة. ومع هذا قد رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مَسْنَدِهِ مَرْفُوعاً وَمَوْقُوفاً فَقَالَ:

[٤٦٥٦] حدثنا أبو النضر، حدثنا الْفَرَجُ، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله الْعَامِرِيُّ، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بَلَغَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَمَنَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَايَا، مِنَ الْجُنُونِ وَالْجُدَامِ وَالْبَرَصِ. فإذا بلغ الخمسين لَئِنِ اللَّهُ حِسَابَهُ، وإذا بلغ السَّتِينَ رَزَقَهُ اللَّهُ إِنَابَةً يُحِبُّهُ عَلَيْهَا. وإذا بَلَغَ السَّبْعِينَ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَأَحَبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وإذا بَلَغَ الثَّمَانِينَ تَقَبَّلَ اللَّهُ حَسَنَاتِهِ، وَمَعَا عَنهُ سَيِّئَاتِهِ. وإذا بلغ التَّسْعِينَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَسُمِّيَ أَسِيرَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَشَفَّعَ فِي أَهْلِهِ.

[٤٦٥٧] ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الْفَرَجُ، حدثني محمد بن عبد الله الْعَامِرِيُّ، عن محمد بن عبد الله بن عَمْرٍو بن عُثْمَانَ، عن عبد الله بن عَمْرٍو بن الْخَطَّابِ، عن النُّبَيْ - ﷺ - مثله^(٢).

[٤٦٥٨] ورواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضاً: حدثنا أَنَسُ بْنُ عِيَّاضٍ، حدثني يُونُسُ بْنُ أَبِي ذَرَّةَ^(٣) الْأَنْصَارِيُّ، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمَرِيُّ، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: مَا مِنْ مُعَمَّرٍ يُعَمَّرُ فِي

(١) ضعیف. أخرجه أبو يعلى ٣٦٧٨ وفيه خالد الزيات عن داود بن سليمان، وكلاهما مجهول، وانظر ما بعده.

(٢) ضعیف جداً. أخرجه أحمد ٨٩/٢، وفيه الْفَرَجُ بن فضالة، ضعفه النسائي والدارقطني، وقال أبو حاتم: صدوق، لا يحتج به، ومحمد بن عبد الله الْعَامِرِيُّ، لا يعرف كما في الْمِيزَانُ ٧٧٧٦. واكتفى الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٦٠ بقوله: رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم كثير اهـ وقال العراقي كما في «المسدد» ص ٤٠ لم يذكر ابن الجوزي في الموضوعات حديث ابن عمر، وكان ينبغي أن يذكره، فإنه موضوع قطعاً.

(٣) وقع في الأصل وفي مسند أحمد والموضوعات «بردة» وهو تصحيف. والمثبت من مصادر التخریج.

الإسلام أربعين سنة إلا صَرَفَ الله عنه ثلاثة أنواعٍ من البلاء: الجُنُونُ والجُدَامُ والبَرَصُ...^(١) وذكر تمام الحديث، كما تقدم سَوَاءً.

[٤٦٥٩] ورواه الحافظُ أبو بكر البزَّارُ، عن عبد الله بن شَيْبٍ، عن أبي شَيْبَةَ، عن عبد الله بن عبد الملك، عن أبي قَتَادَةَ العُذْرِي، عن ابن أخي الزهري، عن عَمِّه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من عبد يُعَمِّرُ في الإسلام أربعين سنة، إلا صَرَفَ الله عنه أنواعاً من البلاء: الجُنُونُ والجُدَامُ والبَرَصُ، فإذا بلغ خمسين سنة لَينَ الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رَزَقَهُ الله الإِنَابَةَ إليه بما يُحِبُّ، فإذا بلغ سبعين سنة غَفَرَ الله له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تَأَخَّرَ، وسُمِّيَ أسير الله، وَأَحْبَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، فإذا بلغ الثَّمَانِينَ تَقَبَّلَ الله منه حَسَنَاتِهِ وتجاوزَ عن سيئاته، فإذا بَلَغَ التسعين غَفَرَ الله له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، وسُمِّيَ أسير الله في أَرْضِهِ، وشُفِعَ في أَهْلِ بَيْتِهِ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَائِلَةً﴾: هذا دليلٌ آخرُ على قُدْرَتِهِ تعالى على إحياء الموتى، كما يُحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي الفَحْلَةُ التي لا نبت فيها ولا شيء. وقال قتادة: غبراء مُتَهَشِّمَةٌ. وقال السُّدِّي: مَيْتَةٌ. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَلَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَلْبَتَّ مِنْ كُلِّ رِجْعٍ بِهِجْجٌ﴾، أي: فإذا أنزل الله عليها المَطَرُ ﴿اهْتَزَّتْ﴾، أي: تحركت بالنبات وحيث بعد موتها، ﴿وَرَبَّتْ﴾، أي: ارتفعت لما سَكَنَ فيها الثَّرى، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفُتُون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطُغُومها، وروائحها وأشكالها ومَنَافِعها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَلْبَتَّ مِنْ كُلِّ رِجْعٍ بِهِجْجٌ﴾، أي: حَسَنَ المَنْظَرِ طَيِّبَ الرِّيح. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي: الخالق المدبِّرُ الفَعَّالُ لما يَشَاءُ، ﴿وَأَنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ النَّوْقُ﴾ أي: كما أحيا الأرض وأنبت منها هذه الأنواع، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتَّى النَّوْقُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، ف ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٨٢]، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، أي: كائنة لا شَكَّ فيها ولا مِزِيَةَ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: يُعيدهم بعد ما صَارُوا في قُبُورهم رَمَماً، ويُوْجِدُهم بعد العَدَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الظِّلْمَ وَهِيَ رَيْبٌ﴾ ﴿٨٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا

(١) ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٢١٧/٣ ح ١٢٨٦٦ وأبو يعلى ٤٢٤٦ و٤٢٤٧ وابن حبان في «المجروحين» ١٣١/٣ - ١٣٢ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١٧٩/١ من حديث أنس بهذا الإسناد، قال ابن حبان: يوسف ابن أبي ذُرَّة منكر الحديث جداً، ممن يروي المناكير التي لا أصول لها من حديث رسول الله ﷺ على قلة روايته، لا يجوز الاحتجاج به بحال. قال ابن معين: لا شيء. ووافقه ابن الجوزي. وورد من وجه آخر أخرجه ابن الجوزي ١٧٩/١ وأعله بعباد بن عباد ونقل عن ابن حبان قوله: كان يحدث بالتوهم، فيأتي بالمناكير، فاستحق الترك. وأخرجه أبو يعلى ٤٢٤٩ و٤٢٥٠ من طريقين عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان عن أنس، وإسناده ضعيف، فهو منقطع بين محمد هذا وأنس، وفي روايته من يجهل حاله. والخبر منكر بكل حال. وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه البزار ٣٥٨٧ و٣٥٨٨ من حديث أنس، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٦٢: رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات اهـ وفيما قاله الهيثمي نظر، فإن في الإسناد الذي ذكره ابن كثير عبد الله ابن شبيب، ضعفه الذهبي، ونقل عن أبي أحمد الحاكم قوله: ذاهب الحديث، وقال ابن حبان: يقلب الأخبار، ويسرقها. راجع الميزان ٤٣٧٦، والإسناد الآخر واه أيضاً فيه مجاهيل. والخبر منكر حكم بطلانه ابن حبان وابن الجوزي والذهبي والعراقي وخالفهم ابن حجر في «الذب من المسند» ص ٦٢ على أنه ليس بموضوع، وتبعه على ذلك السيوطي في «اللآلئ» لكن قول الجمهور أولى بالصواب، فالحديث منكر من جهة التثنية، بل هو باطل، فإن الكثير من المسلمين والمؤمنين يصاب بجنون أو غير ذلك، بعد الأربعين بل وبعد الخمسين والستين، وقد تفرد به ضعفاء هلكن ومجاهيل، والظاهر أن بعضهم سرقه من البعض الآخر، وركبوا له أسانيد، حتى يروج على الطالب، نسأل الله السلامة.

الَّذِينَ أَنْشَأَهَا آدَمُ مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠]... والآيات في هذا كثيرة.

[٤٦٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى بن عطاء، عن وكيع ابن عدس، عن عمه أبي زرّين العُقيلي - واسمه لَقِيْطُ بن عامر - أنه قال: يا رسول الله، أَكَلْنَا يَزَى رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله - ﷺ -: أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَنْظُرُ إِلَى الْقَمَرِ مُخْلِياً بِهِ؟ قلنا: بلى. قال: فالله أعظم. قال: قلت: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: أما مَرَزَتْ بِوَادِي أَهْلِكَ مُنْجِلًا؟ قال: بلى. قال: ثم مررت به يَهْتَرُ خَصِرًا؟ قال: بلى. قال: فَكَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى، وذلك آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ^(١). ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد ابن سلمة، به.

[٤٦٦١] ثم رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي زرّين العُقيلي قال: أتيت رسول الله - ﷺ - فقلت: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله الموتى؟ قال: أمررت بأرض من أرض قومك مُجْدِبَةٌ، ثم مَرَزْتَ بِهَا مُخَصِبَةٌ؟ قال: نعم. قال: كذلك الشُّشُورُ^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُيَيْسُ بن مرحوم، حدثنا بَكَيْرُ بن أبي السَّمِيطِ، عن قتادة، عن أبي الحَجَّاجِ، عن مُعَاذِ بن جبل قال: «مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ﴾ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا خِزْيًا وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المُقلِّدين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَخِيعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾﴾، ذكر في هذه الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٨﴾﴾، أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى. وقوله: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾، قال ابن عباس وغيره: مُسْتَكْبِرًا عَنِ الْحَقِّ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ. وقال مجاهد، وقتادة، ومالك، عن زيد بن أسلم: «ثاني عطفه»، أي: لاوِي عُنُقِهِ، وهي رقبته. يعني يُعرض عما يُدعى إليه من الحق ويُثني رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَّكَ رِزْقٌ وَإِذَا أَرْسَلْتَهُ إِكْرَامًا ﴿٣٨﴾﴾ فَتَوَلَّى رُكْبَهُ وَقَالَ سَكِرٌ أَوْ جَحْتُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّينَ ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٦١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون: ٥]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ

(١) أخرجه أحمد ١١/٤ وأبو داود ٤٧٣١ وابن ماجه ١٨٠ وإسناده لين لأجل وكيع بن عدس، لكن لأصله ما يشهد له، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٥٧.

(٢) أخرجه أحمد ١١/٤ - ١٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥٣/١ - ٥٤ وقال: وفي إسناده سليمان بن موسى، وقد وثقه ابن معين، وأبو حاتم، وضعفه آخرون. قلت: تابعه على سياقه وكيع بن عدس.

خَلَقَ لِلنَّاسِ ﴿لَقَمَان: ١٨﴾، أي: تُمِيلُهُ عَنْهُمْ استكباراً عليهم. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّكَ عَلَىٰ عَائِشَتَا وَلَئِنْ مُسْتَحْصِرًا كَانَ لَنْ يَسْمَعَهَا كَانَ فِي أذْنِهِ وَقَدْ فُتِّرَ بِمَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ٧].

وقوله تعالى: ﴿يُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال بعضهم: هذه لام العاقبة، لأنه قد لا يقصد ذلك وَيَحْتَمِلُ أَنْ تكون لام التعليل. ثم إما أَنْ يكون المرادُ بها المعاندين، أو يكون المراد بها أَنْ هذا الفاعل لهذا إنما جعلناه على هذا الخلق الذي يجعله ممن يُضِلُّ عن سبيل الله. ثم قال تعالى: ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَاهُ الله المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر همة ومبلغ علميه، ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْخَرْقِ ﴿٨﴾﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ، أي: يقال له هذا تقريباً وتوبيخاً، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَبِيرِ ﴿٩﴾﴾ ثُمَّ سُبُوا قَوْقُ رَأْيِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿١٠﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَصِيدُ الْكَرِيمِ ﴿١١﴾﴾ لَنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان: ٤٧ - ٥٠].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بَلَّغْنِي أَنَّ أَحَدَهُمْ يُحْرِقُ فِي الْيَوْمِ أَلْفَ مَرَّةٍ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ يَدْعُوا لِمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شك. وقال غيرهم: على طَرَفٍ. ومنه حَرْفُ الجبل. أي: طَرَفُهُ، أي: دخل في الدين على طَرَفٍ، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُحِبُّه اسْتَقَرَّ، وَإِلَّا انْتَمَرَ.

[٤٦٦٢] وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي حصين، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، قال: كان الرجل يَفْدُمُ المدينة، فَإِنْ وَلَدَتْ امْرَأَتُهُ غُلَامًا، وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ، قال: هذا دين صالح. وإن لم تَلِدْ امْرَأَتَهُ، ولم تُنْتَجِ خَيْلُهُ قال: هذا دين سَوَاءٍ ^(١).

[٤٦٦٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عن ابن عباس قال: كان ناسٌ من الأعراب يأتون النبي - ﷺ - فَيُسَلِّمُونَ، فإذا رَجَعُوا إلى بلادهم فَإِنْ وَجَدُوا عامَ غَيْثٍ وعامَ خُصْبٍ وعامَ وِلَادٍ حَسَنٍ قالوا: إِنَّ دِينَنَا هَذَا لَصَالِحٌ. فَمَسَّكُوا بِهِ. وَإِنْ وَجَدُوا عامَ جُدُوبٍ وعامَ وِلَادٍ سَوَاءٍ وعامَ قَحْطٍ قالوا: ما في ديننا هذا خير. فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ ^(٢).

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قَدِمَ المدينة، وَهِيَ أَرْضٌ وَبَيْتَةٌ، فَإِنْ صَحَّ بِهَا جِسْمُهُ، وَنُتِجَتْ فَرَسُهُ مَهْرًا حَسَنًا، وَوَلَدَتْ امْرَأَتُهُ غُلَامًا، رَضِيَ بِهِ واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وقال: ما أَصْبَحْتُ مِنْذُ كُنْتُ عَلَىٰ دِينِي هَذَا إِلَّا خَيْرًا. وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ - والفتنة: البلاء - أي: وإن أَصَابَهُ وَجَعَ المدينة، وولدت امْرَأَتُهُ جَارِيَةً،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٢.

(٢) إسناده لا بأس به لأجل جعفر بن أبي المغيرة، لكن له شواهد كما ترى.

وتأخّرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرّاً. وذلك الفتنة. وهكذا ذكّر قتادة، والضحاك، وابن جرير، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلّحت له دُنياه أقام على العبادّة، وإن فسدت عليه دُنياه وتغيّرت انقلب فلا يقيم على العبادّة إلا لِمَا صلّح من دُنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهد في قوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾، أي: ارتدّ كافراً.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي: فلا هو حصّل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفّر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْأَكْبَرُ﴾، أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة. وقوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويستزيرها، وهي لا تنفعه ولا تنصره، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَسَادُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿يَدْعُوا لَمَنْ سَوَّاهُ قُرْبَهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾، أي: ضرّره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرّره مُحَقَّقٌ متيقّن. وقوله: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾، قال مجاهد: يعني الوثن. يعني يثسّ هذا الذي دَعَا به من دون الله مولى، يعني: ولياً وناصراً، ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾، وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لَيْسَ ابْنُ الْعَمِّ والصاحب من يعبد الله على حرف. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَلِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾. وقول مجاهد إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يُرِيدُ ﴿١٤﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القُرْبَات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سُكْنَى الدرجات العاليات، في رَوْضَاتِ الْجَنَّات. ولما ذكر تعالى أنه أضلّ أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَنْ كَانَتْ يَدُهُ عَنْ نَصْرَةِ اللَّهِ فَإِنَّ يَدَهُ مِنَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ

يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعِظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أَلَّا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصره الله محمداً - ﷺ - في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ يَدَهُ﴾، أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: سماه بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقاتدة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: ليتوصّل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، ذلك عنه، إن قدر على ذلك. وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غايظه فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿١٥﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢]. ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعِظُ﴾. قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ. وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي: القرآن ﴿آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾، أي: وأصحاح في لفظها ومعناها، حجة

من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، أي: يُفَصِّلُ من يشاء ويَهْدِي من يشاء، وله الحكمة الثامنة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لَا يَسْتَلْ عَنَّا يَفْعَلُ وَمَنْ يَسْتَلْ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكيمته ورزقته وعذله، وعلمه وقهره وعظمتيه، لا مُعَقَّبٌ لحكميه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ اللهُ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصَّابِئِينَ - وقد قَدَّمنا في سورة البقرة التعريف بهم، واختلاف الناس فيهم - والنصارى والمجوس، والذين أشركوا قَبَدُوا غير الله معه؛ فإنه تعالى ﴿يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل، فَيَدْخُلُ من آمَنَ به الجنة، ومن كَفَرَ به النار، فإنه تعالى شهيدٌ على أفعالهم، حَفِظَ لأقوالهم، عَلِمَ بسرائرهم، وما تَكُنْ ضَمَائِرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن نَّفْسٍ يَنْفَعُوا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لَهُ وَهُمْ ذُرِّيَّةٌ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾، أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور، ﴿وَمَن فِي نَفْسٍ إِلَّا نَسِجَ يَتَوَدَّ﴾. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾، إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُدَّت من دون الله، فبَيَّن أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مُسَخَّرَةٌ ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

[٤٦٦٤] وفي الصحيحين عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله - ﷺ -: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيؤشرك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت» (١).

[٤٦٦٥] وفي المسند وسنن أبي داود، والنسائي، وابن ماجه، في حديث الكُشُوف: «إن الشمس والقمر خَلْقَانِ من خَلْقِ الله، وإنهما لا يَنْكَسِفَانِ لموت أحدٍ ولا لِحَيَاتِهِ، ولكن الله - عز وجل - إذا تَجَلَّى لشيءٍ من خَلْقِهِ خَشَعَ له» (٢). وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يَقَعُ لله ساجداً حين يَغِيب، ثم لا يَنْصَرِفُ حتى يُؤدَّنَ له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مَطْلَعِهِ. وأما الجبال والشجر فسجودهما بغير ظلالهما عن اليمين والشمال.

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٥٨.

(٢) أخرجه النسائي ١٤١/٣ وابن ماجه ١٢٦٢ من طريق خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير مرفوعاً. وأخرجه أحمد ٢٦٧/٤ من طريق أبي قلابة عن رجل عن النعمان بن بشير مرفوعاً، وهذا هو الصواب أنه عن رجل، وأبو قلابة كثير الإرسال. فالإسناد ضعيف، والوهن فقط في عجزه، وأما أصله ففي الصحيحين.

[٤٦٦٦] وعن ابن عباس قال: جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله، إنني رأيتني الليلة وأنا نائمٌ كأنني أصلي خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم: اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة^(١). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَابْنُ جِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْدَّوَابُّ﴾ أَي: الحيوانات كلها.

[٤٦٦٧] وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله - ﷺ - نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فرب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله من راحيتها^(٢). وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾، أَي: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أَي: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القُدَّاحُ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: قيل لعلي: إن هاهنا رجلاً يتكلم في المشيئة. فقال له علي: يا عبد الله، خلقت الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيُضْرَضُك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيُشْفِيكَ إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف.

[٤٦٦٨] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا وَيْلَهُ! أَمِرَ ابْنُ آدَمَ بالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ. وَأَمِرْتُ بالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ»^(٣) رواه مسلم.

[٤٦٦٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قال: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بشر بن هاشم أبو مصعب المَعَاوِرِيُّ قال: سمعت عتبة بن عامر يقول: قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدة تين؟ قال: نعم، فمن لم يسجد ههما فلا يقرأهما^(٤). ورواه أبو داود والتِّرْمِذِيُّ، من حديث عبد الله بن لهيعة، به، وقال التِّرْمِذِيُّ: «ليس هو بِقَوِي». وفي هذا نظر، فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسَّماع، وأكثر ما نَقَمُوا عليه تَدْلِيْسُهُ.

(١) أخرجه الترمذي ٥٧٩ و ٣٤٢٤ وابن ماجه ١٠٥٣ وابن حبان ٢٧٦٨ وابن خزيمة ٥٦٢ والحاكم ٢١٩/١ و ٢٢٠ والمعقل ٢٤٣/١ والمزي في «تهذيب الكمال» ٣١٤/٦ كلهم من حديث ابن عباس. صححه الحاكم، وقال: رواه مكيون لم يذكر واحد منهم بجرح، وهو من شرط الصحيح! ووافقه الذهبي! وقال الترمذي: غريب، وهذا منه توهين للحديث. ومدار الحديث على الحسن بن محمد بن عبيد الله، قال المعقل: لا يتابع على حديثه، وقال الذهبي: فيه جهالة، وقال في المغني: غير معروف، وقال في الكاشف: غير حجة.

تنبيه: وقد سقط «حسن بن محمد» من صحيح ابن خزيمة، لهذا صححه محققه جرياً على ظاهره! ووافقه الألباني! راجع كلام الشيخ شعيب في «الإحسان».

(٢) أخرجه أحمد ٤٤٠/٣ من حديث معاذ بن أنس وإسناده ضعيف جداً، فيه ابن لهيعة عن زبال بن فائد عن سهل بن معاذ، ثلاثهم ضعفاء. وله شاهد عن وابصة أخرجه الطبراني ١٤٤/٢٢ وفيه بشر بن عبيد ضعيف متروك.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٨١ وابن ماجه ١٠٥٢ وأحمد ٤٤٣/٢ وابن حبان ٢٧٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود ١٤٠٢ والترمذي ٥٧٨ وأحمد ١٥١/٤ والحاكم ٢٢١/١ والدارقطني ٤٠٨/١ وفيه مشرح مقبول، وصدر الحديث حسن يتأيد بما بعده. ولفظ «فمن لم يسجد ههما فلا يقرأهما» تفرد به ابن لهيعة، وهو واه، وانظر القرطبي ٣١٧٠ و ٣١٦٩.

[٤٦٧٠] وقد قال أبو داود في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، أنبأنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جُثَيْب، عن خالد بن مَعْدَانَ أن رسول الله - ﷺ - قال: «فَضَلْتُ سُرَّةَ الْحَجِّ عَلَى الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ»^(١). ثم قال أبو داود: وقد أَسْنَدَ هذا - يعني من غير هذا الوجه - ولا يصح.

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا خَفَضُ بن غِيَاث، حدثني نافع، حدثني أبو الجهم أن عَمَرَ سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بِسَجْدَتَيْنِ.

[٤٦٧١] وَرَوَى أبو داود وابن ماجه: من حديث الحارث بن سَعِيد الْمُتَقِي، عن عبد الله بن مُثَنٍّ، عن عمرو بن العاص: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْرَأَهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَجْدَةً فِي الْقُرْآنِ، مِنْهَا ثَلَاثٌ فِي الْمُفْضَلِ، وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ سَجْدَتَانِ^(٢). فهذه شَوَاهِدُ يَشُدُّ بِعَظْمِهَا بَعْضُهَا.

﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ فَلَا زَيْنَ لَكَمَا قُطِعَتْ لَكُمُ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يَصُبُّ مِن قَوْقٍ رُّءُوسُهُمُ الْخَيْمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّن حَديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرٍ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

[٤٦٧٢] ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، من حديث أبي مجليز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي ذَرٍّ: أَنَّهُ كَانَ يُقَسِّمُ قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ﴾، نَزَلَتْ فِي حِمْرَةٍ وَصَاحِبِيهِ، وَعَتَبَةُ وَصَاحِبِيهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي بَذْرِ^(٣). لَفْظُ الْبَخَارِيِّ عَنْ تَفْسِيرِهَا.

[٤٦٧٣] ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ: حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِثْقَالٍ، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو مِجْلِيزٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْتُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ قَيْسٌ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ﴾، قَالَ: هُمُ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَذْرِ: عَلِيُّ وَحِمْرَةٌ وَعُبَيْدَةُ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ^(٤). انفرد به البخاري.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ﴾، قَالَ: ائْتَصَمَ الْمُسْلِمُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبِئْنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكُنَّا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: كُنَّا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ عَلَى الْكُتُبِ كُلِّهَا، وَنَبِئْنَا خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ. فَافْلَجَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ، وَأَنْزَلَ: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ﴾. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ﴾، قَالَ: مُصَدِّقٌ وَمُكَذِّبٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ ائْتَصَمَا فِي الْبَعَثِ. وَقَالَ - فِي رِوَايَةٍ هِيَ عَطَاءٌ فِي هَذِهِ

(١) هذا مرسل، أخرجه أبو داود في «المراسيل» ص ١٣ وهو يشهد لما قبله، ويتأيد بما بعده سواء الموقوف، أو المرفوع. وذلك لاختلاف غارجه. والله أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود ١٤٠١ وابن ماجه ١٠٥٧ والحاكم ٢٢٣/١ والدارقطني ٤٠٨/١ وقال الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» ٦/٢: حسنه المنذري، والنووي، وضعفه عبد الحق، وابن القطان، وابن منين مجهول، والراوي عنه لا يعرف أيضاً. اهـ. لكن يتأيد بما قبله، والله أعلم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٤٣ ومسلم ٣٠٣٣ والنسائي في «التفسير» ٣٦١ وابن ماجه ٢٨٣٥.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٤ والنسائي في «التفسير» ٣٦٢.

الآية -: هم المؤمنون والكافرون. وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ خَصَمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾، قال: هي الجنة والنار، قالت النار: جَعَلَنِي لِلْمُفْجُورَةِ. وقالت الجنة: جَعَلَنِي لِلرَّحْمَةِ. وقول مجاهد وعطاء: إِنَّ المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يُريدون نُصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير. وهو حسن. ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾، أي: فُصِّلَتْ لَهُمْ مُقَطَّعات من نار. قال سعيد بن جبير: من تُحَاس وهو أشد الأشياء حَرَارَةً إذا حمي. ﴿يُصَبُّ مِنْ قَوْقِرُ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ﴾ ٢٠ يصهر بـ. ما في بَطُونِهِمْ وَلِبَلَوُودُ ۖ﴾، أي: إذا صُبَّ على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة. وقال سعيد: هو التُّحَاسُ المَذَابُ، أذاب ما في بَطُونِهِمْ من الشَّخْمِ والأَمْعَاءِ. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وكذلك تَذُوب جُلُودِهِمْ، وقال ابن عباس وسعيد: تَسَاقَطُ.

[٤٦٧٤] وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سعيد بن زيد، عن أبي السَّمِيعِ، عن ابن حَجَّيرَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي - قال: ﴿إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَيَنْفُذُ الْجُمُجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ﴾^(١). ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك، وقال: «حسن صحيح». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه عن أبي نعيم، عن ابن المبارك، به. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبي الخواريزي، سمعت عبد الله بن السري قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكزَّهه، قال: فيرفع بمقمة معه فيضرب بها رأسه، فيفزع دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصَهَّرُ بـ. مَا فِي بَطُونِهِمْ وَلِبَلَوُودُ ۖ﴾.

[٤٦٧٥] وقوله: ﴿وَلَكُمْ مَقْلُوعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ۖ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله - ﷺ - قال: «لو أن مقمعا من حديد وُضِعَ فِي الْأَرْضِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلَانِ مَا أَقْلَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ»^(٢).

[٤٦٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لو ضُربَ الجَبَلُ بِمَقْلَعٍ مِنْ حَدِيدٍ لَتَفَتَّتَ ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ. وَلَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ عُسَاقِي يَهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلُ الدُّنْيَا»^(٣). وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَكُمْ مَقْلُوعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ۖ﴾، قال: يَضْرِبُونَ بِهَا، فَيَقَعُ كُلُّ عَصَا عَلَى حِيَالِهِ، فَيَدْعُونَ بِالشُّبُورِ.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٥٨٢ والطبري ٢٤٩٩٣ والبيهقي في «البعث والنشور» ٥٧٩ وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. والصواب أنه ضعيف لضعف سعيد بن زيد مداره عليه، والراجح وقفه.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢٩/٣ وأبو يعلى ١٣٨٨ والحاكم ٤/٦٠٠ ح ٨٧٧٣ كلهم من حديث أبي سعيد، وإسناده أحمد ضعيف، له علتان ابن لهيعة، وذراج، وقد توبع ابن لهيعة في المستدرک، وعلته فقط ذراج، وهو ضعيف في روايته عن أبي الهيثم، وهذا منها. ومع ذلك صححه الحاكم وسكت الذهبي! لكن تكلم الذهبي على ذراج في مواضع من المستدرک بقوله: ذو مناكير.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٧٧ وأحمد ٨٣/٣ وفيه ذراج وابن لهيعة، وانظر ما قبله. لكن يتساهل في أحاديث الترهيب كما نص عليه العلماء.

سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يُضيءُ لَهَا ولا جُفْرُهَا، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وقال زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، قال: بَلَّغْنِي أَنَّ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ لَا يَنْتَفُسُونَ. وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمِعُوا في الخروج، إِنَّ الأَرَجَلَ لَمُقِيدَةٌ، وَإِنَّ الأَيْدِيَ لَمُوقِفَةٌ، وَلَكِنْ يَرْفَعُهُمْ لَهَا، وَتَرُدُّهُمْ مَقَامِعُهَا. وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، ومعنى الكلام أنهم يَهَانُونَ بالعَذَابِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢٣) وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴿

لما أخبر تعالى عن حالِ أهل النار - عياداً بالله من حالهم - وما هم فيه من العذاب والثكال والحريق والأغلال، وما أُعِدَّ لهم من الثياب من النار، ذكر حالِ أهل الجنة - نسأل الله من فضله وكرمه أن يُدخلنا الجنة - فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: تتَخَرَّقُ في أكفافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يَصْرَفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، أي: في أيديهم.

[٤٦٧٧] كما قال النبي - ﷺ - في الحديث المَثَقَّقُ عليه: «تَبْلُغُ الْجَلِيلَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(١). وقال كعب الأحبار: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَلَكًا لَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْمِيَهُ لَسَمِيْتُهُ، يَصْرُغُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ الْحُلِيَّ مِنْذُ خَلَقَهُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَوْ أَبْرَزَ قَلْبُ مِنْهَا - أي: سِوَارٌ مِنْهَا - لَرَدَّ شُعَاعُ الشَّمْسِ، كَمَا تَرُدُّ الشَّمْسُ نُورَ الْقَمَرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، في مُقَابَلَةِ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي فَضَّلَتْ لَهُمْ، لِبَاسٌ هَؤُلَاءِ مِنَ الْحَرِيرِ، إِسْتَبْرَقِهِ وَشُدَّيْهِ، كما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُفْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمْتُمْ رَبَّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) [الإنسان: ٢١ - ٢٢].

[٤٦٧٨] وفي الصحيح: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الدِّيْبَاجَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مَنْ لَبَسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»^(٢). قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. وقوله: ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْذِنُ بَتِيعُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٢٣) [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤) [الرعد: ٢٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) [الواقعة: ٢٥ - ٢٦]، فَهَدُوا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَسْمَعُونَ فِيهِ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلْيَقْرَأُوا فِيهَا حَزِيقَةً وَسَلَامًا﴾، لَا كَمَا يَهَانُ أَهْلُ النَّارِ بِالْكَلامِ الَّذِي يَرْوَعُونَ بِهِ وَيَقْرَعُونَ

(١) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٨٣٤ ومسلم ٢٠٦٩ ج ١١ والنسائي في «الكبرى» ٩٥٨٤ من حديث عبد الله بن الزبير عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وليس فيه ذكر الديباج، وإنما ورد ذكره في حديث حذيفة بن اليمان عند البخاري ٥٦٣٣ ومسلم ٢٠٦٧.

به، يقال لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وقوله: ﴿وَهُدُوا لَكُمْ صِرَاطَ الْقَيِّدِ﴾، أي: إلى المكان الذي يَحْمَدُونَ فيه رَبَّهُمْ، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسده إليهم،

[٤٦٧٩] كما جاء في الصحيح: «إنهم يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ، كما يُلْهَمُونَ التَّنْفِيسَ»^(١). وقد قال بعضُ المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكارُ المشروعة. ﴿وَهُدُوا لَكُمْ صِرَاطَ الْقَيِّدِ﴾، أي: الطريق المستقيم في الدنيا. وكلُّ هذا لا ينافي ما ذكرناه. والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْإِكْرَامِ يُظْلَمِ نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مُنْكَرًا على الكفار في صَدِّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسبتهم فيه، ودَعْوَاهم أنهم أوليَاؤه ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِيَائِهِمْ إِلَّا الضَّالُّونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وفي هذه الآية دليلٌ أنها مَدَنِيَّة، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: ومن صِفَتِهِمْ مع كُفْرِهِمْ أنهم يَصُدُّونَ عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: وَيَصُدُّونَ عن المسجد الحرام مَنْ أَرَادَهُ من المؤمنين الذين هم أحقُّ الناس به في نفس الأمر. وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، أي: ومن صِفَتِهِمْ أنهم تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ. وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شَرْعًا سَوَاءً، لا فَرْقَ فيه بين الْمُقِيمِ فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ومن ذلك استواء الناس في رِبَاعِ مَكَّةَ وسُكْنَاهَا، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، قال: يَنْزِلُ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وقال مجاهد: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، أهل مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ فيه سواء في المنازل، وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: سَوَاءٌ فِيهِ أَهْلُهُ وَغَيْرُ أَهْلِهِ. وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخَيْف، وأحمد بن حنبلٍ حاضرٌ أيضًا، فذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أن رِبَاعَ مَكَّةَ تملك وتُورَث وتُؤَجَّر، واحتجَّ بحديث الزُّهري، عن علي بن الحُسَيْن، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال:

[٤٦٨٠] قلت: يا رسول الله، أتزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: وهل ترك لنا عقيلٌ من رِبَاعٍ؟ ثم قال: لا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ، ولا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ^(٢). وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في الصحيحين. وبما ثَبَتَ أن عمر بن الخطَّاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، فَجَعَلَهَا سِجْنًا بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاووس، وعمرو بن دينار. وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تُؤَجَّر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونصَّ عليه مجاهد وعطاء.

(١) تقدم في تفسير سورة يونس عند آية: ١٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٨٢ و٤٢٨٣ ومسلم ١٣٥١ وأبو داود ٢٩١٠ وابن ماجه ٢٧٣٠ وأحمد ٢٠١/٥ وابن حبان ٥١٤٩ والبيهقي ٣٤/٦ واللفظ للبخاري.

[٤٦٨١] واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة؛ عن عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد بن أبي حسين، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نضلة قال: ثُوفي رسول الله - ﷺ - وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباغ مكة إلا السوائب، من احتاج سَكَن، ومن استغنى أسكَن^(١).

وقال عبد الرزاق، عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها. وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحَرَم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبَوَّ دور مكة، لأن ينزل الحاج في عَرَساتها، فكان أول من بَوَّ داره سُهيل بن عمرو، فأرسل إليه عُمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأ تاجرًا، فأردت أن أتخذ بابين يحسان لي ظهري قال: فذلك إذا. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن منصور، عن مجاهد: أن عُمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث شاء. قال: وأخبرنا معمر، عن سمع عطاء يقول: ﴿سَوَاءَ الْمَدِينَةِ فِيهِ وَالْبَادِي﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا. ورؤى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً. وتوسط الإمام أحمد فقال: ثَمَلَك وتَوَزَّت ولا تُؤَجِّر، جمعاً بين الأدلة. والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْعَكَامِ يَظْلِمُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾، قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿تَبَّتْ يُدُومَةُ الْأَعْصَى﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تَبَّتْ الدُّهُنُ، وكذا قوله، ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْعَكَامِ﴾، تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى:

ضَمِنْتُ بِرِزْقِي عِيَالِنَا أَرْمَاحَنَا بَيْنَ الْمَرَاجِلِ وَالصَّرِيحِ الْأَجْرَدَا
وقال الآخر:

بَوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشُّتَّ صَدْرُهُ وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبَهَانِ^(٢)
والأجود أنه ضَمَنَ الفعل هاهنا معنى «يَهْم»، ولهذا عذاه بالباء، فقال: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْعَكَامِ﴾، أي: يَهْمُ فيه بامرٍ فطبيع من المعاصي الكبار. وقوله: ﴿يَظْلِمُ﴾، أي: عامداً قاصداً أنه ظَلَمَ ليس بمأثول، كما قال ابن جريج، عن ابن عباس: هو التعمد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَظْلِمُ﴾: يشترك. وقال مجاهد: أن يُعَبَّدَ فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَظْلِمُ﴾ هو أن تَسْجُلَ من الحرام ما حَرَّمَ الله عليك من لسان، أو قَتَلَ، فَتَظْلِمَ مَنْ لَا يَظْلِمُكَ، وَتَقْتُلَ مَنْ لَا يَقْتُلُكَ، فإذا قَتَلَ ذلك فَقَدْ وَجَبَ لَهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ. وقال مجاهد: ﴿يَظْلِمُ﴾، يعمل فيه عملاً سيئاً. وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب التأوي فيه الشر، إذا كَانَ عَازِماً عَلَيْهِ، وإن لم يُوقِفْهُ، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره:

[٤٦٨٢] حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السدي: أنه سمع مرة يحدث عن عبد الله - يعني ابن مسعود - في قوله: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْعَكَامِ يَظْلِمُ﴾، قال: لو أن رجلاً أراد فيه إلحاداً يَظْلِمُ، وهو بِعَدَنٍ أَبِين، لأذاقه الله من العذاب الأليم. قال شعبة: هو رَفَعَهُ لَنَا، وَأَنَا لَا أَرَفَعُهُ لَكُمْ. قال يزيد: هو قَد رَفَعَهُ^(٣). ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به. قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووَقَفَهُ أَشْبَهُ مِنْ رَفَعِهِ، ولهذا صَمَّمْ شعبة على وَفْقِهِ من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان

(١) أخرجه ابن ماجه ٣١٠٧، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح عن شرط مسلم.

(٢) الشث: شجر طيب الريح، مَرَّ الطعم يُدْبِغُ به. والمرخ: شجر من العضاء، ليس له ورق ولا شوك، سريع الاشتعال يقتدح به. والشبهان: من الرياحين، وهو الشام.

(٣) أخرجه أحمد ٤٠٧١ وأبو يعلى ٥٣٨٤ والبزار ٢٢٣٦، والوهم في رفعه من قبل السدي، فإنه تكلم فيه غير واحد، بل ضعه بعضهم. والله أعلم.

الثَّورِيُّ، عن السُّدِّي، عن مُرَّة، عن ابن مَسْعُودٍ مَوْقُوفًا. والله أعلم. وقال الثَّورِيُّ، عن السُّدِّي، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: ما من رَجُلٍ يَهْمُ بِسَيِّئَةٍ فَتَكْتَبَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا بَعَدَنِي أَبِينَ هُمْ أَنْ يَقْتُلَ رَجُلًا بِهَذَا الْبَيْتِ لِأَذَاقِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ. وكذا قال الضُّحَّاكُ بْنُ مَرْحَمٍ. وقال سفيان الثَّورِيُّ، عن منصور، عن مجاهد: إلْحَادٌ فِيهِ: لَا وَاللَّهِ، وَيَلَى وَاللَّهِ. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، مِثْلَهُ. وقال سعيد بن جُبَيْرٍ: شَتَمَ الْخَادِمُ ظُلْمًا فَمَا قَوَّهَ. وقال سفيان الثَّورِيُّ، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مهران، عن ابن عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْأَعْكَامِ يُظْلَمِ﴾، قال: تِجَارَةُ الْأَمِيرِ فِيهِ. وعن ابن عُمر: يَبِيعُ الطَّعَامَ بِمَكَّةَ الْإِلْحَادَ. وقال حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْأَعْكَامِ يُظْلَمِ﴾، قال: الْمُحْتَكِرُ بِمَكَّةَ. وهكذا قال غير واحد.

[٤٦٨٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قال: «احتكأ الطعام بمكة إلحاداً»^(١).

[٤٦٨٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْأَعْكَامِ يُظْلَمِ﴾، قال: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - بَعَثَهُ مَعَ رَجُلَيْنِ، أَحَدُهُمَا مُهَاجِرٌ وَالْآخَرُ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَافْتَحَرُوا فِي الْأَنْسَابِ، فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَسٍ، فَقَتَلَ الْأَنْصَارِيَّ ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْأَعْكَامِ يُظْلَمِ﴾، يَعْنِي مَنْ لَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ بِالْحَادِ يَعْنِي بِمِيلٍ عَنِ الْإِسْلَامِ^(٢). وهذه الآثار، وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْإِلْحَادِ، وَلَكِنْ هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ فِيهَا تَنْبِيْهُ عَلَى مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْهَا، وَلِهَذَا لَمَّا هَمَّ أَصْحَابُ الْفِيلِ عَلَى تَخْرِيبِ الْبَيْتِ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ يَّبْجَلٍ ۖ فَيَسْجَلُونَ بِهَا فِي الْأَفْئِدَةِ كَمَا يَسْجَلُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [الفيل: ٤ - ٥]، أَي: دَمَرَهُمْ وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِّكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ.

[٤٦٨٥] ولذلك ثَبِتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قال: «يَغْزُوا هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ»^(٣). . . الحديث.

[٤٦٨٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُثَّاسَةَ، حدثنا إسحاق بن سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَنَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ^(٤) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: يَا بَنَ الزُّبَيْرِ، إِيَّاكَ وَالْإِلْحَادَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، فَلَمَّانِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّهُ سَيُلْحَدُ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَوْ تَوَزَّنَ ذَنْبُهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَجَحَتْ»^(٥)، فَانْظُرْ لَا تَكُونُ.

(١) إسناده ضعيف. أخرجه أبو داود ٢٠٢٠، وله علتان: موسى بن باذام قال في «التقريب»: مجهول. وقال الذمبي في «الميزان» لا يعرف، والعللة الثانية عمارة بن ثوبان، قال في «التقريب»: مستور.

(٢) إسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة، ضعفه الجمهور، وعطاء بن دينار هو الهذلي، قال أحمد بن صالح: تفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبيرة صحيفة، ليس فيها ما يدل على أنه سمع منه، وهذا اختاره أيضاً أبو حاتم الرازي، راجع الميزان ٥٦٣٨.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢١١٨ وابن حبان ٦٧٥٥.

(٤) كذا وقع في المسند والمجمع، وقد رجح العلامة أحمد شاكر، كون الحديث من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص، لا من رواية ابن عمر. راجع كلامه ٦٢٢٠.

(٥) أخرجه أحمد ١٣٦/٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٨٥/٣ وقال: ورجاله ثقات.

[٤٦٨٧] وقال أيضاً في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد، حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو ابن الزبير: وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهدُ لسمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: يُحْلَهَا وَيُحَلُّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَوْ وَزَنْتَ ذَنْبَهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَوَزَنْتَهَا. قال: فانظر لا تكون هو^(١). لم يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكُتُبِ مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

هذا فيه تفریع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قُرَيْشٍ، في البقعة التي أُسِّسَتْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فذكر تعالى أنه بَوَّأَ إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ، أي: أرشده إليه، وسَلَّمَهُ لَهُ، وَأَذِّنْ لَهُ فِي بَنَاتِهِ. واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم - عليه السلام - هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يُبْنَ قبله». كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر:

[٤٦٨٨] قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وَضِعَ أَوَّلُ؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: بيت المقدس. قلت: كم بينهما؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً^(٢). وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَعِذْنَا إِنْ شِئْنَا بِمَنْ يُشْرِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ آلِهَةٌ تَسْبِيحُ لَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أُولَئِكَ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَلَهُمْ آسَافُ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قَدَّمْنَا ذِكْرَ مَا وَرَدَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ مِنَ الصُّحاحِ وَالْأَنَارِ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا. وقال تعالى هَاهُنَا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾، أي: ابْنِيهِ عَلَى اسْمِي وَخِدْيِي، ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، والقائمين، أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فَرَنَ الطَّوَّافُ بِالصَّلَاةِ، لَأَنَّهُمَا لَا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُخْتَصِمِينَ بِالْبَيْتِ، فَالطَّوَّافُ عِنْدَهُ، وَالصَّلَاةُ إِلَيْهِ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ، إِلَّا مَا اسْتثنَى مِنَ الصَّلَاةِ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْقِبْلَةِ فِي الْحَرْبِ، وَفِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾، أي: نادِ فِي النَّاسِ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الْحَجِّ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَمْرُنَاكَ بِنَاتِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أَبْلُغُ النَّاسَ وَصُوتِي لَا يَنْفَعُهُمْ؟ فَقِيلَ: نَادِ وَعَلَيْنَا الْبَلَغُ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قُبَيْسٍ، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه. فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كُلُّ شَيْءٍ سَمِعَهُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ أَوْ شَجَرٍ، وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهُ يَحُجُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ:

(١) إسناده على شرطهما، أخرجه أحمد ١٩٦/٢ و٢١٩ ورجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» ٢٨٤/٣ - ٢٨٥. وكون الحجاج هو المراد بالحديث أقرب من كونه ابن الزبير، فالحجاج لم يقتصر على رمي الكعبة بالمنجنيق، بل قتل عشرات الآلاف من المسلمين، فجزاء الله بما كسبت يده.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٣٢.

«لِيَكُ اللَّهُمَّ لِيكَ». هذا مضمون ما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جرير، وابن أبي حاتم مطولة. وقوله: «يَأْتُوكَ بِكَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَيْنِي»، قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً، لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة غزمهم. وقال وكيع، عن أبي العباس، عن أبي حنيفة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما أسى على شيء إلا أنني وددت أنني كنت حججت ماشياً، إن الله يقول: «يَأْتُوكَ بِكَالًا». والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ - فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام. وقول: «يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ»، يعني طريق، كما قال: «وَعَمَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا» [الأنبياء: ٣١]. وقوله: «عَيْنِي»، أي: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثوري، وغير واحد. وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: «فَلَجَمَلُ أَفْئِدَةٍ مِنَ النَّاسِ يَنْوِيهِ إِلَيْهِمْ» [إبراهيم: ٣٧]، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

«لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ» ﴿٢٨﴾
 الْعَتِيقُ ﴿٢٩﴾

قال ابن عباس: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ»، قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضاؤا الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البذن والريح والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ» [البقرة: ١٩٨]. وقوله: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ»، قال شعبة وهشيم، عن أبي بشر، عن سعيد، عن ابن عباس: الأيام المعلومات أيام العشر. وعلقه البخاري عنه، بصيغة الجزم به، ويروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم النخعي. وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل.

[٤٦٨٩] وقال البخاري: حدثنا محمد بن عازرة، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ - قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل يخرج بخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء»^(١). ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي الباب عن ابن عمر، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر. قلت: وقد نقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حديثه.

[٤٦٩٠] فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا أبو عوانة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ -: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»^(٢). وروي من وجه آخر، عن مجاهد، عن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٩٦٩ والترمذي ٧٥٧ وأبو داود ٢٤٣٨ وابن ماجه ١٧٢٧ وأحمد ٢٢٤/١.

(٢) أخرجه أحمد ٧٥/٢ و١٣١ والبيهقي في «الشعب» ٣٧٥٠ وإسناده غير قوي لأجل يزيد، لكن للحديث شواهد يحسن بها.

ابن عُمر، بنحوه. وقال البخاري: وكان ابنُ عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر، فيُكَبِّران ويُكَبِّر الناس بتكبيرهما.

[٤٦٩١] وقد رَوَى أحمدُ عن جابر مرفوعاً: «أن هذا هو العَشر الذي أقسمَ الله به في قوله: ﴿وَالْقَبْرِ وَيَالِي عَشْرِ﴾»^(١). وقال بعضُ السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتَمَمْتُهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

[٤٦٩٢] وفي سنن أبي داود: أن رسول الله - ﷺ - كان يَصُوم هذا العَشر^(٢). وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة.

[٤٦٩٣] والذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله - ﷺ - عن صيام يوم عرفة، فقال: أحْتِسِبُ على الله أن يُكْفِّرَ السنة الماضية والآتية^(٣). ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد وَرَدَ في حديث أنه أفضل الأيام عند الله. وبالجمله فهذا العَشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نَطَقَ به الحديث، فضله كثيرٌ على عشر رمضان الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فَرْضِ الْحَجِّ فيه. وقيل: ذاك أفضل لاشتتماله على ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر. وتَوَسَّطَ آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان في الأيام المعلومات؛ قال الحكم، عن مُقَسِّم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده، ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أحمدُ بن حنبل في رواية عنه.

قول ثالث، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المديني، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عجلان، حدثني نافع: أن ابنَ عمر - رضي الله عنهما - كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هُنَّ جَمِيعُهُنَّ أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر. هذا إسنادٌ صحيحٌ إليه وقاله السدي. وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويُعَصَّدُ هذا القول والذي قبله قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْفَكِ﴾، يعني به ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يومُ عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهبُ أبي حنيفة. وقال ابن وهب: حدثني ابنُ زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يومُ عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْفَكِ﴾، يعني الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام وأنها ﴿فَنَبِيَّةٌ آتَتْهَا﴾ [الأنعام: ١٤٣]... الآية وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِالْإِسْ قَاصِ الْفَقِيرِ﴾، استدُلُّ بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي. وهو قولٌ غريب، والذي عليه الأكثر أنه من باب الرخصة أو الاستحباب.

[٤٦٩٤] كما ثبت أن رسول الله - ﷺ - لما نحر هذيه أمر من كُلِّ بَدَنَةٍ بِيَضْعَةٍ فَتَطْبُخُ، فأكَلَ من لَحِيحِهَا، وَحَسَا من مَرَقِهَا^(٤). وقال عبد الله بن وهب: قال لي مالك: أحِبُّ أن يأكل من أَضْحِيَّتِهِ، لأن الله يقول:

(١) يأتي في سورة الفجر، إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٤٣٧ وإسناده حسن لكن لفظه «تسع ذي الحجة» بدل «العشر» وانظر صحيح أبي داود ٢١٢٩.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١١٦٢ وأبو داود ٢٤٢٥ والترمذي ٧٥٢ وابن ماجه ١٧٣٠ وابن حبان ٣٦٣٢.

(٤) صحيح. هو بعض حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ أخرجه مسلم ١٢١٨.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾. قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لي مثل ذلك. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾، قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فُرِّخَص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وزوي عن مجاهد، وعطاء، نحو ذلك.

قال مُشَيْم، عن حُسَيْن، عن مجاهد في قوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: هي كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره، واستدل مَنْ نَصَرَ القول بأن الأصاحي يَتَصَدَّقُ منها بالنَّصَف بقوله في هذه الآية ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَاقِيَ الْفَقِيرَ﴾، فَجَزَّأَهَا نصفين: نصف للمضحي، ونصف للفقراء. والقول الآخر أنها تُجَزَّأُ ثلاثة أجزاء، ثلث له، وثلث يُهْدِيه، وثلث يَتَصَدَّقُ به، لقوله في الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْفَاقِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. وسباني الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة. وقوله: ﴿الْبَاقِيَ الْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس، والْفَقِيرُ: المتعفف. وقال مجاهد: هو الذي لا ييسطُ يده. وقال قتادة: هو الزُّمْنُ. وقال مقاتل بن حَيَّان: هو الضَّرِير. وقوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حَلَّى الرَّاسِ وَلَبَسَ الثَّيَابَ وَقَصَّ الْأَفْئَارَ، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظِيُّ. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، قال: التَّفَثُ: المناسك. وقوله: ﴿وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني نَحَرَ ما نَذَرَ من أَمْرِ الْبُذْنِ. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾: نَذَرُ الْحَجِّ وَالْهَدْيِ. وما نَذَرَ الْإِنْسَانُ من شيء يكون في الْحَجِّ. وقال إبراهيم بن ميسرة، عن مجاهد: ﴿وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾، قال: الذبائح. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾: كل نَذَرٍ إلى أَجَلٍ. وقال عكرمة: ﴿وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾، قال: حَجُّهُمْ.

وكذا رَوَى الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حدثنا أبي، حدثنا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾، قال: نَذَرُ الْحَجِّ. وكل من دخل بالحج فَعَلِيه من العمل فيه: الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصُّفَا وَالْمَرَوَةِ، وَعَرَفَةَ، وَالْمزدلفة، وَرَمَى الْجِمَارِ، عَلَى مَا أَمَرُوا بِهِ. وَزَوِي عن مالك نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، قال مجاهد: يعني الطَّوْفُ الْوَاجِبُ يَوْمَ النَّحْرِ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّادٌ، عن أبي جَمْرَةَ قال: قال لي ابنُ عَبَّاسٍ: أَتَقْرَأُ سُورَةَ الْحَجِّ؟ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فَإِنْ آخَرَ الْمَنَاسِكَ الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ قُلْتُ: وَهَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فإنه لما رَجَعَ إِلَى مَنْى يَوْمَ النَّحْرِ بدأ بِرَمْيِ الْجَمْرَةِ، فرماها بسبع حصيات، ثم نَحَرَ هَذِيه، وَخَلَقَ رَأْسَهُ، ثم أَفَاضَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ.

[٤٦٩٥] وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «أَمَرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِهِم بِالْبَيْتِ الطَّوْفُ، إِلَّا أَنَّهُ خُفِّفَ عَنِ الْمَرْأَةِ الْحَائِضِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فيه مُسْتَدَلٌّ لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الطَّوْفُ مِنْ وَرَاءِ الْجَنْجَرِ، لَأَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنْ كَانَتْ قَرِيشٌ قَدْ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ، حِينَ قَصَّرَتْ بِهِمُ التَّفَقُّةُ. ولهذا طَافَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ وَرَاءِ الْجَنْجَرِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْجَنْجَرَ مِنَ الْبَيْتِ، وَلَمْ يَسْتَلِمِ الرُّكْنَيْنِ الشَّامِيَيْنِ، لِأَنَّهُمَا لَمْ يَتِمَّا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ الْعَتِيقَةِ.

[٤٦٩٦] ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان، عن هشام بن حجير، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَبِطَوْا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله - ﷺ - من وزائره^(١). وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلَبِطَوْا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، قال: لأنه أول بيت وُضِعَ للناس، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وعن عكرمة أنه قال: إنما سُمِّيَ البيت العتيق، لأنه أعيق يوم الفَرَقَ زمانُ نوح. وقال خُصِيف: إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وقال ابن أبي نجيع، وليث، عن مجاهد: أُعِيقَ من الجابرة أن يُسَلِّطُوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرْذَ أحدٌ بسوءٍ إلا هلك. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن الزبير قال: إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأن الله اعتقه من الجابرة.

[٤٦٩٧] وقال الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار»^(٢). وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل البخاري، عن عبد الله بن صالح، به. وقال: إن كان صحيحاً^(٣). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. ثم رواه من وجه آخر عن الزهري، مرسلًا.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَتْ لَكُمْ الْأَنْعُمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحَابٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعليها من الثواب الجزيل. ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾، أي: ومن يَحْتَنِبِ معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال ابن جرير: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾، قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

(١) إسناده ضعيف، فيه راو لم يسم.

(٢) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٧٠ والحاكم ٣٨٩/٢ ح ٣٤٦٥ والطبري ٢٥١١٧، صححه الحاكم على شرط البخاري، وسكت الذهبي. وقال الترمذي: وقد روي مرسلًا، ثم ساق إسناده وكذا الطبري ٢٥١١٨ كلاهما عن الزهري مرسلًا، ومراسيل الزهري وإهية، كما هو مقرر في كتب التراجم. والمتصل ضعيف، تفرد بوصله عبد الله بن صالح كاتب الليث، وهو وإن روى له البخاري - لكن كان ذلك في أثناء شبابه ثم كبر وفسد بأخرة - قال أبو حاتم: أخرج أحاديث في آخر عمره، أنكرها عليه، ثرى أنها بما افعل خالد بن نجيع، وكان أبو صالح يصحبه، وقال ابن حبان: كان في نفسه صدوقًا إنما وقعت المناكير في حديثه من قبل جاره له. قال ابن خزيمة: كان له جار يضع له أحاديث ويكتبها بخط شبه خطه، ويرميها في داره. وقال صالح جزرة: هو عندي عن يكذب أده راجع الميزان، فالحديث ضعيف، وحسبه الوقف على ابن الزبير.

(٣) كذا وقع في سائر النسخ، وفي العبارة غموض، وبيانه هو أن الطبري ذكر أقوالاً مختلفة، في تسمية البيت «البيت العتيق» ثم قال: وأرجح الأقوال قول ابن زيد، غير أن الذي روي عن ابن الزبير أولى بالصحة، إن كان صحيحاً أده.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، أي: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، أي: من تحريم التبيئة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به. والمتخففة والمؤودة والمردية والطبيعة وما أكل السبع إلا ما ذكيتكم... الآية، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة. وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: «من هاهنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور.

[٤٦٩٨] وفي الصحيحين عن أبي بكره قال: قال رسول الله - ﷺ -: ألا أتبينكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى؛ يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور. فما زاد يكررها، حتى قلنا: ليته سكت^(١).

[٤٦٩٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، أنبأنا سفيان بن زياد، عن قاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله - ﷺ - خطيباً فقال: يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله، ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(٢). وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن مبيع، عن مزوان بن معاوية، به. ثم قال: غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي - ﷺ -.

[٤٧٠٠] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العصفري، عن أبيه: عن حبيب بن النعمان الأسدي، عن خريم بن قاتك الأسدي قال: صلى رسول الله - ﷺ - الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: عدلت شهادة الزور الإشراك بالله - عز وجل - ثم تلا هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(٣) حَقَّاهُ يَوْمَ عَرَفَةَ مُشْرِكِينَ بِهِ.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم بن أبي النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور الشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّاهُ يَوْمَ عَرَفَةَ﴾، أي: مخلصين له الدين، منصرفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال ﴿عَرَفَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: سقط منها، ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطُّيُورُ﴾، أي: تقطعه الطيور في الهواء: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾، أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه. ولهذا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٧٦ ومسلم ٨٧ والترمذي ١٩٠١.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٢٩٩ وأحمد ١٧٨/٤ و٢٣٣ بهذا الإسناد، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، ولا نعرف لأيمن هذا سماعاً من النبي - ﷺ - وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٥٩٩ والترمذي ٢٣٠٠ وابن ماجه ٢٣٧٢ وأحمد ٢٣١/٤، قال الترمذي: هذا عندي أصح. خريم له صحبة اهـ والحديث معلول فهو من رواية زياد العصفري عن حبيب بن النعمان الأسدي. قال الحافظ في التقریب عقب كل: مقبول. في حين قال الذهبي في ترجمة زياد ٢٩٧٩: فزياد لا يدري من هو، عن مثله. ثم ذكر هذا الحديث. أي وشيخه لا يدري من هو اهـ وورد عن ابن مسعود من قوله أخرجه الطبري ٢٥١٣٤ والطبراني ٨٥٦٩ وهو أصح من المرفوع. وانظر ضعيف أبي داود ٧٧٣، والله أعلم.

[٤٧٠١] جاء في حديث البراء: إن الكافر إذا تَوَقَّعته ملائكة الموت، وصعدوا برؤوسهم إلى السماء، فلا تَفْتَحُ له أبواب السماء، بل تُطْرَحُ روحه طُرْحاً من هناك. ثم قرأ هذه الآية ^(١). وقد تقدّم الحديث في سورة إبراهيم بخروفيه وألفاظه وطُرْقِهِ. وقد ضرب تعالى للمشرك مثلاً آخر في «سورة الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَتَدْعُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَنْ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أُوْحَيَّا قُلْ لِكُلِّ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْكِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكَ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: هذا: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْكِرَ اللَّهِ﴾، أي: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾. ومن ذلك تعظيم الهدايا والبذن، كما قال الحكم، عن يقسّم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمائها واستحسانها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ليلى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْكِرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام. وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نُسَمِّنُ الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسَمِّنُونَ. رواه البخاري.

[٤٧٠٢] وعن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: دَمُ عَفْرَاءٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ دَمِ سَوَادَوَيْنِ ^(٢) رواه أحمد، وابن ماجه. قالوا: والعفراء هي البياض بياضاً ليس بناصر، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يُجْزَى أيضاً.

[٤٧٠٣] لما ثَبِتَ في صحيح البخاري، عن أنس: أن رسول الله - ﷺ - ضَحَّى بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَيْنِ ^(٣).

[٤٧٠٤] وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - ضَحَّى بِكَبْشٍ أَقْرَنَ فَحِيلَ يَأْكُلُ فِي سَوَادٍ، وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ، وَيَمْشِي فِي سَوَادٍ ^(٤). رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ. أي: فيه نكتة سَوَادٍ في هذه الأماكن.

[٤٧٠٥] وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - ضَحَّى بِكَبْشَيْنِ عَظِيمَيْنِ سَمِينَيْنِ أَقْرَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوعَيْنِ ^(٥). قيل: هما الخَصِيَّان. وقيل: اللذان رَضُ خُضْيَاهُمَا، ولم يَظْلُمَاهُمَا، والله أعلم.

(١) تقدم في سورة إبراهيم كما ذكر المصنف.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٧/٢ والحاكم ٢٢٧/٤ من حديث أبي هريرة بلفظ: «دم عفراء أحب إلي من دم سوادوين» وفي إسناده رباح بن عبد الرحمن، وأبو ثقال، وكلاهما مقبول كما في «التقريب» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨/٤: وفيه أبو ثقال، قال البخاري: فيه نظر اهـ. وللحديث شاهد عند الطبراني في «الكبير» ١٥/٢٥ - ١٦ من حديث كبيرة بنت سفيان، وفيه محمد بن سليمان، وهو ضعيف. وله شاهد آخر من حديث ابن عباس عند الطبراني ١١٢٠١ وإسناده ضعيف.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥٨ ومسلم ١٩٦٦ وأبو داود ٢٧٩٤ والترمذي ١٤٩٤ والنسائي ٢٢٠/٧ وابن ماجه ٣١٢٠ وأحمد ١٧٠/٣ وابن حبان ٥٩٠٠.

(٤) جيد. أخرجه أبو داود ٢٧٩٦ والترمذي ١٤٩٦ والنسائي ٢٢١/٧ وابن ماجه ٣١٢٨ وإسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٥) جيد. أخرجه الحاكم ٢٢٩/٤ والبيهقي ٢٦٨/٩ من حديث أبي رافع دون قوله «موجودين» ولم أره عند ابن ماجه من حديث أبي رافع، وإنما أخرجه ابن ماجه ٣١٢٢ من حديث أبي هريرة وكذا الحاكم ٢٢٧/٤ والبيهقي ٢٦٧/٩، وله شاهد من حديث جابر، وهو الآتي وإسناده صحيح.

[٤٧٠٦] وكذا زَوَى أبو داود وابن ماجه عن جَابِرٍ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بكبشين أقرنين أملحين موجودين^(١).

[٤٧٠٧] وعن علي - رضي الله عنه - قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالْأُذْنَ، وَلَا نَضْحِي بِمَقَابِلَةٍ، وَلَا مُدَابِرَةٍ، وَلَا شَرْقَاءَ، وَلَا خَرْقَاءَ^(٢). رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.

[٤٧٠٨] ولهم عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن نضحي بأعْضَبِ الْقَرْنِ وَالْأُذُنِ^(٣). قال سعيد بن الْمُسَيَّبِ: الْعَضْبُ: النُّصْفُ فَأَكْثَرُ. وقال بعضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: إِنْ كُثِرَ قَرْنُهَا الْأَعْلَى فَهِيَ قِصْمَاءُ، فَأَمَّا الْعَضْبُ فَهُوَ كَسْرُ الْأَسْفَلِ وَعَضْبُ الْأُذُنِ قَطْعُ بَعْضِهَا. وعند الشافعي أَنَّ التَّضْحِيَةَ بِذَلِكَ مُجَزَّءَةٌ، لَكِنْ تُكْرَهُ. وقال أحمد: لَا تُجْزَى الْأَضْحِيَةُ بِأَعْضَبِ الْقَرْنِ وَالْأُذُنِ، لِهَذَا الْحَدِيثِ. وقال مالك: إِنْ كَانَ الدَّمُ يَسِيلُ مِنَ الْقَرْنِ لَمْ يُجْزَى، وَلَا أَجْزَأُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وأما المَقَابِلَةُ: فَهِيَ الَّتِي قُطِعَ مُقَدَّمُ أُذُنِهَا، وَالْمُدَابِرَةُ: مِنْ مُؤَخَّرِ أُذُنِهَا. وَالشَّرْقَاءُ: هِيَ الَّتِي قُطِعَتْ أُذُنُهَا طَوْلًا، قَالَه الشافعي والأصمعي. وَالْخَرْقَاءُ: هِيَ الَّتِي خَرَقَتِ السَّمَاءُ أُذُنُهَا خَرْقًا مُدَوَّرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٤٧٠٩] وعن البراء قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوْرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا، وَالْكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تُثْقِي»^(٤). رواه أحمد، وأهل السنن، وصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ. وهذه العيوبُ تَنْقُصُ اللَّحْمَ، لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا عَنْ اسْتِكْمَالِ الرِّعْيِ، لِأَنَّ الشَّاءَ يَسْقُوْنَهَا إِلَى الْمَرْعَى، فَلِهَذَا لَا تُجْزَى التَّضْحِيَةُ بِهَا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَيْمَةِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ. وَاخْتَلَفَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي الْمَرِيضَةِ مَرَضًا يَسِيرًا، عَلَى قَوْلَيْنِ.

[٤٧١٠] وروى أبو داود، عن عُثْبَةَ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَهَى عَنِ الْمُصَفَّرَةِ، وَالْمُسْتَأْصَلَةِ، وَالْبَهْقَاءِ، وَالْمُشَيْعَةِ وَالْكَسِيرَةِ^(٥). فَالْمُصَفَّرَةُ قِيلَ: الْهَزِيلَةُ. وَقِيلَ: الْمُسْتَأْصَلَةُ الْأُذُنُ. وَالْمُسْتَأْصَلَةُ: الْمَكْسُورَةُ الْقَرْنِ. وَالْبَهْقَاءُ: هِيَ الْعَوْرَاءُ. وَالْمُشَيْعَةُ: هِيَ الَّتِي لَا تَزَالُ تُشَيِّعُ خَلْفَ الْقَتَمِ، وَلَا تَتَّبِعُ لِضَعْفِهَا. وَالْكَسِيرَةُ: الْعَرْجَاءُ. فَهَذِهِ الْعُيُوبُ كُلُّهَا مَانِعَةٌ مِنَ الْإِجْزَاءِ. فَأَمَّا إِنْ طَرَأَ الْعَيْبُ بَعْدَ تَعْيِينِ الْأَضْحِيَةِ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ عَلَيْهِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ.

[٤٧١١] وَقَدْ زَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: اشْتَرَيْتُ كَبْشًا أَضْحِي بِهِ، فَعَدَا الذَّنْبُ فَأَخَذَ الْآلِيَةَ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالَ: ضَحَّ بِهِ^(٦).

- (١) أخرجه أبو داود ٢٧٩٥ وابن ماجه ٣١٢١ وأبو يعلى ١٧٩٢ وأحمد ٣/٣٧٥ وإسناده أحمد لا بأس به، وله شاهد عن أنس، أخرجه البخاري ٥٥٦٥ ومسلم ١٩٦٦.
- (٢) أخرجه أبو داود ٢٨٠٤ والترمذي ١٤٩٨ والنسائي ٢١٦/٧ وابن ماجه ٣١٤٢ وأحمد ٨٠/١ و١٤٩، وصححه الحاكم ٤/٢٢٤ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وإسناده غير قوي لأجل شريح بن النعمان.
- (٣) أخرجه أبو داود ٢٨٠٥ والنسائي ٢١٧/٧ و٢١٨ والترمذي ١٥٠٤ وابن ماجه ٣١٤٥ وأحمد ٨٣/١ و١٢٧ وابن حبان ٥٩٣١ وصححه الحاكم ٤/٢٢٤ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: إسناده غير قوي لأجل جري بن كليب.
- (٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٨٠٢ والترمذي ١٤٩٧ والنسائي ٢١٥/٧ وابن ماجه ٣١٤٤ وأحمد ٤/٢٨٤، وقال الترمذي: حسن صحيح، وإسناده صحيح، رجاله ثقات.
- (٥) ضعيف. أخرجه أبو داود ٢٨٠٣ وفي إسناده أبو حميد الرعيني، وهو مجهول.
- (٦) ضعيف جداً. أخرجه أحمد ٣/٣٢ و٨٦ وإسناده ضعيف جداً، فيه جابر الجعفي، وهو متروك، وشيخه محمد بن قرظة، وهو مجهول.

[٤٧١٢] ولهذا في الحديث: «أمرنا رسول الله ﷺ - أن نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالْأُذُنَ»^(١). أي: تكون الهدية أو الأضحية حسنة سميئة.

[٤٧١٣] كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدى عمر نجيباً، فأعطي بها ثلاثمئة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أهديت نجيباً فأعطيته بها ثلاثمئة دينار، أفأبيعها واشتري بشئها بُذناً؟ قال: لا، انحرها إياها^(٢). وقال الضحأك، عن ابن عباس: البُذْنُ من شعائر الله. وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والبدن والحلق: من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، أي: لكم في البدن منافع من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وزكوبها. ﴿إِنَّ أَجْلِيَ مُسْتَى﴾، قال مفسم، عن ابن عباس: - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِنَّ أَجْلِيَ مُسْتَى﴾، قال: ما لم يستم بُذناً. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِنَّ أَجْلِيَ مُسْتَى﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُميت بذنة أو هدياً ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء، والضحأك، وقنادة، ومقاتل، وعطاء الخراساني، وغيرهم. وقال آخرون: بل له أن يتنفع بها وإن كان هدياً، إذا احتاج إلى ذلك.

[٤٧١٤] كما ثبت في الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ - رأى رجلاً يسوق بذنة، قال: اركبها. قال: إنها بذنة. قال: اركبها، ويحك! في الثانية أو الثالثة^(٣).

[٤٧١٥] وفي رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا»^(٤). وقال شعبة، عن زهير بن أبي ثابت الأعشى، عن المغيرة بن أبي الحر، عن علي أنه رأى رجلاً يسوق بذنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، أي: محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَدٌ بَلِغٌ الْكِبَرِ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال: ﴿وَالْهَدْيُ مَكْرُومًا أَنْ يَبْلُغَ حِلْمًا﴾ [الفتح: ٢٥]. وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريباً، والله الحمد. وقال ابن جرير، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّذِكْرِ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمٍ الْأَشْهُرِ فَإِلَهِكَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَفَشِرَ الْمُخْتَلِفِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَفِي رِزْقِهِمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ذَبْحُ الْمَنَاسِكِ وَإِرَاقَةُ الدَّمَاءِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَشْرُوعاً فِي جَمِيعِ الْمِلَلِ. قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾، قال: عيداً. وقال عكرمة: ذبحاً. وقال زيد بن

(١) تقدم تحت رقم ٤٧٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود ١٧٥٦ وإسناده ضعيف لجهالة الجهم بن الجارود، وانظر ضعيف أبي داود ٣٨٥.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٦٩٠ ومسلم ٢٣٢٣ والترمذي ٩١١ والنسائي ١٧٦/٥ وابن ماجه ٣١٠٤.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٣٢٤ وأبو داود ١٧٦١ والنسائي ١٧٧/٥ وأحمد ٣٢٤/٣ وابن حبان ٤٠١٧.

أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾: إِنَّهَا مَكَّةُ، لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِأُمَّةٍ قَطُّ مَنْسَكًا غَيْرَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

[٤٧١٦] كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسجد وكبر ووضع رجله على صفاحهما^(١).

[٤٧١٧] وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سلام بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعي، عن أبي داود - وهو نفع بن الحارث - عن زيد بن أرقم قال: قلت - أو قالوا -: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: سنة أبيكم إبراهيم. قالوا: ما لنا منها؟ قال: بكل شجرة حسنة. قالوا: فالصوف؟ قال: بكل شجرة من الصوف حسنة^(٢). وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه، من حديث سلام بن مسكين، به.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَشَرَ لَكَلَّةٌ وَلَقَدْ فَكَّرْنَا عَنْتَ الْإِنسَانِ وَأَنَّ يُكَفِّرَ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْدَ الْكُفْرِ﴾، أي: معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١]. ولهذا قال: ﴿فَلَقَدْ أَسْلِمُوا﴾، أي: أخليصوا واستسلموا لحكميه وطاعته. ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، قال مجاهد: المظمتين. وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجليين. وقال عمرو بن أوس: المخبتون: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقال الثوري: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، قال: المظمتين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له. وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: خافت منه قلوبهم، ﴿وَالْعَصِيدِينَ عَلَىٰ مَا أُصَابَهُمْ﴾، أي: من المصائب. قال الحسن البصري: والله لتصبرن أو لتهلكن. ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾، قرأ الجمهور بالإضافة، وبقية العشرة أيضاً. وقرأ ابن السميع: «والمقيمين الصلاة» بالنصب. وقال الحسن البصري: «والمقيمي الصلاة». وإنما حذفت النون هانئاً تخفيفاً، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فقصبت. أي: المؤدبين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه. ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقربائهم وقرباتهم، ومحاوليهم، ويحيسون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في «سورة براءة».

﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ فِيهَا حَبِيرًا فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَعْتَرًا كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٣٦]

يقول تعالى ممتناً على عباده فيما خلق لهم من البذن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدي، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْمَدَىٰ وَلَا أَلْفَاظَهُ وَلَا مَا بَيْنَ أَلَيْتِ الْحَرَامِ يَتَفَوَّنَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة: ٢]. قال ابن جريج: قال عطاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥٨ و ٥٥٦٤ ومسلم ١٩٦٦ وقد تقدم برقم ٤٧١٥.

(٢) باطل. أخرجه ابن ماجه ٣١٢٧ وأحمد ٣٦٨/٤ وابن حبان في «المجروحين» ٥٥/٣ - ٥٦. قال ابن حبان: نفع بن الحارث أبو داود، كان ممن يروي عن الثقات الموضوعات توهماً، وقال البوصيري في الزوائد: هو متروك، واتهم بوضع الحديث - اهـ.

لَكَرَّيْنِ شَعْتِيرَ اللَّهِ»، قال: البقرة، والبعير. وكذا زوي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري. وقال مجاهد: إنما البذن من الإبل. قلت: أما إطلاق البذنة على البعير فمتمتع عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البذنة على البقرة، على قولين، أحدهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث. ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البذنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

[٤٧١٨] كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله، قال: أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نشترك في الأضاحي، البذنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(١). وقال إسحاق بن زاهر وغيره: بل تجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة، وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد، وسنن النسائي، وغيرهما. فالله أعلم. وقوله: ﴿لَكَرُّ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أي: ثواب في الدار الآخرة.

[٤٧١٩] وعن سليمان بن يزيد الكعبي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أن رسول الله - ﷺ - قال: «ما عيل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هزاق دم. وإنه ليأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً»^(٢). رواه ابن ماجه، والترمذي وحسنه. وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البذن، ف قيل له: تستدين وتسوق البذن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكَرُّ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

[٤٧٢٠] وعن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نجيرة في يوم عيد»^(٣). رواه الدارقطني في سننه. وقال مجاهد: ﴿لَكَرُّ فِيهَا خَيْرٌ﴾، قال: أجر ومنافع. وقال إبراهيم التيمي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها. وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾.

[٤٧٢١] وعن المطالب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله - ﷺ - عيد الأضحى، فلما انصرف أتني بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عتي وعمن لم يضح من أمتي»^(٤). رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

[٤٧٢٢] وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي عيَّاش، عن جابر قال: ضحى رسول الله - ﷺ - بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: ﴿وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَيْفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٦٣] لا شريك لله وَذَلِكَ لِيُقَرَّرَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمثه. ثم سمي الله وكبير وذبح^(٥).

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٣١٨ وأبو داود ٢٨٠٩ والترمذي ٩٠٤ وابن ماجه ٣١٣٢ وابن حبان ٧٠٠٦ والبيهقي ١٦٨/٥ - ١٦٩.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه الترمذي ١٤٩٣ وابن ماجه ٣١٢٦، وفي إسناده سليمان بن يزيد الكعبي، ضعيف كما في التقريب.

(٣) ضعيف، أخرجه الدارقطني ٢٨٢/٤ بهذا اللفظ من حديث ابن عباس، وفي إسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك الحديث.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٨١٠ والترمذي ١٥٢٠ وأحمد ٣/٣٦٢ والحاكم ٢٢٩/٤ والبيهقي ٢٨٥/٤ وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، والمطلب بن حنطب يقال إنه لم يسمع من جابر اهـ وروي من غير هذا الوجه أخرجه أبو داود ٢٧٩٥ وابن ماجه من طريق أبي عيَّاش الزرقي عن جابر، وانظر مزيد الكلام عليه في مسند أبي يعلى ١٧٩٢.

(٥) فيه عن ابن إسحق، وابن أبي حبيب، وكلاهما مدلس، لكن يشهد لأصله ما قبله وما بعده. والله أعلم.

[٤٧٢٣] وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ إِذَا ضَحَّى اشْتَرَى كَبْشَيْنِ سَمِيَيْنِ أَتْرَيْنِ أَمْلَحَيْنِ، فَإِذَا صَلَّى وَخَطَبَ النَّاسَ أَتَى بِأَحَدِهِمَا وَهُوَ قَائِمٌ فِي مَضَلَّاهُ فَذَبَحَهُ بِتَفْسِيهِ بِالْمُدِّيَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ، هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعِهَا، مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لِي بِالْبَلَاغِ». ثُمَّ يُؤْتِي بِالْآخِرِ فَيَذْبَحُهُ بِتَفْسِيهِ، ثُمَّ يَقُولُ: هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، فَيُطْعِمُهَا جَمِيعَ الْمَسَاكِينِ، وَيَأْكُلُ هُوَ وَأَهْلُهُ مِنْهُمَا^(١). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه. وَقَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي ظَلْيَانَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ»، قَالَ: قِيَامًا عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ، مَعْقُولَةً يَذُهَا الْيُسْرَى، يَقُولُ: «بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ». وَكَذَلِكَ رَوَى مُجَاهِدٌ، وَعَلِي بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَالْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، نَحْوَ هَذَا. وَقَالَ لَيْثٌ، عَنْ مُجَاهِدٍ: إِذَا عَقِلْتَ رَجُلَهَا الْيُسْرَى قَامَتْ عَلَى ثَلَاثٍ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْهُ، نَحْوَهُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تَغْفُلُ رَجُلٌ وَاحِدَةً فَتَكُونُ عَلَى ثَلَاثٍ.

[٤٧٢٤] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمرَ: أَنَّهُ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ بَدَنَتَهُ وَهُوَ يَنْحَرُهَا، فَقَالَ: ابْنَعْتُهَا قِيَامًا مَقِيدَةً، سُنَّةَ أَبِي الْقَاسِمِ - ﷺ -^(٢).

[٤٧٢٥] وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَأَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْحَرُونَ الْبُذْنَ مَعْقُولَةً الْيُسْرَى، قَائِمَةً عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ قَوَائِمِهَا^(٣). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ. وَقَالَ ابْنُ لَهْيَعَةَ: حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ، أَنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، قَفْ مِنْ شِقْقِهَا الْيَمَنِ، وَأَنْحَرْ مِنْ شِقْقِهَا الْأَيْسَرِ.

[٤٧٢٦] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرٍ، فِي صِفَةِ حَبَّةِ الْوَدَاعِ، قَالَ فِيهِ: فَتَنَحَّرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِيَدِهِ ثَلَاثًا وَسِتِينَ بَدَنَةً. جَعَلَ يَطْعُمُهَا بِحَزْنَةٍ فِي يَدِهِ^(٤).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «صَوَافِنَ»، أَي: مُعَقَّلَةٌ قِيَامًا. وَقَالَ سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: مَنْ قَرَأَهَا «صَوَافِنَ»، قَالَ: مَعْقُولَةٌ. وَمَنْ قَرَأَهَا «صَوَافَّ»، قَالَ: تُصَفُّ بَيْنَ يَدَيْهَا. وَقَالَ طَاوُوسٌ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُهُمَا: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافِي»، يَعْنِي خَالِصَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَا رَوَاهُ مَالِكٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: «صَوَافِي»، لَيْسَ فِيهَا شِرْكٌ كَشِرْكِ الْجَاهِلِيَّةِ لِأَصْنَافِهِمْ. وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا وَجَّعَتْ جُنُوبَهَا»، قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: يَعْنِي سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ. وَهُوَ رَوَايَةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَكَذَا قَالَ مِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «فَإِذَا وَجَّعَتْ جُنُوبَهَا» يَعْنِي نُحِرَتْ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: «فَإِذَا وَجَّعَتْ جُنُوبَهَا» يَعْنِي مَاتَتْ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مُرَادُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنَ الْبَدَنَةِ إِذَا نُحِرَتْ حَتَّى تَمُوتَ وَتَبْرُدَ حَرَكَتُهَا.

[٤٧٢٧] وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ: «وَلَا تُعْجِلُوا النُّفُوسَ أَنْ تَرْهَقَ»^(٥). وَقَدْ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ فِي جَامِعِهِ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ قُرَافِصَةَ الْحَنْظَلِيِّ، عَنْ عُمرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ.

[٤٧٢٨] وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٨/٦ وَ ٣٩١ - ٣٩٢.

(٢) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ١٧١٣ وَمُسْلِمٌ ١٣٢٠ وَأَبُو دَاوُدَ ١٧٦٨ وَ أَحْمَدُ ٣/٢ وَ ٨٦٦ وَ ابْنُ حِبَّانَ ٥٩٠٣.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ١٧٦٧ وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَيَشْهَدُ لَهُ مَا قَبْلَهُ.

(٤) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ١٢١٨ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ الْمَطْزُولِ فِي صِفَةِ حَبَّةِ النَّبِيِّ - ﷺ.

(٥) لَمْ أَرَهُ مَرْفُوعًا مُسْتَدًّا، وَلَا يَصِحُّ، وَإِنَّمَا هُوَ مَوْقُوفٌ، انْظُرْ «فَتْحُ الْبَارِي» ٩/٦٤١.

قتلتم فأحييوا القُتلة، وإذا ذبحتم فأحسِنوا الذِّبح، وَلْيَحْذُوا حَذْرَهُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِيحُوا ذَيْبَحَتَهُ^(١).

[٤٧٢٩] وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ -: «ما قُطِعَ من البهيمة وهي حيّة فهو ميتة»^(٢). رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصحّحه.

وقوله تعالى: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ»^(٣)، قال بعض السلف: قوله: «فَكُلُوا مِنْهَا»، أمر بإباحة. وقال مالك: يُسْتَحَبُّ ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وجه لبعض الشافعية. واختلف في المراد بالقانع والمعتّر، فقال العوفي، عن ابن عباس: القانع: المُستغني بما أعطيته وهو في بيته. والمعتّر: الذي يتعرّض لك، ويُلِمُّ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القرظي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: القانع: المُتَعَفِّفُ، والمُعْتَرِّ: السائل. وهذا قول قتادة، وإبراهيم النخعي، ومجاهد في رواية عنه. وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم، وعكرمة، والحسن البصري، وابن الكلبي، ومقاتل بن حيان، ومالك بن أنس: القانع: هو الذي يَتَّقِعُ إليك ويسألك. والمُعْتَرِّ: الذي يَغْتَرِّيك، يتضرّع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبّير: القانع هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشّماخ:

لَمَّا لَ الْمَرْءُ يُضْلِحُهُ فَيُغْنِيهِ مَفَاقِرَهُ، أَغْفُ مِنْ الْقُنُوعِ

قال: يغني من السؤال. وبه قال ابن زَيْد. وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذي يَطُوفُ، والمُعْتَرِّ: الصديق والضعيف الذي يَزُور. وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضاً. وعن مجاهد أيضاً: القانع: جارك الغني الذي يُبَصِّرُ ما يدخل بيتك. والمعتّر: الذي يَغْتَرِّيك من الناس. وعنه أن القانع: هو الطامع. والمعتّر: هو الذي يَغْتَرِّ بالبدن من غني أو فقير. وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة. واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل؛ لأنه من أَقْنَعَ يَدِيهِ إِذَا رَفَعَهَا لِلسُّوَالِ. والمُعْتَرِّ من الاعترار، وهو: الذي يتعرّض لأكل اللحم. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأ ثلاثة أجزاء، فثلث لصاحبها يأكله. وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدّق به على الفقراء، لأنه تعالى قال: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ».

[٤٧٣٠] وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ - قال للناس: «إني كنت نهييكم عن ادّخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادّخروا ما بدا لكم»^(٣). وفي رواية: «فكلوا وادّخروا وتصدّقوا»^(٤). وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدّقوا»^(٥).

والقول الثاني: أن المضحي يأكل النصف ويتصدّق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ»، ولقوله في الحديث: «فكلوا وادّخروا وتصدّقوا». فإن أكل الكل قليل: لا يضمن

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٥٥ وأبو داود ٢٨١٥ والترمذي ١٤٠٩ والنسائي ٢٢٧/٧ وابن ماجه ١٣٧٠ وابن حبان ٥٨٨٢ وأحمد ١٢٣/٤.

(٢) حسن صحيح. أخرجه أبو داود ٢٨٥٨ والترمذي ١٤٨٠ والحاكم ٢٣٩/٤ وأحمد ٢١٨/٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن ماجه ٣٢١٦ والدارقطني ٢٩٢/٤ من حديث ابن عمر، وصححه الحاكم ١٢٤/٤ ووافقه الذهبي. انظر «العدة» ص ٢٩ - ٣٠ بتخريجي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٧٧ والترمذي ١٥١٠ والنسائي ٢٣٤/٧ من حديث بريدة.

(٤) هذه الرواية عند مسلم ١٩٧١ وأبي داود ٢٨١٢ والنسائي ٢٣٥/٧ وابن حبان ٥٩٢٧ من حديث عائشة.

(٥) هذه الرواية عند البخاري ٥٥٦٩ وابن حبان ٥٩٢٩ من حديث سلمة بن الأكوع، لكن فيه «وادّخروا» بدل «وتصدّقوا».

شيئاً. وبه قال ابنُ سُرَيْجٍ من الشافعية. وقال بعضهم: يَضْمَنُهَا كُلُّهَا بِمَثَلِهَا أَوْ قِيَمَتِهَا، وَقِيلَ: يَضْمَنُ نِصْفَهَا، وَقِيلَ: ثُلُثُهَا. وَقِيلَ: أَذْنَى جُزْءٍ مِنْهَا. وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ.

[٤٧٣١] وَأَمَّا الْجُلُودُ، ففِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ، عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، فِي حَدِيثِ الْأَضَاحِيِّ: «فَكُلُّوا، وَتَصَدَّقُوا، وَاسْتَمْتِعُوا بِجُلُودِهَا، وَلَا تَبْيُغُوا»^(١). وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ رَخَّصَ فِي ذَلِكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُقَاسِمُ الْفُقَرَاءَ ثَمَنَهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٤٧٣٢] مَسْأَلَةٌ: عَنِ الزَّيَّاتِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدُأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَتَنْحَرُ. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِيهِ، لَيْسَ هُوَ مِنَ التُّسْكِ فِي شَيْءٍ»^(٢). أَخْرَجَاهُ. فَلِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ أَوَّلَ وَقْتِ ذَبْحِ الْأَضَاحِيِّ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ النَّحْرِ، وَمَضَى قَدْرُ صَلَاةِ الْعِيدِ وَالْخُطْبَتَيْنِ. زَادَ أَحْمَدُ: وَأَنْ يَذْبَحَ الْإِمَامُ بَعْدَ ذَلِكَ. لَمَّا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمَ:

[٤٧٣٣] «وَأَلَّا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَحَ الْإِمَامُ»^(٣). وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: أَمَّا أَهْلُ السَّوَادِ مِنَ الْقُرَى وَنَحْوِهِمْ فَلَهُمْ أَنْ يَذْبَحُوا بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ؛ إِذْ لَا صَلَاةَ عِيدٍ تُشْرَعُ عَنْدهُ لَهُمْ. وَأَمَّا أَهْلُ الْأَمْصَارِ فَلَا يَذْبَحُوا حَتَّى يُصَلِّيَ الْإِمَامُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قِيلَ: لَا يُشْرَعُ الذَّبْحُ إِلَّا يَوْمَ النَّحْرِ وَحْدَهُ. وَقِيلَ: يَوْمَ النَّحْرِ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ لِتَيْسُرِ الْأَضَاحِيِّ عَنْدهُمْ. وَأَمَّا أَهْلُ الْقُرَى فَيَوْمَ النَّحْرِ وَأَيَّامَ التَّشْرِيقِ بَعْدَهُ، وَبِهِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وَقِيلَ: يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَوْمَ بَعْدَهُ لِلْجَمِيعِ، وَقِيلَ: وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ. وَقِيلَ: يَوْمُ النَّحْرِ وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ التَّشْرِيقِ بَعْدَهُ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ، لِحَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:

[٤٧٣٤] «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ»^(٤). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ جِبَّانٍ. وَقِيلَ: إِنَّ وَقْتَ الذَّبْحِ يَمْتَدُّ إِلَى آخِرِ ذِي الْحِجَّةِ، وَبِهِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ. وَهُوَ قَوْلٌ غَرِيبٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يَقُولُ تَعَالَى: مِنْ أَجْلِ هَذَا ﴿سَخَرَهَا لَكُمْ﴾، أَي: ذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ، وَجَعَلْنَاهَا مُنْقَادَةً لَكُمْ خَاضِعَةً، إِنَّ شَيْئَكُمْ رَكِبْتُمْ، وَإِنْ شَيْئَكُمْ حَلَبْتُمْ، وَإِنْ شَيْئَكُمْ ذَبَحْتُمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَاتٍ أَيْدِيًا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيُنِيرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى: إِنَّمَا شَرَعَ لَكُمْ تَحَرَ هَذِهِ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا لِتَذْكُرُوهُ عِنْدَ ذَبْحِهَا، فَإِنَّهُ الْخَالِقُ الرَّزَاقُ، لَا إِلَهَ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ١٥/٤ وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْجَمْعِ» ٢٦/٤ وَقَالَ: وَهُوَ مَرْسَلٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ.

(٢) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٩٥١ وَ٩٦٥ وَ٥٥٤٥ وَمُسْلِمٌ ١٩٦١ وَأَبُو دَاوُدَ ٢٨٠١ وَالتِّرْمِذِيُّ ١٥٠٨ وَالنَّسَائِيُّ ٢٢٢/٧ وَأَحْمَدُ ٣٠٣/٤ وَابْنُ حِبَّانَ ٥٩٠٦.

(٣) غَرِيبٌ هَكَذَا. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ١٩٦٤ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ بَلْفِظٍ «وَلَا تَنْحَرُوا حَتَّى يَنْحَرِ النَّبِيُّ ﷺ».

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٨٢/٤ وَابْنُ أَبِي عَرَبٍ ٢٩٥/٥ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ بِأَنَّهُ مِنْهُ، وَإِسْنَادُهُ مُنْقَطِعٌ. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ ٣٨٥٤ وَابْنُ أَبِي عَرَبٍ ٢٩٥/٩ - ٦٩٦ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ عَنْ جُبَيْرٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ لَمْ يَوْفِقْهُ غَيْرُ ابْنِ حِبَّانَ، وَلَمْ يَلْقَ جُبَيْرَ بْنِ مُطْعِمٍ.

يناله شئ من لحومها ولا دمانها، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ. وقد كانوا في جاهليّتهم إذ ذَبَحُوا لآلهتهم وَضَعُوا عَلَيْهَا مِنْ لُحُومِ قَرَابِينِهِمْ، وَنَضَحُوا عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهَا، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ -: فنحن أحق أن ننضح. فأنزل الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقَتْلُ مِنْكُمْ﴾. أي: يتقبّل ذلك ويجزي عليه؛ كما جاء في الصحيح:

[٤٧٣٥] «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

[٤٧٣٦] وما جاء في الحديث: إِنَّ الصَّدَقَةَ تَلْتَقُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ^(٢). كما تقدّم في الحديث، رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه، عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً - فمعناه أنه سيقّ لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم. وقال وكيع، عن يحيى بن مسلم ابن الضحاك: سألت عامراً الشعبي عن جلود الأصاحي، فقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا﴾، إن شئت فقل، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق. وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَعَرَهَا لِكُورٍ﴾، أي: من أجل ذلك سخر لكم البدن، ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾، أي: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبّه وما يرضاه، نهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه. وقوله: ﴿وَيُنِيرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: ويشرّ يا محمد المحسنين، أي: في عملهم، القائمين بحُدُودِ اللَّهِ الْمُتَعَيِّنِ مَا شَرَعَ لَهُمْ. المصدّقين بالرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عنده ربه عز وجل.

مسألة: وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصاباً، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً.

[٤٧٣٧] واختجّ لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسنادٍ رجاله كلّهم ثقات، عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ وَجَدَ سَعَةً فَلَمْ يُضَحَّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّائَنَا»^(٣). على أن فيه غرابة، واستكره أحمد بن حنبل.

[٤٧٣٨] وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ - بالمدينة عشرَ سنين يُضَحِّي^(٤). رواه الترمذي. وقال الشافعي وأحمد: لا تجب الأضحية، بل هي مستحبة.

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٧٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣٢١/٢ وابن ماجه ٣١٢٣ وابن عدي ٢٤٢/٦ والحاكم ٣٨٩/٢ والدارقطني ٢٨٥/٤، وإسناده غير قوي. قال البوصيري في «الزوائد»: عبد الله بن عياش، وإن روى له مسلم، فإنما أخرج له في المتابعات والشواهد. وضعفه أبو داود والنسائي وقال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن يونس: منكر الحديث. ووثقه ابن حبان اهـ وكرره الحاكم ٢٣١/٤ - ٢٣٢ وصححه ثم كرهه عن أبي هريرة موقوفاً، وقال: أوقفه ابن وهب، إلا أن زيادة الثقة مقبولة، وأبو عبد الرحمن المقرئ، فوق الثقة. وقال الزيلعي في نصب الراية ٢٠٧/٤: قال في «التنقيح» - ابن عبد الهادي - وكذلك رواه حيوة بن شريح وغيره عن عبد الله بن عباس مرفوعاً، ورواه جعفر بن ربيعة وعبيد الله بن أبي جعفر عن الأعرج موقوفاً وهو أشبه بالصواب اهـ فالراجح وقفه والذي رفعه ابن عياش وحده، وقد اضطرب فيه فرفعه تارة، وأوقفه تارة. ورواه غيره موقوفاً. والله أعلم.

(٤) ضعيف، أخرجه الترمذي ١٥٠٧ وأحمد ٣٨/٢ وفي إسناده الحاجب بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس وقد تفرد به، فهو ضعيف. ومع ذلك حسنه الترمذي.

[٤٧٣٩] لما جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ»^(١). وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ - ﷺ - ضَحَّى عَنْ أُمِّهِ فَاسْقَطَ ذَلِكَ وَجُوبَهَا عَنْهُمْ. وَقَالَ أَبُو سَرِيحَةَ: كُنْتُ جَاراً لِأَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ، فَكَانَا لَا يُضْحِيَانِ خَشْيَةً أَنْ يَقْتَدِيَ النَّاسُ بِهِمَا. وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْأَضْحِيَّةُ سَنَةٌ كِفَايَةٌ، إِذَا قَامَ بِهَا وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ دَارٍ أَوْ مَحَلَةٍ أَوْ بَيْتٍ سَقَطَتْ عَنِ الْبَاقِينَ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ إظهارَ الشُّعَارِ.

[٤٧٤٠] وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَهْلُ السُّنَنِ - وَحَسَنَةُ التِّرْمِذِيُّ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ بِعَرَفَاتٍ: «عَلَى كُلِّ أَهْلٍ بَيْتٍ فِي كُلِّ عَامٍ أَضْحَاةٌ وَغَيْرُهَا، هَلْ تَذَرُونَ مَا الْغَيْرَةُ؟ هِيَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الرِّجِيَّةُ»^(٢). وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي إِسْنَادِهِ.

[٤٧٤١] وَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يُضْحِي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَيَأْكُلُونَ وَيُطْعَمُونَ حَتَّى تَبَاهِيَ النَّاسُ فَصَارَ كَمَا تَرَى^(٣). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَاجَةٍ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ يُضْحِي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْ جَمِيعِ أَهْلِهِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

[٤٧٤٢] وَأَمَّا مِقْدَارُ سِنِّ الْأَضْحِيَّةِ. فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْسَرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذْعَةً مِنَ الضَّأْنِ»^(٤). وَمِنْ هَاهُنَا ذَهَبَ الزُّهْرِيُّ إِلَى أَنَّ الْجَذْعَ لَا يُجْزَى. وَقَابِلُهُ الْأَوْزَاعِيُّ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْجَذْعَ يُجْزَى مِنْ كُلِّ جِنْسٍ، وَهُمَا غَرِيبَانِ. وَقَالَ الْجُمْهُورُ: إِنَّمَا يُجْزَى الثَّيْبُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعْزِ، وَالْجَذْعُ مِنَ الضَّأْنِ. فَأَمَّا الثَّيْبُ مِنَ الْإِبِلِ فَهُوَ: الَّذِي لَهُ خَمْسُ سِنِينَ. وَدَخَلَ فِي السَّادِسَةِ. وَمِنَ الْبَقَرِ مَا لَهُ سِتَانٌ وَدَخَلَ فِي الثَّالِثَةِ. وَقِيلَ مَا لَهُ ثَلَاثُ سِنِينَ وَدَخَلَ فِي الرَّابِعَةِ. وَمِنَ الْمَعْزِ مَا لَهُ سِتَانٌ، وَأَمَّا الْجَذْعُ مِنَ الضَّأْنِ فَقِيلَ: مَا لَهُ سَنَةٌ، وَقِيلَ: عَشْرَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ: ثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ: سِتَّةُ أَشْهُرٍ، وَهُوَ أَقَلُّ مَا قِيلَ فِي سِنِّهِ، وَمَا دُونَهُ فَهُوَ حَمَلٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْحَمَلَ شَعْرُ ظَهْرِهِ قَائِمٌ، وَالْجَذْعُ شَعْرُ ظَهْرِهِ نَائِمٌ، قَدْ انْعَدَلَ صَدْعَيْنِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَذْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَذْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدَ الْفُجَّارِ، وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلُفُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَكْفِي عِبَدُكُمْ﴾ [الزمر: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾ [الطلاق: ٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾،

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٧٧ وانظر «تلخيص الحبير» ١٦٠/٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٧٨٨ والترمذي ١٥١٨ والنسائي ١٦٧/٧ وابن ماجه ٣١٢٥ وأحمد ٢١٥/٤. قال الترمذي: حسن غريب. وقال الزيلعي في «نصب الراية» ٢١١/٤: قال عبد الحق: إسناده ضعيف. قال ابن القطان: علته الجهل بحال أبي رملة، واسمه عامر، فإنه لا يعرف إلا بهذا. ورواه أيضاً حبيب بن غنم، وهو مجهول اهـ. قال الزيلعي: وهذا الطريق عند عبد الرزاق في «مصنفه». وقال البيهقي في «المعرفة»: إن صح هذا، فالمراد الاستحباب، بدليل أنه قرن بين الأضحية والعنبرة، والعنبرة غير واجبة بالإجماع اهـ. فالحديث غير قوي، تفرد به اثنان وكلاهما مجهول، والمتن غريب. وذكر العنبرة منكر، فقد روى الستة عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا فرع ولا عترة». راجع نصب الراية ٢٠٨/٤.

(٣) أخرجه الترمذي ١٥٠٥ وابن ماجه ٣١٤٧ من حديث أبي أيوب وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٦٣ وأبو داود ٢٧٩٧ وابن ماجه ٣١٤١ وأحمد ٣١٢/٣ وأبو يعلى ٢٣٢٤، وهو وإن رواه مسلم، فإن فيه عننة أبي الزبير، وضعفه بعضهم.

أي: لا يُحِبُّ من عباده من اتَّصَفَ بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفني بما قال. والكفر: الجحد للنعيم، فلا يعترف به.

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَابُكُمْ وَرَبِّعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

قال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة. وقاله مجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد. وقال غير واحد من السلف كابن عباس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وزيد بن أسلم، ومقاتيل بن حيان، وقتادة، وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية.

[٤٧٤٣] وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن داود الواسطي، حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم - هو البطين - عن سعيد بن جببر، عن ابن عباس قال: لما خرج النبي - ﷺ - من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، لَيَهْلِكُنَّ. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩). قال أبو بكر - رضي الله عنه -: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به، وزاد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال^(١). ورواه الترمذي، والنسائي في التفسير من سننهما، وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف - زاد الترمذي: ووكيع - كلاهما عن سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: حديث حسن، وقد رواه غير واحد، عن الثوري، وليس فيه ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلو جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فُتِنًا فَتَرَبَّ الرِّقَابُ حَتَّىٰ إِذَا أَفْتَقَمُوا فُتْدُوا أَلْوَاكُ فَإِنَّمَا مَتَا بَدُوًّا وَمَا فِدَاةٌ حَتَّىٰ تَصْعَ الْكُرُيُّ أَوَّلَافًا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ أَعْتَلَتْ ﴿٤٠﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُضِلُّ بِالْمَلِكِ ﴿٤١﴾ وَيُذِلُّهُمْ لَكِنَّ عَرْفَهُمْ لَمْ يَكُنْ ﴿٤٢﴾﴾ [محمد: ٤ - ٦]. وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ أَعْيُنُهُمْ يَمْوَنُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَفِئْرِهِمْ وَنَصْرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورٌ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النوبة: ١٤ - ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النوبة: ١٦]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسَّرْهُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَائِدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَيَتْلُوَ أَعْيُنَكُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ٣١]. والآيات في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فعل.

وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأتق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقيين لشق عليهم.

(١) حسن، أخرجه الترمذي ٣١٧٠ والنسائي ١١٣٤٥ وكبرى والطبري ٢٥٢٥٤ و٢٥٢٥٥ عن ابن عباس، وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم، فهو وإن ذكر الترمذي أنه روي مرسلاً، فإن ذلك لا يعمل المرفوع لثقة رجاله، وزيادة الثقة مقبولة، والله أعلم.

[٤٧٤٤] ولهذا لما بايَعَ أهل يثرب ليلة العقبة رسولَ الله ﷺ - وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسولَ الله، ألا نَمِيلُ على أهل الوادي - يَعْتُونُ أَهْلَ مِثْنَى - لِيَأْتِيَ مِنِّي فَنَقْتُلَهُمْ؟ فقال رسولُ الله ﷺ -: إني لم أؤمر بهذا^(١). فَلَمَّا بَعَى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ - من بين أظهرهم، وهُمُوا بقتله، وشَرَدُوا أصحابه شَدْرَ مَدْرٍ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ - واجتمعوا عليه، وقاموا بِنَصْرِهِ، وصارت لهم دارُ إسلامٍ ومعقلاً يُلجؤون إليه - شَرَعَ اللهُ جِهَادَ الأعداء، فكانت هذه الآيةُ أَوَّلُ ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ۖ قَالَ الْعَوْفِيُّ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى المدينة بِغَيْرِ حَقٍّ، يعني محمداً وأصحابه. ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾. أي: ما كَانَ لَهُمْ إلى قومهم إِساءةٌ، ولا كان لَهُمْ ذنبٌ إِلَّا أَنَّهُمْ وَحَدُوا اللَّهَ وَعَدَّوْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وهذا استثناءٌ منقطعٌ بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبرُ الذُّنُوبِ، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَكَ أَرْضًا وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، وقال تعالى في قِصَّةِ أصحاب الأَخْذُودِ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٤٠﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لَمَّا كَانَ المسلمون يَرْتَجِزُونَ في بناءِ الْخَنْدَقِ، ويقولون:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قِيَّنَا
إِنْ الْأَلَى قَدْ بَغَّوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا

فيوافقهم رسولُ الله ﷺ - ويقولُ معهم آخرُ كُلِّ قَافِيَةٍ، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنةً أبينا»، يقول: «أبينا»، يمدُّ بها صَوْتَهُ. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، أي: لولا أَنَّهُ يَدْفَعُ عن قومٍ بقومٍ، وَيَكْشِفُ شَرَّ أَتَّاسٍ عن غيرهم، بما يخلقه وَيُقَدِّرُهُ من الأسبابِ لِفَسَادِ الأرضِ، وأهلكَ القويَّ الضَّعِيفَ. ﴿فَلَمَّسَتْ صَوَائِعُ﴾، وهي المعابدُ الصَّغَارُ للرهبان، قاله ابنُ عَبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وأبو العالية، وعكرمة، والضَّحَّاكُ، وغيرُهم. وقال قتادة: هي معابدُ الصَّابِئِينَ. وفي روايةٍ عنه: صوامعُ المَجُوسِ. وقال مقاتلُ بْنُ حَيَّانٍ: هي البيوتُ التي على الطرقِ. ﴿وَبَيْعٌ﴾، وهي أوسعُ منها، وأكثرُ عابدين فيها. وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العالية، وقاتدة، والضَّحَّاكُ، وأبو صَخْرٍ، ومقاتلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَخُصِيفٌ، وغيرهم. وحكى ابنُ جُبَيْرٍ عن مُجَاهِدٍ وغيره: أنها كنائسُ اليهود. وحكى السُّدِّيُّ عمن حَدَّثَهُ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: أنها كنائسُ اليهود. ومجاهدٌ إنما قال: هي الكنائس. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَصَلَوْتُ﴾، قال العوفي، عن ابنِ عَبَّاسٍ: الصَّلواتُ الكَنَائِسُ. وكذا قال عكرمة، والضَّحَّاكُ، وقاتدة: إنها كنائسُ اليهود. وهم يُسَمُّونَهَا: صَلُوتًا. وحكى السُّدِّيُّ، عمن حَدَّثَهُ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: أنها كنائسُ النصارى. وقال أبو العالية، وغيره: الصَّلواتُ: معابدُ الصَّابِئِينَ. وقال ابنُ أَبِي نَجِيجٍ، عن مجاهدٍ: الصَّلواتُ: مساجدُ لأهل الكتابِ ولأهل الإسلامِ بالطُّرُقِ، وأما المساجدُ فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، فقد قيل الضميرُ في قوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ عائِدٌ إلى المساجدِ لأنها أقربُ المذكورات. وقال الضحَّاكُ: الجميعُ يذكرُ فيها اسمُ الله كثيراً. وقال ابنُ جريرٍ: الصوابُ لَهُدُمَتِ صوامعُ الرهبانِ وَبَيْعُ النصارى وصلواتُ اليهود، وهي كنائسُهم، ومساجدُ المسلمين التي يُذَكِّرُ فيها اسمُ الله

(١) لم أره مسنداً. والمرفوع منه ورد في أثناء حديث آخر، انظر «أسباب النزول» للواحدى ٦٢١.

كثيراً، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا تَرَقَّى من الأقل إلى الأكثر إلى أن يشتهي إلى المساجد، وهي أكثر عُماراً وأكثر عُبَاداً، وهم دُورُ الْقَصْدِ الصَّحِيحِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْحَكُوا شِئْرًا﴾، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَصْرُوهَا اللَّهُ يَضْحَكُوا وَيَتَبَيَّنُ أَقَامَتُهُمْ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُونَ أَهْلَهُمْ (٨) [محمد: ٧-٨]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نفسه بالقُوَّة والعِزَّة، فَبَقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، وَبِعِزَّتِهِ لَا يَقْهَرُهُ قَاهِرٌ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ، فَقِيرٌ إِلَيْهِ. وَمَنْ كَانَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ نَاصِرَهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ، وَعَدُوُّهُ هُوَ الْمَقْهُورُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُتُبُنَا لِإِسَاءَاتِ الْفَاسِقِينَ (٦١) إِنَّهُمْ لَمُتْهُمْ لَمَنْ تَصْرُوهَا (٦٢) فَلَمْ جُنْدًا لَكُمْ الْغَالِيُونَ (٦٣)﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]. وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحِبِّهِ أَنا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٦٤)﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ وَهْشَامٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ: قَالَ عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: «فِينَا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فَأَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ قُلْنَا: «زَيْنَا اللَّهُ»، ثُمَّ مَكَّنَّا فِي الْأَرْضِ، فَأَقَامَتِ الصَّلَاةَ، وَآتَيْنَا الزَّكَاةَ، وَأَمَرْنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْنَا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ، فَهِيَ لِي وَلِأَصْحَابِي. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: هُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَالَ الصَّبَّاحُ بْنُ سَوَادَةَ الْكِنْدِيُّ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية، ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْوَالِي وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهَا عَلَى الْوَالِي وَالْمَوْلَى عَلَيْهِ، أَلَا أَتَيْتُكُمْ بِمَا لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكَ، وَبِمَا لِلْوَالِي عَلَيْكُمْ مِنْهُ؟ إِنْ لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُوَاجِدَكُمْ بِحُفُوقِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأَنْ يَأْخُذَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَأَنْ يَهْدِيَكُمْ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ مَا اسْتَطَاعَ، وَإِنْ عَلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ الطَّاعَةُ غَيْرَ الْمَبْزُورَةِ وَلَا الْمُسْتَكْرَهَةِ بِهَا، وَلَا الْمُخَالَفَةُ بِرُءَا عِلَاقَتِهَا. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْنِي: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ أَتَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْقَوِيَّةُ لِلْعَاقِبِينَ﴾. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَا صَنَعُوا.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكُلَّيْنِ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُهَا مَعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدُ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مُسَلِّمًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - ﷺ - فِي تَكْذِيبِ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾، أَي: مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ. ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾، أَي: أَنْظَرْتُهُمْ، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أَي: فَكَيْفَ كَانَ إِتْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقِبَتِي

لهم !؟ ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

[٤٧٤٥] وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُغْلِبْهُ»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَ أَخْذُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾ [هود: ١٠٢]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾، أي: كَمَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴿وَهُى ظَالِمَةٌ﴾ أي: مُكَذِّبَةٌ لِّرُسُولِهَا، ﴿فَهِيَ خَاسِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، قال الضحَّاك: سُقُوفُهَا، أي: قَدْ خَرِبَتْ مَنَازِلُهَا وَتَعَطَّلَتْ خَوَاصِرُهَا. ﴿وَبِئْسَ مَثَلٌ لِّمَن لَّا يَسْتَقِي مِنْهَا﴾، أي: لَا يَسْتَقِي مِنْهَا، وَلَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ بَعْدَ كَثْرَةِ وَارِدِهَا وَالْإِزْدِحَامِ عَلَيْهَا. ﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾، قال عكرمة: يُعْنِي الْمَبِيعُ بِالْجِصِّ. وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَبِي الْمَلِيحِ، وَالضَّحَّاكِ، نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الْمَنِيفُ الْمُرْتَفِعُ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْمَشِيدُ الْمَنِيعُ الْحَصِينُ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَهَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَحْمِ أَهْلَهُ شِدَّةُ بِنَائِهِ وَلَا ارْتِفَاعُهُ، وَلَا إِحْكَامُهُ وَلَا حَصَانَتُهُ عَنْ حُلُولِ بَاسِ اللَّهِ بِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بِأَبْدَانِهِمْ وَبِفِكَرِهِمْ أَيْضًا، وَذَلِكَ كَافٍ، كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ. حَدَّثَنَا هَارُونَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سَيَّارٌ، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ يَا مُوسَى، اتَّخِذْ تَعْلِيلَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ وَعَصَا، ثُمَّ سَبِّحْ فِي الْأَرْضِ وَاطْلُبِ الْأَثَارَ وَالْعِبْرَةَ، حَتَّى تَتَخَرَّقَ النُّعْلَانِ وَتُكْسَرَ الْعَصَا.

وقال ابنُ أبي الدنيا: قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَخِي قَلْبُكَ بِالْمَوَاعِظِ، وَتَوَرَّهِ بِالْفِكْرِ، وَمَوْتُهُ بِالزُّهْدِ، وَقُوَّةُ الْبَالِقِينَ، وَذُلُّهُ بِالْمَوْتِ وَقَرُّهُ بِالْفَنَاءِ، وَبُصْرُهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَخَذَرُهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفَحْشَ ثَقَلَبِ الْأَيَّامِ، وَاعْرَضَ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكَرَهُ مَا أَصَابَ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَسِيزَ فِي دِيَارِهِمْ وَأَنَارِهِمْ، وَانْظُرْ مَا فَعَلُوا، وَأَيْنَ خَلُّوا، وَعَمَّ انْقَلَبُوا. أَي: فَيَنْظُرُوا مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ مِنَ الثَّمَمِ وَالنَّكَالِ، ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ كَأَنَّهَا تَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أَي: فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الْأَصْدَادِ﴾، أَي: لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصَرِ، وَإِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَنْفِذُ إِلَى الْعَبْرِ، وَلَا تَدْرِي مَا الْخَبَرُ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ سَارَةَ الْأَنْدَلُسِيُّ الشُّتْرِينِيُّ، وَقَدْ كَانَتْ وَفَاتَهُ سِتَّةٌ سَبْعٌ عَشْرَةَ وَخَمْسَمِئَةً:

يَا مَنْ يُصْبِحُ إِلَى دَاعِيِ الشَّقَاءِ، وَقَدْ	نَادَى بِهِ السَّاعِيَانِ: السُّنْبُ وَالْكِبَرُ
إِنْ كُنْتُ لَا تَسْمَعُ الذُّكْرَى، فَفِيمَ تُرَى	فِي رَأْسِكَ الْوَاعِيَانِ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ؟
لَيْسَ الْأَصَمُّ وَلَا الْأَعْمَى سِوَى رَجُلٍ	لَمْ يَهْدِهِ الْهَادِيَانِ: الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ
لَا الدَّهْرُ يَنْقِي وَلَا الدُّنْيَا، وَلَا الْفَلَكُ	الْأَعْلَى وَلَا السُّتِيرَانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
لَيَرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَرِهَا	فِرَاقُهَا، الثَّوَابِيَانِ: الْبَدَنُ وَالْحَضَرُ

﴿وَسَمِعَلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿١٧﴾

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهَا أَخَذْنَاهَا وَلِئَلَّ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ﴾، أي: هؤلاء الكفار المُلحِدُونَ المُكذِّبُونَ بالله وكتابه ورَسُولُهُ واليَوْمَ الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّقُوا اللَّهَ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مَا يَقُولُ عَنْكَ فَأَمْلَأْ عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جَعَلْنَا قُلُوبَنَا قَلًّا فَلْيَسِّرْ لَنَا الْقِسَابَ﴾ [ص: ١٦]. وقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، أي: الذي قد وَعَدَ، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائِهِ، والإكرام لأوليائِهِ. قال الأصمعي: كنتُ عند أبي عمرو بن العلاء، فجاءه عمرو بن عُبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يُخْلِفُ الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آيةً وعِيداً، فقال له: أمن المعجم أنت؟ إنَّ العرب تَعُدُّ الرجوع عن الوَعْدِ لَوْماً، وعن الإيعاد كرمًا، أو ما سمعت قول الشاعر:

لَا يُزِيهَبُ ابْنُ الْعَمِّ وَالْجَارِ سَطَوَتِي وَلَا يَنْثَنِي عَنْ سَطَوَةِ الْمُتَهَدِّدِ
فَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمْخْلِفِ إِيْعَادِي وَمُنْجِرِ مَوْعِدِي

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، أي: هو تعالى لا يَعْبَلُ، فإنَّ مقدارَ ألفِ سَنَةٍ عند خَلْقِهِ كيومٍ واحدٍ عنده بالنسبة إلى حُكمه، لِعِلْمِهِ بَأَنَّهُ على الانتقام قَادِرٌ، وأنه لا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وإنَّ أَجَلَ وَأَنْظَرَ وَأَمَلَى. ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرِيبَةٍ أَتَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا بِالْأُصْبَعِ﴾ [١٨].

[٤٧٤٦] قال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثَنَا الحسنُ بنُ عَرَفَةَ، حَدَّثَنِي عَبْدُهُ بنُ سُلَيْمَانَ، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - قال: يدخلُ فقراءُ المسلمين الجنةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، خَمْسُمِئَةِ عَامٍ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ والنَّسَائِيُّ، من حديث الثَّوْرِيِّ، عن محمد بن عمرو، به. وقال التِّرْمِذِيُّ: «حسن صحيح». وقد رواه ابنُ جرير، عن أبي هُرَيْرَةَ مَوْقُوفًا، فقال: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُثَيْمٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ الْجَرِيرِيُّ، عن أبي نُضْرَةَ، عن سُمَيْرِ بْنِ نَهَارٍ قال: قال أبو هُرَيْرَةَ: يدخلُ فقراءُ المسلمين الجنةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِمِقْدَارِ نِصْفِ يَوْمٍ. قلت: وما نصف يوم؟ قال: أَوْ مَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قلت: بلى. قال: ﴿وَلَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

[٤٧٤٧] وقال أبو داود في آخر كتاب المَلَا حِمٍ من سُنَنِهِ: حَدَّثَنَا عمرو بن عُثْمَانُ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ، عن شَرِيحِ بن عُبيد، عن سَعْدِ بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ - أنه قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا تَعْجِزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخَّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ. قيل لسعد: وما نِصْفُ يَوْمٍ؟ قال: خَمْسُمِئَةِ سَنَةٍ^(١). وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بنُ سَيَّانٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن مَهْدِيٍّ، عن إِسْرَائِيلَ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرَمَةَ، عن ابنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، قال: من الأيام التي خَلَقَ اللهُ فِيهَا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ. رواه ابنُ جرير، عن ابنِ مَهْدِيٍّ، وبه قال مجاهدٌ، وعكرمةٌ، ونَصَّ عليه أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ في كتاب الرِّدَّةِ على الجَهَنَّمِيَّةِ. وقال مجاهدٌ: هذه الآية كَقَوْلِهِ: ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَارِمٌ - محمد بن الفضل - حَدَّثَنَا حَمَّادُ بن زيد، عن يحيى ابن

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٥٣ و٢٣٥٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٣٤٨ وابن ماجه ٤١٢٢ وأحمد ٢٩٦/٢ و٤٥١ وابن حبان ٦٧٦ من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن، وله شواهد كثيرة راجع «الترغيب والترهيب» ٤٦٥٥ و٤٦٥٦ و٤٦٥٧ و٤٦٥٨ و٤٦٥٩ و٤٦٦٠ وعند مسلم ٢٢٧٩ بسياق آخر.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٣٥٠ وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

عَتِيقِي، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة في اليوم السابع، ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم في اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحابل إذا دخلت شهرها، ففي آية لحظة ولدت كان تمامًا.

﴿قُلْ يَتَّابِهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٩﴾ فَأَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٥٨﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٥٧﴾

يقول تعالى لنبيه - ﷺ - حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَتَّابِهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٩﴾، أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعل لما يشاء ويريد ويختار، ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكُومِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٩﴾ فَأَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنتم قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم. قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فهو الجنة. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾، قال مجاهد: يُبْطِلُونَ النَّاسَ عَنْ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مُثْبِطِينَ. وقال ابن عباس: ﴿مُعْجِزِينَ﴾: مُرَاجِعِينَ. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وهي النار الحارة الموجهة الشديدة عذابها ونكالتها، أجازنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّتُهُمْ عَذَابًا قَوْفًا الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ٨٨﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْفَاسِقِ قُلُوبُهُمْ وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَفَى شِقَاقِي بَعِيدٍ ٥٧﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٨﴾

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، فلما منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.

[٤٧٤٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله - ﷺ - بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ١١﴾ وَنَوَّارَةَ النَّازِلَةِ الْآخَرَىٰ ١٢﴾، قال: فلقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهن تزدجي». قالوا: ما ذكر ألهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا، فانزل الله - عز وجل - هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ١١﴾. رواه ابن جرير، عن بندار، عن غندر، عن شعبة، به نحوه. وهو مرسل.

[٤٧٤٩] وقد رواه البزار في مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فيما أحسب - الشك في الحديث - أن النبي - ﷺ - قرأ بمكة سورة النجم، حتى انتهى إلى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١). وذكر يقيته (١). ثم قال البزار: «لا نعلمه يزوي متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. إنما يروى هذا من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس». ثم رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالية، وعن السدي، مرسلاً. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس، مرسلاً أيضاً.

[٤٧٥٠] وقال قتادة: كان النبي - ﷺ - يُصَلِّي عند المقام إذ نَعَسَ، فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتها لثرتجي». وإنها لمع الغرائق العلى. فحفظها المشركون. وأجرى الشيطان أن نبي الله قد قرأها، فذلت بها السننهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ ... الآية، فذخر الله الشيطان (٢).

[٤٧٥١] ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أفزنا وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله - ﷺ - قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأخزته ضلالتهم، فكان يتمنى هذاهم، فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١) وَمَنْزِلَةُ الْأُخْرَىٰ (٢) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٣)، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرائق العلى. وإن شفاعتهن لهي التي ثرتجي». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتيته، فوقت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وذلت بها السننهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه. فلما بلغ رسول الله - ﷺ - آخر النجم، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً، فزفع على كفه تراباً، فسجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله - ﷺ - فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين - ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين - وأما المشركون فاطمأنوا أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنيته رسول الله - ﷺ - وحذتهم به الشيطان أن رسول الله - ﷺ - قد قرأها في السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحيشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحذثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله - ﷺ - وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحذثوا أن المسلمين قد أمثوا بمكة. فأقبلوا سراعاً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله تعالى

(١) باطل. تفرد بوصله أمية بن خالد القيسي، كما ذكر البزار، وهو وإن وثقه الجمهور لكن نقل الذهبي في الميزان ١٠٢٩ عن أحمد أنه لم يحمده. وذكره العقيلي في «الضعفاء» اهـ وقد رواه غيره عن سعيد بن جبير، ليس فيه ذكر ابن عباس. وقد ذكر البزار أن هذا الحديث، إنما يروى من طريق الكلبي. والكلبي هو محمد ابن السائب متروك متهم. وورد عن أبي العالية مرسلاً أخرجه الطبري ٢٥٣٢٩ و٢٥٣٣٠، وورد عن الضحاك ٢٥٣٣٤ وعن محمد بن كعب، ومحمد بن قيس ٢٥٣٢٧ وهي مراسيل واهية، لاجحة في شيء منها، وألفاظها مضطربة.

(٢) هو مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

آياته، وحفظه الله من الفرية، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَقَّقَ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥١﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٢﴾، فلما بين الله قضاءه، وبزاه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم^(١). وهذا أيضاً مرسل. وفي تفسير ابن جرير عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجْزُ به موسى بن عَقْبَةَ، ساقه في مغازيه بنحوه، قال: وقد زوينا عن ابن إسحاق هذه القصة. قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة ينحو من هذا^(٢)، وكلها مرسلات ومنقطعات، فالله أعلم. وقد ساقها البخاري في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهما ينحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالاً: «كيف وَقَعَ مثل هذا مع العِصْمَةِ المضمونة من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من الطفا: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك. فتوهموا أنه صدر عن رسول الله - ﷺ - وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن والله أعلم.

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحيح. وقد تعرّض القاضي عياض رحمه الله في كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله:^(٣). وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَقَّقَ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هذا فيه تسليّة - له صلوات الله وسلامه عليه - أي: لا يَهْدِيكَ ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء. قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: إذا حَدَّثَ أَلْفَى الشَّيْطَانُ في حديثه، فَيُطِلُّ الله ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ وَيُحْكِمُ الله آيَاتِهِ. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا تَمَقَّقَ أَلْفَى الشَّيْطَانُ

(١) هذا مرسل، ومراسيل الزهري واهية، لأنه حافظ ثبت، لا يرسل إلا لعله، كما قرر علماء هذا الفن، وهو عند الطبري ٢٥٣٣٥ مختصراً.

(٢) باطل. وورد عن ابن عباس أخرجه الطبري ٢٥٣٣٣ وفيه عطية العوفي، واه، روى مناكير كثيرة، وفي الإسناد مجاهيل. وأعجب من ذلك ما أخرجه الطبراني ٩٠٧٨ عن عروة مرسلًا فذكر في ذلك خبر طويلاً وفيه «أن من هاجر إلى الحبشة بلغه هذا الخبر فرجع إلى المدينة». وفيه ابن لهيعة، ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٨٦: رواه الطبراني مرسلًا، وفيه ابن لهيعة، ولا يَحْتَمِلُ هذا من ابن لهيعة، أي أن راو آخر ركب هذا الحديث.

الخلاصة: «خير الغرائق» باطل لا أصل له، والظاهر أنه من وضع الزنادقة، ركبوا له أسانيد إلى بعض التابعين، بل وصل به بعضهم إلى ابن عباس، ولا يصح عنه، وابن عباس على فرض ثبوته عنه، لم يدرك تلك الحادثة، وقد قال ابن كثير رحمه الله: وكلها مرسلات ومنقطعات. وقد حكم بطلان قصة الغرائق، أبو بكر بن العربي، والشوكاني، والبيهقي، وابن إسحق صاحب السيرة حيث سنل عن هذه القصة، فقال: هذا من وضع الزنادقة. نقله عنه أبو حيان في البحر. وقال أبو منصور المثيري: هذا الخبر من إجماع الشيطان إلى أوليائه الزنادقة، والرسالة بريئة من هذه الرواية، وقال القاضي عياض: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، راجع ما ذكره العلامة الألوسي في «روح البيان» ١٧/ ١٨٢، قال الألوسي: ويكفي في ردها قوله تعالى في وصف القرآن ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ اهـ. وقد جمع الألباني رسالة جمع طرق هذا الخبر وتكلم على تلك الطرق وسماها «نصب المجانيق في نفس قصة الغرائق». وحكم بوضعها العلامة أحمد شاكِر، والله تعالى أعلم.

(٣) هنا بياض في بعض الأصول، وفي بعض الطبقات زيد جملة: «أنها كذلك لشبوتها»! ولا ندري من أين جيء بهذه الخلاصة؟! لأن خلاصة كلام القاضي عياض تفيد بعدم تسليمه بصحة قصة الغرائق من أساسها. راجع «الشفاء»: ٧٥٠/٢ وما بعدها.

فِي أَثْنَيْتَيْهِ، يَقُولُ: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا نَسْفَعُ﴾، يعني: إذا قال. ويقال: ﴿أُثْنَيْتَيْهِ﴾: قراءته، ﴿إِلَّا آمَانِي﴾، يقولون ولا يكتبون. قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿نَسْفَعُ﴾، أي: تلاً وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أَثْنَيْتَيْهِ﴾، أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قُتِلَ:

نَمَى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَأَخْرَمَا لَأْسَى جَمَامِ الْمَقَادِيرِ

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا نَسْفَعُ﴾، إذا تلا، قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام. وقوله: ﴿فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: فَيُبْطَلُ الله - سبحانه وتعالى - ما ألقى الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة، والحنّة البالغة. ولهذا قال: ﴿لَيَجْعَلَ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان. قال ابن جرير: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم: المنافقون، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمُ﴾: المشركون. وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود.

﴿وَلِلَّذِينَ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي: من الحق والصواب. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه وخرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، أي: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخَيِّطَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، وأما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق وأتباعه، ويوفقه لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويخرجهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٥٥﴾
 ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَلْقَى الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ بِحُكْمٍ يَنْهَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٥٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مِرْيَةٍ، أي: في شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جرير، واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿مِنْهُ﴾، أي: مما ألقى الشيطان. ﴿حَقَّقَ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بَغَتِ القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغيبتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر. وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير. وقال عكرمة، ومجاهد - في رواية عنهما -: هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصري. وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَلْقَى الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ بِحُكْمٍ يَنْهَهُمْ﴾، كقوله: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾

﴿١﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ يَمِيلُونَ أَلْفًا لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ حَيْرًا﴾ ﴿١٦٦﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم. ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾، أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: تكفرت قلوبهم بالحق وحدثه وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم. ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾، أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠، أي: صاغرين].

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَنُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ عَفُورٌ﴾ ﴿٦٠﴾

يُخبر تعالى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَهُ، وَتَرْكًا الْأَوْطَانِ وَالْأَهْلِ وَالْخُلَائِنَ، وَفَارِقَ بِلَادَهُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنُصْرَةَ لَدِينِ اللَّهِ، ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أي: فِي الْجِهَادِ، ﴿أَوْ مَاتُوا﴾، أي: خَنَفَ أَنْفَهُمْ - أي: من غير قتال على فُرُشِهِمْ - فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ، وَالثَّوَابِ الْجَمِيلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُفْقُ فَقَدْ رَفَعَ أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، أي: لَيَجْزِيَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ مَا تَقَرَّبَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَنُهُ، أي: الْجَنَّةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿رَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتٌ نَّعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٨٩]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ الرَّاحَةُ وَالرِّزْقُ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ، كَمَا قَالَ هَامَنَا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَنُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، أي: بِمَنْ يُهَاجِرُ وَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ، ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ وَيُكَفِّرُهَا عَنْهُمْ بِهَجْرَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَتَوَكَّلْهُمْ عَلَيْهِ. فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ، فَإِنَّهُ حَيٌّ عِنْدَ رَبِّهِ يُرْزَقُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ بَلْ أَمْوَالُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١٣٣﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَأَمَّا مَنْ تَوَفَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِهِ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَعَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِجْرَاءَ الرِّزْقِ عَلَيْهِ، وَعَظِيمَ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ.

[٤٧٥٢] قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا الْمُسَيَّبُ بْنُ وَاضِحٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُرَيْحٍ، عَنْ ابْنِ الْحَارِثِ - يَعْنِي عَبْدِ الْكَرِيمِ - عَنْ ابْنِ عُقْبَةَ - يَعْنِي أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ عُقْبَةَ - قَالَ: حَدَّثَنَا شُرَحْبِيلُ بْنُ السَّمُطِ: طَالِ رِبَاطُنَا وَإِقَامَتُنَا عَلَى حِصْنِ بَارِضِ الرُّومِ، فَمَرَّ بِي سَلْمَانٌ - يَعْنِي الْفَارِسِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: مَنْ مَاتَ مُرَبَّاطًا أَجْرَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَجْرِ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ الرِّزْقُ، وَأَمِنْ مِنَ الْفَتَنَانِ. وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَنُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴿١﴾.

(١) إسناده غير قوي لأجل المسيب بن واضح، وقد تفرد بذكر الآية. وأخرجه مسلم ١٩١٣ من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن شريح به دون ذكر الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ اللَّهُ لَهُمُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار ١٩ كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الباقية: ١٣]، أي: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿وَأَلْفَلَاكَ تُجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، أي: يتسخيره وتسبيرو، أي: في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها، بريح طيبة، ورفق وثوذة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَمِنْكُمْ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَازْنَةً﴾، أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته، يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَنْفُسِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾،

مقايير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء^(١).

[٤٧٥٤] وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ - قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة^(٢)». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مئة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق - وهو على العرش - تبارك وتعالى -: اكتب. فقال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة، فذلك قوله تعالى للنبي ﷺ -: ﴿أَلَمْ نَقُلْ لَكَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّكْوَةِ وَالْأَرْضِ﴾. وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها، وكتبها أيضاً، فما العباد عايلون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٧١) وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِمَنَنْتَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْلُ الذَّالِّ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الذِّكْرَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ

الْمُصِرُّ (٧٢)

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧) [المؤمنون: ١١٧] ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾، أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وانتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سؤل لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والتكاليف. ثم قال: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِمَنَنْتَ تَعْرِفُ﴾، أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والمُحْجَجُ والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رُسُلَهُ الكرام حقٌ وصدق، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾، أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، وَيَسْطُونَ إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء^(١)، أي: يا محمد لهؤلاء: ﴿أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْلُ الذَّالِّ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الذِّكْرَ كَفَرُوا﴾، أي: الناز وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتهم بزعمتكم وإزاديتكم. وقوله: ﴿وَبَشَرٌ مِّثْلُ الذَّالِّ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الذِّكْرَ كَفَرُوا﴾، أي: وبشر الناز منزلاً ومقيلاً ومرجعاً وموئلاً ومقاماً، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٦٦).

﴿يَكَايُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَوُوا لَهُ﴾ (١١٨) الذِّكْرُ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ

(١) صحيح . وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ١٧٩.

(٢) يأتي في تفسير سورة القلم إن شاء الله تعالى وهو حديث قوي.

اجْتَمَعُوا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَلْبِهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى مُتَّبِعُهَا عَلَى حَقَّارَةِ الْأَصْنَامِ وَخَافَةَ عَقُولِ عَابِدِيهَا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ﴾، أي: لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ﴾، أي: انصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّكَ الْذِيكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ﴾، أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك؛ كما قال الإمام أحمد:

[٤٧٥٥] حَدَّثَنَا أَسُودُ بْنُ عَامِرٍ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَفَعَ الْحَدِيثَ - قَالَ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَلَقَ كَخَلْقِي! فَلْيَخْلُقُوا مِثْلَ خَلْقِي ذَرَّةً، أَوْ ذُبَابَةً، أَوْ حَبَّةً»^(١).

[٤٧٥٦] وَأَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ، مِنْ طَرِيقِ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»^(٢).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ يَسْتَلْبِهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ﴾، أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستفيذه منه لما قدرت على ذلك. هذا الذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾. قال ابن عباس: الطالب: الضم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير. وهو ظاهر السياق. وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم. ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَىٰ بَدْءِهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [٧٢] ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ الْبَدِئِ وَبُيُتُّهُ﴾ [البروج: ١٢ - ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [٥٨] [الذاريات: ٥٨]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾، أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغال، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَخْتَارُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا فِيمَا يَشَاءُ مِنْ شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، وَمِنَ النَّاسِ لِإِبْلَاحِ رِسَالَاتِهِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، أي: سميع لأقوال عبادِهِ، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٧٦﴾، أي: يعلم ما يفعل رُسُلُهُ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، كما قال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٦١﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٧٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٧٨﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨] فهو - سبحانه - قريب عليهم، شهيد

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣٩١/٢ ح ٨٨٣٩ وإسناده حسن في الشواهد لأجل شريك، وقد توبع.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٩٥٣ و٧٥٥٩ ومسلم ٢١١١ وابن حبان ٥٨٥٩ والبيهقي ٢٦٨/٧.

على ما يُقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]... الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاقْعُدُوا الْخَبَرَ لَعَلَّكُمْ تَفْهَمُونَ ۝ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨)

اختلف العلماء - رحمهم الله - في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين.

[٤٧٥٧] وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله - ﷺ -: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يَقْرَأَهُمَا»^(١). وقوله: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ»، أي: بأموالكم وأنفسكم، كما قال تعالى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِلِهِ» [آل عمران: ١٠٢]. وقوله: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ»، أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرف. «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم شيء فشق عليكم إلا جعل لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة - التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تُقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يُصلِّيها بعض الأئمة ركعة، كما ورد بها الحديث، وتُصلَّى رجلاً وربكناً، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. كذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها. والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصلِّيها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات.

[٤٧٥٨] ولهذا قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(٢).

[٤٧٥٩] وقال لمعاذ وأبي موسى، حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشِّرَا وَلَا تُنْفَرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا»^(٣). والأحاديث في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، يعني من ضيق.

وقوله تعالى: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ»، قال ابن جرير: نُصِيبَ عَلَى تَقْدِيرٍ: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، أي: من ضيق، بل وسَّعَ عليكم كملة أبيكم إبراهيم. قال: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى تَقْدِيرٍ: الزَّمَا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ. قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: «قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي لَكُمْ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ خَيْفًا» [الأنعام: ١٦١]... الآية. وقوله: «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا»، قال الإمام عبد الله ابن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ»، قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان. وقال عبد الرحمن بن

(١) تقدم تخريجه تحت رقم ٤٦٦٩، وعجزه غريب.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٥.

(٣) تقدم أيضاً في تفسير سورة البقرة.

زيد بن أسلم: ﴿هُوَ سَتَنُكُّمُ الْمَسْلُوبِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ ، يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. قال ابن جرير: هذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يُسَمَّ هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَتَنُكُّمُ الْمَسْلُوبِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ ، قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر، ﴿وَفِي هَذَا﴾ ، يعني القرآن. وكذا قال غيره. قلت: وهذا هو الصواب، لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ أَمْحَقَكُم مَّا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ، ثم حُثِّمُوا وَأَغْرَاهُمْ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُولُ - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل. ثم ذكر ميثقه تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها، والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء، يُتْلَى على الأحرار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَتَنُكُّمُ الْمَسْلُوبِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ ، أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ .

[٤٧٦٠] وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية: أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلام، أن أخاه زيد بن سلام أخبره، عن أبي سلام أنه أخبره قال: أخبرني الحارث الأشعري، عن رسول الله - ﷺ - قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جنيح جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: نعم، وإن صام وصلى. فادعوا بدعوى الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله. وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَقْوُونَ﴾ (١) من سورة البقرة، ولهذا قال: ﴿يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ، أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً، مشهوداً بعد التكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتهم وفضلهم على كل أمة سواها، فلهاذا تُقْبَلُ شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغنى عن إعادته.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَفِيقُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ، أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وتزك ما حرم. ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني، من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من «سورة التوبة». وقوله: ﴿وَأَقِمْ وَفِيقُوا بِاللَّهِ﴾ ، أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ، أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم، ﴿فَرَسَمَ الْوُكُوفَ لِلْعَوْبَرِ﴾ ، يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. قال وهب بن الزُّرْدِ: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحق فيمن أمحق وإذا ظلمت فاصبر، وارض بضررتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم.

آخر تفسير سورة الحج وف الحمد والمثنة،
والثناء الحسن الجميل، لا نحصى ثناء عليه

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

آيَاتُهَا
١١٨تَرْتِيلُهَا
٢٣

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَافِضُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

[٤٧٦١] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سليم قال: أُملى عليّ يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله - ﷺ - الوحي يُسمع عند وجهه كدويّ التحل فَمَكَّنَّا سَاعَةً، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: اللهم، زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا. ثم قال: «لقد أنزلت عليّ عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ حتى ختم العشر^(١). وكذا رواه الترمذي في تفسيره، والنسائي في الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به. وقال النسائي^(٢): منكر، لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

[٤٧٦٢] وقال النسائي في تفسيره: أنبأنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبي عمران، عن يزيد بن بابتوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان خلق رسول الله - ﷺ -؟ قالت: كان خلق رسول الله - ﷺ - القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ

(١) منكر. أخرجه الترمذي ٣١٧٣ والنسائي ١٤٣٩ في «الكبرى» وأحد ٣٤/١ والحاكم ٣٩٢/٢ ح ٣٤٧٩، وإسناده ضعيف، فيه يونس بن سليم، تفرد به، وهو مجهول كما في التقريب. ومع ذلك صححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبد الرزاق عن شيخه يونس بن سليم، فقال: لا أظنه شيء، وقال الذهبي في «الميزان»: حدث عنه عبد الرزاق، وتكلم فيه، ولم يعتمد في الرواية. وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه، ولا يعرف إلا به، ثم ذكر الذهبي حديثه هذا، وقال: قال النسائي: هذا حديث منكر اهـ.

(٢) وقع في سائر النسخ «الترمذي» وهو سبق قلم، والصواب أنه كلام النسائي، وبحرفيته، وقد ذكر الترمذي كلاماً طويلاً، ليس فيه شيء من الألفاظ التي ذكرها المصنف. والله أعلم.

يَخْلُقُونَ ﴿١﴾، قالت: هكذا كان خُلِقَ رسول الله - ﷺ - . وقد رُوي عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم: لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، وَغَرَسَهَا بِيَدِهِ، نَظَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ لَهَا: تَكَلِّمِي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾. قال كعب الأحبار: لَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْكَرَامَةِ. وقال أبو العالية: فَأَنْزَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ. وقد رُوي ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

[٤٧٦٣] فقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وهيب، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنة لَبْنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبْنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَغَرَسَهَا، وَقَالَ لَهَا تَكَلِّمِي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، مَنَزَلَ الملوكة^(١).

[٤٧٦٤] وقال: وحدثنا بشر بن آدم، وحدثنا يونس بن عُبيد الله العُمري، حدثنا عدي بن الفضل، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي - ﷺ - قال: «خلق الله الجنة لَبْنَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبْنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ». قال أبو بكر: ورأيت في موضع آخر من هذا الحديث: حَائِطُ الجنة لَبْنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبْنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ. فقال لها: تَكَلِّمِي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، مَنَزَلَ الملوكة^(٢)! ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ مُتَقَدِّمُ المَوْتِ.

[٤٧٦٥] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بقية، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي - ﷺ -: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ خَلَقَ فِيهَا مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. ثُمَّ قَالَ لَهَا: تَكَلِّمِي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾»^(٣). بَقِيَّةُ عن الحجازيين ضعيف.

[٤٧٦٦] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا مُنْجَبُ بْنُ الْحَارِثِ، حدثنا حَمَّادُ بْنُ عِيسَى الْعَبْسِيُّ، عن إسماعيل السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس يرفعه: لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ

(١) هو موقوف، وانظر ما بعده..

(٢) ضعيف. أخرجه البزار ٣٥٠٨ وأبو نعيم ٢٠٤/٦ وفي «صفة الجنة» ١/١٣٧/١٤٠ والبيهقي في «البعث» ٢٣٦ من حديث أبي سعيد، وضعفه البزار بقوله: لا نعلم رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وكذا وضعفه البيهقي. وجاء في الميزان: عدي بن الفضل، قال ابن معين وأبو حاتم: متروك الحديث، وقال يحيى: لا يكتب حديثه، وقال غير واحد: ضعيف اهـ. فالرجل ضعيف جداً، وانظر الحديث الآتي.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني ١١٤٣٩ وفي «الأوسط» ٧٤٢ من حديث ابن عباس، وقال المنذري في «الترغيب» ٥٤٦٨: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين أحدهما جيد. وتبعه على ذلك الهيثمي في «المجمع» ١٨٦٣٩، وأما ابن كثير - رحمه الله - فأعله بضعف رواية بقية عن الحجازيين. والمعروف أن إسماعيل بن عياش هو الذي يتصف بهذه الصفة، وإنما علة الحديث هي أن بقية مدلس، وقد عنعن، قال أحمد: توهمت أن بقية لا يحدث المناكير إلا عن المجاهيل، فإذا هو يحدث المناكير عن المشاهير. وللحديث علة أخرى: ابن جريج أيضاً مدلس، وقد عنعن، لكن الحمل فيه على بقية أولى، والله أعلم.

تنبيه: وقع في الأوسط تصريح بقية بالتحديث، وهو خطأ من شيخ الطبراني، أو من هشام بن خالد، فإنه كان يجعل ما رواه بقية بـ «عن» «حدثنا» توهماً، راجع ذلك في «الميزان».

بيده، ودلّى فيها ثمارها. وشقّق فيها أنهارها، ثم نَظَرَ إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ❶ قال: وعزّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل^(١).

[٤٧٦٧] وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البرّازي، حدثنا محمد بن زياد الكلبي، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ لِبَنَةِ مَنْ ذُرَّةٌ بِيضَاءُ، وَلِبَنَةٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءُ، وَلِبَنَةٍ مِنْ زَبَرْجَدَةٍ خَضِرَاءُ، يَلَأُطْهَاهَا الْمَسْكُ وَحَصْبَاؤُهَا الدُّلُودُ، وَحَشِيشُهَا الزَّعْفَرَانُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: انْطَقِي. قَالَتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ❶»، فقال الله: وعزّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل. ثم تلا رسول الله - ﷺ -: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ❷ [الحشر: ٩].

فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ❶، أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ❷، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا زوي عن مجاهد، والحسن، وقاتادة، والزهرّي. وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: الخشوع خشوع القلب. وكذا قال إبراهيم النخعي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضُوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله - ﷺ - يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ❶ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ❷، خَفَضُوا أبصارهم إلى موضع سُجُودِهِمْ. قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلِّاً، فإن كان قد اعتاد النظر فَلْيُغْمِضْ. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

[٤٧٦٨] ثم رَوَى ابنُ جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلًا: أن رسول الله - ﷺ - كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية^(٣). والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن قَرَّغَ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وأثرها على غيرها، وحيث تكون راحة له وقرة عين.

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٢٧٢٣ وفي الأوسط ٥٦٤٨ من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف جداً، وله ثلاث علل: محمد بن عثمان ضعفه غير واحد. ومهاد بن عيسى، فيه جهالة كما في الميزان، وأبو صالح اسمه باذام ضعفه البخاري ومغيرة والنسائي وغيرهم، والسدي وهو الكبير ضعفه غير واحد.

(٢) والحديث ضعيف. أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» ١/٣ - ٢ بهذا الإسناد، وإسناده ضعيف، فيه محمد بن زياد الكلبي قال يحيى: ليس بشيء كما في الميزان، وشيخه يعيش بن حسين، لم أجده له ترجمة. ووقع عند أبي نعيم «بشر بن حسن» ولم أجده له ترجمة أيضاً. وله طريق آخر أشهر من هذا، وهو في المستدرک ٣٩٢/٢ والأسماء والصفات ٤٧/٢ وابن عدي ١٨٣٧/٥/١٩٣ كلهم من حديث أنس، صححه الحاكم! وتعقبه الذهبي بقوله: بل ضعيف. وذكره في الميزان ٥٨٧٣ في ترجمة علي بن عاصم مع حديث آخر وقال الذهبي: وهذا باطلان اهـ وعلته علي بن عاصم ضعفه غير واحد، واتهمه يحيى. وكان يخطئ، ثم يصح ولا يرجع. راجع الميزان.

الخلاصة: هو حديث ضعيف، فإن عامة طرقه شديدة الضعف، والمتن منكر، والأشبه أنه عن كعب الأحبار كما رواه البيهقي في «البعث» ٢٣٤ وسرقه بعض الضعفاء والهلكى فركبوا له أسانيد، وجعلوه عن النبي ﷺ، والله تعالى أعلم.

(٣) مرسل عطاء أخرجه الطبري ٢٥٤٢٥ ومرسل ابن سيرين أخرجه برقم ٢٥٤١٤ و٢٥٤١٦ تارة مرسلًا بصيغة الجزم وتارة بصيغة التمريض بقوله «نُبِت» وتارة جملة موقوفًا، وهو برقم ٢٥٤١٥، وهو أشبه، والله أعلم.

[٤٧٦٩] كما قال النبي - ﷺ - في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ الطَّيِّبُ وَالنَّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

[٤٧٧٠] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ مُرَّةٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(٢).

[٤٧٧١] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى صِهْرٍ لَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ: يَا جَارِيَّةُ، ائْتِنِي بِوَضُوءٍ لِعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ. فَرَأَانَا أَنْكَرْنَا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «قُمْ يَا بِلَالُ، فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُرْضُونَ﴾، أي: عن الباطل، وهو يشمل الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصي - كما قاله آخرون - وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمُوا بِاللَّغْوِ مَرُوءًا كَرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال قتادة: أتاهم - والله - من أمر الله ما وقدهم عن ذلك. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾^(٤)، الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فُرِضَت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبه. والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَمَا آتَاوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقد يحتَمِلُ أن يكون المراد بالزكاة هاهنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٥) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا^(٦) [الشمس: ٩ - ١٠]، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصْرِكِينَ﴾^(٧) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ^(٨) [فصلت: ٦ - ٧]، على أحد القولين في تفسيرها. وقد يحتَمِلُ أن يكون كلا الأمرين مُرَاداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾^(٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ^(١٠)، أي: والذين قد حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ، فَلَا يَقَعُونَ فِيهَا نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ زَنَا أَوْ لُوطًا، وَلَا يَقْرَبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمْ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُمْ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِي، وَمَنْ تَعَاطَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ فَلَا لُومَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾^(١١) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ، أي: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَآذُونَ﴾^(١٢)، أي: المعتدون. وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ: أَنَّ امْرَأَةً اتَّخَذَتْ مَمْلُوكَهَا، وَقَالَتْ: تَأَوَّلْتُ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، فَأَتَيْتُ بِهَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ -: تَأَوَّلْتُ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا. قَالَ: فَغَرِبَ الْعَبْدُ وَجَزَّ رَأْسُهُ، وَقَالَ: أَنْتَ بَعْدَهُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ^(١٣). هَذَا أَثَرُ غَرِيبٍ مَنْقُطٍ، ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَهُوَ هَاهُنَا الْبَيْتُ، وَإِنَّمَا حَرَّمَهَا عَلَى الرِّجَالِ مَعَامَلَةً لَهَا بِتَقْيِيزِ قَضِيئِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى تَحْرِيمِ

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٤٩٨٥ وأحمد ٣٦٤/٥ وهو حديث قوي. رواه لم يسم. لكن يشهد له ما بعده.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٤٩٨٦ وأحمد ٣٧١/٥ والطحاوي في «المشكّل» ٥٥٤٩ وإسناده حسن صحيح، وجهالة الصحابي لا تقصر، وانظر صحيح أبي داود ٤١٧١.

(٤) موقوف ضعيف، لانقطاعه بين قتادة وعمر، وهو منكر شبه موضوع.

الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ خَفَرُونَ﴾ ❶ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ❷، قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَنَىٰ زَوْجًا فَلَوْلَاكَ هُمْ الْعَادُونَ﴾ ❸.

[٤٧٧٢] وقد استأنسوا بحديث زوّاه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجعزي، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد، عن أنس بن مالك، عن النبي - ﷺ - قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يذكهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده، والفاعل، والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليمة جاره» ❶. هذا حديث غريب، وإسناده فيه من لا يعرف، لجهالته، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾، أي: إذا أوثقنا لم نخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله - ﷺ -:

[٤٧٧٣] «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوثق خان» ❷.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ❹، أي: يواظبون عليها في مواقيتها.

[٤٧٧٤] كما قال ابن مسعود: «سألت النبي - ﷺ - فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله». أخرجه في الصحيحين ❸. وفي مستدرك الحاكم قال: الصلاة في أول وقتها.

وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ❹، يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضحى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة. وقال قتادة: على مواقيتها ورُكوعها وسُجودها. وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها.

[٤٧٧٥] كما قال رسول الله - ﷺ -: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» ❶. ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿لَوْلَاكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ❷ أَلَيْسَ لِّلَّذِينَ الْفِرْدَوْسُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ❸.

[٤٧٧٦] وثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» ❶.

(١) ضعيف جداً. أخرجه البيهقي في «الشعب» ٥٤٧٠ من طريق الحسن بن عرفة بهذا الإسناد عن أنس مرفوعاً. استغربه المصنف، وفي إسناده: مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد. ذكره الذهبي في الميزان ٨٥١٨ بهذا الحديث، وقال: يجهل، هو وشيخه.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٧٧.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٨٣.

(٤) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٢٧٧ وأحمد ٢٧٦/٥ والحاكم ١٣٠/١ والبيهقي من طريق سالم بن أبي الجعد عن ثوبان مرفوعاً وإسناده منقطع: سالم لم يسمع من ثوبان. وأخرجه أحمد ٢٨٢/٥ وابن حبان ١٠٣٧ من وجه آخر عن أبي كبشة السلولي عن ثوبان بنحوه وإسناده حسن وله شواهد كثيرة.

(٥) تقدم في تفسير سورة آل عمران ١٣٣.

[٤٧٧٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله ﴿أُولَئِكَ هُمْ الْأَوْرَثُونَ﴾^(١). وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد ﴿أُولَئِكَ هُمْ الْأَوْرَثُونَ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار. ورؤي عن سعيد بن جبيرة نحو ذلك. فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خلّقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلّقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل.

[٤٧٧٨] بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي - ﷺ - قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى»^(٢).

[٤٧٧٩] وفي لفظ له قال رسول الله - ﷺ -: «إذا كان يوم القيامة دَفَعَ الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: «هذا فكأكك من النار». فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو - ثلاث مرات - أن أباه حذّثه عن رسول الله - ﷺ - قال: فحلف له^(٣). قلت: وهذه الآية كقولته تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾^(٤) [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥) [الزخرف: ٧٢]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب. فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٦) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ لَوْ لَمْ يَلِدْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُوثَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من طين - وهو آدم عليه السلام - خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: «بين سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ»، قال: صفوة الماء. وقال مجاهد: «بين سُلَالَةٍ»، أي: من مني آدم. قال ابن جرير: وإنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه. وقال قتادة: استل آدم من الطين. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإن آدم - عليه السلام - خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ خَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾^(٧) [الروم: ٢٠].

[٤٧٨٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عوف، حدثنا قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات، وأصله في الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٧ ج ٥١.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٧ ج ٤٩ واللفظ الموقوف هو عنده أيضاً برقم ٥٠.

الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وَيَتَنَ ذلك، والخبيث والطيب، وَيَتَنَ ذلك^(١). وقد رَوَاهُ أَبُو داودَ والترمذي، من طُرُقٍ، عن عَوْفٍ الأعرابي، به نحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ (٧) ﴿ثُمَّ جَعَلَ سَلَمًا مِّن سُلُكٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٨) [السجدة: ٧-٨]، أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَوَ تَتَفَكَّرُونَ مِمَّا مَلَأُوا مَجْهِنًا﴾ (٩) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (١٠)، يعني: الرِّجْمُ مُعَدُّ لذلك مُهَيَّأً له، ﴿إِنَّ قَدَرَهُ مَكُورٌ﴾ (١١) ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَائِدُونَ﴾ (١٢) [المرسلات: ٢٠-٢٣]. أي: مُدَّةٌ معلومة وأجل مُعَيَّن حتى استحكم وتنقل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة، ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، أي: ثم صَبَرْنَا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صُلْبِ الرجل، وهو ظهره، وترائب المرأة، وهي عظامُ صدرها ما بين الترقوة إلى السرة - فصارت علقة حمراء على شَكْلِ العَلَقَةِ مستطيلة. قال عكرمة: وهي دَمٌ. ﴿فَخَلَقْنَا أَلْفَاقًا مُّضْغَةً﴾، وهي قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا﴾، يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعَصَبُها وغُرُوقها. وقرأ آخرون: «فخلقنا المضغة عظماً». قال ابن عباس: وهو عَظْمُ الصِّلْبِ.

[٤٧٨١] وفي الصحيح، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُلُّ جَسَدٍ ابْنِ آدَمَ يَبْتَئِي إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرْكَبُ»^(٢). ﴿فَكَسَوْنَا أَلْفَافًا لَّحْمًا﴾، أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، أي: نفخنا فيه الروح. فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر - يعني ابن كثير، مولى بني هاشم - حدثنا زيد بن علي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: إذا تَمَّتْ للنطفة أربعة أشهر بُعِثَ إليها مَلَكٌ فَيَنْفُخُ فِيهَا الرُّوحَ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، يعني: نفخنا فيه الروح. وزوي عن أبي سعيد الخدري أنه نَفَخَ الروح. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، يعني نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد. واختاره ابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، يعني نَنفُثُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، إِلَى أَنْ خَرَجَ طِفْلاً، ثُمَّ نَشَأَ صَغِيرًا، ثُمَّ احْتَلَمَ، ثُمَّ صَارَ شَابًا، ثُمَّ كَهْلًا، ثُمَّ شَيْخًا هَرِمًا. وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ولا منافاة، فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شَرَعَ فِي هَذِهِ التَّغْيِلاتِ وَالْأَحْوَالِ. والله أعلم.

[٤٧٨٢] قال الإمام أحمد في مُسْنَدِهِ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله - ﷺ - وهو الصادق المصدوق: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لِيُجْمَعَ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمِّرُ بَارِعَ كَلِمَاتٍ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا فَرَاغٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمَ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٦٩٣ والترمذي ٢٩٥٥ وأحمد ٤٠٠/٤ و٤٠٦ والحاكم ٢٦١/٢ و٢٦٢ وابن حبان ٦١٦٠ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٧١٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قالوا.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨١٤ و٤٩٣٥ ومسلم ٢٩٥٥ وأبو داود ٤٧٤٣ والنسائي ١١١/٤ و١١٢ وابن ماجه ٤٢٦٦ وأحمد ٣٢٢/٢ و٤٢٨ وابن حبان ٣١٣٩.

فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»^(١). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ يَهْرَانَ الْأَعْمَشِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَنَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو معاوية، عن الأعْمَشِ، عن خَنْثَمَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - إِنَّ النَّطْفَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّجْمِ طَارَتْ فِي كُلِّ شَعْرٍ وَظَفَرٍ، فَتَمَكَّتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَنَحَّلِرُ فِي الرَّجْمِ فَتَكُونُ عِلْقَةً.

[٤٧٨٣] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا أَبُو كُدَيْبَةَ، عن عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عن الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عن أَبِيهِ، عن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ يَحْدُثُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: يَا يَهُودِيٌّ، إِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ: لَأَسْأَلَنَّهُ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ. قَالَ: فَجَاءَهُ حَتَّى جَلَسَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مِمَّ يُخْلَقُ الْإِنْسَانُ؟ فَقَالَ: يَا يَهُودِيٌّ، مِنْ كُلِّ نُطْفَةٍ، مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ وَمِنْ نُطْفَةِ الْمَرْأَةِ، فَأَمَّا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَتُطْفَأُ غَلِيظَةً مِنْهَا الْعِظْمُ وَالْعَصَبُ، وَأَمَّا نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ فَتُطْفَأُ رَقِيْقَةً مِنْهَا اللَّحْمُ وَالْدَّمُ. فَقَامَ الْيَهُودِيٌّ فَقَالَ: هَكَذَا كَانَ يَقُولُ مِنْ قَبْلِكَ^(٢).

[٤٧٨٤] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، عن عمرو، عن أَبِي الطَّغِيلِ، عن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النَّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّجْمِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبُّ مَاذَا أَشَقِي أَمْ سَعِيدٌ؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقُولُ اللَّهُ فَيَكْتَبَانِ. فَيَقُولَانِ: مَاذَا؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَيَكْتَبَانِ وَيَكْتَبُ عَمَلَهُ، وَأَثَرُهُ، وَمُصِيبَتُهُ، وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطَوَّى الصَّحِيفَةُ، فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقُصُ»^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، مِنْ حَدِيثِ سَفِيَانِ بْنِ عُيَيْنَةَ، عن عمرو - وَهُوَ ابْنُ دِينَارٍ - بِهِ نَحْوَهُ. وَمِنْ طُرُقٍ أُخْرَى، عن أَبِي الطَّغِيلِ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ، عن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ أَبِي سَرِيحَةَ الْغِفَارِيِّ بِنَحْوِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٤٧٨٥] وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبَزَّازُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، عن أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بِالرَّجْمِ مَلَكًا فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، نَطْفَةٌ. أَيُّ رَبِّ عِلْقَةٌ. أَيُّ رَبِّ، مَضْعَةٌ. فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَهَا قَالَ: أَيُّ رَبِّ. ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ؟ قَالَ: فَذَلِكَ يُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»^(٤) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حَمَادِ بْنِ زَيْدٍ، بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْكَاتِبِينَ﴾، يَعْنِي: حِينَ ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وَلُطْفَهُ فِي خَلْقِ هَذِهِ النَّطْفَةِ مِنْ حَالٍ

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٣٤ وفي تفسير سورة الرعد عند آية: ٨.

(٢) ضعيف منكر. أخرجه أحمد ٤٤٣٨ والبزار ٢٣٧٦ و٢٣٧٧ والطبراني ١٠٣٦٠ من حديث ابن مسعود. قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٩٠١: رواه أحمد والبزار بإسنادين، وفي أحد إسناده، عامر بن مدرك، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقي رجاله ثقات. وفي إسناده الجماعة، عطاء بن السائب، وقد اختلط له. والراوي عن عطاء عند أحمد، حسين بن حسن الأشقر، وهو ضعيف. وللحديث علة ما ذكرها الهيثمي رحمه الله، وهي الانقطاع بين عبد الرحمن، وأبيه عبد الله بن مسعود. ثم إن المتن منكر بهذا اللفظ، والمشهور في هذا حديث «بم يشبه الرجل أباه أو أمه..» الحديث. ليس فيه ذكر العظم والعصب، واللحم والدّم. والله تعالى أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة الحج عند آية: ٥.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٩٥ ومسلم ٢٦٤٦ وأحمد ١٤٨/٣ والآجري في «الشرعية» ٣٧٧.

إلى حال، وشكّل إلى شكل، حتى تصوّرت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوّي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

[٤٧٨٦] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حمّاد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد، عن أنس، قال: قال عمر - يعني ابن الخطاب، رضي الله عنه -: وافقت ربّي في أربع: نزلت هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٧)، فلما نزلت قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١).

[٤٧٨٧] وقال أيضاً: حدثنا أبي: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أملى عليّ رسول الله - ﷺ - هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٧) إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله - ﷺ - فقال له معاذ: ممّ ضحكك يا رسول الله؟ قال: بها خُتِمتُ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٢). وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّا جَعَلْنَاهُ نَفْسًا رَافِعَةً﴾ (١٨)، يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّا جَعَلْنَاهُ نَفْسًا رَافِعَةً﴾ (١٩)، يعني النشأة الآخرة. ﴿ثُمَّ إِنَّا جَعَلْنَاهُ نَفْسًا رَافِعَةً﴾ [العنكبوت: ٢٠]، يعني يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عايل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطّف بذكر خلق السموات السبع. وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول ﴿الآلَةِ﴾ السجدة، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد.

وقوله تعالى: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع. وهذه كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، و﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٥) [نوح: ١٥]، و﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَفِي الْأَرْضِ ظِلَالٌ يَنْزِلُ الْأَمْزَجُ بَيْنَهُنَّ لِيَسْأَلُوا أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ فَنٍّ وَفَذِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢). وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)، أي: و﴿يَعْلَمُ مَا بَلَّغَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ إِنْ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(١) إسناده ضعيف، أخرجه الطيالسي ٤١، وفي الإسناد علي بن زيد، وهو ضعيف كما في التريب.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١١٨٧، ومداره على جابر بن يزيد الجعفي وهو ضعيف جداً كما قال ابن كثير: بل كذبه أبو حنيفة رحمه الله وغيره، ثم إن السورة مكية كما ذكر المصنف - رحمه الله - والخبر مدني معاذ أسلم في المدينة، وزيد كتب الوحي أيضاً في المدينة. فهذا المتن من تحقيقات جابر الجعفي ومع ذلك قال الهيثمي: جابر ضعيف، وقد وثق، وبقيّة رجاله رجال الصحيح.

[الحديد: ٤]. وهو - سبحانه - لا يَحْجُبُ عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وغره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عَدَد ما في الجبال والتلال والرمال، والبحار، والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ ظِلْتِ الْأَرْضِ وَلَا نَكَبٌ وَلَا نَافِيسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَشْكَنَتْ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (١٨) ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُةٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١٩) ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِالْأَكْلِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُعَلِّمُوا مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١) ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٢٢)

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى، في إنزاله القطر من السماء ﴿يَقْدَرُ﴾، أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفيض الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل يقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها ولا تحمل وثمرتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجزر»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه. لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور! وقوله: ﴿فَأَشْكَنَتْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والثوى. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباح والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاباً لا يتنفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل يتجر على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فرائاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفجر العيون والأنهار، فيسقي به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه، وتطهرون وتنظفون، فله الحمد والمثنة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق ذات بهجة، أي: ذات منظر حسن. وقوله: ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، أي: فيها نخيل وأعنان، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعم الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَكُةٌ كَثِيرَةٌ﴾، أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّيْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾، يعني الزيتون. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عربي عنها سمي جبلاً لا طوراً. والله أعلم. وطور سينا: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - عليه السلام - وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ﴾، قال بعضهم: الباء زائدة وتقديره: تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان

بيده أي: يده. وأما على قول من يُضْمَنُ الفعل فتقديره: تخرجُ بالدهن، أو تأتي بالدهن. ولهذا قال: ﴿وَصَنَعَ﴾، أي: أذم، قاله قتادة: ﴿لِلْأَكْلِينَ﴾، أي: فيها ما يُتَنَفَّعُ به من الدهن والاصطباغ.

[٤٧٨٨] كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامي، عن أبي أسيد - واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري - رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ - «كُلُوا الزَيْتَ وَادْهِنُوا به، فإنه من شجرة مُبَارَكَةٍ»^(١).

[٤٧٨٩] وقال عبد بن حميد في مُسْنَدِهِ وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عُمر أن رسول الله - ﷺ - قال: «اتَّذِمُوا بِالزَيْتِ وَادْهِنُوا به، فإنه يخرج من شجرة مُبَارَكَةٍ»^(٢). ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه، عن عبد الرزاق، قال الترمذي: ولا يُعرف إلا من حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عُمر، وربما لم يذكره.

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عُيينة، حدثني الصغب بن حكيم بن شريك بن نُمْلَة، عن أبيه، عن جده. قال: ضُفْتُ عُمر بن الخطاب ليلة عاشوراء، فأطعمني كُسُوراً من رأس بعير بارد، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال لنيه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ لَّكَ فِي الْأَنْفُسِ لِمَعْرَةٍ تُشْفِيكَ وَمِمَّا فِي بُطُونِنَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٧٦﴾، يذكر تعالى ما جعل لخلقِهِ في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فَرْثٍ وَدَمٍ، ويأكلون من حُمْلَانِهَا، وَيَلْبَسُونَ من أوصافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويَحْمِلُونَهَا الأحمال الثقَالُ إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ أُنْفُسَ الْكُفْرِ إِنْ بَلَغَ لُزُّ تَكُونُوا بِبَلَدِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ ﴿٧٨﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنَّا رَكُوبُهُمْ وَمِمَّا يَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُو الْأَذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَّقَصُوا بِهِ حَقًّا حِينَ ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن نوح - عليه السلام - حين بعثه إلى قومه لِيُنْذِرَهُمْ عذابَ الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به، وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: ألا تخافون من الله في إسرائاكم به؟ فقال المَلَأُ - وهم السادة والأكابر منهم -: «مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ»، يعنون: يترفع عليكم ويتعاطف بدعوى النبوة، وهو بشرٌ مثلكم. فكيف أوجي إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ

(١) أخرجه أحمد ٤٩٧/٣ والحاكم ٣٩٧/٢ وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن، يتأيد بما بعده.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ١٨٥١ وابن ماجه ٣٣١٩ ورجال ثقات، لكن اضطرب فيه عبد الرزاق كما ذكر الترمذي، وقد ورد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن ماجه ٣٣٢٠ والحاكم ٣٩٨/٢ وصححه، وقال الذهبي: عبد الله وإو. وقال البوصيري في «الزوائد»: فيه عبد الله بن سعيد المقبري متروك. وانظر «جمع الزوائد» ٤٣/٥، ومع ذلك فالحديث حسن بشواهد.

شَاءَ اللَّهُ لَا زَلَّ مَلَكُكَ». أي: لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، أي: ببعثه البشر ﴿فَإِنَّا الْآوِينَ﴾. يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِدْعَةٌ﴾، أي: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي، ﴿فَتَرَضَّوْا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾، أي: انتظروا به رب المثلون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ اتَّخَذَ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّخَذْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مِثْلَ مَا بَارَكْتَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُتَرِيقِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح - عليه السلام - أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَلُوكٌ فَأُنصِرْ ﴿٣١﴾﴾ [القم: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي: ذكرًا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، أي: من سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، أي: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رافة بقومك، وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لتعلمهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسطة في «سورة هود» بما يعني عن إعادة ذلك هاهنا. وقوله: ﴿إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ اتَّخَذَ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّخَذْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكَ مِنَ الْفُلِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٢٩﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِنَّا لَنَّا لَمُتْلِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]. وقد امتثل نوح - عليه السلام - هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ يَجْعَلُنَا وَنَحْنُهَا وَمَنْ سَبَّحَهُ ﴿٤١﴾﴾. فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مِثْلَ مَا بَارَكْتَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُتَرِيقِينَ ﴿٢٩﴾﴾. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾. أي: إن في هذا الصنيع، وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين، ﴿لَآيَاتٍ﴾، أي: لحججاً ودلائل واضحة على صِدْقِ الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْفَقُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرِيْرُونَ ﴿٣٥﴾ أَيْدِيَكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٦﴾ هِيَآتْ هِيَآتْ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حِسَابُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُودِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْحَبَنَّ نَدِيمَيْنِ ﴿٤٠﴾ فَلَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ ﴿٤١﴾ بِأَلْحَقٍ فَجَعَلْنَاهُمْ نَسْأَةً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ قَوْمًا آخَرِينَ، قِيلَ: الْمَرَادُ بِهِمْ عَادٌ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَخْلَفِينَ بَعْدَهُمْ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِهِمْ لُحُودٌ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِأَلْحَقٍ﴾، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَأَبَوْا مِنْ اتِّبَاعِهِ لِكُونِهِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، وَاسْتَنْكَفُوا عَنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ بَشَرِيٍّ، فَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الْقِيَامَةِ، وَأَنْكَرُوا الْمَعَادَ الْجَنَّمَانِي، وَقَالُوا: ﴿أُبَيِّدُكَ الْكَفْرَ إِنَّا نَسْتَمُ وَكُنْتُمْ تَرَاكِبًا وَعَظَمْنَا الْكَفْرَ تَحَرُّوْنَ ﴿٢٥﴾﴾ هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوْعَدُونَ، أَيُّ بَعِيدٍ بِعِيدٍ ذَلِكَ. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أَيُّ: فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ، ﴿وَمَا تَحْنُ لَمْ يُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ، أَيُّ: اسْتَفْتَحَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولَ وَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأَجَابَ دُعَاءَهُ، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْحَبَنَّ نَدِيمَيْنِ﴾، أَيُّ: بِمُخَالَفَتِكَ وَعِنَادِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ، ﴿فَلَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِأَلْحَقٍ﴾، أَيُّ: وَكَانُوا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ لِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ صَيْحَةٌ مَعَ الرِّيحِ الصَّارِصِ الْعَاصِفِ الْقَوِيِّ الْبَارِدَةِ، ﴿ثَوِيْرٌ كُلُّ مَنْ بَأْمَرِ رَبِّهَا فَاتَّبَعُوا لَا يَبْزُخْ إِلَّا سَكَتُكُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ نَسْأَةً﴾، أَيُّ: صَرَعَى هَلَكَى كُفَّاءَ السَّبِيلِ، وَهُوَ: الشَّيْءُ الْحَقِيرُ النَّافِئُ الْهَالِكُ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ. ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، أَيُّ: بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَةِ رَسُولِ اللَّهِ فَلْيَحْذَرِ السَّامِعُونَ أَنْ يَكْذِبُوا رَسُولَهُمْ.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٣﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٣﴾﴾، أَيُّ: أُمَّةً وَخَلَاقًا، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، يَعْنِي: بَلْ يُؤْخَذُونَ حَسَبَ مَا قَدَّرَ لَهُمْ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَحْفُوظِ وَعَلَيْهِ قَبْلَ كُوفِهِمْ، أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ وَقَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَخَلْفًا بَعْدَ سَلَفٍ. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاةَ فَجِئْتَهُمْ مِنْ هَدًى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّقَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ﴾، يَعْنِي: جُمُهورَهُمْ وَأَكْثَرَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنْحَصِرْ عَلَى الْآبَاءِ مَا بَأْسُهُمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٣٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾، أَيُّ: أَهْلَكْنَاهُمْ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ﴾، أَيُّ: أَخْبَارًا وَأَحَادِيثَ لِلنَّاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَذْقُوٍّ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَا بَشِيرَ لَكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبا: ١٩].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٧﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدَدُونَ ﴿٤٨﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى أَلِیْكَتَبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَخَاهُ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الدَّامِغَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِهِمَا، وَالْإِتْقَادِ لِأَمْرِهِمَا، لَكُونِهِمَا

بَشَرِينَ، كَمَا أَتَّكَرَبَ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ بَغْتَةً الرُّسُلَ مِنَ الْبَشَرِ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، فَأَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ، وَأَغْرَقَهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَجْمَعِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ - وَهُوَ التَّوْرَةُ - فِيهَا أَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا قَصَمَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَالْقَيْطَ، وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ. وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ لَمْ يَهْلِك أُمَّةً بِعَاقِبَةٍ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصِغَارٍ لِلنَّاسِ وَهَدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَحِطْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم - عليهما السلام - أنه جعلهما آية للناس، أي: حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾، يعني ماء ظاهراً، وقال مجاهد: رَبْوَةٌ مستوية. وقال سعيد بن جبير: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، استوى الماء فيها. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماء الجاري. ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة في أي أرض هي؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى. وزوي عن وهب بن منبّه نحو هذا. وهو بعيد جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي دمشق. قال: وزوي عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن معدان نحو ذلك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سمالك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: أنهار دمشق. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أوبا إلى غوطة دمشق وما حولها. وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله ابن عم أبي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: في قوله: ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي الرملة من فلسطين.

[٤٧٩٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا رواد ابن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو غيبة، حدثنا السبباني، عن ابن وغلّة، عن كريب السخولي، عن مرة البهزي قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول لرجل: إنك تموت بالربوة. فمات بالرملة^(١). وهذا حديث

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١١٨٨ عن مرة البهزي. - وقع في الجمع «مرة الزهري» وهو تصحيف - قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم اهـ. قلت: فيه رواد بن الجراح، قال أحد: لا بأس به إلا أنه حدث عن سفيان بمناكير. وقال يحيى: ثقة. وقال النسائي: روى غير حديث منكر. وقال الدارقطني: متروك، وضعفه البخاري. راجع الميزان ٢٧٩٥، وشيخه عباد بن عباد هو الأسوفي، وثقه ابن معين وغيره، وقال ابن حبان كان يأتي بالشئ على التوهم، حتى كثرت المناكير في روايته على قلتها، فاستحق الترك اهـ الميزان ٤١٢٤. وأسند الطبري من هذا الوجه ٢٥٥١٠ بدون ذكر القصة.

غريب جداً. وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوَّاهُنَّ مَا لَكَ رَدِّقَةٌ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ لَكَ فِي هَذِهِ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِلَّا رَدِّقَةٌ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَجِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرِيهِمْ حَتَّى
جِيئَ ٥٤ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُثَدِّرُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ٥٥ شَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٦﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين - عليهم الصلاة والسلام أجمعين - بالأكل من الحلال. والقيام بالصالح من الأعمال، فذل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء - عليهم السلام - بهذا أنهم القيام، وجتمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً، ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، قال: أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا خلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني: الحلال. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه.

[٤٧٩١] وفي الصحيح: «ما من نبي إلا زعى العثم. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرحاماً على قرائط لأهل مكة»^(١).

[٤٧٩٢] وفي الصحيح: «إن داود - عليه السلام - كان يأكل من كسب يده»^(٢).

[٤٧٩٣] وفي الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»^(٣).

[٤٧٩٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحَكَم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب: أن أم عبد الله، أخت شذاد بن أوس بعثت إلى النبي - ﷺ - بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك في طول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أتى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي. فشرب منه، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله أخت شذاد فقالت: يا رسول الله بعثت إليك بلبن مزية

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٦٢ وابن ماجه ٢١٤٩ وابن سعد في «الطبقات» ١/ ١٠٠ من حديث أبي هريرة. وفي الباب من حديث جابر عند البخاري ٣٤٠٦ ومسلم ٦٠٥٠ وأحمد ٣٢٦/٣ وابن حبان ٥١٤٣.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٧٣ وابن حبان ٦٢٢٧ من حديث أبي هريرة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٢٠ ومسلم ١١٥٩ ح ١٨٩ وأبو داود ٢٤٤٨ والنسائي في «الكبرى» ١٣٢٧ وابن ماجه ١٧١٢ من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس الثقفي عن عبد الله بن عمرو وليس فيه قوله «ولا يفر إذا لاقى» وإنما هذا اللفظ أخرجه البخاري ٣٤١٩ ومسلم ١١٥٩ ج ١٨٧ والنسائي ٢١٤/٤ وأحمد ١٨٩/٢ من وجه آخر عن أبي العباس عن ابن عمرو مطوّلًا.

لك من طول النهار وشدة الحر، فَرَدَدَتْ إِلَيَّ الرِّسُولَ فِيهِ ١٩ فَقَالَ لَهَا: بِذَلِكَ أَمَرْتُ الرِّسُولَ، أَلَّا تَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا تَعْمَلَ إِلَّا صَالِحًا^(١).

[٤٧٩٥] وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذي، ومسنَد الإمام أحمد - واللفظ له - من حديث فضيل بن مرزوق، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٥١)»، وقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ»^(٥٢) [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمد يده إلى السماء: يا رب. «فأثنى يستجاب لذلك» ١٩. وقال الترمذي: «حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق».

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ هَذِهِ أَمْتٌ أَتَتْكُمْ آتَةً وَجِدَةً﴾، أي: وإن دينكم - يا معشر الأنبياء - دين واحد، وملّة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدّم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء، وأن قوله ﴿أَمْتٌ وَجِدَةً﴾ منصوب على الحال. وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾، أي: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَزِمَهُمْ قِسْطٌ﴾، أي: يقرّحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال مُتَهَدِّدًا لهم ومُتَوَعِّدًا ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَصْرَتِهِ﴾ أي: في غيبتهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ جِئَ﴾، أي: إلى حين خيبتهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَكْتَفِينُ أَمْلَهُمْ ذُرِّيًّا﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا وَيَلْعَبُوا فِي مَوَاقِعِهِم مَّا مَلَكَتْهُمُ الشَّيْطَانُ فَأَنزَلْنَاهُمْ فِي حَقْلٍ جَنَافٍ لَا يَحْمِلُهُمْ الْعِلْمَ يُسَبِّحُونَ أَثَرَهُ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ شَايِعُ لَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيههم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعرّتهم عندنا؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿عَمَّنْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْذِرِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُفِّلَ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَكْذِبْ أَلَيْسَ الْفِتْنَةُ مَسْتَدْبِرُهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ [القلم: ٤٤ - ٤٥]، وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدًا﴾ [المدثر: ١١ - ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَاكَ وَلَا أَوْلَدُكَ بَالِي تَفَرِّقُ عَيْنَا زَلَقًا إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَكْثَفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفِرْقَةِ آمِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧]، والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ شَايِعُ لَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، قال: مكر - والله - بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا بن آدم، فلا تغتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

[٤٧٩٦] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ الصَّبَّاحِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُرَّةِ الْهَمْدَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله قسم بينكم

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٧٤/٢٥ - ١٧٥ وإسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، انظر «المجمع» ٢٩١/١٠.

(٢) وقد تقدم تخريج الحديث أثناء تفسيرها.

أخلاقكم، كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم. وإنَّ الله يعطي الدنيا من يُحِبُّ ومن لا يُحِبُّ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فَمَنْ أعطاه الله الدين فقد أحبه. والذي نفسي بيده، لا يُسَلِّمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قلبه ولسانه، ولا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جاره وبوائقه. قالوا: وما بوائقه يا نَبِيَّ الله؟ قال: غَشْمُهُ وظُلْمُهُ ولا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالاً مِنْ حَرَامٍ فَيَنْفِقُ مِنْهُ فَيَبَارِكُ لَهُ فِيهِ، ولا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيَقْبَلَ مِنْهُ، ولا يتركه خَلْفَ ظَهْرِهِ إلا كان زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إنَّ الله لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، ولكن يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إنَّ الْخِيثَ لَا يَمْحُو الْخِيثَ^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَخِاتِبُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مُشْفِقُونَ مِنْ الله، خَائِفُونَ مِنْهُ، وَجِلُونَ مِنْ مَكْرِهِ بِهِمْ، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جَمَعَ إحساناً وشفقةً، وإن الكافر جَمَعَ إساءةً وأمناً. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَخِاتِبُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم - عليها السلام -: ﴿وَصَدَقْتَ بِكِمَّةٍ رَبِّهَا وَكُتَيْبَةٍ﴾ [التحریم: ١٢]، أي: أبقت أن ما كانَ فإنما هو عن قَدَرِ الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: لا يعبدون معه غيره، بل يُؤْخَذُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَحَدًا صَمَدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنه لا تُظِيرُ لَهُ ولا تُكْفِءُ لَهُ. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾، أي: يُعْطُونَ الْعَطَاءَ وَهُمْ خَائِفُونَ وَجِلُونَ أَلَّا يَقْبَلَ مِنْهُمْ، لخوفهم أن يكونوا قد قَصُرُوا فِي الْقِيَامِ بِشُرُوطِ الْإِعْطَاءِ. وهذا من باب الإِسْفَاقِ وَالِاحْتِيَاظِ؛ كما قال الإمام أحمد:

[٤٧٩٧] حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ وَهْبٍ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾، يا رسول الله، هو الذي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وهو يخاف الله عز وجل»^(٢). وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك بن مغول، به بنحوه. وقال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يَقْبَلَ مِنْهُمْ، ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾»، قال الترمذي: «وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - نَحْوُ هَذَا». وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرظي، والحسن البصري في تفسيره هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ»، أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي - ﷺ - أنه قرأ كذلك.

[٤٧٩٨] قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان حَدَّثَنَا صَخْرُ بْنُ جُوَيْرِيَّةَ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ الْمَكِّي، حَدَّثَنِي أَبُو

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٦٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٧٥ وأحمد ١٥٩/٦ و٢٠٥، وفيه إرسال، عبد الرحمن بن سعيد لم يدرك عائشة، لكن ما بعده متصل، فهو يمتضد به، والله أعلم. وله طريق آخر عند الطبري ٢٥٥٦١ وآخر ٢٥٥٦٣.

خَلَفَ مولى بني جُمَحْ: «أنه دخل مع عُبَيْد بن عُمَيْر على عائشة - رضي الله عنها - فقالت: مرحباً بأبي عاصم، ما يمنحك أن تزورنا - أو: ثَلِمَ بنا -؟ فقال: أَخْشَى أن أُمْلِكَ. فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جَنُثُ أسألك عن آية في كتاب الله عز وجل، كيف كان رسول الله - ﷺ - يقرأها؟ فقالت: آية آية؟ فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مَا آتَوْا﴾، أو «والذين يأتون ما أتوا»؟ فقالت: أَيْتُهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قلت: والذي نفسي بيده، لإحدهما أحب إلي من الدنيا جميعاً - أو: الدنيا وما فيها - قالت أَيْتُهُمَا؟ قلت: «والذين يأتون ما أتوا». فقالت: أشهد أن رسول الله - ﷺ - كذلك كان يقرأها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف^(١). فيه إسماعيل بن مُسْلِم المكي وهو ضعيف. والمعنى على القراءة الأولى - وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم - أظهر، لأنه قال: ﴿أَوَّلَيْكَ يُسْرِعُونَ فِي الْقُرْآنِ وَهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا﴾^(٦١)، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقتصرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ^(٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ^(٦٤) لَا تَجْتَرِئُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُنَّا لَا نَنْصُرُونَ^(٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتُنَا لَكُمْ فَاكِتَرْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ أَنْ تَكَرِّهُوا^(٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ^(٦٧) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، أي: إلا ما تُطِيقُ حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يُحَاسِبُهُمْ بِأَعْمَالِهِم التي كَتَبَهَا عليهم في كتاب مُسْطَوِّر لا يَضِيعُ مِنْهُ شَيْءٌ، ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾، يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا يُيْخَسُونَ من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصْفَحُ عن كثير منها لعباده المؤمنين. ثم قال منكرأ على الكُفَّار والمُشْرِكِينَ من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ﴾، أي: غَفْلَةٍ وَضَلَالَةٍ ﴿مِنْ هَذَا﴾، أي: القرآن الذي أنزله على رُسُلِهِ - ﷺ - وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾، قال الحَكَمُ بن أَبَان، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ﴾، أي: سَيِّئَةٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ، يعني الشِرْكَ ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾، قال: لا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا. وكذا زُوي عن مجاهد، والحَسَن، وغير واحد. وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾، أي: قد كَثِبَتْ عليهم أعمالٌ سَيِّئَةٌ لا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ لا محالة، لِتَحَقِّقَ عليهم كَلِمَةُ الْعَذَابِ. وَزُوي نحو هذا عن مقاتِل بن حَيَّان، والسَّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوِيَّ حَسَنٌ.

[٤٧٩٩] وقد قَدَمْنَا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره، إن الرجل ليعْمَلُ ليعْمَلَ أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ يَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾^(٦٤)، يعني حتى إذا جاء متْرَفِيهِمْ - وهم

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٩٥/٦ ح ٢٤١٢٠ وح ٢٤٥٩١ و١٤٥٩٢، وأعله ابن كثير وكذا الهيثمي في «المجمع» ١١١٨٩ بضعف إسماعيل بن مسلم المكي، وله علة ثانية، أبو خلف، هو المكي، ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» مع هذا الحديث بدون جرح أو تعديل، وذكره الذهبي في الميزان ١٠١٥٧ بهذا الحديث، وقال: لا يعرف، وأخرجه الطبري ٢٥٥٥٨ من وجه آخر عن أبي خلف، لكن ليس فيه ذكر النبي ﷺ وإنما هي أقرانها ذلك، وإيّا كان، فأبو خلف مجهول، وهو علة هذا الخبر.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٣٢.

السعداء المنعمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرَى الْمَكِيدِينَ أَزْلَى الْقِتْمَةِ وَهَلَكًا قِيلًا﴾ (١١) ﴿إِذْ لَدَيْنَا أَنْكَالٌ وَجَحِيمًا﴾ (١٢) ﴿وَكَلَامًا فَا عَصَوْا وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣) [المزمل: ١١ - ١٣] وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ بَن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنَّا بِسَحَابٍ مِمَّا يَمُنُّونَ﴾ (١٤) ﴿أَي: لَا تُجِيرُكُمْ مِمَّا حُلَّ بِكُمْ، سِوَا جَارْتُمْ أَوْ سَكْتُمْ، لَا مَحِيدٌ وَلَا مَنَاصٌ وَلَا وَزَرٌ، لَزِمَ الْأَمْرُ، وَوَجِبَ الْعَذَابُ. ثُمَّ ذَكَرَ أَكْبَرَ ذُنُوبِهِمْ فَقَالَ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَقْفِيكُمْ نَنكِسُونَ﴾ (١٥)، أي: إِذَا دُعِيتُمْ أَبِيتُمْ، وَإِذَا طُلِبْتُمْ امْتَنَعْتُمْ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَنْ يَشْرَكَ بِهِ تُوْهُتُوا فَلَمَّا كُنْتُمْ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١٦) ﴿خَافَر: ١٢﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِيرًا تَهْجُرُونَ﴾ (١٧)، فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ «مُسْتَكْبِرِينَ» حَالٌ مِنْهُمْ حِينَ تُكْوِصُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِبَانِهِمْ إِيَّاهُ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ وَلِأَهْلِهِ. فَعَلَى هَذَا الضَّمِيرُ فِي «بِهِ» فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْحَرَمُ بِمَكَّةَ، ذُمُّوْا لَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُرُونَ بِهِ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ ضَمِيرُ الْقُرْآنِ، كَانُوا يَسْمُرُونَ وَيَذْكُرُونَ الْقُرْآنَ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ: «إِنَّهُ سَحَرٌ، إِنَّهُ شَعْرٌ، إِنَّهُ كِهَانَةٌ». إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ مُحَمَّدٌ - ﷺ - كَانُوا يَذْكُرُونَهُ فِي سَمَرِهِمْ بِالْأَقْوَالِ الْفَاسِدَةِ، وَيَضْرِبُونَ الْأَمْثَالَ الْبَاطِلَةَ، مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ، أَوْ كَاهِنٌ، أَوْ سَاحِرٌ، أَوْ كَذَّابٌ، أَوْ مَجْنُونٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، بَلْ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، الَّذِي أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْحَرَمِ صَاحِرِينَ أَذِلَّةً. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ»، أَي: بِالْبَيْتِ، يَفْتَخِرُونَ بِهِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَلَيْسُوا بِهِمْ.

كَمَا قَالَ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يُحَدِّثُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا كُتِبَ السَّمَرُ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِيرًا تَهْجُرُونَ﴾ (١٧)، فَقَالَ مُسْتَكْبِرِينَ بِالْبَيْتِ، يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُهُ، «سِيرًا»، قَالَ: كَانُوا يَتَكَبَّرُونَ وَيَسْمُرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْمُرُونَهُ: يَهْجُرُونَهُ. وَقَدْ أَطْنَبَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَاهُنَا بِمَا هَذَا حَاصِلُهُ.

﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا﴾ (١٩) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَلَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢١) ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرُجًا فَمُخْرَجًا رِيكٌ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَلَنْكَ لَنَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٣) ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ﴾ (٢٤) ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢٥)

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَدَمِ تَفْهَمِهِمْ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَذَبُّرِهِمْ لَهُ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خُصُّوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يُنْزَلْ عَلَى رَسُولٍ أَكْمَلَ مِنْهُ وَلَا أَشْرَفَ، لَا سِوَا آبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، حَيْثُ لَمْ يَلْفَهُمْ كِتَابٌ وَلَا أَتَاهُمْ نَذِيرٌ، فَكَانَ اللَّاتِقُ بِهَؤُلَاءِ أَنْ يَقَابِلُوا النِّعْمَةَ الَّتِي أَسَدَاهَا اللَّهُ إِلَيْهِمْ بِقَبُولِهَا، وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهَا وَتَفْهَمِهَا، وَالْعَمَلُ بِمَقْتَضَاهَا آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، كَمَا فَعَلَهُ الشُّجَبَاءُ مِنْهُمْ وَمَنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَرَضِيَ عَنْهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ﴾: إِذَا وَاللَّهِ يَجِدُونَ فِي الْقُرْآنِ زَاجِرًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَوْ تَذَبَّرَهُ الْقَوْمُ وَعَقَلُوهُ، وَلَكِنْهُمْ أَخَذُوهُ بِمَا تَشَابَهَ، فَهَلَكُوا عِنْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا﴾ (١٩)، أَي: أَفَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَصِيَانَتَهُ الَّتِي نَشَأَ بِهَا فِيهِمْ، أَفَيَقْدِرُونَ عَلَى انْكَارِ ذَلِكَ وَالْمُبَاهَاةِ فِيهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٧٥﴾ وَلِأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ ﴿٧٤﴾

[٤٨٠١] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جعدان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله - ﷺ - أتاه - فيما يرى النائم - ملكان، فقعده أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سَفَرُ انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد من يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّةٍ حَبْرَةٍ، فقال: أرايتم إن وردت بكم رياضاً مُعَشِبَةً، وحياضاً رِوَاءً تَتَّبِعُونِي؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً مُعَشِبَةً وحياضاً رِوَاءً فأكلوا وشربوا وسَمِنُوا. فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فَجَعَلْتُمْ لِي إِنْ وَرَدْتُ بَكُمْ رِیاضاً مُعَشِبَةً وحياضاً رِوَاءً أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ قالوا: بلى. قال: فَأَنْ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ رِیاضاً أَعَشَبَ مِنْ هَذِهِ، وحياضاً هِيَ أَزْوَى مِنْ هَذِهِ فَاتَّبِعُونِي. قال: فقالت طائفة: صَدَقَ اللهُ، لَتَتَّبِعْتَهُ. وقالت طائفة: قد رَضِينَا بهذا، نَقِیْمُ عَلَيْهِ ^(١).

[٤٨٠٢] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنِّي مُمِيسِكٌ بِحُجَزِكُمْ: هَلُمُّوا مِنَ النَّارِ، وَتَغْلِبُونِي وَتَقَاحَمُونَ فِيهَا تَقَاحُمَ الْفَرَاشِ وَالْجَنَادِبِ، فَأَوْشِكُ أَنْ أُرْسِلَ حُجَزَكُمْ وَأَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَتَرْدُونَ عَلَيَّ مَعاً وَأَشْتَاتاً، أَعْرِفْكُمْ بِسِمَاكُمُ وَأَسْمَانِكُمْ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الْغَرِيبَ مِنَ الْإِبِلِ فِي إِبِلِهِ، فَيَذْهَبَ بِكُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَنَاشِدُ فِيكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ: أَيُّ رَبِّ، قَوْمِي، أَيُّ رَبِّ أُمْتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ، إِنَّهُمْ كَانُوا يَمْشُونَ بِعَدِّكَ الْقَهْقَرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ، فَلَا عَرَفْنَ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةً لَهَا ثَغَاءٌ يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَاقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُ، وَلَا عَرَفْتُ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَاقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُ. وَلَا عَرَفْتُ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَهَا حَمْحَمَةٌ فَيُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَاقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُ. وَلَا عَرَفْتُ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ سَقَاءً مِنْ أَدَمَ، يَنَادِي يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَاقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُ ^(٢). وقال علي بن المديني: هذا حَدِيثٌ حَسَنُ الْإِسْنَادِ، إِلَّا أَنَّ حَفْصَ بْنَ حُمَيْدٍ مَجْهُولٌ، لَا أَعْلَمُ رَوَى عَنْهُ غَيْرُ يَعْقُوبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَشْعَرِيِّ الْقُمِّيِّ. قُلْتُ: بَلْ قَدْ رَوَى عَنْهُ أَيْضاً أَشْعَثُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: صَالِحٌ. وَوَقَّعَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جِبَّانَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ ٧٤﴾، أَي: لَعَادِلُونَ جَائِرُونَ مُنْحَرِفُونَ. تقول العرب: نَكَبَ فُلَانٌ عَنِ الطَّرِيقِ: إِذَا زَاغَ عَنْهَا. وقوله: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكُنْفَنَاهُمْ مَا يَهْمُ مِنْ شَرِّ لَلْجَوِّ فِي طَعْنَتِهِمْ يَعْصَمُونَ ٧٥﴾: يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غِلْظِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ، بِأَنَّهُ لَوْ أَزَاحَ عَنِهِمْ وَأَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَا انْقَادُوا لَهُ، وَلَا سَتَمَرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ نَبِيَّهُمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ٧٦﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ وَفَّقْنَا عَلَى الْآثَرِ فَقَالُوا يَلَيِّنُنَا تُرْدُ وَلَا تَكْذِبُ بِآيَاتِنَا رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ ٧٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ^(٣) وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا

(١) أخرجه أحمد ٢٦٧/١ والطبراني ١٢٩٤٠ وفيه علي بن زيد، وهو غير قوي، لكن له شواهد يحسن بها إن شاء الله.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «المسند الكبير» كما في «المجمع» ٨٥/٣ والبخاري ٩٠٠ «كشف» وقال الهيثمي: ورجاله جميع ثقات اهد. وللحديث شواهد تقويه وهي في الصحيح.

حَاكَاكَ الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٧٦﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٩]، فهذا من باب عليه تعالى بما لا يكون، ولو كان كيف كان يكون. قال الضحاك، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو» فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُرُّهُمْ﴾ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا دُفِنَّا وَرَبَّنَا نَحْنُ أَعْيُنًا مُّشَاهِدُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾، أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُرُّهُمْ﴾، أي: فما زدّهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيبهم. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي ما خشعوا، ﴿وَمَا يَضَعُرُّهُمْ﴾، أي: ما دَعُوا، كما قال تعالى: ﴿فَقُلُوا إِذَا جَاءَهُمْ بِأَسْأَلَةٍ فَصَرِّحُوا وَلَكِنَّ فَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَمَكُورُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [الأنعام: ٤٣].

[٤٨٠٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا علي بن خشرم المروزي، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبي، عن يزيد - يعني النحوي - عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العِلْهَزَ - يعني الوَبَرَ والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُرُّهُمْ﴾ ﴿٧٦﴾. وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل، عن علي بن الحسين، عن أبيه، به.

[٤٨٠٤] وأصل هذا الحديث في الصحيحين أن رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - دَعَا عَلَى قُرَيْشٍ حِينَ اسْتَعْصَمُوا فَقَالَ: اللَّهُمَّ، اعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَنَةِ كَسَنَةِ يُوسُفَ (٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عَمَرَ بن كيسان، حَدَّثَنِي وَهْبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ كَيْسَانَ قَالَ: حَبَسَ وَهْبُ بْنُ مُثَنَّبٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْبَاءِ: أَلَا أَنْشِدُكَ بَيْتاً مِنْ شَعْرِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ وَهْبُ: نَحْنُ فِي طَرَفٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُرُّهُمْ﴾ ﴿٧٦﴾ فَصَامَ وَهْبٌ ثَلَاثًا مُتَوَاصِلَةً فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا الصَّوْمُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أَحَدَثَ لَنَا فَأَحَدُنَا. يعني أحدثنا زيادة عبادة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٧٧﴾، أي: حتى إذا جاءهم أمرُ الله وجاءتهم الساعةُ بغتةً وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يَحْتَسِبُونَ، فعند ذلك أُنْشِئُوا من كل خير وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم. ثم ذكرَ تعالى نعمته على عباده في أن جعلَ لهم السَّمْعَ والأَبْصَرَ والأَفْئِدَةَ - وهي العقول والفهم - التي يَدْرِكُونَ بها الأشياءَ، وَيَعْتَبِرُونَ بما في الكون من الآيات الدالة على

(١) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٧٢ وابن حبان ٩٦٧ والطبراني ١٢٠٣٨ من طرق عن علي بن الحسين به وصححه الحاكم ٣٩٤/٢ ووافقه الذهبي، وإسناده حسن من أجل علي بن الحسين بن واقد قال الحافظ في «الفتح» ٥١٠/٦: صدوق يهيم اهـ لكنه توبع فقد أخرجه الطبري ٦٥٦٣٣ والبيهقي في «الدلائل» ٨١/٤ من وجه آخر عن عكرمة به.

(٢) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ٩٩.

وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿فَلَا مَا تَفْكُرُونَ﴾، أي: ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في برزئه الخليفة وذوته لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما بدأه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ لَتَلَفٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ﴾، أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، لا يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهم، كقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفليس لكم عقول تدلّكم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء وعز كل شيء، وخضع له كل شيء. ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذابين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿أَوَدَا أَوْدَاً وَنَحْنُ وَكُنَّا زُرَّابًا وَبَعَثْنَا أَوْدًا لَتَبْعُوهُمْ﴾؟ يعني: يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَوَكَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، يعنون أن الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْلًا مَخْرَجًا﴾ ﴿قَالُوا يَلَكُ إِذَا كُرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَجِيدَةٌ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالنَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَلَمَّا هُوَ خَمِيمٌ ثُبُتٌ﴾ ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَلَكٌ وَنَحْنُ خَلَقْنَا قَالَ مَنْ يُعِى الْعَظَمَ وَهَى رُؤِيسٌ﴾ ﴿قُلْ بِحُجَّتِ الْوَيْلِ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩]... الآيات.

﴿قُلْ لِيِنَّ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نَنْقُوتُ﴾ ﴿قُلْ مَنْ يَلْهِيهِمْ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَن تَسْحَرُونَ﴾ ﴿بَلْ أُنِيتَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

يقرّر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والمُلك، ليرشد إلى أنه الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد - ﷺ - أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبّدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدّون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يُقرّبونهم إليه زلفى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُلْ لِيِنَّ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا؟﴾ أي: من مالكةا الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار، وسائر صنوف المخلوقات؟ ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾. أي: فيعتبرون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان كذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: ألا تذكرون أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؟ أي: من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم؟ يعني الذي هو سَفَف المخلوقات.

[٤٨٠٥] كما جاء في الحديث الذي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنْ عَزَّاهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ هَكَذَا. وَأَشَارَ بِيَدِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ»^(١).

[٤٨٠٦] وفي الحديث الآخر: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكَرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاحٍ، وَإِنَّ الْكَرْسِيَّ بِمَا فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ كَتَلِكِ الْحَلَقَةِ فِي تَلِكِ الْفَلَاحَةِ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مَسَافَةَ مَا بَيْنَ قُطْرَيْ الْعَرْشِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَارْتِفَاعُهَا عَنْ الْأَرْضِ السَّابِعَةُ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا سُمِّيَ عَرْشاً لِارْتِفَاعِهِ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ: إِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي الْعَرْشِ كَالْقَنْدِيلِ الْمَعْلُوقِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ فِي أَرْضِ فَلَاحٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ سَالِمٍ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَمَارِ الدُّهْنِيِّ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْعَرْشُ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ قُدْرَهُ. وَفِي رَوَايَةٍ: إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْعَرْشُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ. وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»، يَعْنِي: الْكَبِيرُ، وَقَالَ آخِرُ السُّورَةِ: «رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ»، أَيِ: الْحَسَنِ الْبَهِيِّ. فَقَدْ جَمَعَ الْعَرْشَ بَيْنَ الْعَظَمَةِ فِي الْإِتْسَاعِ وَالْعُلُوِّ، وَالْحُسْنِ الْبَاهِرِ. وَلِهَذَا قَالَ مِنْ قَالَ: إِنَّهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ رَبِّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نَوَّرَ الْعَرْشَ مِنْ نُورٍ وَجْهِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِثُ»^(٣)، أَيِ: إِذَا كُنْتُمْ تَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَفَلَا تَخَافُونَ عِقَابَهُ وَتَحْذَرُونَ عَذَابَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ وَإِسْرَافِكُمْ بِهِ؟!

[٤٨٠٧] قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا الْفَرَّاشِيُّ فِي كِتَابِ «التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ»: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عُمرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَثِيراً مَا يُحَدِّثُ عَنْ امْرَأَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، مَعَهَا ابْنٌ لَهَا يَرْعَى غَنَمًا، فَقَالَ لَهَا ابْنُهَا: يَا أُمُّهُ، مَنْ خَلَقَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ أَبِي؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَنِي؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْجَبَلَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ هَذِهِ الْعِثَمَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَإِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ شَأْنًا. ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ الْجَبَلِ فَتَقَطَّعَ. قَالَ ابْنُ عُمرَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَثِيراً مَا يُحَدِّثُنَا هَذَا الْحَدِيثَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ: كَانَ ابْنُ عُمرَ كَثِيراً مَا يُحَدِّثُنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ^(٤). قُلْتُ: فِي إِسْنَادِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ الْمَدِينِيِّ، وَالِدُ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ، وَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. «قُلْ مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ»: أَيِ: بِيَدِهِ الْمَلِكُ، «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» [مُود: ٥٦]، أَيِ: مُتَصَرِّفٌ فِيهَا.

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٢٦ من حديث جبير بن مطعم وتقدم الكلام عليه في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه ابن عدي ١٧٨/٤ بهذا الإسناد من حديث ابن عمر، وعلمته عبد الله بن جعفر والد علي المدني. قال ابن كثير: تكلموا فيه. وجاء في الميزان ٤٢٤٧: متفق على ضعفه. قال يحيى: ليس بشيء. وقال ابن المدني: أبي ضعيف. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، وقال النسائي: متروك. اهـ قلت: عبد الله بن دينار، ثقة، بل هو فوق الثقة، فلو كان هذا الحديث عنده لرواه الأئمة، فكيف يتفرد به عبد الله بن جعفر وحده ولا يتابع عليه كما قال ابن عدي، فهذا دليل على بطلانه، فهو ضعيف جداً.

[٤٨٠٨] وكان رسول الله - ﷺ - يقول: «لا والذي نفسي بيده»^(١)،

[٤٨٠٩] وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا، ومُقْلَبُ الْقُلُوبِ»^(٢). فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، «وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجيرَ عليه لثلاث يفتات عليه. ولهذا قال الله: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ»، أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر، ولا مُعَقَّبٌ لحكمه، الذي لا يُمانع ولا يُخالف، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: «لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ»^(٣) [الأنبياء: ٢٣] أي: لا يُسْتَلْ عما يفعل لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته وعذله، والخلق كلهم يسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: «فَرَزَكَ لَسْتُ لَنَهُمْ أَجْمِينَ»^(٤) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٥) [الحجر: ٩٢ - ٩٣].

وقوله تعالى: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ»، أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يُجار عليه هو الله تعالى، وحده لا شريك له. «قُلْ فَأَنَّى تُشْرِكُونَ»، أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافيكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى: «بَلْ أَنشَأْنَاهُم بِالْحَقِّ»، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، «وَأَنشَأْنَاهُمْ لَكَذِبُونَ»، أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ»^(٦)، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: «إِنَّمَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أَثَرٍ وَإِنَّمَا عَلَى مِثْلِهِمْ مُقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّيْنَهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٨) ﴿

يُرْثُهُ تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فقال: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّيْنَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»، أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط ببعضه ببعض، في غاية الكمال، «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ» [الملك: ٣]. ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو: لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: «وَلَمَّا لَبَّيْنَهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا

(١) ورد في ذلك أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦١٧ و٦٦٢٨ وأبو داود ٣٢٦٣ والترمذي ١٥٤٠ والنسائي ٢/٧ وأحد ٢٥/٢ و٦٧ وأبو يعلى ٥٤٤٢ من حديث ابن عمر.

يَصِفُونَ»، أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالْكَائِنَاتِ﴾، أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: تعلمون أن الله تعالى، وعز وجل، عما يقول الظالمون الجاحدون.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّنِئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: إن عاقبتهم - وإنني شاهد ذلك - فلا تجعلني فيهم.

[٤٨١٠] كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: «وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَقَّئِ إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»^(١). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: لو شئنا لأريناك ما نجل بهم من النقم والبلاء والمحن. ثم قال مرشداً له إلى التزيق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يُسِيءُ لِيَسْتَجْلِبَ خَاطِرَهُ، فتعود عداوته صداقةً وبُغْضُهُ محبةً، فقال: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّنِئَةِ﴾. وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٩٦﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَلَوًا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُرَّ حَقٍّ عَظِيمٍ﴾ [نصحت: ٣٥]، أي: ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَلَوًا﴾، أي: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُرَّ حَقٍّ عَظِيمٍ﴾، أي: في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾، أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا ينفق معهم الجميل. ولا يتقادون بالمعروف.

[٤٨١١] وقد قَدَّمْنَا عند الاستعاذة أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(٢). وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾، أي: في شيء من أمري. ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور - وذلك مَطَرَدَةً للشياطين - عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور.

[٤٨١٢] ولهذا رَوَى أَبُو دَاوُدَ أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَذَمِ وَمِنَ الْفُرْقِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ»^(٣).

[٤٨١٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رسول الله - ﷺ - يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ، مِنَ الْفَرْعِ: بِاسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ. قال: فكان عبد الله بن عمرو يُعَلِّمُهَا مِنْ بَلَّغٍ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَقُولَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَغِيرًا لَا يَعْقِلُ أَنْ يَحْفَظَهَا كَتَبَهَا لَهُ، فَعَلَّقَهَا

(١) يأتي.

(٢) تقدم عند الاستعاذة كما ذكر المصنف.

(٣) أخرجه أبو داود ١٥٥٢ من حديث أبي اليسر بآثم منه، وهو صحيح.

في عُقْبِهِ^(١). ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث محمد بن إسحاق، قال الترمذي: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾

يُخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مُدَّةِ حياته، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْحَكْمُ مِنَ الْمَوْتِ يَقُولُ رَبِّ ارْجِعْنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدِّقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [المنافقون: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعُ الرُّسُلُ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ ذِكْرٍ ۝﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الْإِنْسُ كُفْتُ مِنْ قَبْلِ مَا أَصْبَحْتُ رُسُلُ رَبِّي بِالْحَقِّ فَقَدْ تِلَا مِنْ شَفَعَةٍ فَيُشْفَعُونَ لَنَا أَوْ تُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۝﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُشْكِرِينَ تَاكُسُوا زُرُوعِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ يُخَوِّفُونَ رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝﴾ بل بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَوِّفُونَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَمَدُّوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَى الْفَالِغِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِّن سَبِيلِ ۝﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا أَثَرِ النَّبِيِّينَ وَآخِيَّتَنَا أَتَنَتَنِينَ فَاَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝﴾ [غافر: ١١-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِفُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَوْ نَعْمَرُكُمْ مَا تَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمْ أَنْذِيرٌ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝﴾ [فاطر: ٣٧]. فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض، على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات العذاب في الجحيم.

وقوله هاهنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، كَلَّا: حرف رَدْعٍ وَزَجْرٍ، أي: لا تُجيبه إلى ما طَلَبَ، ولا نقبلُ منه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لا بُدَّ أَنْ يَقُولَهَا محالة كلُّ مُحْتَضِرٍ ظالم. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِلَّةً لِقَوْلِهِ ﴿كَلَّا﴾، أي: لأنها كلمة، أي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلامٌ منه، وقول لا عَمَلٌ معه، ولو رُدُّوا لما عمل صالحاً، ولكان يُكَذَّبُ في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَمَدُّوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾. وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرَةَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿كَلَّا﴾، فإِنَّمَا يَقُولُ: كَذِبٌ. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾، قال: كان

(١) أخرجه أبو داود ٣٨٩٣ والترمذي ٣٥٣٨ والنسائي في «اليوم والليلة» ٧٦٥ وابن السني في «اليوم والليلة» ٧٤٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال الترمذي: حسن غريب. والمرفوع منه حسن له ما يؤيده، وفعل عبد الله بن عمرو ضعيف، انظر ضعيف أبي داود ٨٤٠.

[٤٨١٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت الجسور بن مخرمة، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن الجسور - هو ابن مخرمة، رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «فاطمة بضعة مني، يقيضي ما يقبضها، وييسطني ما ييسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري»^(١).

[٤٨١٦] وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن الجسور أن رسول الله - ﷺ -: قال: «فاطمة بضعة مني، يرييني ما رآها، ويؤذيني ما آذاها»^(٢).

[٤٨١٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على هذا المنبر: ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله - ﷺ - لا تنفع قومه؟ بلى، والله، إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني - أيها الناس - قرط لكم. فإذا جئتم قال رجل: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان. وقال آخر: أنا فلان بن فلان. فأقول: أما النسب فقد عرف، ولكنكم أحدثتم بعدي، وارتدثتم القهقري^(٣).

[٤٨١٨] وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من طرق متعددة عنه - رضي الله عنه -: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - قال: أما - والله - ما بي إلا أنني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببي ونسبي^(٤). رواه الطبراني، والبرز، والبيهقي، والحافظ الضياء في «المختارة»، وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفاً، إعظماً وإكراماً رضي الله عنه.

[٤٨١٩] فقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع - زوج زينب بنت رسول الله - ﷺ - من طريق أبي القاسم البغوي: حدثنا سليمان بن عمر الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد بن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله - ﷺ - «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»^(٥).

[٤٨٢٠] وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «سألت ربي - عز وجل - ألا أتزوج إلى أحد من أمتي، ولا يتزوج إلي أحد إلا كان معي في الجنة».

(١) أخرجه أحمد ٣٢٣/٤ والطبراني في «الكبير» ٢٥/٢٠ و٢٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٣/٩: وفيه أم بكر بنت السور، ولم يجرحها أحد، ولم يوثقها، وبقية رجاله وثقوا اهـ ويشهد لأصله ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣٠ ومسلم ٢٤٤٩ وأبو داود ٢٠٧١ والترمذي ٣٨٦٦ وابن ماجه ١٩٩٨ وأحمد ٣٣٨/٤.

(٣) أخرجه أحمد ١٨/٣ و٣٩ و٦٢ وأبو يعلى ١٢٣٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٦٤/١٠: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن محمد بن عقيل، وقد وثق اهـ. وفيه أيضاً حمزة بن أبي سعيد الخدري، وثقه ابن حبان، وقد توبع على هذا المتن، وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١١٦٢١ وقال الهيثمي ١٥٠٢٠: رجاله ثقات.

(٤) أخرجه الحاكم ١٤٢/٣ عن علي بن الحسين أن عمر... فلذكره، وصححه، وهو مرسل، وأعله الذهبي بالانقطاع، ووصله الطبراني ٢٦٥ وقال الهيثمي ١٧٣/٩ ح ١٥٠١٩: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير الحسن بن سهل، وهو ثقة اهـ.

(٥) فيه إبراهيم بن يزيد، وهو ضعيف، لكن يشهد له ما قبله، والله أعلم. وذكره الألباني في «صحيح الجامع» ٤٥٦٣ وعزاه لابن عساكر عن ابن عمر وانظر الصحيحة ٢٣٦ فقد ذكر شواهد.

فأعطيني ذلك»^(١). ومن حديث عَمَّارِ بْنِ سَيْفٍ، عن إسماعيل، عن عبد الله بن عمرو.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢)، أي: من رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ، قاله ابن عباس. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الذين فازوا فَتَجَوَّاهُ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُوا الْجَنَّةَ. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، وَتَجَوَّاهُ مِنْ شَرِّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، أي: ثقلت سيئاته على حسناته، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، أي خابوا وهلكوا، وَبَاؤُوا بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ.

[٤٨٢١] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المُرِّي، عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: لله ملكٌ موَكَّلٌ بالميزان، فيُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ، فيُؤَقَّفُ بَيْنَ كَفَيْهِ المِيزَانُ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ نَادَى مَلَكٌ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا. وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُهُ نَادَى مَلَكٌ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ: شَقِيَ فُلَانٌ شَقَاوَةً لَا يَسْتَدُ بَعْدَهَا أَبَدًا^(٣). إسناده ضعيف. فإن داود بن المحبر متروك. ولهذا قال تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَلِيلُونَ﴾، أي: ماكثون فيها، دائمونٌ مُقِيمُونَ لَا يَظْعَنُونَ. قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَقَشُّونَ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٤) [الأنبياء: ٣٩].

[٤٨٢٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قُرُوءَةُ بْنُ أَبِي الْمَغْرَاءِ، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان ضَرَّارِ بْنِ مَرْثَةَ، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «إِنْ جَهَنَّمَ لَمَا سَبِقَ إِلَيْهَا أَهْلُهَا تَلَقَّاهُمْ لَهْبُهَا ثُمَّ لَفَحَتْهُمْ لَفْحَةً فَلَمْ يَبْقَ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْعُرْقُوبِ»^(٥).

[٤٨٢٣] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز، حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخَضِرِ الْقَطَّانِ، حدثنا سعد بن أبي سعيد المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - قال: رسول الله - ﷺ - «فِي قَوْلِ اللَّهِ: «تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ»، قَالَ: تَلْفَحُهُمْ لَفْحَةً فَتَسِيلُ لِحُومَهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»^(٦).

(١) ضعيف جداً. فيه عمار بن سيف، وهو الضبي الكوفي، جاء في «تهذيب التهذيب» ٣٥٢/٧ ما ملخصه: قال ابن معين: ليس حديثه بشيء، وفي رواية: ثقة، وقال أبو زرعة: ضعيف، وقال أبو حاتم: كان شيخاً صالحاً، وكان ضعيف الحديث، منكر الحديث. وقال أبو داود: كان مغفلاً. وقال العجلي: ثقة ثبت. وقال الدارقطني: كوفي متروك. وقال الحاكم: يروي عن الثوري وإسماعيل بن أبي خالد مناكير، وقال البخاري: لا يتابع منكر الحديث ذاهب، وكذا ضعفه العقيلي، وقال ابن عدي: الضعف على حديثه بين أنه فتلخص أن الجمهور على توهم أمره. وحديثه شبه موضوع.

(٢) أحله المصنف بداد بن المحبر، وضعفه به، وهو كما قال: بل هو متروك متهم بالكذب. وهو الذي وضع أحاديث فضل العقل. راجع ترجمته في «الميزان». وفيه صالح بن بشير المري، ضعفه غير واحد.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٢٨٠ والبيهقي في «البعث» ٥٦١ وأبو نعيم ٣٦٣/٤ من حديث أبي هريرة. ومداره على محمد بن سليمان بن الأصبهاني، وهو ضعيف كما في «المجمع» ١٨٥٨٦ وصوب المنذري في «ترغيبه» ١٥٤٢٦ الوقف فيه على أبي هريرة.

(٤) ضعيف، سعد بن أبي سعيد المقبري، لين الحديث. وليس هو علة الحديث، وإنما علته أخوه عبد الله بن أبي سعيد ذكره الذهبي في الميزان ٤٣٦٣ فقال: قال يحيى: ليس بشيء. وفي رواية: ليس بثقة. وقال الفلاس: منكر الحديث متروك. وقال البخاري، تركوه أنه والراوي عنه لم أجدهم ترجمه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فِيهَا كَلْبُحُوتٌ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني عابسون. وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوط، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَقَدْ فِيهَا كَلْبُحُوتٌ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقُلصت شفتاه.

[٤٨٢٤] وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: أخبرنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - هو ابن المبارك، رحمه الله - أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي - ﷺ - قال: ﴿وَقَدْ فِيهَا كَلْبُحُوتٌ﴾، قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه. وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سُرته^(١). ورواه الترمذي، عن سويد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، به. وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ تَأْتِي تَنْتَلِ عَلَيْهِمْ فَكَفَرُوا بَهَا تَكْذِبُوتَ﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِذْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴿﴾

هذا تفریع من الله تعالى لأهل النار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ تَأْتِي تَنْتَلِ عَلَيْهِمْ فَكَفَرُوا بَهَا تَكْذِبُوتَ﴾ ﴿١٠٥﴾؟ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة تذلون بها كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ نَارًا فِيهَا نَارٌ سَلَامٌ خَرَّتْهَا أَلَمْ يَأْكُذِبُوا يَذِرُ﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَتَانَا إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٠٦﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٧﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٨﴾ [الملك: ٨ - ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾، أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كُنَّا أشقى من أن نتفاد لها ونُتبعها، فَضَلَلْنَا عنها ولم نُزقها. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِذْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾، أي: رُدنا إلى الدنيا، فَإِن عُدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مُستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْرِضْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ﴾ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ يُشْرِكُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٠٨﴾ [غافر: ١١ - ١٢]، أي: لا سبيل إلى الخروج، لأنكم كنتم تُشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّى أَسْأَلْتُمُوهُمْ ذِكْرَكُمْ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ ﴿﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾، أي: امكثوا فيها صغرين مُهاتين أذلاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا

(١) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٦٧ وأحمد ٨٨/٣ والترمذي ٢٥٩٠ من حديث أبي سعيد، ومداره على دراج عن أبي الهيثم، ودراج، ضعيف في روايته عن أبي الهيثم خاصة، ومع ذلك قال الترمذي: حسن صحيح غريب! وقال الحاكم: صحيح! وسكت الذهبي! والظاهر من سكوت الذهبي، وتصحيح الترمذي له، هو أنه يتعلق بأنواع العذاب في جهنم، والسلف يتساهلون في أحاديث الرقاق، أو الترغيب والترهيب، والله أعلم.

جواب لكم عندي. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَفْشُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾، قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان المزوزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يذعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم: ﴿إِنَّكُمْ تَكَلَّمْتُمْ﴾. قال: هانت دعوتهم - والله - على مالك ورَبِّ مالك. ثم يذعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿١١٢﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿أَفْشُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾، قال: والله ما نُبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزغراء، قال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله ألا يخرج منهم أحداً - يعني من جهنم - غير وجوههم وألوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول: يا رب. فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجيء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١١٣﴾، فعند ذلك يقول: ﴿أَفْشُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾. وإذا قال ذلك أطبقت عليهم فلا يخرج منهم بشر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعبادة المؤمنين وأوليائهم، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ فَأَخَذْتُمُ مِنْهُمْ سِحْرًا، أي: فسخرتهم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي، ﴿حَتَّىٰ أَتُوبَ﴾ ﴿١١٥﴾، أي: حملكم بغضهم على أن تسيتم معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، أي: من ضنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَضَحَّكُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١١٧﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠]، أي: يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَتُنْهَوْنَ هُمُ الْفَاظِينَ﴾، أي: جعلتهم هم الفازين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار.

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا آلَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى مثنياً لهم على ما أصاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾؟ قال: كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا آلَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١١٩﴾، أي: الحاسبين. ﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: لما أثرت الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ولا استحققت من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

[٤٨٢٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن

أَفِغْ بن عبدِ الكَلَامِي أَنَّهُ سَمِعَهُ يَخْطُبُ النَّاسَ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سَنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالَ: لَيْعَمَّ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، رَحِمْتِي وَرِضَوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سَنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. فَيَقُولُ: بِئْسَ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، نَارِي وَسَخَطِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾، أي: أَفَلَمْ تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلَا قَصْدٍ وَلَا إِرَادَةٍ مِنْكُمْ وَلَا حِكْمَةٍ لَنَا، وَقِيلَ: لِلْعَبَثِ أَيُّ لَتَلْعَبُوا أَوْ تَلْعَبُوا كَمَا خَلَقْتَ الْبَهَائِمَ لَا ثَوَابَ بِهَا وَلَا عِقَابَ، إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ لِلْعِبَادَةِ وَإِقَامَةِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾، أي: لَا تَعُودُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُدْرِكُ سُدَّ﴾ [القيامة: ٣٦]، يَعْنِي هَمَلًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، أي: تَقَدَّسَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عَبَثًا، فَإِنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُتَنَزِّهُ عَنْ ذَلِكَ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾. فَذَكَرَ الْعَرْشَ لِأَنَّهُ سَقْفُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ، أي: حَسَنَ الْمَنْظَرِ بَهِيِّ الشَّكْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَبِيٍّ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠].

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّنَافِيسِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ سُلَيْمَانَ - شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ - أَبَانًا شُعَيْبُ بْنُ صَفْوَانَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ آلِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ قَالَ: كَانَ آخِرُ خُطْبَةٍ خُطِبَهَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنْ حَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثًا، وَلَنْ تَرْكَبُوا سُدًى، وَإِنْ لَكُمْ مَعَادُ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ لِلْحُكْمِ بَيْنَكُمْ وَالْفَضْلَ بَيْنَكُمْ، فَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَحَرَّمَ جَنَّةَ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَأْمَنُ غَدًا إِلَّا مَنْ خَلَّيَ هَذَا الْيَوْمَ وَخَافَهُ، وَبَاعَ نَافِدًا بَبَاقٍ، وَقَلِيلًا بكَثِيرٍ، وَخَوْفًا بِأَمَانٍ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مِنْ أَصْلَابِ الْهَالِكِينَ، وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدِكُمُ الْبَاقِينَ، حَتَّى تُرْثَدُوا إِلَى خَيْرِ الْوَارِثِينَ؟ ثُمَّ إِنَّكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشْعِنُونَ غَادِيًا وَرَاحَتًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ قَضَى نَحْبَهُ، وَانْقَضَى أَجَلُهُ، حَتَّى تُغَيِّبَهُ فِي صَدْعٍ مِنَ الْأَرْضِ، فِي بَطْنِ صَدْعٍ غَيْرِ مُمَهَّدٍ وَلَا مُوسَّدٍ، قَدْ فَارَقَ الْأَحْبَابَ، وَبَاشَرَ الثَّرَابَ، وَوَاجَهَ الْحِسَابِ، مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ، غَنِيٌّ عَمَّا تَرَكَ، فَيَقِيرُ إِلَى مَا قَدَّمَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ مَوَاقِفِهِ، وَتُزُولِ الْمَوْتِ بِكُمْ». ثُمَّ جَعَلَ طَرَفَ رِدَائِهِ عَلَى وَجْهِهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مِنْ حَوْلِهِ.

[٤٨٢٦] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا بَحْرُ بْنُ نَصْرِ بْنِ الْخَوْلَانِي، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي ابْنُ لَهْيَعَةَ، عَنْ ابْنِ هُبَيْرَةَ، عَنْ حَنْشِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَجُلًا مُصَابًا مَرَّ بِهِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَقَرَأَ فِي أُذُنِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ [١١٥] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ قَبْرًا، فَذَكَّرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «بِمَاذَا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ؟ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُوقِنًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ»^(٢).

(١) هذا مرسل، أبلغ بن عبد الكَلَامِي، تابعي صغير، وهو غير معروف. ذكره ابن أبي حاتم فلم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً. وإنما ذكر أنه روى عن راشد بن سعد وهو تابعي وعنه صفوان بن عمرو اهـ وهذا يدل على جهالة حيث لم يرو عنه غير واحد.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه أبو يعلى ٥٠٤٥ وابن السني ٦٣١ وأبو نعيم ٧٠/١، وفيه ابن لهيعة، وهو واهٍ، والظاهر أنه من تخليطاته. فقد سئل الإمام أحمد عن هذا المتن فقال: هذا موضوع، هذا حديث الكذابين، وذكره الذهبي في «الميزان» ٢/ ١٧٥ لكن في ترجمة سلام بن رزين.

[٤٨٢٧] وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله - ﷺ - في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿أَحْسِبْتُمْ أَنَّكُمْ خَلَقْتُمْ عَبِيدًا وَأَنْكُمُ إِنَّا لَا تُرْعَمُونَ﴾ (١٥)، قال: فقرأناها فقمنا وسلمنا (١).

[٤٨٢٨] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب الخلّاف الواسطي، حدثنا أبو المسيب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خنيس، عن نهشل بن سعيد، عن الضحّاك بن مزاحم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أَمَّا لَأَمْتِي مِنَ الْفَرَقِ إِذَا رَكِبُوا فِي السَّفَنِ: بِاسْمِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَتُهُ وَقَعْلًا عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٧) [الزمر: ٦٧]، ﴿يَسِرُّ اللَّهُ سَرِيرَهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) [هود: ٤١].

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٧)

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾، أي: لا دليل له على قوله، فقال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، أي: الله يحاسبه على ذلك. ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجات.

[٤٨٢٩] قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله - ﷺ - قال لرجل: ما تعبد؟ قال: أعبد الله وكذا وكذا. حتى عد أصناماً، فقال رسول الله - ﷺ -: «فأيهم إذا أصابك ضرر فدعوتك كشفه عنك؟ قال: الله عز وجل». قال: فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوتك أعطاكها؟ قال: الله عز وجل. قال: فما يحملك على أن عبدت هؤلاء معه؟ قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه، أم خيبت أن يغلب عليه! فقال رسول الله - ﷺ -: «تَعْلَمُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ قال الرجل بعدما أسلم: لَقِيتُ رَجُلًا خَصَمَنِي» (٣). هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن حصين، عن أبيه، عن رسول الله - ﷺ - نحو ذلك. وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٨)، هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وسره عن الناس، والرحمة معناه أن يسدده ويوقفه في الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون

(١) ذكره الحافظ في «الإصابة» ١/ ١٥/ ٥ وعزاه لابن مندة، وقال: إسناده لا بأس به. وحسنه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٣٤.

(٢) والحدّث ضعيف جداً، وتقدم تحريجه.

(٣) هذا مرسل، لكن يعتضد بما رواه الترمذي كما ذكر المؤلف، والله أعلم.



وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى: هذه ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾، فيه تنبيه إلى الاعتناء بها ولا يفتي ما عداها: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، قال مجاهد وقتادة: أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود. وقال البخاري: «ومن قرأ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ يقول: فرضنا عليكم وعلى من بعدكم». ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، أي: مفسرات واضحات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ﴾: هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع؛ فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج. أو محصناً، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح، وهو حرٌ بالغ عاقل. فاما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده جلد مئة، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة - رحمه الله - فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام، إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب.

[٤٨٣٠] وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، في الأعرابي اللذين أتيا رسول الله - ﷺ - فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني كان غيباً - يعني أجيراً - على هذا فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمئة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مئة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجل، فقال رسول الله - ﷺ -: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مئة وتغريب عام. واغد - يا أنيس، لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها. فقدا عليها، فاعترفت، فزجماها»^(١). ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مئة إذا كان بكراً لم يتزوج، فاما إن كان محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم.

[٤٨٣١] كما قال الإمام مالك: حَدَّثَنِي ابْنُ شِهَابٍ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣١٤ و ٢٧٢٤ و ٦٦٣٣ و مسلم ١٦٩٧ و أبو داود ٤٤٤٥ و الترمذي ١٤٣٣ و النسائي ٢٤٠/٨ -

٢٤١ وابن ماجه ٢٥٤٩ وأحد ١١٥/٤ و ١١٦ وابن حبان ٤٤٣٧.

ابن عباس أخبره، أَنَّ عمر - رضي الله عنه - قام فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحقِّ، وأنزلَ عليه الكتابَ، فكان فيما أنزلَ عليه آيةُ الرِّجْمِ، فقرأناها وَوَعَيْنَاهَا، وَرَجَمَ رسولُ الله - ﷺ - وَرَجَمْنَا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: «لا نجد آيةَ الرِّجْمِ في كتابِ الله». فَيُضِلُّوا بِتَرْكِ فريضةٍ قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حَقٌّ على من رَزَى، إذا أَحْصَنَ، من الرجال والنساء، إذا قامت البيِّنة أو الحَبْلُ أو الاعتراف»^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ مُطَوَّلًا، وَهَذِهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ، فِيهَا مَقْصُودُنَا هَاهُنَا.

[٤٨٣٢] وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُشَيْمٍ، عَنِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَطَبَ النَّاسَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَلَا وَإِنَّ أَنَا سَأَ يَقُولُونَ: مَا بِالْ رَجْمِ؟ فِي كِتَابِ اللهِ الْجَلْدُ. وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - وَرَجَمْنَا بعده، وَلَوْلَا أَن يَقُولَ قَائِلُونَ - أَوْ يَتَكَلَّمُ مُتَكَلِّمُونَ - أَنَّ عُمَرَ زَادَ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ لِأَثْبَتِهَا كَمَا نَزَلَتْ^(٢) بِهِ. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، بِهِ.

[٤٨٣٣] وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ مُشَيْمٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ يَوْسُفَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ: خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَذَكَرَ الرِّجْمَ فَقَالَ: لَا تُخْذَعْنَ عَنْهُ فَإِنَّهُ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى، أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَدْ رَجَمَ وَرَجَمْنَا بعده، وَلَوْلَا أَن يَقُولَ قَائِلُونَ: زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَيْسَ فِيهِ لَكِتْبَتُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْمُصْحَفِ: «وَشَهِدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَفُلَانٌ، وَفُلَانٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَدْ رَجَمَ وَرَجَمْنَا بعده». أَلَا وَإِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِكُمْ قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِالرِّجْمِ وَبِالدِّجَالِ وَبِالشَّفَاعَةِ وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَيَقُومُ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا امْتَحَشُوا^(٣).

[٤٨٣٤] وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ يَحْيَى الْقَطَّانِ، عَنْ يَحْيَى الْأَنْصَارِيِّ: عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: «إِنِّي كُنْتُ أَنْ تَهْلِكُوا عَنْ آيَةِ الرِّجْمِ»^(٤). . . الْحَدِيثُ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ: مِنْ حَدِيثِ سَعِيدٍ، عَنْ عُمَرَ، وَقَالَ: صَحِيحٌ.

[٤٨٣٥] وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُؤَصِّلِيُّ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ - هُوَ ابْنُ سِيرِينَ - قَالَ: ثُبُثْتُ عَنْ كَثِيرِ بْنِ الصَّلْتِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مَرْوَانَ وَفِينَا زَيْدٌ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: كُنَّا نَقْرَأُ: «وَالشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ»، قَالَ مَرْوَانُ: أَلَا كِتَبْتَهَا فِي الْمُصْحَفِ؟ قَالَ: ذَكَرْنَا ذَلِكَ وَفِينَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: أَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: قُلْنَا: فَكَيْفَ؟ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: فَذَكَرَ كَذَا وَكَذَا، وَذَكَرَ الرِّجْمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكْتَبْتَنِي آيَةَ الرِّجْمِ. قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ الْآنَ. هَذَا أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ^(٥). وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْثَى، عَنْ عُثْمَانَ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٨٢٩ ومسلم ١٦٩١ وأبو داود ٤٤/٨ والترمذي ١٤٣٢ وابن ماجه ٢٥٥٣ وأبو يعلى ١٥١ من حديث ابن عباس عن عمر. وأخرجه مالك ٨٢٣/٢ ح ٨ من طريق الزهري مختصراً. وأخرجه البخاري ٦٨٣٠ من طريق الزهري مطولاً.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٩/١ والنسائي في «الكبرى» ٧١٥١ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه أحمد ٢٣/١ وأبو يعلى ١٤٦ وإسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد بن جدعان، ولأصله شواهد. و«امتحنوا»: أي احترقت جلودهم.

(٤) أخرجه أحمد ٣٦/١ ٤٣ والترمذي ١٤٣١ وقال: حسن صحيح.

(٥) أخرجه أبو يعلى كما ذكر المصنف. وأخرجه النسائي في «الكبرى» ٧١٤٥ و٧١٤٨ وعنده أن عمر هو الذي سأل النبي ﷺ.

قتادة، عن يونس بن جبير، عن كثير بن الصلت، عن زيد بن ثابت، به. وهذه طرق كلها متعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت متلوّة فَنُسخَ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به، والله أعلم.

وقد أمر رسول الله - ﷺ - برجم هذه المرأة^(١)، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير، ورجم النبي - ﷺ - ماعزاً والغامدية. وكلّ هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله - ﷺ - أنه جلدتهم قبل الرجم، وإنما وردت الأحاديث الصحاح المتعددة الطرق والألفاظ بالاعتصار على رجمهم، وليس فيها ذكر الجلد. ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد - رحمه الله - إلى أنه يجب أن يُجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنة، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه لما أتى بشراحة، وكانت قد زنت وهي مُحَصَّنة، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، ثم قال: جلدتها بكتاب الله ورجمها بسنة رسول الله ﷺ.

[٤٨٣٦] وقد روى الإمام أحمد، وأهل السنن الأربعة، ومسلم من حديث قتادة، عن الحسن، عن حطان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله - ﷺ - : «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر، جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم»^(٢).

وقوله تعالى: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»، أي: في حكم الله، لا ترحمهما وتزثروا لهما في شرع الله، وليس المئته عن الرأفة الطبيعية ألا تكون حاصلة، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم الرأفة الطبيعية على ترك الحد، فإنه لا يجوز له ذلك. قال مجاهد: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»، قال: إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل. وكذا روي عن سعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح.

[٤٨٣٧] وقد جاء في الحديث: «تَعَاوَا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ»^(٣).

[٤٨٣٨] وفي الحديث الآخر: «لَحْدٌ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لَأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحاً»^(٤).

وقيل: المراد: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»، فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح. قال عامر الشعبي: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»، قال: رحمة في شدة الضرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن حماد بن أبي سليمان: يُجلد القاذف وعليه ثيابه، والزاني تُخلع ثيابه، ثم تلا: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»، فقلت: هذا في الحكم؟ قال: هذا في الحكم والجلد. يعني في إقامة الحد، وفي شدة الضرب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت، فضرَبَ رجلها - قال نافع: أراه قال: وظهرها - قال: قلت: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا

(١) هي المذكورة في الحديث المتقدم برقم ٤٨٣٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٣٧٦ والنسائي ٧٠/٨ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وصححه الحاكم ٣٨٣/٤ ووافقه الذهبي، وإسناده حسن للخلاف المعروف في رواية عمرو بن شعيب عن آبائه. وفي الباب من حديث ابن مسعود عند أبي يعلى ٥٤٠١، فيه العباس بن الفضل والحجاج بن أرطاة، وكلاهما ضعيف. ومن حديث علي أخرجه أبو يعلى ٣٢٨ وإسناده ضعيف لجهالة أبي مطر. انظر «مجمع الزوائد» ٢٥٩/٦.

(٤) هذا حديث حسن، له شواهد وطرق عدة. انظر: النسائي ٨/٧٦ وابن حبان ٤٣٩٧ والترغيب ٣٢٢٧.

رَأْفَةً فِي بَيْنِ اللَّهِ، قال: يا بُنَيَّ، ورأيتني أخذتني بها رافة؟ إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدَها في رأسها، وقد أوجعت حيث ضربت. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: فافعلوا ذلك، أقيموا الحدودَ على من زنى، وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مُبرحاً؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك.

[٤٨٣٩] وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: «يا رسول الله، إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها. فقال: ولك في ذلك أجر»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدًا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقيماً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حُضوراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: علانية. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الطائفة: الرجلُ فما فوقه. وقال مجاهد: الطائفة: رجل إلى ألف. وكذا قال عكرمة، ولهذا قال الإمام أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد. وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان، وبه قال إسحاق بن راهويه. وكذا قال سعيد بن جبير: ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: يعني رجلين فصاعداً. وقال الزهري: ثلاثة نفر فصاعداً.

وقال عبد الرزاق: حدثني ابن وهب، عن الإمام مالك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: الطائفة أربعة نفر فصاعداً، لأنه لا يكون شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً. وبه قال الشافعي، وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصري: عشرة. وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، أي: نفر من المسلمين، ليكون ذلك موعظة وعبرة وتكالفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا بقيق قال: سمعت نصر بن علقمة في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: ليس ذلك للفضيحة، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطأوه على مُرادِهِ من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ﴾، أي: عاص بزناه، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾، لا يعتقد تحريمه. قال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، قال ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك. وهذا إسناد صحيح عنه. وقد روي عنه من غير وجه أيضاً. وقد روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، والضحاك، ومكحول، ومقاتل بن حيان، وغير واحد، نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تعاطيه والتزويج بالبعايا، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا قيس، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: حرم الله الزنا على المؤمنين. وقال قتادة، ومقاتل بن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البعايا، وتقدم في ذلك فقال: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ

مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّحِدَاتٍ أَخْدَانُ» [النساء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّحِدِينَ أَخْدَانُ﴾ [المائدة: ٥]... الآية. ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - إلى أنه لا يَصِحُّ العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تُسْتَتَابَ، فإن تابَت صَحَّ العقدُ عليها وإلا فلا، وكذلك لا يَصِحُّ تزويجُ المرأةِ الخُرَّةِ العفيفةِ بالرجل الفاجر المُسَافِحِ، حتى يتوبَ توبةً صَحيحةً، لقوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[٤٨٤٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا مُعْتَمِرُ بن سليمان قال: قال أبي، حدثنا الحَضْرَمِيُّ، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أَنَّ رَجُلًا من المسلمين استأذَنَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - في امرأة - يقال لها: أم مهزُولٍ - كانت تُسَافِحُ، وتُشترطُ له أن تُنْفِقَ عليه - قال فاستأذَنَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أَوْ: ذَكَرَ له أمرُها - قال: فَقَرَأَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللَّهِ - ﷺ -: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾^(١).

[٤٨٤١] وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحَضْرَمِيِّ؛ عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: أم مهزُولٍ، وكانت تُسَافِحُ، فأراد رجلٌ من أصحاب رسول الله - ﷺ - أن يتزوجها، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

[٤٨٤٢] قال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا رَوْحُ بن عُبَادَةَ، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن الأخنس، أخبرني عمرو بن شُعَيْبٍ، عن أبيه، عن جَدِّهِ قال: كان رجلٌ يُقَالُ له: مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَدٍ، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة. قال: وكانت امرأة بَغِيٌّ بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقةً له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يَحْمِلُهُ. قال: ففجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظِلِّ حائطٍ من حوائطِ مَكَّةَ في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عَنَاقُ فابصرتُ سَوَادَ ظِلِّ تَحْتَ الحَائِطِ، فلما انتهتُ إِلَيَّ عَرَفْتَنِي، فقالت: مَرْثَدُ؟ فقلت: مَرْثَدُ. فقالت: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ فَبِتْ عندنا الليلة. قال: فقلتُ: يا عناق، حَرَّمَ الله الزنا. فقالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحملُ أسْرَاكُم، قال: فتبعتني ثمانية ودخلتُ الْخَنْدَمَةَ^(٣)، فأنتهيتُ إلى غار - أَوْ: كَهْفٍ فدخلتُ فيه، فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فَطَلَّ بولُهُم على رأسي، فأعماهم الله عَنِّي. قال: ثم رَجَعُوا وَرَجَعْتُ إلى صاحبي فَحَمَلْتُهُ، وكان رجلاً ثَقِيلاً، حتى انتهيتُ إلى الإِذْخَرِ، ففككت عنه أَكْبَلَهُ، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُغَيِّبُنِي، حتى قَدِمْتُ المدينة، فأتيتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فقلت: يا رسول الله، أُنكِحُ عَنَاقًا؟ - مرتين - فأمسك رسول الله - ﷺ - فلم يرد عَلَيَّ شيئاً، حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤). فقال رسول الله - ﷺ -: «يا مَرْثَدُ، ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، فلا تَنْكِحُهَا»^(٥). ثم قال الترمذي: هذا حديث حسنٌ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١٥٩/٢ وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٧٩ وأحمد ٢٢٥/٢ والطبري ٢٥٧٤٢ والبيهقي ١٥٣/٧ وصححه الحاكم ١٩٣/٢ - ١٩٤ ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧٤/٧: رجال أحمد ثقات.

(٣) الخندمة: جبل بمكة.

(٤) جيد. أخرجه أبو داود ٢٠٥١ والترمذي ٣١٧٧ والنسائي في «الكبرى» ٥٣٣٨ والبيهقي ١٥٣/٧. وأخرجه الحاكم ١٦٦/٢ مختصراً وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود والنسائي، في كتاب النكاح من سُنَّيهما، من حديث عُبَيْد الله بن الأخنس به.

[٤٨٤٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُسَدَّد أبو الحسن، حدثنا عبد الوارث، عن حَبِيب المعلم، حَدَّثَنِي عمرو بن شُعَيْب، عن سَعِيدِ المَقْبَرِيِّ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يَنْكَحُ الزَّانِي المَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ»^(١). وهكذا أخرجه أبو داود في سُنَّته عن مُسَدَّد وأبي مَعْمَر - عبد الله بن عمرو - كِلَاهُمَا عن عبد الوارث، به.

[٤٨٤٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن أخيه عُمَرُ بن محمد، عن عبد الله بن يَسَّار - مولى ابن عمر - قال: أشهد لَسَمِعْتُ سَالِمًا يَقُولُ: قال عبدُ الله: قال رسول الله - ﷺ -: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لَوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ - المتشبهة بالرجال - والدُّبُوثُ. وثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لَوَالِدَيْهِ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْمَثَانُ بِمَا أُعْطِيَ»^(٢). ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفُلَّاس، عن يزيد بن زُرَيْع، عن عُمَرُ بن محمد العُمَرِي، عن عبد الله بن يَسَّار، به.

[٤٨٤٥] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا الوليد بن كثير، عن قُطَن بن وهب بن عُويمِر بن الأجدع، عَمَّن حَدَّثَهُ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بن عمر أن رسول الله - ﷺ -: قال: «ثَلَاثَةٌ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُ، والدُّبُوثُ الَّذِي يُقْرِئُ فِي أَهْلِهِ الْحَبْثَ»^(٣).

[٤٨٤٦] وقال أبو داود الطيالسي في مُسْنَدِهِ: حدثنا شعبة، حَدَّثَنِي رجل من آل سهل بن حُنَيْف، عن محمد بن عَمَّار، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دُبُوثٌ»^(٤). يُسْتَشْهَدُ بِهِ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

[٤٨٤٧] وقال ابن ماجه: حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا سَلَامٌ بن سَوَّار، حدثنا كَثِير بن سُلَيْم، عن الضَّحَّاكِ بن مَرْحَم: سَمِعْتُ أَنَسَ بن مالك يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -: يقول: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِراً مُطَهَّراً فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَّاءَ»^(٥). في إسناده ضعف. قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري في كتاب «الصَّحَاحِ» في اللغة: الدُّبُوثُ الفَنْدُوع، وهو الذي لَا غَيْرَةَ لَهُ.

[٤٨٤٨] فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب النكاح من سُنَّته: أخبرنا

(١) أخرجه أبو داود ٢٠٥٢ وأحمد ٣٢٤/٢ والطحاوي في «المشكّل» ٤٥٤٨ و٤٥٤٩ وصححه الحاكم ١٦٦/٢ ووافقه الذهبي وإسناده قوي رجاله ثقات وانظر صحيح أبي داود ١٨٠٧.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٣٤/٢ والنسائي ٨٠/٥ والطبراني ١٣١٨٠ من طرق عن عمر بن محمد به. وأخرجه ابن حبان ٧٣٤٠ والبيهقي ٣٨٨/٨ من طريق عمر بن محمد مختصراً، وإسناده صحيح، وله شواهد.

(٣) أخرجه أحمد ٢٩/٢ و١٢٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٢٧/٤: وفيه راوٍ لم يسم، وبقي رجاله ثقات. وللحديث شواهد تقويه.

(٤) أخرجه الطيالسي ٦٤٢ وفي إسناده راوٍ لم يسم، لكن ذكره المصنف شاهداً لما قبله.

(٥) ضعيف جداً. أخرجه ابن ماجه ١٨٦٢ وابن عدي ٣/٣ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٦١/٢ وأعله بقوله: كثير، متروك، قاله النسائي، وسلام قال عنه ابن عدي: منكر الحديث اهـ وأعله البوصيري في الزوائد والهيثمي في «المجمع» ١/٥٩٨ بكثير وسلام أيضاً اهـ.

محمد بن إسماعيل بن عُليّة، عن يزيد بن هارون، عن حمّاد بن سَلَمَة وغيره، عن هارون بن رِثاب، عن عبد الله بن عُبيد بن عمير؛ وعبد الكريم، عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير عن ابن عباس - عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس، وهارون لم يرفعه - قالوا: جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: إنّ عندي امرأة من أحبّ الناس إليّ، وهي لا تمنع يد لأمس، قال: طَلَّقْهَا. قال: لا صَبْرَ لي عنها. قال: استمتع بها^(١). ثم قال النسائي: هذا الحديث غير ثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون أثبت منه، وقد أرسل الحديث وهو ثقة، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم. قلت: هو ابن أبي المخارق البَصْرِيّ المؤدّب، تابعي ضعيف الحديث، وقد خالفه هارون بن رِثاب، وهو تابعي ثقة من رجال مسلم، فَحَدِيثُ الْمُرْسَلِ أَوْلَى كما قال النسائي. لكن قد رَوَاهُ النسائي في كتاب الطلاق، عن إسحاق بن إبراهيم ابن راهويّه، عن النضر بن شَمِيل، عن حمّاد بن سَلَمَة، عن هارون بن رِثاب، عن عبد الله بن عُبيد بن عمير، عن ابن عباس مسنداً، فذكره، فهذا بهذا الإسناد رجّاه على شَرَطِ مسلم، إلا أن النسائي بعد روايته له قال: «وهذا خطأ، والصواب مرسل، ورواه غير النضر على الصواب».

[٤٨٤٩] وقد رواه النسائي أيضاً وأبو داود، عن الحسين بن حُرَيْث، أخبرنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحُسَيْن بن واقد، عن عُمارة بن أبي خَفْصَة، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - فذكره^(٢). وهذا إسناد جيد. وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مُضَعَّف له، كما تقدّم عن النسائي، وكما قال الإمام أحمد: هو حديث منكر. وقال ابن قُتيبة: إنما أراد أنها سَخِيَّة لا تمنع سائلاً. وحكاه النسائي في سنّته عن بعضهم فقال: وقيل: «سخية تعطي». ورّد هذا بأنه لو كان المراد لقال: لا تَرُدُّ يد ملتمس. وقيل: المراد إن سَجَّيْتُهَا لا تَرُدُّ يد لأمس، لا أن المراد أن هذا واقع منها، وأنها تفعل الفاحشة؛ فإن رسول الله - ﷺ - لا يَأْذُنُ في مُصَاحَبَة من هذه صفتها، فإن زوجها - والحالة هذه - يكون ذَيَّوْثاً، وقد تقدّم الوعيد على ذلك. ولكن لما كانت سَجَّيْتُهَا هكذا ليس فيها مُمَانَعَة ولا مُخَالَفَة لمن أرادها لو خلا بها أحد، أمره رسول الله - ﷺ - بفرأها، فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها، لأنّ محبته لها مُحَقَّقَة، ووقوع الفاحشة منها مُتَوَكَّم، فلا يُصَار إلى الضرر العاجل لتوهم الأجل، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

(١) حسن، أخرجه النسائي ٦٧/٦ والبيهقي ١٥٤/٧، وأعله النسائي بأن هارون بن رثاب أرسله، وهو أثبت من عبد الكريم بن أبي المخارق. لكن كرهه النسائي ١٧٠/٦ بإسناد على شرط مسلم، كما ذكر ابن كثير رحمه الله، ومع ذلك أعله النسائي بالإرسال، وخطأ فيه النضر بن شميل. ويأن غيره أرسله، وله طريق آخر سيأتي.

(٢) هذا إسناد جيد، كما قال الحافظ ابن كثير، وقد أخرجه النسائي ١٧٠/٦ بهذا الإسناد، وكذا البيهقي ١٥٤/٧ وسكت عنه النسائي، ولم يعله بالإرسال كسابقه. فهو حديث قوي، وقد أخرجه البيهقي ١٥٥/٧ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/٢٧٢ عن عبد الكريم الجزري عن أبي الزبير، وإسناده صحيح كما في تلخيص الحبير ٢٢٥/٣ ولم يعله ابن الجوزي بضعف واحد من رواته وإنما اعتمد كلام الإمام أحمد حيث قال في رواية الخلال عنه: لا يثبت عن رسول الله ﷺ، ليس له أصل. مع أن ابن الجوزي ذكر أنه قد رواه عبيد بن عمير وحسان بن عطية، مرسلًا. فلا يحسن الحكم عليه بالوضع، فإن المرسل وحده يكون ضعيفاً، فكيف وقد جاء موصولاً بأسانيد حسان. وجاء في تلخيص الحبير ٢٢٥/٣ ما ملخصه: أطلق النووي عليه الصحة، ولكن نقل ابن الجوزي عن أحمد أنه لا يثبت، وتمسك ابن الجوزي بهذا فأورده في الموضوعات مع أنه ساقه بإسناد صحيح اهـ. وله طريق آخر عن جابر أخرجه البيهقي ١٥٥/٧ وجاء في «اللائل المصنوعة» ١٧١/٢ - ١٧٢ - ١٧٣ ما ملخصه: قال المنذري: إسناده محتج بهم في الصحيح. وقال ابن حجر: هو حديث حسن صحيح، ولم يصب من قال إنه موضوع. وقال الحافظ الذهبي: إسناده صالح، وقد أطال الكلام عليه نقلاً في عامة ذلك عن ابن حجر.

قالوا: فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رَحِمَهُ اللهُ؛ حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن ابن أبي ذئب، قال: سَمِعْتُ شُعْبَةَ - مولى ابن عباس، رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ ابن عباس وسأله رجلٌ قال: إني كنتُ أَلِمْ بامرأة آتت منها ما حَرَّمَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عليّ، فَرَزَقَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - من ذلك توبةً، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا يَنْكِحُ إلا زانيةً أو مشركة. فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فَعَلَيْ. وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ذَكَرَ عنده: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، قال: كان يُقَالُ: نَسَخَتْهَا التي بعدها: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، قال: كان يُقَالُ الأيما من المُسْلِمِينَ. وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن المسيب ونَصَّ على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رَحِمَهُ اللهُ.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلَجِلْدُهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرّة البالغة العفيفة، فإذا كان المقدوف رجلاً فكذلك يُجلد قاذفه أيضاً، وليس في هذا نزاع بين العلماء، فأما إن أقام القاذف بينةً على صحته ما قاله درأ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلَجِلْدُهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. فأوجب على القاذف إذا لم يَقم بينةً على صحته ما قاله ثلاثة أحكام، أحدها: أن يُجلد ثمانين جلدَةً. الثاني: أنه تُردَّ شهادته أبداً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بِعَدْلٍ، لا عند الله ولا عند الناس.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥). اختلف العلماء في هذا الاستثناء: هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ أما الجلد فقد ذَهَبَ وانقضى، سواء تاب أو أصرَّ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف. فذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق. ونَصَّ عليه سعيد بن المسيب - سيّد التابعين - وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فترفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً. وممن ذَهَبَ إليه من السلف القاضي شريح، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبّير، ومكحول، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر. وقال الشعبي والضحاك: لا تُقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يَغْتَرِفَ على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تُقبل شهادته، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦) وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

هذه الآية الكريمة فيها فَرْجٌ للأزواج وزيادةٌ مخرج - إذا قذف أحدهم زوجته - وتَعَسَّرَ عليه إقامة البينة - أن يَلَاغِنَهَا، كما أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهو أن يُحْضِرَهَا إلى الإمام، فَيَدْعِيَّ عليها بما رماها به، فَيَحْلِفُهُ الحاكم أربعَ شهادات بالله في مُقَابَلَةِ أربعةَ شهداء، ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: فيما رماها به من الزنا، ﴿وَالْفَاسِقَةُ إِنَّهُ لَسَتَتْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحُرِّمَتْ عليه أبداً، ويُعْطِيهَا مَهْرَهَا، وَيَتَوَجَّهَ عليها حَدُّ الزنا، ولا يُدْرَأُ عنها إلا أن تَلَاحِنَ فتشهد أربعَ شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به، ﴿وَالْفَاسِقَةُ إِنَّهُ لَسَتَتْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ولهذا قال: ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ﴾، يعني: الحدَّ، ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾. ﴿وَالْفَاسِقَةُ إِنَّهُ لَسَتَتْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فُخِّصَهَا بالغضب، لأن الغالب أن الرجل لا يَتَجَسَّمُ فضيحة أهليه وَرَمِيَهَا بالزنا إلا وهو صادقٌ مَعْدُورٌ، وهي تَعْلَمُ صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غَضِبَ الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يَعْلَمُ الحق ثم يَحِيدُ عنه.

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه، وراقتهم بهم، وشَرَعَهُ لهم الفرج والمخرج من شِدَّةٍ ما يكون فيه من الضيق، فقال: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، أي: لَحَرِّجْتُمْ ولشَقَّ عليكم كثيرٌ من أموركم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ على عبادِهِ - وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المُعْلَظَةِ - ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه. وقد وردت الأحاديثُ بِمُقْتَضَى العَمَلِ بهذه الآية، وَذَكَرَ سَبَبَ نزولها، وَفِيْمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

[٤٨٥٠] فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا عباد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نَزَلَتْ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلَهُنَّ أَفْلَاحٌ وَلَهُنَّ أَفْلَاحٌ وَلَهُنَّ أَفْلَاحٌ وَلَهُنَّ أَفْلَاحٌ﴾، قال سعد بن عُبَادَةَ - وهو سَيِّدُ الأنصار - : أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله - ﷺ - : يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سَيِّدُكُمْ؟ قالوا: يا رسول الله، لا تَلْمِهُ فإنه رجلٌ غيورٌ، والله ما تَزَوَّجَ امرأةً قط إلا بكرةً، وما طلق امرأةً له قط فاجترأ رجلٌ منا أن يَتَزَوَّجَهَا، من شِدَّةِ غَيْرِيَّةٍ. فقال سعد: والله - يا رسول الله - إنني لأَعْلَمُ أنها حقٌّ، وأنها من الله، ولكنني قد تَعَجَّبْتُ أني لو وَجَدْتُ لَكَاعاً قد تَفَحَّذَهَا رجلٌ، لم يكن لي أن أَهَيِّجَهُ ولا أُحَرِّكَهُ حتى آتني بأربعة شهداء، فوالله لا آتني بهم حتى يَقْضِيَ حاجته. قال: فما لَيْسُوا إلا يسيراً حتى جاء هلالٌ بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تَيَّبَ عليهم - فجاء من أرضِهِ عِشَاءً، فوجدَ عند أهله رجلاً، فرأى بَقِينِيَّةً، وَسَمِعَ بأذنيه، فلم يَهْجِهِ حتى أَصْبَحَ، فَعَدَا على رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله، إنني جنثٌ أهلي عِشَاءً، فوجدتُ عندها رجلاً، فرأيت بِعَيْنِي وسمعتُ بِأُذُنِي. فَكَّرَ رسول الله - ﷺ - ما جاء به، واشتدَّ عليه. واجتمعت الأنصارُ فقالت: قد ابْتَلَيْنَا بما قال سعد بن عُبَادَةَ، الآن يَضْرِبُ رسول الله - ﷺ - هلالَ بن أمية، وَيَبْطِلُ شهادَتُهُ في الناس. فقال هلالٌ: والله إنني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً. وقال هلالٌ: يا رسول الله، إنني قد أرى ما اشتدَّ عليك مما جَنُثْتُ به، والله يَعْلَمُ إنني لَصَادِقٌ. فوالله إن رسول الله - ﷺ - يريد أن يأمر بِضَرْبِهِ إذ أنزل الله على رسول الله - ﷺ - الوحي، وكان إذا نَزَلَ عليه الوحي عرفوا ذلك، في تَرْبُيد وجهه، يعني فأمسكوا عنه حَتَّى فَرَّغَ من الوحي - فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَتْ أَلْسِنُهُمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ...﴾ الآية، فَسُرِّيَ عن رسول الله - ﷺ - فقال: أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل. فقال رسول الله - ﷺ - : أرسلوا إليها. فأرسلوا إليها، فجاءت فتلاها رسول الله - ﷺ - عليهما، وَذَكَرَهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله - يا رسول الله - لقد صَدَّقْتُ عَلَيْهَا. فقالت: كَذَبَ. فقال رسول الله - ﷺ - : لا عنوا

بينهما. فقيل لهلال: اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كان في الخامسة قيل له: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي تُوجب عليك العذاب. فقال: والله لا يُعَذِّبني الله عليها كما لم يُجْلِدني عليها. فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم قيل لها: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسة قيل لها: اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي تُوجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة، ثم قالت: والله لا أفصح قومي. فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرق رسول الله ﷺ - بينهما، وقضى أن لا يُدعى ولدُها لأب ولا يُرمى ولدُها، ومن رَمَاهَا أو رَمَى ولدُها فعليه الحد، وقضى ألا يبيت لها عليه ولا قوت لها، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: إن جاءت به أضيء أريء حَمَش الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جُمَالِيَا خَدْلَج الساقين سَابِغ الأكتين، فهو للذي رُييت به. فجاءت به أورق جعداً جُمَالِيَا خَدْلَج الساقين سَابِغ الأكتين^(١)، فقال رسول الله ﷺ -: لولا الأيمان لكان لي ولها شأن. قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يُدعى لأمه ولا يُدعى لأب^(٢). ورواه أبو داود عن الحسن بن علي، عن يزيد بن هارون، به نحوه مختصراً. ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة.

[٤٨٥١] فمنها ما قال البخاري: حدثني محمد بن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن هشام بن حسان، حدثني عكرمة، عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ - بشريك بن سحماء، فقال رسول الله ﷺ -: البينة أو حد في ظهرك. فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ - يقول: البينة وإلا حد في ظهرك. فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبئري ظهري من الحد. فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فانصرف النبي ﷺ - فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ - يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقَّعوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم. فمضت، فقال النبي ﷺ -: أبصروها. فإن جاءت به أكحل العينين، سَابِغ الأكتين، خَدْلَج الساقين، فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ -: لولا ما مَضَى مِن كِتَاب الله، لكان لي ولها شأن^(٣). انفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد رواه من غير وجه، عن ابن عباس وغيره.

[٤٨٥٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح - وهو ابن عمر - حدثنا عاصم - يعني ابن كليب - عن أبيه، حدثني ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله،

(١) أصيب: تصغير أصهب، وهو الذي تملو شعره حمرة مع اسوداد. والشيج: ما بين الكاحل إلى الظهر، والأثيج: النائم الشيج، وقيل: العريض الشيج. وأريسح: تصغير أرسح، وهو الذي لا عجز له. وحش الساقين: دقيقهما. والأورق: الأسمر. وجمالياً: ضم الأعضاء، مشبه بالجمال لعظمه وبيداته. خدلج الساقين: عظيمهما.

(٢) أخرجه أحمد ١/٢٣٨ - ٢٣٩ وأبو داود ٢٢٥٦ وأبو يعلى ٢٧٤٠، وإسناده ضعيف، لضعف عباد بن منصور ولاكثره شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٧ و٥٣٠٧ وأبو داود ٢٢٥٤ والترمذي ٣١٧٩ وابن ماجه ٢٠٦٧ والطحاوي في «المشكّل» ٢٩٦٢.

فَرَمَى امْرَأَتَهُ بِرَجُلٍ، فَكَرِهَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شَهَادَةٌ﴾، فَقَرَأَ حَتَّى فَرِغَ مِنَ الْآيَتَيْنِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا فِدْعَاهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ أَنْزَلَ فِيكُمَا قَدْخَا الرَّجُلِ فَقَرَأَ عَلَيْهِ، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأَمْسَكَ عَلَى فِيهِ قَوْعُظَهُ، فَقَالَ لَهُ: كُلُّ شَيْءٍ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ. ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ: ﴿لَعَنْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. ثُمَّ دَعَا بِهَا، فَقَرَأَ عَلَيْهَا، فَشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَأَمْسَكَ عَلَى فِيهَا قَوْعُظَهَا، وَقَالَ: وَيْحَكَ. كُلُّ شَيْءٍ أَهْوَنُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. ثُمَّ أَرْسَلَهَا، فَقَالَتْ: ﴿غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: أَمَا وَاللَّهِ لَا قَاضِيَيْنِ بَيْنَكُمَا قَضَاءُ فَصْلًا. قَالَ: فَوَلَدْتُ، فَمَا رَأَيْتُ مَوْلُودًا بِالْمَدِينَةِ أَكْثَرَ غَاشِيَةً مِنْهُ، فَقَالَ: إِنْ جَاءَتْ بِهِ لِكُذَا وَكَذَا فَهُوَ لِكُذَا. وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ لِكُذَا وَكَذَا فَهُوَ لِكُذَا. فَجَاءَ بِهِ يُشَبِّهُ الَّذِي قُذِفَتْ بِهِ^(١).

[٤٨٥٣] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ قَالَ: سُئِلْتُ عَنِ الْمُتَلَاعِنَيْنِ أَيْفَرَّقَ بَيْنَهُمَا؟ فِي إِمَارَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَمَا ذَرَيْتُ مَا أَقُولُ، فَقُمْتُ مِنْ مَكَانِي إِلَى مَنْزِلِ ابْنِ عُمَرَ فَقُلْتُ: أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، الْمُتَلَاعِنَانِ أَيْفَرَّقَ بَيْنَهُمَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! إِنْ أَوَّلَ مَنْ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَرَى امْرَأَتَهُ عَلَى فَاحِشَةٍ فَإِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ؟ فَسَكَتَ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَاهُ فَقَالَ: الَّذِي سَأَلْتِكَ عَنْهُ قَدْ ابْتَلَيْتَ بِهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - هَذِهِ الْآيَاتُ فِي سُورَةِ النُّورِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، حَتَّى بَلَغَ: ﴿أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فَبَدَأَ بِالرَّجُلِ قَوْعُظَهُ وَذَكَرَهُ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا كَذَبْتُكَ. ثُمَّ ثَنَّى بِالْمَرْأَةِ قَوْعُظَهَا وَذَكَرَهَا، وَأَخْبَرَهَا أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنَّهُ لِكَاذِبٌ. قَالَ: فَبَدَأَ بِالرَّجُلِ، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. ثُمَّ ثَنَّى بِالْمَرْأَةِ فَشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ. ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا^(٢). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ بِهِ، وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

[٤٨٥٤] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمَّادٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عَشِيَّةَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَحَدُنَا إِذَا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَقَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، وَاللَّهِ لَنْ أَصْبَحْتُ صَالِحًا لِأَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَحَدُنَا إِذَا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَقَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، اللَّهُمَّ احْكُم. قَالَ: فَأُنْزِلَتْ آيَةُ اللَّعَانِ، فَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوَّلَ مَنْ ابْتُلِيَ بِهِ^(٣). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ، فَزَوَاهُ مِنْ طُرُقٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مَهْرَانَ الْأَعْمَشِ، بِهِ.

[٤٨٥٥] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: جَاءَ عُومَيْرٌ إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَدِيٍّ فَقَالَ: سَلْ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -: أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ رَجُلًا

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٩٣ ح ٤ والترمذي ١٢٠٢ والنسائي في «التفسير» ٣٧٧ وأحمد ١٩/٢ و٤٢.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٩٥ وأبو داود ٢٢٥٣ والبيهقي ٤٠٥/٧ وابن حبان ٤٢٨١ وأحمد ٤٢١/١.

مع امرأته فقتله، أَيْقَتَلَ به أم كيف يَصْنَعُ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ - فَعَاب رسول الله ﷺ - الْمَسَائِلَ، قال: فَلَقيهِ عَوِيْمَر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت! إنك لم تأتني بخير؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال عويمر: والله لَأَتَيْن رسول الله ﷺ فَلَأَسأَلَنَّهُ. فَأَنَاه فَوَجَدَهُ قد أَنزَلَ عليه فيهما، قال: فَذَعَا بهما فَلَاغَنَ بينهما. قال عويمر: لئن انطلقتُ بها يا رسول الله لقد كَذَّبْتُ عليها. قال: ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ - فصارت سنة المتلاعنين، فقال رسول الله ﷺ -: أَبصروها فإن جاءت به أسْحَمَ أَذْعَجَ العَيْنَيْنِ عَظِيمِ الْآلَتَيْنِ، فلا أراه إلا قد صَدَقَ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَةٌ فلا أراه إلا كاذباً. فجاءت به على النعت المكروه^(١). أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي، ورواه البخاري أيضاً من طُرُق، عن الزهري، به فقال:

[٤٨٥٦] حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن سهل بن سعد أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أَرَأَيْتَ رجلاً رأى مع امرأته رجلاً أَيْقَتَلَهُ فَنَقَتْلُونَهُ أم كيف يفعل؟ فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله ﷺ: قد قُضِيَ فيكَ وفي امرأتِكَ قال: فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ، ففارقها، فكانت سنة أن يفرق بين المتلاعنين، وكانت حاملاً فَأَنكَرَ حملها، وكان ابنها يدعى إليها؛ ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه ما فرض الله لها^(٢).

[٤٨٥٧] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن زيد بن يثيع، عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ - لأبي بكر: لو رأيت مع أم رومان رجلاً، ما كنتُ فاعلاً به؟ قال: كنتُ والله فاعلاً به شراً. قال: فأنت يا عُمَرُ؟ قال: كنتُ والله قَاتِلَهُ، كنتُ أقول: لَعَنَ الله الْأَعْجَزَ، فإنه خبيثٌ قال: فَتَزَلْتُ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْزَنَى أَزْوَاجَهُمْ وَكُنُفَهُمْ يَوْمَ تُنْفَذُ﴾^(٣). ثم قال: لا نعلم أحداً أسَدَهُ إِلَّا النضر بن شميل، عن يونس بن أبي إسحاق. ثم رواه من حديث الثوري عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع مرسلًا، فالحق أعلم.

[٤٨٥٨] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمي، حدثنا مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: أَوَّلَ لِعَانٍ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ أَنَّ شَرِيكَ ابْنِ سَخْمَةَ قَذَفَهُ هَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ بِأَمْرَاتِهِ، فَزُفِعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فقال رسول الله ﷺ -: أَرْبَعَةُ شُهُودٍ وَإِلَّا فَحَدٌّ فِي ظَهْرِكَ. فقال: يا رسول الله، إن الله يعلم إنني لصادق، وَلَيَنْزِلَنَّ اللهُ عَلَيْكَ مَا يَبْرِيءُ به ظهري من الجلد. فأنزل الله آية الْلِعَانِ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْزَنَى أَزْوَاجَهُمْ وَكُنُفَهُمْ يَوْمَ تُنْفَذُ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ﴾، إلى آخر الآية. قال: فَذَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ - فقال: اشْهَدْ بالله إِنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فيما رَمَيْتَها بِهِ مِنَ الزَّنا، فَشَهِدَ بِذَلِكَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، ثم قال له في الخامسة: ولعنة الله عليك إن كنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فيما رَمَيْتَها بِهِ مِنَ الزَّنا، ففعل. ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: قومي فاشهدي بالله إنه لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فيما رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّنا، فَشَهِدَتْ بِذَلِكَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، ثم قال لها

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣٣٤/٥ وأخرجه البخاري ٤٧٤٥ ومسلم ١٤٩٢ ح ٢ و٣ وأبو داود ٢٢٤٧ و٢٢٤٨ وابن ماجه ٢٠٦٦ وابن حبان ٤٢٨٥ من طرق عن الزهري به.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٦ و٤٢٣ ومسلم ١٤٩٢ وأبو داود ٢٢٤٥ والنسائي ١٤٣/٦ - ١٤٤ وابن ماجه ٢٠٦٦ وأحمد ٣٣٦/٥ - ٣٣٧ وابن حبان ٤٢٨٥ من طرق عن الزهري به.

(٣) أخرجه البزار ٢٢٣٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧٤/٧ وقال: ورجاله ثقات.

قلت: فيه عننة ابن إسحاق، وهو مدلس، والراجح إرساله.

في الخامسة: وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكَ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّنَا. فقالت، فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة، حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفصح قومي سايرَ اليوم. فمضت على القول. ففرَّق رسول الله - ﷺ - بينهما، وقال: انظروا، فإن جاءت به جفداً حَمَشَ السَّاقِينَ فهو لِشَرِيكَ بن سَخَمَاء، وإن جاءت به أبيض سَبَطاً أَقَمَرُ قُضِي^(١) العيينين فهو لهلال بن أمية. فجاءت به آدم جفداً حَمَشَ السَّاقِينَ، فقال رسول الله - ﷺ -: «لولا ما نَزَلَ فِيهِمَا مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلِهَا شَانٌ»^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١)

هذه العشرُ الآيات كُلُّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حِينَ زَمَاهَا أَهْلُ الْإِفْكِ وَالبُهْتَانِ مِنَ الْمَنَافِقِينَ بِمَا قَالُوهُ مِنَ الْكُذِبِ الْبَحْثِ وَالْفِرْيَةِ الَّتِي غَارَ اللهُ تَعَالَى لَهَا وَلِنَبِيِّهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَأَنْزَلَ بِزَوَائِهَا صِيَانَةَ لِعِزِّهِ الرُّسُولِ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾، أَي: جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ، يَعْنِي مَا هُوَ وَاحِدٌ وَلَا اثْنَانِ بَلْ جَمَاعَةٌ، فَكَانَ الْمَقْدَمُ فِي هَذِهِ اللَّعْنَةِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَنٍ سَلُولُ رَأْسُ الْمَنَافِقِينَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، حَتَّى دَخَلَ ذَلِكَ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَتَكَلَّمُوا بِهِ، وَجَوَّزَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ قَرِيباً مِنْ شَهْرٍ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَسَيَأْتِي ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.

[٤٨٥٩] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزَّهْرِيِّ: قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَغُرُورُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ، وَغُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ - ﷺ - حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، قَبَرَاهَا اللهُ تَعَالَى، وَكُلُّهُمْ قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَةٍ مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ وَأَثَبَتْ اقْتِصَاصاً، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يَصْدُقُ بَعْضاً: ذَكَرُوا أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَوْعَرَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَتَيْتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَوْعَرَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، وَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأَنْزَلَ فِيهِ مَسِيرَنَا، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - مِنْ غَزْوِهِ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ أَذَّنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ أَذْنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عَقْدٌ مِنْ جَزَعٍ ظَفَارٌ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ. وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرَحِّلُونَ بِي فَحَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أُرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ - قَالَتْ: وَكَانَ النِّسَاءُ إِذَا ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُهَيِّلُنَّ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ. فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ يُقَالُ الْهُودُجُ حِينَ رَحَلُوهُ وَزَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبِعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ. فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَنِي عَيْنِي فَنِمْتُ. وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ

(١) القاضي: طويل شعر العيينين، ليس بمفتوح العيينين، ولا جاحظهما والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٢٨٢٤ والنسائي ١٧٢/٦ و١٧٣ وإسناده صحيح. وأخرجه مسلم ١٤٩٦ والنسائي ١٧١/٦.

والبيهقي ٤٠٦/٧ من طريق هشام به.

المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فاذلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأيته وقد كان يراني قبل أن يضرب علي الجباب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخرمت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطيء على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤجرين في نحر الظهيرة. فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي سلول. فقدمت المدينة فاشتكيته حين قدمنا شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني في وجهي أني لا أعرف من رسول الله - ﷺ - اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله - ﷺ - فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذلك يريني ولا أشعر بالشئ، حتى خرجت بعد ما نعت، وخرجت معي أم مسطح قتل المناصب - وهو متبرزنا - ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأما ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عبادة بن المطلب - فاقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فتمرت أم مسطح في مزلطها، فقالت: «فيس مسطح». فقلت لها: بشما قلت! تسين رجلاً قد شهد بدرًا؟ قالت: أي هتاه، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فزددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله - ﷺ - فسلم، ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حيث أريد أن أتقن الخبر من قبليهما - فأذن لي رسول الله - ﷺ - فجنث أبوي فقلت لامي: يا أمته، ما يتحدث الناس؟ قالت: أي بيته، مؤني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضينة عند رجل يحبها، ولها ضراير، إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله! أوقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، فدعا رسول الله - ﷺ - علياً، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله - ﷺ - بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيّق الله عليك، والنساء سيواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدق الخبر. قالت: فدعا رسول الله - ﷺ - بريزة، فقال: أي بريزة هل رأيت من شيء يريك من عائشة؟ فقالت له بريزة: والذي بعتك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثه السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله - ﷺ - فاستعذر من عبد الله بن أبي سلول، قالت: فقال رسول الله - ﷺ - وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من يعيذني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعيذك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: لعمرك لا تقتله، ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرك الله لقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله - ﷺ - قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله - ﷺ - يخفضهم حتى سكثوا وسكت رسول الله - ﷺ - قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبوي

يُظَنُّ أَنْ الْبُكَاءَ فَالِقَ كَيْدِي. قالت: فبينما هُما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي. فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله - ﷺ - فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليّ في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله - ﷺ - حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت لمنت بذنب فاستغفري الله ثم توبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله - ﷺ - مقالته قلص دمعي، حتى ما أجز منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله - ﷺ - فقال: والله ما أدري ما أقول للرسول! فقلت لأبي: أجيبي عني رسول الله - ﷺ - فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله! قالت: فقلت، وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا، حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أنني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله عز وجل - يعلم أنني بريئة - تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حيثيذا أعلم أنني بريئة، وأن الله مبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحى يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - ﷺ - في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله - ﷺ - من مجليسه ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله على نبيّه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان، من العرق في اليوم الثاني، من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت: فلما سرتي عن رسول الله - ﷺ - وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك. فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمّد إلا الله - عز وجل - هو الذي أنزل براءتي. وأنزل الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾، عشر آيات، فانزل الله هذه الآيات براءتي. قالت: فقال أبو بكر - رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح لقرايته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. فانزل الله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَأْتِيكُمُ الْفِتْنَةُ مِنْ فِتْنَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا يُبَيِّنُ اللَّهُ لُكُومَهُمْ﴾، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغير الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله - ﷺ - سأل زينب بنت جحش زوج النبي - ﷺ - عن أمري: ما علمت، أو: ما رأيت، أو: ما بلغك؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمنّي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تُسأليني من أزواج النبي - ﷺ - فعصمها الله تعالى بالوزع، وطيفت أختها حمّة بنت جحش تُحارب لها، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرُفِط^(١). أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث الزهري. وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري كذلك، قال: وحدثني يحيى بن عبد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة - وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم.

[٤٨٦٠] ثم قال البخاري: وقال أبو أسامة، عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما دُكر من شأني الذي دُكر وما علمت به قام رسول الله - ﷺ - فيّ خليطياً، فتشهد فحمد

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٦١ و ٤٧٥٠ ومسلم ٢٧٧٠ والنسائي في «التفسير» ٣٨٠ وأحمد ١٩٤/٦.

الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أما بعد أُنَبِّئُوكَ عَلَيَّ فِي أَنْاسِ ابْنِوَا أَهْلِي، وَإِيْمُ اللهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنُوهُمْ بِمَنْ وَاللهُ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غَيْبٌ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِيَ. فقام سعدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ فقال: ائِذْنِ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تُضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ. فقام رجلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ - وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتُ ثَابِتٍ مِنْ رَهْطِ ذَلِكَ الرَّجُلِ - فقال: كَذَبْتَ، أَمَا وَاللهِ لَوْ كَانُوا مِنَ الْأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ. حتى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَرٌّ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَا عَلِمْتُ. فلما كَانَ مَسَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِيَ أُمُّ مِسْطَحٍ، فَعَثَرْتُ فَقَالَتْ: تَعَسَّ مِسْطَحُ! فَقُلْتُ: أَيُّ أُمِّ، تَسْبِيحُ ابْنِكَ؟! وَسَكَنْتُ، ثُمَّ عَثَرْتُ الثَّانِيَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَّ مِسْطَحُ! فَقُلْتُ لَهَا: أَيُّ أُمِّ، تَسْبِيحُ ابْنِكَ؟! ثُمَّ عَثَرْتُ الثَّالِثَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَّ مِسْطَحُ! فَانْتَهَرْتُهَا فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا أَسْبَهُ إِلَّا فِيكَ، فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: قَبَّرْتُ لِي الْحَدِيثَ. فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَاللهِ. فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي كَانَ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَوُعِيتُ، وَقُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ - ﷺ -: أَرْسِلْنِي إِلَى بَيْتِ أَبِي. فَارْسَلْ مَعِيَ الْغَلَامَ، فَدَخَلْتُ الدَّارَ، فَوَجَدْتُ أُمَّ زُرْمَانَ فِي السُّفْلِ، وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَقَالَتْ أُمِّي: مَا جَاءَ بِكَ يَا بَنِيَّةُ؟ فَأَخْبَرْتُهَا، وَذَكَرْتُ لَهَا الْحَدِيثَ، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي، فَقَالَتْ: يَا بَنِيَّةُ، خَفْنِي عَلَيْكَ الشَّانَ؛ فَإِنَّهُ - وَاللهِ - لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسَنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَاهَا، وَقِيلَ فِيهَا. فَقُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَرَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ. فَاسْتَغْبِزْتُ وَبَكَيْتُ، فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي، وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَتَنَزَّلَ فَقَالَ لَأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَّغَهَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ شَأْنِهَا. ففَاضَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: أَنْسَمْتُ عَلَيْكَ - أَيُّ بَنِيَّةُ - إِلَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِكَ. فَرَجَعْتُ، وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - بَيْتِي، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَا وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا، إِلَّا أَنَّهَُا كَانَتْ تَرْتَدُّ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلُ خَمِيرَهَا أَوْ: عَجِينَهَا، وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اصْطَدَّقِي رَسُولُ اللهِ ﷺ. حَتَّى اسْقَطُوا لَهَا بِهِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ! وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى يَدِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ. وَبَلَغَ الْأَمْرُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ. وَاللهِ مَا كَشَفْتُ كَتَفَ أَنْثَى قَطُّ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ. قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبُو بَكْرٍ عِنْدِي، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ وَقَدْ اكْتَفَنِي أَبُو بَكْرٍ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَحَمِدَ اللهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنْ كُنْتُ قَارَأْتِ سُوءًا أَوْ ظَلَمْتِ فِتْوِي إِلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ. قَالَتْ: وَقَدْ جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فِيهَا جَالِسَةٌ بِالْبَابِ، فَقُلْتُ: أَلَا تَسْتَجِي مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَذَكَّرَ شَيْئًا؟! فَوَعَّظَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَاَلْتَفْتُ إِلَى أَبِي فَقُلْتُ: أَجِبْنِي. قَالَ: فَمَاذَا أَقُولُ؟ فَالْتَفْتُ إِلَى أُمِّي فَقُلْتُ: أَجِيبْنِي. قَالَتْ: أَقُولُ مَاذَا؟ فَلَمَّا لَمْ يَجِيبْنِي تَشْهَدْتُ فَحَمِدْتُ اللهَ وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا بَعْدُ، فَوَاللهِ لَأَنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ، مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ، لَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِهِ، وَأَشْرَيْتُهُ قُلُوبُكُمْ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ، لَتَقُولُنَّ: قَدْ بَاءَتْ بِهِ عَلَى نَفْسِهَا، وَإِنِّي - وَاللهِ - مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا - وَالتَّمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ - إِلَّا أَبَا يَوْمَسَفٍ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَهَيَّوْنَ﴾، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ - ﷺ - مِنْ سَاعَتِهِ، فَسَكَنَّا، فَرَفَعَ عَنْهُ وَإِنِّي لَأَتَّبِعُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ: أُبَشِّرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكَ. قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ: قَوْمِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: لَا، وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُهُ وَلَا أَحْمَدُكُمْ، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي، فَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ. وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: أَمَا زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقَدْ غَضَمَهَا اللهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ. وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ. وَأَمَّا الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي ابْنِ

سَلُولُ فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبَرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَخَمْنَةُ. قَالَتْ: وَخَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَا يَنْفَعُ مِسْطَحًا بِنَافِعَةَ أَبَدًا، فَاَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ يعني أبا بكر، ﴿وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتَى أُولَى الْقُرْبَى وَالْمُسْكِينِ﴾، يعني مِسْطَحًا، إلى قوله: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله يا رُبَّنَا، إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. وعاد له بما كان يصنع^(١). هكذا رواه البخاري من هذا الوجه مُعَلِّقًا بِصِغَةِ الْجَزْمِ، عن أَبِي أُسَامَةَ حَمَّادِ بْنِ أُسَامَةَ أَحَدِ الْأَثَمَةِ الثَّقَاتِ. وقد رواه ابنُ جُرَيْرٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ سَفْيَانَ بْنِ وَكَيْعٍ، عَنْ أَبِي أُسَامَةَ، بِهِ مُطَوَّلًا، مِثْلَهُ أَوْ نَحْوَهُ. ورواه ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْأَشْجِيِّ، عَنْ أَبِي أُسَامَةَ بِبَعْضِهِ.

[٤٨٦١] قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ جَاءَنِي النَّبِيُّ - ﷺ - فَأَخْبَرَنِي بِذَلِكَ، فَقُلْتُ: بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِكَ^(٢).

[٤٨٦٢] وقال الإمام أحمد: حدثني ابنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عُمَرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي قَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَذَكَرَ ذَلِكَ، وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ فَنُصِرُوا حَدَهُم^(٣). وأخرجه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». ووقع عند أبي داود تسميتهم: حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ، وَخَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ^(٤). فهذه طرقٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فِي الْمَسَانِيدِ وَالصِّحَاحِ وَالسَّنَنِ وَغَيْرِهَا.

[٤٨٦٣] وقد رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّهَا أُمِّ رُوْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ، أَخْبَرَنَا خُصَيْنٌ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُوْمَانَ قَالَتْ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ عَائِشَةَ إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَتْ: فَعَلَّ اللَّهُ بِابْنِهَا وَفَعَلَ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَمْ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ الْحَدِيثَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَأَيُّ حَدِيثٍ؟ قَالَتْ: كَذَا وَكَذَا. قَالَتْ: وَقَدْ بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: وَيَبْلُغُ أبا بكر؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَخَرَّتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - مَعْشِيًّا عَلَيْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَى بِنَافِضٍ^(٥). قَالَتْ: فَقَمِثْتُ فَنَذَرْتَهَا، قَالَتْ: وَجَاءَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَقَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذْتُهَا حُمَى بِنَافِضٍ. قَالَ: فَلَعَلَّهُ فِي حَدِيثٍ تُحَدِّثُ بِهِ. قَالَتْ: فَاسْتَوَتْ عَائِشَةُ قَاعِدَةً فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَئِنْ خَلَفْتُ لَكُمْ لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ اعْتَذَرْتُ إِلَيْكُمْ لَا تَعِذُّرُونِي، فَمَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ فَصَبِرَ جَمِيلٌ ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. قَالَتْ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَاَنْزَلَ اللَّهُ عُذْرَهَا، فَزَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَدَخَلَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ عُذْرَكَ. فَقَالَتْ: بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِكَ. فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: تَقُولِينَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَكَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ الْحَدِيثَ رَجُلٌ كَانَ يَعْمَلُهُ أَبُو بَكْرٍ. فَخَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَا يَصِلُهُ، فَاَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾... إلى آخر الآية، قَالَ أَبُو

(١) أخرجه البخاري ٤٧٥٧ معلقاً بصيغة الجزم، ووصله الطبري ٢٥٨٥٧ كما ذكر المصنف.

(٢) أخرجه أحمد ٣٠/٦ وابن حبان ٧١٠٢ وإسناده حسن.

(٣) أخرجه أحمد ٣٥/٦ وأبو داود ٤٤٧٤ والترمذي ٣١٨٠ والنسائي في «الكبرى» ٧٣٥١ وابن ماجه ٢٥٦٧ والبيهقي ٨/٢٥٠، وفي إسناده ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، ولم يثبت أنه حدهم.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٤٧٥ عن محمد بن إسحاق مرسلًا. وأخرجه أبو يعلى ٤٩٣٢ عن عروة مرسلًا.

(٥) النافض: حمى الرُعْدَةِ.

بكر: بلى. فَوَصَلَهُ^(١). تَقَرَّدَ به البخاري دون مُسلم، من طريق حُصَيْن. وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل، عن أبي عَوَانَةَ - وعن محمد بن سلام، عن محمد بن قُضَيْل - كلاهما عن حُصَيْن، به. وفي لفظ أبي عَوَانَةَ: «حدثني أم رومان». وهذا صريح في سَمَاعِ مَسْرُوقٍ منها، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ، منهم الخطيبُ البغدادي، وذلك لما ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّارِيخِ أَنَّهَا مَاتَتْ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ - ﷺ - قال الخطيب: «وقد كان مَسْرُوقٌ يُرِيبُهُ فَيَقُولُ: «سُئِلْتُ أُمُّ رومان»، وَيَسْوَقه، فَلَعَلَ بَعْضَهُمْ كَتَبَ «سُئِلْتُ» بِالْف، فاعتقد الراوي أنها «سَأَلْتُ»، فَظَنَّهُ مُتَّصِلًا، قال الخطيب: «وقد رَوَاهُ البخاري كذلك، ولم تظهر له عِلَّتُهُ». كذا قال، والله أعلم. ورواه بعضهم عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، عن أم رومان، فإله أعلم.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾، أي: بِالْكَذِبِ وَالبُهْتِ والافتراء، «عُصْبَةٌ»، أي: جماعة منكم، «لَا تَنْصِبُوهُ نُنْزَالًا لَكُمْ»، يا آل أبي بكر، «بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»، أي: في الدنيا والآخرة، لِسَانُ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا، وَرَفْعَةٌ مَنَازِلَ فِي الْآخِرَةِ، وإظهارُ شَرَفٍ لَهُمْ بِاعْتِنَاءِ اللَّهِ بِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [نصحت: ٤٢]، ولهذا لما دَخَلَ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنه - وهي في سِيَّاقِ المَوْتِ، قال لها: أَبْشِرِي، فَإِنَّكَ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وكان يُحِبُّكَ، ولم يَتَزَوَّجْ بِكَرًا غَيْرَكَ، وَنَزَلَتْ بِرَأَاةِكَ مِنَ السَّمَاءِ.

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثني محمد بن عثمان الواسطي، حدثنا جعفر بن عون، عن الْمُعَلَّى ابن عِزْفَانَ، عن محمد بن عبد الله بن جَحْشٍ قال: تَفَاخَرَتِ عَائِشَةُ وَزَيْنَبُ - رضي الله عنهما - فقالت زينب: أنا التي نَزَلَ تَزْوِيجِي مِنَ السَّمَاءِ، قال: وقالت عائشة: أنا التي نَزَلَ عُذْرِي فِي كِتَابِهِ، حين حَمَلَنِي ابْنُ الْمُعَطَّلِ عَلَى الرَّاحِلَةِ. فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلت حين رَكِبْتِهَا؟ قالت: قلت: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. قالت: قَلْبُ كَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾، أي: لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَةِ وَرَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَةِ، نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَذَابِ. «وَالَّذِي قَوْلُكَ كِبَرُهُ مِنْهُمْ»، قيل: ابتداءً به. وقيل: الذي كان يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ وَيُذِيعُهُ وَيُشِيعُهُ، «لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»، أي: على ذلك. ثم الأكثرون على أَنَّ المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي ابن سلُولٍ - قُبْحُهُ اللَّهُ وَلَعْنُهُ - وهو الذي تَقَدَّمَ النَّصُّ عَلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ. وقال ذلك مجاهدٌ وغير واحد. وقيل: بل المرادُ به حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ. وهو قولٌ غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ لِمَا كَانَ لِإِيرَادِهِ كِبَرٍ فَائِدَةٍ، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يَدُبُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِشِعْرِهِ.

[٤٨٦٤] وهو الذي قال له رسول الله - ﷺ - : «هاجهم وجبريلُ معك»^(٢).

[٤٨٦٥] وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مَسْرُوقٍ قال: كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - فَدَخَلَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ، فَأَمَرَتْ فَأَلْقَى لَهُ وَسَادَةً، فَلَمَّا خَرَجَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ: مَا تَصْنَعِينَ بِهِذَا؟ يَدْخُلُ عَلَيْكَ ١٩ - وفي رواية قيل لها: أَنَاذِنِينَ لِهَذَا يَدْخُلُ عَلَيْكَ - وقد قال الله: «وَالَّذِي قَوْلُكَ كِبَرُهُ مِنْهُمْ لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» ١٩ - قالت: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى - وكان قد ذَهَبَ بِصَرِّهِ - لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ هُوَ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ. ثم قالت: إنه

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٨٨ و٤١٤٣ والطيالسي ١٦٦٥ وأحمد ٣٦٧/٦ و٣٦٨ وابن حبان ٧١٠٣.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٨٧.

كَانَ يُنَافِعُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وفي رواية أنه أنشدّها عندما دخل عليها شعراً يمتدحها به، فقال:

حَصَانٌ زَرَأَ مَا تُزَنُّ بِرَيْبَةٍ وَتُضْبِحُ غَرْزِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ^(١)

فقلت: أما أنت فلست كذلك. وفي رواية: لكنك لست كذلك^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن قَزَعَةَ، حدثنا سلمة بن عُلَقَمَةَ، حدثنا داود، عن عامر، عن عائشة أنها قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان، ولا تمثّلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان، يعني ابن الحارث بن عبد المطلب:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا، فَأَجَبْتُ عَنْهُ
فَإِنْ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِزُّي
أَتَشْتُمُهُ، وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ^{١٩}
لِسَانِي صَارَ لَا غَيْبَ فِيهِ
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءِ
لِعِزِّ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءِ
فَسَرُّكُمْ لَخَيْرِكُمْ الْفِئَاءِ
وَبَخْرِي لَا تُكَذِّرُهُ الدَّلَاءُ

ف قيل: يا أم المؤمنين، أليس هذا لغوا؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء، قيل: أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَمِينِهِ لَكُنَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قالت: أليس قد أصابه عظيم؟ قد ذهب بصره وكُنِعَ بالسيف. تعني الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل، حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك، فعلاه بالسيف، وكاد أن يقتله.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾^(٢٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ^(٢٣) ﴿

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قضية عائشة - رضي الله عنها - حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك، فقال: ﴿لَوْلَا﴾، بمعنى هلاً ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، أي: ذلك الكلام الذي رُميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأُم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. وقد قيل: إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامراته - رضي الله عنهما - كما قال الإمام محمد بن إسحاق ابن يسار، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار: أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك للكَذِبِ، أكنيت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك. فلما نزل القرآن ذكر الله - عز وجل - من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾، وذلك حسان وأصحابه، الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ الآية، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبه.

وقال محمد بن عمر الواقدي: حدثني ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن أبي سفيان، عن أفلح مولى أبي أيوب، أن أم أيوب قالت لأبي أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أفكانت يا أم أيوب فاعلة ذلك! قالت: لا، والله. قال: فعائشة والله خير منك. فلما نزل القرآن، وذكر أهل الإفك، قال الله - عز وجل -: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ

(١) حصان: حفيضة. رزان: ذات وقار. ما تزن: ما تنهم. غرثي: جائعة. الغوافل: جمع غافلة. يريد أنها لا تتكلم في أعراض الناس.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٥ و٤٧٥٦ من طريق الأعمش به، وانظر مسند أبي يعلى ٤٩٣١.

ثُمَّ يَنْبَغِي، يعني أبا أيوب حين قال لَمْ أَتُوبَ. ما قال، ويقال: إنما قالها أَبِي بن كعب. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا لَكُمْ تُبَيِّنُ﴾، أي: هَلَّا ظَنَّا الْخَيْرَ، فَإِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَهُ وَأَوَّلَى بِهِ، هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ، ﴿وَقَالُوا﴾، أي: بِالسُّنَنِ: ﴿هَٰذَا لَكُمْ تُبَيِّنُ﴾، أي: كَذِبَ ظَاهِرٍ عَلَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِبِيَّةً، وَذَلِكَ أَنَّ مَجِيءَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَاكِبَةً جَهْرَةً عَلَى رَاكِبَةٍ صَفْوَانِ بْنِ الْمُعْطَلِ فِي وَقْتِ الظَّهِيرَةِ، وَالْجَيْشُ بِكَامِلِهِ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، لَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رِبِيَّةٌ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا جَهْرَةً، وَلَا كَانَا يُقَدِّمَانِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، بَلْ كَانَ هَذَا يَكُونُ - لَوْ قُدِّرَ - خَفِيَّةً مُسْتَوْرًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْثُ، وَالْقَوْلُ الزُّورُ، وَالزُّعُونَةُ الْفَاجِرَةُ، وَالصَّفَقَةُ الْخَاسِرَةُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا﴾، أي: هَلَّا ﴿جَاءَهُ عَلَيْهِ﴾، أي: عَلَى مَا قَالُوهُ ﴿بِإِيمَانٍ شَكْلَةٍ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاؤُوا بِهِ، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَنْزَلْنَاهُ عَنْكَ اللَّهُ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾، أي: فِي حُكْمِ اللَّهِ كَذِبَةَ فَجْرَةٍ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكَتُ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ، بَانَ قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ وَإِنَابَتِكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَعَفَا عَنْكُمْ لِإِيمَانِكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، ﴿لَسَكَتُ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾، مِنْ قَضِيَةِ الْإِفْكِ، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وَهَذَا فِيمَنْ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ زَوْجَهُ اللَّهُ بِسَبِيهِ التَّوْبَةُ إِلَيْهِ، كَيْسَطُحٌ، وَحَسَانٌ، وَحَمَنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، أُخْتُ زَيْنَبَ بْنِ جَحْشٍ. فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سُلُوفٍ وَأَصْرَابِهِ، فَلَيْسَ أَوْلَتْكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَنْدهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يَعَادِلُ هَذَا وَلَا مَا يُعَارِضُهُ، وَهَكَذَا شَأْنُ مَا يَرِدُ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى فِعْلِ مُعَيَّنٍ، يَكُونُ مُطْلَقًا مُشْرُوطًا بِعَدَمِ التَّوْبَةِ، أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنَ عَمَلٍ صَالِحٍ يُؤَازِرُهُ أَوْ يَرْجُحُ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: أَيُّ يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، يَقُولُ هَذَا: سَمِعْتُهُ مِنْ فُلَانٍ كَذَا، وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَذَا. وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسُّنَنِ﴾. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرُؤُهَا كَذَلِكَ^(١). وَتَقُولُ: هُوَ مِنْ وَلَقَى الْقَوْلَ، يَعْنِي الْكَذِبَ الَّذِي يَسْتَمِرُّ صَاحِبُهُ فِيهِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: وَلَقَى فُلَانٌ فِي السَّيْرِ: إِذَا اسْتَمَرَ فِيهِ. الْقِرَاءَةُ الْأُولَى أَشْهَرُ، وَعَلَيْهَا الْجُمْهُورُ، وَلَكِنَّ الثَّانِيَةَ مَرْوِيَّةٌ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ نَافِعِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرَأُ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾، وَتَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ وَلَقَى الْقَوْلَ. قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: هِيَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ غَيْرِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، أَي: تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، أَي: تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ فِي شَأْنِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَحْسَبُونَ ذَلِكَ يَسِيرًا سَهْلًا، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ - لَمَا كَانَ هَيِّنًا، فَكَيْفَ وَهِيَ زَوْجَةُ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ، خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، فَعَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يَقَالَ فِي زَوْجَةِ رَسُولِهِ مَا قِيلَ! فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغَارُ لِهَذَا، وَهُوَ - سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يَقْدِرُ عَلَى زَوْجَةِ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ذَلِكَ، حَاشَا وَكَلَّا وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا فِي سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَزَوْجَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟! وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

[٤٨٦٦] وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يذري ما تبليغ، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض». وفي رواية: «لا يلقي لها بالاً»^(١).

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦) ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) ﴿وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٨)

هذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بالظن خيراً، أي: إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولاً ينبغي الظن بهم خيراً، وألاً يشعر نفسه سيوى ذلك. ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك - وسوسة أو خيالاً - فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله - ﷺ - قال:

[٤٨٦٧] «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تفعل»^(٢). أخرجاه في الصحيحين. وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، أي: ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد، ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة نبيّه ورسوله وحليلة خليله. ثم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾، أي: ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي: فيما يستقبل فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعلمون رسوله - ﷺ - فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر. ثم قال: ﴿وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾، أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدريّة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٩)

وهذا تأديب ثالث لمن سَمِع شيئاً من الكلام السيئ، فقام بذهنه منه شيء، وتكلم به، فلا يكتر منه ويشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبیح، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾، أي: بالحدّ، وفي الآخرة بالعذاب، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: فردوا الأمور إليه ترضدوا.

[٤٨٦٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرزئي، حدثنا محمد ابن عباد المخزومي، عن ثوبان، عن النبي - ﷺ - قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته»^(٣).

(١) أخرجه البخاري ٦٤٧٨ من حديث أبي هريرة ولفظه «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم». وأخرجه مسلم ٢٩٨٨ من حديث أبي هريرة بلفظ «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» وانظر ما يأتي في تفسير سورة الحجرات آية ٢ وسورة ق آية: ١٨.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ٢٧٩/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/٨٦: ورجاله رجال الصحيح، غير ميمون بن عطاء، وهو ثقة اهـ. بل ضعفه الفلاس، وقال أحمد: كان يدلس، وقال النسائي: ليس بالقوي. فالإسناد ضعيف.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾، أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، رحيم بهم. فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه. ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾، يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: هذا تنغير وتحذير من ذلك، بأفصح العبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾، عمله. وقال عكرمة: نَزَغَاتِهِ. وقال قتادة: كل معصية فهي من خُطُوبِ الشَّيْطَانِ. وقال أبو مجلز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان. وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني خرتُ أن أكل طعاماً، وسماه. فقال: هذا من نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، كفر عن يمينك، وكل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبيح ولده: هذا من نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، وأفناه أن يذبح كبشاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا السري بن يحيى، عن سليمان التيمي، عن أبي رافع قال: غَضِبْتُ عَلَيَّ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تُطْلَقْ امْرَأَتُكَ. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزعَاتِ الشَّيْطَانِ. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أمة امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر، فقال مثل ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويُزَكِّي النفوس يشركها وفجورها وذنسها وما فيها من أخلاق رديئة، كل يحسب لِمَا حَصَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةً وَلَا خَيْرًا، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: من خلقه، ويضلل من يشاء ويُرِيدُهُ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالْغِي. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: سميع لأقوال عباده، ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْهُدَى وَالضَّلَالَةَ.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾، من الآلية وهي: الحلف، أي: لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾، أي: العلول والصدقة والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾، أي: الجدة، ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: لا تحلفوا ألا تصلوا قريباتكم المساكين والمهاجرين. وهذه في غاية الترقق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾، أي: عما تقدم منهم في الإساءة والأذى؟ وهذا من جلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم. وهذه الآية نزلت في الصديق، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثانة بنافعة أبداً بعد ما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والجنة - يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثانة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما يُفَقُّ عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلَّ زُلْفَةً تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها، وكان الصديق - رضي الله عنه - معروفاً

بالمعروف، له الفضلُ والأَيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ تَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: فإن الجزء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفك عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نُحِبُّ - يا ربنا - أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. ثم رَجَعَ إلى مسطح ما كان يَصِلُهُ من النفقة، وقال: والله لا أَنْزِعُهَا منه أبداً، في مقابلة ما كَانَ قال: «والله لا أنفعه بنافعة أبداً». فلهذا كان الصديق هو الصديق، رضي الله عنه، وعن بته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَوْمَ تُنْهَضُ عَنْهُمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْمُكُونَ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ يَدْعُ اللَّهُ إِلَهُهُمْ إِنْ هُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يَرْمُونَ المحصنات الغافلات المؤمنات - خُرج مخرج الغالب -، فأُمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل مُحَصَّنَةٍ، ولا سِيَّما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق، رضي الله عنهما. وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - قاطبةً على أن من سبها بعد هذا وزَّماها بما زَّماها به الذين ذُكِّروا في هذه الآية، فإنه كافر، لأنه مُعَانِدٌ للقرآن. وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي - رضي الله عنهن - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٦٧﴾﴾. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة، فقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْعَثُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَرَّاشٍ، عَنْ الْعَوَّامِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، قال: نزلت في عائشة خاصة. وكذا قال سعيد بن جبيرة ومقاتل بن حيان، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال:

[٤٨٦٩] حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الصَّبِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَّانَةَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: رُمِيْتُ بِمَا رُمِيَتْ بِهِ وَأَنَا غَافِلَةٌ، فَبَلَغَنِي بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَتْ: فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - جَالِسٌ عِنْدِي إِذَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ أَخَذَهُ كَهَيْئَةِ السُّبَاتِ، وَإِنَّهُ أَوْحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدِي، ثُمَّ اسْتَوَى جَالِسًا يَمْسَحُ عَلَى وَجْهِهِ، وَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، أَبْشِرِي. قَالَتْ: قُلْتُ: بِخَمْدِ اللَّهِ لَا بِخَمْدِكَ. فَقَرَأَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، حَتَّى بَلَغَ: ﴿أُولَئِكَ مَبْعُوثَاتٌ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١). هَكَذَا أَوْرَدَهُ، وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّ الْحُكْمَ خَاصٌّ بِهَا، وَإِنَّمَا فِيهِ أَنَّهَا سَبَبُ النَّزُولِ دُونَ غَيْرِهَا، وَإِنْ كَانَ الْحُكْمُ يَعْمُهَا كَغَيْرِهَا. وَلَعَلَّهُ مُرَادُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَنْ قَالَ كَقَوْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَأَبُو الْجَوَّازِ، وَسَلْمَةُ بْنُ نُبَيْطٍ: الْمُرَادُ بِهَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ خَاصَّةً، دُونَ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾... الآية. يعني أزواج النبي ﷺ -، زَمَانُ أَهْلِ النِّفَاقِ، فَأَوْجِبَ اللَّهُ لَهُمُ اللَّعْنَةَ وَالْغَضَبَ، وَبَاوُوا بِسَخَطِ اللَّهِ، فَكَانَ ذَلِكَ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ - ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِرْمَاقٍ شَهِيدَةٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تُقْبَلُ، والشهادة تُرَدُّ. وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ،

(١) أخرجه الطبري ٢٥٨٨٢ وإسناده ضعيف لضعف عمر بن أبي سلمة. وله شاهد صحيح بغير هذا السياق.

حدثنا الحسين، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا العوام بن حوشب، عن شيخ من بني أسيد، عن ابن عباس، قال: قُسر سورة النور، فلما أتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾... الآية، قال: في شأن عائشة وأزواج النبي - ﷺ - وهي مبهمّة، وليست لهم توبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْنَىٰ شَهَدَةٍ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا﴾... الآية، قال: فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قُذِف أولئك توبة، قال: فَهَمَّ بعضُ القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه، من حسن ما فسر به سورة النور. فقوله: «وهي مبهمّة»، أي: عامّة في تحريم قُذِف كُلِّ محصنة، ولُغنته في الدنيا والآخرة. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلماتِ فله ما قال الله - عزَّ وجلَّ - ولكن عائشة كانت إمامَ ذلك. وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح.

[٤٨٧٠] وَيُعْضِدُ الْعُمُومَ ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، ابن أخي ابن وهب، حدثنا عَمِي، حدثنا سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١). أخرجاه في الصحيحين، من حديث سليمان بن بلال، به.

[٤٨٧١] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحذاء الحراني، حدثني أبي، (ج) وحدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا جُدِّي أحمد بن أبي شعيب، حدثنا موسى بن أعين، عن ليث، عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ بن زُفَر، عن حُذَيْفَةَ، عن النبي - ﷺ - قال: «قُذِفَ المحصنة يهدم عمل مئة سنة»^(٢). وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْفَتَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن مُطَرَف، عن الجنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنهم - يعني المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا: تعالوا حتى نجحد. فيجحدون فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثاً.

[٤٨٧٢] وقال ابن جرير، وابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا كان يوم القيامة عُرفَ الكافر بعمله، فَجحد وخاصم، فيقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك؟ فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يُضْمِتُهُمْ وتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يُدْخِلُهُم النار»^(٣).

[٤٨٧٣] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو شيبَةَ إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبَةَ الكوفي، حدثنا مَنجَاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عُبيد المُكْتَب، عن قُضَيْل بن

(١) تقدم في تفسير آية ١٠ من سورة النساء.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه الطبري في «الكبير» ٣٠٢٣ والبخاري ١٠٥، فيه ليث، وهو ابن أبي سليم، وهو ضعيف، روى منابر كثيرة.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٩٢ والطبري ٢٥٨٨٨، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٣٩٨: إسناده حسن على ضعف فيه بل هو ضعيف، فإنه عند أبي يعلى له عِلتان ضعف ابن لهيعة ودراج في روايته عن أبي الهيثم، وقد توبع ابن لهيعة عند الطبري، فالعلة فيه دراج فحسب، والله أعلم. وانظر ما بعده.

عمرو الفُقيمي، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ - فَصَحَّحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: مِنْ مَجَادِلَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجْزِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: لَا أَجِيزُ عَلَيْكَ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكَرَامِ عَلَيْكَ شَهِودًا. فَيُخْتَمُ عَلَيَّ فِيهِ، وَيُقَالُ لَأَرْكَانَهُ: انْطَلِقِي، فَتَنْتَلِقِ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَشُحْقًا، فَنَعْنُكَ كُنْتُ أَنَا ضَلُّ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ جَمِيعًا، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي الثَّوْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، بِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّسَائِيُّ: لَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ غَيْرَ الْأَشْجَعِيِّ، وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. هَكَذَا قَالَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ابْنُ آدَمَ، وَاللَّهُ إِنْ عَلَيْكَ لَشَهِودًا غَيْرَ مُتَّهِمَةٍ مِنْ بَدَنِكَ، فَرَأَيْتَهُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ فِي سَرَائِرِكَ وَعَلَانِيَتِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، الظُّلْمَةُ عِنْدَهُ ضَوْءٌ، وَالْبُيُوتُ عِنْدَهُ عِلَانِيَةٌ. فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ بِاللَّهِ حَسَنَ الظَّنِّ فَلْيَفْعَلْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُهُمُ اللَّهُ دِيْنَهُمُ الْحَقَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿دِيْنَهُمْ﴾، أَيُّ: حِسَابِهِمْ، وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ ﴿دِيْنَهُمْ﴾، أَيُّ: حِسَابِهِمْ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ. ثُمَّ إِنْ قَرَأْتَ الْجُمُهورَ بِنَصْبِ ﴿الْحَقَّ﴾، عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِيَدِينَهُمْ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ بِالرَّفْعِ، عَلَى أَنَّهُ نَعْتُ الْجَلَالَةِ. وَقَرَأَهَا بَعْضُ السَّلَفِ فِي مُصْحَفِ أَبِي بَكْرٍ كَعَب: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ دِيْنَهُمْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْقَائِمُ﴾، أَيُّ: وَعَدُهُ وَوَعْدُهُ وَحِسَابُهُ هُوَ الْعَدْلُ، الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾



قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْخَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ. وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ. وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ. قَالَ: وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ وَأَهْلِ الْإِفْكِ. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَالْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَحَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، وَالضُّحَّاكِ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَوَجَّهَهُ بِأَنَّ الْكَلَامَ الْقَبِيحَ أَوْلَى بِأَهْلِ الْقَبِيحِ مِنَ النَّاسِ، وَالْكَلَامَ الطَّيِّبَ أَوْلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ، فَمَا نَسَبَهُ أَهْلُ النِّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ مِنْ كَلَامٍ هُمْ أَوْلَى بِهِ، وَهِيَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ وَالنِّزَاهَةِ مِنْهُمْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: بَنِي أَسْلَمَ: الْخَبِيثَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ. وَهَذَا أَيْضًا يَرْجِعُ إِلَى مَا قَالَهُ أُولَئِكَ بِاللَّزَامِ، أَيُّ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَائِشَةَ زَوْجَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - إِلَّا وَهِيَ طَيِّبَةٌ؛ لِأَنَّهُ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ طَيِّبٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَلَوْ كَانَتْ خَبِيثَةً لَمَا صَلَّحَتْ لَهُ، لَا شَرْعًا وَلَا قَدْرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيُّ: هُمْ بَعْدَاءُ عَمَّا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْعُدْوَانِ، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: عِنْدَ اللَّهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَفِيهِ وَعْدٌ بِأَن تَكُونَ زَوْجَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ حَرْبٍ، عَنْ يَزِيدَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ الْحَكَمِ. عَنْ يَحْيَى بْنِ الْجَزَّارِ قَالَ: جَاءَ أُسَيْرُ بْنُ جَابِرٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ

الوليد بن عُقْبَةَ اليوم تكلم بكلام أعجبني، فقال عبد الله: إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة غير الطيبة تتجلى في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمعها رجل عنده يتلها فيضمها إليه. وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلى في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها إليه، ثم قرأ عبد الله: ﴿لَقَدْ يَنْبَغُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ﴾ الآية.

[٤٨٧٤] ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعاً: «مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع، كممثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال: أجزني شاة. فقال: اذهب فخذ بأذن أيها شئت. فذهب فآخذ بأذن كلب الغنم» (١).

[٤٨٧٥] وفي الحديث الآخر: «الحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها أخذها» (٢).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٧) **وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَلَٰكِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** (٨) **أَلَمْ يَسِّرْ لَكُمْ جُنَاحَ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** (٩)

هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأمنوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثاً، فإن أذن له وإلا انصرف.

[٤٨٧٦] كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ انذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعت؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فلينصرف». فقال: لتأتين على هذا بينة وإلا أوجعتك ضرباً. فذهب إلى ملا من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصَّفْقُ بالأسواق (٣).

[٤٨٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت، عن أنس - أو غيره - أن رسول الله - ﷺ - استأذن على سعد بن عبادة فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي - ﷺ - حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه. فرجع النبي - ﷺ - فأتبعه سعد فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمه إلا وهي بأذني، ولقد ردذت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة. ثم أدخله البيت. ففترب إليه زبيباً، فأكل نبي الله، فلما

(١) ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٤١٧٢ وأحمد ٣٥٣/٢ و٥٠٨ والطحاوي ٩٠ وأبو يعلى ٦٣٨٨ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد بن جدعان، قاله البوصيري في «الزوائد».

(٢) ضعيف. أخرجه القضاوي ١٤٦ عن زيد بن أسلم مرسلاً. وأخرجه الترمذي ٢٦٨٧ وابن ماجه ٤١٦٩ وابن الجوزي في «العلل» ١١٤ من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي ضعيف في الحديث. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. قال يحيى: إبراهيم ليس حديثه بشيء.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٦٣ ومسلم ٢١٥٣ وأبو داود ٥١٨١ وأحمد ٣٩٨ و٤٠٠ وابن حبان ٥٨٠٧.

فَرَّغَ قَالَ: «أَكَلْ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارَ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ»^(١).

[٤٨٧٨] وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيِّ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ أَبِي كَثِيرٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَشْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ، عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ - هُوَ ابْنُ عُبَادَةَ - قَالَ: زَارَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِي مَنْزِلِنَا، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيفًا، قَالَ قَيْسٌ: فَقُلْتُ: أَلَا تَأْذُنُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: فَزِهِ يُكْثِرُ عَلَيْنَا مِنَ السَّلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيفًا. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْلِيمَكَ، وَأَرُدُّ عَلَيْكَ رَدًّا خَفِيفًا، لَتَكْثُرَ عَلَيْنَا مِنَ السَّلَامِ. قَالَ: فَانصَرَفَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَأَمَرَ لَهُ سَعْدٌ بِغُسْلٍ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ نَاولَهُ مِلْحَفَةً مَصْبُوغَةً بِزَعْفَرَانٍ - أَوْ وَرْسٍ^(٢) - فَاشْتَمَلَ بِهَا، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ. قَالَ: ثُمَّ أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمَّا أَرَادَ الْانْصِرَافَ قَرَّبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ حِمَارًا قَدْ وَطَّأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ، فَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ سَعْدٌ: يَا قَيْسَ، اصْحَبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. قَالَ قَيْسٌ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: اركب. فَأَبَيْتُ، فَقَالَ: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ. قَالَ: فَانصَرَفْتُ^(٣). وَقَدْ رَوَى هَذَا مِنْ وَجْهِهِ آخَرٌ، فَهُوَ حَدِيثٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ لِيُثَبِّتَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسْتَأْذِنِ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ أَنْ يَقِفَ تَلْقَاءَ الْبَابِ بِوَجْهِهِ، وَلَكِنْ لِيَكُنِ الْبَابُ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ يَسَارِهِ.

[٤٨٧٩] لَمَّا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُؤْمِلُ بْنُ الْفَضْلِ الْحَرَّانِيُّ - فِي آخِرِينَ - قَالُوا: حَدَّثَنَا بَقِيَّةٌ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تَلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنَيْهِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ، وَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سِتْرٌ^(٤). تَقَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

[٤٨٨٠] وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ - (ح) - قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا خَفْصٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ طَلْحَةَ، عَنْ هُزَيْلٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ - قَالَ عُثْمَانُ: سَعْدٌ - فَوَقَّفَ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ ﷺ - يَسْتَأْذِنُ، فَقَامَ عَلَى الْبَابِ - قَالَ عُثْمَانُ: مُسْتَقْبِلَ الْبَابِ - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ -: هَكَذَا عِنَّا، أَوْ: هَكَذَا، فَإِنَّمَا الْاِسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ^(٥). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الْحَفَرِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ

(١) جيد. أخرجه أحمد ١٣٨/٣ والبخاري ٢٠٠٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٤/٨: رجالهما رجال الصحيح. وأخرج أبو داود ٣٨٥٤ وأبو يعلى ٤٣١٠ عجزه فقط.

(٢) نبت أصفر باليمن، تتخذ منه الغمرة للوجه. وورس الثوب: صبغه به.

(٣) أخرجه أبو داود ٥١٨٥ والنسائي في «الكبرى» ١٠١٥٧ وقال أبو داود: رواه عمر بن عبد الواحد، وابن سماعة عن الأزواجي مرسلًا، ولم يذكر قيس بن سعد. قلت: رجال الموصول ثقات، وهو صحيح إن كان محمد سمعه من قيس بن سعد. وذكره الألباني في «ضعيف أبي داود» ١١٠٥، وبكل حال يشهد لأصله ما بعده، وهو بهذا السياق المطول فيه غرابة. ولعل الألباني لم يقف على رواية أحمد المتقدمة، فإن إسنادها على شرط الشيخين.

(٤) أخرجه أبو داود ٥١٨٦ وإسناده ضعيف لضعف رواية بقية عن محمد بن عبد الرحمن اليحصبي، وبقية وإن صرح بالتحديث، فلا يبعد أن يكون أسقط شيخ شيخه، فإنه يدل على التسوية.

(٥) أخرجه أبو داود ٥١٧٤ وهذا مرسل، هزيل تابعي كبير، وهو ثقة، وكرره أبو داود موصولاً وفيه راو لم يسم، وهو في صحيح أبي داود ٤٣١٠ ولعله لشواهد.

الأعمش، عن طلحة بن مضرّف، عن رجل، عن سعد، عن النبي ﷺ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِهِ.
[٤٨٨١] وفي الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «لَوْ أَنَّ أَمْرًا أُطْلِعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَحَدَّثْتَهُ بِحَصَاةٍ، فَقَاتَ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ»^(١).

[٤٨٨٢] وأخرج الجماعة من حديث شعبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: أتيت النبي - ﷺ - في دين كان على أبي فدققت الباب، فقال: مَنْ ذَا؟ قلتُ: أنا. قال: أنا، أنا. كَأَنَّهُ كَرِهَهُ^(٢). وإنما كَرِهَ ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبُها حتى يُفصَحَ باسمه أو كُنيتُه التي هو مشهورُ بها، ولأفكل أحد يُعبر عن نفسه «أنا» فلا يحصلُ بها المقصودُ من الاستئذان، الذي هو الاستئناسُ المأمورُ به في الآية. وقال العوفي، عن ابن عباس: الاستئناس: الاستئذان. وكذا قال غير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في هذه الآية: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا وَتُسَلِّمُوا»، قال: إنما هي خطأ من الكاتب، «حتى تستأذنوا وتسلموا». وهكذا رواه هشيم، عن أبي بشر - وهو جعفر بن إياس - به. وروى معاذ بن سليمان، عن جعفر بن إياس، عن سعيد، عن ابن عباس، بمثله، وزاد: وكان ابن عباس يقرأ: «حتى تستأذنوا وتسلموا»، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه. وهذا غريب جداً عن ابن عباس. وقال هشيم: أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا». وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس، وهو اختيار ابن جرير.

[٤٨٨٣] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني عمرو بن أبي سفيان، أن عمرو بن عبد الله بن صفوان أخبره، أن كَلْدَةَ بن الحَنْبَلِ أخبره، أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلياً وجداًية وضغابيس. والنبي - ﷺ - بأعلى الوادي، قال: فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي - ﷺ -: ارجع فقل: السلام عليكم، أدخل؟ وذلكم بعدما أسلم صفوان^(٣). ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج، به، وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديثه.

[٤٨٨٤] وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن ربيعة قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي - ﷺ - وهو في بيته، فقال: أَلَيْجُ؟ فقال النبي - ﷺ - لخادمه: اخرج إلى هذا فقل له الاستئذان، فقل له: قل السلام عليكم، أدخل؟ فسمعه الرجلُ فقال: السلام عليكم، أدخل؟ فأذن له النبي - ﷺ - فدخل^(٤).

[٤٨٨٥] وقال هشيم: أخبرنا منصور، عن - ابن سيرين - وأخبرنا يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد الثقفي: أن رجلاً استأذن على النبي - ﷺ - فقال: أَلَيْجُ - أو: أَلَيْجُ؟ فقال النبي - ﷺ - لأمة له، يُقال لها

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٠٢ ومسلم ٢١٥٨ والنسائي ٦١/٨ وأحمد ٢٤٣/٢ وابن حبان ٦٠٠٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٥٠ ومسلم ٢١٥٥ وأبو داود ٥١٨٧ والترمذي ٢٧١١ والنسائي في «اليوم والليلة» ٣٢٨ وابن ماجه ٣٧٠٩ وأحمد ٣٢٠/٣ وابن حبان ٥٨٠٨.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٥١٧٦ والترمذي ٢٧١٠ والنسائي في «الكبرى» ٦٧٣٥ و١٠١٤٧ وأحمد ٤١٤/٣ وإسناده حسن صحيح. والجداية: الصغيرة من الظباء. والضغابيس: صغار القنأ.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٥١٧٧ وإسناده صحيح، وجهالة الصحابي لا تفسر.

روضة: قومي إلى هذا فَعَلِّمِيهِ، فإنه لا يُحْسِنُ يَسْتَأْذِنُ، فقولِي له يقول: السلام عليكم، أَدخُل؟ فَسَمِعَهَا الرجل، فقالها، فقال: ادْخُل^(١).

[٤٨٨٦] وقال الترمذي: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ زَكْرِيَا، عَنْ عَبَسَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَادَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّبِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: السَّلَامُ قَبْلَ الْكَلَامِ^(٢). ثم قال الترمذي: عَنِيسَةُ ضَعِيفُ الْحَدِيثِ ذَاهِبٌ، وَمُحَمَّدُ بْنُ زَادَانَ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ.

وقال مُشَيْمٌ: قَالَ مُغِيرَةُ: قَالَ مُجَاهِدٌ: جَاءَ ابْنُ عُمَرَ مِنْ حَاجَةٍ، وَقَدْ آذَاهُ الرَّمْضَاءُ، فَاتَى فُسْطَاطَ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدخُل؟ قَالَتْ: ادْخُلْ بِسَلَامٍ. فَأَعَادَ، فَأَعَادَتْ، وَهُوَ يُزَاحُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ، قَالَ: قَوْلِي: ادْخُلْ. قَالَتْ: ادْخُلْ. فَدَخَلَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ الْأَحْوَلُ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنِي جَدَّتِي أُمُّ إِبْرَاهِيمَ قَالَتْ: كُنْتُ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ نَسْتَأْذِنُ عَلَى عَائِشَةَ، فَقُلْنَ: نَدْخُل؟ قَالَتْ: لَا، قُلْنَ لِصَاحِبَتِكُنَّ: تَسْتَأْذِنُ. فَقَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُل؟ قَالَتْ: ادْخُلُوا، ثُمَّ قَالَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ الآية. وقال مُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا أَشْعَثُ بْنُ سَوَّارٍ، عَنْ كُرْدُوسٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَأْذِنُوا عَلَى أَمَهَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ.

[٤٨٨٧] قال أَشْعَثُ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ: إِنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَكُونُ فِي مَنْزِلِي عَلَى الْحَالِ الَّتِي لَا أُحِبُّ أَنْ يَرَانِي أَحَدٌ عَلَيْهَا وَالِدٌ وَلَا وَلَدٌ، وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَدْخُلُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي وَأَنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ؟ قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾^(٣).

وقال ابْنُ جُرَيْجٍ: سَمِعْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبِيعٍ يُخْبِرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: ثَلَاثُ آيَاتٍ جَعَلَهُنَّ النَّاسُ: قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قَالَ: وَيَقُولُونَ: إِنْ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمَهُمْ بَيْتًا. قَالَ: وَالْإِذْنَ كُلُّهُ قَدْ جَعَلَهُ النَّاسُ. قَالَ: قُلْتُ: اسْتَأْذِنَ عَلَى أَخَوَاتِي أَيَّامًا فِي حَجَرِي مَعِيَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَزِدْتُ لِيُرْخَصَ لِي فَابِي، قَالَ: تَحِبُّ أَنْ تَرَاهَا غُرْبَانَةً؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَاسْتَأْذِنَ. قَالَ: فَارْجَعْتُهُ أَيْضًا، فَقَالَ: أَنْتِ حِبُّ أَنْ تَطِيعَ اللَّهَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَاسْتَأْذِنَ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ طَاوُوسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا مِنْ امْرَأَةٍ أَكْرَهَ إِلَيَّ أَنْ أَرَى غُرْبَتَهَا مِنْ ذَاتِ مُحَرَّمٍ. قَالَ: وَكَانَ يُشَدُّدُ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ الزَّهْرِيِّ: سَمِعْتُ هُزَيْلَ بْنَ شُرْحَبِيلٍ الْأَوْدِيَّ الْأَعْمَى أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ الْإِذْنَ عَلَى أَمَهَاتِكُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَيْسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ؟ قَالَ: لَا. وَهَذَا مُحْمُولٌ عَلَى عَدَمِ الرُّجُوبِ، وَإِلَّا فَلَاوَلَى أَنْ يُعْلِمَهَا بِدُخُولِهِ وَلَا يُفَاجِئَهَا بِهِ، لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَيْئَةٍ لَا تُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا عَلَيْهَا. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَازِمٍ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ الْجَزَّارِ، عَنْ ابْنِ أَخِي زَيْنَبٍ - امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(١) أخرجه الطبري ٢٥٩١٧ تعليقاً وهو مرسل، لكن يعتضد بما قبله.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الترمذي ٢٦٩٩ وأبو يعلى ٢٠٥٩ وابن عدي ٢٠٤/٦ من حديث جابر، وإسناده ضعيف جداً، قال الترمذي: هذا حديث منكر، وسمعت البخاري يقول: عَنِيسَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، ضَعِيفُ الْحَدِيثِ، ذَاهِبٌ. وَمُحَمَّدُ بْنُ زَادَانَ، مُنْكَرُ الْحَدِيثِ. وَأَوْرَدَهُ الدِّيلَمِيُّ فِي الْفَرْدُوسِ ٣٥٣٧ لَكِنْ جَعَلَهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَمْرٍ مَعَاً. وَضَعْفُهُ السِّيَاطِيُّ فِي «الْجَامِعِ» كَمَا فِي «فَيْضِ الْقَدِيرِ» ٤٨٤٢.

(٣) أخرجه الطبراني ٢٥٩٢١ وإسناده ضعيف لضعف أَشْعَثُ بْنُ سَوَّارٍ، وهو مرسل.

مسعود - عن زينب - رضي الله عنها - قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فأتته إلى الباب، تَنَحَّضُ وَيَرْقُ كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، إسناده صحيح^(١). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الله بن ثَمِير، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مَرْثَة، عن أبي عبيدة قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس، تكلم ورفع صوته. وقال مجاهد: ﴿حَقَّ تَسْتَأْشِرُوا﴾، قال: تَنَحَّضُوا، وَتَنَحَّضُوا. وعن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - أنه قال: إذا دَخَلَ الرجل بيته استحب له أن يَتَنَحَّضَ، أو يُعْرِكَ نعليه. [٤٨٨٨] ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله - ﷺ -: أنه نهى أن يَطْرُقَ الرجل أهله طُرُوقاً. وفي رواية: لِيَلَّا يَتَخَوَّنَهُمْ^(٢).

[٤٨٨٩] وفي الحديث الآخر: أن رسول الله - ﷺ - قدم المدينة نهاراً، فأنأخ بظاهريها، وقال: انتظروا حتى تدخل عِشَاء - يعني آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستجد المغيبة^(٣).

[٤٨٩٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن واصل بن السائب، حدثني أبو سُرُورَة ابن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس، قال: يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة، ويتنحَّضُ فيؤذن أهل البيت^(٤). هذا حديث غريب. وقال قتادة في قوله: ﴿حَقَّ تَسْتَأْشِرُوا﴾، قال: هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له فيهن فليرجع، أما الأولى فليستمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا جذرهم، وأما الثالثة فإن شاؤوا أذِنُوا وَإِنْ شَاؤُوا رَدُّوا. ولا يَقْفُزْ على باب قوم زدوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعدر. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَقَّ تَسْتَأْشِرُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾: كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حُيِّت صباحاً وحُيِّت مساءً، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول: قد دخلت نحو ذلك. فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فعبر الله ذلك كله، في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والذرن، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَقَّ تَسْتَأْشِرُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾. وهذا الذي قاله مقاتل: حسن. ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يعني الاستئذان خيراً لكم، بمعنى هو خير للطرفين: للمستأذن ولأهل البيت، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَرَجَعُوا فِيهَا أَكَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن، ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾، أي: إذا رُدُّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده، ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾، أي: رُجُوعكم أزكى لكم وأطهر، ﴿وَاللَّهُ يَسِّرُ لَكُمْ أَسْأَلَكُمْ﴾. وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن استأذن على بعض إخواني، فيقول لي: «ارجع». فأرجع وأنا مغتبط: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لَكُمْ أَسْأَلَكُمْ﴾. وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾، لا تقفوا على أبواب الناس.

(١) بل فيه راو لم يسم، فالإسناد ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٣ ومسلم ص ١٥٢٨ ح ١٨٤ و١٨٥ وأبو داود ٢٧٧٦ وأحمد ٢٩٩/٣ وابن حبان ٤١٨٢.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٠٧٩ ومسلم ٧١٥ وأحمد ٣٠٣/٣ وأبو يعلى ١٨٥٠ من حديث جابر موطؤاً.

(٤) ضعيف جداً. ذكره الحفاظ في «الفتح» ٨/١١ وقال: أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف. قلت: بل ضعيف جداً، واصل بن السائب متروك الحديث، وشيخه أبو سورة قال البخاري: عنده مناكير اهد والخبر شبه موضوع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٤) هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له متاع فيها، بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذ أذن له فيه أول مرة كفى. قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ يُؤْتِيَكُمُ﴾، ثم نسخ واستثنى فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾. وكذا روي عن عكرمة، والحسن البصري. وقال آخرون؛ هي بيوت التجار، كالخانات ومنازل الأسفار، وبيوت مكة، وغير ذلك. واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة. والاول أظهر، والله أعلم. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشغير.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٥)

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحَرَّم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً.

[٤٨٩١] كما رواه مسلم في صحيحه، من حديث يونس بن عُبَيْد، عن عمرو بن سعيد، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن جده جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - قال: سألت النبي - ﷺ - عن نَظَرَةِ الْفَجَاءَةِ، فأمرني أن أصرف بصري^(١). وكذا رواه الإمام أحمد، عن هُشَيْم، عن يونس بن عُبَيْد، به. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من حديثه أيضاً، وقال الترمذي: «حَسَنٌ صَحِيحٌ». وفي رواية لبعضهم: «قال: أطرقَ بَصْرَكَ»، يعني: انظر إلى الأرض. والصرف أعم، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى، والله أعلم.

[٤٨٩٢] وقال أبو داود: حدثنا إسماعيل بن موسى الفَرَارِيُّ، حدثنا شريك، عن أبي ربيعة الإيادي، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ - لعلي: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى، وليس لك الآخرة». ورواه الترمذي من حديث شريك، وقال: غَرِيبٌ، لا نعرفه إلا من حديثه^(٢).

[٤٨٩٣] وفي الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقِ. قالوا: يا رسول الله، لا بد لنا من مجالسنا، نتحدث فيها. فقال رسول الله - ﷺ -: «إِنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ. قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: غَضُّ الْبَصَرِ وَكُفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(٣).

[٤٨٩٤] وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا قُصَّال بن جُبَيْر، سمعت أبا أمامة يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يقول: «اكْفُلُوا لِي بَسْتَ أَكْفَلُ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبُ،

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٥٩ وأبو داود ٢١٤٨ والترمذي ٢٧٧٦ وأحمد ٣٥٨/٤ و٣٦١ وابن حبان ٥٥٧١.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٢١٤٩ والترمذي ٢٧٧٧ وأحمد ٣٥١/٥ و٣٥٧ وصححه الحاكم ١٩٤/٢ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، قال الترمذي: حسن غريب. وفي الباب من حديث علي عند أحمد ١٥٩/١ والدارمي ١٩٨٢ وابن حبان ٥٥٧٠ وإسناده ضعيف.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٢٩ وأحمد ٣٦/٣ وابن حبان ٥٩٥.

وإذا اثنَمَ فلا يُخَن، وإذا وَعَدَ فلا يُخْلَف، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ^(١).

[٤٨٩٥] وفي صحيح البخاري: «من تكفل لي ما بين لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَكْفَلُ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٢).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة قال: كُلُّ مَا عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ. وقد ذكر الطرزين فقال: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ». ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النظرُ سَهَامٌ سَمَّ إِلَى الْقَلْبِ. ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال: «وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ». وحفظ الفرج تارة يكون بمنه من الزنا، كما قال: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ»^(٣) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَا تَمْنَنَ فَرُجُهُمْ^(٤) [المؤمنون: ٥-٦]، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في المُسْتَدِّ والسَّتَنِ:

[٤٨٩٦] «احفظ عَوْرَتَكَ، إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»^(٥). «ذَلِكَ أَزْكَ لَمْ»^(٦)، أي: أظهر لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: من حَفِظَ بَصَرَهُ أَوْزَتْهُ اللَّهُ نُوراً فِي بَصِيرَتِهِ. وَيُرَوَّى: فِي قَلْبِهِ.

[٤٨٩٧] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عثاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجده خلأوتها»^(٧). وزوي هذا مرفوعاً عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة رضي الله عنهم. ولكن في أسانيدنا ضعف، إلا أنها في الترخيب ومثله يُسَامَحُ فِيهِ.

[٤٨٩٨] وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «لَتَغْضُنَّ أَبْصَارَكُمْ، وَلَتَحْفَظَنَّ فُرُوجَكُمْ، وَلَتَقِيْمَنَّ وُجُوهَكُمْ، أَوْ لَتُكْشَفَنَّ وُجُوهَكُمْ»^(٨).

[٤٨٩٩] وقال الطبراني: حدثنا أحمد زهير الشَّسْتَرِي قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضربير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هُزَيْمُ بْنُ سَفْيَانَ، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ النَّظَرَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مُسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَ مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيمَاناً يَجِدُ خَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»^(٩). وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ». كما قال تعالى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»^(١٠) [غافر: ١٩].

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٠١٨ و«الأوسط» ٢٥٦٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٠١/١٠: وفيه فضال ابن الزبير، ويقال ابن جبير، وهو ضعيف اهـ لكن له شاهد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٧٤ والترمذي ٣٤٠٨ بلفظ «من يضمن...».

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٤٠١٧ والترمذي ٢٧٦٩ وابن ماجه ١٩٢٠ وأحمد ٣/٥ و٤ والطحاوي في «المشكّل» ١٣٨١ من حديث معاوية بن حيدة، وصححه الحاكم ١٧٩/٤ - ١٨٠ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن. وهو كما قال. وللحديث شواهد.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/٢٦٤ والطبراني ٧٨٤٢ من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي ١٢٩٤٣ «مجمع»: فيه علي بن يزيد الألهاني، متروك اهـ. لكن له شواهد كما ذكر ابن كثير، وإنما هو ضعيف بهذا الإسناد فحسب، والله أعلم وانظر الآتي بعد حديث.

(٥) أخرجه الطبراني ٧٨٤٠ وإسناده كسابقه.

(٦) إسناده ضعيف، أخرجه الطبراني ١٠٣٦٣ من حديث ابن مسعود، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٢٩٤٦ بعبد الرحمن بن إسحق، وأنه ضعيف اهـ وله علة أخرى: عبد الرحمن لم يدرك أباه ابن مسعود. لكن للحديث شواهد يعتضد بها.

[٤٩٠٠] وفي الصحيح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَقُّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فِزْنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرَ، وَزْنَا اللِّسَانَ النَّطْقَ، وَزْنَا الْأَذْنَيْنِ الْاسْتِمَاعَ، وَزْنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشَ، وَزْنَا الرَّجْلَيْنِ الْخَطْيَ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجَ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»^(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا^(٢)، وَمُسْلِمٌ مُسْتَدًّا مِنْ وَجْهِ آخَرَ، بَنَحُو مَا تَقْدَمُ. وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْهَوْنَ أَنْ يَحْدُ الرَّجُلُ بَصَرَهُ إِلَى الْأَمْرَدِ. وَقَدْ شَدَّدَ كَثِيرٌ مِنْ أئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ فِي ذَلِكَ، وَحَرَّمَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِفْتَانِ، وَشَدَّدَ آخَرُونَ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا جَدًّا.

[٤٩٠١] وَقَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْمَدَنِيُّ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ سَهْلٍ الْمَازَنِيُّ، حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ صُهَيْبَانَ، حَدَّثَنِي صَفْوَانُ بْنُ سَلِيمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «كُلُّ عَيْنٍ بَاكِئَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا عَيْنًا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَعَيْنًا سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنًا يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذِّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّقُضْنَ مِنْ أَنْبَصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

تَفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَغَيْرَةِ مِنْهُ لَأَزْوَاجِهِنَّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَمَيِّزٌ لَهُنَّ عَنْ صِفَةِ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَفِعَالِ الْمُشْرَكَاتِ. وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا ذَكَرَهُ مَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ قَالَ: بَلَّغْنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ حَدَّثَ: أَنَّ «أَسْمَاءَ بِنْتَ مُرْتَدٍّ، كَانَتْ فِي مَحَلٍّ لَهَا فِي بَنِي حَارِثَةَ، فَجَعَلَ النِّسَاءُ يَدْخُلْنَ عَلَيْهَا غَيْرَ مُتَّزِرَاتٍ فَيَبْدُو مَا فِي أَرْجُلِهِنَّ مِنَ الْخَلَّاجِلِ، وَتَبْدُو صُدُورَهُنَّ وَذَوَائِبَهُنَّ»، فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: مَا أَقْبَحَ هَذَا! فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّقُضْنَ مِنْ أَنْبَصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الْآيَةُ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّقُضْنَ مِنْ أَنْبَصَرِهِنَّ﴾، أَيُّ: عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ. وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ بِشَهْوَةٍ وَلَا بِغَيْرِ شَهْوَةٍ أَصْلًا.

[٤٩٠٢] وَاحْتَجَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ نُبَيْهَانَ - مَوْلَى أُمِّ سَلْمَةَ - أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ أُمَّ سَلْمَةَ حَدَّثَتْهُ: أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَمِيمُونَةُ، قَالَتْ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَهُ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا أَمْرُنَا بِالْحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «احتجبا منه. فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «أَوْ عَمِيَاوَانَ أَنْتُمَا؟ أَلَسْتُمَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٤٣ و٦٦١٢ ومسلم ٢٦٥٧ وأحمد ٢٧٦/٢ وابن حبان ٤٤٢٠.

(٢) بل رَوَاهُ مُسْتَدًّا مُوَصُولًا فِي كَلَا الرِّوَايَتَيْنِ.

(٣) ضعيف. أخرجه أبو نعيم ١٦٣/٣، ومداره على عمر بن محمد بن صهيبان، قال الذهبي في «الميزان» ٦١٤٩: قال أحمد: لم يكن بشيء، وقال يحيى: لا يساوي فلساً، وقال البخاري منكر الحديث.

تُبَصِّرَانَهُ^(١). ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجناب بغير شهوة.

[٤٩٠٣] كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله - ﷺ - جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرايبهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه. وهو يسترها منهم حتى ملّت وزجعت^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، قال سعيد بن جبّير: عن الفواحش، وقال قتادة وسفيان: عما لا يحلّ لهنّ. وقال مقاتل: عن الزنا. وقال أبو العالية: كلّ آية أنزلت في القرآن يُذكر فيها حفظُ الفروج فهو من الزنا، إلا هذه الآية: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، ألا يراها أحد. وقال: ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي: ولا يُظهرنّ شيئاً من الزينة للأجناب إلّا ما لا يمكن إخفاؤه. وقال ابن مسعود: كالرداء والثياب. يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب، من المقنعة التي تُجَلّل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه، لأنّ هذا لا يمكن إخفاؤه. ونظيره في زيّ النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النخعي، وغيرهم.

وقال الأعمش، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، قال: وجهها وكفيها والخاتم. وزوي عن ابن عمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وأبي الشعثاء، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وغيرهم، نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ﴾، الزينة: القُرط، والدُمْلُوجُ^(٣)، والخَلْخَال، والقلادة. وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوّاو وزينة يراها الأجناب، وهي الظاهر والثياب. وقال الزهري: لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله يمتن لا تحلّ له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير خسر. وأما عاتمة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم. وقال مالك، عن الزهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، الخاتم والخَلْخَال. ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور.

[٤٩٠٤] ويُسْتَأْنَسُ له بالحديث الذي رواه أبو داود في سنّته: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْطَاكِيُّ وَمُؤَمِّلُ بْنُ الْفَضْلِ الْحَرَّانِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ دَرِيكٍ، عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنه -: أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَقَالَ: يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لَمْ يَصْلَحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا. وأشار إلى وجهه وكفيه^(٤). لكن قال أبو

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٢٩٦/٦ وأبو داود ٤١١٢ والترمذي ٢٧٧٨ وابن حبان ٥٥٧٥ والبيهقي ٩١/٧ من حديث أم سلمة، ومداره على نيهان. قال عنه في التريب: مقبول. وقال في «الفتح» ٥٥٠/١: هو حديث مختلف في صحته. قال أبو داود: هذا خاص بأزواج النبي ﷺ، ونقل ابن قدامة في «المغني» ٥٦٣/٦ بعد أن تكلم في توجيه هذا الحديث، عن ابن عبد البر قوله: نيهان مجهول. وقد قال أحمد وأبو داود: هو خاص به وحكم الشيخ شعيب بضعفه، وأنه معارض بأحاديث صحاح. والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٥ ومسلم ٧٩٢ ح ١٨ وأحمد ٢٤٧/٦.

(٣) القُرط: هو ما يعلق في شحمة الأذن. الدُمْلُوج: المفضد.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٠٤ عن خالد بن دريك عن عائشة به. قال أبو داود: هذا مرسل، خالد لم يدرك عائشة. وقال الزيلعي في «نصب الراية» ٢٩٩/١: وقال ابن القطان: ومع هذا، خالد مجهول الحال. وقال المنذري في «مختصره»: وفيه سعيد بن بشير، تكلم فيه غير واحد له لكن للحديث شواهد مرسله ومتصلة يمتنع بها، والله أعلم.

داود وأبو حاتم الرازي: هذا مرسل؛ خالد بن ذريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، فالله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْرِينَ بِحُثْرَيْنَ عَلَى جُبُورٍ﴾، يعني: المَقَانعُ يُعْمَلُ لَهَا صَنَفَاتُ ضَارِبَاتٍ عَلَى صُدُورِ النساءِ، لِثَوَارِي مَا تَحْتَهَا مِنْ صَدْرِهَا وَتَرَائِهَا، لِيَخَالِفْنَ شِعَارَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ، بَلْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمُرُّ بَيْنَ الرِّجَالِ مُسْفِحةً بِصَدْرِهَا، لَا يُؤَارِبُهُ شَيْءٌ، وَرَبِمَا أَظْهَرَتْ عُنُقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَأَقْرَطَةَ أَذَانِهَا، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتُ أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَالِهِنَّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذْنَ أَلْفًا قُلُ لَأَزْوَاجَكِ وَنِكَاحَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْرِيكَ عَلَيْكَ مِنْ جَلِيلِهِمْ ذَلِكَ أَذَقَ أَنْ يَمُرَّقَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ [الاحزاب: ٥٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَيَعْرِينَ بِحُثْرَيْنَ عَلَى جُبُورٍ﴾، والخمر: جمع خِمَارٍ، وهو ما يَخْمُرُ، أَي: يُعْطِي بِهِ الرَّأْسَ، وَهِيَ الَّتِي تُسَمِّيهِ النَّاسُ الْمَقَانِعَ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَلَيَعْرِينَ﴾: وَلَيَشْدُدْنَ ﴿بِحُثْرَيْنَ عَلَى جُبُورٍ﴾، يعني على الثَّخِرِ والصَّدْرِ، فَلَا يَرَى مِنْهُ شَيْءٌ.

[٤٩٠٥] وقال البخاري: حدثنا أحمد بن شبيب، حدثنا أبي، عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «يَرْحُمُ اللَّهُ النِّسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَّلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَيَعْرِينَ بِحُثْرَيْنَ عَلَى جُبُورٍ﴾، شَقَقْنَ مَرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَزْنَ بِهَا»^(١).

[٤٩٠٦] وقال أيضاً: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ نَافِعٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنِ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - كَانَتْ تَقُولُ: «لَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَيَعْرِينَ بِحُثْرَيْنَ عَلَى جُبُورٍ﴾، أَخَذْنَ أَرْزَهُنَّ فَشَقَقْنَهَا مِنْ قَبْلِ الْحَوَاشِي، فَاخْتَمَزْنَ بِهَا»^(٢).

[٤٩٠٧] وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ، حَدَّثَنِي الزُّنْجِيُّ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَانَ بْنِ حُثَيْمٍ، عَنِ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ عَائِشَةَ، قَالَتْ: فَذَكَرْنَا نِسَاءَ قُرَيْشٍ وَفَضْلَهُنَّ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ - رضي الله عنها -: «إِنَّ نِسَاءَ قُرَيْشٍ لَفُضِّلْنَ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ أَشَدَّ تَصَدِيقاً بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَا إِيمَاناً بِالتَّنْزِيلِ، لَقَدْ أَنْزَلَتْ سُورَةُ النُّورِ: ﴿وَلَيَعْرِينَ بِحُثْرَيْنَ عَلَى جُبُورٍ﴾، انْقَلَبَ إِلَيْهِنَّ رِجَالُهُنَّ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِنَّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِنَّ فِيهَا، وَيَتْلُو الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ وَابْنَتِهِ وَأَخْتِهِ، وَعَلَى كُلِّ ذِي قَرَابَةٍ، فَمَا مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا قَامَتْ إِلَى مِزْطِهَا الْمَرْحَلِ فَاعْتَجَرَتْ بِهِ، تَصَدِيقاً وَإِيمَاناً بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابِهِ، فَاصْبَحْنَ وَرَاءَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الصُّبْحَ مَعْتَجِرَاتٍ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ الْغُرَبَانَ»^(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنِ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ^(٤)، بِهِ.

[٤٩٠٨] وقال ابنُ جرير: حَدَّثَنَا يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَنَّ قُرَّةَ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخْبَرَهُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَرْحُمُ اللَّهُ النِّسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَّلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَيَعْرِينَ بِحُثْرَيْنَ عَلَى جُبُورٍ﴾، شَقَقْنَ أَكْثَفَ مَرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَزْنَ بِهِ^(٥). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهْبٍ، بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدْرِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِمَعْلُومَةٍ﴾، يعني أزواجهنَّ، «أَوْ مَا بَيْنَهُنَّ أَوْ مَا بَيْنَهُنَّ أَوْ أَكْبَاهَهُنَّ أَوْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٩ والنسائي في «التفسير» ٣٨٣.

(٣) إسناده ضعيف، فيه الزنجي بن خالد، وثقه ابن حبان وحده على قاعدته، والخبر في بعض ألفاظه نكارة، وأصله محفوظ له شواهد.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٠٠ وإسناده غير قوي من أجل ابن مهاجر، لكن له شواهد.

(٥) أخرجه أبو داود ٤١٠٢ وابن جرير ٢٥٩٧٨ وإسناده حسن لأجل قرة بن عبد الرحمن، لكن له شواهد.

أَنْسَكَ بَعُولَتَيْكَ أَوْ إِخْوَانِيَهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِيَهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِيَهِنَّ»، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتنها، ولكن من غير اقتصادٍ وتبهرج.

وقال ابن المنذر: حدثنا موسى - يعني ابن هارون - حدثنا أبو بكر - يعني ابن أبي شيبة - حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا داود، عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية: «وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ»، حتى فرغ منها قال: لم يذكر العم ولا الخال، لأنهما ينعتان لأبنائهما، ولا تضع خمارها عند العم والخال، فاما الزوج فإما ذلك كله من أجله، فتصنع له: ما لا يكون بحضرة غيره.

وقوله: «أَوْ إِسَاءَتِهِنَّ»، يعني: تظهر زينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة، لئلا يصفرن لرجالهن، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمنعن من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتزجر عنه.

[٤٩٠٩] وقد قال رسول الله - ﷺ -: «لا تباشر المرأة المرأة، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»^(١). أخرجاه في الصحيحين، عن ابن مسعود.

وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن هشام بن الغازي، عن عبادة بن نسي، عن أبيه، عن الحارث بن قيس قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: أما بعد فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فأنة من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها. وقال مجاهد في قوله: «أَوْ إِسَاءَتِهِنَّ»، قال: نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تتكشفت بين يدي المشركة. وروى عبد بن حميد في تفسيره، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: «أَوْ إِسَاءَتِهِنَّ»، قال: هن المسلمات، لا ثدييه يهودية ولا نصرانية، وهو النحر والفرط والوشاح، وما لا يحل أن يراه إلا محرماً.

وروى سعيد: حدثنا جرير، عن ليث، عن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة، لأن الله تعالى يقول: «أَوْ إِسَاءَتِهِنَّ»، فلتسن من نسائهن. وعن مكحول وعبادة بن نسي: أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة. فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمير، حدثنا ضمرة قال: قال ابن عطاء، عن أبيه: «وَلَمَّا قَدِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ - ﷺ - بَيْتَ الْمَقْدِسِ، كَانَ قَوَابِلُ نِسَائِهِمُ الْيَهُودِيَّاتِ وَالنَّصْرَانِيَّاتِ. فَهَذَا إِنْ صَحَّ مَحْمُولٌ عَلَى حَالِ الضَّرُورَةِ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِمْتِهَانِ. ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ كَشْفُ عَوْرَةٍ وَلَا بُدٌّ وَاللَّهِ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ»، قال ابن جرير: يعني من الإماء المشركات، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة، لأنها أمتهن. وإليه ذهب سعيد بن المسيب. وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء.

[٤٩١٠] واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود. حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جُمَيْعٍ سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - أتى فاطمةً بعبدٍ قد وقبه لها، قال: وعلى فاطمة

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٠ وأبو داود ٢١٥٠ والترمذي ٢٧٧٢ وأحمد ٤٤٠/١ وأبو يعلى ٥٠٨٣ وابن حبان ٤١٦٠

من حديث ابن مسعود، ولم أره في «صحيح مسلم».

ثوب إذا قُتعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غُطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي - ﷺ - ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلأمك»^(١).

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة خديج الحُصَي - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة، وأنه قد كان النبي - ﷺ - وهبه لابنته فاطمة، فزنته ثم اعتقته، ثم قد كان بعد ذلك كله برز مع معاوية أيام صفين، وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

[٤٩١١] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عُيينة، عن الزهري، عن نُهان، عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا كان لإحدائكم مكاتب، وكان له ما يؤذي، فلتحتجب منه»^(٢). ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن سُفيان، به. وقوله تعالى: «أَوِ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْجَالِ»، يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفَاء، وهم مع ذلك في عقولهم ولهم وُحُوت، ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن. قال ابن عباس: هو المُغْفَل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله. وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذكره. وكذلك قال غير واحد من السلف.

[٤٩١٢] وفي الصحيح من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة: أن مُخْنَثًا كان يدخل على أهل رسول الله - ﷺ - وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي - ﷺ - وهو ينعت امرأة: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال رسول الله - ﷺ -: ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا، لا يدخلن عليكن. فأخرجه، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم^(٣).

[٤٩١٣] روى الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: دخل عليها رسول الله - ﷺ - وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية والمخنث يقول لعبد الله: يا عبد الله بن أبي أمية، إن فتح الله عليكم الطائف غدا فعليك بابنة غيلان، فإنها تُقبِلُ بأربع وتُدْبِرُ بثمان. قال: فسَمِعَهُ رسول الله - ﷺ - فقال لأم سلمة: «لَا يَدْخُلُنَّ هَذَا عَلَيْكَ»^(٤). أخرجه في الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، به.

[٤٩١٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رجلٌ يدخل على أزواج النبي - ﷺ - مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي - ﷺ - وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة. فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٤١٠٦ والبيهقي ٩٥/٧ وإسناده لين من أجل أبي جيع، وتابعه سلام بن أبي الصهباء كما قال البيهقي، وهو ضعيف، لكن يصلح للمتابعة، وله شواهد.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٣٩٢٨ والترمذي ١٢٦١ وابن ماجه ٢٥٢٠ وأحمد ٢٨٩/٦ وأبو يعلى ٢٩٥٦ والبيهقي ٣٢٧/١٠ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح. لكن عجزه «فأخرجه...» ما رواه الشيخان، وإنما أخرجه أبو داود ٤١٠٩ بسند صحيح وكرره، ٤١١٠ من وجه آخر. وهو دون عجزه، أخرجه مسلم ٢١٨١ وأبو داود ٤١٠٧ وأحمد ١٥٢/٦.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٢٤ و٥٣٥٥ ومسلم ٢١٨٠ وأبو داود ٤٩٢٩ وابن ماجه ١٩٠٢ وأحمد ٢٩٠/٦ و٣١٨ وأبو يعلى ٦٩٦٠.

وإذا أدبرت أدبرت بشمان. فقال النبي ﷺ: ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا؟ لا يدخلن عليكم هذا. فَحَبَّوْهُ^(١). ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي من طريق عبد الرزاق، به.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْطِفْلَ الَّذِي تَرَىٰ يُظْهِرُ عَلَىٰ عَوْرَتِ الْأُنثَىٰ﴾، يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن، من كلامهن الرّجيم، وتعتطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويذريه، ويُفَرِّق بين الشوهاء والحسناء، فلا يُمكن من الدخول على النساء.

[٤٩١٥] وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «إياكم والدخول على النساء». قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحمؤ؟ قال: الحمؤ الموت^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يسمع صوته - ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طينته. فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحرّكت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾. ومن ذلك أيضاً أنها تنهى عن التعطر والتطيّب عند خروجها من بيتها ليشتتم الرجال طيبها.

[٤٩١٦] فقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن ثابت بن عماره الخنفي، عن غثيم بن قيس، عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال: «كل عين زانية»، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا، يعني زانية^(٣). قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حسن صحيح ورواه أبو داود والنسائي، من حديث ثابت بن عماره، به.

[٤٩١٧] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا شفيان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رهم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب، ولذيلها إعصار فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال: وله تطييب؟ قالت: نعم. قال: إني سمعت جبي أبا القاسم - ﷺ - يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد، حتى ترجع فتغتسل غسلاً من الجنابة»^(٤). ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن شفيان - هو ابن عيينة - به.

[٤٩١٨] وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ - قال: «مثل الراقلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها»^(٥). ومن ذلك أيضاً أنهم يُنهين عن المشي في وسط الطريق، لما فيه من التبرج.

(١) هو المتقدم قبل حديث واحد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣٢ ومسلم ٢١٧٢ والترمذي ٢١٧١ وأحمد ١٤٩/٤ و١٥٣ وابن حبان ٥٥٨٨ والبيهقي ٧/٩٠ من حديث عقبة بن عامر.

(٣) جيد. أخرجه الترمذي ٢٧٨٦ والنسائي ١٥٣/٨ وأحمد ٤١٤/٤ وابن حبان ٤٤٢٤ وصححه الحاكم ٣٩٦/٢، ووافقه الذهبي، وإسناده قوي، وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر صحيح الترمذي ٢٢٣٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٧٤ وابن ماجه ٤٠٠٢ وأحمد ٢٤٦/٢ و٤٤٤ وإسناده ضعيف لضعف عاصم بن عبيد الله.

(٥) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ١١٦٧، والزيادة منه، وضعفه بقوله: موسى بن عبيدة يضعف من قبل حفظه، وهو صدوق، ورواه بعضهم عن موسى بن عبيدة، ولم يرفعه.

[٤٩١٩] قال أبو داود: حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - عن أبي اليمان، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس، عن أبيه، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه: أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول وهو خارج من المسجد - وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق - فقال رسول الله - ﷺ - للنساء: «استأخرن»، فإنه ليس لكن أن تحققن^(١) الطريق، عليكن بحافات الطريق. فكانت المرأة تلتصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار، من لصوقها به^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: افعَلُوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركُوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه، والله تعالى هو المستعان، وعليه التكلان.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) «وَلِيسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكُلُوا مِنْهُم إِن عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَعَاقِبُكُمْ مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَبِيتَكُمْ عَلَىٰ إِلْغَالِهِ إِن أَرَدْتُمْ حَصَصًا لِتَبْتَغُوا عَرَصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٣) «وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤)

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقولهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم﴾، هذا أمر بالتزويج. وقد دُفِب طائفة من العلماء إلى وجوبه، على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله - ﷺ -:

[٤٩٢٠] «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(٣). أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود.

[٤٩٢١] وجاء في السنن - من غير وجه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «تَزَوَّجُوا تَوَالِدُوا تَنَاسَلُوا، فإني مَبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة». وفي رواية: «حتى بالسقط»^(٤). الأيامي: جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له. وسواء كان قد تزوج ثم فارق، أو لم يتزوج واحد منهما، حكاها الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيم وامرأة أيم أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رَغِبَهُم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، وعَدَّهُم عليه الغنى، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد الأزرق، حدثنا عمر بن عبد

(١) حق الطريق: تَوَسُّطه.

(٢) أخرجه أبو داود ٥٢٧٢ وإسناده ضعيف، أبو اليمان مستور وشداد وأبوه مجهولان، وهو بهذا السياق ضعيف. وورد بلفظ «ليس للنساء وسط الطريق» أخرجه ابن حبان ٥٦٠١ بسند ضعيف لضعف مسلم بن خالد الزنجي، ولعل الراجح فيهما الوقف، والله أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٣.

(٤) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤.

الواحد، عن سعيد - يعني ابن عبد العزيز - قال: بلغني أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح يُنجز ما وعدكم من الغنى، قال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. رواه ابن جرير، وذكر البغوي عن عمر بنحوه.

[٤٩٢٢] وعن الليث، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغايز في سبيل الله»^(١). رَوَاهُ الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقد زَوَّج رسول الله - ﷺ - ذلك الرجل الذي لم يجد إلا إزاره، ولم يقدِّر على خاتم من حديد^(٢)، ومع هذا فزَوَّجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يُعلِّمها ما يحفظه من القرآن. والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه وإياها ما فيه كفاية له ولها. فأما ما يُورده كثير من الناس على أنه حديث:

[٤٩٢٣] «تَزَوَّجُوا فَقَرَاءَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ»، فلا أصل له، ولم أره بإسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن، وفي القرآن غنية عنه، وكذلك هذا الحديث الذي أورده، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَفِزَّ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال - ﷺ -:

[٤٩٢٤] «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٣). وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمِنْ قَبْلِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى أن قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِروُا خَيْرَ لَكُمْ﴾، أي: صبركم عن تزويج الإماء خيراً، لأن الولد يجيء رقيقاً، ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥]. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَفِزَّ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾، قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فليُنظر في ملكوت السموات والأرض حتى يُغنيه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شازطه على أدائه. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، بل السيد مخير، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه، وإن شاء لم يكاتبه. وقال الثوري، عن جابر، عن الشعبي: إن شاء كاتبه، وإن لم يشاء لم يكاتبه. وكذا روى ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن رجل عن عطاء بن أبي رباح: إن يشأ كاتبه وإن لم يشأ لم يكاتبه. وكذا قال مقاتل ابن حيان، والحسن البصري. وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر.

(١) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٦٠.

(٢) هو معنى حديث يأتي في سورة الأحزاب إن شاء الله.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة.

وقال البخاري: وقال رَوْحٌ، عن ابن جُرَيْجٍ، قلتُ لعطاء: أوجبَ عليّ إذا عَلِمْتُ له مالاً أن أَكَاتِبَهُ؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار: قلتُ لعطاء: أثارُهُ عن أحدٍ؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى ابن أنس أخبره أن سيرينَ سأل أنساً المُكَاتِبَةَ، وكان كثير المال فأبى، فانطلق إلى عُمَرَ بن الخطاب فقال: كَاتِبُهُ. فأبى، فَضْرِبُهُ بالدَّرَّةِ، ويَتْلُو عُمَرَ - رضي الله عنه -: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. فكاتبته. هكذا ذكره البخاري تعليقاً، ورواه عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْجٍ قال: قلتُ لعطاء: أوجبَ عليّ إذا عَلِمْتُ له مالاً أن أَكَاتِبَهُ؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقالها عمرو بن دينار، قال: قلتُ لعطاء: أثارُهُ عن أحدٍ؟ قال: لا. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سَعِيدٌ، عن قَتَادَةَ، عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يُكَاتِبَهُ، فَتَلَّكَأَ عليه، فقال له عمر: لَتُكَاتِبْتَهُ. إسناده صحيح. وقال سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حدثنا هُشَيْمٌ، عن جُوزَيْرٍ، عن الضُّحَاكِ قال: هي عَزْمَةٌ. وهذا هو القولُ القديم من قولِي الشافعي - رحمه الله - وذهب في الجَدِيدِ إلى أنه لا يجبُ، لقوله عليه الصلاة والسلام:

[٤٩٢٥] «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطَيْبٍ مِنْ نَفْسِهِ»^(١). وقال ابنُ وَهْبٍ: قال مالك: الأمرُ عندنا أن ليس على سيّد العبد أن يُكَاتِبَهُ إذا سألَهُ ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يُكَاتِبَ عبده، قال مالك: وإنما ذلك أمرٌ من الله تعالى وإذنٌ منه للناس، وليس بواجب. وكذا قال الثوري، وأبو حنيفة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم: واختار ابنُ جرير قولَ الوجوب لظاهر الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، قال بعضهم: أمانة، وقال بعضهم: صدقاً. وقال بعضهم: مالاً، وقال بعضهم: جيلة وكسباً.

[٤٩٢٦] وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الْمَراسيلِ»، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، قال: إن علمتم فيهم حِرْفَةً، ولا ترسلوهم كلاً على الناس^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾، اختلف المفسرون فيه، فقال قائلون: معناه إطرحوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع. وقيل: الثلث. وقيل: النصف. وقيل: الربع. وقيل: جزء من الكتابة من غير حد. وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾: هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة. وهذا قولُ الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبيه، ومقاتل بن حيان. واختاره ابنُ جرير. وقال إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾، قال: حَتَّ الناسَ عَلَيْهِ، مولاة وغيره. وكذلك قال بُرَيْدَةُ بن الحُصَيْبِ الأسلمي، وقتادة. وقال ابنُ عباس: أمر الله المؤمنين أن يُعِيْنُوا فِي الرِّقَابِ.

[٤٩٢٧] وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ»^(٣). فذكر منهم المكاتب يريد الأداء. والقول الأول أشهر.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا وكيع، عن ابن شبيب، عن عكرمة، عن ابن

(١) حسن. أخرجه أبو يعلى ١٥٧٠ وأحمد ٧٢/٥ والدارقطني ٢٦/٣ والبيهقي ١٠٠/٦ من حديث أبي مرة الرقاشي عن عمه وفيه علي بن زيد غير قوي، لكن له شواهد تقويه منها حديث أبي حميد الساعدي عند أحمد ٤٢٥/٥ وابن حبان ٥٩٧٨ والبزار ١٣٧٣ وإسناده حسن رجاله ثقات.

(٢) ذكره أبو داود في «المراسيل» ١٦٢ عن يحيى بن أبي كثير مرسلًا. ومراسيل يحيى وإهية، والخبر شبه موضوع.

(٣) تقدم برقم ٤٩٢٢.

عباس، عن عُمَرَ: أنه كَاتَبَ عَبْدًا لَهُ، يُكْنَى أبا أُمَيَّةَ، فجاء بِتَجْمِهِ حِينَ حُلِّ، فقال: يا أبا أُمَيَّةَ، اذهب فاستعن به في مُكَاتِبَتِكَ. قال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لو تركته حتى يكون من آخر نَجْمٍ؟ قال: أَخَافُ الْأَدْرِكَ ذَلِكَ. ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾. قال عكرمة: فكان أول نجم أُدِّي في الإسلام. وقال ابن جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنْ عَنَبَسَةَ، عَنْ سَالِمِ الْأَفْطَسِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا كَاتَبَ مُكَاتِبَهُ لَمْ يَضَعْ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ أَوَّلِ نُجُومِهِ، مخافة أن يَعْجِزَ فَتَرْجِعَ إِلَيْهِ صَدَقَتُهُ. ولكنه إذا كان في آخر مُكَاتِبَتِهِ وَضَعَ عَنْهُ مَا أَحَبَّ. وقال علي بن أبي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾، قال: يعني ضَمُّوا عَنْهُمْ مِنْ مَكَاتِبَتِهِمْ. وكذلك قال مجاهد، وعطاء، والقاسم بن أبي بَزَّةَ، وعبد الكريم بن مالك الجَزَرِيُّ، والسَّدي. وقال محمد بن سيرين في قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾: كان يُعْجِبُهُمْ أَنْ يَدَعَ الرَّجُلَ لِمَكَاتِبَتِهِ طَائِفَةً مِنْ مَكَاتِبَتِهِ.

[٤٩٢٨] وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان المُقَرِّي، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جَرِيرٍ، أخبرني عطاء بن السائب: أن عبد الله بن حبيب^(١) أخبره، عن علي - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «ربع الكِتَابَةِ»^(٢)، وهذا حديث غريب، ورفعهُ مُنْكَرٌ، والأشبه أنه موقوفٌ على علي - رضي الله عنه - كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السَّليُّ، رَجَّحه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْحَصًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت. فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك. وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين، من السلف والخلف - في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول، المنافق، فإنه كان له إمأة، فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم.

ذكر الآثار الواردة في ذلك: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله في مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو اللَّخْمِيُّ - يعني محمد بن الحجاج - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ الزَّهْرِيِّ قَالَ: كانت جارية لعبد الله بن أبي يقال لها معاذة، يكرهها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ أَلْكَرِهِيْنَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر في هذه الآية: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾، قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها: مُسَيِّكة، كان يكرهها على الفجور، وكانت لا بأس بها، فتأبى. فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ أَلْكَرِهِيْنَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾. وروى النسائي، من حديث ابن جَرِيرٍ، عن أبي الزبير، عن جابر، نحوه. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حَدَّثَنَا عمرو بن علي، حَدَّثَنَا علي بن سعيد، حَدَّثَنَا الأعمش، حَدَّثَنَا أبو سفيان، عن جابر قال: كان لعبد الله بن أبي ابن سلول جارية يقال لها مُسَيِّكة، وكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ

(١) وقع في سائر الأصول «عبد الله بن جندب» والتصويب عن كتب التراجم والمستدرک.

(٢) الصحيح موقوف. أخرجه الحاكم ٣٩٧/٢ ح ٣٥٠١. وصححه، وقال: عبد الله بن حبيب هو أبو عبد الرحمن السلمي، وقد أوقفه عن علي في رواية أخرى اهـ قلت: الاضطراب في رفعه، ووقفه من ابن السائب، فإنه صدوق، لكن اختلط بأخوة، والموقوف أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢٠٣٨ والطبري ٢٦٠٤٦ و٢٦٠٤٧ و٢٦٠٤٩ من طريق ابن السائب، وأخرجه الطبري ٢٦٠٤٨ من طريق آخر عن السلمي عن علي موقوفاً أيضاً، وهو أصح.

بَعْدَ إِكْرَاهِهِمْ غُفُورٌ رَّحِيمٌ». صَرَّحَ الْأَعْمَشُ بِالسَّمَاعِ مِنْ أَبِي سَفِيَّانَ طَلْحَةَ بْنِ نَافِعٍ، قَدْ لُغِيَ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِهِ مِنْ قَالَ: لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ، إِنَّمَا هُوَ ضَعِيفٌ، حَكَاهُ الْبَزَّازُ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مَعَاذٍ، عَنْ سِمَاكِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ جَارِيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي كَانَتْ تَزْنِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَوَلَدَتْ أَوْلَادًا مِنَ الزَّانِ، فَقَالَ لَهَا: مَا لَكَ لَا تَزْنِينَ؟ قَالَتْ: لَا، وَاللَّهِ لَا أَزْنِي. فَضَرَبَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِفْلَاقِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْنًا﴾. وَرَوَى الْبَزَّازُ أَيْضًا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ الْوَاسِطِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو اللَّخْمِيُّ يَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ الْحَجَّاجِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ جَارِيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يُقَالُ لَهَا مَعَاذَةُ يَكْرِهَهَا عَلَى الزَّانِ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ نَزَلَتْ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِفْلَاقِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْنًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غُفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزَّهْرِيِّ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ أَسِيرَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُسَيْرًا، وَكَانَتْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَارِيَةَ يُقَالُ لَهَا: مَعَاذَةُ، وَكَانَ الْقُرَشِيُّ الْأَسِيرُ يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا، وَكَانَتْ مُسْلِمَةً، وَكَانَتْ تَمْتَنِعُ مِنْهُ لِإِسْلَامِهَا، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي يُكْرِهَهَا عَلَى ذَلِكَ وَيُضْرِبُهَا، رَجَاءً أَنْ تَحْمَلَ لِلْقُرَشِيِّ، فَيُطْلَبُ فِدَاءُ وَلَدِهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِفْلَاقِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْنًا﴾.

[٤٩٢٩] وَقَالَ السَّيِّ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ رَأْسِ الْمَنَافِقِينَ، وَكَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ تَدْعَى مَعَاذَةَ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ بِهِ [ضَيْفٌ] أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ لِيُوَاقِعَهَا، إِزَادَةَ الثَّوَابِ مِنْهُ وَالْكَرَامَةِ، فَأَقْبَلَتْ الْجَارِيَةُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَشَكَتَ إِلَيْهِ ذَلِكَ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - فَأَمَرَهُ بِقَبْضِهَا. فَصَاحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: مَنْ يَغْدُرُنَا مِنْ مُحَمَّدٍ؟! يَغْلِبُنَا عَلَى مَمْلُوكَتِنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذَا^(١). وَقَالَ مِقَاتُ بْنُ حَبَّانٍ: بَلَّغْنَا - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ كَانَا يُكْرِهَانِ أَمَتَيْنِ لَهَا، إِحْدَاهُمَا اسْمُهَا مُسَيِّكَةُ، وَكَانَتْ لِلْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَتْ أَمِيمَةً أُمُّ مُسَيِّكَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَكَانَتْ مَعَاذَةُ وَأَرَوَى بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ، فَاتَتْ مُسَيِّكَةَ وَأَمَهَا النَّبِيَّ - ﷺ - فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِفْلَاقِ﴾، يَعْنِي الزَّانِ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ حَصْنًا﴾: هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ، فَلَا مَفْهُومَ لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَنْتَفِرُوا عَرَضَ الْحَبَشَةِ﴾ أَي: مِنْ خَزَائِجِهِمْ وَمُتُحَرِّمِينَ وَأَوْلَادِهِمْ.

[٤٩٣٠] وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ كَسْبِ الْحُجَّامِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ، وَخُلُوفِ الْكَاهِنِ^(٣).

[٤٩٣١] وَفِي رِوَايَةٍ: «مَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَكَسْبُ الْحُجَّامِ خَبِيثٌ، وَثَمْنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غُفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أَي: لَهُنَّ، كَمَا تَقْدُمُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ جَابِرٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَهُنَّ غُفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِثْمُهُنَّ عَلَى مَنْ أَكْرَاهَهُنَّ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالْأَعْمَشُ، وَتَقَادَةُ.

وقال أبو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ الْأَزْرَقِيُّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ

(١) هَذَا مَرْسَلٌ، وَالسَّيِّدُ غَيْرُ قَوِيٍّ إِذَا وَصَلَ الْحَدِيثَ، فَكَيْفَ إِذَا أَرْسَلَهُ؟ وَالْغَرِيبُ فِيهِ فَقَطْ ذِكْرُ النَّبِيِّ ﷺ. فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ عِلِمَ بِذَلِكَ لَأَتَمَّ ابْنَ سُلُوفٍ بِالشَّرِيعَةِ وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ.

(٢) هَذَا مَعْضَلٌ، وَمِقَاتُ ذُو مَنَاقِبٍ. وَالصَّحِيحُ مَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ آتِفًا.

(٣) تَقْدُمُ بِرَقْمِ (٤٤٧١).

(٤) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ١٥٦٨ ح ٤١ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ.

غَفُورٌ رَحِيمٌ»، قال: لَهُنَّ وَاللهُ، لَهُنَّ وَاللهُ. وعن الزهري قال: غَفُورٌ لَهُنَّ مَا أَكْرَهْنَ عَلَيْهِ. وعن زيد بن أسلم قال: غفور رحيم للمُكْرَهَاتِ. حكاها ابن المنذر في تفسيره بأسانيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء، عن سعيد بن جُبَيْر قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فَأَنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، وإِثْمُهُنَّ عَلَى مَنْ أَكْرَهُهُنَّ.

[٤٩٣٢] وفي الحديث المرفوع عن رسول الله - ﷺ - إنه قال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ»^(١).

ولما فَضَّلَ تبارك وتعالى هذه الأحكام وَبَيَّنَّهَا قال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنِكَ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ»، يعني: القرآن فيه آيات واضحة مُفَسَّرَات، «وَمَثَلًا لِمَنْ أَلَّيْنِ خَلَا مِنْ قَبْلِكَ»، أي: خبراً عن الأمم الماضية، وما خُلَّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: «فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ» [الزخرف: ٥٦]. «وَمَوْعِظَةً»، أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم، «لِلْمُتَّقِينَ»، أي: لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في صفة القرآن: «فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونَبَأ ما بعدكم. وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جَبَارٍ قَصَمَهُ الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْيَصْبَاحُ فِي رُجَاةِ الرَّجَاةِ كَأَنَّا كَوَكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٥)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول: هادي أهل السموات والأرض. وقال ابن جريج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِيهِمَا، نَجْوِيهِمَا وَشَمْسِيهِمَا وَقَمَرُهُمَا. وقال ابن جريج: حدثنا سليمان بن عُمر بن خالد الرقي، حدثنا وهب بن راشد، عن قرقيد، عن أنس بن مالك قال: إن الله يقول: نُورِي هُدَايَ. واختار هذا القول ابن جريج، رحمه الله. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قول الله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ»، قال: هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره، فَضَرَبَ الله مثله فقال: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، فبدأ بنور نفسه. ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به، قال فكان أبي بن كعب يقرؤها: «مثل نور من آمن به»، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره. وهكذا رَوَى سعيد بن جبيرة، وقيس بن سعيد، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك «مِثْلُ نُورٍ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ». وقرأ بعضهم: «الله مُنَوَّرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». وعن الضحاك: «الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وقال السدي في قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»: فَيُنَوِّرُهُ أَضَاءُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

[٤٩٣٣] وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ بِي غَضَبُكَ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(٢).

(١) غير قوي، وقد تقدم باستيفاء.

(٢) هذا معضل، ولعله تقدم.

[٤٩٣٤] وفي الصحيحين، عن ابن عباس: كان رسول الله - إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت قِيمَ السموات والأرض ومن فيهن»، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن»^(١). الحديث. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه». وقوله: «مثل ثوربه»، في هذا الضمير قولان: أحدهما: أنه عائد إلى الله - عز وجل - أي: مثل هُداة في قلب المؤمنين - قاله ابن عباس - كَمِشْكَاةٍ. والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دلَّ عليه سياق الكلام، تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه كَمِشْكَاةٍ. فشبَّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه - كما قال تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْرَافٍ زَيْنٍ وَمَثَلُ شَاهِدٍ مُنْتَهَ» [هود: ١٧] - فشبَّه قلب المؤمن في صفاته في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كدر فيه ولا انحراف.

فقوله تعالى: «كَيْشْكُورَ»، قال ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وغير واحد: هو موضع القتيلة من القنديل. هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: «فِيهَا مَصْبَاحٌ»، وهو الذبالة التي تضيء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشْكُورَ»، وذلك أن اليهود قالوا لمحمد - ﷺ - : كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشْكُورَ». والمِشْكَاةُ: كُوءٌ في البيت - قال: وهو مثل ضرب الله لطاعته، فسمى طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى. وقال ابن نجيم، عن مجاهد: هي الكُوءُ بلغة الحبشة. وزاد غيره فقال: المشكاة: الكُوءُ التي لا منفذ لها. وعن مجاهد: المشكاة: الحداث التي يعلّق بها القنديل. والقول الأول أولى، وهو أن المشكاة هي موضع القتيلة من القنديل، ولهذا قال: «فِيهَا مَصْبَاحٌ»، وهو النور الذي في الذبالة. قال أبي بن كعب: المصباح، النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره. وقال السدي: هو السراج. «أَلَيْسَ فِي ذِكْرِهِ»، أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية. قال أبي بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن، «أَلَيْسَ كَأَنَّ كَوْكَبَ دُرٍّ»، قرأ بعضهم بضم الدال من غير همز، من الدر، أي: كأنها كوكب من در. وقرأ آخرون: «دُرٍّ»، و«دُرٍّ» بكسر الدال وضمها مع الهمز، من الدر وهو الدفء، وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب دراري. قال أبي بن كعب: كوكب مضيء. وقال قتادة: مضيء مبين ضخم. «يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مَبْرُكَةٍ»، أي: يستمد زيت زيتون شجرة مباركة. «زَيْتُونَةٍ»، بدل أو عطف بيان، «لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ»، أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيتقلص عنها الفء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط تفرعها الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها معتدلاً صافياً مشرقاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعيد، أخبرنا عمرو بن أبي قيس، عن سيماء بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: «زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ»، قال: «شجرة بالصحراء، لا يظللها جبل ولا شجر ولا كهف، ولا يوارئها شيء، هو أجود لزيتها». وقال يحيى بن سعيد القطان، عن عمران بن حدير، عن عكرمة، في قوله تعالى: «لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ» قال: هي بصحراء، وذلك أصفى لزيتها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عمر بن فروخ،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١١٢٠ ومسلم ٧٦٩ والنسائي ٢٠٩/٣ وأحمد ٣٥٨/١ وابن جبان ٢٥٩٧.

عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة سأل رجل عن قوله تعالى: ﴿زَيْتُونٌ لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، قال: تلك زيتونة بأرض فلاة، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها، وإذا غربت غربت عليها، فذاك أصفى ما يكون من الزيت. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿زَيْتُونٌ لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، قال: ليست بشرقية، لا تُصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية لا تُصيبها الشمس إذا طلعت، ولكنها شرقية وغربية تُصيبها إذا طلعت وإذا غربت. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونٌ لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ يَكَادُ زَيْتَانًا يُضِيءُ﴾ قال: هو أجود الزيت. قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تُصيبها بالغداة والعشي، فتلك لا تُعد شرقية ولا غربية. وقال السدي في قوله: ﴿زَيْتُونٌ لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، يقول: ليست بشرقية يحوزها المشرق، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق، ولكنها على رأس جبل، أو في صحراء، تُصيبها الشمس النهار كله. وقيل: المراد بقوله: ﴿لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾: أنها في وسط الشجر، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب. قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، في قول الله تعالى: ﴿زَيْتُونٌ لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾ قال: فهي خضراء ناعمة، لا تُصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، قال: فكذلك هذا المؤمن، قد أُجبر من أن يُضِلَّ شيء من الفتن، وقد ابتلي بها فَيُثَبِّتَهُ الله فيها، فهو بين أربع خلال: إن قال صدق، وإن حَكَمَ عدل، وإن ابتلي صبر، وإن أُعطي شكر. فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قُبُور الأموات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن، حدثنا مُسَدَّد، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿زَيْتُونٌ لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، قال: هي وسط الشجر، لا تُصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً. وقال عطية العوفي: ﴿لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، قال: هي شجرة في موضع من الشجر، يُرَى ظِلُّ ثَمَرِهَا فِي وَرْقِهَا وَهَذِهِ مِنَ الشَّجَرِ لَا تَطْلُعُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ وَلَا تَغْرُبُ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدُّشْتُكِيُّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق، ولكنها شرقية غربية. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، قال: هي القبلية. وقال زيد بن أسلم: ﴿لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، قال: الشام. وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربته الله تعالى لنوره. وقال الضحاک، عن ابن عباس ﴿توقد من شجرة مباركة﴾، قال: رجل صالح، ﴿زَيْتُونٌ لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ﴾، قال: لا يهودي ولا نصراني. وأولى هذه الأقوال القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس، تَقَرَّعُهُ من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها والطف، كما قال غير واحد ممن تَقَدَّمَ. ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتَانًا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَنْسَسْهُ نَارٌ﴾، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني كضوء إشراق الزيت.

وقوله تعالى: ﴿ثُورٌ عَلَى ثُورٍ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله. وقال مجاهد، والسدي: يعني نور النار ونور الزيت. وقال أبي بن كعب: ﴿ثُورٌ عَلَى ثُورٍ﴾، فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حَدَّثَنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَكَادُ زَيْتَانًا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَنْسَسْهُ نَارٌ﴾، قال: يكاد محمدٌ يُبين للناس وإن لم يتكلم، أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء. وقال السدي في قوله: ﴿ثُورٌ عَلَى ثُورٍ﴾، قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتماعاً أضاء، ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعاً، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، أي: يُرشدُ الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

[٤٩٣٥] حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الدليجي، عن عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظِلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

[٤٩٣٦] طريق أخرى عنه، قال البزار: حدثنا نهار بن عثمان، حدثنا أيوب بن سويد، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظِلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ نُورًا مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النور اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَ ضَلَّ»^(٢). ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر بلفظه وحروفه. وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾، لما ذَكَرَ تعالى هذا مثلاً لنور هُذاه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال.

[٤٩٣٧] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الثَّغر، حدثنا أبو معاوية شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفٌ مَرْبُوطٌ عَلَى غُلَاقِهِ، وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُضْفَعٌ. فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ. وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُضْفَعُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيْمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمِثْلُ الْإِيْمَانِ فِيهِ كَمِثْلِ الْبِقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمِثْلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمِثْلِ الْقَرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدِينِ غَلَبَتْ عَلَى الْآخَرِى غَلَبَتْ عَلَيْهِ»^(٣). إسناده جيد، ولم يُخرجوه.

﴿فِي يُؤْتِي أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدْوَةِ وَالْأَصَالِ﴾ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ يَحْدَثَةٌ وَلَا يَبْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ الصَّلَاةِ وَإِنَّمَا الرِّكَوَّةُ يَحَاوُونَ يَوْمًا نَنقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٨)

لما ضَرَبَ الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقِّد

(١) جيد. أخرجه أحمد ١٧٦/٢ وابن حبان ٦١٦٩ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٢٢٨ وصححه الحاكم ٣٠١ وسكت عنه الذهبي. وأخرجه الترمذي ٢٦٤٢ وأحمد ١٩٧/٢ من وجه آخر عن ابن الدليمي به، وله شواهد تقويه.

(٢) أخرجه البزار ٢١٤٥ «كشف» وإسناده ضعيف لضعف أيوب بن سويد، لكن يشهد لما قبله.

(٣) ضعيف. جوده المصنف، وفي ذلك نظر. أخرجه أحمد ١٧/٣ والطبراني في «المنصور» ١٠٧٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٢٤: في إسناده ليث بن أبي سليم اهـ، وقال العراقي في «تخرج الإحياء» ١/١٢٣: ليث مختلف فيه اهـ. وفي «الميزان» ٦٩٩٧: ضعفه يحيى والنسائي، وعن يحيى: لا بأس به. وقال ابن حبان: اختلط في آخر عمره اهـ وله حلة أخرى أبو البختري، صدوق لكنه يرسل كثيراً، وقد عنعن ههنا، وقال سلمة بن كهيل: يروي عن الصحابة، ولم يسمع من كبير أحد، فما كان سماحاً فهو حسن، وما كان «عن» فهو ضعيف اهـ. ورواه غيره موقوفاً عن حذيفة وغيره، والله أعلم.

من زيت طيب، وذلك كالفندل مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوتها التي يُعبد فيها ويؤخذ، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِّنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾، أي: أمر الله تعالى برفعها، أي بتطهيرها من الدنس واللغو، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريم: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِّنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾، قال: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة، وأبو صالح، والضحاك، ونافع بن جببر، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسفيان بن حُسَيْن، وغيرهم من علماء المفسرين.

وقال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله سبحانه ببنائها ورفعها، وأمر بعمارها وتطهيرها. وقد ذكر لنا أن محباً كان يقول: مكتوب في التوراة: «ألا إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من تَوْضُأً فأحسن وضوءه، ثم زارني في بيتي أكرمه، وحق على المَؤرور كرامة الزائر». رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره. وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد، واحترامها وتوقيرها، وتطيبها وتبخيرها. وذلك له محل مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والمثنة. ونحن بقول الله تعالى نذكر هاهنا طرقاتاً من ذلك، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان:

[٤٩٣٨] فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة»^(١). أخرجاه في الصحيحين.

[٤٩٣٩] وروى ابن ماجه: عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٢). وللنسائي عن عمرو بن عَبَسَةَ مثله. والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

[٤٩٤٠] وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أمر رسول الله - ﷺ - ببناء المساجد في الدُّور، وأن تنظف وتطيب^(٣). رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي. ولأحمد وأبي داود، عن سُمرة بن جندب نحوه. وقال البخاري: قال عمر: ابن للناس ما يحبهم، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس.

[٤٩٤١] وروى ابن ماجه عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم»^(٤). وفي إسناده ضعف.

[٤٩٤٢] وروى أبو داود عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما أُمِرْتُ بتشديد المساجد». قال ابن عباس: «لَزَخْرَفَتِهَا كما زَخَرَفَتِ اليهود والنصارى»^(٥).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٠ ومسلم ٥٣٣ والترمذي ٣١٨ وأحمد ٦١/١ وابن حبان ١٦٠٩ والبيهقي ٤٣٧/٢.

(٢) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٧٣٥ وأحمد ٢٠/١ وابن حبان ١٦٠٨ وإسناده غير قوي، لكن له شواهد.

وفي الباب من حديث عمرو بن عبسة عند النسائي ٣٢/٢ وهو حديث صحيح بشواهد.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٥٥ والترمذي ٥٩٤ وابن ماجه ٧٥٩ وأحمد ٢٧٩/٦ وابن حبان ١٦٣٤ والبيهقي ٤٤٠/٢ وإسناده صحيح، وانظر صحيح أبي داود ٤٣٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٧٤١ من حديث عمر، وإسناده ضعيف جداً، قال البوصيري في «الزوائد»: أبو إسحق مدلس، وجبارة ابن مغلس، كذاب اهد وسيأتي ما يغني عنه.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٨ وابن حبان ١٦١٥ والبيهقي ٤٣٨/٢ - ٤٣٩ وإسناده صحيح.

[٤٩٤٣] وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»^(١). رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي.

[٤٩٤٤] وعن بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلًا أَشَدَّ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَيَّ الْجَمَلَ الْأَحْمَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «لا وَجَدْتُ، إِنَّمَا بُنِيتَ الْمَسَاجِدَ لِمَا بُنِيتَ لَهُ»^(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[٤٩٤٥] وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: نهى رسول الله - ﷺ - عن البيع والابتاع، وعن تناشد الأشعار في المساجد^(٣). رواه أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حسن.

[٤٩٤٦] وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أبيع الله تجارتك». وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردّها الله عليك»^(٤). رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب».

[٤٩٤٧] وقد رَوَى ابْنُ مَاجَهَ وَغَيْرُهُ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا، قَالَ: «خِصَالٌ لَا تَنْبَغِي فِي الْمَسْجِدِ: لَا يَتَّخَذُ طَرِيقًا، وَلَا يُشَهَّرُ فِيهِ سِلَاحٌ، وَلَا يُنْبَضُ فِيهِ بَقُوسٌ، وَلَا يُنْثَرُ فِيهِ نَبْلٌ، وَلَا يُمَرُّ فِيهِ بِلَحْمٍ نَيٍّ، وَلَا يُضْرَبُ فِيهِ حَذٌّ وَلَا يُقْتَصُّ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَا يُتَّخَذُ سَوْقًا»^(٥).

[٤٩٤٨] وعن واثلة بن الأسقع، عن رسول الله - ﷺ - قال: «جَنَّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صَبِيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ، وَشُرَاءَكُمْ وَيَبِيعَكُمْ، وَخُصُومَاتَكُمْ وَزَفَعَ أَصْوَاتَكُمْ، وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ وَسَلَّ شُيُوفَكُمْ، وَاتَّخَذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ، وَجَمَرُوهَا فِي الْجُمُعِ»^(٦). ورواه ابْنُ مَاجَهَ أَيْضًا، وَفِي إِسْنَادِهِمَا ضَعْفٌ. أَمَّا أَنَّهُ «لَا يَتَّخَذُ طَرِيقًا»، فَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمُرُورَ فِيهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ إِذَا وَجَدَ مَدْرُوحَةً عَنْهُ، وَفِي الْأَثَرِ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَعَجَّبُ مِنْ

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٩ والنسائي ٣٢/٢ وابن ماجه ٧٣٩ وأحمد ١٤٥/٣ و١٥٢ وابن حبان ١٦١٣ والبيهقي ٢/٤٣٩ وإسناده صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٥٦٩ والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ١٧٤ وابن ماجه ٧٦٥ وابن حبان ١٦٥٢.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ١٠٧٩ والترمذي ٣٢٢ والنسائي ٤٧/٢ - ٤٨ وابن ماجه ٧٤٩ و٧٦٦ وأحمد ١٧٨/٢ و٢١٢ وحسنه الترمذي صححه أحمد شاكر، ونقل تصحيحه عن ابن العربي. وورد من حديث حكيم بن حزام عند أبي داود ٤٤٩٠ وفيه زفر بن وثيمة، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول.

(٤) صحيح. أخرجه الترمذي ١٣١ وابن حبان ١٦٥٠ وابن السنن ١٧٦ وصححه الحاكم ٥٦/٢ ووافقه الذهبي وحسنه الترمذي. وإسناده صحيح. وأخرجه مسلم ٥٦٨ وأبو داود ٤٧٣ وأحمد ٣٤٩/٢ وابن حبان ١٦٥١ من وجه آخر من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٥) إسناده ضعيف جداً، أخرجه ابن ماجه ٧٤٨ وابن الجوزي في «العلل» ٦٧٦ وابن عدي ٢٠٢/٣ وابن حبان في «المجروحين» ٣١٠/١. قال ابن حبان: زيد بن جبيرة، منكر الحديث، يروي الناكير عن المشاهير، قال يحيى: لا شيء، وأعله ابن الجوزي أيضاً بدادود بن حصين. وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف زيد بن جبيرة، قال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه. وقال البخاري وغيره: متروك. تنبيه: الفقرة الأولى منه صحت من طريق أخرى ولبعضه الآخر شواهد. والغريب فيه لفظ «ولا يمر في بلحم نئ»، وانظر ما بعده.

(٦) ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٧٥٠ من حديث واثلة، وإسناده ضعيف جداً، الحارث بن نهبان، متفق على ضعفه. قاله البوصيري في «الزوائد». بل متروك. وورد عن أبي الدرداء، واثلة، وأبي أمامة جميعاً عن النبي ﷺ به أخرجه العقيلي ٣/٣٤٨ وابن عدي ٢١٩/٥ والطبراني ٧٦٠١. وابن الجوزي في «العلل» ٦٧٧ وقال: لا يصح، فيه العلاء بن كثير، قال أحمد: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث. وورد من حديث أبي هريرة، أخرجه ابن عدي ١٣٥/٤ وأعله بابين عرر، وضعفه به، فالحديث ضعيف بكل طرقه. ولا يرقى إلى درجة الحسن لشدة ضعف رواته، والله أعلم.

الرجل يمر في المسجد لا يُصَلِّي فيه». وأما أنه «لا يُشَهَرُ فيه بسلاح، ولا يُنْبَضُ فيه بقوس، ولا يُنْتَرُ فيه نَبْلٌ»، فليما يُخْشَى من إصابة بعض الناس به، لكثرة المصلين فيه.

[٤٩٤٩] ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مرَّ رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذي أحداً^(١)؛ كما بُنيت في الصحيح. وأما النهي عن المرور باللحم التي فيه، فلما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نُهييت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوّث. وأما أنه «لا يُضْرَبُ فيه حَدٌّ أو يُقْتَصُّ»، فلما يُخْشَى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع. وأما أنه «لا يُتَّخَذُ سَوْقاً»، فلما تُقدَّم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بُني لِذِكْرِ الله والصلاة. كما قال النبي ﷺ - لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد:

[٤٩٥٠] «إن المساجد لم تُبَنَ لهذا، إنما بُنيت لذكر الله والصلاة فيها». ثم أمر بسجّل من ماء، فأهرقَ على بؤله^(٢).

وفي الحديث الثاني: «جئوا مساجدكم صبيانكم». وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يتأسيبهم، وقد كان عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد، ضربهم بالمِخْفَقَة - وهي الدُرّة - وكان يُفْتَسُ المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً. «ومَجَانِينكم»، يعني: لأجل ضَعْفِ عَقُولهم، وسَخَرِ الناس بهم، فَيُؤْذِي إلى اللَّعِبِ فيها، ولما يُخْشَى من تقذيرهم المسجد، ونحو ذلك. «وبيعكم وشراءكم»، كما تقدم. «وَحُصُوماتكم»، يعني التحاكم والحُكْم فيه. ولهذا نصّ كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لِفَضْلِ الأفضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره، لما فيه من كثرة الحُكُومات والتشاجر والعياط الذي لا يتناسبه، ولهذا قال بعده: «وَرَفَعَ أصواتكم».

[٤٩٥١] وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حَدَّثَنَا يحيى بن سَعِيد، حدثنا الجُعَيْد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خُصَيْفَة، عن السائب بن يَزِيد الكِنْدِي قال: «كنت قائماً في المسجد، فَحَصَبَنِي رجلٌ، فنظرت فإذا عُمر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئت بهما، فقال: من أنتما؟ - أو: من أين أنتما؟ - قال: من أهل الطائف. قال: لو كُتِمَا من أهل البلد لأوجعتكما. ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ^(٣). وقال النسائي: حدثنا سُؤيد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، عن شُعْبَة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سَمِعَ عُمرُ صَوْتَ رجلٍ في المسجد فقال: أَتَدْرِي أين أنت؟ وهذا أيضاً صحيح.

وقوله: «وإقامة حُدُودكم، وسَلَّ سُيُوفكم»، تَقْدَماً. وقوله: «وَاتَّخَذُوا على أبوابها المَطَاهِرَ»، يعني: المراحيض التي يُسْتَعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ - آبارٌ يستنُّون منها، فَيَشْرَبُونَ وَيَتَطَهَّرُونَ، وَيَتَوَضَّئُونَ وغير ذلك. وقوله: «وجمروها في الجمع»، يعني: بَخَرُوها في أيام الجُمُع لكثرة اجتماع الناس يومئذ. وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عُبَيْد الله، حَدَّثَنَا عَبْدُ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٧٥ ومسلم ٢٦١٥ وأبو داود ٢٥٨٧ وابن ماجه ٣٧٧٨ وأحمد ٤١٠/٤ وابن حبان ١٦٤٩ والبيهقي ٢٣/٨ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢١٩ و٢٢١ و٦٠٢٥ ومسلم ٢٨٤ والنسائي ٤٧/١ وابن ماجه ٥٢٨ وأحمد ٢٢٦/٣ وابن حبان ١٤٠١ من حديث أنس بآتم منه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠.

الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عُمر، عن نافع، عن ابن عُمر: أن عمر كان يُجَمِّر مَسْجِدَ رَسُولِ الله - ﷺ - كُلَّ جُمُعَةٍ. إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم.

[٤٩٥٢] وقد ثَبِتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ الله - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعِّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعَشْرِينَ ضِعْفًا». وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطُّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ. فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِهِ. وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا انتَظَرَ الصَّلَاةَ^(١).

[٤٩٥٣] وَعِنْدَ الدَّارِقُطْنِيِّ مَرْفُوعًا: «لَا صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ»^(٢).

[٤٩٥٤] وَفِي السُّنَنِ: «بَشُرَ الْمَشَائِئِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣). وَيَسْتَحَبُّ لِمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَنْ يَبْدَأَ بِرِجْلِهِ الْيُمْنَى.

[٤٩٥٥] وَأَنْ يَقُولَ كَمَا ثَبِتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِرُوحِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». قَالَ: فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ»^(٤).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧ ومسلم ٦٦١ ح ٢٧٢ وأبو داود ٥٥٩ والترمذي ٦٠٣ وابن ماجه ٢٨١ وابن حبان ٢٠٤٣ وأحمد ٢٥٢/٢ والبيهقي ٦١/٣ من حديث أبي هريرة.

(٢) الراجع وقفه. أخرجه الحاكم ٢٤٦/١ والدارقطني ٤٢٠/١ وابن الجوزي في «الملل» ٦٩٣ والبيهقي ٥٧/٣ كلهم من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، فيه سليمان بن داود اليمامي، وهو ضعيف. قال عنه البخاري: منكر الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وبه أهله ابن الجوزي وغيره، وقال: لا يصح. وورد من حديث جابر، أخرجه الدارقطني ٤٢٠/١ وابن الجوزي ٦٩٤ وقال: في إسناده مجاهيل، وقال الذهبي في «الميزان» ٥٦٧/٣: عمد بن السكن، لا يعرف، وخبره منكر.

وورد من حديث عائشة، أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٩٤/٢ وابن الجوزي ٦٩٥ وقال ابن الجوزي: لا يصح، قال أحمد: عمر بن راشد، لا يساوي حديثه شيئاً. وقال ابن حبان: لا يجل ذكره إلا على سبيل القدح فيه، يضع الحديث اهـ وذكره في الموضوعات ٩٣/٢ من حديث عائشة دون ذكر المتن. وجاء في نصب الراية ٤١٣/٤ ما ملخصه: قال ابن حزم: ضعيف، وصح عن علي موقوفاً. وقال ابن حجر في «التلخيص» ٣١/٢: ضعيف ليس له إسناده ثابت.

وله شاهد من حديث ابن عباس بلفظ «من سمع النداء فلم يجب، فلا صلاة له إلا من عذر، قالوا: وما العذر؟ قال: خوف أو مرض» أخرجه الحاكم ٢٤٥/١ ح ٨٩٣ و٨٩٤ و٨٩٥ عن شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً، وهذا إسناده صحيح على شرطهما كما قال الحاكم، ووافقه الذهبي، لكن ذكر الحاكم أن أكثر أصحاب شعبة روهه موقوفاً. ورفع هاشم، وقراد، وهما ثقتان. وأسنده الحاكم ٨٩٦ و٨٩٧ من طريق أبي جناب عن عدي بهذا الإسناد، وأبو جناب ضعيف، وأسنده من حديث أبي موسى ٨٩٩، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو ضعيف، فيه أبو بكر بن عياش صدوق لكنه كثير الخطأ، والراجح وقفه كسابقه، والله تعالى أعلم.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٥٦١ والترمذي ٢٢٣ من حديث بريدة واستغفبه الترمذي وقال: هو صحيح مسند، وموقوف إلى أصحاب النبي ﷺ، ولم يسند إلى النبي ﷺ اهـ. وقال المنذري: ورجال إسناده ثقات. وفي الباب من حديث أنس عند ابن ماجه ٧٨١، ومن حديث سهل بن سعد عند ابن ماجه ٧٨٠ أيضاً، فالحديث حسن بشواهد.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٦ وقال الحافظ كما في «الفتوحات» ٤٧/٢: حديث حسن، رجاله موثقون، وهو رجال الصحيح، إلا اثنين إسماعيل بن بشر، وعقبة بن مسلم اهـ. ولم أقف عليه عند البخاري.

[٤٩٥٦] وَرَوَى مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ - أَوْ: أَبِي أُمَيَّةٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»^(١). وَرَوَاهُ الثَّيَالِغِيُّ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ.

[٤٩٥٧] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَلْيَقُلْ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٢). رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا.

[٤٩٥٨] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ، عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ حُسَيْنٍ، عَنْ جَدَّتِهَا فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّم، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ». وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّم ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَإِسْنَادُهُ لَيْسَ بِمُتَّصِلٍ؛ لِأَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ الصَّغِيرَى لَمْ تَدْرِكْ فَاطِمَةَ الْكُبْرَى». فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، مَعَ مَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُحَافَظَةٌ عَلَى الطُّولِ، دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فِي يُورِثُ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ».

وقوله تعالى: «وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُهُ»، أي: اسمُ الله، كقوله: «يَبْقَى مَادَّةٌ خُلِدُوا زَيْتُونًا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» [الأعراف: ٣١]، وقوله: «وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» [الأعراف: ٢٩]، وقوله: «وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» [الحج: ١٨]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُهُ» يَعْنِي: يَتْلُو فِيهَا كِتَابَهُ. وَقَوْلُهُ: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّوِّ وَالْأَصَالِ»، أي: فِي الْبُكْرَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ. وَالْأَصَالُ: جَمْعُ أَصِيلٍ، وَهُوَ آخِرُ النَّهَارِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ هُوَ الصَّلَاةُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِالْقُدُّوِّ صَلَاةَ الْعَدَاةِ، وَيَعْنِي بِالْأَصَالِ صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ، فَاحِبٌّ أَنْ يَذْكُرَهُمَا وَأَنْ يَذْكُرَ عِبَادَهُ. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ، وَالضَّحَّاكُ: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّوِّ وَالْأَصَالِ»، يَعْنِي الصَّلَاةَ. وَمَنْ قَرَأَ مِنَ الْقُرْآنِ: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّوِّ وَالْأَصَالِ» - يَفْتَحُ الْبَاءَ مِنْ «يُسَبِّحُ»، عَلَى أَنَّهُ مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمِّ فَاعِلَهُ - وَقَفَّ عَلَى قَوْلِهِ: «وَالْأَصَالِ» وَقَفًّا تَامًا. وَابْتَدَأَ بِقَوْلِهِ: «يَجَالُ لَا تَلْهِيمُهُمْ يَحْتَرُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، وَكَانَهُ مُفَسِّرٌ لِلْفَاعِلِ الْمَحْذُوفِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطْبِيعُ الطَّوَائِفُ

كَأَنَّهُ قَالَ: مَنْ يَبْكِيهِ؟ قَالَ: هَذَا يَبْكِيهِ. وَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا؟ قَالَ: رَجَالٌ. وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ «يُسَبِّحُ» - بِكسْرِ الْبَاءِ - فَجَعَلَهُ فِعْلًا، وَفَاعِلَهُ «يَجَالُ»، فَلَا يَحْسُنُ الْوَقْفُ إِلَّا عَلَى الْفَاعِلِ، لِأَنَّهُ تَمَامٌ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٧١٣ وأبو داود ٤٦٥ والنسائي ٥٣/٢ وابن ماجه ٧٧٢ وأحمد ٤٩٧/٣ وابن حبان ٢٠٤٨.

(٢) جيد. أخرجه ابن ماجه ٧٧٣ والحاكم ٢٠٧/١ وابن حبان ٢٠٤٧ وصححه الحاكم، وافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وانظر صحيح ابن ماجه ٦٢٧.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٤ وابن ماجه ٧٧١ وأحمد ٤٢٥/٥ وابن السني ٨٦، وإسناده ضعيف، قال الترمذي: حسن. ثم ضعفه بقوله: وليس إسناده بمتصل، وفاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى، إنما عاشت فاطمة بعد النبي - ﷺ - أشهراً أهـ وله علة ثانية ليث بن أبي سليم وثقه قوم، وضعفه آخرون، ولكن للحديث شواهد لكن فيها ذكر السلام دون لفظ «الصلاة» فالغريب فيه فقط هذه اللفظة.

الْكَلَام. فقوله: ﴿يَسَّالٌ﴾ فيه إشعار بهمَجْمُهم السامية، ونِيَّاتهم وعَزَائهمم العالية، التي بها صاروا عُمَاراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطنُ عبادته وشُكْرِهِ، وتوحيده وتزويده، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الاحزاب: ٢٣]. فأما النساء فَصَلَاتُهُنَّ في بيوتهنَّ أفضلُ لهنَّ.

[٤٩٥٩] لما رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»^(١).

[٤٩٦٠] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ غَيْلَانَ، حَدَّثَنَا رَشِيدٌ، حَدَّثَنَا عَمْرُو، عَنْ أَبِي السَّمْحِ، عَنِ السَّائِبِ - مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ - عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ مَسَاجِدِ النِّسَاءِ قَعْرُ بَيْتِهِنَّ»^(٢).

[٤٩٦١] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضاً: حَدَّثَنَا هَارُونُ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُوَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ عَمَّتِهِ أُمِّ حُمَيْدٍ - امْرَأَةِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ -: «أَنَّهَا جَاءَتْ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَحْبَبْتُ الصَّلَاةَ مَعَكَ. قَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تُحِبُّينَ الصَّلَاةَ مَعِيَ، وَصَلَاتِكَ فِي بَيْتِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي حُجْرَتِكَ، وَصَلَاتُكَ فِي حُجْرَتِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي دَارِكَ، وَصَلَاتُكَ فِي دَارِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكَ، وَصَلَاتُكَ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي مَسْجِدِي». قَالَ: فَأَمَرْتُ فَبَنَيْ لَهَا مَسْجِدًا فِي أَقْصَى بَيْتٍ مِنْ بَيْتِهَا، فَكَانَتْ وَاللَّهِ تُصَلِّي فِيهِ حَتَّى لَقِيََتْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣). لَمْ يُخْرِجُوهُ. هَذَا وَبِجَوِّزٍ لَهَا شَهَادَةُ جَمَاعَةِ الرِّجَالِ، بِشَرْطِ الْأَتُوذِيِّ أَحَدًا مِنَ الرِّجَالِ بِظَهْوَرِ زِينَةٍ وَلَا رِيحٍ طَيِّبَةٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:

[٤٩٦٢] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَأَحْمَدُ وَأَبِي دَاوُدَ: «وَبَيْتُهُنَّ خَيْرٌ لهنَّ»^(٤).

[٤٩٦٣] وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلْيُخْرِجْنَ وَهُنَّ ثَقِيلَاتٌ». أَي: لَا رِيحَ لهنَّ»^(٥).

[٤٩٦٤] وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ زَيْنَبِ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَتْ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا شَهِدْتَ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمْسُ طَبِيبًا»^(٦).

[٤٩٦٥] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ نِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ يَشْهَدْنَ الْفَجْرَ

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٥٧٠ وابن خزيمة ١٦٩٠ وقال المنذري في «الترغيب» ٥٠٨: رواه أبو داود وابن خزيمة وتردد في سماع قتادة هذا الخبر من موزق اه لكن الحديث حسن بشواهد، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٧/٦ وابن خزيمة ١٦٨٣ والحاكم ٢٠٩/١ وأبو يعلى ٧٠٢٥ وإسناده ضعيف لضعف رشدين بن سعد، ويشهد لعنا ما بعده.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٣٧١/٦ وابن خزيمة ١٦٨٩ وابن حبان ٢٢١٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٣/٢ - ٣٤: رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن سويد، وثقه ابن حبان، وأخرجه الطبراني ٢٥ (٣٥٦) والبيهقي ١٣٢/٣ - ١٣٣ من وجه آخر من حديث أم حيد. وللحديث شواهد أخرى.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٩٠٠ ومسلم ٤٤٢ وأبو داود ٥٦٧ وأحمد ٧٦/٢ و٧٧.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٥٦٥ وأحمد ٥٢٨/٢ وابن حبان ٢٢١٤ من حديث أبي هريرة وإسناده حسن، وله شواهد يتقوى بها.

(٦) صحيح. أخرجه مسلم ٤٤٣ والنسائي ١٥٥/٨ وأحمد ٣٦٣/٦ وابن حبان ٢٢١٥.

مع رسول الله - ﷺ -: ثم يرجعن متلفعات بمروطهن^(١)، ما يغفرن من الغلس^(٢).

[٤٩٦٦] وفي الصحيحين أيضاً عنها أنها قالت: «لو أدرك رسول الله - ﷺ - ما أحدث النساء لمنعهن المساجد، كما منعت نساء بني إسرائيل»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ بَحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْبَسُوا ثِيَابًا ثَلَاثًا وَلَا أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُودُوا لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَائِدِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]. يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها، وملأ ذبيحها وربحها، عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم، لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق، ولهذا قال: ﴿لَا لَّهُمْ بَحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَارِ الصَّلَاةِ وَلَيْلَى الزُّكُوفِ﴾، أي: يقدمون طاعته ومُرادَه ومحبته على مُرادهم ومحببتهم. قال مُشيم عن سيار: حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق، حيث يُودي بالصلاة، تركوا بيعاتهم ونهضوا إلى الصلاة، فقال عبد الله: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ بَحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وهكذا روى عمرو بن دينار القهْرمانِي، عن سالم، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلَقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نُزِلت: ﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ بَحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعاني، حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن بجير، حدثنا أبو عبد رب^(٤) قال: قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: «إني أقمت على هذا الدرَج أبائع عليه، أربح كل يوم ثلاثمئة دينار، وأشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إنني لا أقول: «إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِحَلَالٍ»، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله: ﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ بَحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وقال عمرو بن دينار الأعور: كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة، وخمروا متاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد، فتلا سالم هذه الآية: ﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ بَحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ثم قال: هم هؤلاء. وكذا قال سعيد بن أبي الحسن، والضحاك: لا تلبسهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها. وقال مطر الوزاق: كانوا يبيعون ويشترُونَ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفَّضه، وأقبل إلى الصلاة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا لَّهُمْ بَحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، يقول: عن الصلاة المكتوبة، وكذا قال الربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان. وقال السدي: عن الصلاة في جماعة. وعن مقاتل بن حيان: لا يلبسهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمر الله، وأن يحافظوا على مَوَاقِيتِها، وما

(١) المِزط: كساء من صوف، أو خز، كان يوتر به.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٧٢ و٥٧٨ ومسلم ٦٤٥ وأبو داود ٤٢٣ والترمذي ١٥٣ وأحمد ١٧٩/٦ وأبو يعلى ٤٤١٥.

(٣) أخرجه البخاري ٨٦٩ ومسلم ٤٤٥. قال الحافظ في الفتح ٢/٣٥٠: تمسك بعضهم بقول عائشة مطلقاً، وفيه نظر، إذ لا يترتب على ذلك تغير الحكم، فقالت «لو رأى لمنع» فيقال عليه «لم ير»، ولم يمنع» فاستمر الحكم اهـ وقال ابن عمر في «تفسيره» ١/٥٩٢: هذا إسناد لا يثبت اهـ فالخبر واه، والله تعالى أعلم، فالأشبه أنه موقوف. ثم إن الإحداث من بعض النساء دون بعض، والأولى أن يجتنب ما ينشئ منه الفساد، وذلك بترك الطيب والزينة وغير ذلك اهـ باختصار.

(٤) كذا ضبطه الحافظ في «التحريب» قال: ويقال: أبو عبد ربه، وأبو عبد رب العزة.

استحفظهم الله فيها. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، أي: يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، أي: من شدة الفزع وعظمة الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَهَظِيمٍ﴾ [خاف: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِتَرَىٰ فَتَحُوسَ فِيهِ الْأَبْصَارِ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُظَلِّمُونَ الْطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْوَةٍ وَنَسِيكًا وَبَيْسًا وَأَبْدًا ۖ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا تَطْوِيهُمُ لِيَوْمِ اللَّهِ لَا تَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَةً وَلَا شُكُورًا ۖ ﴿١٥﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ يُومِنَا يَوْمًا غَيْرًا قَلِيلًا ۖ ﴿١٦﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسَوَّاهُ ۖ ﴿١٧﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَخَرِيرًا ۖ ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ٨-١٢].

وقال هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾، أي: هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ۚ قَالَ دَرُّوْا وَإِنَّا نَكْتُمُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴿١٥﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلًا ۖ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۖ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَسْتَوْفِي لِمَنْ يَشَاءُ﴾، كما قال هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يَزِدُّ مَنْ يَشَاءُ بِخَيْرٍ حِسَابٍ﴾. وعن ابن مسعود: أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً، فتناوله ابن مسعود وكان مغطراً فشربه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، رواه النسائي وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عنه.

[٤٩٦٧] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوتٍ يسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقيم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق»^(١).

[٤٩٦٨] وروى الطبراني، من حديث بَقِيَّة، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿يُؤَفِّقُهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال: «أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا»^(٢).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كُرْبًا بِبِقَاعِهِ يَحْسَبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُمْ فَوْقَهُمْ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَطُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشِلُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَتَابٌ طُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَوْ يَكْدُ بَرْنَاهَا وَمَنْ لَوْ يَجْعَلِي اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ۖ ﴿٤٠﴾﴾

هذان مثلاً ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول «البقرة» مثلين نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقرب في القلوب من الهدى والعلم في «سورة الزعدي» مثلين مائياً ونارياً. وقد تكلمنا على كل

(١) حسن. إسناده ضعيف لأجل سويد بن سعيد، لكن للحديث شواهد، راجع الدر المنثور ٩٥/٥ فهو يتقوى بها إن شاء الله.
(٢) ضعيف منكر. أخرجه الطبراني ١٠٤٦٢ وفي «الأوسط» ٢٩٢ «جمع البحرين» كلاهما من حديث ابن مسعود. وإسناده ضعيف. ذكره الذهبي في «الميزان» ٩٠١ إسماعيل بن عبد الله الكندي، فقال: عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر منكر عجيب اهـ. وحسبه الوقف.

منها في موضعه بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة. فأما الأول من هذين المثالين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثّلهم في ذلك كالسراب الذي يُرى في القيعان من الأرض عن بُعد كأنه بحر طام. والقيعة: جمع قاع، كجار وجيرة. والقاع أيضاً: واحد القيعان، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرض المستوية الممتّعة المنبسطة، وفيه يكون السراب وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار. وأما الآل فإِنما يكون أول النهار، يُرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء حسيبه ماء فقصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً، وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها، وثوقش على أفعاله، لم يجد له شيئاً بالكلفة قد قبل، إما لعدم الإخلاص، وإما لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْعَمَ بِذِي الْقُرْبَىٰ إِذْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَالِفًا دُونِ الْهَالِكِينَ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال هاهنا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قَوْلَهُ يَسَابُغُهُمُ اللَّهُ بِرِيحٍ مُّسَكِّبَةٍ﴾. وهكذا زوي عن أبي بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد.

[٤٩٦٩] وفي الصحيحين أنه يُقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عُزَيْرَ ابن الله. فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من ولد، ماذا تبغون؟ فيقولون: أي ربنا، عطشنا فأسقنا. فيقال: ألا ترون؟ فمثّل لهم النار كأنها سَرَابٌ يحيطُ بعضها بعضاً، فينطلقون فيتهاقثون فيها^(١). وهذا مثال لذوي الجهل المركب، فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الطغام المقلدون لأئمة الكفر، الضم البكم الذين لا يعقلون، فمثّلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَنتِ فِي بَحْرٍ لَّيِّثٍ﴾ - قال قتادة: وهو العميق - ﴿يَفْشَنُ مَوْجٌ مِّنْ قَوْعِهِ مَوْجٌ مِّنْ قَوْعِهِ سَحَابٌ مِّمَّذَا بَعْضُهُمْ قَوْعٌ لِّبَعْضٍ إِذَا تُفْرِجَ بَعْدُ لَرَّ يَكْدُ بَرَّهَا﴾، أي: لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب، ولا هو يعرف حال من يوقده، بل كما يُقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم. قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري.

وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿يَفْشَنُ مَوْجٌ مِّنْ قَوْعِهِ مَوْجٌ مِّنْ قَوْعِهِ سَحَابٌ﴾، يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وكقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَسَلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وهو يتقلب في خمسة من الظلم: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومذخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار. وقال الربيع بن أنس، والسدي نحو ذلك أيضاً. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائس كافر، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ ضَلَالٍ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]. فتسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن إيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يُعْظِمَ لنا نوراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

يَقُولُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَي: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسَانِي، وَالْجِبَالِ وَالْحَيَوَانِ، حَتَّى الْجَمَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَنْ يَمُوتَ إِلَّا سُبْحَ يَوْمِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالطَّيْرُ مَتَنَتْنَ﴾، أَي: فِي حَالِ طَيْرَانِهَا تُسَبِّحُ رَبَّهَا وَتُعْبَدُهُ بِتَسْبِيحِ الْهَمَمِ وَأَرْشَادِهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا هِيَ فَاعِلَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، أَي: كُلُّ قَدْ أَرْشَدَهُ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَمَسَلَكِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ الْإِلَهِ الْمَعْبُودُ الَّذِي لَا تُتْبَغَى الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾، أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُحْكَمُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ، ﴿يَجْزِي الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَسْقَى﴾ [النجم: ٣١]، فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خَلْلِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ بِقُدْرَتِهِ يَسُوقُ السَّحَابَ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهَا وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، وَهُوَ الْإِزْجَاءُ، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾، أَي: يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا﴾، أَي: مُتْرَاكِمًا، أَي: يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾، أَي: الْمَطَرُ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خَلْلِهِ﴾، أَي: مِنْ خَلْلِهِ. وَكَذَلِكَ قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضُّحَّاكُ. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ غَمِيرٍ اللَّيْثِي: يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُثِيرَةَ فَتَقُومُ الْأَرْضُ قَعًا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ النَّاشِئَةَ فَتُنْشِئُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُؤَلِّفَةَ فَتُوَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ اللَّوَّاحِقَ فَتُلْقِحُ السَّحَابَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ﴾، قَالَ بَعْضُ النَّحَاةِ: «مِنْ» الْأُولَى لَاِبْتِدَاءِ الْغَايَةِ، وَالثَّانِيَةِ لِلتَّبْعِيضِ، وَالثَّلَاثَةِ لِبَيَانِ الْجَنَسِ. وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلٍ مِنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ﴾، مَعْنَاهُ: أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالَ بَرَدٍ يَنْزِلُ اللَّهُ مِنْهَا الْبَرْدُ. وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الْجِبَالَ هَاهُنَا كُنَايَةً عَنِ السَّحَابِ، فَإِنَّ «مِنْ» الثَّانِيَةَ عِنْدَ هَذَا لَاِبْتِدَاءِ الْغَايَةِ أَيْضًا، لَكِنَّا بَدَلْنَا مِنَ الْأُولَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾، أَي: بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَوْعِي الْمَطَرِ وَالْبَرَدِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، رَحْمَةً لَهُمْ، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾، أَي: يُؤَخِّرُ عَنْهُمْ الْغَيْثَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾، أَي: بِالْبَرَدِ نَقْمَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ، لَمَّا فِيهِ مِنْ تَثَرِ يَمَارِهِمْ، وَإِتْلَافِ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ، وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ رَحْمَةً بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾، أَي: يَكَادُ ضَوْءُ بَرْقِهِ مِنْ شِدَّتِهِ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ إِذَا اتَّبَعَتْهُ وَتَرَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أَي: يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا، فَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فِي قِصَرِ هَذَا حَتَّى يَعْتَدِلَا، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا. وَاللَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ. وَعِزَّتُهُ وَعِلْمُهُ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ الْأَبْصَرِ﴾، أَي: لِدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَافْتِرَاقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَةً لِقَوْمٍ الْأَلْبَسِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٥)

يذكر تعالى قدرته الثابتة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾، كالحية وما شاكلها، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾، كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾، كالأنعام، وسائر الحيوانات. ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، أي: بقدرته، لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦)

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتفعلها أولى الأبواب والبصائر والنهي، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَآلِ الرَّسُولِ وَاطْعَنَّا ثُمَّ يَنْتَوِي فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لُغُؤٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾ أُولَئِكَ قُلُوبُهُمْ مَرَضٌ أَرَأَيْتُمْ إِنْ يَخَافُوا أَنْ يَحْفَافَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَاتَّقَاهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً باللسان، ﴿ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَآلِ الرَّسُولِ وَاطْعَنَّا ثُمَّ يَنْتَوِي فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٨)، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه. وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَرَّعُوا أَنفُسَهُمْ ءَأَمَّا بِمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِكَ يَرْيَدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ سَلَكَ بَوِيدًا﴾ (٥٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٥١﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

[٤٩٧٠] وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء بن أبي ميمونة، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً: «من دُعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له» (١).

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ٦٩٣٩، قال الهيثمي في «المجمع» ٧: ٢٢٢: فيه روح بن عطاء، وثقه ابن عدي، وضعفه الأئمة اه وفيه عنقه الحسن. وله طريق آخر أخرجه الطبراني ٧٠٧٨، وقال الهيثمي ٧: ٢٢١: فيه مساتير. وله طريق ثالث أخرجه البزار ١٣١٣ وقال الهيثمي ٧: ٢٢٠: فيه يوسف بن خالد، ضعيف. قلت: بل منهم ١ وورد من حديث عمران بن حصين، أخرجه البزار ١٣٦٢، وقال: لا نعلم أحداً رواه عن النبي ﷺ متصل الإسناد إلا من هذا الوجه عن عمران، وقد رواه غير واحد عن الحسن مرسلاً، وأسند روح، وهو لثني الحديث اه وقال الهيثمي ٧: ١٩: روح ضعيف، وثقه ابن عدي اه فالحديث غير قوي، فإن مداره على الحسن، وهو مدلس، وعنه روح وهو ضعيف، أو مجاهيل. والراجع فيه الإرسال كما ذكر البزار، رحمه الله وحكم ابن العربي ببطلانه، وانظر تفسير الشوكاني عند هذه الآية بتخريري.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَكُنَ لَكُمْ لِقَاءُ يَوْمِكُمْ ذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ ظَالِمِينَ﴾ ، أي إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين، وهو معنى قوله: ﴿مُذْمِينَ﴾ ، وإذا كانت الحكومة عليه عرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي - ﷺ - ليروج باطله ثم. فإذعائه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قضاؤه عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنِّي قُلُوبِهِمْ مَرَضُ أَرَأَيْتُمْ أَتُمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِيَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ﴾ ، يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم! وأياً ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم، وما هو عليه منظر من هذه الصفات.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ، أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبّرآن مما يظنون ويتوهمون من الخيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

[٤٩٧١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا مبارك، حدثنا الحسن قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة، فذعي إلى النبي - ﷺ - وهو مُحَقٌّ أذعن، وعلم أن النبي - ﷺ - سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فذعي إلى النبي - ﷺ - عرض، وقال: انطلق إلى فلان. فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله - ﷺ -: «من كان بينه وبين أخيه شيء فذعي إلى حكم من حكم المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لا حق له»^(١). وهذا حديث غريب وهو مُرسَل.

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يفتنون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ، أي: سمعاً وطاعة. ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المrehوب، فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ . وقال قتادة في هذه الآية: ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ : ذكر لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عقيباً بذرباً، أخذ نقيباً الأنصار -: أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك؟ قال: بلى. قال: فأنت عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، والألتنازع الأمر أهله، إلا أن يأمرك بمعصية الله بواحا، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله، وللخليفة وللمؤمنين عامة. قال: وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يقول: عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولّاه الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم. والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله كثيرة جداً، أكثر من أن تحصر في هذا المكان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ، قال قتادة: ﴿يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراه، ويترك ما نهى عنه، ﴿وَيَحْتَسِبِ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقُوهُ﴾ فيما يستقبل. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ، يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمئوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

(١) هو مرسل، وانظر ما قبله.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْعَيْثِ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى: مُخْبِرًا عن أهل الثفاق، الذين كانوا يَحْلِفُونَ للرَّسُولِ - ﷺ -: لئن أُمِرهم بالخروج في الغزو ليخرجن قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُفْسِمُوا﴾، أي: لا تَحْلِفُوا. وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾؛ قيل: تقديره طاعتكم طاعةً معروفةً، أي: قد عَلِمَ طاعتكم، إنما هي قول لا فعل معه، وكلُّما حلفتكم كذبتكم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [النوبة: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿أَتَخَذُوا آيَاتِنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون: ٢]، فهم من سَجَّيْتُهُم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَثُوا يَقُولُونَ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ كُفُّوا عَنْ أَرْضِكُمْ وَأَنْتُمْ بِهَا كَافِرُونَ ﴿١١﴾﴾﴾ [الحشر: ١١]. وقيل: المعنى في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾، أي: ليكن أمركم طاعةً معروفةً، أي: بالمعروف من غير حلف ولا إقسام، كما يُطِيع الله ورسوله المؤمنون بغير حليف، فكونوا أنتم مثلهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: هو خَبِيرٌ بكم ويمن يُطِيع ممن يعصي، فَالْحَلْفُ وإظهار الطاعة - والباطن بخلافه، وإن راجع على المخلوق - فالخالق تعالى يعلم السرَّ وأخفى، لا يروِّج عليه شيء من التدليس، بل هو خَبِيرٌ بِضَمَائِر عِبَادِهِ وإن أظهرها خلافتها.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، أي: اتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ. وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، أي: تَتَوَلَّوْا عنه وتتركوا ما جاءكم به، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ مَا حُمِّلَ﴾، أي: إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾، أي: من قبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾؛ وذلك لأنه يدعُو إلى صراطٍ مستقيم ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]. وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْعَيْثِ﴾، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ نَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿١٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢]. وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعيا: أن قم في بني إسرائيل فإني سأطليق لسانك بوحى، فقال: يا سماء اسمعي، يا أرض انصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأنًا ويُدبِّرَ أمرًا هو مُنْفِذُهُ، إنه يريد أن يُحوِّلَ الرِّيفَ إلى القَلَاةِ، والآجَامَ في الغِيْطَانِ، والأنهار في الصحاري، والنعمة في الفقراء، والمُلْكُ في الرعاة، ويريد أن يبعث أُمَيَّا من الأُمَيِّين، ليس بَقِظٍ وَلَا غَلِيْظٍ ولا سَخَابٍ في الأسواق، لو يَمُرُّ على جنب السِرَاجِ لم يُطْفِئْهُ من سَكِينَتِهِ، ولو يَمشي على القَصْبِ اليابس لم يُسْمِعْ من تحت قَدَمِهِ. أبعثه مَبْشَرًا وَنَذِيرًا، لا يقول الحَنَأَ، أَفْتَحْ به أَعْيُنًا عُمَيَّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وأسدِّدْهُ لِكُلِّ أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرَّ شِعَارَهُ، والثَّقَوَى ضَمِيرَهُ، والحِكْمَةَ مَنْطِقَهُ، والصدق والوفاء طَبِيعَتَهُ، والعَفْوَ والمعروف خُلُقَهُ، والحق شريعته، والعدل سِيرَتَهُ، والهدى إمامته، والإسلام مِلَّتَهُ، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به من الجهالة، وأزق به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النُّكْرَةِ، وأكثير به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأولف به بين أُمَمٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَقُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، وأهواء مُتَشَتَّتَةٍ، وأستقيذ به فقاماً من الناس عظيماً من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون

بالمعروف، وَيَتَّقُونَ عَنِ الْمُتَنَكَّرِ، مُؤَحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ، مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلِي. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

هذا وعد من الله لرسوله - ﷺ - بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أئمة للناس والولاء عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم. وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمئة: فإنه لم يمّت رسول الله - ﷺ - حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مجوس مَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عُمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة، رَحِمَهُ اللهُ وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله - ﷺ - واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهى بعد موته - ﷺ - وأطد^(١) جزيرة العرب ومهّدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ففتحوا طرقاتها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة - رضي الله عنه - ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص - رضي الله عنه - إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخالفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله - عز وجل - واختار له ما عنده من الكرامة. ومن على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء - عليهم السلام - على مثله، في قوة سيرته وكمال عذله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهان غاية الهوان، وتقهر إلى أقصى مملكته، وقصر قصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام، وأزكى صلاة. ثم لما كانت الدولة العثمانية^(٢) امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبّنة^(٣) مما يلي البحر المحيط. ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقُتِلَ كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز. وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وحذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبى الخراج من المشارق والمفارق إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. وذلك ببركة تلاته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن.

[٤٩٧٢] ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت

(١) أطد: ثبت.

(٢) المراد عثمان بن عفان، وإلا فابن كثير كان قبل قيام الدولة العثمانية التركية.

(٣) مدينة تحت الاستعمار الإسباني حالياً، وذلك بعد أن كانت مئات السنين، من مدن الإسلام. نسأل الله أن يعيدها وكامل بلاد المسلمين.

مشارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وسيلبغ ملك أمتي ما رُوي لي منها^(١). فيها نحنُ نَتَقَلَّبُ فيما وَعَدَنَا اللهُ ورسولُهُ، وَصَدَقَ اللهُ ورسولُهُ، فنسألُ اللهَ الإِيمَانَ به، وبرسولِهِ، والقيامَ بِشُكْرِهِ على الوجهِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا.

[٤٩٧٣] قال الإمامُ مُسْلِمٌ بن الحُجَّاج في صحيحِهِ: حَدَّثَنَا ابنُ أَبِي عَمْرٍ، حَدَّثَنَا سَفِيان، عَنْ عبدِ الملكِ بنِ عمير، عَنْ جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يَقول: «لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا». ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ - ﷺ - بِكَلِمَةٍ خَفِيَتْ عَلَيَّ فَسَأَلْتُ أَبِي: مَا قَالَ رَسولُ اللهِ - ﷺ -؟ فَقَالَ: كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ^(٢). وَرواهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بنِ عَمْرٍ، بِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ «أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ عَشِيَّةَ رَجَمَ مَاعِزَ بنَ مَالِكٍ»، وَذَكَرَ مَعَهُ أَحَادِيثُ أُخَرُ. وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ وَجودِ اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً عَادِلًا، وَلَيْسُوا هُمْ بِأَئِمَّةِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشَرَ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَوْلَئِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ مِنْ قُرَيْشٍ، يَلُونُ قِيَعِدِلُونَ. وَقَدْ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، ثُمَّ لَا يَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونُوا مُتَتَابِعِينَ، بَلْ يَكُونُ وَجودُهُمْ فِي الْأُمَّةِ مُتَتَابِعًا وَمُتَفَرِّقًا، وَقَدْ وَجَدَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ عَلَى الْوَلَاءِ، وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. ثُمَّ كَانَتْ بَعْدَهُمْ فِتْرَةٌ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ وَجَدَ مِنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَدْ يَوْجَدُ مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ فِي وَقْتٍ يَعْلَمُهُ اللهُ. وَمِنْهُمْ الْمَهْدِيُّ الَّذِي يُطَاقِبُ اسْمُهُ اسْمَ رَسولِ اللهِ - ﷺ - وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتُهُ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا، كَمَا مُلِئَتْ جُورًا وَظُلْمًا.

[٤٩٧٤] وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بنِ جُنْهَانَ، عَنْ سَفِيئَةَ - مَوْلَى رَسولِ اللهِ - ﷺ - أَنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قَالَ: «الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَصُوصًا»^(٣).

[٤٩٧٥] وَقَالَ الرَّبِيعُ بنُ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا»... الآية، فَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشَرِ مِائَتِينَ، يَدْعُونَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ، وَعِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، سَرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ، لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ، حَتَّى أُبْرُوا بَعْدَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ بِالْقِتَالِ، فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُغَسُّونَ فِي السِّلَاحِ وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلَاحِ، فَقَبِرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ إِنْ رَجَلًا مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: يَا رَسولُ اللهِ، أَبَدَ الدَّهْرَ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا؟ مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمَ نَأْمُنُ فِيهِ وَنَضَعُ عَنْنَا فِيهِ السِّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسولُ اللهِ - ﷺ -: لَنْ تَغَيَّرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا، لَيْسَتْ فِيهِمْ خَدِيدَةٌ. وَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَأَظْهَرَ اللهُ نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السِّلَاحَ. ثُمَّ إِنْ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَبَضَ نَبِيَّهُ - ﷺ - فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِينَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ حَتَّى وَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ، فَاتَّخَذُوا الْحَجَرَةَ وَالشَّرْطَ وَغَيْرَ مَا، فَقَبِرَ بِهِمْ^(٤).

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٦٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ١٢.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٤٦ والتِّرْمِذِيُّ ٢٢٢٦ والطَّيَالِسي ١١٠٧ وأحمد ٢٢١/٥ والنَّسَائِيُّ في «فضائل الصحابة» ٥٢ والحاكم ١٤٥/٣ وصححه ابن حبان ٦٦٥٧ و٦٩٤٣، ومداره على سعيد بن جهمان فيه كلام، وقد وثق. وقد صححه ابن تيمية في «الفتاوى» ١٨/٣٥ وقال: ثبته أحمد هو متفق عليه عند الفقهاء، وأهل السنة. وفي الباب من حديث أبي بكر أخرجه أحمد ٤٤/٥ وأبو داود ٤٦٣٥ وفيه علي بن زيد، وهو ضعيف، لكن يصلح شاهد.

(٤) أخرجه الطبري ٢٦١٧٩ عن أبي العالوية مرسلاً، لكن لأصله شواهد، والله أعلم.

وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - حق في كتابه، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِلِيلٌ تُسْتَفْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَلَكُمْ النَّاسُ فَفَارَقْتُمُوهُمْ وَأَيَّدْتُمُ النَّاصِرِينَ وَذَرَكُمُ مِنَ الْطَّاغِيَةِ أَعْمَالَكُمْ فَتَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، كما قال تعالى عن موسى - عليه السلام - أنه قال لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ فَاسْتَأْذِنُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ لَنْ نَحْمِلَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿وَلَنْ يَكُنَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ قَرْصُونَ ۝﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿وَلَنْ يَكُنَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ قَرْصُونَ ۝﴾ [النمل: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ كُنْزٌ لَكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا هَيْبَةُ اللَّهِ وَرِثَةُ اللَّهِ ۝﴾ [النمل: ٦٠].

[٤٩٧٦] كما قال رسول الله - ﷺ - لعدي بن حاتم، حين وفد عليه: «اتعرف الحيرة^(١)؟» قلت: لم أرها، ولكن قد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده لبيتم الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز. قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم، كسرى بن هرمز، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله - ﷺ - قد قالها^(٢).

[٤٩٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن أبي سلمة، عن الزبيد بن أنس، عن أبي الغالية، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله - ﷺ -: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»^(٣).

[٤٩٧٨] وقوله: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس، أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينما أنا زديف رسول الله - ﷺ - ليس بيني وبينه إلا آخرة الرخل، قال: «يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل. قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: هل تدري ما حق الله على العباد. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قال: ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل. قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم»^(٤). أخرجه في الصحيحين من حديث قتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد فسق عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً. فالصحابه - رضي الله عنهم - لما كانوا أقوم الناس بعد النبي - ﷺ -

(١) الحيرة: قرب الكوفة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٩٥ والبيهقي في «الدلائل» ٣٤٣/٥ - ٣٤٤ من حديث عدي بن حاتم.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١٣٤/٥ والحاكم ٣١١/٤ وابن حبان ٤٠٥، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي إسناده الربيع بن أنس، وهو صدوق، وتوبع عند أحمد ١٣٤/٥، وإسناده على شرطهما.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٦٧ و٦٢٦٧ ومسلم ٣٠ وأحمد ٢٤٢/٥ وابن حبان ٣٦٢.

بأوامر الله - عز وجل -، وأطوعهم الله - كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم الله تأييداً عظيماً، وتحكموا في سائر العباد والبلاذ. ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم.

[٤٩٧٩] ولكن قد ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك»^(١). وفي رواية: «حتى يقاتلوا الدجال»^(٢). وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون»^(٣). وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَدَّعُومُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي: عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين ضعفانهم وفقرانهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أي: سالكين وراءه فيما أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، أي: يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: خالفوك وكذبوك، ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا يُعْجِزُونَ الله، بل الله قادر عليهم، وسيُعَذِّبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ، ولهذا قال ﴿وَمَا وَدَّعُومُ النَّارُ﴾، أي: في الدار الآخرة ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾، أي: بشئ المال مآل الكافرين، وبشئ القراز وبشئ المهاذ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَوكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُنَّ مُوَافُقَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٩) وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٠)

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض. وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيماهم

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٢٠ وأبو داود ٤٢٥٢ والترمذي ٢١٧٧ من حديث ثوبان، وأخرجه مسلم ١٩٢٣ ح ١٧٣ من حديث معاوية.

(٢) أخرجه البزار ٣٣٨٧ من حديث نهيك بن صريم، وإسناده ضعيف، وله شاهد من حديث أنس أخرجه أبو يعلى ٢٨٢٠ والحاكم ٥٤٤/٤ وإسناده ضعيف لأجل عباد بن منصور، لكن للحديث شواهد تقويه.

(٣) أخرجه أبو يعلى ٢٠٧٨ من حديث جابر وإسناده ضعيف، لكن أصله عند مسلم ١٥٦ وأحد ٣/٣٨٤ وفي الباب أحاديث كثيرة.

وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: الأول من قبل صلاة الغداة، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم، ﴿وَيَعِيَنَ نَضْمُونَ يَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾، أي: في وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾، لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿تِلْكَ عَوْرَاتُ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾، أي: إذا دخلوا في غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال، لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿مُطَوَّرَاتٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: في الخدمة وغير ذلك. ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم.

[٤٩٨٠] ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله - ﷺ - قال في الهرة: إنها ليست بنجس؛ إنها من الطوافين عليكم، أو: والطوافات^(١). ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس.

كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جببر قال: قال ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْنَ ءَامَنُوا لِيَسْتَوْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ تِلْكَ مَرْثَى﴾... إلى آخر الآية، والآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨]، والآية التي في الحجرات: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم - وهو ضعيف - عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات، فلم يعملوا بهن: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْنَ ءَامَنُوا لِيَسْتَوْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾... إلى آخر الآية.

وقال أبو داود: حدثنا ابن الصباح بن سفيان، وابن عبدة - وهذا حديثه - أخبرنا سفيان، عن عبيد الله ابن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن، وإنني لأمر جاريتي هذه تستأذن علي. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء، عن ابن عباس يأمر به. وقال الثوري، عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي: ﴿لِيَسْتَوْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾، قال: لم تنسخ، قلت: فإن الناس لا يعملون بها؟ فقال: الله المستعان.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرنا سليمان بن بلال، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله ستيّر يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا جبال^(٢) في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله. ثم جاء بعده الستور، فبسط الله عليهم في الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الجبال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داود، عن القعني، عن الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو به.

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٧٥ والترمذي ٩٢ والنسائي ٥٥/١ وابن ماجه ٣٦٧ وأحمد ٣٠٣/٥ وابن حبان ١٢٩٩ وصححه الحاكم ١٦٠/١ ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قالوا، وتقدم.

(٢) الحجلة: كالقبة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس.

وقال السدي: كان أناس من الصحابة - رضي الله عنهم - يُحْبُون أن يُواقِعُوا نساءهم في هذه الساعات، ليفتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة. فأمرهم الله أن يأمرُوا المملوكين والعلمان ألا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن.

[٤٩٨١] وقال مقاتل بن حيان: بلغنا - والله أعلم - أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبي - ﷺ - طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن. فقالت أسماء: يا رسول الله، ما أقبح هذا! إنه ليدخل على المرأة وزوجها، وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن! فانزل الله في ذلك: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّكْرُ آمَنُوا لَا يَسْتَخِذْكُمْ الْمُنْكَرَ إِنْكُمْ وَالَّذِينَ لَا يُلْقُوا أَعْلَامُكُمْ يَتَكْرَهُ تِلْكَ مَرْثَى﴾^(١) . . . الآية. ومما يدل على أنها مُحْكَمَةٌ لم تنسخ، قوله: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْفُرُ الْإِنْفُلُ بِكُمْ الْمُشْرُ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذَنَ الذِّكْرُ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كُلِّ حال، يعني بالنسبة إلى أجانبيهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل فيها مع أهله، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي: عن يحيى بن أبي كثير: إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كُلِّ حال. وهكذا قال سعيد بن جبيرة. وقال في قوله: ﴿كَمَا اسْتَذَنَ الذِّكْرُ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: كما استأذن الكبار من ولدي الرجل وأقاربه. وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾، قال سعيد بن جبيرة، ومقاتل بن حيان، وقنادة، والضحاك: هُنَّ اللواتي انقطع عنهنَّ الحيض ويُسْنَن من الولد، ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾، أي: لم يبقَ لهنَّ تشوف إلى التزويج، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ﴾، أي: ليس عليها من الحجر في التستر كما على غيرها من النساء.

قال أبو داود: حدثنا أحمد بن محمد المروزي، حدثني علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَضَعْنَ مِنْ أَصْنَانِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] . . . الآية، فُتِخَ، واستثنى من ذلك: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ . . . الآية. قال ابن مسعود: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، قال: الجلباب، أو الرداء. وكذا زوي عن ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبي الشعثاء، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقنادة، والزهرى، والأوزاعي، وغيرهم. وقال أبو صالح: تَضَعُ الجلباب، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار. وقال سعيد بن جبيرة وغيره، في قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ﴾: وهو الجلباب من فوق الخمار، فلا بأس أن يَضَعْنَ عند غريب أو غيره، بعد أن يكون عليها خمار صفيق.

وقال سعيد بن جبيرة في الآية: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ﴾، يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب أن يرى ما عليها من الزينة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا ابن المبارك، حدثني سوار بن ميمون، حدثنا طلحة بنت عاصم، عن أم المضاء، عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: دخلت عليها فقلت: يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخِصَابِ، والنِّقَاصِ^(٢)، والصباغ، والقرطين، والخلخال، وخاتم الذهب، وثياب الرقاق؟ فقالت: يا معشر النساء، قِصَّتِكُنَّ كُلُّها واحدة، أحلَّ الله لكنَّ الزينة غير متبرجات. أي: لا يحل لكن أن يروا منكُنَّ مُحَرَّماً.

(١) هذا معضل. وهو من قسم الضعيف. ومقاتل ذو منكير.

(٢) النِّقَاص: إزار للصبيان.

وقال السدي: كان شريك لي يقال له: مُسْلِم، وكان مولى لامرأة حُدَيْفَة بن اليمان، فجاء يوماً إلى السوق وأثر الحناء في يده، فسألته عن ذلك، فأخبرني أنه خَضَبَ رأس مولاته - وهي امرأة حُدَيْفَة - فانكرت ذلك، فقال: إن شئت أدخلتك عليها؟ فقلت: نعم. فأدخلني عليها، فإذا امرأة جليلة، فقلت: إن مُسْلِمًا حَدَّثَنِي أنه خَضَبَ رَأْسَكَ؟ فقالت: نَعَمْ، يا بُنَيَّ، إني من القواعد اللاتي لا يَرْجُونَ نكاحاً؛ وقد قال الله في ذلك ما سَمِعْتُ. وقوله: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾، أي: وتزكّ وضمعن لثيابهنّ، وإن كان جائزاً، خير وأفضل لهنّ، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِسُهُمْ أَوْ مَدْيَنُكُمْ بَيْنَكُمْ عَلَى جُنَاحٍ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اختلف المفسرون - رَجَمَهُمُ الله - في المعنى الذي رُفِعَ من أجله الحرَجُ عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا، فقال عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يُقال إنها نزلت في الجهاد. وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتي في سورة الفتح، وتلك في الجهاد لا محالة، أي: إنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد، لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُفْقَرُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحْجَدُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَرْجاً أَلَّا يَحْدُوا مَا يُفْقَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾. وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى، لأنه لا يَرَى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج لأنه لا يَتَمَكَّن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره. فكروهوا أن يواكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. وهذا قول سعيد بن جبير، ومقسم.

وقال الضحاك: كانوا قبل المبعث يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تَقْدَرًا وَتَقَرُّزًا، ولئلا يَتَفَضَّلُوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾... الآية قال: كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه، أو بيت أخيه، أو بيت أخته، أو بيت عَمَتِهِ، أو بيت خالته. فكان الزماني يَتَحَرَّجُونَ من ذلك، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم. فنزلت هذه الآية رخصة لهم. وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه، أو أخيه أو ابنه، فَتُحَنِّفُهُ المرأةُ بالشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رُبَّ البيت ليس ثمّ. فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾، إنما ذَكَرَ هذا، وهو معلوم، ليعطف عليه غيره

في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم. وتضمن هذا بيوت الأبناء، لأنه لم ينص عليهم. ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه.

[٤٩٨٢] وقد جاء في المسند والسنن، من غير وجه، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «أنت ومالك لأبيك»^(١). وقوله: «أَوْ بِيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ»، إلى قوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ»، هذا ظاهر. وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل، في المشهور عنهما. وأما قول: «أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ»، فقال سعيد بن جبيرة، والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقهرمان^(٢)، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف. وقال الزهرري، عن عروة، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان المسلمون يرغبون في النفيير مع رسول الله - ﷺ -، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمتائهم، ويقولون: قد أخللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه. فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل؛ إنهم أدنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء. فانزل الله: «أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ».

وقوله تعالى: «أَوْ صَدِيقِكُمْ»، أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك. وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه. وقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا»، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: «يَأْكُلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» [النساء: ٢٩]، قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد. فكف الناس عن ذلك، فانزل الله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ»، إلى قوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ»، وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، حتى يكون معه غيره، فَرخص الله لهم في ذلك، فقال: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا». وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الدود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فانزل الله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا». فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده، ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك، كما رواه الإمام أحمد:

[٤٩٨٣] حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وخشي بن حرب، عن أبيه، عن جده: أن رجلاً قال للنبي - ﷺ -: إنا نأكل ولا نشبع؟! قال: «فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»^(٣). ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث الوليد بن مسلم، به.

[٤٩٨٤] وقد روى ابن ماجه أيضاً، من حديث عمرو بن دينار القهرماني، عن سالم، عن أبيه، عن

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٣٥٣٠ وابن ماجه ٢٢٩٢ وأحمد ١٧٩/٢ من حديث عبد الله بن عمرو، وإسناده حسن، وله شواهد منها حديث جابر عند ابن ماجه ٢٢٩١ قال البوصيري في «الزوائد»: وإسناده صحيح على شرط البخاري. ومنها حديث عائشة عند ابن حبان ٤١٠، وحديث ابن مسعود عند الطبراني في «الكبير» ١٠٠١٩.

(٢) القهرمان: هو من يقوم بأمر الرجل من تجارة، وخدمة، ونحو ذلك.

(٣) مضى في سورة المائدة: ٤. وهو حسن بشواهد.

عُمَر، عن رسولِ الله - ﷺ - أنه قال: «كُلُّوا جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا؛ فَإِنَّ الْبِرْكَهَ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، قال سعيد بن جُبَيْر، والحسن البصري، وقتادة، والزهرى: فَلَسَلِمَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ. وقال ابن جريج: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَحِيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبْرُكَةً طَيِّبَةً. قال: مَا رَأَيْتُهُ إِلَّا يُوجِّه. قال ابن جريج: وَأَخْبَرَنِي زِيَادٌ، عَنْ ابْنِ طَاوُوسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ بَيْتَهُ فَلَسَلِمَ. قال ابن جُرَيْج: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَوَاجِبُ إِذَا خَرَجْتُ ثُمَّ دَخَلْتُ أَنْ أَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَا أَتَزَيَّرُ وَجُوهَهُ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَمَا أَدْعُهُ إِلَّا نَاسِيًا. وقال مجاهد: إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ. وَإِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. وَرَوَى الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزْرِيِّ، عَنْ مُجَاهِدٍ: إِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. وقال قتادة: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمَرُ بِذَلِكَ، وَخُذْتُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْهِ.

[٤٩٨٥] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عُويْدُ بْنُ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: أَوْصَانِي النَّبِيُّ - ﷺ - بِخَمْسٍ خَصَالٍ، قَالَ: «يَا أَنَسُ، أَسْبِغِ الْوُضُوءَ يَزِدُّ فِي عَمْرِكَ. وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ لَقَيْكَ مِنْ أُمَّتِي تَكْثُرُ حَسَنَاتُكَ. وَإِذَا دَخَلْتَ - يَعْنِي بَيْتَكَ - فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ، يَكْثُرُ خَيْرُ بَيْتِكَ. وَصَلِّ صَلَاةَ الضُّحَى فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْأَوَابِينَ قَبْلَكَ. يَا أَنَسُ، ارْحَمْ الصَّغِيرَ، وَوَقِّرِ الْكَبِيرَ، تَكُنْ مِنْ رَفِقَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢). وقوله: «تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ»، قال محمد بن إسحاق: حَدَّثَنِي دَاوُدُ بْنُ الْحَصِينِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا أَخَذْتُ التَّشَهُّدَ إِلَّا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ»، فَالتَّشَهُّدُ فِي الصَّلَاةِ: التَّحِيَّاتُ الْمُبَارَكَاتُ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ يَدْعُو لِنَفْسِهِ وَيَسَلِّمْ. هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ. وَالَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَخَالِفُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ، وَالشَّرَائِعِ الْمُتَقَنَةِ الْمُبْرَمَةِ تَبَيَّنَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ يُبَيِّنُ لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ بَيِّنَاتًا شَافِيًا، لِيَتَذَكَّرُوا وَيَتَعَقَّلُوا، لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ.

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٢٨٧ من حديث عمر، وإسناده ضعيف لضعف عمرو بن دينار هذا، ولصدده شواهد منها المتقدم. والله أعلم.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن عدي ٣٨٢/٥ بهذا الإسناد، وهو ضعيف جداً، فيه عويد الجوني، أهله ابن عدي به، وجاء في الميزان ٢٥٢٦: قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن معين: ليس بشيء.

وتابعه بشر بن حازم عند البيهقي ٨٧٦٥ «الشعب» ٨٧٦٦ وفيه مجاهيل. وورد من وجه آخر برقم ٨٧٦٢ و ٨٧٦٣ و ٨٧٦٤، ومداره على أزور بن غالب، وهو متروك. وورد من وجه آخر ٨٧٥٨ و ٨٧٥٩ وفيه اليسع ابن زيد بن سهل. ذكره الذهبي في الميزان ٩٧٨٥ فقال: عن ابن عيينة بخبر باطل، ولم أر لهم فيه كلاماً اهـ وهو قد رواه عن ابن عيينة، فالحديث ضعيف، وإن تعددت طرقه. والله أعلم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٦﴾﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من صلاة الجمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه - والحالة هذه - إلا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين. ثم أمر رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له، إن شاء، ولهذا قال: ﴿فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

[٤٩٨٦] وقد قال أبو داود: حدثنا أحمد بن حنبل ومُسَدَّد قالوا: حدثنا بشر - هو ابن المفضل - عن ابن عجلان، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم الأولى بأحق من الآخرة»^(١) وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به. وقال الترمذي: حديث حسن.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَكُمْ لِيُؤْذَنُوا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

قال الضحاك، عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم. فنهاهم الله - عز وجل - عن ذلك، إعظاماً لنبية - صلوات الله وسلامه عليه - قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر. وقال قتادة: أمر الله أن يُهابَ نبيه - ﷺ - وأن يُبْجَلَ وأن يُعْظَمَ وأن يُسَوَّدَ. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، يقول: لا تُسَمِّوه إذا دَعَوْتُمُوهُ «يا محمد»، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله. ولكن شرفوه فقولوا: «يا نبي الله»، «يا رسول الله».

وقال مالك، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، قال: أمرهم الله أن يُشْرَفُوهُ. هذا قول، وهو الظاهر من السياق، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَفُولُوا بِأَلْفَاظٍ مِثْلِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَأَدَّبُونَكَ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ كُنَّزُكُم لَا يَقُولُوكَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٢ - ٥]. فهذا كله من باب الآداب في مخاطبة النبي - ﷺ - والكلام معه وعنده، كما أمرُوا بتقديم الصدقة قبل مناجاته. والقول الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العوفي. والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَكُمْ لِيُؤْذَنُوا﴾

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٥٢٠٨ والترمذي ٢٨٠٦ والنسائي في «اليوم والليلة» ٣٦٩ وأحمد ٢٨٧/٢ والبخاري في «الآداب المفردة» ١٠٠٨ وابن حبان ٤٩٤ وإسناده حسن من أجل محمد بن عجلان.

يُنْكِرُ لِرِوَادِّكَ ﴿٦٤﴾ قال مقاتل بن حَيَّان: هم المنافقون، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فيلوثون ببعض الصحابة - أصحاب محمد - ﷺ - حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي - ﷺ - في يوم الجمعة، بعد ما يأخذ في الخطبة. وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبي - ﷺ - فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي - ﷺ - يخطب، بطلت جُمُعته. وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض، حتى يتغيبوا عنه، فلا يراهم. وقال قتادة في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لِرِوَادِّكَ﴾، يعني: لِرِوَادِّكَ عن نبي الله وعن كتابه. وقال سفيان: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لِرِوَادِّكَ﴾، قال: من الصف، وقال مجاهد: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لِرِوَادِّكَ﴾، قال: خلافاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، أي: عن أمر رسول الله - ﷺ - وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وشريعته، فتورن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِلَ، وما خالفه فهو مَرْدُودٌ على قائله وفاعله، كائنًا من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال:

[٤٩٨٧] «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»^(١). أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً «أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ»، أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، «أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، أي: في الدنيا، بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك؛ كما قال الإمام أحمد:

[٤٩٨٨] حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مثلي ومثلكم كمثلي رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدوابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَنْتَحِمْنَ فِيهَا. قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحجزكم عن النار: هَلُمُّوا عَنِ النَّارِ. فَنَغْلِبُونِي وَتَنْتَحِمُونَ فِيهَا»^(٢). أخرجه من حديث عبد الرزاق.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَلْبِسُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ يَكْلِفُ شَيْئًا عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

يُخْبِرُ تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾، وقد للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لِرِوَادِّكَ﴾، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الاحزاب: ١٨]. وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [المجادلة: ١]. وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ لَكُمْ لَاحِزَةً الَّتِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ الَّتِي يَأْتِي اللَّهَ بِحُجُودٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]. وقال: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا لَمَسَكَ قِيلَ رَمَضْنَا﴾ [البقرة: ١٤٤]. فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقدر، كما يقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: «قد قامت الصلاة. قد قامت الصلاة». فقله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به، مُشَاهِدٌ له، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْفَرِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦٧﴾ الَّذِي يَرَىٰ رَبَّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٦٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السُّجُودِ ﴿٦٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]. وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ وَمَا

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٢.

(٢) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ١٧.

يَصْرُفُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَنْفَعَالِ ذَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ [يونس: ٦١]. وقال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، أي: هو شهيدٌ على عباده بما هم فاعلون من خير وشر. وقال تعالى: ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَفْشُونَ بِهَا بَهِتَ يَعْلَمُ مَا يُبْشِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ السُّعُورِ﴾ [هود: ٥]. وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ مِنْ أَمَرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنُّجَيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿وَيَضَعُ مَقَانِصَ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، أي: ويوم ترجع الخلائق إلى الله - وهو يوم القيامة - ﴿فَيُنْتِظُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾، أي: يُخَبِّرُهُمْ بما فعلوا في الدنيا، من جليل وحقيق، وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿يَبْنِي الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَفِيرَةً وَلَا كِبْرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ لَحْدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتِظُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.

**آخر تفسير سورة النور والله الحمد
والمنة وبه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل**



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ
يَتَّخِذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ دُرُّ نَقِيرًا ﴿٢﴾

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ بَلَّغَ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِمْيَاً﴾ (١) ﴿فَمَا يَسْتَدِرُّ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُنْذِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْصُونَكَ الْعَلِيلِينَ أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ حَسَنًا﴾ (٢) ﴿مَنْ كُنِيَ فِيهِ آهَدًا﴾ (٣) ﴿[الكهف: ١-٣]. وقال هاهنا: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، نزل: فعل، من التكرار والتكرار، كما قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفزقاً مفصلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور. وهذا أبلغ وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٤) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَلَسَنَ نَقْصِيصُهُ﴾ (٥) ﴿ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾، هذه صفة مدح وثناء، لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (٦) [الجن: ١٩]. وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١). وقوله: ﴿يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، أي: إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفضل المحكم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٢) [فصلت: ٤٢]، الذي جعله فرقاناً عظيماً، إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، أو يستقل بالغبراء.

[٤٩٨٩] كما قال - صلوات الله وسلامه عليه -: «يُعِثُّ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» (١).

[٤٩٩٠] وقال: «أَعْطِيَتْ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»، فذكر منهن: أنه كان النبي يُعِثُّ إِلَى قَوْمِهِ، وَيُعِثُّ إِلَى النَّاسِ عَامَةً» (٢). وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ

(١) تقدم مراراً وهو صحيح.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٣ وهو في الصحيح.

مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴿١٥٨﴾، أي: الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض، الذي يقول للشيء كُنْ فيكون. وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَيْسَ لَمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ﴾، فَنَزَهَ نَفْسَهُ عَنِ الْوَلَدِ، وَعَنِ الشَّرِيكِ. ثم أخبره أنه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ تَقْدِيرُ﴾، أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه والله، وكل شيء تحت قهره وتسخيره، وتدبيره وتقديره.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ ﴿١٥٩﴾

يُخَبِّرُ تعالى عن جهل المشركين في اتّخاذهم آلهة من دُون الله، الخالق لكل شيء، المالك لازمة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عَبَدُوا مَعَهُ من الأصنام ما لا يُقَدِّرُ على خلق جناح بَعُوضَةٍ، بل هُم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعبادتهم؟! ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾، أي: ليس إليهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله - عز وجل - فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْهينَ وَجِدَةً﴾ [النعمان: ٢٨]، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَجِدَةٌ﴾ ﴿١٦٠﴾ ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَجِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤]، ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَجِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩]، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً فَلَمَّا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ [يس: ٥٣]. فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عدل ولا نديد، ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿١٦٢﴾ وَقَالُوا أَتُحِبُّونَ آلَؤُلَئِكَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تَمَلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن سَخَافَةِ عُقُولِ الْجَهْلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ، في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾، أي: كَذِبٌ، ﴿افْتَرَاهُ﴾، يعنون محمداً النبي - ﷺ - ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ﴾، أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾، أي: فقد افترأوا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون. ﴿وَقَالُوا أَتُحِبُّونَ آلَؤُلَئِكَ أَكْتَتَبَهَا﴾، يعنون كتب الأوائل استنسخها، ﴿فِيهِ تَمَلُّ عَلَيْهِ﴾، أي: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: في أول النهار وآخره. وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهتته منهم - كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عَلِمَ بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكن يُعَانِي شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نَشَأَ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يُسْمُونَهُ في صغره وإلى أن بُعِثَ إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمهم الله بما أكرمهم به، نَصَبُوا له العداوة، ورَمَوْهُ بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا ماذا يَقْدِفُونَهُ به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، قال الله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلِ فَضْلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ مَبِيلًا﴾.

وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا واقتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً، ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾، أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعِلْمِهِ بالظواهر. وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ عَقْوَرًا رَجِيمًا﴾، دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهو لا مع كذبهم واقتراهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوه إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ فَكُلُّهُمْ عِندَ اللَّهِ إِلَهٌ إِلَهٌ وَحْدٌ وَإِنَّ لَكُم لَذُنُوبًا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣ - ٧٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَكَلَّمُوا الشُّرَكَاءَ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَاقِبَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوه إلى التوبة والرحمة!

﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٧٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٧٩﴾ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لك قصوراً ﴿٨٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿٨١﴾ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا لَهُمْ تَقِيظًا وَفَوَيْكَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَعِيفًا مُّقْتَرِينَ دَعَوْا هُنَا لَكَ ثُبُورًا ﴿٨٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٨٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن نَعْتِ الْكُفَّارِ وَعِنَادِهِمْ، وتكذيبهم للحق بلا حُجَّةٍ ولا دَلِيلٍ منهم، وإنما تَعَلَّلُوا بقولهم: ﴿مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾، يعنون كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، أي: يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة، ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾، يقولون: هلا أنزل إليه مَلَكٌ من عند الله فيكون له شاهداً على صِدْقِ مَا يَدْعِيهِ! وهذا كما قال فرعون: ﴿قُلْ لَّيْسَ عَلَيَّ أَسْرَرَةٌ مِّنْ دَهَبٍ أَوْ جَوَاهِرٍ مَّعَهُ الْمَلَكُ مَقَرِّينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السوء، تشابهت قلوبهم، ولهذا قال: ﴿أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾، أي: عِلْمٌ كَنْزٌ يُنْفَخُ منه، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، أي: تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾. قال الله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل﴾، أي: جاؤا بما يقدفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم ساحر، مسحور، مجنون، كذاب، شاعر. وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم واقتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾، أي: عن طريق الهدى، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضالٌ حيثما توجه، لأن الحق واحد ومنهجٌ مُتَّجِدٌ، يُصَدِّقُ بعضه بعضاً.

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لك قصوراً ﴿٨١﴾﴾. قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصر أو صغيراً.

[٤٩٩١] وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خيثمة؛ قيل للنبي - ﷺ -: «إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك، ولا يعطى أحد من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله؟ فقال: اجمعوها لي في الآخرة. فأنزل الله في ذلك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَإِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ (١١)». (١)

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، «وَأَعْتَدْنَا، أي: وأزددنا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾، أي: عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبيرة: «السعير»: واد من فيح جهنم. وقوله: «إِذَا رَأَتْهُمْ»، أي: جهنم «بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ»، يعني: في مقام المحشر. قال السدي: من مسيرة مئة عام، «سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا»، أي: خفياً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ [الملك: ٧-٨]، أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها على من كفر بالله.

[٤٩٩٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا إدريس بن حاتم بن الأحنف الواسطي: أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي، عن أصبغ بن زيد، عن خالد بن كثير، عن خالد بن ذريك، عن رجل من أصحاب النبي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من يقل علي ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواله فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً. قيل: يا رسول الله، وهل لها من عينين؟ قال: أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾... الآية. (٢)» ورواه ابن جرير، عن محمد بن خذاش، عن محمد بن يزيد الواسطي، به. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنفاضي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسى بن سليم، عن أبي وائل قال: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ - يعني ابن مسعود - وَمَعَنَا الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ فَمَرَوْا عَلَى حَدَّادٍ، فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَنْظُرُ إِلَى حَدِيدَةٍ فِي النَّارِ، وَنَظَرَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ إِلَيْهَا فَتَمَائِلَ لِيَسْقُطَ، فَمَرَّ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى أَتُونٍ (٣) عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ، فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ اللَّهِ وَالنَّارَ تَلْتَلِهَبُ فِي جَوْفِهِ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾، فَصَعِقَ - يعني الربيع بن خثيم - فَحَمَلُوهُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَرَابَطَهُ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى الظُّهْرِ، فَلَمْ يُفِقْ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وحدثنا أبي: حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إِنَّ الْعَبْدَ لَيُجْرَى إِلَى النَّارِ، فَتَشْهَقُ إِلَيْهِ شَهَقَةً الْبَغْلَةِ إِلَى الشَّعِيرِ، ثُمَّ تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ. هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مُخْتَصَرًا، وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدُّورِيُّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي يَحْيَى، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُجْرَى إِلَى النَّارِ فَتَنْزَوِي وَتَنْقَبُضُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَيَقُولُ لَهَا الرَّحْمَنُ: مَا لَكَ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ يَسْتَجِيرُ مِنِّي. فَيَقُولُ: أَرْسَلُوا عَبْدِي. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُجْرَى إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا كَانَ هَذَا الظَّنُّ بِكَ؟ فَيَقُولُ: فَمَا كَانَ ظَنُّكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْ تَسْعَنِي

(١) ضعيف. عزاه السيوطي في «أسباب النزول» ٨١٤ لابن أبي شيبه، والطبري روياه عن خيثمة. والذي في تفسير الطبري ٢٦٢٨٦ عن سفيان عن حبيب، والظاهر أنه سقط منه «خيثمة» والله أعلم.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٢٨٧ بهذا الإسناد لكن قال عن «فديك» بدل «خالد بن ذريك» والصواب رواية ابن أبي حاتم. ويكل حال الإسناد ضعيف. فيه أصبغ بن زيد، ضعفه ابن سعد، ووثقه ابن معين، وخالد بن ذريك روايته عن الصحابة مرسله راجع الميزان ٢٤١٩.

(٣) الأتون: التنور.

رَحْمَتِكَ. فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل لِيُجْزَى إلى النار، فتشهُقُ إليه النار شهوقاً البغلة إلى الشَّعِير، وتزفر زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف. وهذا إسناد صحيح.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن منصور، عن مجاهد، عن عُبَيْد بن عَمِير في قوله: ﴿يَمْعُرُ وَهُمَا يَخَافُ﴾، قال: إنَّ جَهَنَّمَ تَزْفِرُ زفرةً، لا يبقى مَلَكٌ ولا نَبِيٌّ إلا خَرَّ تَرْعُدُ فرائضه، حتى إنَّ إبراهيمَ - عليه السلام - لَيَجْثُو على رُكْبَتَيْهِ ويقول: رب، لا أسألك اليوم إلا نفسي. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْمَكَانَةِ كَانُوا عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، قال قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: مثل الرُّجِّ^(١) في الرمح. أي: من ضيقه.

[٤٩٩٣] وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن يحيى بن أبي أسيد - يرفع الحديث إلى رسول الله - ﷺ - أنه سُئِلَ عن قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْمَكَانَةِ كَانُوا عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، قال: «والذي نفسي بيده إنهم لَيَسْتَكْرَهُونَ في النار كما يَسْتَكْرَهُ الْوَتْدُ في الحائط»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿مُتَّقِينَ﴾، قال أبو صالح: يعني مُكْتَفِينَ. ﴿وَدَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، أي: بالويل والحسرة والخيبة ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

[٤٩٩٤] قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَاد بن سلمة، عن علي بن زيد^(٣)، عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله - ﷺ - قال: «أول من يُكْسَى حُلَّةً من النار إبليس، فَيَضَعُهَا على حَاجِبَيْهِ وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ، وَذُرَيْتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ ينادي: يَا ثُبُورَاهُ. وينادون: يَا ثُبُورَهُمْ. حتى يَقْفُوا على النار، فيقول: يا ثُبُورَاهُ. ويقولون: يَا ثُبُورَهُمْ. فيقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾^(٤). لم يُخْرِجْهُ أَحَدٌ من أصحابِ الْكُتُبِ السَّيِّئَةِ، ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن عَفَّان، به. ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة به. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، أي: لا تدعوا اليومَ وَيلاً واحداً، وادعوا وَيلاً كَثِيراً. وقال الضَّحَّاك: الثُّبُور: الهلاك. والأظهر أن الثُّبُورَ يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَلِيَّ لَأَظُنَّكَ يَفْرَعُونَ ثُبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، أي: هالكاً. وقال عبد الله بن الزُّبَيْرُ:

إِذَا أَجَارِيَ الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْعَدُوِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيْرًا﴾^(٥) هُمْ فِيهَا مَا

يَشَاءُونَ خَلِيدٌ كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدًا مَسْئُولًا^(٦)

يقول تعالى: يا محمد، هذا الذي وَصَفْنَاهُ من حال أولئك الأشقياء، الذين يُحْشَرُونَ على وجوههم إلى

(١) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» ١١٧/٥ لابن أبي حاتم، وهو مرسل يحيى بن أبي أسيد تابعي، فالخير وإه.

(٣) وقع في سائر الأصول «يزيد» وهو تصحيف من الناسخ.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ١٥٢/٣ - ١٥٣ - ١٥٤ - ٢٤٩ وابن أبي شيبة ١٦٨/١٣ والطبري ٢٦٢٩٢ والبخاري ٣٤٩٥ والخطيب ٢٥٣/١١ وأبو نعيم ٢٥٦/٦، ومداره على علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في «التقريب». وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٦١١: رجاله رجال الصحيح، غير علي بن زيد، وقد وثق أنه ومع ذلك قال السيوطي في «الدر المنثور» ١١٧/٥: سنده صحيح وهذا شيء عجيب، علي بن زيد وضعفه الجمهور روى مناكير كثيرة عن أنس وغيره. راجع ترجمته في الميزان.

جهنم، فتلقاهم بوجوه عبوس وبغيظ ورزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين، لا يستطيعون جزأكا، ولا انتصاراً ولا فكاً مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدنا الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، أي من الملائكة، من مآكل ومشارب، وملابس ومسكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد. وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، لا ييئون عنها جولاً. وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾، أي: لا بد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾، أي: وعداً واجباً. وقال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾، يقول: سلوا الذي وعدتكم - أو قال: واعدناكم - ننجز. وقال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾: إن الملائكة تسأل لهم ذلك: ﴿رَبَّنَا وَأَذِلَّهُمْ جَنَّتِ عَدْنِ أَلْقَى وَعَدْتَهُمْ﴾ [غافر: ٨]. وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عجلنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا. فذلك قوله: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾. وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في «سورة الصافات» حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والخبور، ثم قال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّأْمَةِ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ زَيْجَرٍ فِي أَصْلِ الْجَبِيمِ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿لَطَمُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسٌ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿لَا يَأْتِيهِمْ لَاحُظٌ مِنَّا وَالطُّلُوعُ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِمْ لَشَوْأً مِّنْ حِمِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجَمَهُمْ لِلْأَلْبِجِ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا مَائِدَاتُ مَرَصَاتٍ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿فَهُمْ عَلَى سَائِرٍ مَّهْرُورٍ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِثِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُزِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تفريع الكفار في عبادتهم من عبداً من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة. ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾، أي: فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين: أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧] الآية، ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِثِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ﴾، قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله ﴿نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ﴾، أي: ليس للمخلوق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ تَوَفَّيْتَهُمْ﴾ [سبا: ٢٩].

٤٠ - ٤١. وقرأ آخرون: «ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء»، أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإنا عبيد لك، فقرأ إليك. وهي قريبة المعنى من الأولى. «ولكن متعتهم وبكاءهم»، أي: طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رُسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك. «وكانوا قوماً بوراً»، قال ابن عباس: أي هلكى. وقال الحسن البصري ومالك، عن الزهري: أي لا خير فيهم. وقال ابن الزبيري حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي زَاتِقٌ مَا قَشَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَدَى وَمَنْ مَالٌ مِثْلَهُ مَثْبُورٌ

قال الله تعالى: «فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ»، أي: فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يُقرَّبونكم إليه زلفى، كما قال تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا خِشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحاف: ٥ - ٦]. وقوله: «فَمَا تَسْتَظِيرُونَ صَرَفًا وَلَا نَصْرًا»، أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، «وَمَنْ يظلم ينكس»، أي: يشرِك بالله، «ثِقَةُ عَذَابٍ أُثْقِلَ فِيهِ».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَكْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذي به «ويكشون في الأسواق»، أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمنافٍ لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاؤوا به من الله - عز وجل -. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴿١٠٩﴾»، وقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨]. وقوله: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»، أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع مَنْ يطيعي. ولهذا قال: «أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا»، أي: ممن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» [الأنعام: ١٢٤]، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ»، قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون، لفعلت، ولكني قد أردت أن ابتلي العباد بهم، وابتليهم بهم.

[٤٩٩٥] وفي صحيح مسلم عن عياض بن جهم، عن رسول الله - ﷺ -: «يقول الله: إني مُبتليكَ ومُبتَلٍ بِكَ»^(١).

[٤٩٩٦] وفي المسند عن رسول الله - ﷺ -: «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»^(٢).

(١) هو بعض حديث طويل عند مسلم ٢٨٦٥ ولفظه: «إنما بعثك لأبتليكَ، وأبتَلِي بِكَ».

(٢) أخرجه أبو يعلى ٤٩٢٠ من حديث عائشة وإسناده ضعيف لضعف أبي معشر، وأخرجه أحمد في «الزهد» ١٤ والبيهقي في «الأنوار» ٤٢٩ من وجه آخر عن عائشة.

[٤٩٩٧] وفي الصحيح أنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - خيّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُنْزِلْ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةَ أَوْ نَرِىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْٓ اَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيْرًا ۝٢١ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرٰى يَوْمَئِذٍ لِلْمُتَجَرِّمِيْنَ وَيَقُوْلُوْنَ جِبْرًا تَحْجُوْرًا ۝٢٢ وَقَدِمْنَا اِلٰى مَا عَمِلُوْا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰهُ هَبٰكًا مَّنْشُوْرًا ۝٢٣ اَصْحٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَّاَحْسَنُ مَقِيْلًا ۝٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن تَعَثُّبِ الكُفَّارِ في كُفْرِهِمْ وَعِتَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا اُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ﴾، أي: بالرسالة كما نُزِّلَ على الأنبياء، كما أخبر عنهم تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُوْا لَنْ يُؤْمِنَ حَتّٰى تُوْقَّ مِثْلُ مَا اُوْقَىٰ رُسُلُ اللّٰهِ﴾ [الأنعام: ١١٢٤]. ويَحْتَمِلُ أن يكون مرادهم هاهنا: ﴿لَوْلَا اُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ﴾ فنراهم عياناً، فيُخْبِرُونَا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِاللّٰهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ قَبِيْلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. وقد تقدّم تفسيرها في «سورة سبحان». ولهذا قال: ﴿أَوْ نَرِىٰ رَبَّنَا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْٓ اَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيْرًا﴾. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ اَنَّآ نَزَّلْنَا اِلٰٓهِيْهُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَحَرَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ مِّنْ قَبْلُ مَا كَانُوْا يٰٓؤْمِنُوْا اِلَّا اَنْ يَشَآءَ اللّٰهُ وَلٰكِنْ اَكْثَرُهُمْ يٰٓجٰهِلُوْنَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرٰى يَوْمَئِذٍ لِلْمُتَجَرِّمِيْنَ وَيَقُوْلُوْنَ جِبْرًا تَحْجُوْرًا ۝٢٢﴾، أي: هم لا يَرَوْنَ الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يَرَوْنَ الملائكة لا بُشْرٰى يومئذٍ لهم، وذلك يَضْدُقُ على وقت الاحتضار حين يُبْشَرُهُمُ الملائكة بالنار، وَغَضِبَ الْجِبَارُ، فتقول الملائكة للكافر عند خُرُوجِ روحه: اخْرِجِيْ اَيْتَهَا النَّفْسَ الْحَبِيْثَةَ فِي الْجَسَدِ الْحَبِيْثِ، اخْرِجِيْ اِلٰى سَمُوْمٍ وَحَمِيْمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُوْمٍ. فتأبى الخُرُوجَ وتَفْرُقُ في البدن، فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهْتَ اِذْ يَتَوَقَّى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا الْمَلٰٓئِكَةُ بِصُرِيْوتٍ وُّجُوْهَةٍ وَاَدْبَرِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهْتَ اِذْ الظّٰلِمُوْنَ فِيْ عَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلٰٓئِكَةُ بَاسِطُوْا اَيْدِيَهُمْ﴾، أي: بالضرب، ﴿اَخْرِجُوْا اَنْفُسَكُمْ اِلْيَوْمِ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُوْلُوْنَ عَلٰى اللّٰهِ عِبْرَ الْمَوْتِ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايٰتِيْهِ تَسْتَكْبِرُوْنَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرٰى يَوْمَئِذٍ لِلْمُتَجَرِّمِيْنَ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم، انهم يُبْشَرُونَ بالخيرات، وَحُصُولِ الْمَسَرَاتِ، قال الله تعالى: ﴿اِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا رَبَّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقَمْنَا سَنَنْزِلْ عَلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةَ اَلَّا تَخَافُوْا وَلَا تَحْزَنُوْا وَاَبَشِرُوْا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُوْنَ ۝٣٠ تَحْنُ اَوَّلَآءِكُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْاٰخِرَةِ وَلَكُمْ فِيْهَا مَا تَشْتَهِيْ اَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيْهَا مَا تَدْعُوْنَ ۝٣١ تَزٰلَا مِنْ عَوْرَتِهِمْ رٰحِمٌ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

[٤٩٩٨] وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «اخْرِجِيْ اَيْتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، كُنْتَ تَعْمُرِيْنِي، اخْرِجِيْ اِلٰى رُوحٍ وَرِيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ»^(٢). وقد تقدم الحديث في «سورة إبراهيم»، عند قوله تعالى: ﴿يٰٓبٰٓئِثُ اللّٰهِ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا بِالْقَوْلِ الثّٰلِثِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْاٰخِرَةِ وَيُؤْتِلُ اللّٰهُ الظّٰلِمِيْنَ وَيَقْعَلُ اللّٰهُ مَا يَشَآءُ ۝١٧﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ﴾، يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضحاك،

(١) أخرجه ابن حبان ٦٣٦٥ وأحمد ٢٣١/٢ من حديث أبي هريرة، وأخرجه البغوي في «الأنوار» ١٥ من حديث ابن عباس.

(٢) هو مرفوع لا موقوف، وقد تقدم في تفسير سورة إبراهيم: ٢٧، كما ذكر المصنف.

وغيرهما. ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدّم، فإن الملائكة في هذين اليومين، يوم الممات ويوم المعاد، تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتُبشّر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتُخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بُشْرَى يومئذٍ للمجرمين. ﴿وَيَقُولُونَ جَبْرًا تَحْجُورًا﴾، أي: وتقول الملائكة للكافرين: حَرَامٌ مُحَرَّمٌ عليكم الفلاح اليوم. وأصل الجبر المنع، ومنه يقال: حَجَرَ القاضي على فلان؛ إذا مَنَعَهُ التصرف إما لِسَفْهِ، أو قُلُسٍ، أو صِغَرٍ، أو نحو ذلك. ومنه سُمِّيَ «الجبر» عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطواف أن يَطُوفُوا فيه، وإنما يُطَاف من ورائه. ومنه يقال للعقل: «جبر»، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق. والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائذ على الملائكة. هذا قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، وخُصِيف، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا موسى - يعني ابن قيس - عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري: ﴿وَيَقُولُونَ جَبْرًا تَحْجُورًا﴾، قال: حَرَامًا مُحَرَّمًا أَنْ تُبَشَّرَ بِمَا يَبْشُرُ بِهِ الْمُتَّقُونَ. وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج أنه قال: ذلك من كلام المشركين: يوم يرون الملائكة يقولون: جَبْرًا مُحْجُورًا، أي: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقولون: جَبْرًا مُحْجُورًا. وهذا القول - وإن كان له مأخذٌ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد، ولا يبيها قد نصّ الجمهور على خلافه. ولكن قد روى ابن أبي نجيع، عن مجاهد أنه قال في قوله: ﴿جَبْرًا تَحْجُورًا﴾، أي: عَوْدًا مُعَاذًا. فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. ولكن في رواية ابن أبي حاتم، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد أنه قال: ﴿جَبْرًا تَحْجُورًا﴾، عَوْدًا مُعَاذًا، الْمَلَائِكَةُ تَقُولُهُ. فإله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْكَ مَنثورًا ۖ﴾، وهذا يوم القيامة، حين يُحَاسِبُ الله العباد على ما عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فأخبر أنه لَا يَتَحَصَّلُ لَهُوْلَاءُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مُنْجَاةٌ لَهُمْ شَيْءٌ؛ وذلك لأنها فَقَدَتِ الشَّرْطَ الشَّرْعِيَّ، إما الْإِخْلَاصَ فِيهَا، وإما الْمَتَابَعَةَ لِشَرْعِ اللَّهِ. فَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ خَالِصًا وَعَلَى الشَّرِيعَةِ الْمَرْضِيَّةِ، فَهُوَ بَاطِلٌ. فَأَعْمَالُ الْكُفَّارِ لَا تَخْلُو مِنْ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ، وَقَدْ تَجَمَّعُهَا مَعًا، فَتَكُونُ أَبْعَدَ مِنَ الْقَبُولِ حِينَئِذٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْكَ مَنثورًا ۖ﴾. قال مجاهد، والثوري: ﴿وَقَدِمْنَا﴾، أي: عَمَدْنَا. وكذا قال السدي: ﴿وَقَدِمْنَا﴾: عَمَدْنَا، وبعضهم يقول: أَتَيْنَا عَلَيْهِ. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبْكَ مَنثورًا﴾، قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي - رضي الله عنه - في قوله: ﴿هَبْكَ مَنثورًا﴾، أي: شُعَاعُ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ فِي الْكُوَّةِ. وكذا رُويَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عَنْ عَلِيٍّ. وَرُويَ مِثْلُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَعُكْرَمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالسَّدي، وَالضَّحَّاكِ، وَغَيْرِهِمْ. وكذا قال الحسن البصري: هو الشُعَاعُ فِي كُوَّةِ أَحَدِهِمْ لَوْ ذَهَبَ يَقْبِضُ عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعْ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَبْكَ مَنثورًا﴾، قال: هو الْمَاءُ الْمَهْرَاقُ. وقال أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: ﴿هَبْكَ مَنثورًا﴾، قال: الْهَبَاءُ رَهْفٌ ^(١) الدواب. وَرُويَ مِثْلُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَالضَّحَّاكِ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ. وقال قتادة في قوله: ﴿هَبْكَ مَنثورًا﴾ قال: أما رأيت يَبِيسَ الشَّجَرِ إِذَا ذَرَّتْهُ الرِّيحُ؟ فَهُوَ ذَلِكَ الْوَرَقُ. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عاصم بن حكيم، عن أبي سريع الطائي، عن عُبيد بن يغلى

قال: وإنَّ الهَيَاءَ الرُّمَازُ إِذْ ذُرَّتْهُ الرِّيحُ. وحاصلُ هذه الأقوال التَّنبُّهُ على مضمون الآية، وذلك أنهم عَمِلُوا أَعْمَالاً اعتقدوا أنها شيء، فلما عُرِضَتْ على الملك الحكم العَدْلُ الذي لا يَجُور ولا يظلم أحداً، إذ إنها لا شيء بالكُلِّيَّة. وشُبِّهَتْ في ذلك بالشَّيْءِ التافه الحَقِيرِ المتفَرِّق، الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ ۝﴾ [إبراهيم: ١٨] وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْغُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَقَةً فَاتَى وَلَا يُوَئِي إِلَهُهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ فَتَحْلَمُ كُنْثَى صَفْوَانٍ عَلَيْهِ رَبُّهُ فَاصْبِرْ وَاصْبِرْ فَتَرَكَهُ صَلَافًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ۝﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرَكَرٍ يَرِيقُهُ يَصْبَغُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَا يُجِدُ شَيْئًا ۝﴾ [النور: ٣٩]. وتَقَدَّمَ الكلام على تفسير ذلك، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝﴾، أي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝﴾ [الحشر: ٢٠]، وذلك أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَالْعُرُوفَاتِ الْأَمْنَاتِ، فَهَمُ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ، حَسَنِ الْمَنْظَرِ، طَيِّبِ الْمَقَامِ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝﴾ [الفرقان: ٧٦] وَأَهْلُ النَّارِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَكَاتِ السَّافِلَاتِ، وَالْحَسَرَاتِ الْمُتَتَابِعَاتِ، وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٦]، أي: بِئْسَ الْمَنْزِلُ مَنْظَرًا وَبِئْسَ الْمَقِيلُ مَقَامًا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝﴾، أي: بما عملوه من الْأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ، نَالُوا مَا نَالُوا، وَصَارُوا إِلَى مَا إِلَيْهِ صَارُوا، بخلاف أَهْلِ النَّارِ فإنه ليس لهم عَمَلٌ وَاحِدٌ يَقْتَضِي لَهُمْ دُخُولَ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، فَبِئْسَ - تعالى - بِحَالِ السَّعْدَاءِ عَلَى حَالِ الْأَشْقِيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا خَيْرَ عِنْدَهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ، فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝﴾. قال الضَّحَّاكُ، عن ابن عباسٍ: إِنَّمَا هِيَ ضُحْوَةٌ، فَيَقِيلُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى الْأَسْرَةِ مَعَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَيَقِيلُ أَعْدَاءُ اللَّهِ مَعَ الشَّيَاطِينِ مُقَرَّنِينَ.

وقال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَفْرَغُ اللَّهُ مِنَ الْحِسَابِ نِصْفَ النَّهَارِ، فَيَقِيلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝﴾. وقال عِكْرِمَةُ: إِنِّي لَأَعْرِفُ السَّاعَةَ الَّتِي يَدْخُلُ فِيهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، هِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ ارْتِفَاعِ الضُّحَى الْأَكْبَرِ، إِذَا انْقَلَبَ النَّاسُ إِلَى أَهْلِهِمْ لِلْقِيلُولَةِ، فَيَنْصَرِفُ أَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَيُنْطَلِقُ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ، فَكَانَتْ قِيلُولَتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَأَطْعِمُوا كَيْدَ حُوتٍ، فَاشْبِعَهُمْ ذَلِكَ كُلَّهُمْ، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝﴾. وقال سَفِيانٌ، عن مَيْسَرَةَ، عن الْمُنْهَالِ، عن أَبِي عُبَيْدَةَ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَنْتَصِفُ النَّهَارُ حَتَّى يَقِيلَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝﴾، وَقَرَأَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيمِ ۝﴾ [الصافات: ٦٨].

وقال العَوْفِيُّ، عن ابن عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝﴾، قَالَ: قَالُوا فِي الْعُرْفِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَانَ حِسَابُهُمْ أَنْ عَرَضُوا عَلَى رَبِّهِمْ عَرَضَةً وَاحِدَةً، وَذَلِكَ الْحِسَابُ الْبَيْبَرُ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بَيِّنَتِهِ ۝﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَيْهِمْ أَهْلُهُمْ مَسْرُورًا ۝﴾ [الانشقاق: ٧-٩]. وقال قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝﴾، أي: مَاوَى وَمَنْزَلًا. قال قَتَادَةُ: وَخَدَّثَ صَفْوَانٌ بَنَ مُحَرِّزٍ أَنَّهُ قَالَ: يُجَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَجُلَيْنِ، كَانَ أَحَدُهُمَا مَلِكًا فِي

الدنيا إلى الحُمْرَةِ والبياضِ فَيُحَاسَبُ، فإذا عبدَ لم يعمل خيراً فَيُؤْمَرُ به إلى النار. والآخرُ كان صاحِبَ كساءٍ في الدنيا، فَيُحَاسَبُ فيقول: يا رب، ما أعطيتني من شيءٍ فَنُحَاسِبُنِي به. فيقول: صدقَ عبي، فأرسلوه. فيؤمرُ به إلى الجنة، ثم يُتركَان ما شاء الله. ثم يُدعى صاحبُ النار، فإذا هو مثلُ الحُمَمَةِ السوداء، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: شَرٌّ مَقِيل. فيقال له: عُذ. ثم يُدعى بصاحبِ الجنة، فإذا هو مثلُ القَمَرِ ليلةَ البدر، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: رَبٌّ، خَيْرٌ مَقِيل. فيقال له: عُذ. رواها ابنُ أبي حاتم كُلُّها. وقال ابنُ جرير: حَدَّثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، أن سعيداً الصَّوَّافَ حَدَّثه، أَنه بَلَغَه: «أن يومَ القيامةِ يَقْصُرُ على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وَأَنَّهُمْ لَيَقِيلُونَ في رياضِ الجنة حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْحَضَ الْجَنَّةُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ٢٦».

﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَزُلَّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ٢٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ٢٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَتَنِي لَرَأَيْتُ فُلَانًا خَلِيلًا ٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ٢٩﴾

يُخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاقُ السماء وتَفْطَرُها وانفراجُها بالغمم - وهو ظُلُّ النور العظيم الذي يَبْهَرُ الأبصارَ - ونزولُ ملائكةِ السمواتِ يومئذٍ، فيُحيطون بالخالقين في مقام المحشر، ثم يجيء الربُّ تبارك وتعالى لِفصلِ القضا. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ٢٩﴾ [البقرة: ٢١٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار بن الحارث، حدثنا مُؤَمِّل، حدثنا حماد بن سَلَمَة، عن علي بن زيد، عن يوسُف بن مهران، عن ابن عَبَّاس، أَنه قرأ هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَزُلَّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ٢٥﴾، قال ابن عباس: يَجْمَعُ الله الخلقَ يومَ القيامةِ في صَعِيدٍ واحدٍ، الجنَّ والإنسَ والبهائمَ والسباعَ والطيرَ وجميعَ الخلقِ، فَتَنْشَقُّ السماءُ الدنيا، فينزلُ أهلُها - وهم أَكْثَرُ من الجنَّ والإنسَ ومن جميع الخلائق - فيُحيطون بالجنَّ والإنسَ وجميع الخلق. ثم تَنْشَقُّ السماءُ الثانيةُ فينزلُ أهلُها، وهم أَكْثَرُ من أهلِ السماء الدنيا ومن الجنَّ والإنسَ، ومن جميع الخلق، فيُحيطون بالملائكةِ الذين نزلوا قبلهم والجنَّ والإنسَ وجميع الخلق. ثم تَنْشَقُّ السماءُ الثالثةُ، فينزلُ أهلُها، وهم أَكْثَرُ من أهلِ السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق، فيُحيطون بالملائكةِ الذين نزلوا قبلهم، وبالجنَّ والإنسَ وجميع الخلق. ثم كذلك كل سماء، حتى تَنْشَقُّ السماءُ السابعةُ، فينزلُ أهلُها وهم أَكْثَرُ ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجنَّ والإنسَ ومن جميع الخلق، فيُحيطون بالملائكةِ الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات، وبالجنَّ والإنسَ وجميع الخلق، ورُبُّنا - عزَّ وجلَّ - في ظُلَلٍ مِنَ الْقَمَامِ، وحولَه الكَرُويُون، وهم أَكْثَرُ من أهلِ السموات السبعِ الإنسَ والجنَّ وجميع الخلق، لهم قُرُونٌ كَأَكْغَبِ الْقَنَا، وهم تحتَ العرش، لهم رَجَلٌ بالتسبيح والتهلِيل والتقدیس لله - عزَّ وجلَّ - ما بين أخصص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرةَ خمسَمئة عام وما بين كعبه إلى ركبتيه مسيرةَ خمسَمئة عام، وما بين رُكْبَتَيْهِ إلى حُجْرَتِهِ مَسِيرَةُ خمسَمئة عام، وما بين حُجْرَتِهِ إلى تَرْقُوتِهِ مَسِيرَةُ خمسَمئة عام، وما بين تَرْقُوتِهِ إلى موضعِ القُرْطِ مَسِيرَةُ

خمس مئة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمئة عام، وجهنم مُجْتَبِئَةٌ. هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق^(١).

وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنِي الْحَجَّاجُ، عَنْ مُبَارَكِ بْنِ قُضَالَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، عَنْ يَوْسَفَ بْنِ مِهْرَانَ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ السَّمَاءَ إِذَا انْشَقَّتْ نَزَلَ مِنْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَكْثَرُ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَهُوَ يَوْمُ الثَّلَاقِ، يَوْمَ يَلْتَقِي أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْأَرْضِ: جَاءَ رَبُّنَا؟ فَيَقُولُونَ: لَمْ يَجِئْ، وَهُوَ آتٍ. ثُمَّ تَنْشَقُّ السَّمَاءُ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ سَمَاءُ سَمَاءَ، عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّضْعِيفِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. فَيَنْزِلُ مِنْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَكْثَرُ مِنْ جَمِيعِ مَنْ نَزَلَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمَنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ. فَتَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ الْكَرُوبِيُّونَ، ثُمَّ يَأْتِي رَبُّنَا فِي حَمَلَةِ الْعَرْشِ الثَّمَانِيَةِ، بَيْنَ كَعْبِ كُلِّ مَلَكٍ وَرُكْبَتِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَبَيْنَ فَخْذِهِ وَمُتَكِبِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ سَنَةً. قَالَ: وَكُلُّ مَلِكٍ مِنْهُمْ لَمْ يَتَأَمَّلْ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَكُلُّ مَلَكٍ مِنْهُمْ وَاضِعٌ رَأْسَهُ بَيْنَ تَذْيِيهِ يَقُولُ: سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ. وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ شَيْءٌ مَبْسُوطٌ كَأَنَّهُ الْقَبَاءُ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ. ثُمَّ وَقَفَ. فَمَدَّاهُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، وَفِي سِيَاقَاتِهِ غَالِبًا نَكَارَةً شَدِيدَةً. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَمِيزُ الْوَقِيعَةُ﴾ [١٥-١٧]، قَالَ شَهْرُ بْنُ خَوْشَبٍ: حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثَمَانِيَةٌ، أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى جَلَمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ. وَأَرْبَعَةٌ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ، رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْهُ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: إِذَا نَظَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى الْعَرْشِ يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، شَخْصَتْ إِلَيْهِ أَبْصَارُهُمْ، وَرَجَفَتْ كُلَاهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ، وَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَقَرِّهَا مِنْ صُدُورِهِمْ إِلَى خَنَاجِرِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَبْدِ الْجَلِيلِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: يَهْبِطُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ يَهْبِطُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ حِجَابٍ، مِنْهَا النُّورُ وَالظُّلْمَةُ، فَيُصَوِّتُ الْمَاءَ فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ صَوْتًا تَنْخَلُغُ لَهُ الْقُلُوبُ. وَهَذَا مَوْقُوفٌ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مِنْ كَلَامِهِ، وَلَعَلَّهُ مِنَ الزَّامِلَتَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَ يَمِيزُ الْوَقِيعَةَ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ [١٦]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَلْمَلْتُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدَ الْقَهَّارَ﴾ [غافر: ١٦].

[٤٩٩٩] وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ وَيَأْخُذُ الْأَرْضِينَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، أَيْنَ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(٢). وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾، أَي: شَدِيدًا صَعْبًا، لِأَنَّهُ يَوْمٌ عَدْلٍ وَقَضَاءٍ فَصْلٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا يُنْفَخُ النَّفْثَةُ﴾ [٨-١٠]، فَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَتْحُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمْ مِلَّةَ كُفْرًا هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

[٥٠٠٠] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ «يَوْمٌ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» [المعارج: ٤]: مَا أَطُولَ هَذَا

(١) هذه الآثار مصدرها كتب الأقدمين، وعلي بن زيد ضعيف، ليس بشيء.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٢ ومسلم ٢٧٨٨ وأبو داود ٤٧٣٢ وأبو يعلى ٥٥٥٨ من حديث ابن عمر.

اليوم؟ فقال رسول الله - ﷺ -: والذي نفسي بيده إنه ليُخَفَّفَ على المؤمنين حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة يُصَلِّيها في الدنيا^(١). وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَنَالُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾، يُخَيِّرُ تعالى عن نَدَم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مزية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة نَدِمَ حيث لا ينفعه الندم، وعُصِيَ على يديه حسرة وأسفاً. وسواء كان سبب نُزولها في عَقْبَةِ بن أَبِي مُعَيْطٍ أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقْلُبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَنَالُنَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا أَرْسُولًا﴾ وقالوا: رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحُونَا السَّيْلًا ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا هُمْ ضَعُفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِ لَمَّا كَبِرَا ﴿٢٨﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويُعْصَى على يديه قاتلاً: ﴿يَنَالُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ ﴿٢٧﴾ يَنَالُنِي لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا، يعني: مَنْ صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما. «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ» - وهو القرآن - ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾، أي: بعد بُلُوغِهِ إلي، قال الله تعالى: ﴿وَكَاكَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾، أي: يَخْذُلُهُ عن الحق، وَيَصْرِفُهُ عنه، وَيَسْتَعْمِلُهُ في الباطل، ويدعوهُ إليه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنْ

الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين - أنه قال: ﴿يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾. وذلك أن المشركين كانوا لا يُصَفُّونَ للقرآن ولا يسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَلِكٌ تَقْلِبُونَ﴾ ﴿٣١﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا بُلي عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره، حتى لا يسمعه. فهذا من هجرانه. وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانيه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به من امتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه. فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يُسَخِّطُهُ، ويستعملنا فيما يُرْضِيهِ، من حِفْظِ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يُحِبُّه ويرضاه، إنه كريمٌ وهابٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: كما حصل لك - يا محمد - في قومك من الذين هَجَرُوا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية، لأن الله جعل لكل نبيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ وَلَيَصْحَقَ إِلَيْهِ أَقْبَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقُولُوا مَا هُمْ مُفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، أي: لمن أتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه وأتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة. وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتدي أحد به، وَلَتَغْلِبَ طريقَتهم طريقة القرآن، فلماذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

(١) أخرجه أحمد ٧٥/٣ وأبو يعلى ١٣٩٠ وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة ودراج، وللحديث شواهد تؤيده دون ذكر الآية

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعتيهم، وكلامهم فيما لا يعنيه، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي: هلاً أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوجي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله، كالنوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية. فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما أنزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به، كما قال: ﴿وَرَوَاهَا فَفَهَّمْنَاهُ يُلْقَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مِثْقَلٍ ذَرَّةٍ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٣﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال قتادة: وبيّناه تبيناً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيراً. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، أي: بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالهم.

قال سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، أي: بما يلتسمون به عيب القرآن والرسول، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: إلا نزل جبريل من الله بجوابهم. وما هذا إلا اعتناء كبير، وشرف للرسول - صلوات الله وسلامه عليه - حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً، ليلاً ونهاراً، سراً وحضراً، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليه - أعظم نبي أرسله الله، وقد جمّع الله تعالى للقرآن الصفتين معاً، ففي الملا الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من سماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث. قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾، وقال تعالى: ﴿وَرَوَاهَا فَفَهَّمْنَاهُ يُلْقَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مِثْقَلٍ ذَرَّةٍ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٣﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٣٤﴾.

[٥٠١] وفي الصحيح، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشي على وجهه يوم القيامة»^(١). وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد من المفسرين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَنَبِيًّا ۝٣٥ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمٌ نُوْجِ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۝٣٧﴾

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَنُوحًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَّ وَكُلًّا نَبِّئْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرَ النَّسْوَةِ أَفْتَكُم يَكُونُوا يَكُونُوا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُبُورًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى متوعداً من كَذَّبَ رسوله محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - من مشركي قومه ومن خالفه، ومُحذِّرهم من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذِّبين لرسله، قَبْدًا بِذِكْرِ مُوسَى عليه السلام. وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارونَ وَزِيْرًا، أي: نبياً مُؤازراً ومُؤيِّداً وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده، ف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالْكُفْرَ أَثْمَلًا﴾ [محمد: ١٠]. وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام، ومن كَذَّبَ برسولٍ فقد كَذَّبَ بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فُرِضَ أن الله بَعَثَ إليهم كلَّ رسول فإنهم كانوا يُكذِّبونه، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَّبُوا الرَّسْلَ﴾، ولم يُبْعَثَ إليهم إلا نُوحٌ فقط، وقد لَبِثَ فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويُحذِّرهم نَقْمَه، فما آمن معه إلا قليل، ولهذا أغرقهم الله جميعاً، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾، أي: عبرةً يَعْتَبِرُونَ بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا عَلَمًا لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢] أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لَجَجِ البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدَّق أمره.

وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَنُوحًا﴾ وقد تقدَّم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، منها في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته. وأما أصحاب الرس فقال ابن جرير، عن ابن عباس: هم أهل قرية من قُرَى نُموذ. وقال ابن جرير: قال عكرمة: أصحاب الرس بقلج وهم أصحاب ياسين. وقال قتادة: قُلُجٌ من قُرَى اليمامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الثبيل، حدثنا أبي عمرو بن الضحَّاك، حدثنا أبي الضحَّاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَصْحَابَ الْأَرْسِ﴾، قال: بئرٌ بِأَدْرِيجَانَ. وقال سفيان الثوري، عن أبي بكر، عن عكرمة: الرس بئرٌ رَسُوا فيها نبيهم. أي دفنوه بها.

[٥٠٠٢] وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله - تعالى وتبارك - بعث نبياً إلى أهل قرية، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي، فحَقَرُوا له بئراً فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم. قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه، ويشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، ويبيعه الله عليها، فيدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردُّها كما كانت. قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع، فجَمَعَ حَطْبَهُ وَخَزَمَ حُرْمَتَهُ وَفَرَّغَ مِنْهَا، فلما أراد أن يَحْتَمِلَهَا وَجَدَ سَنَةً، فاضطجع فنام. فَضْرَبَ الله على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنه هَبَّ فتمطى، فَتَحَوَّلَ لَشَقِهِ الْآخَرَ فَاضْطَجَعَ، فَضْرَبَ الله على أذنه سبع سنين أخرى. ثم إنه هَبَّ واحتمل حُرْمَتَهُ وَلَا يَحْسُبُ إِلَّا أَنَّهُ نَامَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فجاء إلى القرية فَبَاعَ حُرْمَتَهُ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع. ثم ذهب إلى الحَفِيرَةِ في موضعها الذي كانت فيه، فالتمسَه فلم يجده. وكان قد بدا لقومه فيه بداء، فاستخرجوه وأمنوا به وصدَّقوه. قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود: ما فعل؟

كَانَ عِقَابٌ ﴿٣٢﴾ [الرعد: ٣٢]. وقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيْخُلُنَا عَلَىٰ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَرَفْنَا عَلَيْهِمَا﴾، يعنون أنه كاد يثيبهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها. قال الله تعالى متوعداً لهم ومنهذداً: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَكْفُرْ عَلَىٰ لَبِّهِ مِنَ الْعَذَابِ مَنْ أَهْلٌ سَبِيلًا﴾. ثم قال تعالى لنبيه، منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل: ﴿أَوَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ آلِهَتُهُمْ هَوِيًّا﴾، أي: مهما استحسنت من شيء ورأه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَنُؤْنِزُ لَكُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ فَرَأَاهُمْ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨]. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول. ثم قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَهْلٌ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾، أي: أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ قَبَضْتَهُ ﴿٣٥﴾ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿٣٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِّيَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿٣٧﴾ من هاهنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وتقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، قال ابن عباس، وابن عمر، وأبو العالية، وأبو مالك، ومسروق، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والضحاك، والحسن البصري، وقتادة، والسدي، وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾، أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧٢]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بوضده. وقال قتادة، والسدي: دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ﴾، أي: الظل. وقيل: الشمس. ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أي: سهلاً. قال ابن عباس: سريعاً. وقال مجاهد: خفياً. وقال السدي: قبضاً خفياً، حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه. وقال أيوب بن موسى: ﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿٣٦﴾، أي: قليلاً قليلاً. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِّيَاسًا﴾، أي: يلبس الوجود ويغشاه، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا يَشَتْ﴾ ﴿٣٨﴾ [الليل: ١] وقال: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا يَشَتْ﴾ ﴿٣٩﴾ [الشمس: ٤]. ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، أي: قطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن، سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: ينتشر الناس فيه لمعاشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْمِيهِمْ جَمَلَ لَكُمْ آيَاتٍ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٤١﴾ لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْنًا وَنُسْقِيَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٤٣﴾

وهذا أيضاً من قُدْرته الثَّامَّة وسلطانهِ العَظِيم، وهو أَنه تعالى يُرْسِلُ الرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ، أي: بمجيءِ السحاب بعدها، والرياحُ أنواعٌ، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحابَ، ومنها ما يَحْمِلُهُ، ومنها ما يَسْقُوهُ، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك تَقَمُّم الأرض. ومنها ما يُلْقِحُ السحابَ لِیُمْطِرَ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، أي: آلة يتطهر بها، كالسُحُور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال: إنه فَعُول بمعنى فاعل، أو: مَبْنِيٌّ للمبالغة أو التعدي فَعَلَى كُلِّ منهما إشكالاتٌ من حيث اللغة والحكم، ليس هذا موضعُ بَسْطِها، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُمرُ بْنُ حفصِ بْنِ غِيَاثٍ، حدثنا أبي، عن أبي جعفر الرازي، حدثني حُمَيد الطويل، عن ثابت البُثَّاني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطُرُقَ البصرة قَدِيرَةً، فَصَلَّى فقلت له، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، قال: طهره ماء السماء.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمَةَ، حدثنا وَهَبٌ، عن داودَ، عن سعيد بن المسيَّب في هذه الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، قال: أنزل الله ماء طهوراً لا يَنْجَسُهُ شيء.

[٥٠٠٤] وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بُضَاعَةَ؟ - وهي بئر يلقى فيها التَّنُّ ولحومُ الكلاب - فقال: إن الماء طهورٌ لا يَنْجَسُهُ شيء^(١). رواه الشافعي، وأحمد وصححه، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشعث، حدثنا مُعْتَمِرٌ، سمعت أبي يُحَدِّثُ عن سيار، عن خالد بن يزيد قال: كنا عند عبد الملك بن مَرْوَانَ، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه مِنَ السماء، ومنه ما يسقيه الغيمُ من البحر فَيَغْذِيهِ الرعدُ والبرقُ. فأما ما كان من البحر فلا يكونُ منه نباتٌ، فأما النباتُ فمما كان من السماء. وَرُوي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عُشْبَةً أو في البحر لؤلؤة. وقال غيره: في البَرِّ بُرٌّ، وفي البحر دُرٌّ.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مِّنْكَ﴾، أي: أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامة لا نبات فيها ولا شيء. فلما جاءها الحَيَا عاشت واكتست زُباباً أنواعَ الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَلْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥]. ﴿وَشَقِيقُهُمْ مِنَّا خَلَقْنَا أَهْلَكْنَا وَأَدْرَكْنَاهُمْ كَثِيرًا﴾، أي: وَلِيَشْرَبَ مِنْهُ الْحَيَوَانُ مِنْ أُنْعَامٍ وَأُنَاسٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْحَاجَةِ، لشربهم وزرعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيلُ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى مَائِدِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْوَقْتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾، أي: أمطرنا هذه الأرض دُونَ هذه، وسَقْنَا السحابَ فَمَرَّ عَلَى الْأَرْضِ وَتَعَدَّاهَا وَجَاوَزَهَا إِلَى الْأَرْضِ الْأُخْرَى، فأمطرتها وكَفَّثَهَا فَجَعَلَتْهَا عَدِيقَةً، والتي وراها لم يَنْزِلْ فِيهَا قطرة من ماءٍ، وله في ذلك الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ والحكمة القاطعة. قال ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس عامٌ بِأَكْثَرَ مطراً من عامٍ، ولكن الله يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ. ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَالْتَمَذُوا لَكُمْ بِهِ هَذِهِ الدَّارُ الْمُنْتَهَى﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٦٦ والترمذي ٦٦ والنسائي ١٧٤/١ وأحمد ١٥/٣ وأبو يعلى ١٣٠٤ من حديث أبي سعيد الخدري، وحسنه الترمذي، وقال الحافظ في «التلخيص» ١٣/١: وقد صححه أحمد ويعلى بن معين، وابن حزم أم يشهد له حديث ابن عباس. أخرجه النسائي ١٧٣/١ وأبو داود ٦٨ والترمذي ٦٥ وابن ماجه ٣٧٠ وابن حبان ١٢٤٢.

أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿٥٥﴾ . أي: ليتذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادرٌ على إحياء الأموات والعظام الرفاتِ أو: ليذكر من مُنِعَ القَطَرُ أنما أصابه ذلك بذنبٍ أصابه، فيُطْلَعُ عما هو فيه .

[٥٠٠٥] وقال عُمر مولى غُفْرَةَ: كان جبريل - عليه السلام - في موضع الجنائز، فقال له النبي - ﷺ -: يا جبريلُ، إني أحب أن أعلم أمرَ السحابِ؟ قال: فقال جبريلُ: يا نبيَّ الله، هذا ملكُ السحابِ فسُله . فقال: تأتينا صِكاكُ مُحْتَمَةٍ: اسقِ بلادَ كذا وكذا، وكذا وكذا قطرةً^(١) . رواه ابنُ أبي حاتم، وهو حديثٌ مرسلٌ . وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا﴾، قال عِكْرِمَةُ: يعني الذين يقولون: مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا وَكَذَا .

[٥٠٠٦] وهذا الذي قاله عِكْرِمَةُ كَمَا صَحَّ في الحديث المخرُج في صحيح مسلم، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال لأصحابه يوماً، على أثر سَمَاءٍ أصابتهم من الليل: «تَدْرُونَ ماذا قالَ ربُّكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم . قال: قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فذاك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب . وأما من قال: مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا وَكَذَا، فذاك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكوكب»^(٢) .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٦﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ يَوْمَ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٧﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجَهْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٨﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ يدعُوهم إلى الله - عز وجل - ولكننا خصصناك - يا محمد - بالبعثِ إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تُبَلِّغَ الناسَ هذا القرآنَ، ﴿لَا تَذَرُهُمْ يَوْمَ وَمَنْ يُلِّقُ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَوْمَ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، ﴿لَتَنْذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيمًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] . [٥٠٠٧] وفي الصحيحين: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»^(٣) .

[٥٠٠٨] وفيهما: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»^(٤) . ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ يَوْمَ﴾، يعني: بالقرآن، قاله ابنُ عباس، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] .

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: خَلَقَ المائِن: الحلو والمِلْح، فالْحُلُو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الْفُرَات العذب الزلال . قاله ابنُ جَرِيح، واختاره ابنُ جرير . وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحرٌ ساكن وهو عَذْبٌ فُرَات . والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعيمه عليهم ليذكروهم، فالبحرُ العذب هو هذا السارحُ بين الناس، فَرَّقَهُ تعالى بين خَلْقِهِ لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم .

(١) ضعيف جداً . هو مرسل، ومع إرساله، عمر مولى غفرة، هو ابن عبد الله، ضعيف كما في التقريب، فهاتان علتان للحدث .

(٢) صحيح . أخرجه البخاري ٨٤٦ و١٠٣٨ ومسلم ٧١ وأبو داود ٣٩٠٦ والنسائي ١٦٥/٣ وأحمد ١١٧/٤ وابن حبان ١٨٨ من حديث زيد بن خالد الجهني .

(٣) تقدم مراراً .

(٤) أخرجه البخاري ٣٣٥ و٣١٢٢ ومسلم ٥٢١ وقد تقدم، وصدره «أعطيت خمساً...» .

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ لِّجَاجٍ﴾، أي: مالحٌ مَرُّ زُعَاقٍ لَا يَسْتَسَاعُ، وذلك كالبَحَارِ المعروفة في المشارق والمغارب، البحر المحيط وما يتصل به من الزُقَاقِ وبحر القُلْزَمِ، وبحر اليمَن، وبحر البَصْرَةِ، وبحر فارس، وبحر الصين والهند، وبحر الروم وبحر الخَزَر، وما شاكلها وشابها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مَدٌّ وَجَزَرٌ، ففي أول كل شهر يحصل منها مَدٌّ وفيضٌ، فإذا شرع الشهر في النقصان جَزَرَتْ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهلَّ الهلال من الشهر الآخر شَرَعَتْ في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك. فكل هذه البحار الساكنة خَلَقَهَا الله سبحانه وتعالى مالحَةً الماء، لئلا يحصل بسببها ثَنُّ الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحياً وميتتها طيبة.

[٥٠٠٩] ولهذا قال رسول الله - ﷺ - وقد سُئِلَ عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»^(١). رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وأهل السنن بإسناد جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ يَنْهَمًا﴾، أي: بين العَذْب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾، أي: حاجزاً، وهو اليبس من الأرض، ﴿وَجَعَلَ تَحْجُورًا﴾، أي: مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِسَانِ﴾^(١١) يَنْهَمًا بَرْزَخٌ لَا يَتَّبِعَانِ ﴿فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَنْهَدًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءِلهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٢) [النمل: ٦١]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، أي: خلق الإنسان من نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ، فسَوَاهُ وَعَدَلَهُ، وجعله كامل الخَلْقَةِ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُمُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، فهو في ابتداء أمره وَلَدٌ نَسِيبٌ، ثم يتزوج فيصير صِهْرًا، ثم يصير له أَصْهَارٌ وَأَخْتَانٌ وَقَرَابَاتٌ. وكل ذلك من ماءٍ مَهِينٍ. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾^(٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَٰهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ سَيَلَا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدْءُ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تعالى عن جَهْلِ المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً، بلا دليل قَادَهُمْ إلى ذلك، ولا حُجَّةَ أَذْنَهُمْ إِلَيْهِ، بل بمجرّد الآراء، والنشهي والأهواء، فهم يُؤَلِّقُونَهُمْ وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِمْ، وَيُعَادُونَ الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، أي: عَوْنًا فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ عَلَى جِزْبِ الله، وجِزْبِ الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّهُمْ يُنَبِّئُونَ﴾^(٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ [يس: ٧٤ - ٧٥]، أي: أَلِهَتُهُمُ التي اتَّخَذُوهَا مِنْ

دُونَ اللَّهِ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَصْرًا، وهؤلاء الجَهْلَةُ للأصنام جندٌ مُحَضَّرُونَ، يقاتلون عنهم، وَيَذُبُّونَ عَنْ حَوَازِهِمْ، ولكنَّ العاقبةَ والنصرةَ لله ولرُسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، قال: يظاهر الشيطان على مَعْصِيَةِ اللَّهِ: يُعِينُهُ. وقال سعيد بن جُبَيْرٍ: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، يقول: عوناً للشيطان على رَبِّهِ بِالْعَدَاوَةِ وَالشِّرْكِ. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، قال: مُوَالِيًا. ثم قال تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٦)، أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أَجْرَةٍ أَطْلَبُهَا مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وإنما أفعال ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٥٨) ﴿التكوير: ٢٨﴾، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا غَيْرَ رَبِّهِ سَيِّئًا﴾، أي: طريقاً ومسلِكاً ومنهجاً يَقْتَدِي فِيهَا بِمَا جِئْتُ بِهِ.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَمِيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، أي: في أموركَ كُلِّهَا كُنْ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، الذي هو ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدائم الباقي السَّرمَدِيُّ الأَبَدِيُّ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، اجعله دُخْرَكَ وَمَلْجَأَكَ، وهو الذي يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيَتَفَرَّغُ إِلَيْهِ، فإنه كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْفِرُكَ، كما قال تعالى: ﴿يُنَادِيهِمُ الرَّسُولُ يَلْبِغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَمُصِّصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[٥٠١٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل قال: قرأت على معقل - يعني ابن عُبَيْدِ اللَّهِ - عن عبد الله بن أبي حُسَيْن، عن شهر بن حَوْشَبٍ قال: لَقِيَ سَلْمَانَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - في بعض فجاج المدينة، فسجد له، فقال: لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحَيِّ الذي لا يَمُوتُ^(١). وهذا مُرْسَلٌ حَسَنٌ. وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾، أي: اقْرَأْ بَيْنَ حَمْدِهِ وَتَسْبِيحِهِ.

[٥٠١١] ولهذا كان رسول الله - ﷺ - يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ»^(٢). وقال تعالى: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا يَوْمَ وَعَدِهِ تَوْفِكُنَا﴾ [الملك: ٢٩] أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الْشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٦٠) [المزمل: ٩]. وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى يَوْمَ الْفُتُورِ عِبَادُوهَ خَيْرًا﴾، أي: لعلمه التام الذي لا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، ولا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، أي: هو الْحَيُّ الذي لا يَمُوتُ، وهو خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، الذي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، في ارتفاعها وَاتِّسَاعِهَا، وَالْأَرْضَ السَّبْعَ في سفولها وكثافتها، في ستة أيام، ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾، أي: يَذْبُرُ الْأَمْرَ، وَيَقْضِي الْحَقَّ، وهو خَيْرُ الْفَاضِلِينَ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَسَلَّ يَوْمَ تَحِيْرًا﴾، أي: اسْتَعْلِمَ عَنْهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ بِهِ عَالَمٌ بِهِ فَاتَّبَعَهُ وَاقْتَدَى بِهِ، وقد عَلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَلَا أَخْبَرَ بِهِ مَنْ عَبَدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدٌ - صلوات الله وسلامه عليه سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، في الدنيا والآخرة، الذي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى - فما قاله فهو حَقٌّ، وما أخبر

(١) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، وقد تقدم تخريجه غير مرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٦٨ ومسلم ٤٨٤ وأبو داود ٨٧٧ والنسائي ٢١٩/٢ وابن ماجه ٨٨٩ وأحمد ٤٣/٦ وابن حبان ١٩٢٩ والبيهقي ١٠٩/٢ من حديث عائشة.

به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائنًا من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَنفَعِ فِي مَقْصُودِهِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَمَّتْ كُلُّ نَفْسٍ رَّبَّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الإخبار وعدلًا في الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿فَتَشْكُلُ يَوْمَ حِسْبِكَا﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿فَتَشْكُلُ يَوْمَ حِسْبِكَا﴾، قال: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك. وكذا قال ابن جريج.

وقال شمر بن عطية في قوله تعالى: ﴿فَتَشْكُلُ يَوْمَ حِسْبِكَا﴾، قال: هذا القرآن خبير به. ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾، أي: لا نعرف الرحمن. وكانوا يُنكرون أن يُسمى الله باسمه الرحمن.

[٥٠١٢] كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي - ﷺ - للكتاب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: «لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم»^(١). ولهذا أنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: هو الله وهو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ أي: لا نعرفه ولا نقر به، ﴿أَتَشْبُدُّ لِمَا تَأْمُرُنَا؟﴾، أي: لمجرد قولك؟! ﴿وَرَدَدْنَاهُمْ نُفُورًا﴾. أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفردونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروعة السجود عندها لقاريتها ومُسْتَمِعِها، كما هو مُقَرَّر في موضعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْفَرُ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مُتَّجِدًا نفسه ومُعْظَمًا على جميل ما خَلَقَ في السماء من البروج، وهي الكواكب العظام، في قول مجاهد، وسعيد بن جببر، وأبي صالح، والحسن، وقناة. وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يُرَوَّى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مهران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضاً. والقول الأول أظهر، اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِصْبَاحًا وَجَعَلْنَاهُ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾، وهي الشمس المُنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ ﴿٦٣﴾ [النبا: ١٣]. ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾، أي: مُضِيئًا مُشْرِقًا بنور آخر غير نور الشمس^(٢)، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال مخبراً عن نوح - عليه السلام - أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ﴿٦٤﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿٦٥﴾ [نوح: ١٥ - ١٦]. ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، أي: يخلف كل واحد منهما الآخر، يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٦٦﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿يَتَّبِعُ اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا

(١) يأتي في سورة الفتح إن شاء الله.

(٢) يلاحظ أن القمر غير مضيء كما كانوا يظنون قديماً، وإنما هو منير يعكس ضوء الشمس.

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ بَلَّغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا النُّجُومُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ [يس: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَكِرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، أي: جعلهما يتعاقبان، توقيفًا لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل.

[٥٠١٣] وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»^(١).

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو حُرَّة، عن الحسن: أن عمر بن الخطاب أطلَّ صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: إنه بقي علي من وزدي شيء، فأحببت أن أتبعه، أو قال: أقضيه. وتلا هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَكِرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿٥٦﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول: من فاته شيء من الليل أن يعملهُ أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن. وقال مجاهد: ﴿خِلْفَةً﴾، أي: مختلفين، هذا بساوده، وهذا بضيائه.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي يسكينون ووقار من غير جبرية ولا استكبار، كما قال: ﴿وَلَا تَشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ لِيَالًا طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، فاما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مزح، ولا أشير ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التضاعف تصعُّاً ورياء، فقد كان سيدُّ وَلَدِ آدَمَ ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَبٍ^(٢) وكأنما الأرض تُطَوَّى له. وقد كره بعض السلف المشي بتضعيف وتضع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي زويداً، فقال: ما بالكَ؟ أنت مريض؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين. فعلاه بالذرة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهون هاهنا السكينة والوقار.

[٥٠١٤] كما قال رسول الله - ﷺ -: إذا أتيتُم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتوا^(٣).

وقال عبد الله بن المبارك: عن معمر، عن يحيى بن المختار، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلل، ذَلَّتْ منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مريض، وإنهم لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٩ وابن ماجه ١٩٥ وأحمد ٣٩٥/٤ من حديث أبي موسى الأشعري بأتم منه.

(٢) الصب: ما انصب من الرمل وما انحدر من الأرض.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٠٥.

يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. أما والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا خسرات، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه. وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، أي: إذا سفا عليهم الجهال بالسبى لم يقابلوه عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله - ﷺ - لا تزيد شدة الجهل عليه إلا جلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُكُمْ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥). [القصاص: ٥٥].

[٥٠١٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالي، عن النعمان بن مقرن المزني قال: «قال رسول الله - ﷺ - سب رجل رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام. قال: فقال رسول الله - ﷺ -: أما إن ملكاً بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت، وأنت أحق به. وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به» (١). إسناده حسن، ولم يخبرجوه. وقال مجاهد: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾، يعني قالوا سداداً. وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول. وقال الحسن البصري: «قالوا: سلام عليكم، إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون. ثم ذكر: لي لهم خير ليل». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (١١)، أي: في عبادته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿كَأُوْلَئِكَ قَلِيلٌ مِّنْ أَلْبَابِ مَا يَتَّبِعُونَ (١٧) وَإِلَّا تَحَارَبُوا تَفْتَقِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]. وقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾ [السجدة: ١٦]. وقال تعالى: ﴿أَمَنَ هُوَ قَبْلَ مَا أَنشَأَ الْإِنسَانَ مِمَّا رَزَقْنَاهُ يُسْقِطُ (١٥)﴾ [الزمر: ١٩] الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (١٥)﴾، أي: ملازماً دائماً، كما قال الشاعر:

إِنْ يُعَذَّبَ يَكُنْ غَرَامًا، وَإِنْ يُعَمَّ طَجْزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: كل شيء يصيب ابن آدم ويؤول عنه فليس يفرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض. وكذا قال سليمان التيمي. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، يعني: ما نعيموا في الدنيا؛ إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يزودوا إليه، فاعزهم فادخلهم النار. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (١١)، أي: بسئ المنزل منزلاً، وبسئ المقيل مقيلاً. وقال ابن أبي حاتم عند قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (١١): حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مالك بن الحارث قال: إذا طريح الرجل في النار هوى فيها، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل: مكانك حتى تتحف، قال: فيسقى كأساً من سُم الأساود والعقارب، قال: فيميز الجلد على جذة، والشعر على جذة، والعصب على جذة، والعروق على جذة. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير قال: إن في النار أجاباً فيها حيات أمثال البخت، وعقارب أمثال البغال الدهم، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم

(١) أخرجه أحمد ٤٤٥/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧٥/٨: ورجاله رجال الصحيح، غير أبي خالد الوالي، وهو ثقة. قلت:

وثقه ابن حبان على قاعدته، وهو شبه مجهول، وله علة أخرى، وهي عننة الأعمش.

من أوطانها فأخذت بِشَفَاهُم وَأَبْشَارَهُمْ وَأَسْعَارَهُمْ، فَكَشَطَتْ لَحُومَهُمْ إِلَى أَقْدَامِهِمْ، فَإِذَا وَجَدَتْ خَرَّ النَّارَ رَجَعَتْ.

[٥٠١٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سلام - يعني ابن مسكين - عن أبي ظلال، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال: إن عبداً في جهنم لئن ادي ألف سنة: يا حَتَّانُ، يا مَتَّانُ. فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فأتني بعدي هذا. فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُنَكَّبِينَ يَبْكُونَ، فيرجع إلى ربه - عز وجل - فيخبره، فيقول الله - عز وجل -: أتني به فإنه في مكان كذا وكذا. فيجيء به فيوقفه على ربه - عز وجل - فيقول له: يا عبي، كيف وجدت مكانك ومَقِيلَكَ؟ فيقول: يا رب، شر مكانٍ وشر مَقِيلٍ! فيقول: رُدُّوا عَبدِي. فيقول: يا رب، ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تُرَدِّدني فيها! فيقول: دَعُوا عَبدِي^(١). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢)، أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيَقْصُرُونَ في حَقِّهم فلا يَكْفُونَهُمْ، بل عَدْلًا خَيْرًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(٣) [الإسراء: ٢٩].

[٥٠١٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم العسائي، عن ضمرة، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ - قال: من فقه الرجل رفقه في مَعِيشَتِهِ^(٤). لم يُخْرِجْهُ.

[٥٠١٨] وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدي، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ -: ما عَالَ من اقْتَصَدَ^(٥). لم يُخْرِجْهُ.

[٥٠١٩] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون، حدثنا سعيد بن حكيم، عن مسلم بن حبيب، عن بلال - يعني العنسي - عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ -: ما أحسن القَصْدَ في الغِنَى، وأحسن القَصْدَ في الْفَقْرِ، وأحسن القَصْدَ في الْعِبَادَةِ^(٦). ثم قال: لا نعرفه يُروى إلا من حديث حذيفة رضي الله عنه. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف. وقال غيره: السرف: النفقة في معصية الله. وقال الحسن البصري: ليس النفقة في سبيل الله سرف، والله أعلم.

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٢٣٠ وأبو يعلى ٤٢١٠ من حديث أنس، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٥٩: رجالهما رجال الصحيح، غير أبي ظلال، وضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان اهـ. كذا وقع للحافظ الهيثمي. والصبواب أن ابن حبان لم يوثقه. بل وثق ابن حبان رجلاً آخر اسمه هلال بن أبي هلال، أبو ظلال. وأما أبو ظلال المذكور في الإسناد فهو هلال بن أبي ميمونة القسلي، جاء في «الميزان» ٩٢٨٠: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي والأزدي: ضعيف. وقال ابن حبان: مغفل، لا يجوز الاحتجاج به. بحال. وقال البخاري: عنده منكر.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ١٩٤ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ٦٣٠٨: فيه أبو بكر بن أبي مريم، وقد اختلط اهـ وله علة أخرى، ضمرة هو ابن حبيب، لم يسمع من أبي الدرداء، فهو منقطع.

(٣) تقدم تخريجه باستيفاء.

(٤) أخرجه البزار ٣٦٠٤ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، فيه مسلم بن حبيب، لم يوثقه أحد. وإنما ذكره ابن حبان في الثقات في ترجمة سعيد بن حكيم راجع «المجمع» ١٧٨٥٠.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

[٥٠٢٠] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: سئل رسول الله - ﷺ -: أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني خيلة جارك. قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾^(١). وهكذا رواه النسائي عن قتادة بن أنس السري، عن أبي معاوية، به. وقد أخرجه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش ومنصور - زاد البخاري: واصل - ثلاثهم عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، عن ابن مسعود، به، فالحق أعلم، ولفظهما عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ الحديث، طريق غريب.

[٥٠٢١] وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا عامر بن مديك، حدثنا السري - يعني ابن إسماعيل - حدثنا الشعبي، عن مسروق قال: قال عبد الله: خرج رسول الله - ﷺ - ذات يوم فاتبعته، فجلس على نشز من الأرض وقعدت أسفل منه، وجهي حيال ركبتيه، فأغتمت خلوته وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أي الذنوب أكبر؟ قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم مه؟ قال: أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك. قلت: ثم مه؟ قال: أن تزاني خيلة جارك. ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾... إلى آخر الآية^(٢).

[٥٠٢٢] وقال النسائي: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن سلمة بن قيس قال: قال رسول الله - ﷺ -: في حجة الوداع: ألا إنما هي أربع، فما أنا بأشع عليهن مني منذ سمعتهن من رسول الله - ﷺ -: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرفوا»^(٣).

[٥٠٢٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن المديني - رحمه الله - حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا ظبية الكلابي، سمعت المقداد بن الأسود - رضي الله عنه - يقول: قال رسول الله - ﷺ -: لأصحابه: ما تقولون في الزنا؟ قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله - ﷺ -: لأصحابه: لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٦١ و٤٧٦٢ ومسلم ٣٠٢٣ ح ٢٠ والنسائي في «التفسير» ٣٨٨ وأحمد ١/ ٣٨٠ و٤٣١ و٤٣٤ و٤٦٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٦٥٠٩ ورجاله ثقات، لكن الصحيح أن الذي قرأ الآية هو ابن مسعود.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١.

قال: ما تقولون في السرقة؟ قالوا: حَرَّمَهَا الله ورسوله، فهي حرامٌ. قال: لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ آيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ^(١).

[٥٠٢٤] وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا عَمَّارُ بْنُ نَصْرٍ، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبي بكر بن أبي مَرْزُومٍ، عن الهَيْثَمِ بْنِ مَالِكِ الطَّنَائِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -: قَالَ: مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ تُطْفِئِهِ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَجْمٍ لَا يَحِلُّ لَهُ^(٢).

[٥٠٢٥] وقال ابن جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي يَعْلَى، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَحْدُثُ: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ قَتَلُوا فَاكْتَرَوْا، وَزَنَوْا فَاكْتَرَوْا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ - فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، وَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَمُودِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٣) [الزمر: ٥٣].

[٥٠٢٦] وقال ابنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو، عَنْ أَبِي فَاخْتَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: لِرَجُلٍ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكَ أَنْ تَعْبُدَ الْمَخْلُوقَ وَتَدْعَ الْخَالِقَ، وَيَنْهَاكَ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ وَتَغْدُو كَلْبَكَ، وَيَنْهَاكَ أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ. قَالَ سُفْيَانُ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ - رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: «أَثَامًا»: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «يَلْقَى أَثَامًا»، أَوْدِيَّةٌ فِي جَهَنَّمَ يُعَذَّبُ فِيهَا الزَّانَةُ. وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: «يَلْقَى أَثَامًا»: نَكَالًا، كُنَّا نَحْدُثُ أَنَّهُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا لَنَا أَنَّ لُقْمَانَ كَانَ يَقُولُ: يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَالزَّيْنَةَ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَخَافَةٍ وَأَخْرَجَ نَدَامَةً.

[٥٠٢٧] وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا: «أَنْ غَيًّا، وَأَثَامًا بِرَّانٍ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ»^(٥). أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهُمَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. وَقَالَ السَّيِّدِي: «يَلْقَى أَثَامًا»: جَزَاءٌ. وَهَذَا أَشْبَهُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ. وَلِهَذَا فَسَّرَهُ بِمَا بَعْدَهُ مُبْدَلًا مِنْهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، أَيْ: يُكَرَّرُ عَلَيْهِ وَيُعْلَظُ، «وَيُعْلَظُ فِيهِ مَهْلِكًا»، أَيْ: حَقِيرًا ذَلِيلًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أَيْ: جَزَاؤُهُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ مَا ذَكَرَ «إِلَّا مَنْ تَابَ» فِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ. وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ وَبَيْنَ آيَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَتْهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(٦)، فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مَدْنِيَّةً إِلَّا أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ، فَتُحْمَلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ، لِأَنَّ هَذِهِ مُقَيَّدَةٌ

(١) تقدم في سورة النساء: ٣٦.

(٢) ضعيف جداً، فيه عنعنة بقية، وأبو بكر، وإو. والهيثم بن مالك، تابعي، فهذه علل ثلاث تقدح في صحة الحديث أو حسنه، وتقدم تحريمه.

(٣) والحديث أخرجه الطبري ٢٦٥٠٤ وإسناده حسن، رجاله ثقات، وورد بنحوه من وجه آخر عنه، أخرجه الطبري ٢٦٥١٠ و٢٦٥١١ ورجالهم ثقات.

(٤) هذا مرسل، أبو فاختة، هو سعيد بن جلافة: تابعي ثقة، ولأصله شواهد.

(٥) تقدم تخريج هذا الخبر في تفسير سورة مريم عند آية: ٥٩، والمرفوع ضعيف.

بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]. وقد ثبتت السنة الصحيحة، عن رسول الله - ﷺ - بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررأ من قصة الذي قتل مئة رجل ثم تاب، وقيل منه^(١). وغير ذلك من الأحاديث. وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، في معنى قوله: ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، قولان:

أحدهما: بَدَّلُوا مكانَ عمل السيئات بعمل الحسنات، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك فحوّلهم إلى الحسنات، فابدلهم مكان السيئات الحسنات، ورَوَى مجاهد، عن ابن عباس أنه كان يُشيدُ عند هذه الآية:

بَدَّلْنَ بَغْدَ جِرَّةٍ صَرِيْفَا وَيَغْدَ طُولِ النَّفْسِ الْوَجِيْفَا
يعني: تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ إِلَى غَيْرِهَا. وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة، ثم يبدل الله بها خيراً. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالاً مع المسلمين للمشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات. وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السئىء العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً وبالكفر إسلاماً. وهذا قول أبي العالية، وقادة، وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تَذَكَّرَ ما مَضَى تَذَمَّرَ واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجد مكتوباً عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحّت به الآثار المروية عن السلف رحمهم الله تعالى. وهذا سياق الحديث:

[٥٠٢٨] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة: يؤتى برجل، فيقول: نَحْنُا كِبَارُ دُنُوبِهِ وَسَلُّوهُ عَنْ صِغَارِهَا. قال: فيقال له: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا؟ فيقول: نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا - فيقال: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فيقول: يَا رَبِّ، عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا! قال: فَصَحِّحْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - - حتى بَدَتِ نَوَاجِذُهُ^(٢). وانفرد به مسلم.

[٥٠٢٩] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن يزيد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمُضَمُ بْنُ زُرْعَةَ، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا نام ابن آدم قال المَلَكُ للشيطان: أعطني صحيفة. فَيُعْطِيهِ إِيَّاهَا، فما وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ مِنْ حَسَنَةٍ مَحَا بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مِنْ صَحِيفَةِ الشَّيْطَانِ، وَكَتَبَهُنَّ حَسَنَاتٍ، فإذا أراد أن ينام أَحَدُكُمْ فَلْيَكْبِرْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَكْبِيرَةً، ويحمد أربعاً وَثَلَاثِينَ تحميدة، وَيُسَبِّحْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تسبيحة، فتلک مئة^(٣)».

(١) تقدم، وهو في الصحيحين.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٠ والترمذي ٢٥٩٦ وأحمد ١٧٠/٥ وابن حبان ٧٣٧٥.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني ٣٤٥١، فيه محمد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف كما قال الهيثمي في «المجمع» ١٧٠٣٦. وله علة ثانية، وهي الإرسال بين شريح وأبي مالك الأشعري، راجع «تهذيب التهذيب» ٢٨٩/٤.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة وعارم قالوا: حدثنا ثابت - يعني ابن يزيد أبو زيد - حدثنا عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: يُعْطَى رَجُلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَحِيفَةً فِيَقْرَأُ أَعْلَاهَا، فإذا سَيَّئَاتُهُ، فإذا كَادَ يَسُوءُ ظَنَّهُ نَظَرَ فِي أَسْفَلِهَا فإذا حَسَنَاتُهُ، ثم ينظر في أَعْلَاهَا فإذا هي قد بُدِّلَتْ حَسَنَاتٍ. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى الزُّهْرِيُّ أَبُو دَاوُدَ، حدثنا أَبُو الْعَنَيْسِ، عن أبيه، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَيَأْتِيَنَّ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِأَنَاسٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَأَوْا [لَوْ] أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَكْتَرَوْا مِنَ السَّيِّئَاتِ، قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: الَّذِينَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سَيَّارٌ، حدثنا جعفر، حدثنا أبو حَمْرَةَ، عن أَبِي الضَّيْفِ - وكان من أصحابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - قال: يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: الْمُتَّقِينَ، ثُمَّ الشَّاكِرِينَ ثُمَّ الْخَائِفِينَ، ثُمَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ. قلت: لِمَ سُمُّوا أَصْحَابَ الْيَمِينِ؟ قَالَ: لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَأَعْطُوا كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، فَقَرَأُوا سَيِّئَاتِهِمْ حَزْفاً حَزْفاً، قالوا: يَا رَبَّنَا، هَذِهِ سَيِّئَاتُنَا، فَإِنِ حَسَنَاتُنَا؟. فعند ذلك محا الله السَّيِّئَاتِ وَجَعَلَهَا حَسَنَاتٍ، فعند ذلك قالوا: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابَكُمْ﴾ [الحاقة: ١٩]، فهم أكثر أهلِ الْجَنَّةِ. وقال علي بن الحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، قال: فِي الْآخِرَةِ. وقال مَكْحُولٌ: يَغْفِرُهَا لَهُمْ فَيَجْعَلُهَا حَسَنَاتٍ. رَوَاهُمَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، مِثْلَهُ.

[٥٠٣٠] قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَزِيرِ الدِّمَشْقِيُّ، حدثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حدثنا ابْنُ جَابِرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ مَكْحُولاً يُحَدِّثُ قَالَ: جَاءَ شَيْخٌ كَبِيرٌ هَرِمٌ قَدْ سَقَطَتْ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ غَدَرَ وَفَجَرَ، لَمْ يَدَعْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا اقْتَطَعَهَا بِيَمِينِهِ، لَوْ قُسِّمَتْ خَطِيئَتُهُ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَوْبَقَتْهُمْ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: أَسْلَمْتَ؟ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرٌ لَكَ مَا كُنْتَ كَذَلِكَ، وَمُبَدِّلٌ سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ فَقَالَ: وَغَدَرَاتِكَ وَفَجَرَاتِكَ. فَوَلَّى الرَّجُلُ يُكَبِّرُ وَيَهْلُلُ^(١).

[٥٠٣١] وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْمُغِيرَةِ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِي طَوِيلٍ - شَطْبٍ - أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، وَلَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً. فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: أَسْلَمْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَافْعَلِ الْخَيْرَاتِ، وَاتْرِكِ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهَا. قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا زَالَ يَكْبُرُ حَتَّى تَوَارَى^(٢).

[٥٠٣٢] وَرواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي، عن ياسين الزيات، عن أبي سلمة الجفصيّ، عن يحيى بن جابر، عن سلمة بن نقييل مرفوعاً^(٣).

(١) هذا مرسل، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه البزار ٣٢٤٤ والطبراني ٧٢٣٥ من حديث أبي طویل، واسمه «شطب الممدود» وإسناده قوي. قال الهيثمي في المجمع ١٧٥٣٨: رجال البزار رجال الصحيح، غير محمد بن هارون، وهو ثقة. وقال الحافظ في «الإصابة» ١٥٢/٢: هو على شرط الصحيح اهـ وله طرق أخرى ومنها المتقدم. وانظر «المجمع» ٧٥ و٧٧ و٧٨.

(٣) فيه ياسين الزيات، متهم، والحجة بالحديث المتقدم.

[٥٠٣٣] وقال ^(١) أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان، عن فُلَيْحِ الشَّامِ عن عُبَيْدِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ ^(٢)، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: جاءتني امرأة فقالت: هل لي من توبة؟ إني زني وولدت وقتلته. فقلت: لا، ولا نعت العين ولا كرامة. فقامت وهي تدعو بالحسرة. ثم صليت مع النبي - ﷺ - الصبح، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها، فقال رسول الله - ﷺ -: بشما قلت! أما كنت تقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٣)، فقرأتها عليها، فخرت ساجدة وقالت: الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً ^(٤). هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي رجاله من لا يعرف، والله أعلم. وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المنذر الجزامي بسنده بنحوه، وعنده: «فخرت تدعو بالحسرة وتقول: يا حسرتنا! أخلق هذا الحسن للنار؟». وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله - ﷺ - تطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته، فأخبرها بما قال له رسول الله - ﷺ - فخرت ساجدة وقالت: «الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً وتوبة مما عملت». وأعتقت جارية كانت معها وابتنها، وتابت إلى الله عز وجل.

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده، وأن من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان، جليل أو حقير، كبير أو صغير، فقال: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ ^(٥)، أي: فإن الله يتقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَسَّ سُوءًا أَوْ يَطْلُبْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٦) [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْمِزْ أَنْ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٧) [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنََّّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٨) [الزمر: ٥٣]، أي: لمن تاب إليه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ^(٩) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ^(١٠) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُقْتَبِ إِمَامًا ^(١١)﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام. وقيل: الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحنفية: هو اللهو والغناء. وقال أبو العالية، وطاوس، ومحمد بن سيرين، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هي أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقال مالك، عن الزهري: شرب الخمر، لا يحضرونه، ولا يرغبون فيه.

- (١) كذا وقع في سائر النسخ، وظاهره أن فاعل قال هو الإمام الطبراني، وليس كذلك فإن فاعل قال هو الإمام ابن أبي حاتم. لأنه هو الوحيد من المفسرين الذي يروي عن أبي زرة، ثم إن الطبراني، لم يدرك أباً زرة، فتنبه، والله الموفق.
- (٢) في الأصول: «عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشَّامِ»، والثبت عن الطبري والميزان.
- (٣) باطل. أخرجه الطبري ٢٦٥١٥ مطولاً، بهذا الإسناد، وذكره الذهبي في الميزان ٦٥٧٢ في ترجمة عيسى بن شعيب بن ثوبان المدني، وقال: لا يعرف. ثم ذكر هذا الحديث، وقال: وهذا خبر موضوع.

[٥٠٣٤] كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر»^(١). وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب مُتَعَمِّدًا على غيره.

[٥٠٣٥] كما ثبت في الصحيحين عن أبي بكرة، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين. وكان مُتَكَيِّفًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سَكَتَ»^(٢). والأظهر من السياق أن المراد: لا يَشْهَدُونَ الزور، أي: لا يحضرونه، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَرَوْهُ بِالْفِئْرِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مُرُورهم به مَرُّوا ولم يَتَدَنَّسُوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

[٥٠٣٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو الحسين العُكْلِيُّ، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مرّ بهو فلم يقف، فقال رسول الله - ﷺ - «لقد أصبح ابنُ مسعود! أو أمسى - كريماً»^(٣).

[٥٠٣٧] وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوي، حدثنا حَبَّان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمد بن مسلم، أخبرني ابنُ ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مرّ بهو مُعْرِضًا فلم يقف، فقال رسول الله - ﷺ -: «لقد أصبح ابنُ مسعود - أو أمسى - كريماً»، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَلَا تَرَوْهُ بِالْفِئْرِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، هذه من صفات المؤمنين، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سَمِعَ كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصِر عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كُفْرِهِ وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٥) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]. فقولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: بخلاف الكافر الذي ذُكِرَ بآياتِ رَبِّهِ فاستمرَّ على حالِهِ كَان لم يَسْمَعْهَا أصمُّ أعمى.

قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾. لم يَسْمَعُوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً. وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخُرُّ عليها أصمُّ أعمى. وقال قتادة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^(٦)، يقول: لم يَصْمُوا عن الحق ولم يَغْمُوا فيه، فهم - والله - قوم عقلوا عن الحق، وانتفعوا بما سَمِعُوا من كتابه. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن حُفْران، حدثنا ابنُ عَوْن قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يَرَى القوم سُجُوداً ولم يَسْمَعْ ما سَجَدُوا، أيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^(٧). يعني: أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة من أمره، ويقين واضح بين.

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٤٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٥٤٧ وهذا مرسل.

(٤) ضعيف. ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ١٤٨/٥ وعزاه لابن أبي حاتم وابن عساكر، وهو ضعيف لكونه مرسلًا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قِسْرَةً آخِرِينَ﴾، يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم مَنْ يُطِيعه وَيَعْبُدُه وَحَدَه لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون مَنْ يعمل بالطاعة، فَتَقَرُّ به أعيُنهم في الدنيا والآخرة. وقال عِكْرِمَةُ: لم يُريدوا بذلك صَبَاحَةً ولا جَمَالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مُطِيعين. وقال الحسن البصري - وسُئِلَ عن هذه الآية - فقال: أن يُريَ الله العبدَ المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حَمِيمه طاعةً لله. لا والله ما شيء أَقْرَ لعين المسلم من أن يَرى ولدًا، أو وَلَدَ وَلَدٍ، أو أخًا، أو حَمِيمًا مطيعاً لله عزَّ وجلَّ. وقال ابنُ جُرَيْجٍ في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قِسْرَةً آخِرِينَ﴾، قال: يَعْبُدُونَكَ وَيُحْسِنُونَ عِبَادَتَكَ، ولا يَخْرُجُونَ علينا الجَرَائِرَ. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: يعني يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يَهْدِيَهُم للإسلام.

[٥٠٣٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا يَغْمَرُ بْنُ بَشْرٍ، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عن أبيه قال: جَلَسْنَا إلى المِقْدَادِ بنِ الْأَسَدِ يوماً، فَمَرَّ به رجل فقال: طُوبَى لهاتين العَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَى رسولَ الله ﷺ! لَوِودُنَا أَنَا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وشهدنا ما شهدت. فاستغضب، فجعلتُ أعجب، ما قال إلا خيراً ثم أقبل إليه فقال: ما يحيل الرجل على أن يتمنى مَخْضَرًا غَيَّيه الله عنه، لا يَدْرِي لو شَهِدَهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فيه؟ والله لقد حَضَرَ رسولَ الله ﷺ - أقوامٌ أَكْبَهُم الله على مَنَاجِرِهِمْ في جَهَنَّمَ، لم يُجِيبُوهُ ولم يُصَدِّقُوهُ، أو لا تَحْمَدُونَ الله إذا أَخْرَجَكُمْ لا تَعْرِفُونَ إلا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ لما جاء به نَبِيُّكُمْ، قد كُفِّيتِمُ البلاءَ بغيركم؟ لقد بَعَثَ اللهُ النبي - ﷺ - على أَشَدِّ حَالٍ بَعَثَ عليها نَبِيًّا من الأنبياء في فِتْرَةٍ من جاهلية، ما يَزُونَ أَنَّنَا أَفْضَلُ من عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. فجاء بِفَرَقَانِ فَزَقَّ به بين الحقِّ والباطِلِ، وفَرَّقَ بين الوَالِدِ وَوَلَدِهِ، إن كان الرجل لَيَرى والده وولَدَه، أو أخاه كافرًا، وقد فَتَحَ اللهُ قُلُوبَ قَلْبِهِ للإيمان، يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النارَ، فلا تَقَرُّ عَيْنُهُ وهو يَعْلَمُ أَن حَبِيبَهُ في النارِ، وَإِنَّهَا التي قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قِسْرَةً آخِرِينَ﴾^(١). وهذا إسناد صحيح، ولم يُخْرِجُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قال ابنُ عباسٍ، والحسنُ، وقتادةٌ، والسديُّ، والربيعُ بن أنس: أئمةٌ يُقْتَدَى بنا في الخير. وقال غيرهم: هداةٌ مُهْدِيِينَ ودعاةٌ إلى الخير. فاحبوا أن تُكُونَ عبادتهم مُتَّصِلَةً بِعِبَادَةِ أولادهم وذُراريهم، وأن يكون هُدَاهُمْ متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أَكْثَرُ ثَوَاباً وأَحْسَنُ مَأْباً.

[٥٠٣٩] ولهذا ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ -: إذا مات ابنُ آدم انقطعَ عمله إلا من ثلاثٍ، ولِدٌ صَالِحٌ يدْعُو له، أو عِلْمٌ يُنْتَفَعُ به من بعده، أو صَدَقَةٌ جاريةٌ^(٢).

﴿أُولَئِكَ يَجْزِيكَ الْغُرُكَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقُونَ فِيهَا بَحْبَةً وَسَلَامًا ۖ﴾ (٧٥) خَلِيلِيكَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۖ﴾ (٧٧)

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾، أي: المتصفون بهذه ﴿يَجْزِيكَ﴾، أي: يوم القيامة ﴿الْغُرُكَ﴾، وهي الجنة. قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جببر، والضحاك، والسدي: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لارتفاعِهَا. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: على القيام بذلك، ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا﴾، أي: في الجنة ﴿بَحْبَةً وَسَلَامًا﴾، أي: يَبْتَذِرُونَ فيها

(١) أخرجه أحمد ٣/٦ وإسناده صحيح كما ذكر ابن كثير.

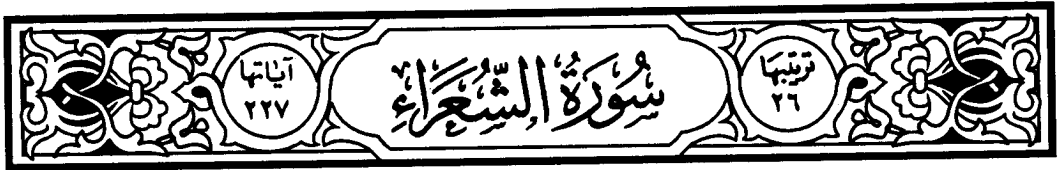
(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٨.

بالتحية والإكرام. وَيُلْقُونَ التَّوْقِيرَ وَالْاحْتِرَامَ، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا﴾، أي: مُقِيمَيْنِ، لا يظعنون ولا يحولون، ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوفٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، أي: حَسُنْتَ مَنْظَرًا وَطَابَتْ مَقِيلًا وَمَنْزِلًا.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُذُا بِكُمْ رَبِّي﴾، أي: لا يُبَالِي ولا يَكْتَرِثُ بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خَلَقَ الخَلْقَ ليعبدوه وَيُؤَخِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بِكْرَةً وَأَصِيلًا. وقال مجاهد، وعمر بن شعيب: ﴿مَا يَعْبُذُا بِكُمْ رَبِّي﴾، يقول: ما يفعل بكم ربِّي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبُذُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر الله تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حَبَّبه إلى المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أي: أيها الكافرون، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، أي: فسوف يكون تكذيبكم لزماً لكم، يعني مُقْتَضِياً لهلاككم وعذابكم وذماركم في الدنيا والآخرة. ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فُسِّرَ بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القُرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، يعني: يوم القيامة. ولا منافاة بينهما. والله أعلم.

آخر تفسير سورة الفرقان، والله الحمد والمنة



وهي مكية

ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها: سورة الجامعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١ ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ ٢﴾ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٢ ﴿إِنْ نَشَأْ نُذِلَّ عَلَيْهِمْ مِنَ ٣﴾ السَّمَاءِ ٣ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ تُحَدِّثُوا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٦ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ ﴿وَلَنْ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١﴾، أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: البين الواضح الجلي، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغبي والرشاد. وقوله: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ ٢﴾، أي: مهلكك ﴿نَفْسَكَ ٢﴾، أي: مما تحرص وتحزن عليهم، ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٢﴾: وهذه تسليية من الله لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ ٢﴾، أي: ما أثروهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ٢﴾ [الكهف: ٦]. قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضحاك: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ ٢﴾، أي: قاتل نفسك، قال الشاعر:

أَلَا أَيُّهَذَا الْبَاخِعُ الْحَزَنُ نَفْسَهُ لِيَشِيءَ نَحْسُهُ عَنْ يَدِهِ الْمَقَادِرُ

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُذِلَّ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ٣﴾ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤﴾، أي: لو شئنا لأنزلنا آيةً تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكننا لا نفعل ذلك، لانا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا ٥﴾ أَنْتَ تَكْوِي الْأَنْفُسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٦﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ٧﴾ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ لَخَلْقَهُمْ [هود: ١١٨ - ١١٩]، فنفذ قدره، ومضت حكيمته، وقامت حُجَّتُه البالغة على خلقه، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ تُحَدِّثُوا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥﴾، أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَحْزَنُوا عَلَى الْآيَاتِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٥٧﴾ [يس: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٨﴾ [المؤمنون: ٤٤]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٦﴾، أي: فقد كذبوا بما جاءهم

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ فَأَخَانٌ أَن يَقْتُلُوكُمْ﴾، أي: بسبب ما كان من قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر: ﴿قَالَ لَا﴾، أي: قال الله تعالى له: لا تخف من شيء من ذلك، كما قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾، أي: برهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنتَ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصاص: ٣٥]. ﴿فَإِذْ هَبَا بَيِّنَاتًا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأُرِئُ﴾ [طه: ٤٦]، أي: إني معكم بحفظي وكلاءتي ونصري وتأبيدي. ﴿فَأَيُّا فِرْعَوْنَ فَقُولْ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، أي: كل منارسل من ربك إليك، ﴿أَن أَرْسِلَ مَعَايِيَ رَسُولًا﴾ ﴿١٧﴾، أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وجزئهم المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر

بعمين الإزدراء والغمص فقال: ﴿أَلَمْ تَرْوِكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عَثَرِكَ سِينٌ﴾ (٢٣) وَقَعَلْتَ قَعْلَكَ أَلَيْ قَعْلَتْ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٢٤)، أي: أما أنت الذي رَبَّيْنَاهُ فِينَا وفي بيتنا وعلى فراشنا وَغَدَيْنَاهُ، وَأَنَعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ السِّنِينَ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسانَ بِتلك الفعلة أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا رجلاً، وَجَحَدْتَ نَعْمَتَنَا عَلَيْكَ! ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: الْجَاحِدِينَ، قاله ابن عباس، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا﴾، أي: فِي تِلْكَ الْحَالِ، ﴿وَأَنَا مِنَ الْعَالِينَ﴾، أي: قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ وَيُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِالرَّسَالَةِ وَالثُّبُوتِ.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الْعَالِينَ﴾، أي: الْجَاهِلِينَ. قال ابن جريج: وهو كذلك في قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥)، أي: انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعته سلِمْتُ، وَإِنْ خَالَفْتُهُ عَطِبْتُ. ثم قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَى أَنْ عَدَّتْ بِنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٦)، أي: وما أحسنت إليَّ وَرَبِّيتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَاتَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ! فجعلتهم عبيداً وَخَدَمًا، تُصَرِّفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ، أَقْنِيهِ إِحْسَانُكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَاتَ إِلَى مَجْمُوعِهِمْ!؟. أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٨) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٩) قَالَ رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ (٣٠) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَيْكَ إِلَّا نَجْنُؤٌ لِمَجْنُونٍ (٣١) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ (٣٢)

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون، وتعمُّده، وطغيانه وجُحوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، و﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يَجْحَدُونَ الصَّانِعَ - تعالى - ويعتقدون أنه لا ربَّ لهم سوى فرعون. فلما قال موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه ربُّ العالمين غيري؟! هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السُّدِّي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُنْمِقُ﴾ (٤١) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) [طه: ٤٩ - ٥٠]. ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنه لم يكن مقرأً بالصانع حتى يسأل عن ماهيته، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن ربِّ العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: خالقُ جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالمُ العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وخيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجوّ، الجميع عبيدٌ له خاضعون ذليلون. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، أي: إن كانت لكم قلوبٌ موقنة، وأبصارٌ نافذة. فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملته ورؤسائه دولته قائلاً لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾، أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟! فقال لهم موسى: ﴿رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: خالفكم وخالف آباءكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانيه، ﴿قَالَ﴾، أي: فرعون لقومه: ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَيْكَ إِلَّا نَجْنُؤٌ لِمَجْنُونٍ﴾، أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً

غيري. ﴿قَالَ﴾، أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُقْلُونَ﴾، أي: هو الذي جعل المشرق مَشْرِقاً وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً، والمغرب مَشْرِقاً، كما أخبر تعالى عن ﴿الَّذِي خَلَقَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبْوَةٍ أَنْ إِتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُبَيِّتُ قَالَ أَتَا أَنِي- وَأُمَيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حُجَّتُهُ عَدَلَ إلى استعمال جأه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى - عليه السلام - فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩) ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠) ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٣٢) ﴿وَرَزَقَ يَدَّوْهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (٣٣) ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّانِ حَشِيرِينَ﴾ (٣٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحَرٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٧)

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل عَدَلَ إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾. فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾، أي: ببرهان قاطع واضح، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾، أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج ﴿وَرَزَقَ يَدَّوْهُ﴾، أي: من جيبه، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾، أي: تتلألا كقطعة من القمر. فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعناد، فـ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤)، أي: فاضل بارع في السحر. فزوج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرّضهم على مخالفته والكفر به. فقال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥)، أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعدائه وأنصاره واتباعه ويغلبكم على دوليتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأثيروا عليّ فيه ماذا أصنع به؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّانِ حَشِيرِينَ﴾ (٣٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحَرٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٧)، أي: أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحر عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصر والتأييد، فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك، ليجمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهره.

﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِيَقْبِطَ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (٣٨) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) ﴿لَعَلَّآ نَنْبِغَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنْ لَنَا لَبْءٌ لِمَنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٢) ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّي الْمَلِئِكِ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٨)

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقيط في «سورة الأعراف» وفي «سورة طه» وفي هذه السورة، وذلك أن القَيْطَ أَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، فأبى الله إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وهذا شأنُ الكفر والإيمان، ما تَوَاجَهَا وتَقَابَلَا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ولهذا لما جاء السحرة، وقد جَمَعُوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحرَ الناس وأصنَعهم وأشدَّهم تخيلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً، وجمّاً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: سبعة عشر ألفاً، وقيل: تسعة عشر ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً. وقيل: ثمانين ألفاً^(١). وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم. قال ابن إسحاق: وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم، وهم: ساثور وعازور وحطيط ويصفي. وحشد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَمَّا نَبُغِ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَلِيلِينَ﴾ [١٨]، ولم يقولوا: نَتَّبِعُ الْحَقَّ سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم. ﴿لَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ﴾. أي: إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً. وجمع حشمة وخدمه ووزرائه ورؤساء دولته وجنود مملكته. فقام السحرة بين يدي فرعون، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جَمَعْتنا من أجله. فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَآجِرُ إِنْ كُنَّا هُنَا الْقَلِيلِينَ﴾ [١٩] قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِنْ لَأَيْنَ الْمَقْرُونِ، أي: وأخص مما تطلبون، أجعلكم من المقرين عندي وجلسائي. فعادوا إلى مقام المناظرة، ﴿قَالُوا يَمُوتُ إِمَّا أَنْ تَلْقَى وَلَمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [٢٠] قَالَ بَلْ أَقْوَمُ [طه: ٦٥]، وقد اختصر هذا ما هنا. فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [٢١] فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعَزَاءِ رَبِّهِمْ إِنَّا لَمُتَلَكِّينَ، وهذا كما يقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في «سورة الأعراف»: أنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَعْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَجِيبٍ﴾ [٢٢]، وقال في «سورة طه»: ﴿فَإِذَا حِجَالُهُمْ عَمِلَتْ إِيَّاهُ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَنفَى﴾ [٢٣] فَأَوَّحَى فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿لَمَّا لَا تَخَفُ﴾ [٢٤] أَنْتَ الْأَخْلَصُ [٢٥] وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِمَّا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُبْلَغُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى. وقال ما هنا: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُودُونَ﴾ [٢٦]، أي تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتليه فلم تدع منه شيئاً، قال الله تعالى: ﴿فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٧] فَشَبَّوْا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَافِرِينَ [٢٨] وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ [٢٩] قَالُوا مَا نَا رَبِّ الْعَالَمِينَ [٣٠] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [٣١] [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢]. وكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا قد غلبوا وخضعوا وأمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً - عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: ﴿إِنَّهُ لَكِبْرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]. وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُفْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿قَالَ أَمَنْتُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ إِتِمَّ لِكِبْرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَانَ لِيَبْئِئَكُمْ وَأَرْسِلُكُمْ مِنْ خَلْفِي وَأَرْسِلُنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٤٩] قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِنْ لَرَبَّنَا مُقْبِلُونَ [٥٠] إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥١]

تَهْذِهِمْ فَلَمْ يَقْطَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ، وَتَوَعَّدَهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا. وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كُثِفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حِجَابُ الْكَفْرِ، وَظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ بِعِلْمِهِمْ مَا جَهِلَ قَوْمُهُمْ، مِنْ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَا يَصْدُرُ عَنْ بَشَرٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَيْدَهُ بِهِ، وَجَعَلَهُ لَهُ حُجَّةً وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ. وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: ﴿مَا مَسَّكُمْ لَمَّا قِيلَ إِنَّ مَاءَكُمْ لَمُتٌ﴾، أَي: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي فِيمَا فَعَلْتُمْ، وَلَا تَفْتَأُوا عَلَيَّ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ أَذْنَتْ لَكُمْ فَعَلْتُمْ، وَإِنْ مَنَعْتُكُمْ امْتَنَعْتُمْ، فَإِنِّي أَنَا الْحَاكِمُ الْمَطَاعُ، ﴿إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَيْكُمْ أَلَسَّخَرُ﴾ [طه: ٧١]. وَهَذِهِ مَكَابِرُهُ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بَطْلَانَهَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا بِمُوسَى قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرَهُمُ الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَةَ السِّحْرِ؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ. ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصُّلْبِ، فَقَالُوا: ﴿لَا ضَرَرَ﴾، أَي: لَا حَرَجَ، وَلَا يَضُرُّنَا ذَلِكَ وَلَا نُبَالِي بِهِ ﴿إِنَّا لَكُمْ مُتَقَبِّلُونَ﴾، أَي: الْمَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ بِنَا، وَسَيَجْزِينَا عَلَى ذَلِكَ أَنْتُمْ الْجَزَاء. وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا نَخْلَعُ أَنْ بَقَرْنَا كَأَرْبَابِنَا حَاطِينَ﴾، أَي: مَا قَارَفْنَاهُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أَي: بِسَبَبِ أَنَا بَازِرْنَا قَوْمَنَا مِنَ الْقَبْطِ إِلَى الْإِيمَانِ، فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَمْرِ بِعِبَادِي أَنْكُرُ مُتَّبِعُونَ﴾ (٥٢) ﴿فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي السَّمَاءِ حَشِيرَتَيْنِ﴾ (٥٣) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ﴾ (٥٥) ﴿وَأَنَّا لَجَمِيعٌ خَالِدُونَ﴾ (٥٦) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٧) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَارِيرٍ كَثِيرٍ﴾ (٥٨) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩)

لَمَّا طَالَ مُقَامُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - بِبِلَادِ مِصْرَ، وَأَقَامَ بِهَا حُجَجَ اللَّهِ وَبِرَاهِيَتَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُكَابِرُونَ وَيُعَانِدُونَ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ، فَأَمَرَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - أَنْ يُخْرِجَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَرُ، فَفَعَلَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -. خَرَجَ بِهِمْ بَعْدَمَا اسْتَعَارُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ خُلْيَا كَثِيرًا، وَكَانَ خُرُوجُهُ بِهِمْ فِيمَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفْسُرِينَ وَقَتَّ طُلُوعِ الْقَمَرِ. وَذَكَرَ مُجَاهِدٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ كَيْفَ الْقَمَرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - سَأَلَ عَنْ قَبْرِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدَّتْهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَيْهِ، فَاحْتَمَلَتْ تَابُوتَهُ مَعَهُمْ، وَيَقَالُ: إِنَّهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَام - قَدْ أَوْصَى بِذَلِكَ إِذَا خَرَجَ بَنُو إِسْرَءِيلَ أَنْ يَحْمِلُوهُ مَعَهُمْ.

[٥٠٤٠] وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَقَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ أَبَانَ بْنِ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ قُضَيْلٍ، عَنْ يُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِأَعْرَابِيٍّ فَأَكْرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: تَعَاظَمْنَا. فَاتَاهُ الْأَعْرَابِيُّ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: نَاقَةٌ بَرَحَلَهَا وَأَعْتَزَّ يَحْتَلِبُهَا أَهْلِي، فَقَالَ: أَعْجَزْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَءِيلَ؟ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّ مُوسَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسِيرَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَقَالَ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ عِلْمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ: نَحْنُ نَحْدُثُكَ أَنَّ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ أَلَّا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ تَابُوتَهُ مَعَنَا. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: فَأَيُّكُمْ يَدْرِي أَيْنَ قَبْرِ يَوْسُفَ؟ قَالُوا: مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَءِيلَ. فَارْسَلْ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: ذُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يَوْسُفَ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي. قَالَ لَهَا: وَمَا حُكْمُكَ؟ قَالَتْ: حُكْمِي أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ. فَكَانَ ثَقُلَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ: أَعْطِهَا حُكْمَهَا. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ إِلَى بَحِيرَةٍ - مُسْتَنْقَعُ مَاءٍ - فَقَالَ لَهُمْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ. فَلَمَّا أَنْضَبُوهُ قَالَتْ: احْتَفِرُوا. فَلَمَّا احْتَفَرُوا اسْتَخْرَجُوا قَبْرَ

يوسف. فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار^(١). هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف، والله أعلم. فلما أصبحوا وليس في ناديهـم ذاع ولا مـجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل، لما يريد الله به من الدمار. فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي: من يحشـر الجنـد ويجمعه كالنـقباء والحـجـاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ - يعني: بني إسرائيل - ﴿لَفِرْزِمَةٌ قَالُونَ﴾، أي: لطائفة قليلة، ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَافِطُونَ﴾، أي: كل وقت يصل إلينا منهم ما يغيظنا، ﴿وَلَنَا جَمِيعٌ حَازُونَ﴾، أي: نحن كل وقت نحـذـر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف «وإذا الجميع حذرون» أي مستعدون بالسلاح، وإنـي أريد أن أسـتـأصل شأقتهم، وأبـيـد خـضراءهم. فـجـوزي في نـفسه وجنـده بما أراـد لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ﴾، أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِيقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَوْمَئِذٍ وَكَانَتْ كَلِمَتٌ رَبِّكَ الْهَسْبُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَتَعَصَّىٰ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا بِعِرْشُونِ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَمُّوْا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُبْرِئُ فِرْعَوْنَ وَنَسْجِدَ يَحْزَنُهُمَا يَنْهَمُ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ - ٦].

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَاقِبَ﴾ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ اصْحَبِ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٨﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَصْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخَرِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَوْحَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعْرِضُ الرَّجِيمِ ﴿٢٤﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فاما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمئة ألف فارس، منها مئة ألف على خيل دهم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمئة ألف حصان أدهم، ففي ذلك نظـر. والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى أعلم، والذي أخبر به القرآن هو النافع، ولم يعين عدتهم، إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم. ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَاقِبَ﴾، أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها. ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ﴾، أي: رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿قَالَ اصْحَبِ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾، وذلك أنهم انتهـى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم، فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده، فلماذا قالوا:

(١) الراجح وقفه. أخرجه أبو يعلى ٧٢٥٤ وابن حبان ٧٢٣ والحاكم ٤٠٤/٢ - ٤٠٥ - ٥٧١ - ٥٧٢ وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي! وفي ذلك نظر، فإن مداره على يونس بن أبي إسحق السبيعي، وهو من رجال مسلم، ولم يرو عنه البخاري في صحيحه، وإنما روى له في جزء «القراءة خلف الإمام» ومع ذلك فقد ضعفه غير واحد. جاء في «الميزان» ٩٩١٤: قال ابن مهدي: لم يكن به بأس. وقال أبو حاتم: صدوق، لا يحتج به. وقال ابن خراش: لين، وقال ابن حزم في «المحل» ضعفه يحيى القطان وأحمد. قال الذهبي: قلت: هو صدوق، ما هو في قوة شعبة ومسعر، قال يحيى بن سعيد: كان فيه غفلة، وقال أحمد: حديثه مضطرب. ووثقه أحمد في رواية أده باختصار وأعدل هذه الأقوال قول أبو حاتم: هو صدوق، ولا يحتج به أده وقد تفرد بهذا الحديث الغريب جداً، كما قال ابن كثير. والله أعلم.

﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (١٦) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ، أي: لا يصل إلَيْكُمْ شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد. وكان هارون - عليه السلام - في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، وقد ذُكر غير واحد من المفسرين: أنهم وَقَفُوا لا يدرون ما يصنّفون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله، هاهنا أمرك ربك أن تسيّر؟ فيقول: نعم. واقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل. فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلق بإذن الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد، عن محمد بن حمزة بن يوسف عن عبد الله بن سلام: أن موسى - عليه السلام - لما انتهى إلى البحر قال: يا مَنْ كان قبل كل شيء والمُكُون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْيَمَّ﴾. وقال قتادة: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر: أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع. فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب، لا يذري من أي جانب يضربه موسى، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبي الله، أين أمرك ربك؟ قال: أمرني ربي أن أضرب البحر. قال: فاضربه. وقال محمد بن إسحاق: أوحى الله، فيما ذكر لي، إلى البحر: أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له. قال: فبات البحر يضطرب، يضرب بعضه بعضاً، فَرَقاً من الله تعالى، وانتظراً لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْيَمَّ﴾، فضربه بها، ففيها سلطان الله الذي أعطاه، فانفلق. وذكر غير واحد أنه كُتِبَ فقال: انفلق عليّ أبا خالد بإذن الله. قال الله تعالى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، أي: كالجبل الكبير. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومحمد بن كعب، والضحاك، وقاتدة، وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: هو الفج بين الجبلين. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً، لكل سبيل طريق. وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيْلِهِ كالحيطان، وبعث الله الريح على قعر البحر فلَفَحَتْه، فصار ييساً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَسًى لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا عَثَقًا﴾ [طه: ٧٧]. وقال في هذه القصة: ﴿وَأَرْسَلْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ﴾ (١٧)، أي: هناك الآخرين. قال ابن عباس، وعطاء الخراساني، وقاتدة، والسدي، ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾، أي: قَرَّبْنَا فِرْعَوْنَ وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه. ﴿وَأَجَبْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجَابِينَ﴾ (١٨) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ، أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم نُهْلِكْ منهم أحداً، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا شبابة، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، هو ابن مسعود - رضي الله عنه - أن موسى عليه السلام حين أسرى بني إسرائيل بلغ فرعون ذلك، فأمر بشاة فذُبِحَتْ، ثم قال: لا، والله لا يفرغ من سُلُخِها حتى يجتمع إليّ ستمئة ألف من القبط. فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر، فقال له: انفرك. فقال البحر: لقد استكبرت يا موسى، وهل فرقت لأحد من بني آدم فأفرقت لك؟! قال: ومع موسى رجل على حصان له، فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه، هذا البحر. فأقحم فرسه فسَبَحَ به فخرج، فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كذبت. ثم اقتحم الثانية فسَبَحَ، ثم خرج، ثم قال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كذبت. قال: فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه موسى بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقاً، لكل سبيل طريق يتراءون، فلما خرّج أصحاب موسى وتَتَمَّ أصحاب فرعون، التقى البحر عليهم فأغرقهم. وفي رواية إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله قال: فلما خرّج آخر

أصحاب موسى، وتكامل أصحاب فرعون، اضبطهم عليهم البحر، فما رُئي سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ رَأَيْتَ لَهَوَ الْعَمِيرِ الرَّجِيمِ، تقدم تفسيره.

﴿وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٧٨﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِيبِينَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَبْهَتُونَكَ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - أن يتلوه على أئمة، ليقبضوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رُشدَه من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله - عز وجل - فقال ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِيبِينَ﴾ ﴿٧٦﴾، أي: مُقيمين على عبادتها ودعائها، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَبْهَتُونَكَ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾، يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك. وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾، أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فلتخلص إلي بالمساءة، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها. وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فَاتَّخِذُوا أَمْثَلَكُمْ زُرَّكَاءَ كُفَّ لَا يَكُنْ أَمْثَلَكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُمْ ثُمَّ أَقْبَضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]. وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم، وقال: ﴿وَكَيْفَ أَتَأْتِي مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْبَغْضَاءُ وَالْبُغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٨١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٨٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَافِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]، يعني لا إله إلا الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴿

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾، أي: هو الخالق الذي قدر قدرأ، وقدَى الخلاق إليه، فكل يجري على قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ﴿٧٩﴾، أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق

المُزْنُ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذاباً زُلَلاً ﴿وَتَشِيئُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْفَكَا وَلَأَيَّ كَثِيرًا﴾. وقوله: ﴿وَلَا مَرِيضٌ فَهُوَ بِشْفِيٍّ﴾ (٨٥)، أسند المَرَضَ إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال تعالى آمراً للمصلّي أن يـَقُولَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٢) فأسند الإنعام والهداية إلى الله سبحانه وتعالى، والغضب خُذِفَ فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَلَّا تَدْرِي أَشْرَ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْرَ أَرَادَ يَوْمَ تُنْفَخُ الرُّشْدُ﴾ (٣) [الجن: ١٠]، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَلَا مَرِيضٌ فَهُوَ بِشْفِيٍّ﴾ (٨٥)، أي: إذا وَقَعْتُ في مرض فإنه لا يَقْدِرُ على شفائي أحدٌ غيره، بما يَقْدِرُ من الأسباب الموصلة إليه. ﴿وَالَّذِي يُشْفِي ثُمَّ يَمَيِّنُ﴾ (٨٦)، أي: هو الذي يُحيي ويميت، لا يَقْدِرُ على ذلك أحدٌ سواه، فإنه هو الذي يُبْدِئُ ويعيد، ﴿وَالَّذِي أَمْلَأَ أَنْ يَقْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٧)، أي: هو الذي لا يَقْدِرُ على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، فهو الفَعَالُ لما يشاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٧) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٨) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٩) وَأَغْفِرْ لِأَيِّ إِثْمٍ كَانَتْ مِنَ الضَّالِّينَ (٩٠) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٩١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٩٢) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٩٣)

وهذا سؤال من إبراهيم - عليه السلام - أن يؤتته ربه حكماً. قال ابن عباس: وهو العلم. وقال عكرمة: هو اللب. وقال مجاهد: هو القرآن، وقال السدي: هو النبوة. وقوله: ﴿وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾، أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة.

[٥٠٤١] كما قال النبي - ﷺ - عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى»^(١). قالها ثلاثاً.

[٥٠٤٢] وفي الحديث في الدعاء: «اللهم أحيئنا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مُبْدِلين»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، أي: واجعل لي ذكراً جميلاً يعدي أذكُر به، ويُقْتَدَى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٩٨) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٩٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُتَعَبِّينَ (١٠٠) [الصافات: ١٠٨ - ١١٠]. قال مجاهد، وقناة: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٩٨)، يعني الثناء الحسن. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ [المنكوت: ٢٧]، وكقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٢) [النحل: ١٢٢]. قال ليث بن أبي سليم: كلُّ ملة تُحِبُّه وتتولاه. وكذا قال عكرمة. وقوله: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٩٠)، أي: أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وقوله تعالى: ﴿وَأَغْفِرْ لِأَيِّ إِثْمٍ كَانَتْ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٩١) كقوله: ﴿رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ

(١) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ١٠١.

(٢) أخرجه أحمد ٤٢٤/٣، وسيأتي في سورة الحجرات، عند تفسير الآية: ٧.

حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [التوبة: ١١٤]. وقد قَطَعَ تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهِنَا وَبَيْنَا وَبَيْنَكُمُ الْمَدَاوُةُ وَالْبُغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [المتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: أجري من الخزي يوم القيامة وبغث الخلائق أولهم وآخرهم.

[٥٠٤٣] قال البخاري في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١١٧﴾: قال إبراهيم بن طهمان، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه العبرة والفتنة^(١).

[٥٠٤٤] وفي رواية أخرى: حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: يلقي إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يُبعثون. فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين^(٢). هكذا رواه عند هذه الآية.

[٥٠٤٥] وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: يلقي إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر فتنة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصيني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يُبعثون، فأني خزي أخري من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطح، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار^(٣).

[٥٠٤٦] وقال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١١٧﴾: أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طهمان، عن محمد بن عبد الرحمن، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه العبرة والفتنة، قال له: قد نهيتك عن هذا فعصيتني. قال: لكنتي اليوم لا أعصيك واحدة. قال: يا رب، وعدتني ألا تخزني يوم يُبعثون، فإن أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد. قال: يا إبراهيم، إني حرمتها على الكافرين. فأخذ منه، قال: يا إبراهيم، أين أبوك؟ قال: أنت أخذته مني. قال: انظر أسفل منك. فنظر فإذا بذيخ يتمرغ في نثته، فأخذ بقوائمه فألقى في النار^(٤). هذا سياق غريب، وفيه نكارة. والذبيخ: هو الذكور من الضباع، كأنه حوّل أزر إلى صورة ذبيخ متلطح بعذرتة، فيلقى في النار كذلك.

[٥٠٤٧] وقد رواه البراء من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - وفيه غرابة^(٥).

[٥٠٤٨] ورواه أيضاً من حديث قتادة، عن جعفر بن عبد الغفار، عن أبي سعيد، عن النبي - ﷺ - بنحوه^(٦).

(١) ذكره البخاري تعليقاً ٤٧٦٨ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٦٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٠.

(٤) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٩٥ واستغربه المصنف على أن في بعض ألفاظه نكارة مع أنه ورد عند البخاري بهذا السياق، وانظر المتقدم برقم ٥٠٤٥.

(٥) حماد من رجال مسلم ومن فوقه رجال الشيخين.

(٦) جعفر لم أجده له ترجمة، ويغني عنه ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾، أي: ولو افتدى بمن في الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك وأهله، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩)، أي: سالم من الدنس والشرك. قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩)، يعني: يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب المنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن على السنة.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩٠) وَبُرِزَتِ الْجَهَنَّمَ لِلْفَاقِينَ (٩١) وَقِيلَ لِمَنْ أَتَى مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُهُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ (٩٣) فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْفَاوُونَ (٩٤) وَخُودٌ إِلَّا جَعْمُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ سَأَوْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَصْلَنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ (١٠٤)

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾، أي: قُرِبَتِ الجنة وأُدينت من أهلها يوم القيامة مزينةً لتأطيرها، وهم المتقون الذين رَغِبُوا فيها على ما في الدنيا، وعَمِلُوا لها في الدنيا. ﴿وَبُرِزَتِ الْجَهَنَّمَ لِلْفَاقِينَ﴾ (٩١)، أي: أظهرت وكشفت عنها، وبَدَتْ منها عُنُقٌ فَرَفَرَتْ زُفْرَةٌ بَلَّغَتْ منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريباً وتوبيخاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُهُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ؟ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دُونِ الله، من تلك الأصنام والأنداد تُغْنِي عَنْكُمْ اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فأتاكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها وارِدُونَ. وقوله: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْفَاوُونَ﴾ (٩٤)، قال مجاهد: يعني قَدَّحُوا فيها. وقال غيره: كَبَّبُوا فيها والكاف مكررة، كما يقال: صَرَصَرَ. والمراد أنه أُلْقِيَ بعضهم على بعض، من الكفار وقادتهم الذين دَعَوْهم إلى الشرك، ﴿وَخُودٌ إِلَّا جَعْمُونَ﴾ (٩٥)، أي: أُلْقُوا فيها عن آخرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ سَأَوْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)، أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعَاءً قَهْلَ أَنتُمْ مُقْتُونَ عَنَّا نَحْيَا مِنَ النَّارِ﴾. ويقولون وقد عَادُوا على أنفسهم باللامعة: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ سَأَوْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)، أي: نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين، ﴿وَمَا أَصْلَنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾ (٩٩)، أي: ما دَعَانَا إلى ذلك إلا المجرمون، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠)، قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: ﴿قَهْلَ لَنَا مِنْ شَفَعَةٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الاعراف: ٥٣]. وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)، أي: قريب.

قال قتادة: يعلمون - الله - أن الصديق إذا كان صالحاً نَفَعَ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شَفَعَ. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك أنهم يَتَمَنُّونَ أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو رَدَّهم إلى الدار الدنيا لعَادُوا لما نُهَوْا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاضع أهل النار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ نَحَاسٍ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآية

ودلالة واضحة جليلة على أنه لا إله إلا الله، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٥ ﴿وَلَيْكَ لَمَوْ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٠٥ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوهُ﴾ ١٠٦ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٠٧ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ١٠٨ ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ ١٠٩ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١١٠ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ ١١١ ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ ١١٢

هذا إخبار من الله - عز وجل - عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعد ما عُبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهياً عن ذلك، ومُحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفِعالِ الخبيثة في عبادتهم أصنامهم. ونُزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرُّسل، ولهذا قال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٠٥ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوهُ﴾ ١٠٦، أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٠٧، أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيدها ولا أنقص منها، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ ١٠٨ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٠٩، أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ ١١٠، فقد وضح لكم وبأن صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به واتممتي عليه.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ١١١ ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ١١٢ ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ ١١٣ ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ١١٤ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٥ ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ١١٦

يقولون: أتؤمن لك وتبغك، ونسأوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين أتبعوك وصدّقوك، وهم أراذلنا؟! ولهذا قالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ١١١ ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ١١٢، أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التتقيب عنه والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله - عز وجل - ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ١١٣ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٤، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٤ ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ١١٥، أي: إنما بُعثت نذيراً، فمن أطاعني وأتبعني وصدّقني كان مني وكنّ منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ١١٦ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ١١٧ ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ ١١٨ ﴿وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٩ ﴿فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ١٢٠ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ ١٢١ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٢٢ ﴿وَلَيْكَ لَمَوْ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٢٣

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وجهاً وإسراءاً، وكلما كرّر عليهم الدعوة صمّموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ ١١٦، أي: عن دُعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ١١٦، أي: لنرجمتك. فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ١١٧ ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٨، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ ١١٩ ﴿فَنَفَخْنَا الْوَيْبَ عَلَى أَسْمَلِهِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ١٢٠ ﴿وَقَرَّبْنَا الْأَرْضَ عِوَاً فَاَلْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرَّسَ﴾ ١٢١ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ ١٢٢ ﴿فَجَرَى بِأَصْفَانَا جَرَاءً لِّئِنْ كَانَ كُفْرٌ﴾ ١٢٣ ﴿[الفر: ١٠ - ١٤]، وقال هاهنا: ﴿فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ١١٩، والمشحون: هو المملوء بالامتعة والأزواج التي حَمَلَ فيه من كل زوجين اثنين، أي: نجينا نوحاً ومن أتبعه كلهم، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم، ﴿إِنْ

فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كُنَّا أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٍ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَنْتَوْنَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا أَلَيْسَ أَمْدُكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْدُكُمْ بِأَنْتُمْ وَيَوْمَ تَحْشَرُونَ ﴿١٣٣﴾ وَحِشْرَتُ عُيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود - عليه السلام - : أنه دعا قومه عاداً وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت، متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْئَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدائرة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسلاً ونبيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم يقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: ﴿أَتَنْتَوْنَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةً تَعْبَثُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾، اختلف المفسرون في الريح بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، بينون هناك بناء محكم باهراً هائلاً، ولهذا قال: ﴿أَتَنْتَوْنَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةً﴾، أي: معلماً بناء مشهوراً، ﴿تَعْبَثُونَ﴾، أي: وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة. ولهذا أنكر عليهم نبيهم - عليه السلام - ذلك، لأنه تضييع للزمان، وإتعاث للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾، قال مجاهد: المصانع: البروج المشيدة، والبنيان المخلد. وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض القراء: «وتتخذون مصانع كائكم خالدون». وفي القراءة المشهورة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾، أي: لكي تقيموا فيها أبداً، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الحَكَمُ بن موسى، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عجلان، حدثني عون بن عبد الله بن عتبة، أن أبا الدرداء - رضي الله عنه - لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوط في البنيان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق! فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما لا تاكلون، وتبتون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون! قد كانت قبلكم قرون، يجمعون قيوغون، ويبتون قيوثقون، ويأملون قيطيلون، فأصبح أمْلَهُمْ غُروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، من يشتري مني ميراث عادٍ بدرهمين!؟

وقوله تعالى: ﴿وَلَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾، وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ ﴿١٣١﴾، أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسلكم. ثم شرع يذكّرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا أَلَيْسَ أَمْدُكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ أَمْدُكُمْ بِأَنْتُمْ وَيَوْمَ تَحْشَرُونَ ﴿١٣٣﴾ وَحِشْرَتُ عُيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾، أي: كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٠﴾﴾

يقول الله تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له. بعد ما حذرهم وأنذرهم، وزعّهم وزعّهم، وبين لهم الحق ووضحه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، أي: لا ترجع عما نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَارِكٍ آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [عود: ٥٣]. وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٩﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرَأْنَا الْكَذَّابَ الْأَلِيمَ ﴿١٤٠﴾﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]. وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾. قرأ بعضهم: «إن هذا إلا خلق الأولين»، بفتح الخاء وتسكين اللام. قال ابن مسعود، والعمري عن عبد الله بن عباس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئنا به إلا اختلاق الأولين. كما قال المشركون من قريش: ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ شَتْلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿١٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٥]، وقال الذين كفروا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا فِكْ أَفْكُهُ وَآعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُجْرًا ﴿١٣٩﴾﴾ وقالوا ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٤ - ٥]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [النحل: ٢٤]. وقرأ آخرون: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾، بضم الخاء واللام، يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد. ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد. ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾. قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾، يقول: دين الأولين. وقاله عكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾، أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله. وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي: ريحاً شديدة الهبوب، ذات برد شديد جداً، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاوُ ﴿١٣٦﴾ إِذْ ذَاكَ الْأَمْوَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الفجر: ٦ - ٧]، وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكَ عَادًا الْأَوَّلَ ﴿١٣٨﴾﴾ [النجم: ٥٠]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح «ذات العماد»، أي: الذين كانوا يسكنون العمدة. ومن زعم أن «إرم» مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل. ولهذا قال: ﴿أَلَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْأَلْبَدِ ﴿١٣٩﴾﴾ [الفجر: ٨]، أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبن مثلها في البلاد، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَغَيَّرُوا لَحْيَ قَوْمِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٦ - ٧]، أي: بقوا أبداناً بلا رؤوس، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف

والمغارات، وحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَنْصَابَهُمْ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئاً، ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْءٍ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾

وهذا إخبارٌ من الله - عز وجل - عن عبده ورسوله صالح - عليه السلام - أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر، التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة. وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله - ﷺ - بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى تبوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك. وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام. فدعاهم نبيهم صالح إلى الله - عز وجل - أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما يُلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه. فأخبرهم أنه لا يتبغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل. ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال:

﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَنَأْنَا ءَامِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّوتُ مِنْ أَلْبَالٍ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٥٠﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥١﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم يَقُمْ الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدائرة، وجعلهم في أمنٍ من المحذورات، وأنبأ لهم من الجنات، وأنبع لهم من العيون الجارية، وأخرج لهم من الزروع والثمار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: أُنْبَعُ وَبُلْعُ، فهو هَضِيم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، يقول: مُغْبِشَةٌ. وقال إسماعيل بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو، وقد أدرك الصحابة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال: إِذَا رَطُبَ وَاسْتَرَخَى. رواه ابن أبي حاتم، قال: وَرُوي عن أبي صالح نحو هذا.

وقال أبو إسحاق، عن أبي العلاء: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال: هو المَذْنُبُ من الرطب. وقال مجاهد: هو الذي إِذَا مَسَّ تَهَشَّمُ وَتَفَتَّتْ وَتَنَاثَرَتْ. وقال ابن جريج: سَمِعْتُ عبد الكريم أبا أمية، سَمِعْتُ مجاهداً يقول: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال: حين يُطْلَعُ تَقْبِضُ عَلَيْهِ فَتَهْضُمُهُ، فهو من الرطب الهَضِيم، ومن اليابس الهَشِيم، تَقْبِضُ عَلَيْهِ فَتَهْضُمُهُ. وقال عكرمة، وقناة: الهَضِيم: الرطب اللين. وقال الضحاك: إِذَا كَثُرَ حَمْلُ النخلة المشمرة، وَرَكِبَ بَعْضُهُ بَعْضاً، فهو هَضِيم. وقال مرة: هو الطَّلَعُ حين يَتَفَرَّقُ وَيَخْضَرُ. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له. وقال أبو صخر: أَمَا رَأَيْتَ الطَّلَعُ حين يَتَشَقَّقُ عَنْ الْكِمِّ، فترى الطَّلَعُ قد لَصِقَ بَعْضُهُ بَبَعْضٍ، فهو الهَضِيم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَنَحُّوتُ مِنْ أَلْبَالٍ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾، قال ابن عباس، وغير واحد: يعني حاذقين. وفي رواية عنه: شَرِهين أشْرين. وهو اختيار مجاهد وجماعة. ولا منافاة بينهما، فإنهما كانوا يَتَخَذُونَ تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وَبَطْراً وَعَبْثاً، من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين مُتَقِينَ لِنَحْتِهَا وَتَقْشِيرِهَا،

كما هو المشاهد من حالهم لَمَنْ رَأَى مَنَازِلَهُمْ، ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: أقبِلوا على عَمَلٍ ما يعود عليكم نفعه في الدنيا والآخرة، من عبادة رَبِّكم الذي خَلَقَكُم وَرَزَقَكُم لتُحَدِّثُوهُ وتُعْبُدُوهُ وتُسَبِّحُوهُ بكثرة وأصيلاً، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الشَّيْطَانِ﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٦﴾ يعني: رؤساءهم وكُبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْهَوْا يَوْمَ تَأْخُذُكُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّكَ لَهُوَ الْعَرِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح - عليه السلام - حين دعاهم إلى عبادة ربهم، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾، قال مجاهد، وقتادة: يعنون من المسحورين. وروى أبو صالح، عن ابن عباس: «مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»: يعين من المخلوقين. واستشهد بعضهم على هذا القول بما قاله الشاعر:

فَلِإِنْ تَسْأَلِينَا: فِيمَ نَحْنُ؟ فَلِنَا عَصَافِيرُ مِنْ قَدْأِ الْأَنَامِ الْمُسْحَرِ

يعني الذين لهم سحر، والسحر: هو الرثة. والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك. ثم قالوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، يعني: فكيف أوجي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتِيَ الذِّكْرَ عَلَيَّ مِنْ يَنِينَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيمٌ﴾ ﴿١٥٥﴾ سَمِعَكُونُ عَذَابَ مَنِ الْكَذَّابِ الْأَثِيمِ ﴿١٥٦﴾ [القم: ٢٥ - ٢٦]. ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، فطلبوا منه وقد اجتمع ملؤهم أن يُخْرِجَ لهم الآن من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة عندهم، ناقة عسراء من صفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمثن به. وليصدقته وليتبعته، فأعطوه ذلك. فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلّى، ثم دعا الله - عز وجل - أن يُجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عسراء على الصفة التي وصفوها. فأمن بعضهم وكفر أكثرهم، ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿١٥٥﴾ يعني: ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم، ﴿وَلَا تَسْهَوْا يَوْمَ تَأْخُذُكُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥٦﴾. فحذّره نعمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء، وتاكل الزرق والمرعى. ويتنفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم، تماثلوا على قتلها وعقرها، ﴿فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ، وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقلعت القلوب عن محالها، وأنهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جائعين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥٨﴾ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّكَ لَهُوَ الْعَرِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾

يقول الله تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط - عليه السلام - وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون «سدوم»

وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرة مُتَيْتَةً خَبِيْثَةً، وهي مشهورة ببلاد العُور، متاخمة لجبال بيت المقدس، بينها وبين بلاد الكُرْك والشَوْبَك. فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يَطِيعُوا رُسُلَهُمُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَارْتِكَابِ مَا كَانُوا قَدْ ابْتَدَعُوهُ فِي الْعَالَمِ، مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُمُ الْخَلَائِقُ إِلَى فِعْلِهِ، مِنْ إِتْيَانِ الذُّكْرَانِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ۖ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُكُومًا ۖ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْن لَّرَنَّتْهُ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۖ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لَمَعْلُومٌ مِنَ الْغَالِينَ ۖ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ يَخَيِّ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ۖ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۖ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ ۖ ﴿١٧٣﴾ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ۖ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ ﴿١٧٦﴾﴾

لَمَّا نَهَاكَم نَبِيُّ اللَّهِ عَنْ إِتْيَانِهِمُ الْفَوَاحِشَ، وَغَشْيَانِهِمُ الذُّكُورَ، وَارْشَادِهِمْ إِلَى إِتْيَانِ نِسَائِهِمُ اللَّاتِي خَلَقَهُنَّ لِلَّهِ لَهُمْ، مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ لَهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا: ﴿لَيْن لَّرَنَّتْهُ يَلُوطُ﴾، يَعْنُونَ عَمَّا جِئْنَا بِهِ، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾، أَي: تَنْفِيكَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرْنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلَّا لُوطُ مِنْ قَرَبَيْكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۖ ﴿١٦٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]. فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَرْتَدُّعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ وَأَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ فَقَالَ: ﴿إِنِّي لَمَعْلُومٌ مِنَ الْغَالِينَ﴾، أَي: الْمُبْغِضِينَ، لَا أَحِبُّهُ وَلَا أَرْضَى بِهِ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْكُمْ. ثُمَّ دَعَا اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿رَبِّ يَخَيِّ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾، أَي: كُلَّهُم، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾، وَهِيَ امْرَأَتُهُ، كَانَتْ عَجُوزًا سَوِيَّةً، بَقِيَتْ فَهَلَكَتْ مَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمِهَا، وَذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي «سُورَةِ الْأَعْرَافِ» وَ«هُودٍ»، وَكَذَا فِي «الْحَجَرِ» حِينَ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ، وَأَنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ إِذَا سَمِعُوا الصَّيْحَةَ حِينَ تَنْزِلُ عَلَى قَوْمِهِ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاسْتَمَرُّوا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَوَّلِكَ الْعَذَابِ الَّذِي عَمَّ جَمِيعَهُمْ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۖ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ ۖ ﴿١٧٣﴾ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ۖ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ ۖ ﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۖ ﴿١٧٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ ﴿١٧٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَالَى ۖ ﴿١٨٠﴾ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۖ ﴿١٨١﴾ وَمَا أَشْكَلَكُمُ عَلَيْهِ مِنْ آجَرٍ ۖ إِنَّ آجَرَ ابْنَ آجَرَ ۖ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ۖ ﴿١٨٢﴾﴾

هَؤُلَاءِ - أعني أصحاب الأيكة - هم أهل مَدْيَنَ عَلَى الصَّحِيحِ. وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ هَاهُنَا أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ، لِأَنَّهُمْ نُسِبُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَيْكَةِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ. وَقِيلَ: شَجَرٌ مُلْتَفٌ كَالْفَيْضَةِ، كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فَلِهَذَا لَمَّا قَالَ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ﴾، لَمْ يَقُلْ: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فَقَطَعَ نِسْبَةَ الْأُخُوَّةِ بَيْنَهُمْ، لِلْمَعْنَى الَّتِي نُسِبُوا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُمْ نَسَبًا. وَمَنْ النَّاسُ مِنْ لَمْ يَتَفَتَحْ لِهَذِهِ النُّكْتَةِ، فَظَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ غَيْرُ أَهْلِ مَدْيَنَ، فَزَعَمَ أَنَّ شُعَيْبًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَمْتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ثَلَاثَ أُمَمٍ. وَقَدْ رَوَى إِسْحَاقُ بْنُ بَشَرَ الْكَاهِلِيُّ - وَهُوَ ضَعِيفٌ -: حَدَّثَنِي ابْنُ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِيهِ - وَزَكَرِيَّا بْنُ عُمَرَ، عَنْ خُصَيْفٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ - قَالَا^(١): مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مَرَّتَيْنِ إِلَّا شُعَيْبًا، مَرَّةً

(١) أي عكرمة والسدي، والأثر باطل، إسحق بن بشر منهم بالكذب.

إلى مدينَ فأخذهم الله بالصيحة، ومرةً إلى أصحاب الأيكة، فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة.

ورَوَى أبو القاسم البَغَوِيُّ، عن مُذَنَّبَةٍ، عن هَاشِمٍ، عن قَتَادَةَ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّيْنِ﴾: قوم شُعَيْب، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾: قوم شُعَيْب. قال إِسْحَاقُ بن بشر: وقال غَيْرُ جَوَيْرٍ: أصحابُ الأيكة ومدينُ هما واحدٌ. والله أعلم.

[٥٠٤٩] وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شُعَيْب، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هِشَام، عن هِشَام بن سَعْدٍ، عن سَعِيد بن أَبِي هلال، عن ربيعة، بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال: رسول الله - ﷺ -: إن قومَ مدينَ وأصحابَ الأيكة أُمَّتَانِ، بَعَثَ اللهُ إليهما شُعَيْباً النبي عليه السلام^(١). وهذا غريبٌ، وفي زُفَيْعِهِ نَظَرٌ، والأشبهُ أن يكونَ موقُوفاً. والصحيحُ أنهم أُمَّةٌ واحدةٌ، وصِفُوا في كُلِّ مقامٍ بشيءٍ، ولهذا وَعَظَ هؤلاء وأمرهم بوفاءِ المكيالِ والميزانِ، كما في قِصَّةِ مدينِ سواءٍ بسواءٍ، فدل ذلك على أنهم أُمَّةٌ واحدةٌ.

﴿أَوَلَوْ الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾

يأمرهم تعالى بإيفاءِ المكيالِ والميزانِ، وينهاهم عن التطفيفِ فيهما، فقال: ﴿أَوَلَوْ الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿١٨١﴾، أي: إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا الكيلَ لهم، ولا تخسروا الكيلَ فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً، ولكن خذوا كما تُعْطُونَ، وأعطوا كما تأخذون. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ﴿١٨٢﴾، والقِسْطَاسُ هو الميزانُ، وقيل: القَبْأُن. قال بعضهم: هو مُعَرَّبٌ من الرُّومِيَّة. وقال مجاهدٌ: القِسْطَاسُ المستقيمُ: العدلُ بالروميَّة. وقال قتادة: القِسْطَاس: العدلُ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، أي: لا تَنقُصُوهم أموالهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، يعني: قطع الطريقِ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾. وقولُه: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ ﴿١٨٤﴾، يُخَوِّفُهُمْ بِأَسْمِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ آبَاءَهُمُ الْأَوَّالِ، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّكُمْ رَبِّيَ آيَاتِكُمْ الْأُولَى﴾ [الشعراء: ٢٦]. قال ابنُ عباس، ومجاهد، والسدي، وسفيانُ بن عُيينة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾، يقول: خَلَقَ الْأَوَّلِينَ. وقَرَأَ ابنُ زيد: ﴿وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَرِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

(١) ضعيف جداً. فيه محمد بن عثمان بن أبي شيبة، وهو ضعيف، وفيه ربيعة بن سيف المصري. ذكره الذهبي في «الميزان» ٢٧٥١ وقال: قال البخاري وابن يونس: عنده منكير واحد وله علة ثالثة وهي الانقطاع. قال الترمذي: لا نعرف له سماعاً من عبد الله بن عمرو راجع الميزان ٢٧٥١ وله علة رابعة، هشام بن سعد ضعفه غير واحد. والرفوع ضعيف جداً شبه موضوع. والصواب فيه الوقف كما قال ابن كثير رحمه الله.

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها، تشابهت قلوبهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾، يعنون: من المسحورين، كما تقدم. ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، قال الضحاك: جانباً من السماء. وقال قتادة: قطعاً من السماء. وقال السدي: عذاباً من السماء. وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ نَقْرَعُ رَأْيَ الْأَرْضِ بَيْنُومًا ۖ﴾، إلى أن قالوا: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِنَا إِلَهُ وَالْمَلَكِ فَبَلَا ۖ﴾ ﴿١٩٢﴾ ﴿[الإسراء: ٩٠ - ٩٢]. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِكْمًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِمَدَادٍ أَلَيْسَ ۖ﴾ ﴿١٩٣﴾ [الأنفال: ٣٢]. وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿قَالَ رَبِّ عَلِّمْ بِمَا نَعْمَلُونَ﴾، يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم. وكذلك وقع بهم كما سألو، جزاء وفاقا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمٍ الظَّلَاةُ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وهذا من جنس ما سألو من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله - سبحانه وتعالى - جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جداً مدة سبعة أيام لا يكتفهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلمتهم، فجعلوا يطلفون إليها يستظلون بظلمتها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار، ولهباً ووهجاً عظيماً، ورزقت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿تُعْزِجُكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فأرجفوا بنبي الله ومن أتبعه، فأخذتهم الرجفة. وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤] وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوْنَاكَ تَأْتُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَبْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيلُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾. وهامنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٨٧﴾، على وجه التعنت والعدا، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه: ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمٍ الظَّلَاةُ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال قتادة: قال عبد الله بن عمر: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء. ثم إن الله أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليهم أحدهم واستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحه، فأعلم بذلك قومه، فاتوها جميعاً، فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم ناراً. وهكذا زوي عن عكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقل. وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا أصابهم فرغ شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كالיום ظلاً أطيب ولا أبرد، هلأوا أيها الناس. فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح بهن صيحة واحدة، فماتوا جميعاً. ثم تلا محمد بن كعب: ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمٍ الظَّلَاةُ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثني الحسن، حدثني سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صغيرة، حدثني يزيد الباهلي: سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمٍ الظَّلَاةُ إِنَّهُمْ

كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩٢﴾ ، قال: بعث الله عليهم رَعْدَةً وَحَرًّا شَدِيدًا، فَأَخَذَ بِأَنفُسِهِمْ، فَدَخَلُوا الْبُيُوتَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَجْوَابُ الْبُيُوتِ، فَأَخَذَ بِأَنفُسِهِمْ، فَخَرَجُوا مِنَ الْبُيُوتِ هِرَابًا إِلَى الْبَرِّيَّةِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَةً فَأَطْلَتُهُمْ مِنَ الشَّمْسِ، فَوَجَدُوا لَهَا بَرْدًا وَلَذَّةً، فَنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظِّلَّةِ، إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩٣﴾ وَلَئِكَ هُمُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٤﴾ ، أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْغَلَايِينَ﴾ ﴿١٩٤﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿١٩٥﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ﴿١٩٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْغَلَايِينَ﴾ ، أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُنْذِرًا﴾ . . . الآية، ﴿لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْغَلَايِينَ﴾ ، أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿١٩٥﴾ ، وهو جبريل عليه السلام. قال غير واحد من السلف: ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعطية العوفي، والسدي، والضحاك، والزهرري، وابن جريج. وهذا ما لا نزاع فيه. قال الزهرري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَذُوبًا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] . . . الآية. وقال مجاهد: من كلمه الروح الأمين لا تأكله الأرض. ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿١٩٤﴾ ، أي: نزل به ملك كريم أمين، ذو مكانة عند الله، مُطَاع في الملأ الأعلى، ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ ، يا محمد، سالماً من الدنس والزيادة والنقص، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ، أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه وتبشر به المؤمنين المتقين له.

وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ﴿١٩٥﴾ ، أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للغير، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة.

[٥٠٥٠] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر العتكي، حدثنا عباد بن عباد المَهْلَبِي، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: بينما رسول الله - ﷺ - مع أصحابه في يوم دَجْنٍ إذ قال لهم كيف تزرون بوايقها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تراكمها! قال: فكيف ترون قواعدها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنتها! قال: فكيف ترون جونها؟ قال: ما أحسنه وأشد سواده! قال: فكيف ترون رجاها استدارت؟ قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها! قال: فكيف ترون بزقها، أوميض أم خفوف أم يشق شقاً؟ قالوا: بل يشق شقاً. قال: الحباء الحياء إن شاء الله. قال: فقال رجل: يا رسول الله، بأبي وأمي ما أفصحك! ما رأيت الذي هو أعرب منك! قال: فقال: حق لي، وإنما نزل القرآن بلساني! والله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ﴿١٩٧﴾.

(١) باطل، فهو مرسل، محمد بن إبراهيم التيمي، تابعي، ومع إرساله تفرد به موسى بن محمد التيمي، وهو ضعيف جداً، قال الذهبي في «الميزان» ٨٩١٤: قال يحيى: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. وقال البخاري: عنده مناكير، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: متروك اه فاحمل عليه في هذا الحديث. وقوله: يوم دجن: أي فيه غيم يلبس الأرض وأقطار السماء. والبواسق: ما استطال من فروع السحاب. والقواعد: ما اعترض منها وسفل. وجونها: سودها. ورجاها: استدارتها من الأعلى. والخفوف: لمعان خفيف. وشق البرق: رثي مستطيلاً بين السحاب ولم يبدُ انتشاره، ويستدلون به على المطر. والحباء: العطاء والهبة. وفي بعض النسخ: الحيا الحيا: أي المطر والخصب.

وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحياً إلا بالعربية، ثم تَرْجَمَ كُلَّ نَبِيٍّ لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دَخَلَ الجنة تكلم بالعربية^(١). رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَبِيٍّ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٩٦) أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا مِنَّا بِإِسْمِهِمْ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

يقول تعالى: وَإِنْ ذَكَرَ هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيباً في ملتته بالبشارة بأحمد: ﴿وَذَكَرَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي بَعْدِي أَتَمُّهُمُ أَحَدٌ﴾ [الصف: ٦]. والزبور: ها هنا هي الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور، وهو كتاب داود. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ قَوْمٌ فَاعِلُونَ فِي الْأَرْبَابِ﴾ (٥٢) [القمر: ٥٢]، أي: مكتوب عليهم في صُحُف الملائكة. ثم قال تعالى: ﴿أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا مِنَّا بِإِسْمِهِمْ﴾ (١٩٧)، أي: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟! والمراد العُدُول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد - ﷺ - ومبعثه وأمره، كما أخبر بذلك مَنْ آمَنَ منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]... الآية.

ثم قال تعالى: مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُغُونَ﴾ (١٩) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَعْيُنُنَا أَوْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّشْغُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ وَكَلَّمَهُمُ النَّوْءَ وَحَمَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُلُوبًا مَا كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٩٩) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَعَدَّائِنَا لِنَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَوَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَمَّا مُنْذَرُونَ (٢٠٨) ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

يقول تعالى: كذلك سلكنا التَّكْذِيبَ والكُفْرَ والجُحُودَ والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: بالحق، ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْةٌ﴾، أي: عذاب الله بغتة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٠٢) يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (٢٠٣) أَي: يَتَمَنُّونَ حين يُشَاهِدُونَ العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا في رُغْمِهم بطاعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ

النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا لِمَا أَجَلِي قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مَن قَبْلَ مَا لَكُمْ مَن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندِمَ نَدَمًا شَدِيدًا، هذا فرعون لما دعا عليه الكلیم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَأْتِيَتُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُجْزَلَ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا طِفْلٌ عَلَى أَمْرِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴿[يونس: ٨٨-٨٩]﴾. فَأَثَرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي فِرْعَوْنَ، فَمَا آمَنَ حَتَّى رَأَى الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ مَأْتَتْ أَنتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ مَأْتَيْنِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿[يونس: ٩٠-٩١]﴾. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿[غافر: ٨٤] الآية. وقوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُنَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٠٤﴾﴾، إِنْكَارَ عَلَيْهِمْ، وَتَهْدِيدُ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلرُّسُلِ تَكْذِيبًا وَاسْتِعْبَادًا: ﴿أَتُنْفِثُ بَعْدَابَ اللَّهِ؟﴾ [العنكبوت: ٢٩]. كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعِجِلُونَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَ هُمُ الْعَذَابُ وَلَئِنَّهُمْ لَفِتَنَةٌ وَلَهُمْ لَا يَنْصَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ لَحِيطَةً أَلْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤]. ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أَي: وَلَوْ أَخَّرْنَا هُمْ وَأَنْظَرْنَا هُمْ وَأَمَلْنَا لَهُمْ بَرْمَةً مِنَ الزَّمَانِ وَحِينًا مِنَ الدَّهْرِ وَإِنْ طَالَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، أَيْ شَيْءٌ يُجْزِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْتَمُوا إِلَّا عَذَابَ آلِ عَادٍ أَوْ صَحَابَهَا ﴿٦١﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ أَهْلُكُم مَّا كَانُوهُمْ لَوْ يَسْمَعُونَ وَمَا يُؤْمِنُ بِهِمْ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يَقُولُوا هُوَ بِمُرْصَاتِنَا أَنْ يَمَسُّهُ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْفَعُ عَنْتَهُ اللَّهُ إِذَا تَوَلَّى ﴿١١﴾﴾ [الليل: ١١]، ولهذا قال: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

[٥٠٥١] وفي الحديث الصحيح: «يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُغَمَسُ فِي النَّارِ غَمَسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب. «أَي: مَا كَانَ شَيْئًا كَانَ»^(١). ولهذا كان عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يتمثل بهذا البيت:

كَأَنَّكَ لَمْ تُؤْتَرْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً إِذَا أَتَتْ أَذْرَجْتَ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله في خلقه: أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ وَبَعَثَهُ الرُّسُلَ، وَقَامَ الْحُجُجَ عَلَيْهِمْ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْنٍ إِلَّا لَمَّا مُنِذِرُونَهُ ﴿١٥﴾﴾ وَذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى بَعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي إِيَّاهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ إِنَّا إِنَّا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصاص: ٥٩].

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٦﴾﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٧﴾﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد: أَنَّهُ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدَ مِنَ اللَّهِ، ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٦﴾﴾. ثم ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ، أَي: لَيْسَ هُوَ مِنْ بَغْيَتِهِمْ وَلَا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، لِأَنَّهُ مِنْ سَجَايَاهُمُ الْفَسَادَ وَاضْلَالُ الْعِبَادِ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنُورٌ وَهُدًى وَبِرْهَانٌ عَظِيمٌ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ

الشياطين منافاة عظيمة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ جَبَلًا أَزْكَىٰ خَشْيَةً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتاديبه لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت خرساً شديداً وشهياً في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلاً يشتهب الأمر. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾، كما قال تعالى مخبراً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَئِتَةً خَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانِ يَحْذَرُ لَكُمْ شَيْهَاتٍ وَرَسُولًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرْادَ بِهِمْ دُخَانًا رَّشَدًا ﴿١٠﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (١١) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَعَمَّلُونَ ﴿١٤﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَرِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٥﴾ الَّذِي يَرِيكَ جِئْنَ نَقُومُ ﴿١٦﴾ وَتَقَبَّلْكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى أمراً لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدينين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل. وأمره أن يلين جانباً لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين. ومن عصاه من خلق الله كائناتاً من كان فليتبوأ منعه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَعَمَّلُونَ﴾ (١٤). وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿إِنْذِرْ قَوْمًا مَّا أَنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (١٥) [يس: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْذِرْ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ يَهُودَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُبْعَثُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنْشِرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِرْ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مریم: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يَنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧].

[٥٠٥٢] وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» (١). وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها.

[٥٠٥٣] الحديث الأول، قال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا عبد الله بن نعيم، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله - عز وجل -: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١٢)، أتى النبي - ﷺ - الصفا فصعد عليه، ثم نادى: يا صباحاه. فاجتمع الناس إليه بين رجل يحيى إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله - ﷺ -: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً يسفح هذا الجبل تريد أن تغيّر عليكم، صدقتموني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟! وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ لَهُمْ وَتَبَّ﴾ (١) [٢]. ورواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي، من طرق، عن الأعمش، به.

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ٢٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٢٥ و ٤٩٧١ ومسلم ٢٠٨ والترمذي ٣٣٦٣ والنسائي في «الكبرى» ١٠٨١٩ وأحمد ٢٨١/١ و ٣٠٧ وابن حبان ٦٥٥.

[٥٠٥٤] الحديث الثاني، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، قام رسول الله ﷺ فقال: يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم^(١). انفرد بإخراجه مسلم.

[٥٠٥٥] الحديث الثالث، قال أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثنا عبد الملك بن عمير، عن موسى بن طلحة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤)، دعا رسول الله ﷺ - قريشاً، فَعَمَّ وَخَصَّ، فقال: يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار. فإني - والله - ما أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رجماً سابلها بيلالها^(٢). وزواه مسلم والترمذي، من حديث عبد الملك بن عمير، به، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه. ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة، مُرسَلاً، لم يذكر فيه أبا هريرة. والموصول هو الصحيح. وأخرجه في الصحيحين من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة.

[٥٠٥٦] وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد، حدثنا محمد - يعني ابن إسحاق - عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ -: «يا بني عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله. يا صفية عمة رسول الله. ويا فاطمة بنت رسول الله، اشتريا أنفسكما من الله، لا أغني عنكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما^(٣). تفرد به من هذا الوجه. وتفرد به أيضاً، عن معاوية، عن زائدة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - بنحوه، ورواه أيضاً عن حسن، حدثنا ابن لهيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً.

[٥٠٥٧] وقال أبو يغلى: حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا ضمام بن إسماعيل، عن موسى بن وزدان، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: «يا بني قُصَيٍّ، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أنا النذير والموت المغير. والساعة الموعدة^(٤)».

[٥٠٥٨] الحديث الرابع، قال أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا التيمي، عن أبي عثمان، عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤)، صعد رسول الله ﷺ - رُضْمَةً من جبَل، على أعلاها حجر فجعل يُنادي: يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو، فذهب يَرْبُأُ أهله، يخشى أن يسبقوه، فجعل يُنادي ويهتف: يا صَبَاحَاهُ^(٥). ورواه مسلم

- (١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٥ والترمذي ٣١٨٤ والنسائي ٢٥٠/٦ وأحمد ١٨٧/٦ وابن حبان ٦٥٤٨.
- (٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٤ والترمذي ٣١٨٥ والنسائي ٢٤٨/٦ وأحمد ٣٣٣/٢ وأخرجه البخاري ٢٧٥٣ و٤٧٧١ ومسلم ٢٠٦ والنسائي ٢٤٨/٦ وابن حبان ٦٥٤٩ من وجه آخر من حديث أبي هريرة بنحوه.
- (٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٢٧ ومسلم ٢٠٦ ح ٣٥٢ وأحمد ٣٩٨/٢ و٣٥٠.
- (٤) ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٦١٤٩ وفيه سويد بن سعيد، وهو ضعيف، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٢٧/١٠ ورجاله رجال الصحيح، غير ضمام بن إسماعيل، وهو ثقة اهـ والصواب أنه ضعيف بهذا الإسناد واللفظ.
- (٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٧ والنسائي في «الكبرى» ١٠٨١٥ و١١٣٧٩ وأحمد ٦٠/٥ وقوله: رُضْمَةٌ: أي صخور بعضها على بعض. ويربأ أهله: ينذرهم من مكان عال.

والنسائي، من حديث سُلَيْمَانَ بْنِ طَرْخَانَ التَّيْمِيِّ، عن أَبِي عَثْمَانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلِّ الثُّهَيْدِيِّ، عن قَبِيصَةَ وَزْهَيْرِ بْنِ عَمْرِو الْهَلَالِيِّ، به.

[٥٠٥٩] الحديث الخامس، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن الأعمش، عن المنهال، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن علي - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ١٥، جمع النبي - ﷺ - من أهل بيته، فاجتمع ثلاثون. فأكلوا وشربوا قال: وقال لهم: مَنْ يَضْمَنُ عَنِّي دِينِي وَمَوَاعِيدِي، ويكونُ معي في الجنة، ويكونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟ فقال رجل - لم يُسمَّه شريك -: يا رسول الله، أنت كنت بحراً، من يقوم بهذا؟! قال: ثم قال الآخر، قال: فَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا^(١).

[٥٠٦٠] طريق أخرى بأبسط من هذا السياق: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن عثمان بن المغيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجذ، عن علي - رضي الله عنه - قال: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أو دعا رسول الله - ﷺ - بني عبد المطلب، وهم زَهْطٌ، كلهم يأكل الجَذْعَةَ ويشرب الفَرْقَ، قال: فَصَنَعَ لَهُمْ مَذْأً مِنْ طَعَامٍ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمَسَّ، ثم دعا بَعْمَرَ فَشَرِبُوا حَتَّى رَوُّوا، وبقي الشراب كأنه لم يُمَسَّ - أو: لم يُشْرَبْ - وقال: يا بني عبد المطلب، إِنِّي بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ عَامَةً، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَأَيْتُمْ، فَأَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي؟ قال: فلم يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ. قال: فَكُفْتُ إِلَيْهِ - وَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ - قال: فقال: اجلس. ثم قال ثلاث مرات، كُلُّ ذَلِكَ أَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ لِي: اجلس. حتى كان في الثالثة ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى يَدِي^(٢).

[٥٠٦١] طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق، بزياداتٍ آخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عن محمد بن إسحاق قال: فحدثني من سَمِعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نُوْفَلٍ - وَاسْتَكْتَمَنِي اسْمُهُ - عن ابن عَبَّاسٍ، عن علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله - ﷺ -: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ١٥، وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِإِنِّ أُنْكَحَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٥، قال رسول الله - ﷺ -: عَرَفْتُ أَنِّي إِنْ بَادَأْتُ بِهَا قَوْمِي رَأَيْتُ مِنْهُمْ مَا أَكْرَهُ، فَصَمْتُ. فَجَاءَنِي جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ عَذَّبَكَ رَبُّكَ. قال علي - رضي الله عنه -: قَدْ عَانَيْتُ فَقَالَ: يَا عَلِي، إِنْ اللَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ، فَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ بَادَأْتُهُمْ بِذَلِكَ رَأَيْتُ مِنْهُمْ مَا أَكْرَهُ،

(١) ضعيف جداً. أخرجه أحمد ٨٨٣ «بتزقيم أحمد شاكر» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤٦٦٥: إسناده جيد. قلت: بل فيه شريك، روى له مسلم متابعة، وهو سيء الحفظ. وفيه المنهال بن عمرو فيه كلام. وشيخه عباد بن عبد الله الأسدي. جاء في الميزان ٤١٢٦: قال البخاري: فيه نظر، وقال ابن المديني: ضعيف وذكره ابن حبان في الثقات. وذكر الذهبي له حديث «أنا الصديق الأكبر» فقال الذهبي: هذا كذب على علي رضي الله عنه، وفيه عننة الأعمش، فالإسناد ظلمات.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ١٣٧١، ١٥٩/١ من حديث علي، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤١٠٩: رجاله ثقات اهـ وفي ذلك نظر، فإن ربيعة، وإن وثقه ابن حبان، فقد قال عنه الذهبي في الميزان ٢٧٥٨: لا يكاد يُعرف. وعنه أبو صادق بخبر منكر فيه «علي أخي، ووارثي». وفيه عثمان بن مغيرة، وهو ثقة، لكن قال الذهبي في الميزان: ولأبي عوانة عنه ما ينكر اهـ وهذا الخبر غريب. وأغرب ما فيه لفظ «أيكم يبايعني على أن يكون أخي، وصاحبي» فإن رسول الله ﷺ ما كان يبايع الناس على الأخوة والصحة. وقوله: الجذعة: في السنة الثانية من العمر من الغنم والعزى. والفَرْقُ: إناة يَسَعُ ثلاثة أضوع. والقمر: قَدَحٌ صغير.

فَصَمْتُ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَنِي جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، إِنَّ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ عَذَبَكَ رَبُّكَ. فَاصْنَعْ لَنَا يَا عَلِيٌّ شَاةً عَلَى صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَأَعِدْ لَنَا عُسًّا^(١) لَيْنَ، ثُمَّ اجْمَعْ لِي بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ. فَفَعَلْتُ فَاجْتَمَعُوا لَهُ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، يَزِيدُونَ رَجُلًا أَوْ يَنْقُصُونَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَعْمَامُهُ، أَبُو طَالِبٍ، وَحَمْزَةُ، وَالْعَبَّاسُ، وَأَبُو لَهَبٍ الْكَافِرُ الْخَبِيثُ. فَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ تِلْكَ الْجَفْتَةَ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنْهَا جَذِيَةً، فَشَقَّهَا بِأَسْنَانِهِ ثُمَّ رَمَى بِهَا فِي تَوَاجِيحِهَا، وَقَالَ: كُلُّوا بِسْمِ اللَّهِ. فَأَكَلَ الْقَوْمُ حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ مَا يُرَى إِلَّا أَثَارُ أَصَابِعِهِمْ. وَاللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَيَأْكُلُ مِثْلَهَا. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: اسْقِهِمْ يَا عَلِيٌّ. فَجَنَّتْ بِذَلِكَ الْقَعْبَ فَشَرَبُوا مِنْهُ حَتَّى نَهَلُوا جَمِيعًا، وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَيَشْرَبُ مِثْلَهُ. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يَكَلِّمَهُمْ، بَدَّرَهُ أَبُو لَهَبٍ إِلَى الْكَلَامِ فَقَالَ: لَهْدُ مَا سَحَرَكُمُ صَاحِبُكُمْ. فَتَفَرَّقُوا وَلَمْ يَكَلِّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: يَا عَلِيٌّ، عُذْ لَنَا بِمِثْلِ الَّذِي كُنْتَ صَنَعْتَ بِالْأَمْسِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ بَدَّرَنِي إِلَى مَا سَمِعْتَ قَبْلَ أَنْ أَكَلِمَ الْقَوْمَ. فَفَعَلْتُ، ثُمَّ جَمَعْتُهُمْ لَهُ، فَصَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ فَأَكَلُوا حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَيَأْكُلُ مِثْلَهَا ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: اسْقِهِمْ يَا عَلِيٌّ. فَجَنَّتْ بِذَلِكَ الْقَعْبَ فَشَرَبُوا مِنْهُ حَتَّى نَهَلُوا جَمِيعًا، وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَيَشْرَبُ مِثْلَهُ. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يَكَلِّمَهُمْ بَدَّرَهُ أَبُو لَهَبٍ بِالْكَلامِ فَقَالَ: لَهْدُ مَا سَحَرَكُمُ صَاحِبُكُمْ. فَتَفَرَّقُوا وَلَمْ يَكَلِّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: يَا عَلِيٌّ، عُذْ لَنَا بِمِثْلِ الَّذِي كُنْتَ صَنَعْتَ لَنَا بِالْأَمْسِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ بَدَّرَنِي إِلَى مَا سَمِعْتَ قَبْلَ أَنْ أَكَلِمَ الْقَوْمَ. فَفَعَلْتُ، ثُمَّ جَمَعْتُهُمْ لَهُ فَصَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ، فَأَكَلُوا حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ، ثُمَّ سَقَيْتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْقَعْبِ حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ، وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَيَأْكُلُ مِثْلَهَا وَيَشْرَبُ مِثْلَهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، إِنِّي - وَاللَّهِ - مَا أَعْلَمُ شَابًا مِنَ الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٢). قَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ: بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ إِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ عَبْدِ الْغَفَّارِ بْنِ الْقَاسِمِ أَبِي مَرْيَمَ، عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ.

[٥٠٦٢] وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ، عَنْ ابْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ سَلَمَةَ، عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الْغَفَّارِ ابْنِ الْقَاسِمِ، عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»: «وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيْكُمْ يُؤَاظِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي، وَكَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: فَاحْجِمِ الْقَوْمَ عَنْهَا جَمِيعًا، وَقُلْتُ - وَإِنِّي لِأَحْدَثُهُمْ سِنًا، وَأَرْمَضُهُمْ عَيْنًا، وَأَعْظَمُهُمْ بَطْنًا، وَأَحْشَرُهُمْ سَاقًا -: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَكُونُ وَزِيرُكَ عَلَيْهِ. فَأَخَذَ يَزُقُّنِي ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا أَخِي، وَكَذَا وَكَذَا، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا. قَالَ: فَقَامَ الْقَوْمُ يَضْحَكُونَ وَيَقُولُونَ لِأَبِي طَالِبٍ: قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْمَعَ لِابْنِكَ وَتُطِيعَ»^(٣). تَقَرَّرَ بِهَذَا السِّيَاقِ عَبْدِ الْغَفَّارِ بْنِ الْقَاسِمِ أَبُو مَرْيَمَ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ كَذَّابٌ شَيْعِي، اتَّهَمَهُ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ وَغَيْرُهُ بِوَضْعِ الْحَدِيثِ، وَضَعْفِهِ الْأَثْمَةَ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

(١) الشُّس: الآتية الكبيرة.

(٢) ضَعِيفٌ جَدًّا، وَالتَّنْ مَنكَرٌ هَذَا اللَّفْظُ. أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَالِ» ١٧٨/٢ - ١٨٠، وَفِيهِ رَاوٍ لَمْ يَسْمَعْ، وَابْنُ إِسْحَاقَ لَمْ يَسْمَعْ لَهُ لِأَنَّهُ مَتَّحٌ بِالْكَذِبِ. وَقَدْ ذَكَرَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ - أَحَدُ الرُّوَاةِ - أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ رَوَاهُ عَنْ عَبْدِ الْغَفَّارِ بْنِ الْقَاسِمِ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ مَتَّحٌ بِالْكَذِبِ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ. وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ الطَّبْرِيَّ أَخْرَجَهُ ٢٦٨٠٦ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ الْغَفَّارِ عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بِهِ مَطْوَلًا.

(٣) إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ جَدًّا، انْظُرْ مَا قَبْلَهُ.

[٥٠٦٣] طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة الحارثي، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث قال: قال علي - رضي الله عنه - لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤)، قال لي رسول الله - ﷺ -: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبناً. قال: ففعلت، ثم قال: ادع بني هاشم. قال: فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل - أو: أربعون ورجل - قال: وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها. قال: فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله - ﷺ - من ذروتها ثم قال: كُلُوا فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَهِيَ كَهَيْئَتِهَا لَمْ يَزَزُوا مِنْهَا إِلَّا يَسِيراً، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُهُمْ بِالْإِنَاءِ فَشَرَبُوا حَتَّى رَوُوا. قَالَ: وَفَضَّلَ فَضَّلَ، فَلَمَّا قَرَعُوا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَبَدَرُوهُ الْكَلَامَ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ فِي السِّحْرِ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، ثُمَّ قَالَ: اصْنَعْ لِي رَجُلَ شَاةٍ بِصَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، فَصَنَعْتُ، قَالَ: فَلَمَّا أَكَلُوا وَشَرَبُوا قَالَ: فَبَدَرُوهُ فَقَالُوا مِثْلَ مَقَالَتِهِمُ الْأُولَى، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، ثُمَّ قَالَ: اصْنَعْ لِي رَجُلَ شَاةٍ بِصَاعٍ مِنْ طَعَامٍ. فَصَنَعْتُ، قَالَ: فَجَمَعْتُهُمْ، فَلَمَّا أَكَلُوا وَشَرَبُوا بَدَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْكَلَامَ فَقَالَ: أَيَكُمُ يَقْضِي عَنِّي دَيْنِي وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟ قَالَ: فَسَكَتُوا وَسَكَتَ الْعَبَّاسُ خَشْيَةً أَنْ يُحِيطَ ذَلِكَ بِمَالِهِ، وَسَكَتُ أَنَا لَيْسَ الْعَبَّاسُ. ثُمَّ قَالَهَا مَرَّةً أُخْرَى فَسَكَتَ الْعَبَّاسُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: أَأَنْتَ. قَالَ: وَإِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَسْأَلُهُمْ هَيْئَةً، وَإِنِّي لَأَعْمَشُ الْعَيْنَيْنِ، ضَخْمُ الْبَطْنِ، حَمَشُ السَّاقَيْنِ^(١). فهذه طرق متعددة^(٢) لهذا الحديث عن علي رضي الله عنه. ومعنى سؤاله - ﷺ - لأعمامه وأولادهم أَنْ يَقْضُوا عَنْهُ دَيْنَهُ، وَيَخْلُقُوهُ فِي أَهْلِهِ، يَعْنِي إِنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَهُ خَشْيَ إِذَا قَامَ بِأَعْبَاءِ الْإِنْذَارِ أَنْ يَقْتُلَ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فعند ذلك آمَنَ. وكان أولاً يُحَرِّسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. ولم يكن في بني هاشم إِذْ ذَاكَ أَشَدَّ إِيمَانًا وَإِقَانًا وَتَصَدِيقًا لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ عَلِيٍّ - رضي الله عنه - فلهذا بَدَرَهُمْ إِلَى التَّزَامِ مَا طَلَبَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ثُمَّ كَانَ بَعْدَ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - دَعَاؤُهُ - ﷺ - النَّاسَ جَهْرَةً عَلَى الصَّفَا، وَإِنْذَارَهُ لِبَطُونِ قُرَيْشٍ عَمُومًا وَخُصُوصًا، حَتَّى سَمِعَ مِنْ سَمْعٍ مِنْ أَعْمَامِهِ وَعَمَّاتِهِ وَبَنَاتِهِ، لِيُنَبِّهَ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى، أَي: إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

[٥٠٦٤] وقد رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الدَّمَشَقِيِّ - غَيْرُ مَنْسُوبٍ - مِنْ طَرِيقِ عَمْرِو بْنِ سُمْرَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَوْقَةَ، عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ الدَّمَشَقِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُحَدِّثُ النَّاسَ وَيُفْتِيهِمْ، وَوَلَدَهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ جُلُوسٌ فِي جَانِبِ الْمَسْجِدِ يَتَحَدَّثُونَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا بَالُ النَّاسِ يَزْغَبُونَ فِيمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَهْلُ بَيْتِكَ جُلُوسٌ لَاهِينَ؟ فَقَالَ: لِأَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: أَزْهَدُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا الْأَنْبِيَاءُ، وَأَشْدُهُمْ عَلَيْهِمُ الْأَقْرَبُونَ. وَذَلِكَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤)، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ أَهْلُهُ حَتَّى يَفَارِقَهُمْ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾ (٣).

(١) إسناده ضعيف جداً، وعلمه عبد الله بن عبد القدوس، جاء في «الميزان» ٤٤٣١: روى عن الأعمش وغيره قال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي وغيره: ليس بثقة. وقال الدارقطني: ضعيف اهـ.

(٢) تعدد هذه الطرق ليس بشيء، فإن شدة ضعف رجالها، يجعلها لا تنجبر بمجموعها، والله تعالى أعلم.

(٣) ضعيف. قال الذهبي في «الميزان» ٥٣٠٥: عبد الواحد عن أبي الدرداء، لا يدرى من ذا، ولا حدث عنه سوى =

وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الرَّعِيذِ الرَّجِيمِ﴾ (٢٢٧)، أي: في جميع أمورك، فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومعل كلمتك. وقوله: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٢٨)، أي: هو مُعْتَن بك، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، قال ابن عباس: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٢٨)، يعني: إلى الصلاة. وقال عكرمة: يَرَى قيامه وركوعه وسجوده. وقال الحسن: الذي يراك حين تقوم إذا صليت وحدك. وقال الضحاك: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٢٨)، أي: من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة: الذي يراك قائماً وجالساً وعلى حالاتك.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ (٢٢٩)، قال قتادة: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٢٨) وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ، قال: في الصلاة، يَرَاك وحدك ويراك في الجمع. وهذا قول عكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن البصري. وقال مجاهد: كان رسول الله - ﷺ - يرى من خلفه كما يرى من أمامه.

[٥٠٦٥] ويشهد لهذا ما صح في الحديث: «سُؤُوا صُفُوفَكُمْ فإني أَرَأَيْكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي»^(١). وروى البزار وابن أبي حاتم، من طريقين، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تَقَلَّبَهُ من صُلب نَبِيِّ إلى صُلب نَبِيٍّ، حتى أخرجه نَبِيًّا. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٣٠)، أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُؤَيَّدُونَهُمْ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]... الآية.

﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٣١) تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٣٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا (٢٣٣) وَالشُّعْرَاءَ يَلْبَعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٣٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٣٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٣٦) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٣٧)

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقاً، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رُئي من الجن، فنزه الله - سبحانه - جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم عظيم، وأنه ليس من قبيل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما يَتَنَزَّلُونَ على ما من يشاكلهم ويُشابههم من الكُفَّان الكذبة. ولهذا قال الله: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ﴾، أي: أخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٣١) تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٣٢)، أي: كَذُوبٍ في قوله، وهو الأفَّاك الأثيم، أي: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكُفَّان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾، أي: يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ من السماء، فَيَسْمَعُونَ الكلمة من علم الغيب، فَيَزِيدُونَ معها مئة كذبة، ثم يُلْقُونَهَا إلى أوليائهم من الإنس فَيَتَحَدَّثُونَ بها، فَيَصْدَقُهُم النَّاسُ في كُلِّ مَا قَالُوهُ، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سُمِعَت من السماء، كما صَحَّ بذلك الحديث.

= محمد بن سوقة اه وفيه عمرو بن سمره لم أجد من ترجمه. وورد من حديث جابر أخرجه ابن عدي ٣٦٨/٦ وأعله بأحد بن المنذر وقد كذبه الفلاس.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧١٨ و٧٢٥ ومسلم ٤٣٤ والنسائي ٩١/٢ وأحمد ٢٨٦/٣ وأبو يعلى ٣٢٩١ وابن حبان ٢١٧٣ من حديث أنس.

[٥٠٦٦] كما زَوَّاهُ الْبُخَارِيُّ، من حديث الزُّهْرِيِّ: أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عُرْوَةَ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ: قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: سَأَلَ نَاسُ النَّبِيِّ - ﷺ - عَنِ الْكُهَّانِ، فَقَالَ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ بِكُنْهٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطُفُهَا الْجَنِّي فَيَقْرُؤُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلُطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِثْلِ كَذِبِهِ^(١).

[٥٠٦٧] وقال البخاري أيضاً: حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سَفِيَانٌ، حَدَّثَنَا عَمْرُو قَالَ: سَمِعْتُ عِكْرَمَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقِفُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرْقِفُو السَّمْعِ - هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سَفِيَانٌ بِيَدِهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ - أَوْ: الْكَاهِنِ. فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا لَقَّاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبِهِ. فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا؟ فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ»^(٢). انفرد به البخاري. وروى مُسْلِمٌ من حديث الزُّهْرِيِّ، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجالٍ من الأنصار قريباً من هذا. وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ: «حَقٌّ لِّمَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ»... الآية، إن شاء الله تعالى.

[٥٠٦٨] وقال البخاري. وقال الليث: حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ، عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ: أَنَا أَبُو الْأَسْوَدِ أَخْبَرَهُ، عن عُرْوَةَ، عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عن النبي - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «الْمَلَائِكَةُ تَتَحَدَّثُ فِي الْعَنَانِ - وَالْعَنَانُ: الْغَمَامُ - بِالْأَمْرِ فِي الْأَرْضِ، فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ، فَتَقْرُؤُهَا فِي أُذُنِ الْكَاهِنِ كَمَا تَقْرَأُ الْقَاوُورَةُ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبِهِ»^(٣). ورواه البخاري في موضع آخر من كتاب «بدء الخلق» عن سعيد ابن أبي مَرْزِيمٍ، عن الليث، عن عبد الله بن أبي جَعْفَرٍ، عن أَبِي الْأَسْوَدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عن عُرْوَةَ، عن عائشة، بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾^(٤)، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضلَالُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. وكذا قال مجاهد - رحمه الله - وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وقال عِكْرَمَةُ: كَانَ الشَّاعِرَانِ يَتَّهَجَايَانِ، فَيَنْتَصِرُ لِهَذَا فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ، وَلِهَذَا فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالشَّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾^(٥).

[٥٠٦٩] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عن ابن الهاد، عن يَحْيَى - مَوْلَى مُصْعَبِ ابْنِ الزُّبَيْرِ - عن أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِالْعَرَجِ^(٦) إِذْ عَرَضَ شَاعِرٌ يُنْشِدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: خُذُوا الشَّيْطَانَ - أَوْ: أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ - لِأَنَّهُ يَمْتَلِئُ جَوْفَ أَحَدِكُمْ قَبْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا^(٧).

(١) صحیح. أخرجه البخاري ٥٧٦٢ و ٦٢١٣ ومسلم ٢٢٢٨ وأحمد ٨٧/٦ وابن حبان ٦١٣٦.

(٢) صحیح. أخرجه البخاري ٤٧٠١ وأبو داود ٣٩٨٩ والترمذي ٣٢٢٣ وابن ماجه ١٩٤ وابن حبان ٣٦.

(٣) صحیح. أخرجه البخاري ٣٢٨٨.

(٤) العرج: هي قرية جامعة من عمل الفرع على نحو ثمانية وسبعين ميلاً من المدينة.

(٥) صحیح. أخرجه أحمد ٨/٣ و ٤١ ومسلم ٢٢٥٩.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٢٢٥)، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يَخُوضُونَ. وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام. وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسن البصري: قد - والله - رأينا أوديتهم التي يَهِيمُونَ فيها، مَرَّةً في شَمْعَةِ فلان، ومرة في مَذْحَةِ فلان. وقال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطل، ويدمهم قومًا بباطل. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦)، قال العوفي، عن ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تَهَاجَا، وكان مع كل واحد منهما غُوَاةٌ من قومه - وهم السفهاء - فقال الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه. وهذا الذي قاله ابن عباس - رضي الله عنه - هو الواقع في نفس الأمر، فإن الشعراء يتَّبِعُحُونَ بأقوال وأفعال لم تصدر منهم، ولا عنهم، فَيَتَكَثَّرُونَ بما ليس لهم. ولهذا اختلف العلماء - رحمهم الله - فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يُوجِبُ حَدًّا: هل يُقَامُ عليه بهذا الاعتراف أم لا؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون، على قولين. وقد ذَكَرَ محمد بن إسحاق، ومحمد بن سعد في الطبقات، والزبير بن بَكَار في كتاب الفكاهة: أنَّ أمير المؤمنين عَمَرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - استعمل النعمان بن عَدِي بن نضلة على «ميسان» - من أرض البصرة - وكان يقول الشعر، فقال:

الْأَهْلُ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنْ حَلِيلَهَا	بِمَيْسَانَ، يُسْقَى فِي رُجَاجٍ وَحَنَمٍ ^(١)
إِذَا شِئْتُ غَثَّيْ دِهَاقِينَ قَرْيَةٍ	وَرَقَاصَةً تَجْدُو عَلَى كُلِّ مَنِيَمٍ ^(٢)
فَإِنْ كُنْتُ نَذْمَانِي قَبَالَكُتْبَرِ اسْقِنِي	وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَضْعَرِ الْمُتَنَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُووَهُ	تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ ^(٣)

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين قال: إي والله، إنه ليسؤني ذلك، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته. وكتب إليه عمر: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمْدُكَ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْبَلِيبِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْكَسْبِ (٣) [غافر: ١ - ٣]، أما بعد فقد بلغني قولك:

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُووَهُ تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ

وإني والله إنه ليسؤني وقد عزلتك. فلما قَدِمَ على عَمَرَ بَكَتَهُ بهذا الشعر، فقال: والله - يا أمير المؤمنين - ما شَرِبْتُهَا قَطُّ، وما ذاك الشَّعْرُ إِلَّا شَيْءٌ طَفَحَ عَلَى لِسَانِي. فقال عَمَرُ: اظنُّ ذلك، ولكن والله لا تَعْمَلُ لي على عَمَلٍ أَبَدًا وقد قُلْتَ ما قُلْتَ! فلم يذكر أنه حَذَهَ على الشراب، وقد ضَمَّنَهُ شعره، لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولكنه دَمَّه عمر - رضي الله عنه - ولامه على ذلك وعزله به.

[٥٠٧٠] ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتليء جوف أحدكم قبحاً يريه خير له من أن يمتليء شعراً»^(٤).

والمراد من هذا أنَّ الرسول الله - ﷺ - الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر، لأنَّ حاله مناف

(١) الحتم: الجرة الخضراء.

(٢) الدُّهْقَان: رئيس القرية. وتَجْدُو: تنتصب. والنَّسَم: طرف خف البعير، وهنا استعارة لأطراف أصابع قدمي الرقاصة.

(٣) الجَوْسِق: القصر.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٥٨ والترمذي ٢٨٥٦ وابن ماجه ٣٧٦٠ وأحمد ١٧٤/١ و١٧٧ وأبو يعلى ٧٩٧ من حديث سعد بن أبي وقاص. وورى الفتح جسده: أفسده.

لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (١٦١) [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٦٢) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (١٦٣) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (١٦٤) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْغَايِبِ (١٦٥) [الحاقة: ٤٠ - ٤٣]. وهكذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَلَهُمْ لَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْغَايِبِ﴾ (١٦٦) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٦٧) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٦٨) بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٦٩) . . . إلى أن قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (١٧٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (١٧١) إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ (١٧٢) ، إلى أن قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ (١٧٣) نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ ثَاقِبٍ (١٧٤) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَذِبُونَ (١٧٥) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ (١٧٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (١٧٧) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (١٧٨) . وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ .

[٥٠٧١] قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي الحسن سالم البراد مولى تميم الداري قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ (١٧٦)، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رَوَاحَةَ، وكعب بن مالك إلى رسول الله - ﷺ - وهم يَبْكُونَ فقالوا: قد عَلِمَ الله حين أنزل هذه الآية أَنَا شعراء. قَتَلَا النَّبِيَّ - ﷺ -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: أنتم، ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، قال: أنتم، ﴿وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾، قال: أنتم^(١). رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من رواية ابن إسحاق.

[٥٠٧٢] وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسن مولى بني نوفل: أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحَةَ أتيا رسول الله - ﷺ - حين نزلت ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ (١٧٦)، يبكيان، فقال رسول الله - ﷺ - وهو يقرؤها عليهما: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ (١٧٦) حتى بَلَغَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: أنتم^(٢).

[٥٠٧٣] وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن عروة قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ (١٧٦)، إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، قال عبد الله بن رَوَاحَةَ: يا رسول الله قد علم الله أَلَيَّ منهم. فانزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾^(٣). وهكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم، ولا شك أنه استثناء، ولكن هذه السورة مكينة، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية في شعراء الأنصار؟ في ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتدُّ عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار، وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان مُتَلَبِّساً من شعراء الجاهلية بِذَمِّ الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجع وأقلع، وعمل صالحاً، وذكر الله كثيراً في مُقَابَلَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، فإنَّ الحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ، وامتدَّح الإسلام وأهله في مُقَابَلَةِ مَا كَانَ يَذْمُهُ، كما قال عبد الله ابن الزُّبَيْرِ حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَفْرِ وَمِنْ مَالٍ مِثْلَهُ مَثْبُورُ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٨٤٨ عن سالم البراد، وهو مرسل، وفيه عنعنة ابن إسحق، والمتن غريب، فالسورة مكية، والخبر مدني.

(٢) ضعيف. هو مرسل، وانظر ما بعده.

(٣) هو مرسل أيضاً.

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي - ﷺ - وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، وكان يمدح رسول الله - ﷺ - بعد ما كان يهجوه، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه.

[٥٠٧٤] وهكذا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ بْنَ حَرْبٍ لَمَّا أَسْلَمَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ ثَلَاثٌ أَعْطَيْتَهُنَّ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَعَاوِيَةُ تَجْعَلُهُ كَاتِباً بَيْنَ يَدَيْكَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَتُؤَمِّرُنِي حَتَّى أَقَاتِلَ الْكُفَّارَ، كَمَا كُنْتُ أَقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: نَعَمْ. وَذَكَرَ الثَّالِثَةَ^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، قِيلَ: مَعْنَاهُ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ. وَقِيلَ: فِي شِعْرِهِمْ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُكْتَفٍ لِمَا سَبَقَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَزِيدُونَ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

[٥٠٧٥] وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ لِحَسَنَ: «أُجْهِمُ - أَوْ قَالَ: هَاجِمُ - جَبْرِيلُ مَعَكَ»^(٢).

[٥٠٧٦] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -: إِنْ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ أَنْزَلَ فِي الشَّعْرِ مَا أَنْزَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بَسِيفَهُ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضِجُ الثَّبَلِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَقَدَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٤) [غافر: ٥٢].

[٥٠٧٦ م] وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّلْمَ، فَإِنَّ الظَّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، يَعْنِي مِنَ الشَّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا إِيَّاسُ بْنُ أَبِي تَمِيمَةَ، قَالَ: حَضَرْتُ الْحَسَنَ وَمُرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةِ نَصْرَانِيٍّ، فَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رِبَّاحٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُخْرَزٍ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ بَكَى حَتَّى أَقُولَ: قَدْ ائْتَدَقَ قَضِيبُ زُورِهِ^(٦): ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنِي ابْنُ سُرَيْجٍ الْإِسْكَدَرَانِي، عَنْ بَعْضِ الْمَشَيْخَةِ: أَنَّهُمْ كَانُوا بِأَرْضِ الرُّومِ، فَبَيْنَمَا هُمْ لَيْلَةً عَلَى نَارٍ يَسْتَوُونَ عَلَيْهَا - أَوْ: يَضْطَلُّونَ - إِذَا بِرُكْبَانٍ قَدْ أَقْبَلُوا، فَقَامُوا إِلَيْهِمْ، فَإِذَا فَضَالَةٌ بَنُ غُبَيْدٍ فِيهِمْ، فَأَنْزَلُوهُ فَجَلَسَ مَعَهُمْ - قَالَ: وَصَاحَبْتُ لَنَا قَائِمَ يُصَلِّي - قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، قَالَ فَضَالَةُ بْنُ غُبَيْدٍ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخْرَبُونَ الْبَيْتَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ مَكَّةَ. وَقِيلَ: الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَةٌ فِي كُلِّ ظَالِمٍ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ٢٥٠١.

(٢) تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ الْآيَةِ: ٨٧.

(٣) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٣٨٧/٦ وَابْنُ حِبَّانَ ٥٧٨٦ وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا.

(٤) تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ طه عِنْدَ الْآيَةِ: ١١.

(٥) الزُّورُ: وَسَطُ الصَّدْرِ.

[٥٠٧٧] كما قال ابنُ أبي حاتم: ذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي: حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سَعيد التَّهْدِي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المُجَبَّر، حدثنا هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كَتَبَ أَبِي فِي وَصِيَّتِهِ سَطْرَيْنِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قَحَافَةَ، عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنْيَا، حِينَ يُؤْمِنُ الْكَافِرُ، وَيُنْتَهِي الْفَاجِرُ، وَيَصْدُقُ الْكَاذِبُ: أَنِّي اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنْ يَعِدْ فَذَاكَ ظَنِّي بِهِ، وَرَجَائِي فِيهِ، وَإِنْ يَجُرْ وَيُبَدِّلْ فَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾»^(١).

آخر تفسير سورة الشعراء، والحمد لله رب العالمين

(١) موقوف ضعيف. فيه محمد بن عبد الرحمن العمري، وهو ضعيف.

سُورَةُ النَّامِلِ

ترتيبها
٢٧آياتها
١٣

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَمْ أَعْمَلْهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَوَاءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَلِلَّهِ لُغْلُغُ الْفُرْقَانِ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

قد تقدم الكلام في «سورة البقرة» على الحُرُوفِ الْمُقَطَّعةِ في أوائل السور. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾، أي: هذه آيات «الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ»، أي: بَيِّن واضح، «هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾»، أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقته، وعَمِلَ بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء عن الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَى وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿يُنشِئُ بِهِ السَّمْعَوتِ وَيُنْزِلُ بِهِ قَوْلًا لَنَا﴾ [مریم: ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: يُكذِّبون بها، ويستبدون وقوعها. ﴿رَبَّنَا لَمْ أَعْمَلْهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: حَسَنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، ومَدَدْنَا لَهُمْ فِي غَيْبِهِمْ فَهُمْ يَتَّبِعُونَ فِي ضَلَالِهِمْ. وكان هذا جزاء على ما كَذَّبُوا به مِنَ الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا آفَاقَهُمْ وَأَنصَرَفَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ سَاقُونَ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَوَاءُ الْعَذَابِ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾، أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المَخْشَر. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ لُغْلُغُ الْفُرْقَانِ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾، أي: يا مُحَمَّد، قال قتادة: ﴿لُغْلُغُ﴾، أي: لَتَأْخُذُ «الْفُرْقَانِ» مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، أي: من عند حَكِيمٍ عَلِيمٍ، أي: حَكِيمٍ في أوامره ونواحيه، عليم بالأمور جليلها وحقيها، فخبيره هو الصدق المحض، وحُكْمُهُ هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيَكُمْ بِشَيْءٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ

﴿١٧﴾ إِنْ مِّنْ ظَلَمٍ فَرُبَّمَا بِدَلٍّ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَدًّا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سِتْرٍ مَّائِينَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَافِرًا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَنَاهَا أَنفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى لرسوله - ﷺ - مَذْكُرًا لَهُ ما كان من أمر موسى، كيف اصطفاه الله وكلمه، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فَجَحَدُوا بِهَا وَكَفَرُوا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ﴾، أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأصل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فأتى من جانب الطُّورِ ناراً، أي: رأى ناراً تَأْجُجُ وتضطرم، فقال: ﴿لَأَخِيهِ إِذْ مَا أَنتَ نَارًا سَتَائِكَ يَتَخَوُّهُ﴾، أي: عن الطريق، ﴿أَوْ مَا تَكُنُّ﴾، منها ﴿بِشَاهِدٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: تَتَدَفَّقُونَ به. وكان كما قال، فإنه رَجَعَ منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها، والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا تَوْقُداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرةً ونُضرةً، ثم رَفَّ رأسه فإذا نورها مُتَّصِلٌ بِعَنَانٍ السَّمَاءِ. قال ابن عباس، وغيره: لم تكن ناراً، إنما كانت نوراً يَتَوَهَّجُ. وفي رواية عن ابن عباس: نورُ رَبِّ العالمين. فوقف موسى مُتَّعِجاً مما رأى، فتوَدَّى: ﴿أَنْ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾، قال ابن عباس: قُدْس. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: من الملائكة. قاله ابن عباس، وعِكْرِمَةُ، وسعيد بن جُبَيْر، والحسن، وقناة.

[٥٠٧٨] وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ - هو الطيالسي - حَدَّثَنَا شُعْبَةُ وَالْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ، سَمِعَ أَبَا عُبَيْدَةَ يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِي مُوسَى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: إِنْ لَهِىَ لَآ يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفُضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ - زاد المسعودي: وحجابه النَّارُ، لو كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتٍ وَجْهَهُ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ. ثم قرأ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿أَنْ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(١). وأصل هذا الحديث مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِ لِمُسْلِمٍ، مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ، بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّيَ الْعَلِيِّينَ﴾، أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يُشَبِّهُ شَيْئاً مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْصُوعَاتِهِ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، الْمَبِينُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا يَكْتَنِفُهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الْمَنْزُوعُ عَنْ مُمَاتَلَةِ الْمُحَدَّثَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُمُوتُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أَعْلَمَهُ أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ هُوَ رَبُّهُ اللَّهُ ﴿الْعَزِيزُ﴾، الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهْرَهُ وَغَلَبَهُ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ. ثم أمره أَنْ يُلْقِيَ عَصَاهُ مِنْ يَدِهِ لِيُظْهِرَ لَهُ دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمَخْتَارُ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فلما ألقى موسى تلك العصا مِنْ يَدِهِ انْقَلَبَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ هَائِلَةٌ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ، وَسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ مَعَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾، وَالْجَانُّ: ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَّاتِ، أَسْرَعُهُ حَرَكَةً، وَأَكْثَرُهُ اضْطِرَابًا - وفي الحديث نَهَى عَنْ قَتْلِ جَنَّاتِ الْبَيْتِ^(٢) - فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَرَّ يَعْوَبُ﴾، أي: وَلَمْ يَلْتَفِتْ مِنْ شِدَّةِ فِرْعَوْنَ، ﴿يُمُوتُ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِّي

(١) رجاله ثقات غير المسعودي فإنه اختلط، وتقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٢) متفق عليه، وتقدم.

الْمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾، أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أضطفيك رسولاً وأجعلك نبياً وجيهاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا مَن ظَلَمَ فَرَّ بِدَلٍّ حَسَبًا بَعْدَ سُوِّ فَلَانِ عَفْوَ رَبِّهِمْ﴾، هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على شيء ثم أفلح عنه، وزجع وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلِيِّنِي لِنَفْسٍ لِّمَن قَاتَبَ وَآمَنَ وَرَجَلَ صِلِحًا تَأْمَنُ أَهْلَكَ﴾ [طه: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَمْلِكُ سُوِّ أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ يَغْفِرِ اللَّهُ عَفْوَكَ رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. والآيات في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَغْصَةً مِّنْ غَيْرِ سُوِّ﴾، هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدي من جعل له معجزة، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده في جيب دزعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر لها لمعان يتلألا كالبرق الخاطف. وقوله تعالى: ﴿فِي يَتِجَ إِلَيْنِي﴾، أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً لك إلى فزعون وقومه، ﴿إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ قَبِيحِينَ﴾.

وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا بَيِّنَةً﴾ أي: بيينة واضحة ظاهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُُّبِينٌ﴾، وأرادوا معارضة بسحرهم ﴿فَقُلُوبُهُمْ أَتَفَلَّهًا وَأَتَفَلَّهًا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]، ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: في ظاهر أمرهم ﴿وَأَسْقَيْنَهُمْ آبَهُمْ﴾، أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها، ﴿ظُلُمًا وَطُورًا﴾، أي: ظلماً من أنفسهم، سجيّة ملعونة، ﴿وَطُورًا﴾، أي: استكباراً عن اتباع الحق. ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفحوى الخطاب يقول: احذرُوا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى؛ فإن محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقتربة بوجوده في نفسه وشماله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ الموثيق له عليهم، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ ﴿١٧﴾ وَخُشِعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ لَّتَمَلَّ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَبْنَئُهَا أَلْتَمَلَّ أَدْخَلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ فَنَبَسَتْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ونبيه داود وابنه سليمان - عليهما من الله السلام - من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن إبراهيم بن هشام بن يحيى: أخبرني أبي، عن جدي قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمدُه أفضل من نعمته، لو كنت لا

تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فأَيُّ نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ﴾، أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثته المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مئة امرأة. ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم.

[٥٠٧٩] كما أخبر بذلك رسول الله - ﷺ -: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»^(١). وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مِّنْ طَيْرٍ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتحكيم العظيم. حتى إنه سخر له الإنسان والجن والطير. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله. ومن زعم من الجهلة والزعاع أن الحيوانات كانت تنطق كطوطي بني آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يستمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله - سبحانه وتعالى - كان قد أفهم سليمان - عليه السلام - ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَّمْنَا مَطْيَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: مما يحتاج إليه الملك، ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفَضْلِ الْمُبِينِ﴾، أي: الظاهر البين لله علينا.

[٥٠٨٠] قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أبي هريرة - رضي الله عنه: أن رسول الله - ﷺ - قال: كان داود - عليه السلام - فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل، والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن بداود، فجاء داود - عليه السلام - فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: الذي لا يهاب الملوك ولا يمتنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذا ملك الموت! مزحياً بأمر الله، فتزمل داود - عليه السلام - مكانه حتى قبضت نفسه، حتى فُيرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان - عليه السلام - للطير: أظلي على داود. فأظلت عليه الطير حتى أظلمت الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحاً جناحاً - قال أبو هريرة: يا رسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله - ﷺ - يده - وغلبت عليه يومئذ المضرجية^(٢). قال أبو الفرج بن الجوزي: المضرجية: الثسور الحمر.

وقوله تعالى: ﴿وَحِشْرَ إِسْلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٣)، أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير. يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة، في الإنس وكانوا هم الذين يُلَوْنُهُ، والجن

(١) تقدم عند الآية ٥ من سورة مريم.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٩/٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٠٧/٨ وقال: وفيه المطلب بن حنطب، وثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح اه قلت: هو معلول: عمرو، وإن روى له الشيخان لكن فيه ضعف، وعنده مناكير، وشيخه ثقة لكن عامة روايته عن الصحابة مراسيل، ولم يذكر سماعاً.

وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسي، فإن كان خراً أظلمته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُدْعَوْنَ﴾، أي: يكف أولهم على آخرهم، لئلا يتقدم أحد عن منزلة التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولها على آخرها، لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا تَوَّكَ عَلَىٰ وَادٍ النَّعْلُ﴾، أي: حتى إذا مر سليمان - عليه السلام - بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْكُلُهَا النَّعْلُ أَذْخُلُوا سَنَكُكُمْ لَا يَحْطِمُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أورد ابن عساکر، من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن: أن اسم هذه النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذيب. أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها، ففهم ذلك سليمان - عليه السلام - منها، ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَطَلَّ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام والإيمان بك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، أي: عملاً تحبه وترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وأن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها. وعن توف البكالي أنه قال: كان نمل سليمان أمثال الذباب. هكذا رأيت مضبوطاً بالياء المثناة من تحت. وإنما هو بالياء الموحدة. وذلك تصحيف، والله أعلم. والغرض أن سليمان - عليه السلام - فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا مسعر، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الثاجي قال: خرج سليمان بن داود - عليهما السلام - يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم، إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، ولا تسقنا نهلكتنا. فقال سليمان - عليه السلام -: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

[٥٠٨١] وقد ثبت في الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: ﴿قَرَضَتْ نَبِيَّاً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةً، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأَحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، أَنِّي أَنْ قَرَضْتُكَ نَمْلَةً أَهْلَكَتُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تَسْبُحُ؟ فَهَلَا نَمْلَةً وَاحِدَةً^(١)﴾.

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٠) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ (١١) ﴿

قال مجاهد، وسعيد بن جببر، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً، يدل سليمان - عليه السلام - على الماء - إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان - عليه السلام - الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان - عليه السلام - يوماً بقاءة من الأرض - فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾. حدث

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣١٩ ومسلم ٢٢٤١ وأبو داود ٥٢٦٦ النسائي ٢١٠/٧ وابن ماجه ٣٢٢٥ وأحمد ٢/ ٣١٣ و٤٤٩ وابن حبان ٥٦١٤.

يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجلٌ من الخوارج، يقال له «نافع بن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غُلبت اليوم! قال: وَلِمَ؟ قال: إِنَّكَ تُخْبِرُ عَنِ الْهُدْهُدِ أَنَّهُ يَرَى الْمَاءَ فِي ثُخُومِ الْأَرْضِ، وَإِنَّ الصَّبْيَ لِيَضَعُ لَهُ الْحَبَّةَ فِي الْفَخِّ، وَيَحْثِرُ عَلَى الْفَخِّ ثُرَاباً، فَيَجِيءُ الْهُدْهُدُ لِيَأْخُذَهَا فَيَقَعُ فِي الْفَخِّ، فَيَصِيدُهُ الصَّبِيُّ. فقال ابن عباس: لَوْ لَا أَن يَذْهَبَ هَذَا فَيَقُولَ: رَدَدْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، لَمَا أَجَبْتُهُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: وَيَحْكُ! إِنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْقَدَرُ عَمِي الْبَصَرُ، وَذَهَبَ الْحَذَرُ. فقال له نافع: وَاللَّهِ لَا أَجَادِلُكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَبَدًا.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزني - من أهل «بَرْزَة» من غُوطَة دمشق، وكان من الصالحين يصوم الاثنين والخميس، وكان أعور قد بلغ الثمانين - فَرَوَى ابْنُ عَسَاكِرَ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي سُلَيْمَانَ بْنِ زَيْدٍ: أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ عَوْرِهِ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِ، فَالْحَ عَلَيْهِ شَهْوَرًا، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ خُرَّاسَانَ نَزَلَا عَنْهُ جُمُعَةً فِي قَرْيَةِ بَرْزَة، وَسَأَلَاهُ عَنْ وَادٍ بَهَا، فَأَرَيْتَهُمَا إِيَّاهُ، فَأَخْرَجَا مَجَامِرَ وَأَوْقَدَا فِيهَا بِخُورًا كَثِيرًا، حَتَّى عَجَجَعَ الْوَادِي بِالْذُّخَانِ، فَأَخَذَا يَغْرِمَانِ^(١) وَالْحَيَاثُ تُقْبِلُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إِلَيْهِمَا، فَلَا يَلْتَفَتَانِ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا، حَتَّى أَقْبَلَتْ حَيَّةٌ نَحْوَ الذَّرَاعِ، وَعَيْنَاهَا تُوقِدَانِ مِثْلَ الدِّينَارِ. فَاسْتَبَشِرَا بِهَا عَظِيمًا، وَقَالَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُخَيِّبْ سَفَرَنَا مِنْ سَنَةٍ، وَكَسَّرَا الْمَجَامِرَ، وَأَخَذَا الْحَيَّةَ فَأَدْخَلَا فِي عَيْنَيْهَا مِيلًا فَانْتَحَلَا بِهِ، فَسَأَلْتُهُمَا أَنْ يَكْحَلَا نِي، فَأَبَيَا، فَأَلْحَحْتُ عَلَيْهِمَا وَقُلْتُ: لَا بَدْ مِنْ ذَلِكَ، وَتَوَعَّدْتُهُمَا بِالدَّوْلَةِ^(٢)، فَكَحَلَا عَيْنِي الْوَاحِدَةَ الْيُمْنَى، فَحِينَ وَقَعَ فِي عَيْنِي نَظَرْتُ إِلَى الْأَرْضِ تَحْتِي مِثْلَ الْمَرْأَةِ، أَنْظَرُ مَا تَحْتَهَا كَمَا تُرَى الْمَرْأَةُ، ثُمَّ قَالَ لِي: سِيزُ مَعْنَا قَلِيلًا، فَسِرْتُ مَعَهُمَا وَهُمَا يَحْدِثَانِي، حَتَّى إِذَا بَعُدْتُ عَنِ الْقَرْيَةِ أَخَذَانِي فَكَتَفَانِي، وَأَدْخَلَ أَحَدُهُمَا يَدَهُ فِي عَيْنِي فَقَفَّاهَا، وَزَمَى بِهَا وَمَضَى. فَلَمْ أَزَلْ كَذَلِكَ مُلْقَى مَكْتُوفًا، حَتَّى مَرَّ بِي نَفَرٌ فَفَكَ وَثَّقَنِي. فِهَذَا مَا كَانَ مِنْ خَبَرِ عَيْنِي^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن عمرو الغساني، حدثنا عباد بن ميسرة المنقري، عن الحسن قال: اسم هُدْهُدٍ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام: عنبر. وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان - عليه السلام - غَدَاً إِلَى مَجْلِسِهِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ، فَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ، وَكَانَ فِيمَا يَزْعُمُونَ يَأْتِيهِ نُوبٌ مِنْ كُلِّ صَنْفٍ مِنَ الطَّيْرِ، كُلُّ يَوْمٍ طَائِرٌ، فَنَظَرَ فَرَأَى مِنْ أَصْنَافِ الطَّيْرِ كُلِّهَا مِنْ حَضْرَةِ إِلَّا الْهُدْهُدَ، ﴿فَقَالَ تَالِ اللَّهِ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِكِينَ﴾، أَخْطَاهُ بَصَرِي مِنَ الطَّيْرِ، أَمْ غَابَ فَلَمْ يَحْضُرْ.

وقوله تعالى: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، قال الأعمش، عن المِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي تَنَفُّ رِيشِهِ. وقال عبد الله بن شداد: تَنَفُّ رِيشُهُ وَتَشْمِيسُهُ. وكذا قال غير واحدٍ من السلف: إِنَّهُ تَنَفُّ رِيشُهُ، وَتَرَكَهُ مُلْقَى يَأْكُلُهُ الذُّرُّ^(٤) والنمل. وقوله: ﴿أَوْ لَأَذِيبَنَّكَ﴾، يَعْنِي: قَتَلَهُ، ﴿أَوْ لَأَيَّا نِي سُلْطَانِي ثُبِينِ﴾ أَي: بِعَذْرِ وَاضِحٍ بَيِّنٍ. وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ، لَمَّا قَدِمَ الْهُدْهُدُ قَالَتْ لَهُ الطَّيْرُ: مَا خَلَفَكَ، فَقَدْ نَذَرَ سُلَيْمَانٌ ذَمَكَ؟ فَقَالَ: هَلْ اسْتَنْتِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذِيبَنَّكَ أَوْ لَأَيَّا نِي سُلْطَانِي ثُبِينِ﴾^(٥)، فَقَالَ: نَجُوثُ إِذَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّمَا دَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْرَهُ بِأَمِهِ.

(١) يعزمان: أي الرُّقَى.

(٢) الدولة: انقلاب الزمان، أي توعدهما بأنه سيفغضب عليهما إذا تمكَّن منهما.

(٣) لم يذكر المصنف إسناد ابن عساكر، والظاهر أنه عن مجاهيل، بل راويه غير معروف، والخبر عجيب بل هو موضوع.

(٤) الذر: صغار النمل.

﴿فَمَكَتْ عَنَرٌ بِبَيْدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَحِثْلُكَ مِنْ سَبِيلِ بَنِي إِيْقِينَ﴾ (٢٢) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦)

يقول تعالى: ﴿فَمَكَتْ﴾ الهدهد ﴿عَنَرٌ بِبَيْدٍ﴾، أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، أي: أطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، ﴿وَحِثْلُكَ مِنْ سَبِيلِ بَنِي إِيْقِينَ﴾، أي: بخبر صدقي حق يقين. وسبأ: هم حمير، وهم ملوك اليمن. ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ﴾، قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ. وقال قتادة: كانت أمها جنية، وكان مؤخر قدمها مثل حافر الدابة، من بيت مملوكة. وقال زهير بن محمد: هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الربان، وأمها فارعة الجنية. وقال ابن جريج: بلقيس بنت ذي شريح، وأمها بلنقة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مسدد، حدثنا سفيان - يعني ابن عيينة - عن عطاء بن السائب، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان مع صاحبة سليمان ألف قنيل^(١)، تحت كل قنيل منه ألف مقاتل. وقال الأعمش، عن مجاهد: كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قنيل، تحت كل قنيل منه ألف مقاتل. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مغمز، عن قتادة في قوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ﴾، كانت من بيت مملوكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمئة واثنى عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل. وكانت بأرض يقال لها مأرب، على ثلاثة أميال من صنعاء. وهذا القول هو أقرب، على أنه كثير على مملكة اليمن، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكن: ﴿وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾، يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللاقي. قال زهير بن محمد: كان من ذهب صفحته، مرمول بالياقوت والزبرجد، طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً. وقال محمد بن إسحاق: كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وكان إنما يخدمها النساء، لها ستمئة امرأة تليها للخدمة. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء مُحْكَم، وكان فيه ثلاثمئة وستون طاقة من شرقه، ومثلها من غربه. قد وُضِعَ بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، أي: عن طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلَيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وقرأ بعض

القراء: «أَلَا يَا اسْجُدُوا لِلَّهِ، جَعَلَهَا أَلَاءَ الاسْتِفْتاحِيَّةِ، و«يا» للنداء، وحُذِفَ المنادى، تقديره عنده: «أَلَا يَا قَوْمِ اسْجُدُوا لِلَّهِ».

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْقَبْهَ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يَعْلَمُ كُلَّ خَبِيئَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد. وقال سعيد ابن المسيب: الْخَبْءُ: الْمَاءُ. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خَبْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَا جُعِلَ فِيهَا مِنَ الْأَرْزَاقِ: الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَالثَّبَاتُ مِنَ الْأَرْضِ. وهذا مناسبٌ من كلام الهمداني، الذي جعل الله فيه مِنَ الْخَاصِيَّةِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، مِنْ أَنَّهُ يَرَى الْمَاءَ يَجْرِي فِي تَحْوِمِ^(١) الْأَرْضِ وَدَوَاجِلِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْصِرُونَ﴾، أي: يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْعِبَادُ، وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتْلُي وَسَارِي بِأَتْلَايِ^(٢)﴾ [الرعد: ١٠]. وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ^(٣)﴾، أي: هُوَ الْمَدْعُوُّ لِلَّهِ، وَهُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَلَمَّا كَانَ الْهُدُودُ دَاعِيًا إِلَى الْخَيْرِ، وَعِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالسُّجُودَ لَهُ، نُهِيَ عَنْ قِتْلِهِ.

[٥٠٨٢] كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ - عَنْ قِتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: الثَّمَلَةُ وَالْخُلَّةُ وَالْهُدُودُ وَالصَّرَدُ^(٤). وإسناده صحيح.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ^(٥)﴾ أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ

فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ^(٦)﴾ قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْملُوكُ إِلَيْهِ أَلْفَى إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ^(٧)﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسَرِّ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(٨)﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ^(٩)﴾

يخبر تعالى عن قيل سليمان - عليه السلام - للهمداني حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ^(٥)﴾، أي: أَصَدَقْتَ فِي إِخْبَارِكَ هَذَا، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فِي مَقَالَتِكَ، لَتَتَخَلَّصَ مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي أَوْعَدْتَهُ؟ ﴿أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَتَبَ كِتَابًا إِلَى بَلْقِيسَ وَقَوْمِهَا. وَأَعْطَاهَا لِدَلِّ الْهُدُودَ فَحَمَلَهُ، قِيلَ: فِي جَنَاحِهِ كَمَا هُوَ عَادَةُ الطَّيْرِ، وَقِيلَ: بِمَنْقَارِهِ، وَذَهَبَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَجَاءَ إِلَى قَصْرِ بَلْقِيسَ، إِلَى الْخُلَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَخْتَلِي فِيهَا بَنَفْسِهَا، فَأَلْقَاهُ إِلَيْهَا مِنْ كُوَّةِ هُنَالِكَ بَيْنَ يَدَيْهَا، ثُمَّ تَوَلَّى نَاحِيَةً أَدْبَا وَرِيَاةً فَتَحَيَّرَتْ مِمَّا رَأَتْ، وَهَالَهَا ذَلِكَ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى الْكِتَابِ فَأَخَذَتْهُ، فَفَتَحَتْ خَتْمَهُ وَقَرَأَتْهُ، فإِذَا فِيهِ: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسَرِّ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(٧)﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ^(٨)﴾. فَجَمَعَتْ عِنْدَ ذَلِكَ أَمْرَاهَا وَوُزَرَائِهَا وَكِبَرَاءَ دَوْلَتِهَا وَمَمْلَكَتِهَا، ثُمَّ قَالَتْ لَهُمْ: ﴿يَتَأْتِيَ الْملُوكُ إِلَيْهِ أَلْفَى إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، تَعْنِي بِكَرَمِهِ مَا رَأَتْهُ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ، كَوْنِ طَائِرٍ أَتَى بِهِ فَأَلْقَاهُ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدْبَا. وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ قَرَأَتْهُ عَلَيْهِمْ، ﴿إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسَرِّ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(٩)﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، فَعَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ، وَأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ. وَهَذَا الْكِتَابُ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْوَجَازَةِ وَالْفَصَاحَةِ، فَإِنَّهُ حَصَلَ الْمَعْنَى بِأَيْسَرِ عِبَارَةٍ وَأَحْسَنَهَا، قَالَ الْعُلَمَاءُ. وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ ﴿بِسَرِّ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَبْلَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) التَّحْوِمُ: الْحُدُودُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ.

(٢) صَحِيح. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ٥٢٦٧ وَابْنُ مَاجَهَ ٣٢٢٤ وَاحَدٌ ٣٣٢١ وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ ٥٦٤٦.

[٥٠٨٣] وقد رَوَى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً في تفسيره، حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هارون ابن الفضل أبو يعلى الخنَّاط، حدثنا أبو يوسف، عن سلمة بن صالح، عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بُزَيْدَةَ، عن أبيه قال: كنتُ أمشي مع رَسُولِ الله - ﷺ - فقال: إني أعلم آيةً لم تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود. قال: قلت يا رسول الله، أي آية؟ قال: سأعلمُكمها قبل أن أخرج من المسجد. قال: فانتهي إلى الباب، فأخرج إحدى قَدَمَيْهِ، فقلت: نسي. ثم التفت إلي وقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١). هذا حديث غريب، وإسناده ضعيف. وقال ميمون بن مهران: كان رسول الله - ﷺ - يكتب: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، حتى نزلت هذه الآية، فكتب، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وقوله: ﴿أَلَا تَقُولُوا عَلَى﴾، قال قتادة: يقول: لا تعجزوا علي ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي. ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، قال ابن عباس: مؤخدين. وقال غيره: مُخْلِصِينَ. وقال شفيان بن عيينة: طائعين.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوَّلُوا قَوْلَ وَأَوَّلُوا بَأْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها، ولهذا قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، أي: حتى تحضرون وتشيرون. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوَّلُوا قَوْلَ وَأَوَّلُوا بَأْسَ شَدِيدٍ﴾، أي: منوا إليها بعددهم وعُددهم وقوتهم، ثم قوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، أي: نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس، إن شئت أن نقصديه ونحاربه فما لنا عاقبة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، فزني فيما رأيك نمثله ونطيعه. قال الحسن البصري رحمه الله: قوضوا أمرهم إلى عُلَجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من فضيلة الكتاب مع الهدد أمرأ عجيباً بديعاً، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي واليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. ولهذا قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه، أي: خربوه، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، أي: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر. قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، قال الرب عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٥)، أي: سأبعث إليه بهديّة تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ولنلتزم له بذلك ونترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمه الله ورضي عنها. ما كان أعقلها في إسلامها وفي شريكها! علمت أن الهدية تقع موقفاً من الناس. وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فأتبعوه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِّدُونَنِي بِمَالٍ مِّمَّا آتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَهْدِيكُمْ نَاقِصُونَ ﴿٣٦﴾ أَتَيْتُكُمْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخَبَرٍ لَّا يَحْزَنُونَ وَلَا يُخْزِرُهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةٌ وَهُمْ ضَالِّونَ ﴿٣٧﴾﴾

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهديّة عظيمة من ذهب وجواهر وآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت إليه بلبنة من ذهب. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب. قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما: وأرسلت جوارِي في زي الغلمان، وغلما ناً في زي الجوّاري، وقالت: إن عَرَفَ هؤلاء من هؤلاء فهو نبئ. قالوا: فأمرهم عليه السلام أن يتوضّأوا، فجعلت الجارية تفرّغ على يدها من الماء، وجعل الغلام يَغْتَرِفُ، فميّزهم بذلك. وقيل: بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها، والغلام بالعكس. وقيل: بل جعلت الجوّاري يغسلن من أكفهن إلى مرفقهن، والغلمان من مرفقهن إلى أكفهن. ولا منافاة بين ذلك كله، والله أعلم. وذكر بعضهم: أنها أرسلت إليه بِقَدَحٍ ليملاء ماء رَوَاءَ، لا من السماء ولا من الأرض، فأجرى الخيل حتّى عرقت، ثم ملأه من ذلك. وبخزوة وسيلك ليجعله فيها، ففعل ذلك. والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. والظاهر أن سليمان - عليه السلام - لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكليّة، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم ﴿أُمِّدُونَنِي بِمَالٍ﴾، أي: أنصنعوني بمالٍ لأترككم على شريككم وملّكمكم؟! ﴿فَمَا آتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْتُكُمْ﴾، أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجند خير مما أنتم فيه، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ نَاقِصُونَ﴾، أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلام أو السيف.

قال الأعمش، عن الجثنّال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنه -: أمر سليمان الشياطين فمؤموا له ألف قصر من ذهب وفضّة، فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا؟! وفي هذا دلالة على جواز تهيو الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقُصّاد. ﴿أَتَيْتُكُمْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: بهديتهم، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخَبَرٍ لَّا يَحْزَنُونَ وَلَا يُخْزِرُهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةٌ وَهُمْ ضَالِّونَ﴾، أي: لا طاقة لهم بقتالهم، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾، أي: من بلديهم ﴿أَذَلَّةٌ وَهُمْ ضَالِّونَ﴾، أي: مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، مُعظّمة لسليمان، نارية متابعته في الإسلام، ولما تحقّق سليمان - عليه السلام - قُدومهم عليه ووقودهم إليه، فرح بذلك وسرّه.

﴿قَالَ يَتَأْتِيَا أَلْمَلُوكُ أَتَيْتَنِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيْ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد - والله - عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرته شيئاً. وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك. ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه - وكان من ذهب مُقَصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ - فجعل في سبعة آيات، بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خلّفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك، وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من

عباد الله، ولا يَزِيئُهُ أَحَدٌ حَتَّى آتِيكَ. ثُمَّ شَخَّصَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ فِي اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ، تَحْتَ يَدَي كُلِّ قَيْلٍ مِنْهُمْ أَلُوفٌ كَثِيرَةٌ. فَجَعَلَ سُلَيْمَانُ يَبِيعُ الْجَنْ يَأْتُونَهُ بِمَسِيرِهَا وَمُنْتَهَاهَا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، حَتَّى إِذَا دَنَتْ جَمْعٌ مِنْ عِنْدِهِ مِنَ الْجَنْ وَالْإِنْسِ، وَمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿يَأْتِيَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ سُليَيبُ﴾. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا بَلَغَ سُلَيْمَانُ أَنَّهَا جَائِيَةٌ، وَكَانَ قَدْ ذُكِرَ لَهَا عَرْشُهَا فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ مِنْ دَعْبٍ، وَقَوَائِمُهُ لَوْلُؤٌ وَجَوْهَرٌ، وَكَانَ مُسْتَرًّا بِالذَّبْيَاجِ وَالْحَرِيرِ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ تِسْعَةُ مَعَالِيْقٍ، فَكَرِهَ أَنْ يَأْخُذَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ. وَقَدْ عَلِمَ نَبِيُّ اللَّهِ أَنَّهُمْ مَتَى أَسْلَمُوا تَحْرُمَ أَمْوَالُهُمْ مَعَ دِمَائِهِمْ فَقَالَ: ﴿يَأْتِيَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ سُليَيبُ﴾. وَهَكَذَا قَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِي، وَالسُّدِّيُّ، وَزُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ سُليَيبُ﴾، فَتَحْرُمَ عَلَيَّ أَمْوَالُهُمْ بِإِسْلَامِهِمْ، ﴿قَالَ عَفِيَّةٌ مِّنْ لَّيْلَى﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ مَارِدٍ مِنَ الْجَنْ. وَقَالَ شُعَيْبُ الْجَبَنِيُّ: وَكَانَ اسْمُهُ كَوْزَنٌ. وَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ، وَكَذَا قَالَ أَيْضًا وَهْبُ بْنُ مُنْبَهٍ. قَالَ أَبُو صَالِحٍ: وَكَانَ كَانَهُ جَبَلٌ. ﴿أَنَا أَعْلَمُ بِكَ بِمَا قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَقْعَدُكَ، وَقَالَ السُّدِّيُّ، وَغَيْرُهُ: كَانَ يَجْلِسُ لِلنَّاسِ لِلْقَضَاءِ وَالْحُكُومَاتِ، وَلِلطَّعَامِ، مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ. ﴿وَأَنِّي عَلَيْكَ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ قَوِيٍّ عَلَى حَمْلِهِ، أَمِينٌ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ. وَمَنْ هَاهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ النَّبِيَّ سُلَيْمَانَ أَرَادَ بِإِحْضَارِ هَذَا السَّرِيرِ إِظْهَارَ عَظَمَةِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمَلِكِ، وَمَا سَخَّرَ لَهُ مِنَ الْجُنُودِ، الَّذِي لَمْ يَعْطِهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ. وَلِيَتَّخِذَ ذَلِكَ حِجَةً عَلَى نُبُوَّتِهِ عِنْدَ بَلْقَيْسَ وَقَوْمِهَا؛ لِأَنَّ هَذَا خَارِقٌ عَظِيمٌ أَنْ يَأْتِيَ بِعَرْشِهَا كَمَا هُوَ مِنْ بِلَادِهَا قَبْلَ أَنْ يَفْقَدُوا عَلَيْهِ. هَذَا وَقَدْ حَاجَبَتْهُ بِالْأَغْلَاقِ وَالْأَقْفَالِ وَالْحَفَظَةِ. فَلَمَّا قَالَ سُلَيْمَانُ: أَرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ، ﴿قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ أَصْفُ كَاتِبِ سُلَيْمَانَ. وَكَذَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ: أَنَّهُ أَصْفُ بْنُ بَرْخِيَا، وَكَانَ صِدِّيقًا يَعْلَمُ الْاسْمَ الْأَعْظَمَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ مُؤْمِنًا مِنَ الْإِنْسِ، وَاسْمُهُ أَصْفُ. وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ: إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْإِنْسِ. زَادَ قَتَادَةُ: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ اسْمُهُ أَسْطُومٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ - فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ - كَانَ اسْمُهُ بَلِيخَا. وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْإِنْسِ يُقَالُ لَهُ: ذُو النُّورِ. وَزَعَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيْعَةَ: أَنَّهُ الْخَفِيرُ^(١). وَهُوَ غَرِيبٌ جَدًّا.

وقوله: ﴿أَنَا أَعْلَمُ بِكَ بِمَا قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، أَيُّ: أَرَفَعَ بَصْرَكَ وَانْظُرْ مَدَّ بَصْرَكَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ لَا يَكْبَلُ بَصْرَكَ إِلَّا وَهُوَ حَاضِرٌ عِنْدَكَ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبَهٍ: أَمَدُّ بَصْرَكَ، فَلَا يَبْلُغُ مَدَّاهُ حَتَّى آتِيكَ بِهِ. فَذَكَرُوا أَنَّهُ أَمْرُهُ أَنْ يَنْظُرَ نَحْوَ الْيَمَنِ الَّتِي فِيهَا هَذَا الْعَرْشُ الْمَطْلُوبُ، ثُمَّ قَامَ قَفُوضًا، وَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ. وَقَالَ الزَّهْرِيُّ: قَالَ: يَا إِلَهِنَا وَإِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَهًا وَاحِدًا، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، ائْتِنِي بِعَرْشِي. قَالَ: فَمَثَلُ لَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَزُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَغَيْرُهُمْ: لَمَّا دَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِعَرْشِ بَلْقَيْسَ - وَكَانَ فِي الْيَمَنِ، وَسُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْتِ الْمَقْدَسِ - غَابَ السَّرِيرُ، وَغَاصَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ نَبَعَ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لَمْ يَشْعُرْ سُلَيْمَانُ إِلَّا وَعَرْشُهَا يُحْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ. قَالَ: وَكَانَ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِبَادِ الْبَحْرِ. فَلَمَّا عَايَنَ سُلَيْمَانُ وَمَلَأُوهُ ذَلِكَ، وَرَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ قَبْلِ رَيْي﴾، أَيُّ: هَذَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ ﴿يَلُوتُ﴾، أَيُّ: لِيُخْبِرَنِي ﴿أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، كَقَوْلِهِ

تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسِيَّ بِهِدُونَ﴾ [الرؤم: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ غَيْرِ كَرِيمٍ﴾، أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، ﴿كَرِيمٍ﴾، أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبد أحد، فإن عظمت له ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

[٥٠٨٤] وفي صحيح مسلم: يقول الله تعالى: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم. ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم. ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١).

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (١١) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (١٢) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَتَّبِعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (١٣) ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالِ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤)

لما جيء سليمان - عليه السلام - بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يُغيّر بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تُقدِّم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها، فقال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، قال ابن عباس: نُزِعَ عنه قُصُوصُهُ وَمَرَافِقُهُ. وقال مجاهد: أمر به فُغِّيرَ ما كان أَحْمَرُ جُعِلَ أَصْفَرُ، وما كان أَصْفَرُ جُعِلَ أَحْمَرُ، وما كانَ أَخْضَرُ جُعِلَ أَحْمَرُ، غُيِّرَ كُلُّ شَيْءٍ عَنْ حَالِهِ. وقال عكرمة: زَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا. وقال قتادة: جُعِلَ أَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ وَمُقَدَّمُهُ مُؤَخَّرُهُ، وزادوا فيه ونقصوا. ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾، أي: عُرِضَ عليها عرشها، وقد غُيِّرَ ونُكِّرَ، وزِيدَ فيه ونُقِصَ، وكان فيها ثَبَاتٌ وعَقْلٌ، ولها لُبٌّ ودَهَاءٌ وحِزْمٌ، فلم تُقدِّم على أنه هُوَ لِيُعِدَّ مَسَافَتَهُ عَنْهَا، ولا أنه غَيْرُهُ، لِمَا رَأَتْ مِنْ آثَارِهِ وَصِفَاتِهِ، وإن غُيِّرَ وبُدِّلَ ونُكِّرَ، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، أي: يُشَبِّهُهُ وَيُقَارِبُهُ. وهذا غاية في الذكاء والحِزْمِ.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، قال مجاهد: هذا قول سليمان (٢). وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَتَّبِعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (١٣)، هذا من تَمَامِ كَلَامِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قول مجاهد، وسعيد بن جبَر - رَجَمَهُمَا اللَّهُ - أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وهي كانت قد صَدَّهَا، أي: مَنَعَهَا من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَتْ تَتَّبِعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حسن، وقاله ابن جرير أيضاً. ثم قال ابن جرير: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَصَدَّهَا﴾، ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى سُلَيْمَانَ، أو إلى الله - عز وجل - تقديره: وَمَنَعَهَا ﴿مَا كَانَتْ تَتَّبِعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: صَدَّهَا عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. قلت: ويؤيد قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصَّرْحِ كما سيأتي.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٩٠ والترمذي ٢٤٩٥ وابن ماجه ٤٢٥٧ وأحمد ١٦٠/٥ وابن حبان ٦١٩ من حديث أبي ذر مطولاً.

(٢) العبارة في الأصول والطبري «سليمان يقوله» والثبت عن تفسير مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾، وذلك أن سليمان - عليه السلام - أمر الشياطين فبنوا له قصرًا عظيمًا من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان - عليه السلام - إلى اتخاذه، فقيل: إنه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها، ولكن في ساقها هُلْبٌ عظيم، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة. فساء ذلك، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا^(١)؟ هذا قول محمد بن كعب القرظي، وغيره. فلما دخلت وكشفت عن ساقها، رأى أحسن الناس ساقًا وأحسنه قدمًا، ولكن على رجلها شعر، لأنها ملكة ليس لها بعل، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها: موسى؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجن: اصنعوا شيئاً غير الموصى يذهب به هذا الشعر. فصنعوا له الثورة، فكان أول من اتخذت له الثورة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والسدي، وابن جريج، وغيرهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: ثم قال لها: ادخلي الصرح، ليبريها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها. فلما رأت حبيبته لجة وكشفت عن ساقها، لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: إنه صرح مُمرّد من قوارير. فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله. وقال الحسن البصري: لما رأت العُلجة الصرح عرفت - والله - أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن مثنى. قال: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج، كأنه الماء بياضاً. ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له في سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثم قال: ادخلي الصرح، ليبريها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾، لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمرّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾، فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله - عز وجل - وعاتبها في عبادتها الشمس دون الله، فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت، وسجد معه الناس، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك! ماذا قلت؟ قالت: وأنسيبت ما قلت؟ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فأسلمت وحسن إسلامها.

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثراً غريباً عن ابن عباس، قال: حدثنا الحسين بن علي، عن زائدة، حدثني عطاء بن السائب، حدثنا مجاهد ونحن في الأزد، قال: حدثنا ابن عباس قال: كان سليمان - عليه السلام - يجلس على سريره، ثم توضع كراسي حوله، فيجلس عليها الإنس، ثم تجلس الجن، ثم الشياطين، ثم تأتي الريح تفرقهم، ثم تظلمهم الطير، ثم يغدو قذر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً، قال: فبينما هو ذات يوم في مسير له، إذ تفقد الطير، قال: وتفقّد الهدم فقل: ﴿يَا لَيْلَ لَا أَرَى الْهَدْمَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَكَايِينِ﴾ (٢٠) لَأَعْلَبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ، قال: وكان عذابه إياه أن يثبته في الأرض، فلا يمتنع من نعله ولا من شيء من هوائ الأرض. قال عطاء: وذكر سعيد بن جبيرة عن ابن عباس مثل حديث مجاهد - ﴿فَمَكَتْ فَجَرَّ بِمِيرَ﴾، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢١) أَذْهَبَ بِكَتْبِي هَذَا، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى بلقيس: ﴿أَلَا

(١) ليس بصحيح، فهو، وإن ورد عن جماعة من التابعين وابن عباس، فإن مصدره كتب الأقدمين، لا حجة في شيء منها، والله أعلم.

تَقُولُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾. فلما ألقى الهدهد هذا الكتاب إليها ألقي في روعها: إنه كتاب كريم، وإنه من سليمان، وأأتوا علي، وأتوني مسلمين. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً﴾، ﴿قَالَتْ إِنَّ إِلَهُكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا، وَآتَانِي مُرْسَلَةً إِلَيْهِمْ يَهْدِيهِمْ﴾. فلما جاءت الهدية سليمان ﴿قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِإِلٍ﴾، ﴿أَتَجْعَلُ إِلَهُهُمْ﴾ فلما نظر إلى الغبار - أخبرنا ابن عباس قال: وكان بين سليمان وبين ملكة سبا ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الجيرة - قال عطاء: ومجاهد حينئذ في الأزد. قال سليمان: ﴿إِنِّي بِإِلَهِكُمْ بِعَرِيضَةٍ﴾، قال: وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ - قال: وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس كما يجلس الأمراء ثم يقوم - فقال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ - قال سليمان: أريد أعجل من ذلك. فقال الذي عنده علم من الكتاب: أنا أنظر في كتاب ربي، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. قال: فَتَنَظَرُ إِلَيْهِ سُلَيْمَانٌ فَلَمَّا قَطَعَ كَلَامَهُ رَدَّ سُلَيْمَانُ بَصَرَهُ، فَتَبِعَ عَرْشَهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمِ سُلَيْمَانٍ، مِنْ تَحْتِ كُرْسِيِّ كَانَ سُلَيْمَانُ يَضَعُ عَلَيْهِ رِجْلَهُ، ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَى السَّرِيرِ. قال: فلما رأى سليمان عرشها قال: ﴿هَذَا مِن قَبْلِي رَيٌّ﴾، ﴿قَالَ تَكْرُرًا لَّمَّا عَرَفَهَا﴾، فلما جاءت قيل لها: ﴿أَمَلَكْنَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾، قال: فسألته حين جاءته عن أمرين، قالت لسليمان: ما ماء من زبد رواء، ليس من أرض ولا سماء؟ وكان سليمان إذا سُئِلَ عن شيء سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين. قال: فقالت الشياطين: هذا هين، أجر الخيل ثم خذ عرقها، ثم املا منه الآية. قال: فأمر بالخيول فأجريت، ثم أخذ عرقها فملا منه الآية. قال: وسألت عن لون الله - عر وجل - قال: فوثب سليمان عن سريره، فخر ساجداً، فقال: يا رب، سألتني عن أمر إنه ليتعظم في قلبي أن أذكره. قال: ارجع فقد كتبتكهم. قال: فرجع إلى سريره فقال: ما سألت عنه؟ قالت: ما سألتك إلا عن الماء. فقال لجنوده: ما سألت عنه؟ فقالوا: ما سألتك إلا عن الماء. ونسوه كلهم. قال: وقالت الشياطين إن سليمان يريد أن يأخذها لنفسه، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد، لم ننفعك من عبوديته. قال: فاجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير، فيه السمك، قال: ففعل لها: ادخلي الصرح، فلما رآته حسبته لجة، وكشفت عن ساقها، فإذا هي شغراء. فقال سليمان: هذا قبيح، ما يؤذبه؟ فقالوا: يؤذبه موسى. فقال: أترى موسى قبيح! قال: فجعلت الشياطين الثورة. قال: فهو أول من جعل له الثورة^(١). ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة: ما أحسنه من حديث! قلت: بل هو منكز غريب جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب، على ابن عباس، والله أعلم. والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب وهب - سأمهما الله تعالى - فيما نقلنا إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حُرف وبُذل ونسخ. وقد أغنانا الله - سبحانه - عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، والله الحمد والمثني. أصل الصرح في كلام العرب هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله - سبحانه وتعالى - إخباراً عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزيره هامان: ﴿أَتِنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْمَدَ﴾ ﴿أَسْمَدَ الْأَسْمَدَ فَطُلِعَ إِلَيْهِ إِلَهُ مُوسَى﴾ [غافر: ٣٦]... الآية. والصرح: قصر في اليمين عالي البناء، والممرد أي: المبنى بناءً محكمًا أملس [من قوارير]، أي: زجاج، وتنفيد البناء تمليسه. ومارد: حصن بدومة الجندل. والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا من زجاج لهذه الملكة، ليُرِيها عظمة سلطانه وتمكينه، فلما رأت ما آتاه الله - تعالى - وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في

(١) لا يصح عن ابن عباس مثل هذا، فإن المن غريب جداً، وهو من الإسرائيليات، بلا شك، وعطاء بن السائب اختلط

بآخره وانظر ما ذكره ابن كثير رحمه الله بعد أسطر.

قال العوفي، عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عَقَرُوا الناقة. أي: الذين صَدَر ذلك عن رأيهم ومَشُورتهم. قَبَحَهُمُ الله وَلَعَنَهُمُ، وقد فَعَلَ ذلك. وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: كان أسماء هؤلاء التسعة: زعمى، وزعيم، وهرم، وهريم، وداب، وصواب، ورياب، وسطيح، وقُدَار ابن سَالِف عاقِر الناقة. أي: الذي باشَرَ ذلك بيده. قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا صَالِحًا فَتَعَلَّمَنَ صَفَرًا﴾ [النمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَبْعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا يَحْيَى بن ربيعة الصنعاني، سَمِعْتُ عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول: ﴿وَكَاكَ فِي الْمَدِينَةِ تَمَعَةً رَهْطٌ يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١)، قال: كانوا يَفْرُسُونَ الدراهم، يعني أنهم كانوا يأخذون منها، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً، كما كان العرب يتعاملون. وقال الإمام مالك، عن يحيى ابن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قَطَعَ الذَّهَبُ وَالْوَرِقُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

[٥٠٨٥] وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: أَنَّ رَسُولَ الله - ﷺ - نَهَى عَنْ كَسْرِ سِكَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْجَائِزَةِ بَيْنَهُمْ إِلَّا مِنْ بَأْسٍ^(١). والغرض أن هؤلاء الكفرة المفسدة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾، أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح - عليه السلام - من لقيه ليلاً غيلة، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم. قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. وقال قتادة: توافقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه، وذكر لنا أنهم بينما هم مَعَانِيْقُ^(٢) إلى صالح ليتفككوا به، إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم. قال العوفي، عن ابن عباس: هم الذين عَقَرُوا الناقة، قالوا حين عقروها: نُبَيِّتُ صَالِحاً وَأَهْلَهُ فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم. فَدَمَرَهُمُ الله أجمعين. وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة: هَلُمَّ فلنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته! فأتوه ليلاً لِيُبَيِّتُوهُ في أهله، فَدَمَعْتُهُمُ الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم، أتوا منزل صالح، فوجدوهم مُنْشِدِخِينَ قد رُضِخُوا بالحجارة فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم هُمُوا به، فقامت عشيرته دونه، وَلَبِسُوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون. فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عَقَرُوا الناقة قال لهم صالح: ﴿تَمَعُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُ غَيْرِ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، قالوا: رَعِمَ صالح أنه يَفْرُغُ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يُصَلِّي فيه، فَخَرَجُوا إلى كهف، أي: غار هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يُصَلِّي قتلناه ثُمَّ رَجَعْنَا إِذَا فَرَغْنَا مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فَخَشُوا أَنْ تُشَدِّخَهُمْ فَتَبَادَرُوا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدرى قومهم أين هم، ولا يدرُونَ ما فَعَلَ بقومهم. فَعَذَّبَ الله هؤلاء هاهنا، وهؤلاء هاهنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم

(١) ضعيف. أخرجه أبو داود ٣٤٤٩ من حديث علقمة بن عبد الله عن أبيه، وإسناده ضعيف فيه محمد بن فضال وهو ضعيف

عن أبيه، وهو مجهول. وضعف إسناده الأرنؤوط في «جامع الأصول» ٩٥٤

(٢) عُنُقُ إليه: أي مثلون نحوه ينظرون إليه.

قُرْأ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَّغْ يَوْمَ يَبُوءُكُمُ خَاوِبَةً، أي: فارغة ليس فيها أحد ﴿بِمَا ظَلَمْتُمْ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) وَأَجْبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْتَفُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ أَنَا نُؤْتِي الْفَلَحِشَّةَ وَأَنْتُمْ تَبْعُرُونَ﴾ (٥٤) أَيْبُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا مَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُونَ﴾ (٥٦) فَأَجْبِئْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَدِيرِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ لُوطٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ، فِي فَعْلِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَهِيَ إِيثَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَذَلِكَ فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ، اسْتَغْنَى الرَّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ، فَقَالَ: ﴿أَنَا نُؤْتِي الْفَلَحِشَّةَ وَأَنْتُمْ تَبْعُرُونَ﴾، أَيْ: يَرَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ؟! ﴿أَيْبُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٥٥)، أَيْ: لَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا لَا طَبْعًا وَلَا شَرْعًا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿لَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٦) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٥٧﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦]. ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا مَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُونَ﴾ (٥٦)، أَيْ: يَتَخَرَّجُونَ مِنْ فِعْلِ مَا تَفْعَلُونَهُ، وَمِنْ إِقْرَارِكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ، فَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَصْلَحُونَ لِمَجَاوَزَتِكُمْ فِي بِلَادِكُمْ، فَعَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ، فَدَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَجْبِئْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَدِيرِ﴾ (٥٧)، أَيْ: مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ رِذَاءَ لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَعَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، فَكَانَتْ تَذُلُّ قَوْمَهَا عَلَى ضِيْفَانِ لُوطٍ، لِإِيثَانِ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَاحِشَةَ، تَكْرَمَةُ لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ - لَا كَرَامَةَ لَهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، أَيْ: ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُورٍ﴾ (٥٧) سُوءَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبِيعُونَ ﴿٥٨﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾، أَيْ: الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمُ الْإِنذَارُ، فَخَالَفُوا الرَّسُولَ وَكَذَّبُوهُ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَبِيرٌ ۚ أَمَا يَشْكُرُونَ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْسُوا شَجَرَهَا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ - أَنْ يَقُولَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أَيْ: عَلَى نِعْمِهِ عَلَى عِبَادِهِ، مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَعَلَى مَا أَنْصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْعُلَى وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ، وَهُمْ رُسُلُهُ وَأَنْبِيََاؤُهُ الْكَرَامَ - عَلَيْهِمُ مِنَ اللَّهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - هَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ، وَغَيْرُهُ، إِنَّ الْمُرَادَ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى هُمُ الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٥٩) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٠﴾ وَلِلْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالسَّيِّدِيُّ: هُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ - وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَرُويَ نَحْوُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَلَا مَنَافَةَ، فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَى فَلِأَنْبِيََاءِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى. وَالْقَصْدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ

رسوله ومن اتبعه بعدما ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والثكال والقهر، أن يحمّدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

وقد قال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمار بن صبيح، حدثنا طلق بن عثام، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي - إن شاء الله - عن أبي مالك، عن ابن عباس: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اسْطَفَوْا﴾، قال: هم أصحاب محمد - ﷺ - اصطفاهم الله لينبيّه، رضي الله عنهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: تلك السموات بارفعاها وصفاتها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والقيافي والغفار، والأشجار، والزرع، والثمار والبحار والحيوان، على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أي: جعله رزقاً للعباد، ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَبَابًا﴾، أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي: منظر حسن وشكل بهي، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرًا﴾، أي: لم تكونوا تقيدون على إنبات شجرها. وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ نَّذْرٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ مَوْنِهَا يَقُولُ اللَّهُ﴾ [المعنكوت: ٦٣]، أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾، أي: إله مع الله يُعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرزاق؟! ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل هذا؟ هو يرجع إلى معنى الأول، وأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به. فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير؟ كما قال: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وقوله هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أؤمن بفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، لأن في قوة الكلام ما يُرشد إلى ذلك، وقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَدِيتُ عَائَةَ آلِي سُلَيْمَانَ وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٩]، أي: أؤمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَمُنُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلْفَاسِقِينَ فَلَوْ هُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْ لَكَ فِي صُلْبِكَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٢٣]، أي: أؤمن هو شهيد على أفعال الخلق، حرركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وخفيته، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سُبْحَانَهُ﴾ [الرعد: ٢٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِيَّاهُ

مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا تزجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياء، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً يساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ [غافر: ٦٤]. ﴿وَجَعَلَ خِلَافَهُ أَهْنَكًا﴾، أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالكها، وصرفها فيها، ما بين أنهار كبار وصغار، وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾، أي: جبلاً شامخة تزيي الأرض وتثبتها لئلا تميد لكم، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمتنهما من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الخلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً تسقي الحيوان والنبات والثمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَلْحٌ أجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا رَجِيحًا تَجْرُكُ﴾ [الفرقان: ٥٣]، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾، أي: فعل هذا؟ يُعبد على القول الآخر، وكلاهما متلازم صحيح، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: في عبادتهم غيره.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا

لَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

يُنَبِّه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند التوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُنا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضرر المضرورين سواه.

[٥٠٨٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء، عن أبي تميم الهجيمي، عن رجل من بلهجم قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضرر فدعوتك كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض ففر فدعوتك رد عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوتك أنبت لك. قال: قلت: أوصني. قال: لا تسبب أحداً، ولا تزهدن في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت متبسبط إليه وجهك، ولو أن تفرغ من ذلوك في إناء المستقي، وأتزر إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين. وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة»^(١).

[٥٠٨٧] وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، فذكر اسم الصحابي فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد ابن سلمة، حدثنا يونس - هو ابن عبيد - حدثنا عبيدة الهجيمي، عن أبيه عن أبي تميم الهجيمي، عن جابر بن سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله - ﷺ - وهو محتب بشملة، وقد وقع مذبها على قدميه، فقلت: أيكم محمد؟ أو: رسول الله؟ فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل البادية، وفي جفاؤهم، فأوصني. فقال: لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك متبسبط، ولو أن تفرغ من ذلوك

في إناء المُستقي، وإن امرؤ شَتَمَكَ بما يَعْلَمُ فيكَ فلا تشتمه بما تَعْلَمُ فيه، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وَزْرُهُ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وإن الله لا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ، ولا تَسْبِيحُ أَحَدًا. قال: فما سَبَّيْتُ بَعْدَهُ أَحَدًا، وَلَا شَأْ وَلَا بَعِيرًا^(١). وقد رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ لِهَذَا الْحَدِيثِ طَرَفًا، وَعِنْدَهُمَا طَرَفٌ صَالِحٌ مِنْهُ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم، حدثنا عَبْدَةُ بْنُ نُوحٍ، عن عُمَرَ بْنِ الْحَجَّاجِ، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ طَاوُوسٌ يَعُوذُنِي، فَقُلْتُ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ لِي يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ. فقال: ادْعُ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّهُ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ. وقال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: قَرَأْتُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: بَعِزْتِي إِنَّهُ مِنْ اعْتَصَمَ بِي فَإِنَّ كَادَاتِهِ السَّمَوَاتُ بِمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرْضُ بِمَنْ فِيهَا، فَإِنِّي أَجْعَلُ لَهُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ مَخْرَجًا. وَمَنْ لَمْ يَتَعَصَمَ بِي فَإِنِّي أَخِيفُ بِهِ مَنْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ الْأَرْضُ، فَأَجْعَلُهُ فِي الْهَوَاءِ، فَأَكْلُهُ إِلَى نَفْسِهِ.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رَجُلٍ - حَكَى عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ الدِّيَنُورِيُّ، المعروف بِالذُّقِيِّ الصُّوفِي قَالَ هَذَا الرَّجُلُ: كُنْتُ أَكَارِي عَلَى بَغْلٍ لِي مِنْ دِمَشْقَ إِلَى بَلَدِ الرُّبْدَانِي، فركب معي ذات مَرَّةٍ رَجُلًا، فَمَرَرْنَا عَلَى بَعْضِ الطَّرِيقِ، عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ مَسْلُوكَةٍ، فَقَالَ لِي: خُذْ فِي هَذِهِ، فَإِنَّهَا أَقْرَبُ. فَقُلْتُ: لَا خَيْرَ لِي فِيهَا. فقال: بل هي أَقْرَبُ. فسلكناهما فانتهينا إلى مكانٍ وَغَرَّ وَوَادٍ عَمِيقٍ، وَفِيهِ قَتْلَى كَثِيرٌ. فقال لِي: أَمْسِكْ رَأْسَ الْبَغْلِ حَتَّى أَنْزِلَ، فَتَزَلْ وَتَشْمُرْ، وَجَمْعٌ عَلَيْهِ ثِيَابُهُ، وَسَلَّ سَكِينًا مَعَهُ وَقَصَدَنِي، فَفَرَرْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَتَبَعَنِي، فَنَاشَدَنِي اللَّهُ وَقُلْتُ: خُذِ الْبَغْلَ بِمَا عَلَيْهِ. فقال: هُوَ لِي، وَإِنَّمَا أُرِيدُ تَتَلَّكَ. فَخَوَّفَتُهُ اللَّهُ وَالْعُقُوبَةُ فَلَمْ يَقْبَلْ، فَاسْتَسَلَمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقُلْتُ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتْرُكَنِي حَتَّى أَصْلِيَ رَكَعَتَيْنِ؟ فقال: عَجَلْ. فَقَعْتُ أَصْلِي فَأَزْتَجَّ عَلَيَّ الْقِرَاءُ فَلَمْ يَحْضُرْنِي مِنْهُ حَرْفٌ وَاحِدٌ، فَبَقِيْتُ وَاقِفًا مُتَحِيرًا وَهُوَ يَقُولُ: هَيِّهِ. افْرُغْ. فَأَجَزَى اللَّهُ عَلَى لِسَانِي قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْثِفُ أَشْوَةَ﴾، فَلَمَّا أَنَا بِفَارِسٍ قَدْ أَقْبَلْتُ مِنْ فَمِ الْوَادِي، وَبِيَدِهِ حَرْبَةٌ، فَرَمَى بِهَا الرَّجُلَ فَمَا أَخْطَأَتْ قُوَادَهُ، فَخَرَّ صَرِيحًا، فَتَعَلَّقْتُ بِالْفَارِسِ وَقُلْتُ: بِاللَّهِ مَنْ أَنْتَ؟ فقال: أَنَا رَسُولُ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْثِفُ السَّوءَ. قال: فَأَخَذْتُ الْبَغْلَ وَالْحِمْلَ وَرَجَعْتُ سَالِمًا^(٢).

وذكر في ترجمة «فَاطِمَةُ بِنْتُ الْحَسَنِ أُمُّ أَحْمَدَ الْعِجْلِيلِيَّةِ»، قَالَتْ: هَزَمَ الْكُفَّارُ يَوْمًا الْمُسْلِمِينَ فِي غَزَاةٍ، فَوَقَفَ جَوَادٌ جَيِّدٌ بِصَاحِبِهِ، وَكَانَ مِنْ ذَوِي الْيَسَارِ وَمِنَ الصَّالِحَاءِ، فَقَالَ لِلْجَوَادِ: مَا لَكَ؟ وَتِلْكَ! إِنَّمَا كُنْتُ أَجِدُكَ لِمَثَلِ هَذَا الْيَوْمِ. فقال له الجواد: وما لي لا أَقْصُرُ وَأَنْتَ تَكْبُلُ عَلَوفَتِي إِلَى السُّوَّاسِ فَيُظْلِمُونَنِي وَلَا يُطْعِمُونَنِي إِلَّا الْقَلِيلَ؟ فقال: لَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ أَنِّي لَا أَغْلِبُكَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَّا فِي جِجْرِي. فَجَرَى الْجَوَادُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَتَجَّى صَاحِبُهُ، وَكَانَ لَا يَعْلَمُهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا فِي جِجْرِهِ. وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَجَعَلُوا يَقْصِدُونَهُ لِيَسْمَعُوا مِنْهُ ذَلِكَ، وَبَلَغَ مَلِكُ الرُّومِ أَمْرَهُ، فَقَالَ: مَا تَضَامُ بِلَدَةٍ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ فِيهَا. وَاحْتَالَ لِيُحْصِلَهُ فِي بِلَدِهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلًا مِنَ الْمُرتَدِّينَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ أَظْهَرَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ فِي الْإِسْلَامِ وَقَوْمِهِ، حَتَّى اسْتَوْثَقَ، ثُمَّ خَرَجَا يَوْمًا يَمْشِيَانِ عَلَى جَنْبِ السَّاحِلِ، وَقَدْ وَعَدَ شَخْصًا آخَرَ مِنْ جِهَةِ مَلِكِ الرُّومِ لِيَسَّاعِدَا عَلَى أَمْرِهِ، فَلَمَّا اكْتَنَفَاهُ لِيَأْخُذَاهُ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنَّهُ إِنَّمَا خَدَعَنِي بِكَ فَافْكَنِيهِمَا بِمَا شِئْتَ. قال: فَخَرَجَ سَبْعَانِ إِلَيْهِمَا فَأَخَذَاهُمَا، وَرَجَعَ الرَّجُلُ سَالِمًا.

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٠٨٤ والنسائي في «الكبرى» ٩٦٩٤ و٩٦٩٦ وأحمد ٦٤/٥ وابن حبان ٥٢١ وقد سقط من «المسند» اسم الصحابي وسند أبي داود جيد.

(٢) هذا خبر ليس بشيء، فإن صاحب هذا الخبر لم يسم ولا يعرف، فهو لا شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أي: يُخْلَفُ قَرْنًا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وَخَلَفًا لِسَلَفٍ، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدَوِّبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قلدنا تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم. ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ، بل لو شاء لَخَلَقَهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ. ولو شاء أن يَجْعَلَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، ولكن لا يُمِيتُ أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذراهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأماً بعد أمة، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدهم عدداً، ثم يُقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾، أي: يقدر على ذلك، إله مع الله يُعْبَدُ؟ وقد علم أن الله هو الْمُتَقَرَّدُ بفعل ذلك ﴿فَلَيْسَ مَا تَدَّكُرُونَ﴾، أي: ما أَقَلَّ تَذَكُّرَهُمْ فيما يرشدكم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المُسْتَقِيمِ.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يقول ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾، أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُم مَّا يُغْتَمِرُونَ﴾ [النحل: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ لِيَسْمَعُوا بِمَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]... الآية. ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يُغِيثُ به عِبَادَهُ الْمُجْدِبِينَ الْأَرْلِينَ^(١) الْقَنْطَلِينَ، ﴿أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿٦٤﴾

أي: هو الذين بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [الفرقان: ٢٦] ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعْدُ﴾ [الروم: ١٢-١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّدَاتِ ذَاتِ الْأَرْحَامِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنْعِ﴾ [الطارق: ١١-١٢]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَلِيجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ [سبا: ٢]. فهو - تبارك وتعالى - يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبْرَكاً فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والشمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ﴾ [طه: ٥٤]، ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾، أي:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمُ فِي
الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿

[٥٠٨٨] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن داود ابن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: مَنْ رَعِمَ أنه يَعْلَمُ - تعني النبي - ﷺ - ما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفِرْيَةُ، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١). وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم ثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهتَدَى بها، وجعلها رجوماً فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال براهيه، وأخطأ خطه، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا عِلْمَ له به. وإن ناساً جهَلَهُ بأمر الله، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أغرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن وُلِدَ بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ولَعَمْرِي ما من نجم إلا يُؤَلَّدُ به الأحمر والأسود، والقصير والطويل، والحسن والدميم، وما عِلْمُ هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب! وقضى الله تعالى أنه ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾. رواه ابنُ أبي حاتم عنه بحروفيه، وهو كلامٌ جليلٌ متينٌ صحيحٌ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: انتهى عِلْمُهُمْ وَعَجَزَ من مَعْرِفَةِ وقتها. وقرأ آخرون: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ﴾، أي: تَسَاوى عِلْمُهُمْ في ذلك.

[٥٠٨٩] كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله - ﷺ - قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(٢). أي: تساوى في العجز عن ذلك ذلك علم المسؤول والسائل. قال عليّ ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: «بل أدرك علمهم في الآخرة»، أي: غاب. وقال قتادة: «بل أدرك علمهم في الآخرة»، يعني بجهلهم ربهم، يقول: لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم. هذا قول. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني عن ابن عباس: «بل أدرك علمهم في الآخرة»، حين لم ينفع العلم. وبه قال عطاء الخراساني، والسدّي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ يَوْمَ وَأَبْيَرِ يَوْمَ

(١) حسن، إسناده غير قوي لأجل أبي جعفر الرازي، لكن أصله في الصحيحين، وسيأتي في سورة لقمان.

(۲) هو بعض حدیث سؤالات جبریل، وقد تقدم مراراً.

يَأْتُونَنَا لَكِنِ الْفَالِثُونَ الْيَوْمَ فِي صَلَاحٍ مُبِينٍ ﴿٦٨﴾ [مریم: ٣٨]. وقال سفيان، عن عمرو بن عبَّيد، عن الحسن أنه كان يقرأ: «بَلِ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ»، قال: اضمحلَّ عِلْمُهُمْ في الدنيا حين عاينوا الآخرة.

وقوله تعالى: «بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا»، عائدٌ على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: «وَعَرِضْهُمَا عَلَى رَبِّكَ صَمًا لَقَدْ جِئْتُمُوهُمَا كَمَا خَلَقْتُهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَحْمِلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٦٨﴾» [الكهف: ٤٨]، أي: الكافرون منهم. وهكذا قال هاهنا: «بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا»، أي: شاكون في وجودها ووقوعها، «بَلِ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ»، أي: في غماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا إِنَّا لَمَخْرُجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورُفَاتاً وتُراباً، ثم قال: «لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ»، أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً. وقولهم: «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان «إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، أي: أخذَه قومٌ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ من كُتُبٍ يتلقاها بعضٌ عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنَّوه من الكفر وعدم المَعَاد: «قُلْ» - يا مُحَمَّد - لهؤلاء: «سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ»، أي: المُكذِّبين بالرسول وما جاؤوهم به من أمر المَعَاد وغيره، كيف حَلَّتْ بِهِمْ نَقْمُ الله وعذابه ونكاله، ونَجَّى اللهُ مِنْ بَيْنِهِمْ رُسُلَهُ الكرامَ ومن اتَّبَعَهُم من المؤمنين، فَذَلَّ ذلك على صِدْقِ ما جاءت به الرسلُ وصِحَّتِهِ. ثم قال تعالى مُسَلِّياً لِنَبِيِّهِ - صلواتُ الله وسلامه عليه - «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، أي: المُكذِّبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات «وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ»، أي: في كَيْدِكَ وَرَدِّ ما جئت به، فإن الله مُؤَيِّدٌ وناصرٌ، ومُظهِرٌ دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾»، قال الله تعالى مجيباً لهم: «قُلْ» - يا مُحَمَّد - «عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ». قال ابن عباس: عَسَى أن يكون قُرْب - أو: أن يقرب - لكم بعض الذي تَسْتَعْجِلُونَ. وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي. وهذا هو المراد بقوله تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا» [الإسراء: ٥١]. وقال تعالى: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ جَهَنَّمَ لَنُحِيطَ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾» [العنكبوت: ٥٤]. وإنما دخلت «اللام» في قوله: «رَدِفٌ لَكُمْ»، لأنه ضَمْنٌ معنى عَجَل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه: «عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ»: عَجَل لكم.

ثم قال الله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ»، أي: في إسباغ نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، «وَلَوْ أَنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾»، أي: يعلم

السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، ﴿سَوَاءٌ يَسْكُرَ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠] ﴿يَعْلَمُ الْبَاطِنَ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَغْشُونَ بِبَاهِهِمْ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ وَمَا يَحْكُمُونَ﴾ [هود: ٥٥]. ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال: ﴿وَمَا يَنْظُرُونَ﴾، قال ابن عباس: يعني وما من شيء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ﴾ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْقَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨١)

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيّنات والفرقان: أنه يَفُصُّ على بني إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل - ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كاختلافهم في عيسى وتبائينهم فيه، فاليهود افتتروا، والنصارى غلّوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبدٌ من عباد الله وأنبيائه ورسوله الكرام - عليهم الصلاة والسلام - كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم في العمليّات. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، أي في جميع أمورك، وبلغ رسالة ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك من كُتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، أي: لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فذلك هو لاء على قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وقْر الكفر، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ﴾ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْقَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨١)، أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة الخاضع لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتزكهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق؛ يخرج الله لهم دابةً من الأرض - قيل: من مكة. وقيل: من غيرها. كما سيأتي تفصيله - إن شاء الله تعالى - فتكلم الناس على ذلك. قال ابن عباس، والحسن، وقائدة - وروي عن علي رضي الله عنه -: تكلمهم كلاماً، أي: تُخاطبهم مخاطبة. وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يؤقنون. ويروى هذا عن علي، واختاره ابن جرير. وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم. وقال ابن عباس - في رواية -: تجرحهم. وعنه رواية، قال: كلاً تفعل. يعني هذا وهذا، وهو قول حسن، ولا منافاة، والله أعلم. وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة، فلنذكر ما تيسر منها، والله المستعان:

[٥٠٩٠] قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن قرات، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله - ﷺ - من غرقه ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: لا تقوم الساعة حتى تزوا عشر

آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وناز تخرج من قعر عدن تسوق - أو: تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا^(١). وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، من طرق، عن فزات القزاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة به مرفوعاً، وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز بن رفيع، عن أبي الطفيل، عنه موقوفاً^(٢)، والله أعلم.

[٥٠٩١] طريق أخرى، قال أبو داود الطيالسي، عن طلحة بن عمرو، وجريير بن حازم، فأما طلحة فقال: أخبرني عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي: أن أبا الطفيل حدثه، عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريخة. وأما جريير فقال: عن عبد الله بن عبيد، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود - وحديث طلحة أتم وأحسن - قال: ذكر رسول الله - ﷺ - الدابة فقال: «لها ثلاث خراجات من الدهر، فتخرج خزجة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم تخرج خزجة أخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية - يعني مكة - قال رسول الله - ﷺ - : ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرامها: المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي تزغهم بين الركن والمقام، تنفض عن رأسها الثراب. فافرض الناس عنها شتى ومعاً، وبقيت عصابة من المؤمنين، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فبدأت بهم فجالت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّي، وولت في الأرض لا يدركها طالع، ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة، فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان، الآن تصلي؟! فيقبل عليها فتسببه في وجهه. ثم تنطلق ويترك الناس في الأموال، ويضطجعون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن ليقول: يا كافر، اقضني حقي^(٣). وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن، اقضني حقي. ورواه ابن جريير من طريقين، عن حذيفة بن أسيد موقوفاً. فله أعلم. وزواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم، وهو يطوف بالبيت، ولكن إسناده لا يصح.

[٥٠٩٢] حديث آخر، قال مسلم بن الحجاج: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن بشر، عن أبي حيان، عن أبي زرعة، عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله - ﷺ - حديثاً لم أُنس به بعد: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن أول آيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبها، فالأخرى على إثرها قريباً»^(٤).

[٥٠٩٣] حديث آخر، روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب - مولى الحرقة - عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «بادرُوا بالأعمال سباً: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة»^(٥). تفرد به.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠١ وأبو داود ٤٣١١ والترمذي ٢١٨٣ وابن ماجه ٤٠٤١ وأحمد ٦/٤ و٧ وابن حبان ٦٨٤٣.

(٢) الموقوف لا يعمل المرفوع. لأن المرفوع إسناده صحيح. فيكون زيادة ثقة، وهي مقبولة. ثم إن الموقوف لا يقال مثله بالرأي. والله أعلم.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٥٨.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٤٧ ح ١٢٨ وأحمد ٣٣٧/٢.

[٥٠٩٤] وله من حديث قتادة، عن الحسن، عن زياد بن رباح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة وخويصة أحدكم»^(١).

[٥٠٩٥] حديث آخر، قال ابن ماجه: حدثنا حزملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث وابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة»^(٢). تفرد به.

[٥٠٩٦] حديث آخر، قال أبو داود الطيالسي أيضاً: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أوس بن خالد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «تخرج دابة الأرض، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتجلي وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر»^(٣).

[٥٠٩٧] ورواه الإمام أحمد، عن بهز وعفان وي زيد بن هارون، ثلاثهم عن حماد بن سلمة، به، وقال: «فتخطم أنف الكافر بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان الواحد ليختيمون فيقول هذا: يا مؤمن. ويقول هذا: يا كافر. ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد المؤدب، عن حماد بن سلمة، به»^(٤).

[٥٠٩٨] حديث آخر، قال ابن ماجه: حدثنا أبو عسان محمد بن عمرو، حدثنا أبو ثميلة، حدثنا خالد بن عبيد، حدثنا عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: ذهب بي رسول الله - ﷺ - إلى موضع بالبادية، قريب من مكة، فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله - ﷺ -: «تخرج الدابة من هذا الموضع، فإذا فتر في شبر. قال ابن بريدة: فحججته بعد ذلك بسنين فأرانا عصا له، فإذا هو بعصاي هذه، كذا وكذا»^(٥).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة أن ابن عباس قال: هي دابة ذات زغب، لها أربع قوائم، تخرج من بعض أودية تهامة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية قال: قال عبد الله: تخرج الدابة من صدع من الصفا كجزى الفرس ثلاثة أيام، لم يخرج ثلثها.

وقال محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح قال: سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة، فقال: الدابة تخرج

(١) أخرجه مسلم ٢٩٤٧ وأحمد ٣٢٤/٢ و٤٠٧ وابن حبان ٦٧٩٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٥٦ وفيه سنان بن سعد، وهو ضعيف لكن لحديثه شواهد كما ترى يحسن بها.

(٣) أخرجه الطيالسي ٢٥٦٤ وإسناده ضعيف، وانظر ما بعده.

(٤) ضعيف. أخرجه أحمد ٢٩٥/٢ - ٢٩٦ - ٤٩١ والترمذي ٣١٨٧ وابن ماجه ٤٠٦٦ والحاكم ٤٨٥/٤ من حديث أبي هريرة، حسنه الترمذي! وسكت عليه الحاكم، وكذا الذهبي، وإسناده ضعيف، له علتان: أوس بن خالد ضعيف الحديث كما في الميزان، وفي التقريب: مجهول. وعنه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في التقريب، والمتن غريب.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٤٠٦٧، وإسناده ضعيف جداً. قال البوصري في «زوائد ابن ماجه»: هذا إسناد ضعيف، لأن خالد بن عبيد، قال البخاري: في حديثه نظر. وقال ابن حبان والحاكم: يحدث عن أنس بأحاديث موضوعة اهـ وقال عنه الحافظ في التقريب: متروك الحديث مع جلالة.

من تحت صَخْرَةٍ بِجَيْادٍ، والله لو كنْتُمْ مَعَهُمْ - أو لو شِئْتُ لَفَرَعْتُ بِعَصَاي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها. قيل: فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو؟ قال: تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل اليمين فتصرخ صرخة تنفذه. ثم تروّح من مكة فتصبح بغسفان. قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم لا أعلم.

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: تخرج الدابة ليلة جمع. رواه ابن أبي حاتم. وفي إسناده ابن أبي حاتم. وعن وهب بن مثنبه: أنه حكى من كلام غزير عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس، كل يسمعها، وتضع الحبالى قبل الثمام، ويعود الماء العذب أجاباً ويتعادي الأجلاء، وتحرق الحكمة، ويرفع العلم، وتكلم الأرض التي تليها. وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يملعون، ويتبعون فيما لا يتألون، ويعملون فيما لا يأكلون. رواه ابن أبي حاتم، عنه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثني معاوية بن صالح، عن أبي مريم: أنه سمع أبا هريرة - رضي الله عنه - يقول: إن الدابة فيها من كل لون، ما بين قرنها فرسخ للراكب. وقال ابن عباس: هي مثل الحربة الضخمة. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: إنها دابة لها ريش وزعج وحافر، وما لها ذنب، ولها لحيّة، وإنها لتخرج خضر الفرس الجواد ثلاثاً، وما خرج ثلاثها. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جريج، عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعام، وصدرها صدر أسد، ولونها لون ثور، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعضا موسى نكتة بيضاء، فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتة حتى يسود لها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن بكم ذا يا كافر وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابة: يا فلان، أبشر، أنت من أهل الجنة؟ ويا فلان، أنت من أهل النار^(١). فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَاذِبُونَ﴾. ﴿٨٣﴾

﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ حَقَّ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِهِمْ فِيهِمْ وَأَلَنَاهَا مُبَصَّرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وخشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله - عز وجل - ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقرعاً وتوبيخاً، وتصفيراً وتحقيراً فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾، أي: من كل قوم وقرن فوجاً أي: جماعة، ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَرْجُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. [الصافات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يذفعون، وقال قتادة: وزعة ترد أولهم

على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يُساقون . ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ ، أي : أوقفوا بين يدي الله - عز وجل - في مقام المُساءلة ، ﴿قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِمَا أَنَا فِيهِ﴾ ، أي : فیسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿فَلَا سَعْدَ وَلَا سَلَٰٓةَ ۖ وَلَٰكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿٣١﴾ [القيامة : ٣١ - ٣٢] ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذِنُهُمْ فَتَئِذٍ هُمْ كَالْخِرَافَةِ الضَّالَّةِ ﴿٣٦﴾ وَلَا يُؤْمِرُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ [المرسلات : ٣٥ - ٣٧] وهكذا قال هاهنا : ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ ، أي بهتوا ، فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد رُدُّوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى مُنبِّهاً على قدرته الثَّامَةِ ، وسلطانه العَظِيمِ ، وشأنه الرَفِيعِ ، الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه ، فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَرَوُنَا جَعَلْنَا لَئِيلَ لَيْسَ كُنُوزًا فِيهِ﴾ ، أي : فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم وتهاد أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم . ﴿وَالنَّهَارَ مُبْغِرًا﴾ ، أي : مُبْغِرًا مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنْتَهِ دَخِرِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُورُ مَرَّ السَّحَابِ صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

يُخبر تعالى عن هَوَلِ يوم نَفْخَةِ الْفَرْعِ في الصُّور ، وهو كما جاء في الحديث :

[٥٠٩٩] ﴿قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ﴾^(١) .

[٥١٠٠] وفي حديث «الصُّور»^(٢) أن إسرَافيل هو الذي يَنْفُخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نَفْخَةً الْفَرْعَ وَيُطَوِّلُهَا ، وذلك في آخر عُمْر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السموات وَمَنْ في الأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ، وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يُرْزَقُونَ .

[٥١٠١] قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بن مُعَاذِ الْعَنْبَرِيِّ ، حدثنا أَبِي ، حدثنا شُعْبَةُ ، عن الثَّعْمَانِ بن سَالِمٍ : سَمِعْتُ يَعْقُوبَ بن عَاصِمٍ بن عُرْوَةَ بن مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بن عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ؟ تَقُولُ : إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ ! - أَوْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا - لَقَدْ هَمَمْتُ إِلَّا أَحَدْتُ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا ، إِنَّمَا قُلْتُ : إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا ، يُخَرِّقُ الْبَيْتَ ، وَيَكُونُ وَيَكُونُ . ثُمَّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : يَخْرُجُ الدُّجَالُ فِي أَمْتِي فَيَمُكُّ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ . ثُمَّ يَمُكُّ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ

(١) تقدم تخريجه ، وهو حديث حسن صحيح .

(٢) تقدم الكلام عليه باستيفاء ، والله الموفق .

أَنْ أَحَدَهُمْ دَخَلَ فِي كَبِدٍ جَبَلٍ لَدَخَلْتَهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ. قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: فَيَقْبِضُ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارُ رِزْقِهِمْ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ. ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا. قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ. قَالَ: فَيَضَعُ وَيَضَعُ النَّاسُ، ثُمَّ يَرْسُلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ: الظَّلُّ - نِعْمَانُ الشَّاكِّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُلُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، وَفَقُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ. ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ الثَّارَ. فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تَسَعِمَةُ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمٌ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ^(١). وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا»، اللَّيْتُ: هُوَ صَفْحَةُ الْعُنُقِ، أَي: آمَالُ عُنُقِهِ لِيَسْمِعَهُ مِنَ السَّمَاءِ جِدًا. فَهَذِهِ نَفْخَةُ الْفَرْعِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الصُّعْقِ، وَهُوَ الْمَوْتُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ النُّشُورُ مِنَ الْقُبُورِ لَجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَكُلُّ أُنْفُثَ دَخِيرِينَ» - قُرِءَ بِالْمَدِّ، وَبِغَيْرِهِ عَلَى الْفَعْلِ، وَكُلٌّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ - وَ«دَخِيرِينَ»، أَي: صَاغِرِينَ مُطِيعِينَ، لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنْ أَمْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» [الإسراء: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» [الروم: ٢٥].

[٥١٠٢] وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ: أَنَّهُ فِي النَفْخَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ، فَتَوْضِعُ فِي نَقَبٍ فِي الصُّورِ، ثُمَّ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِيهِ بَعْدَمَا تَنْبُتُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا وَأَمَاكِنِهَا. فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ طَارَتِ الْأَرْوَاحُ، تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ نُورًا، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ ظُلْمَةً، فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجَعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا. فَتَجِيءُ الْأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا، فَتَدْبُثُ فِيهَا كَمَا يَدْبُثُ السُّمُّ فِي اللَّدِيغِ، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيَنْفُضُونَ التُّرَابَ مِنْ قُبُورِهِمْ^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَكًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُرٍ مُوَقَّضُونَ» [المعارج: ٤٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَرَوَى الْجِبَالُ تَحْصِيًا جَائِدَةً وَهِيَ تُرْمَرُ مَرَّ السَّحَابِ»، أَي: تَرَاهَا كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، هِيَ تُرْمَرُ مَرَّ السَّحَابِ، أَي: تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا» [٩] وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا» [١٠] [الطور: ٩-١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَتَّكُلُوكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا» [١٥] فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا» [١٦] «لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» [طه: ١٠٥-١٠٧]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ نَسِيرًا وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» [الكهف: ٤٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «سُئِلَ اللَّهُ أَلَّذِي أَنْفَعَ كُلَّ شَيْءٍ»، أَي: يَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّذِي قَدْ أَنْقَضَ كُلَّ مَا خَلَقَ، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا أَوْدَعَ، «إِنَّهُمْ خَيْرٌ مِمَّا تَفَعَّلُونَ»، أَي: هُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا» [١٧] قَالَ قَتَادَةُ: بِالْإِخْلَاصِ. وَقَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ: هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَدْ بَيَّنَّ فِي الْمَكَانِ الْآخِرِ أَنَّ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا. «وَمَنْ بَيَّنَّ يَوْمَئِذٍ عَمِلُونَ»، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْآخِرَى: «لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ» [الأنبياء: ١٠٣]، وَقَالَ تَعَالَى: «أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَمَةِ» [نصفت: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: «وَهُمْ فِي الْفِرْدَوْسِ عَامِثُونَ» [سبا: ٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَنْ جَاءَ بِالْأَسْفَةِ فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ»، أَي: مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسِينًا لَا حَسَنَةَ لَهُ، أَوْ: قَدْ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٤٠ والنسائي في «الكبرى» ١١٦٢٩ وأحمد ١٦٦/٢ وابن حبان ٧٣٥٣.

(٢) تقدم تخريجه باستيفاء.

رَجَحَتْ سِيئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، كُلُّ بِحْسَبِهِ. ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تُحْزِنُوكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - وأنس بن مالك، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، والزهرري، والسدي، والضحاك، والحسن، وقتادة، وابن زيد، في قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾، يعني: بالشرك.

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
 ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ
 لِحَمْدِ اللَّهِ سَبِّحُوكُمْ عَابِدِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى مخبراً رسولَه وأمرأله أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، كما قال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَكَّلُكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]. وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَلَدِ﴾ [الذات أطمعهم من جوعهم وأمنهم من خوفهم] ﴿٩٢﴾ [قرش: ٣-٤]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾، أي: الذي إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً بتحريمه لها.

[٥١٠٣] كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - يوم فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُغْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْقَرُ صِيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا لِمَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا»^(١). . . الحديث بتمامه. وقد ثبت في الصحاح والحيسان والمسانيد من طرق جماعية تفيد القطع، كما هو مبين في موضعه من «كتاب الأحكام»، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو، ﴿وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: المؤخدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له. وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾، أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]. وكقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ يَرَوْنَ﴾ [يوسف: ٢٣]. أي: أنا مبلغ ومُنذِر، ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، أي: لي سوية الرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله تعالى. كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَلِكَ الْبَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَقُلِ لِحَمْدِ اللَّهِ سَبِّحُوكُمْ عَابِدِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا﴾، أي: الله الحمد الذي لا يُعَذَّبُ أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَبِّحُوكُمْ عَابِدِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ عَابِدِيهِمْ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بل هو شهيد على كل شيء.

[٥١٠٤] قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي عمر الحَوْضِيِّ حفص بن عمر: حدثنا أبو أمية بن يعلى

الثَّقَفِي، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَغْتَرُّ أَحَدُكُمْ بِاللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ غَافِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ الْبَعُوضَةَ وَالْخَرْدَلَةَ وَالذَّرَّةَ»^(١). وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، قَالَ أَبِي: أَخْبَرَنِي خَالِدُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ مَطَرٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: فَلَوْ كَانَ اللَّهُ مُغْفِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ مَا تَعْفِي الرِّيحُ مِنْ أَثَرِ قَدَمِي ابْنِ آدَمَ. وَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ كَانَ يُنْشِدُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، إِمَّا لَهُ أَوْ لغيره:

إِذَا مَا خَلَوْتُ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَخْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفِلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغْيبُ

آخر تفسير سورة النمل، والله الحمد والمنة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً، وهو بصيغة التمرّض، فالخير وإي من جهة إسناده.

فهرس المحتويات

٥ سورة الحجر
٢٨ سورة النحل
٧٣ سورة الإسراء
١٧٥ سورة الكهف
٢٣٢ سورة مريم
٢٧٦ سورة طه
٣١٩ سورة الأنبياء
٣٦٣ سورة الحج
٤١٥ سورة المؤمنون
٤٤٩ سورة النور
٥٢١ سورة الفرقان
٥٥٤ سورة الشعراء
٥٨٨ سورة النمل